

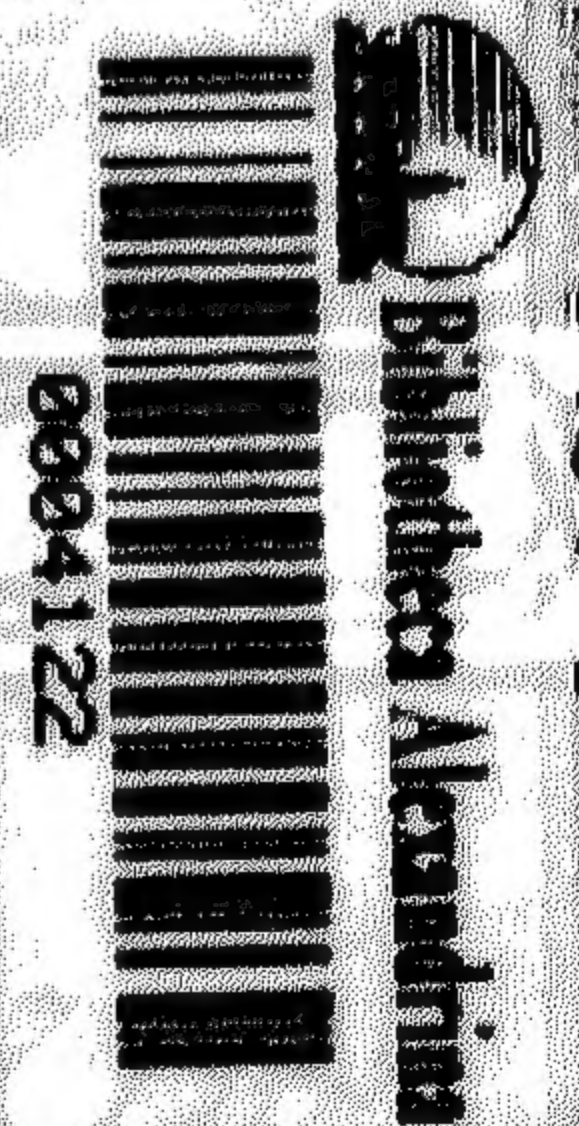
قيام دول المغربين

صفحة مشرقة من تاريخ المغرب
في العصور الوسطى



دار الفكر العربي

سن أحمد محمود



قِيَامُ دَوْلَةِ الْمُرَاطِبِينَ

صفحة مشرقة من تاريخ المغرب
في العصور الوسطى

تأليف

الدكتور حسن أحمد محمود

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب
جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
١١ شارع مرادى - القاهرة
م. ب. ٣٠١٣٠ - ٧٦٠٥٢٣ - ٧٥٠١٦٧

محتويات الكتاب

صفحة	مقدمة
١١ — ١	
١٠٠ — ١٢	الباب الأول : بلاد المغرب الأقصى قبيل قيام الدولة
١٣ — ١٢	١ — بلاد المغرب بينات ثلاث
	٢ — ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها
١٦ — ١٣	في تاريخه
٢٤ — ١٦	٣ — جغرافية المغرب الأقصى
٢٨ — ٢٤	٤ — الحياة القبلية في المغرب الأقصى
٣٣ — ٢٨	٥ — شعوب البتر والبرانس
٣٤ — ٣٣	٦ — قبائل البتر ومضاربهم
٣٥ — ٣٤	٧ — المصامدة
٣٩ — ٣٥	٨ — قبائل البرانس ومضاربهم
٥٩ — ٣٩	٩ — قبائل الملتمين مؤسسة الدولة
٧٥ — ٥٩	١٠ — دور للملتمين في تاريخ الإسلام
٨٦ — ٧٥	١١ — ظهور الزناتيين في المغرب الأقصى
٩٠ — ٨٦	١٢ — اضطراب الأحوال الاقتصادية
٩٠ — ٩٠	١٣ — انتصار المالكية على الشيعة
١٨٥ — ١٠١	الباب الثاني : توحيد صنهاجة — الدور الصحراوي
١٠٤ — ١٠١	١ — إخفاق الحلف الصنهاجي الثاني
١١٣ — ١٠٤	٢ — اختيار عبد الله بن ياسين
١١٧ — ١١٣	٣ — التعريف بعبد الله بن ياسين

- ٤ — عبد الله بن ياسين في ديار لمتونة ١١٧ — ١٢٤
- ٥ — انتهاء الدور السلبي من رسالة عبد الله ١٢٢ — ١٢٧
- ٦ — حركات المرابطة في بلاد المغرب ١٢٧ — ١٤٠
- ٧ — حياة المرابطين في رباط السنغال ١٤٠ — ١٤٥
- ٨ — خروج المرابطين من رباط السنغال ١٤٥ — ١٥٥
- ٩ — سياسة عبد الله في تحقيق أهدافه ١٥٥ — ١٥٩
- ١٠ — أسس دعوة عبد الله ١٥٩ — ١٨٥

الباب الثالث : الدور المغربي ١٨٦ — ٢٣٠

- ١ — أهمية الدور المغربي في تاريخ المرابطين ١٨٦ — ١٨٨
- ٢ — أسباب فتح المغرب ١٨٨ — ١٨٩
- ٣ — العوامل التي تحمكت في زحف المرابطين إلى المغرب ١٨٩ — ١٩١
- ٤ — تاريخ بدء تدفق المرابطين ١٩١ — ١٩٣
- ٥ — النزاع بين البرانس والبتر ١٩٣ — ٢٠٧
- ٦ — تعاليم ابن ياسين وأثرها في فتح المغرب ٢٠٧ — ٢١٤
- ٧ — العامل الاقتصادي وأثره في فتح المغرب ٢١٣ — ٢١٦
- ٨ — العامل الجغرافي وأثره في فتح المغرب ٢١٦ — ٢١٩
- ٩ — ظهور يوسف بن تاشفين ٢١٩ — ٢٣٠

الباب الرابع : الدور الأندلسي ٢٣١ — ٣٢٤

- ١ — انصراف الطاقة إلى معركة الجهاد ٢٣١ — ٢٣٤
- ٢ — الدوافع التي أذكت رغبة المرابطين في الجهاد ٢٣٤ — ٢٦١

(هـ)

صفحة

- ٣ — استدعاء المرابطين للجهاد في الأندلس ٢٦١—٢٦٨
- ٤ — الدور الأول من أدوار الجهاد في الأندلس :
فكرة الجبهة المتحدة ٢٦٩—٢٩٦
- ٥ — الدور الثاني من أدوار الجهاد في الأندلس :
التدخل المباشر ٢٩٧—٣٠٦
- ٦ — الجهاد في شرق الأندلس :
يوسف والقمبياطور ٣٠٦—٣٢١
- ٧ — أثر معركة الجهاد في تأكيد قيام الدولة ٣٢٢—٣٢٤
- الباب الخامس : نتائج قيام دولة المرابطين ٣٢٥—٤٥٣
- ١ — أثر قيام الدولة في الأوضاع السياسية ٣٢٥—٣٣٧
- ٢ — « » « » « » « » نظم الحكم ٣٣٧—٣٧٥
- ٣ — « » « » « » « » النظم الحربية ٣٧٥—٣٩٨
- ٤ — « » « » « » « » الحياة الاقتصادية ٣٩٩—٤١٣
- ٥ — « » « » « » « » الحياة الاجتماعية ٤١٣—٤٢٤
- ٦ — « » « » « » « » حضارة المغرب والأندلس ٤٢٤—٤٥٣

٤٤٥

٤٦٥

٤٧٦

ملاحق

مراجع الكتاب

كشاف



مقدمة المؤلف

لعب المغرب في تاريخ الإسلام دوراً رائعاً ، فقد أصبح بنوه بعد أن أسلموا ، وحسن إسلامهم ، من أشد جند الإسلام إخلاصاً ، وأوفرهم حمساً لخدمة هذا الدين ، ورفع لوائه ، والدفاع عنه ، فقد فتحوا الأندلس ، وبسطوا ظل الإسلام حتى كاد يتخطى جبال البرانس ، وناوشوا الفرنجة في البر والبحر ، ووقفوا لهم بالمرصاد و زادوا عن حياض الإسلام بقدر ما وسعهم من قوة ، وتألّق نجم أبطاله وأنجاده في سماء الجهاد ، حتى اقترنت أسماؤهم بأسماء السلف الصالح ، صدق في الجهاد وإخلاص للعقيدة . وقد أسهمت مدارس المغرب والأندلس في بناء صرح الحضارة الإسلامية ، وأصبحت مدارس القيروان ، وقرطبة ، وفاس ينابيع متفجرة بالثقافة الإسلامية .

وبرغم ذلك كله ، لم تظفر الدراسات المغربية من الباحثين العرب بما تستحقه من عناية واهتمام ، وخلا الميدان أمام الفرنسيين ، فبعثوا تراث المغرب ، وأرخوا لشعوبه ، وكشفوا النقاب عن جوانب من حضارته ، ونشروا كثيراً من المخطوطات التي ظلت دهوراً طويلاً حبيسة في مكتبات المغرب الأقصى .

ومن حسن الحظ ، أن مصر أخذت في السنوات الأخيرة تقدر ما للدراسات المغربية الأندلسية من أهمية وخطر ، وبدأت تقدر الدور الذي لعبه المغاربة في تاريخ الحضارة الإسلامية . وكانت كلية الآداب بجامعة القاهرة سباقة في هذا المضمار ، إذ وجهت بعض طلاب قسم التاريخ هذه الوجهة ، وشجعتهم على ارتياد هذا الميدان ومحاولة كشف النقاب عن هذا التراث المجيد ، وبلغ الاهتمام بالدراسات المغربية الأندلسية مداه في السنوات الأخيرة .

وقد كنت أحد من اتجهوا هذه الوجهة ، وفرغوا لدراسة تاريخ المغرب وحضارته ، فأعددت بحثاً عام ١٩٤٨ موضوعه « تاريخ بني زيري وسياساتهم الداخلية » . وقد رأيت إتماماً للفائدة ، أن أنصرف إلى الدراسات المغربية ، لأنها تعد بحق ناحية من نواحي التاريخ الإسلامي ، كانت ولا تزال بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث ، لبيان الحقائق الغامضة في تاريخ هذا الجزء من العالم الإسلامي الذي قام بدور هام في تاريخ الحضارة الإسلامية .

وإذا كنت في بحثي السابق قد أرخت لقبيلة صنهاجة الشمال ، الضاربة في الجزائر وتونس ، والتي أسست دولة بني زيري ، وكانت ساعد الفاطميين الأيمن في نضالهم من أجل السيادة على المغرب ، فقد رأيت أن أوجه عنايتي في هذا البحث إلى فرع آخر من هذا الشعب العظيم ، الذي ينزل في صحراء المغرب ، وتمتد دياره حتى تصاقب نهري السنغال والنيجر ، وبذلك أكون قد أسهمت في الإحاطة بتاريخ شعب صنهاجة ، الذي لعب دوراً ممتازاً في تاريخ المغرب الإسلامي في العصور الوسطى .

وقد آثرت أن أؤرخ لدولة المرابطين ، التي أقامت صرحها قبيلة صنهاجة الجنوب ، والتي لعبت في التاريخ الإسلامي دوراً رائعاً ، ونشرت الإسلام في ربوع السودان الغربي ، وبنّت الثقافة الإسلامية بين الشعوب الزنجية ، ثم توسعت صوب الشمال ، فافتحمت ميدان المغرب والأندلس ، وشاركت في معركة الجهاد ، فأنقذت الإسلام مما كان يوشك أن يتردى فيه ، وناصبت الفرنجة العداء ، وجندت المجتمع كله لصد عدوانهم ، حتى روت دماء أهل المغرب بطاح الأندلس وسجل التاريخ أسماء أبطال المرابطين ، وفرسانهم في سجل الخالدين ، وأصبح اسم يوسف بن ناشفين فاتح الأندلس ، وقاهر القرنين السادس والبايوية ، الناهضة ومبدد خرافة الاسترداد ، يقترن باسم صلاح الدين وغيره من أبطال المعارك الصليبية . وقد جاهدت دولة المرابطين الفتية في البحر ، كما جاهدت في البر ،

وراحت أساطيلها تجوس خلاله ، وتقف لسفن الفرنجة بالرصاد ، وتنازعهم السيادة في هذا الميدان .

ولكن هذه الدولة ، رغم هذا الدور الرائع الذي لعبته في تاريخ الإسلام ، لم تلق من المؤرخين المحدثين اهتماماً يذكر ، حتى إنهم أصبحوا حين يعرضون لتاريخ المغرب الإسلامي ، يلمون بها إلمامة عابرة ، لا تروى غلة ، ولا تنفع صدى ولا تكشف عن هذا الدور الخطير ، الذي قام به المرابطون في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وإنما هي أخبار مبعثرة في ثنايا هذه الكتب ، ولم ينفرد أحد من المؤرخين الأقدمين والمحدثين — فيما نعلم — ببحث تاريخ هذه الدولة في كتاب واحد ، ولعل هؤلاء المؤرخين لم يدركوا ما لهذه الدولة من أهمية وخطر في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وما خلفوه من تراث مجيد تليد ، يستحق منا العناية بتقصي أخبارهم ، وتدوين تاريخهم ، بطريقة علمية حديثة مبنية على النقد والتحليل والإدلاء بأراء شخصية تفيد العلم فائدة محققة ، وتلقى ضوءاً براقاً على ما تركته من آثار تستحق العناية .

لا ننكر أن تاريخ المرابطين في الأندلس لقي من عناية المؤرخين نصيباً غير قليل ، فقد ألف المستشرق يوسف أشباخ كتاباً عن تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ولكن مؤلف هذا الكتاب لم يعتمد على وثائق هامة في تاريخ الأندلس ، مثل كتاب الذخيرة ، أو كتاب التبيان للأمير عبد الله ، كما عقد دوزي في كتابه *Histoire des Musulmanes d'Espagne* فصلاً عن المرابطين . على أنه قد ظهرت في هذا الموضوع وثائق جديدة ، مثل كتاب التبيان ، وغيره أوجبت أن يعاد النظر في آرائه وأقواله ، أما بروقنسال فلم يتعرض في الكتاب الذي ألفه في تاريخ الأندلس للمرابطين ، إذ وقف عند سقوط الخلافة ، على حين نجد أن قدرة في كتابه *Decadencia et disparación de los Almoravides* لم يعرض

إلا لانهلال دولة المرابطين في الأندلس ، ثم سقوطها .. ولكن تاريخ المرابطين في المغرب والسودان ، ظل ميدانا لم يطرقة أحد من المؤرخين ، وأصبحت الخطوات الأولى التي سبقت ازدهار الدولة واتساعها تكاد تكون مجهولة إلى حد ما^(١) .

وقد نلتبس للمؤرخين المحدثين بعض العذر في إعراضهم عن الإقضية في تاريخ المرابطين ، والتوسع في توضيح الدور الذي قاموا به ، وذلك بسبب قلّة المادة التاريخية ، التي يمكن الاعتماد عليها في أمثال هذه الدراسات ، فقد ضاعت مراجع معاصرة في غاية الأهمية ، مثل : كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي ، وكتاب تاريخ سبته للقاضي عياض ، كما لا ننسى أن اللوحدين أعداء المرابطين الألداء عملوا بقدر الطاقة على الإساءة إليهم ، فحوا آثارهم ، وشوهوا تاريخهم ، ورموهم بكل نقيصة ، واتهموهم بالكفر والزندقة والمروق عن الدين ، لذلك أصبح الكتاب الذين عاشوا في عصر اللوحدين يخشون أن يتعرضوا لبحث تاريخ المرابطين في إسهاب ، خشية أن يثيروا غضب اللوحدين . فعد كثير من منهم إلى تجميع المرابطين ، وتشويه سمعتهم والإساءة إليهم ، ولولا أن بعض المؤرخين المتأخرين عثروا على مراجع معاصرة للمرابطين كانت موجودة في عصرهم ، وأفادوا منها ، ونقلوا عنها ما طاب لهم ، لما استطعنا أن نعثر في تاريخ المرابطين على مادة يمكن الاعتماد عليها في تدوين تاريخهم .

(١) ظهرت بعض المقالات المتفرقة مثل

E. Lavust : L' habitation chez les transhumants du Maroc central , Hesperis, 1934 , t. XVIII

M. Delafosse : Chronique du Fouta Sénégalais , Revue du Monde Musulmane, tome 25, 1913.

Ismail Hamet : la civilisation arabe en Afrique Centrale, Revue du Monde Musulmane , avril, 1911, tome XIV.

Basset : Mélanges Africains et Orientaux

De la Chappelle : Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental , Hesperis année 1930 , tome XI.

Doutté : Notes sur L' Islam Maghribin

Basset : Mission au Senegal

وبرغم ذلك كله ، أقدمت على دراسة موضوع قيام الدولة المرابطية ، وكان يقبالي على هذا الموضوع ، لا يخلو من مغامرة ، وكنت أخشى أن تصرفني قلة المادة عن محاولة كشف النقاب عن تاريخ قيام هذه الدولة .

ولكني مضيت في سبيل البحث قدما ، وإستطعت أن أعثر على مادة تاريخية مهدت لي السبيل ، وإستطعت أن أسهم بنصيب متواضع في تدوين تاريخ قيام هذه الدولة ، وترسم الآثار التي تركتها في حضارة المغرب والأندلس .

وقد ظفرت ببغيتي ، ووجدت طلبتي وثائق معاصرة بالغة الخطورة في تاريخ هذه الفترة ، مثل كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ، ولم يزل الشطر الأكبر من هذا الديوان العظيم مخطوطا لم ينشر بعد ، كان ابن بسام معاصرا للمرابطين ، وشهد ذلك الصراع المرير الذي نشب بين الإسلام والنصرانية في بلاد الأندلس ، وأورد طائفة من الرسائل ، على جانب عظيم من الأهمية والخطر أعانني على التأريخ لحركة جهاد المرابطين في الأندلس ، كما كشف كتاب الذخيرة النقاب عن أثر المرابطين في تاريخ الحضارة الإسلامية في هذه البلاد .

ومن هذه الوثائق أيضاً ، كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض اليعصبى ، وهو مخطوط لم ينشر بعد ، وقد عاصر عياض دولة المرابطين ، وولى القضاء في عهدهم ، وليس مقدار ما بذلوه من جهد ، وقد أرخ عياض لفقهاء مالك في المشرق والمغرب ، وعرض لسيرة عبد الله بن ياسين ، وهي أول ترجمة نعث عليها لذلك الرجل ، الذي كان له الفضل الأول في قيام الدولة .

ومن هذه الوثائق أيضاً كتاب التبيان للامير عبد الله بن بلكين ، آخر ملوك بني زيري بغرناطة ، وقد اشترك مع يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة وحصن لبيط ، وسجل حوادث الجهاد البارزة تسجيلا يدعو إلى الإعجاب حقا

كما كشف النقاب عن سياسة يوسف في بلاد الأندلس ، وقد نشره بروقتسال مع تعليق وترجمة بمجلة الأندلس^(١) .

ومن هذه الوثائق المهمة نذكر كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب لأبي عبيد البكري ، وكان معاصراً للأدوار الأولى من قيام هذه الدولة ، وأرجح للرابطين في صحراء المغرب والسودان ، قيل أن يتدفقوا إلى المغرب والأندلس ، كما عرض لعبد الله بن ياسين ، وعرف بشعوب الملتزمين تعريفاً طيباً حتى ليحترق قوله في هذه الناحية لا يعلى عليه .

ومن هذه الوثائق كتاب مشيخة القاضي عياض ، الذي يلقى ضوءاً على الحياة الثقافية في المغرب والأندلس في عصر الرابطين ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية .

وقد وجدت في كتب الطبقات ، مثل كتب بن الأبار^(٢) ، وابن بشكوال^(٣) وابن الزبير^(٤) ، والضبي^(٥) ، والسيوطي^(٦) ، وأحمد بابا التيمكتي^(٧) ، وابن فرحون^(٨) ، وابن المؤقت للراشدي^(٩) ، وابن القاضي^(١٠) ، وابن خير^(١١) مادة غزيرة أعانتني على التأريخ للحركة الثقافية في بلاد المغرب والأندلس ،

(١) Al Andalus : vol. III, Fasc. 2, Madrid. 1935
vol. VI, Fasc. 1 , 1941

(٢) التكملة لكتاب الصلة

(٣) كتاب الصلة

(٤) صلة الصلة

(٥) بغية الملتزم في تاريخ رجاله الأندلس

(٦) بغية الوعاة في طبقات المغموسين والنجاة

(٧) فيل الاجتماع بطريرك الديباج

(٨) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب

(٩) السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

(١٠) جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس

(١١) الفهرست

واستعنت بها في دحض الآراء التي اتهمى دوزي اليها ، فيما يتعلق بالدور الذي لعبه المرابطون في تاريخ الحضارة ؛ كما ألقت هذه الكتب ضوءاً على الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، ووردت في ثنايا الترجمة للعلماء ، والفقهاء أخبار تتعلق بتاريخ المرابطين ، على جانب عظيم من الأهمية .

وكذلك اعتمدت اعتماداً كبيراً على كتب الأدب ، التي أنارت السبيل لدراسة الحياة الثقافية والاجتماعية ؛ وناهيك بكتابات فلانند العقيان ، وكتاب المطمع للفتح بن خاقان ، الذي كان معاصراً للمرابطين ، وأرخ لأعلام الكتاب والشعراء ، ووصف ألواناً من الحياة الاجتماعية في بلاد الأندلس . كما اعتمدت على كتب مخطوطة في تاريخ الأدب . مثل كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية^(١) ، وكتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني ، الجزء الحادي عشر . كما استعنت بدواوين الشعراء المعاصرين ، مثل ديوان ابن حمديس الصقلي ، وديوان ابن خفاجة الأندلسي ، وديوان الأعمى التطيلي . ورجعت إلى ماورد من شعر المعاصرين في كتاب الذخيرة ، وكتاب الحلة السيرة لابن الأبار وفي كتاب بغية الملتبس للضبي . وقد استرعت معركة الجهاد بالأندلس إقبال المعاصرين من الكتاب والشعراء ، فسجلوها في شعرهم وترسيلهم ، ومدحوا المرابطين ، ووصفوا الدور الرائع الذي اضطلعوا به في تاريخ الجهاد ، حتى نشأ حول معركة الزلاقة ما يمكن أن نسميه أدب الزلاقة . ناهيك بما للشعر من أهمية وخطر في تصوير الحياة الاجتماعية ، وقد حوى ديوان ابن خفاجة بوجه خاص معلومات تاريخية واجتماعية عظيمة الأثر ، ومن أسف ، أنني حاولت أن أقرأ ديوان ابن قزمان الذي حوى طائفة طيبة من الأزجال الأندلسية باللغة الدارجة فلم أوفق .

(١) طبع هذا الكتاب أخيراً .

كذلك اعتمدت على كتب الحسبة ، كرسالة ابن عبدون التجيبي ^(١) الذي عاصر استيلاء المرابطين على أشبيلية ، ويعد هذا الكتاب بحق مرجعاً عظيماً الفائدة في دراسة نظم الحكم والحياة الاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر ، كما استعنت بكتاب السقطي في الحسبة أيضاً ^(٢) .

أما كتب النقود ، ^(٣) وغيرها من المراجع للمادية ، فقد كشفت عما أحاط بقيام الدولة من غموض ، إذ استعنا بها في تحديد كثير من التواريخ الهامة ، كوفاة أبي بكر بن عمر ، وتولى يوسف بن تاشفين ، كما استعنت بها في دراسة نظم الحكم ، حين عرضنا للألقاب ، ولولاية العهد . كما استعنا بالنقود في دراسة الحياة الاقتصادية في البلاد ، إذ ليس من شك في أن نقد الدولة مقياس لحالتها الاقتصادية ، كلما كان سليماً متمتعاً باحترام الناس وثقتهم ، دل ذلك على مقدار مانعت به الدولة من استقرار وغنى ، أما إمكانية ضرب النقود ، فقد كشفت لنا النقاب عن التقييمات الإدارية ، وكشفت عن مدى السلطة التي تتمتع بها أمراء المرابطين ، وأثقت ضوءاً على ذلك النظام الإقطاعي الذي كان طابعاً مميزاً للدولة المرابطية .

(١) نشر بروفنسال هذه الرسالة وترجمها وعلق عليها :

E. Levi-Provençal: Un document sur La vie Urbaine et les corps de métiers à Seville au debut du XII Siecle : Le traité d' Ibn Abdun. Publié avec une introduction et un glossaire J. As. Avril-Juin. 1934

(٢) نشر بروفنسال هذا الكتاب أيضاً وترجمه وعلق عليه :

Un manuel Hispanique de Hisba : Sur la Surveillance des corporations et la repression des fraudes en Espagne Musulmane. Publié Par Colin et Provençal.

Catalogo de Monedas Arabigo Monedas de las Dinastias ... (٣)
Cat. Des Monnaies Musul. de la Bib. Nat.
Katalog der Orient. Münze-Poole.

أما عن النقوش^(١) ، فقد استعنا بكتاب النقوش الأندلسية الذي وضعه
بروفسناي ، وقد استعنا ببعض هذه النقوش في تحقيق بعض التواريخ والأنساب .
ولم تغفل جانب الفن ، فقد اعتمدنا على أهم ما كتب في تاريخ الفن الأندلسي
للمغربي في عهد المرابطين ، مثل كتب تراس ومارسيه ، ولو أننا لم نعرض لتاريخ
الفن عرض المتخصص الملم بدقائقه ، إنما ألمنا به للمامة عابرة .

كذلك لم تغفل كتب الدين والفلسفة والفقه ، فقد اعتمدنا على موطأ
الإمام مالك في دراسة تعاليم الفقيه عبد الله بن ياسين ، ومحاولة التعرض لنظام
الحكم التي وضعها المرابطون ، خصوصا ما يتعلق بالشورى ، وأحكام الجزية
والزكاة ، والخراج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولم تغفل
كتب الملل والنحل ، مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، وكتاب الفصل في
الأهواء والملل والنحل لابن حزم ، وكتاب الفرق بين الفرق للبغدادي ، وكتاب
إحياء علوم الدين للغزالي ، وذلك للرد على ما قاله الموحديون في حق المرابطين .
وقد استعنا في هذه الناحية ، بما كتبه المستشرق جولدتسيهر في كتاب العقيدة
والشريعة ، وفي مقدمته لكتاب محمد بن تومرت ، المسمى بأعز ما يطلب ، حيث
عرض لعقائد الموحدين عرضا طريفا ، كما اعتمدنا على بعض المواد المتفرقة بدائرة
المعارف الإسلامية .

ولم تغفل أمر الجغرافية في دراسة البيئة ، التي قامت فيها دولة المرابطين ،
ودراسة أثر هذه البيئة في توجيه الحوادث في ذلك العصر ، الذي نحن بصدد
التأريخ له . وقد اعتمدنا على ما كتبه الجغرافيون والرحالة المسلمون ، مثل
ابن حوقل^(٢) ، والادريسي^(٣) وابن جبير^(٤) ، والدمشقي ، وابن فضل الله

Provençal : Inscriptions Arabes d' Espagne

(١)

(٢) المسالك والممالك

(٣) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس

(٤) رحلة ابن جبير

الغمرى^(١) ، والحيرى^(٢) ، وابن بطوطة^(٣) . كما اعتمدنا على الرحالة المحدثين الذين جابوا أفريقيا في العصر الحاضر ، ووصفوا بيئة المغرب وشموبه وصفا دقيقاً وألوا بديار الطوارق أحفاد ضهاجة . إعتدنا مثلاً على كتاب الرحالة دى فريبه حيث درس بيئة الطوارق ، ووصف الحياة الإجتماعية وصفا رائعاً ، وإنتهى إلى أن الطوارق المحدثين لا يكادون يختلفون عن أحفادهم في كثير أو قليل . وفي الباب الأول عقدنا موازنة بين الطوارق المحدثين والصنهاجيين القدماء ، وإهتدينا إلى هذه الحقيقة ؛ وهى أن التشابه بين الشعبين عظيم .

أما المصادر التى تناولت الكلام على النظم الإسلامية ، فقد اعتمدنا فيها على مقدمة ابن خلدون اعتماداً كبيراً ، إذ ليس من شك فى أن ابن خلدون من أئمة العلماء ، الذين عرضوا لهذه الناحية بالدراسة ، قضى شطراً كبيراً من حياته فى المغرب ، وكان يدرك روح مواطنيه إدراكاً صادقاً ، فصور النظم السائدة فى تلك البلاد تصويراً رائعاً ، حتى إن أحكامه عن بيئة المغرب جاءت صادقة كل الصدق ، ولا سيما ما كتبه عن القبائل مؤسسة الدول ، والبدو المستقرين ، وإبراز أثر هذه النواحي القبلية فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . كما رجعنا لكتاب سراج الملوك للطرطوشى ، وهو فقيه أندلسى عاش فى الأسكندرية ، وعرض لنظم الحكم السالفة فى بلاد الأندلس ، كما عاصر قيام الدولة المرابطية ، وروى أنه اتصل بيوسف بن تاشفين .

ولم تغفل ما كتبه المستشرقون عمايت هذه الدولة من سبب بعيد أو قريب ،

(١) نغمة الدهر فى عجائب البر والبحر

(٢) مسالك الأبصار

(٣) الروض المعمار فى خبر الأقطار

(٤) تحفة النظائر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار

قد استعنا بما كتبه دوزى^(١) ، وبروقنسال^(٢) ، وجورج مارسيه^(٣) ، ووليم
مرسيه^(٤) ، وتراس^(٥) ، وجولييان^(٦) ، ورينيه باسيه^(٧) ، والفريد بل^(٨) .
كما اعتمدنا على بعض المقالات الهامة التي كتبها أعلام المستشرقين في الموسوعات
والدوريات، مثل مجلة الأنديس ، وموسوعة هيسبريس ، والمجلة الآسيوية الملكية ،
والمجلة الإفريقية ومجلة الوثائق المغربية ، ودائرة المعارف الإسلامية^(٩) .
وقد حاولت أن ألقى ضوءاً على هذا العصر الغامض ، ولا أقول أنى بفلت
من الأبداع الغاية ، إنما يكفي أن أقرر أنى أسهمت بنصيب في تحقيق تاريخ
قيام هذه الدولة ، كشف النقاب عن الدور الذي اضطلعت به في تاريخ الحضارة ،
والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه السداد .

حسن أحمد محمود

الجيزة في ديسمبر ١٩٥٦ .

-
- | | |
|---|------------------------|
| Hist. des Musul. d' Espagne et Recherches. | (١) |
| Hespéria | (٢) بعض المقالات بمجلة |
| G. Marcais : Manuel d' Art Musul. | (٣) |
| G. Marcais : Les Arabes en Berbérie | (٤) |
| Tetrasse : Histoire du Maroc | (٥) |
| Mission au Senegal | (٦) |
| Les Benou Ghanya | (٧) |
| | (٨) |
| (٩) رجعت إلى دائرة المعارف الإسلامية فيما كتب عن | |
| مراكش — لتونة — ملقة — أنجوات — صنهاجة — السيد — تشنية — | |
| جهاد — أحرار — عبد الله بن ياسين — لثام — الموس — علي بن يوسف — | |
| المرايطون — رباط — سنفال . | |

الباب الأول

بلاد المغرب الأقصى

قبيل قيام الدولة

١ — يورد المغرب بينات تملأ متباينة جغرافيا :

يطلق الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على البلاد الممتدة من برقة غربا حتى المحيط الأطلسي اسم المغرب^(١) ، وهو في الحق اصطلاح جغرافي عام ، يطلق على بلاد تضم بينات جغرافية متباينة بعض الشيء . وقد كان الرومان حين أخضعوا هذه البلاد لسلطانهم يشعرون بهذا التنوع الجغرافي ، فكان جغرافيوهم يجعلون هذه البلاد أقساما ثلاثة : إفريقية ، ونوميديا^(٢) ، وموريتانيا . ويبدو أن العرب قد شعروا بما شعر به الرومان من قبل ، فلاحظوا أن بلاد المغرب تتألف من بينات ثلاث ، لكل واحدة منها طابعة الخصاص التي تتميز به ، وتختلف كل من حيث الموقع ، وظروف البيئة ، والتوجيه الجغرافي . نعم اصطلاح الجغرافيون العرب على أن يجعلوا من بلاد المغرب أقساما ثلاثة هي : إفريقية ، والمغرب الأوسط ، ثم المغرب الأقصى . وحدود إفريقية العربية تطابق حدود إفريقية البيزنطية ، على حين أن المغرب الأوسط يمتد من حدود إفريقية الغربية حتى مصب وادي

(١) انظر ابن حوقل : للسالك ، والبكري : المغرب ، والإدريسي وابن خلدون
العبر : ج ٦ ص ١٠٠ وانظر اسماعيل رأفت : النيران في تخطيط البلدان ، ص ٢١ وما بعدها .

André Julien : Hist. de L'Afrique du Nord, p. 4.

De Mas Latrie : Traité de paix et de Commerce, p. 6. (٢)

ملوية^(١) ، ويمتد المغرب الأقصى من وادي ملوية حتى مدينة آسني^(٢) على البحر المحيط .

هذه إذن هي يثبات المغرب : افريقية ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى فكيف تم لهذه البيئة الأخيرة أن يتألق نجمها وترجح كفتها ، وتلعب في تاريخ المغرب الإسلامي دوراً بارزاً ممتازاً ؟ .

٢ — ظهور شخصية المغرب الأقصى وأثرها في تاريخه :

تدفق العرب من مصر متجهين صوب المغرب ، فأوغلوا في برقة ، ثم في طرابلس ، ثم تدفقوا إلى افريقية ، وأسسوا مدينة القيروان ، واستطاعوا بعد جهود متواصلة ، من سنة ٤٩ هـ إلى سنة ٧٨ هـ ، أن يخضعوا هذه الولاية لسلطانهم ، فاستقامت أمورها لهم^(٣) ، وأوغل نفوذهم فيها ، وأصبحت قاعدة حرية يتوسعون منها صوب المغرب لإتمام فتحه ، وأصبحت القيروان قبلة سكان المغرب جميعهم ، يضربون إليها آباط الإبل ، يطلبون العلم ، ويشاركون في ما نعت به افريقية من يسر ورخاء^(٤) . هكذا استطاعت افريقية — بعيد الفتح — أن تلعب الدور الأول في تاريخ المغرب ، وكانت لها قوة التوجيه ، وظهر تفوقها وامتيازها في صورة جليلة واضحة ، بسبب مواردها المتعددة ، وتراثها الجيم ، وموانئها المشرقة على بحر الروم ، وموقعها الجغرافي الممتاز ، وقربها من مصر ، ووفرة تراثها الحضاري القديم^(٥) .

(١) نهر ملوية آخر المغرب الأقصى من جهة الشرق ، نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة زازي ، ويصب في البحر الرومي عند غساسة . أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٢ .

(٢) آسني آخر مرمى تصل إليه المراكب في أقصى ساحل المغرب ، وكانت تنزل به قبيلة رجراجة . أنظر الأدرسي : صفة للمغرب ، ص ٧٤ .

(٣) الدباغ : معالم الايمان ، ج ١ ص ٦٣ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ص ٢١٥ ؛ والادرسي ص ١١٠ .

(٥) Gautier : Les Siecles obscurs, p. 350 .

ثم استطاع العرب أن يتموا فتح المغرب ، وأوغل عقبة بن نافع الفهري في البلاد ، حتى أشرف على ساحل المحيط ، وهياً العرب للمغرب نوعاً من الوحدة السياسية بزعامة القيروان . ولكن ما لبثت طبيعة البلاد أن ظهرت بوضوح وجلاء ، وأخذت تهدد هذه الوحدة تهديداً خطيراً ، وظهرت شخصية المغرب الأقصى ظهوراً واضحاً منذ البداية ، حين تزعم حركة مقاومة الفاتحين العرب بزعامة كسيلة بن لمزم الأوروبي ، الذي أوقع بعقبة بن نافع ؛ ولم ينجح العرب في بسط نفوذهم على المغرب الأقصى ، إلا بعد أن استطاع موسى بن نصير ببعده نظره أن يقرب أهل البلاد من الفاتحين ، وأن يحببهم في الإسلام .

ثم ظهرت أهمية المغرب الأقصى — بصورة أوضح — حين بدأ المسلمون يعبرون بحر الزقاق^(١) ، بقصد فتح الأندلس ، فقد أصبح القاعدة الحربية لهذا الفتح يمد الفاتحين بما يحتاجون اليه من مؤن وذخائر ، يؤمن ظهورهم ، ويشد أزهرهم ، وأصبح بربر المغرب الأقصى من أشد جنود طارق وموسى إخلاصاً لفتح بلاد الأندلس ، ونشر الإسلام فيها^(٢) . لذلك لا نكون مغالين إذا قلنا إن فتح الأندلس يرجع الفضل فيه إلى أهل المغرب الأقصى إلى حد بعيد ، وإن هذا الفتح قد ساعد على تمكين الإسلام من نفوس البربر ، فرسخت قواعد هذا الدين ، وبدأوا يخلصون له كل الإخلاص^(٣) .

وظهرت شخصية المغرب الأقصى مرة أخرى في هذه الثورة ، التي أشعل نارها ميسرة المطغري بطنجة سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) ، حينما خرج على عمرو بن عبد الله فقتله ، ثم بايع عبد الأعلى بن جريج أول الأمر ، ثم دعا لنفسه بالخلافة^(٤) ، وهبت قبائل المغرب الأقصى كلها تؤيده ، وتشد أزره ، وكادت بلاد الأندلس

(١) Fretum Gaditanum, Détroit de Gadés.

(٢) H. Terrasse : Hist. du Maroc, p. 84.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٤) المصدر السابق ج ٦ ص ١١٠ .

والمغرب الأقصى تنسلخ من الخلافة الإسلامية^(١) ، بل إن جموع الخوارج غزت أفريقية ، وراحت تهدد القيروان نفسها . وقد وضعت هذه الثورة حدا لنفوذ المغرب في بلاد المغرب الأقصى ، وبدأت منذ هذا التاريخ بوادر الحضارة الإسلامية في المغرب تنتعش بعد أن أسلم البربر ، وأخذوا يتذوقون التراث العربي . يفهمونه ، ويحاولون أن يضيفوا إليه ، أو يضيفون عليه لوناً مغربياً^(٢) .

ولم يرأب الصدع ، ويحقق للمغرب نوعاً من السلام يعيش في كنفه إلا الأغلبية الذين أقروا السلام في أفريقية وفي المغرب معاً^(٣) . ولكن شخصية المغرب الأقصى وضحت وضوحاً تاماً ، وغدت لها قوة التوجيه في مجريات الحوادث في ظل دولة الأدارسة ، التي قامت على أكتاف بربر المغرب الأقصى ، الذين بايعوا إدريس بن عبد الله ، وآووه ونصروه وشدوا أزره . وقد وحد الأدارسة البلاد تحت لواء واحد ، وهياؤا لها حكومة موحدة مستقرة ، وأسسوا مدينة فاس ، وجعلوها حاضرة للبلاد^(٤) ، كما قضوا على فتنة الخوارج ، وأقروا السلام ، ونشروا الإسلام^(٥) ، وهياؤا للبلاد حياة مستقرة هادئة ، وأخذت مدينة فاس تنشر الثقافة الإسلامية بين البربر ، وتتهيأ لقيام حضارة مغربية إسلامية يشتد ساعدها في القرن الخامس الهجري ؛ ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الأدارسة بدءوا في هذا الميدان ما أتمه المرابطون والموحدون من بعدهم^(٦) . ثم كانت تكبة أفريقية على يد عرب بني هلال في القرن الخامس الهجري مؤكدة لظهور

(١) مع ملاحظة أن ثورة ميسرة لم يكن مبعثها الأسباب السياسية أو اضطهاد البربر حسب ، بل كان من أهم أسبابها الدعوة للمذهب الخوارج ونجاح هذا المذهب في المغرب .

(٢) H. Terrasse : Hist. du Maroc. p. 109. (٢)

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٣ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٦ .

(٥) عبد الرحمن بن زيدان : الأنحاف ، ج ٢ ص ٦ .

(٦) Gautier (op. cit.) p. 350. (٦)

المغرب الأقصى ، واضطلاعه بالدور الأول في تاريخ الإسلام في هذا الجزء الغربي من العالم^(١) . هذه البيئة ، أعنى بيئة المغرب الأقصى ، هي التي تعيننا من دور بيئات المغرب ، ففيها قامت دولة المرابطين ، التي نحن بصدد التاريخ لقيامها ، ومنها تدفقت صوب الأندلس ففتحته .

٣ — جغرافية المغرب الأقصى :

وإذا كانت دراسة البيئة الجغرافية لأي قطر من الأقطار ضرورية لفهم تاريخه ، فإن دراسة جغرافية المغرب أشد ضرورة وأكثر لزوماً ، في فترة العصور الوسطى على الخصوص ، لأن البيئة الجغرافية تؤثر في الحياة القبلية تأثيراً عظيماً ، والحياة القبلية هي عصب تاريخ المغرب الإسلامي ، ذلك أن القبائل المغربية ظفرت بعد أن تم إسلامها بالمساواة المطلقة بالفاتحين ، واستطاعت منذ القرن الثاني الهجري فصاعداً أن تؤسس دولاً لعبت في تاريخ المغرب الإسلامي دوراً عظيماً . فإذا لم نستعن بالجغرافية لم نستطع أن ندرس تنقلات القبائل ، وتحركاتها فوق صفحة المغرب ، إذ لا بد مثلاً من دراسة الطرق والمسالك التي سلكتها ، ودراسة البيئات التي تأثرت بها وأثرت فيها . ولا بد من التعرض للجغرافية الاجتماعية للبلاد في العصر الذي نتصدى له بالدراسة ، لفهم النزاع الدائب بين سكان السهول ، الذين يحنون إلى الاستقرار ، ويكفون بنزول المدن ، ويأخذون ببعض أسباب الحضارة ، وبين البدو الضارين في الصحارى والسهوب ، الذين يفتجعون المراعى ، ويربون الإبل والأغنام ، ويغيرون إغارات منظمة على مناطق الخصب والاستقرار ، بغية الظفر بخيراتها وثرواتها^(٢) ، فالطمع في الأراضي

(١) الأندلسي : صفة المغرب والسودان ، ص ١١٠ .

و Julien : Hist. de l'Afrique, p. 375.

(٢) Julien : Hist. de L'Afrique du Nord, p. 6.

الخصبة المليئة بالخيرات ، كان من أقوى الأسباب التي دفعت كثيراً من القبائل إلى التوسع ، والفتح ، وبسط النفوذ ، وإقامة الدول .

وقد فطن بعض المؤرخين الغربيين ، أمثال جوتييه^(١) ، وجوليان^(٢) ، وتراس^(٣) لهذه الحقائق ، وأولوها من اهتمامهم نصيباً موفوراً ، واستطاعوا بعد أن اصطنعوا هذا المنهج الجغرافي ، أن يفسروا أحداث التاريخ في المغرب تفسيراً معقولاً ، ناهيك بدراسة الموقع ، وأثره في تشكيل التاريخ لبيئة كبلاد المغرب الأقصى ، يرتبط تاريخها بموقعها إلى حد كبير ، فقد اتصلت اتصالاً مباشراً بقلب أفريقية ، وبحوض البحر الأبيض المتوسط ، والشرق الأدنى ، كما اتصلت ببلاد الأندلس عبر المضيق ، واتصلت بغرب أفريقيا عن طريق الواحات^(٤) .

لهذا كله ، سأعتمد إلى دراسة موقع المغرب الأقصى ، وأثره في تاريخه في العصور الوسطى ، كما سأعرض في إيجاز لمعالم الجغرافية الطبيعية ، لنستطيع على ضوء الأسس التي سنقررها أن نفهم بعض الظواهر التاريخية ، التي سنعرض لها بالدراسة في البحث .

وأهم ما يلاحظ على إقليم المغرب الأقصى ، أنه يمثل ما يطاق عليه الجغرافيون اسم «منطقة أطراف» . أي أنه النهاية القصوى لهذه الوحدة الجغرافية العامة للسماة بالمغرب ، فلن تجد وراء هذا الإقليم إلا البحر المحيط ، الذي كان يعتبر — إذ ذاك — حاجزاً منيعاً . ويعتبر المغرب الأقصى أيضاً منطقة عزلة ، فالطرق الموصلة إليه لا تكاد تتجاوز ثلاثة عددا : أولها طريق بحري عبر المضيق الذي يصله بالأندلس ، ثم طريق بري آخر طويل لا يؤدي إلا إلى الجنوب الأقصى ،

Gautier : Les Siècles obscurs du Maghreb. (١)

Julien : Hist. de L'Afrique du Nord. (٢)

Terrasse : Histoire du Maroc. (٣)

H. Terrasse : Hist du Maroc, p. 10. (٤)

(م — ٢ قيام دولة المرابطين)

كما يؤدي إلى صحراء السودان الغربي^(١) ، وفي الجنوب تحيط به سلسلة جبال درن ، التي تعد بحق حاجزا حسر كل التيارات الجنسية التي كان يجب أن تتدفق إلى هذا الإقليم من جوف الصحراء ، وتؤثر في سكانه تأثيراً كبيراً^(٢) . وكان من أثر ذلك كله ، أن أصبح هذا الإقليم في العصور الوسطى — على الأقل — آخر أقاليم المغرب تأثيراً بالهزات العنيفة^(٣) التي تجتاح أفريقية ، وبالمؤثرات التي تتدفق إلى أفريقية من الشرق ، سواء أكانت بشرية أم حضارية . والغزوات القادمة من الشرق تدخل هذا الإقليم بعد إنهاك قواها ، والحضارات تأتي إليه متأخرة نوعاً ما ، بعد أن تكون بلاد أفريقية والمغرب الأوسط قد تشبعت منها .

فلما غزا العرب بلاد المغرب ، أصبحت هذه البلاد معقل المقاومة ، وكانت الغزوات الغربية الموجهة إليها منهكة القوى فعلا بعد طول السفر ومشقة الطريق . ولم يستطع العرب إخضاع هذه البلاد بقوة السيف فحسب ، إنما أخضعت بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام ، فدخلوا فيه طواعية واختياراً ، فاستكانوا للعرب وادانوا لهم بالطاعة . وفي القرن الخامس الهجري منيت أفريقية بغارات الأعراب فلم تصب بلاد المغرب الأقصى بمثل ما أصيبت به أفريقية من الدمار والخراب ، بل إن عرب بني هلال لم يدخلوا أرض المغرب الأقصى إلا حين استقدمهم الموحدون فيما بعد ، فنجبت هذه البلاد من هذه الكارثة بحكم موقعها المتطرف . ومما يلفت النظر ، أن نهضة المغرب الأقصى في العصر الإسلامي جاءت تالية لنهضة أفريقية والمغرب الأوسط^(٤) . ولم يقدر للحضارة الإسلامية أن يتألق

(١) Terrasse: (op. cit.) p. 10.

(٢) عبد الرحمن بن زيدان : أعماق أعلام الناس ، ج ١ ص ٦٣ .

(٣) Terrasse : (op. cit.) p. 7.

(٤) Ibid. p. 7.

تجمعها وتنفق سوقها، إلا بعد أن آلى الهلاليون على تراث القيروان ، فظهرت أهمية جردن المغرب الأقصى ، كفاس وأغمت وسبتة وغيرها . وقد مكنت هذه العزلة لبعض الحركات السياسية والدينية من أن تنمو ، وتشب عن الطوق ، بعيدة عن أى تهديد حتى كتب لها النجاح ، كحركة المرابطين التى تبلورت فى صحراء المغرب الأقصى ، وكحركة ابن تومرت المهدي، التى نمت وترعرت فى جبال درن ، وديار المصامدة .

وقد لعبت هذه الحقائق الجغرافية دوراً عظيماً فى تاريخ غرب أفريقيا والسودان الغربى ، ذلك أن المؤثرات العربية الإسلامية التى جاءت مرا كش كانت تصطدم بالبحر المحيط ، ولا تستطيع إلا التسرب عبر هذا الساحل المنحدر نحو الجنوب ، فتتدفق إلى غرب أفريقيا ، ومنطقة السنغال والنيجر^(١) . وعن هذا الطريق — على ما نعلم — انتشر الإسلام فى السودان الغربى ، ونشطت حركة المتاجرة مع شعوب وادى السنغال والنيجر وقلب أفريقيا ، بعد أن أصبح الطريق الذى يصل بين السودان الغربى والواحات المصرية معطلا ، بسبب العواطف الرملية الموحاء ، التى اجتاحتها زمن ابن حوقل صاحب الرحلة المعروفة^(٢) . وهناك حقيقة أخرى كانت بالغة الأثر فى تاريخ هذه البلاد فى العصور الوسطى ، وهى أن إقليم الريف يكاد يتصل اتصالاً مباشراً بشبه جزيرة أسبانيا عند مضيق جبل طارق ، فأصبحت الصلات قوية بين مدن إقليم الريف ومدن الأندلس ، وانتشرت المؤثرات الحضارية الأندلسية فى بلاد إقليم الساحل ، وغلبت عليها^(٣) . وكانت أهمية هذا المضيق كبيرة ، حتى لقد كان تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتمم بعضه بعضاً ، وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين .

(١) Terrasse: (op. cit.) p. 10.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك

(٣) Julien : Hist. de l'Afrique, p. 17.

فكانت كفة المغرب الأقصى لا تكاد ترجح حتى ينتسب ظله على بلاد الأندلس ، كما حدث في عهد موسى بن نصير ، وعهد يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، حين عبرت قواته المضيق لإيقاد بلاد الأندلس مما كانت توشك أن تتردى فيه ، كما حدث مثل هذا في عهد الموحدين ، وفي كثير من الأحيان ، كان يحدث العكس ، حين تشتد شوكة أهل الأندلس ، كما حدث في عهد ازدهار الخلافة الأموية ، زمن الناصر والمستنصر ، حين غزت قواتها هذه البلاد ، وبسطت نفوذها هناك .

هذا عن ساحل الريف ، أما ساحل المحيط الأطلسي فهو لا يشجع على قيام موانئ ناجحة بسبب رداءة خلجانه ^(١) ، وقد ظل طوال العصور الوسطى يكاد يكون مغلقاً في وجه الأساطيل ، فكان بلاد المغرب الأقصى كانت عمية الظهر من ناحية المغرب ، وأصبح من الميسور على الدول التي قامت فيه التفرغ للدفاع عن الحركات العدوانية القادمة من المغرب الأوسط . ويتصل المغرب الأقصى بالمغرب الأوسط عن طريق تازا ^(٢) ، ذلك الطريق الذي يعتبر بحق مفتاح البلاد ، إذا استطاع الغازي اجتيازه في يسر ، استطاع الاستيلاء على مدينة فاس دون عناء ^(٣) ، ثم تدفق إلى قلب البلاد ، ولكنه يمر بمنطقة رعوية ترتادها قبائل من البدو صعبة المراس ^(٤) ، تتحكم في هذا الطريق ، وتهدد الصلة التي تربط القطرين تهديداً كبيراً .

(١) انظر ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ٦٦ وما بعدها . و Terrasse. p. 5
(٢) موضع من أعمال بني العافية . وهي مدينة كانت تفصل بين المغرب الأوسط والأقصى وتقع على مسيرة مائة كيلو متر إلى الشمال الغربي من مدينة فاس . (دائرة المعارف الإسلامية مادة تازا) . والبكري : المغرب ص ٤٢٨ .

(٣) Terrasse: (op. cit.) p. 7.

(٤) Gautier: (op. cit.) p. 290.

أما من ناحية الجنوب ، فإن جبال درن ، التي تمتد من البحر المحيط ، متجهة
حسب الشرق حاجز طبيعي يمكن لقبائل المغرب الأقصى ، إذا تألفت واتحدت ،
أن ترد عنها عدوان القبائل الضاربة إلى الجنوب . أما إذا تفرقت كلمتها ، وضعف
شأنها لم تستطع هذه الجبال أن تعصمها من الخطر ^(١) .

أما عن طبيعة البلاد ، وأثرها في توجيه تاريخها في العصور الوسطى ، فأهم
ما نلاحظه ، أنه قد ازدوجت فيها مؤثرات البحر الأبيض المتوسط ، ومؤثرات
أفريقية . تمثل ذلك في كل شيء ، في مناخها وحضارتها ^(٢) . ففي المنطقة الساحلية
تسود المؤثرات الأوروبية ، التي تقف عند حدود جبال الأطلس الصغرى ؛ على
حين توغل المؤثرات الأفريقية في الجنوب ، متجاوزة جبال درن ، ثم مجترقة الهضبة
الواقعة بين سلسلتى جبال الأطلس ، حتى تقف تقريبا عند سلسلة جبال الريف ،
فإذا استطاعت دولة أن تجمع بين هاتين المنطقتين ، أصبحت من القوة بمكان
عظيم ، لأنها تجمع بين هذين النبعين الحضاريين . فدولة الأدارسة مثلا ، لم
تستطع أن تتفوق تفوقا ساحقا ، لأنها لم تبسط نفوذها إلا على المنطقة الأولى
مستمدة التأييد من قبائل البربر ، التي تأثرت بالحضارة الرومانية ^(٣) . فلما تدفق
المرابطون من الجنوب ، من المنطقة التي تسود فيها المؤثرات الأفريقية ، واستولوا على
المنطقة الشمالية ذات المؤثرات الحضارية الأندلسية ، استطاعوا أن يقيموا صرح دولة
قوية عزيزة الجانب جمعت هذه العناصر المختلفة .

أما الطرق والسهول ، فإنها تمتد من الشرق إلى الغرب متوازية . فتيسر
للغزوات القادمة من الشرق أن تتسرب في البلاد بسرعة كبيرة حتى المحيط ،
عن طريق ذلك الوادى الشهير المسمى بوادى سبوا ^(٤) . حتى إذا تم ذلك

Ferrasse : (op. cit.) p. 10. (١)

Julien : (op. cit.) p. 16. (٢)

Idid. p. 17. (٣)

(٤) هو النهر الذى تقع عليه مدينة قار

انقضت القبائل من مضاربها في الجبال أو الهضاب ، فذهبت الغزاة ، فشئت شملهم . .
أوعلى الأقل عرضتهم لخطر جسيم^(١) ، فأصبح من الصعب التوحيد بين المغرب
الأقصى وغيره من يثبات المغرب ، ولو تمت الوحدة لما كتب لها أن تدوم .
فالدولة الأموية لم تستطع أن تحتفظ بوحدة المغرب كله مدة طويلة ، أما القبائل
مؤسسة الدول الكبرى ، فإنها ما تسكاد تنجح في توحيد البلاد ، حتى تستنزف
المعارك ، التي تخوضها دفاعاً عن تراثها ، وإبقاء على كيانها دماء أبنائها ، فيدهمها
الضعف والانحلال ، فتطل عوامل الفرقة ، فتقوض صرح الوحدة ، وتأتي عليه .
أما الطرق المؤيدة من الموانئ الساحلية إلى الجهات الداخلية ، فهي قليلة تعترضها
عقبات كأداء^(٢) ، فلا تستطيع أن تتم توحيد المغرب الأقصى إلا قوة متفوقة ، .
عليها أن تحرس الطرق والمسالك الصعبة ، وإلا انتقضت القبائل الجبلية المستكنة ،
ورفعت علم الثورة ، لذلك اضطر المرابطون والموحدون من بعدهم إلى إقامة سلسلة
من الحصون للسيطرة على هذه الطرق ، وكبح جماح القبائل المعادية^(٣) .
وتضم بلاد المغرب الأقصى في الواقع أقاليم طبيعية مختلفة ، بإقليم التل ، الذي
يشمل سفوح الجبال الشمالية والسهول الساحلية ، تربته خصبة جداً ، تخترقه نهيرات
تصب في البحر الأبيض المتوسط ، وتقوم فيه زراعة ناجحة^(٤) ، فلا عجب إذا
وجدنا هذا الإقليم في العصور الوسطى تتألق حضارتها ، وتزداد ثروتها ،
وتعم خيراتها .

Julien : (op. cit.) p. 14. ; Gautier (op. cit.) p. 3. (١)

Julien : (op. cit.) p. 3. (٢)

Terrasse : (op. cit.) p. 4. (٣)

Terrasse (op. cit.) p. 12. (٤)

وقد كانت هذه البلاد، طوال العصور الوسطى، مطمح أنظار القبائل البدوية .
فما كادت قبائل زناتة ترحل من المغرب الأوسط ، حتى احتلت هذه البلاد ،
وبسطة ظلها عليها ، ونعمت بما توفر لها من خير عجم ؛ وما كاد المرابطون
ينفذون من الهضبة الوسطى ، حتى استولوا على ذلك الإقليم الخصب ، وسخروا
موارده الوفيرة لصالحهم ، وأفادوا منها فائدة جمة .

خلاصة القول ، أنه لا يمكن أن تقوم حكومة مركزية ناجحة في المغرب
الأقصى ، إلا إذا سيطرت على ذلك الإقليم الغني^(١) . أما الإقليم الذي يقع في
ما وراء الأطلس ، فهو إقليم رعوى ، أو شبه صحراوي تنتشر به المراعى ، التي تكسو
الهضاب المرتفعة ، وبه طائفة من الواحات الغنية ، كما تنتشر به القبائل وتجنس
فيه متنقلة بين رحلة الشتاء والصيف^(٢) . فهو إقليم فقير في موارده ، سواء في هصانه
أو وحااته ، لا يستطيع أن يعول إلا عدداً محدوداً ، وبات من الضروري أن تحاول
هذه القبائل البدوية باستمرار أن تغير على مواطن الخصب ، وقد لعبت العلاقة
بين المنطقة الرعوية ، والمنطقة السهلية ، دوراً عظيماً في تاريخ البلاد في
العصور الوسطى .

أما مرتفعات مراکش الشمالية ، التي تحف بالبحر الأبيض المتوسط وإقليم
الأطلس ، الذي يفصل مراکش الخارجية عن مراکش الداخلية ، فقد نزلت به
قبائل من البربر ، شديدة المراس ، تمتاز بالروح الحربية العالية^(٣) . كانت طوال
العصور الوسطى في طليعة القبائل ، التي لا تفتأ تهدد البلاد بالثورات المتلاحقة .
هذه البيئات المتنوعة ، السهلية والرعوية والجبلية ، كانت ذات أثر في حياة السكان
الضاربين فيها ، وفي تاريخ هذه البلاد في العصور الوسطى^(٤) .

Terrasse : (op. cit.) p. 12. (١)

Ibid, p. 12. (٢)

Ibid p. 13. (٣)

Gantier : (op. cit.) p 21. (٤)

٤ — الحياة القبلية في بلاد المغرب الأقصى :

تسود الهضاب القسيحة ظاهرة اجتماعية إقتصادية معاً ، نغنى بها ظاهرة البداوة^(١). ذلك أن سكان هذه المناطق لا يستطيعون الإعتماد على موارد الإقليم النازلين فيه ، فيضطرون إلى النقلة، والترحال انتجاعاً للكلأ ، وطلباً للعيش الميسور الذى يتوفر فى جهات أخرى أوفر ثراء . فإذا أقبل الصيف اشتد الجفاف فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية ، وجف العشب ، وقل الماء ، فلا يجد السكان مفرأ من شد الرحال صوب الشمال ، حيث يتوفر المطر ، ويطيب المرعى ، وتيسر الحياة^(٢). فإذا أقبل الخريف، وأوشكت الأمطار أن تندى بطاح الهضاب بالمطر المنبت للكلأ، عادت جموع المهاجرين مرة أخرى إلى ديارها لقضاء فصل الشتاء^(٣). ويقضى السكان هكذا حياتهم بين رحلتى الشتاء والصيف .

هذه ظاهرة تحدث فى كل بيئة مشابهة وفى كل عصر، ولكنها كانت أكثر انتشاراً فى بيئة المغرب الأقصى فى العصور الوسطى^(٤). إذ كانت القبائل المغربية كثيرة الترحال من الشرق إلى الغرب ، أو من الغرب إلى الشرق ، أو من الشمال إلى الجنوب ، فلم تكن القيود الحالية المفروضة على سكان هذه البلاد معروفة إذ ذاك ، كما أن وسائل الإنتاج الزراعى والصناعى كانت محدودة ، ليست كما هى عليه الآن من تقدم ورفق نسبياً . أمعن القبائل المغربية فى طلب النقلة والترحال ، بعد أن شاع استخدام الإبل فى أواخر العصر الرومانى ، هذه الإبل التى أحدثت بحق ثورة فى حياة المغرب ، كما أحدثت انقلاباً فى الحياة الاجتماعية بعيد المدى ،

G. Marcais : Les Arabes en Berbérie, du XIe au XIV. S. p. 39. (١)

Ibid, p. 42. (٢)

(٣) البكرى : المغرب من ١٤٥ .

F. de la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara occidental, Hesperis, Anpée, 1939, Tome XI, p. 54. (٤)

فقد قربت المسافات البعيدة ، ولم تعد مناطق الصحراء ، وهضاب الاستبس صعبة العبور^(١) ، لذلك لا ندهش إذا وجدنا بعض القبائل في العصر الذي نتصدى له بالدراسة الآن تتوغل في نفلتها ، حتى تدرك نهري السنغال والنيجر ، فأن بطونا من قبيلة زنانة أوغلت في قلب أفريقية ، حتى أدركت هذه البلاد^(٢) .

وهناك فريق آخر من أهل البلاد ، ينزلون في السهول الساحلية المعتدلة المناخ الوفيرة المطر العاصر بالخصب والنماء ، ينجحون إلى الاستقرار والتعاق بالأرض ، ويميلون إلى الهدوء ، ويتوفرون على الإنتاج الصناعي والزراعي^(٣) . وفي البيئات الجبلية التي تتوفر فيها الأمطار ، وتصلح أرضها للزراعة تنزل طائفة من السكان تمنح أيضاً إلى حياة الاستقرار والهدوء ، وتعزف عن النقلة والترحال من وطن إلى وطن آخر . وقد كان هؤلاء القوم أشد سكان المغرب اتصالاً بالحضارات القديمة ، اتصلوا بالقرطاجنيين واللاتينيين ، وبحضارات البحر الأبيض المتوسط ، وهم الذين قاوموا بدو صنهاجة مؤسسي دولة المرابطين مقاومة عنيفة .

وقد اشتد الصراع بين هذين اللونين من الحياة ، أو بين هذين الفريقين من السكان ، فكانت القبائل البدوية لا تفتأ تغير على بلاد المستقرين ، بقصد الاستيلاء على هذه الأرض الخصبة الوفيرة الإنتاج^(٤) ، وكانت تنجح في بعض الأحيان في اجتياز الحواجز الطبيعية ؛ والتطرق إلى السهول ، وإخضاع أهلها ، وكان ذلك النزاع بعيد الأثر في تاريخ المغرب الأقصى^(٥) ، فقد كانت القبائل المستقرة تتآلف وتتآزر أحيانا في صد التيار المتدفق من الجنوب ، وكانت تصاب بالفرقة

Gautier : Les Sciécle Obscurs, p. 183. (١)

W. D. Cooley : The Negroland of the Arabs, pp. 47-48. (٢)

Ch. de la Roncière : La deconverte de l'Afrique au Moyen Age, I, p. 81 suiv.

Gautier : (op. cit.) p. 38. (٣)

Terrasse, p. 24. (٤)

Julién: (op. cit.) p. 16. (٥)

في بعض الأحيان ، فتضعف فيتغلب عليها البدو ، ويستولون على ما بيدها من أرض طيبة خصبة ، كما فعل بدو المثلثين .

في هذا المجتمع الذي يشتد التنافر فيه بين السكان ، وتكثر الهجرات ، وتتور الفتن ، وتنتشر الإغارات ، لا يتعلق السكان بالأرض ، على الصورة التي نجدها في البيئات السهلية ، ولا يدافع الناس عن وطن معين ينزلون فيه ، بقدر ما يدافعون عن الأسرة والعشيرة والقبيلة . أصبحت القبيلة محور الحياة في المجتمع^(١) . لا يستطيع الفرد أن يعيش فيه إلا منتصباً إليها ، تشد أزره وتحميه من شر عدوان المجتمعات الأخرى^(٢) ، بقدر ما يتآزر أفرادها ، ويتعاونون ، ويطيعون زعيمها طاعة عمياء ، وينتصون السيف ذوداً عنها ، ويجودون بأرواحهم دفاعاً عن كيانها ، بقدر ما تصبح قادرة على البقاء^(٣) ، ولو أنها وهنت ، أو ضعفت ، أو تقاعس أفرادها عن تلبية نداء الدم ، تفرق شملها ، واتهمتها القبائل الأخرى القوية .

وكما أن الفرد لا يستطيع أن يحيا منفرداً عن القبيلة ، كذلك القبيلة نفسها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها ، فلا بد من أن تنضوي تحت لواء حلف أكبر يضم القبائل ذات الأصل الواحد ، التي تدعى الانساب إلى جد مشترك ، وقد تضطر القبائل إلى ذلك دفعاً لظروف اقتصادية أو حربية^(٤) ، فاذا عزت الحياة في وطن ما ، ووضحت الحاجة إلى الإغارة على إقليم أوفر إنتاجاً ، اضطرت القبائل إلى الدخول في حلف للتآزر ، بقصد تحقيق ذلك الهدف المشترك ، وقد تنمو القوة الحربية لقبيلة من القبائل ، فتخضع القبائل الأخرى لنفوذها بحمد السيف ، وتحملها على الدخول في طاعتها ، والسير في ركابها لتحقيق الغرض المنشود ، وقد

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤١ ، ١٢١ و 42. Marçais : Les Arabes

(٢) Terrasse : (op. cit.) p.32.

(٣) Gautier : (op. cit.) p.253, & Julién, pp. 21—22

(٤) Marçais : Les Arabes p. 20.

تكتب السيادة لقبيلة بسبب دعوة دينية تنشرها بين القبائل الأخرى ، فيتم التآزر المنشود^(١) ، كما حدث لقبائل الملثمين والمصامدة ..

وقد تستعين هذه القبائل بالناحية السياسية لتحقيق أهدافها ، فتنتسب إلى خليفة ، أو إلى أسرة عربية تشد أزرها^(٢) ، فقد أيدت أحلاف قبائل البتر الدعوة الأموية ، كما أيدوا الفاتحين العرب من قبل ، على حين أيدت صنهاجه دعوة العلويين ، ثم دعوة الاسماعيلية فيما بعد . بهذه الوسائل يخرج الحلف المنشود إلى حيز الوجود ، ثم تخرج القبائل المتحالفة غازية أو مغيرة لتحقيق أهداف القوة السياسية المؤيدة لها ، فينتهي أمرها — إذا أفلحت — بإقامة دولة ، والتغلب على الأحلاف الأخرى ، وإخضاعها لسلطانها . وتؤلف القبائل المنتصرة غالبية الجيش ، وتمتلك ثمار النصر وتحوز الأرض ، وتفرض الضرائب على الشعوب المغلوبة ، وتؤلف حكومة مركزية ، أعنى تعيش القبيلة من الدولة والدولة^(٣) .

والدولة التي تقوم نتيجة لهذه الحركات لا تستطيع أبداً أن تتحرر من الروح القبيلية ، فالغالبون لا يفهمون إلا منطق القوة ، يستغلون العناصر المسودة وينسكلون بهم ، ويظل هؤلاء يتحينون الفرص ، فإذا امتنعت الفتوح قوى القبائل الخليفة ، وضعف شأنها ، هبت القبائل المسودة من مضاربها ، فقصت على الدولة القديمة ، وأقامت على أبقاضها دولة جديدة^(٤) .

هذه الحقائق تتمثل في ما كتبه العلامة ابن خلدون في مقدمته^(٥) ، وقد استقى ما وصل إليه من نتائج من واقع الحياة في بلاد المغرب ، وهو يرى أن

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٠

(٢) Marçais : Les Arabes, p. 20.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) Terrasse : (op. cit.) pp. 25-26.

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، الصفحات : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ .

١٧٤ ، ١٧٣ ، ١٦٥ ، ١٦٢ ، ١٦٠ .

الدولة قد تؤسسها قبيلة ، ثم تشب الدولة ، وتزدهر ، ثم تشيخ إذا ضعفت القبيلة أو تفرق شملها ، ثم تسقط ، وتقوم دولة أخرى تؤسسها قبيلة أخرى ، وهكذا دواليك . وهو يرى أن الدول كالأشخاص ، تولد ، ثم تشب عن الطوق ، ثم تشيخ ، ثم تنفنى .^(١) وقد يحدث أن يتفرق شمل الحلف ، وتضرب القبائل في البلاد مهاجرة ، ولكن هذه الهجرة لا تفصم رابطة الدم أبداً^(٢) ، وتظل هذه القبائل قريبة رغم تباعدها ، تحس إحساساً قوياً بالأصل المشترك ، وقد يجتمع شملها مرة أخرى ، فتتقارب ، وتتحد من جديد ، فتغدو أوفر ، وأشد قدرة على مواصلة السكفاح .

٥ — شعوب البر والبرانس :

وكان الرومان والبيزنطيون من بعدهم لا يهتمون — على ما نعلم — بهذا النظام القبلي السائد في بلاد المغرب اهتماماً كبيراً^(٣) ، إنما كانوا يطالعون على أهل البلاد اسم (Barbari)^(٤) ، لأنهم لم يهتموا بهذه القبائل كثيراً ، لأن نفوذهم لم يجاوز الساحل ، ولم يوغل إلى الداخل ، إلا في نطاق محدود ، كما أنهم لم يفهموا المجتمع على أساس قبلي ، إذ كانوا يقسمونه تقسيماً جغرافياً . أما العرب فما كاد يتم لهم فتح المغرب ، حتى فهموا الحياة فيه فهماً صادقاً ، فهي لا تكاد تختلف عن الحياة ، التي كانوا يألّفونها في شبه الجزيرة ، كما أنهم جاوزوا النطاق الساحلي ، وأوغلوا في الداخل ، وخالطوا القبائل ، وحرروها ، بعد أن اعتنقت الإسلام ، وظفرت بالمساواة .

وقد رأوا البر برطانتين عظيمتين ، أطلقوا على إحداها اسم البتر ، وعلى الأخرى

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦١ .

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 32 .

(٣) Gautier : (op. cit.) p. 23 .

(٤) Julién (op. cit.) p. 2 . واسماعيل رأمت : البيان في تخطيط البلدان ، ج ١ ،

اسم البرانس ، وأرجعوها لجد مشترك . وذلك يشبه إلى حد كبير قسمه الشعب العربي إلى عدنان وقحطان^(١) ، وقد نقل ابن خلدون هذه النظرية في أنساب البربر عن نسبة العرب ، أمثال أيوب بن أبي زيد ، ويوسف الوراق ، وابن حزم . وقد التزم هذا التقسيم الكتاب العرب المتقدمون ، أمثال ابن عبد الحكم^(٢) وصاحب رياض النفوس^(٣) ، ومعالم الإيمان في طبقات فقهاء القيروان^(٤) ، وكثيرون غيرهم . ولكن ابن خلدون فصل ذلك تفصيلا عظيما ، فإنه أفرد لتاريخ البربر الجزء السادس من تاريخه ، وأفاض في ذكر أنسابهم ، وأنساب قبيلة زناته ، وفي ذلك يقول : « أما شعوب هذا الجليل ، وبطونهم ، فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان ، وهما برنس ، ومادغيس ، ويلقب مادغيس بالأبتر ، فلذلك يقال لشعوبه الأبتر ، ويقال لشعوب برنس البرانس ، وهما معا ابنا بر . وبين النسابين خلاف ، هل هما لأب واحد ؟ فذكر ابن حزم عن أيوب بن أبي زيد أنهما لأب واحد ، على ما حدثه عنه يوسف الوراق . قال سالم بن سليم المطاطي ، وطاهر بن سرور الكومي ، وكهلان بن أبي لؤا ، وم نسبة البربر أن البرانس من نسل مازيغ بن كنعان ، والأبتر بنو بر بن قيس ابن عيلان ، وربما نقل ذلك عن أيوب بن أبي زيد ، إلا أن رواية ابن حزم أصح لأنه أوثق^(٥) .

(١) من القريب أن هذا التقسيم إلى بربر وبرانس لا يزال آثاره موجودة حتى اليوم ، ففي بعض قرى البربر ينقسم السكان إلى مجموعتين تحسان أنهما عطفين .
أنظر Rodd : The People of the Vail, p. 338 .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ، ص ٣٥ .

(٤) الذخ : معالم الإيمان ، ج ١ ص ٦٠ .

(٥) ابن خلدون : البربر ج ٦ ص ٨٩ ؛ فنيانخر البربر ص ٦٤ .

لكن على أى أساس قسم النسابون البربر هذين القسمين ، وميزوا بين طائفتين مختلفتين ؟؟ هل لا حظوا اختلافين الفرعين فى الحياة الاجتماعية مثلاً ؟ الواقع إننا إذا أمعنا النظر ، وجدنا أن أغلب قبائل البتر بدوية ، ولكننا نجد بعض قبائل زناتة بعد أن انتقلت إلى المغرب الأقصى مثلاً ، قد استقرت وامتهنت الزراعة ، وسكنت المدن ، ونعمت بما ينعم به المستقرون . أما البرانس فقد كانت بعض قبائلهم مستقرة فعلاً ، مثل صنهاجة الشمال ، التى كانت تنزل فى سهول والجزائر ، وكذلك كتامة . ولكننا نجد فى الوقت نفسه بعض قبائل البرانس عريقة فى البداوة ، مثل قبائل الملمثمين ، التى تضرب فى بوادي المغرب . . . إذن لا يمكن أن تكون الناحية الاجتماعية أساس هذا التقسيم^(١) . ألا يكون الأساس ثقافياً مثلاً ؟ تأثرت بعض القبائل ببعض مظاهر الحضارة اللاتينية ، وبقيت بعضها بمعزل عنها ؟ فقد ذكر صاحب الأعلام النفيسة « أن البرانس أصحاب عمارة وزرع وضرع^(٢) » ؛ كما ذكر غيره أن البربر النازلين فى السهول ، قد تأثروا بالحضارة الرومانية ، على حين بقيت عوالم جمة من البربر بعيدة عن هذه التأثيرات ، لكن يخيل إلينا أن العرب لم يضعوا هذه الاعتبارات نصب أعينهم حين قسموا البربر هذا التقسيم ، خصوصاً بعد أن أسلموا وجبوا ما بينهم ، وبين ماضيم القديم .

وقد لاحظ رُدْ (Rodd^(٣)) ، الذى أرخ للطوارق فى العصر الحاضر ، أن هذا التقسيم باق إلى اليوم ، وأن فى القرية عنصرين متباغضين أبداً ، أولئك بتر ، وهؤلاء برانس ، وقد علل ذلك بأن الخلافات لا بد وأن تكون جنسية ،

(١) Gautier : (Op. cit.), pp. 190—214.

(٢) ابن رسته : الأعلام النفيسة ص ٣٥ ؛ والبيان المغرب ، ج ٢ ص ٥٨ ؛ وزهرة الأس ص ٦ ؛ وجذوة الاقتباس ص ٥ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) Rodd : People of the Vail p. 338.

والواقع أن الخلاف بين الطائفتين عميق الجذور إلى درجة بعيدة ، فقد شكل تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، وأثر في مجراه ، وكانت العداوة واضحة شديدة طوال العصور الوسطى بين البتر والبرانس ، جعلت كل طائفة تقف للأخرى بالمرصاد تريد أن تنتقم منها ، وتتربص بها الدوائر ، لتنتقم منها ، فليس ببعيد أن يكون القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين ، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين ، والأخرى تمثل الوافدين الجدد ، الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم ، وخصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون إن صنهاجة البرنسية تنسب إلى العرب ، إلى خمير .

ومن ناحية أخرى نرى ابن خلدون يطلق على البتر اسم أولاد مادغيس ، ويذكر أن الطائفتين تنسبان إلى مازيغ بن كنعان^(١) ، وقد لاحظ رُد (Rodd)^(٢) أن كلمة مازيغ تتألف من ثلاثة حروف جامدة : م - ز - غ ، وأن هذه الحروف الثلاثة تنتشر انتشارا عجيبا في لغات البربر كلهم ، حتى بين الطوارق ، مما يدل على أن الخلاف بين البرانس ، وبين أولاد مادغيس خلاف لغوي محض ، وخصوصا أن الإدريسي يذكر أن قبائل العرب (صنهاجة) نزلت على قبائل البربر ، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المجاورة^(٣) .

ويمحىل إلى أن الاختلاف بين هاتين الطائفتين اختلاف جنسى ولغوى معا ، كل كتلة تكون أمة قائمة بذاتها ، تحس برغم تفرقها وانتشارها برابطة للدم والقربا ، أما الخلافات الاجتماعية فهي اعتبارية ، إذ من الممكن أن يستقر البدو ويتبدى المستقرون .

(١) ابن خلدون : البر ج ٦ ص ٩٩ .

(٢) Rodd : (op. cit.) p. 339 .

(٣) الإدريسي : أرض المغرب ص ٧٠ .

ومهما يكن من أمر هذا التقسيم ، فإنه أكثر دلالة على أحوال البلاد ،
وأكثر اتفاقا مع طبيعة نظام أهلها الاجتماعى ، وأن التزامه ينير لنا السبل ، لنفهم
تاريخ البربر فى القرون الوسطى^(١) ، وفى هذه الفترة التى سنعرض لها بالدراسة على
الخصوص . ذلك أن النزاع بين البرانس والبترشكل تاريخ الإسلام فى المغرب ، وأثر
فيه تأثيرا بعيد المدى ، بل امتد أثره إلى الأندلس ، واحتدم النزاع بعد سقوط
الخلافة الأموية بين زناتة وبين صنهاجة ، مما هدد الوحدة الإسلامية بالخطر
الجسيم^(٢) . أما فى بلاد المغرب ، فقد وضح ذلك الخلاف بعيدَ الفتح العربى ،
فقد حالت زناتة البترية الفاتحين منذ البداية ، وحمل البرانس عبء المقاومة ، فلما
تم إخضاع البربر لسلطان الخلافة الإسلامية ، حالف البتر بنى أمية^(٣) ، ووالى
الصنهاجيون البرنسيون العلويين ، وتعصبوا لهم ، وأيدوا إدريس بن عبد الله ،
حين لجأ إلى المغرب الأقصى . فلما استتب الأمر للفاطميين كان البرانس من
كتامة وصنهاجة من أشد جنودهم إخلاصا ، ولذلك أمعنوا فى الفتك بالزناتيين
واضطهادهم ، فاضطروا إلى الاعتصام بالخلافة مرة أخرى . وأصبح الصراع
فى المغرب الأقصى بين الأمويين والفاطميين ثم الزيريين ، فى الواقع ، مجرد نزاع
بين زناتة وصنهاجة ، أو بين البتر والبرانس ، وكان بلكين بن زيرى أمير صنهاجة
يقول « لا أمان عندى لبربرى ركب فرسا أو نتج خيلا أبدا حينما سلك من
البلاد^(٤) » . وكان السكره لزنانة من بين الأسباب التى جعلت صنهاجة الجنوب
مؤسسة دولة المرابطين ، تحف إلى التدفق صوب المغرب الأقصى للنيل من ذلك
العدو التقليدى .

(١) Terrasse : (op cit) p. 21.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) . فلاح البربر فى القرون الوسطى ، ص ٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٨ .

٦ — قبائل البتر ومضاربهم :

وطائفة البتر من البربر تتألف من قبائل ، أهمها زناتة ، وزواغة ، وزواوة ، ونفزة ولواته ، ومزاتة ، ونفوسة ، ومغيلة ، ومطاطة ، ومطهرة ، ومديونة ، وصدينة ؛ ولكل قبيلة بطون وأفخاذ لا تحصى . وهم ينزلون بهذه السلسلة من الوديان العالية أو الوطيفة الصحراوية أو الرعوية ، أو شبه الرعوية ، التي تمتد امتداداً متصلاً من طرابلس إلى تازا^(١) . كما ينتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس^(٢) الأقصى ، ويكونون غالبية سكان القرى الصحراوية ، كما توجد بطون من البتر في أقاليم التل قرب طرابلس ، وفي قلب سهول أفريقية ، وجبال أوراس^(٣) ، وتنزل قبيلة نفوسة بجبل نفوسة جنوب طرابلس ، وتنزل مطاطة في إقليم الجريد .

أما زناتة فتتوزع عشائرها ووطنها إقليم المغرب الأوسط ، حتى لقد أطلق على هذا الإقليم اسم أرض زناتة . وينتشرون في إقليم الصحراء جنوب تونس ، وكذلك سفوح الأوراس والهضاب العليا ، ونطاق الاستبس والمراعي ؛ وقد أصبحوا بحكم هذه الأوطان التي نزلوا فيها من أهم قبائل البدو في المغرب ؛ وأكثرها نقلة وترحالاً^(٤) ، وأهم قبائل البتر التي كان لها شأن عظيم في تاريخ المغرب في العصور الوسطى قبيلة زناتة^(٥) ، التي كانت تمتاز بالروح الحريية

(١) Gantier : (op. cit.) p. 195.

(٢) De la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental
Hésp. Année 1930, T. X.

Idem (٣)

(٤) الإدريس : أرض المغرب ، ص ٨٨ .

(٥) Gantier; (op. cit.) p. 184.

العالية ، والتفوق في القتال^(١) ، وكان رجالها دائماً من أشجع فرسان البربر ، وقد لعبوا في تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبي عامر دوراً عظيماً ، إذ استقدم إلى الأندلس أعداداً غفيرة منهم ، قامت بدور هام في حركة الجهاد المقدس^(٢) .

٧ — المصامدة :

ومن أهم الأحلاف القبلية الأخرى ، الضاربة في المغرب الأقصى ، حلف مصمودة ، وقبائله وفيرة العدد ، تحتل قبائله المناطق الجبلية من المغرب الأقصى وتحتل بعض بطونها سهول الساحل الأطلسي ، وكانت قبيلة غمارة تنزل باقليم المضائق ، كما كانت برغواطة تضرب ما بين بور جرج وأم ربيع^(٣) ، وكانت بعض بطون من مصمودة تحتل إقليم أطلس الكبرى ، وأطلس الصغرى^(٤) . والمصامدة زراع مستقرون ، ينزلون بالمدن والقرى ، ويلتصقون بالأرض ؛ لم يشاهدوا مهاجرين طوال العصور الوسطى ، تحملوا عبء هجرات القبائل الأخرى في شجاعة وثبات^(٥) ، ودافعوا عن الأرض التي يحتلوها شجراً شجراً . وقد ظلت مصمودة حتى القرن الثالث الهجري صاحبة الكلمة الأولى في المغرب الأقصى ، حتى أخذت زناتة تفر من المغرب الأوسط ، وتغير على ما يسد من أرض جيدة ، وقد ظلت في صراع معها حتى أغارت قبائل صنهاجة أهل اللثام على ديارهم ، وأخضعوهم لسلطانهم^(٦) ، ولكن المصامدة يؤلفون كتلة

(١) Terrasse : (op. cit) p. 23.

(٢) ابن خلدون : البربر ج ٦ ص ١٠١ .

(٣) مفاخر البربر ص ٧٤ .

(٤) وأدى أم ربيع نهز بالمغرب الأقصى يصب في البحر المحيط ، وعليه قرية يقال لها

أم ربيع . أنظر الادريس ص ٧٠ - ٧٢ .

(٥) Terrasse : (op. cit.) p. 23.

(٦) De la Chapelle : Hesperis, 1930, T. XI, p. 54.

بشرية مستقلة لها ظروفها ومقوماتها ، ولا تمت لصنهاجة بسبب من قرابة
أونسب^(١).

٨ — قبائل البرانس ومضاربهم :

أما الفرع الآخر من فروع شجرة النسب البربرية فهم البرانس ، الذين
ينتشرون فوق صفحة المغرب من أفريقية حتى المغرب الأقصى ، وتوغل بعض
قبائلهم في غرب أفريقية حتى تدرك منحني نهر النيجر ؛ وهم يمتازون بالقوة والبأس
وهم كما قال بن خلدون « من أوفر قبائل البربر ، وهم أكثر أهل المغرب لهذا
العهد ، وما بعده ولا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم ، في جبل
أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلثان من البربر ، وكان لهم في
الحروب ذكر ، وفي الخروج على الأمر شأن^(٢) » .

نزلت هذه القبائل في النواحي الشمالية ، والسفوح الجبلية الصالحة للزراعة ،
كما كانت تضرب في النواحي الخصبية المحيطة ببحال أوراس ، وفي الجهات الجنوبية
والوسطى من إقليم الجزائر ، وأوغلوا في مرا كش ، ونزلوا بالجزء الشرقي من
جبال أطلس الكبرى^(٣) ؛ بل تجاوزوا ذلك النطاق الجبلي فاحتلوا ساحل
المحيط الأطلسي ، حتى مصب نهر السنغال ، ومنحني النيجر ، وجانبت بعض
قبائلهم في صحراء المغرب القريبة من مرا كش .

إذن فالغالبية العظمى من هذا الفرع العظيم تنزل في المناطق السهلية ، التي
تتحف بساحل البحر ، وفي المناطق الجبلية الممتدة عبر المغرب ، هذه المناطق التي
تتوفر أمطارها ، وتجود تربتها ، ويصبح من اليسور زراعتها^(٤) ، فكانت

(١) Terrasse (op. cit.) p. 21.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ من ١٥٢ .

(٣) Gautier : (op. cit.) p. 282.

(٤) ابن رسته : الأعلاق النفية ص ٣٥٥ و Gautier : p. 354 .

بحكم انتشارها هذا أقرب القبائل من مناطق الحضارة الرومانية ، اغترفت من
منهاتها ، وتأثرت بما نشره الرومان من حضارة زاهرة ، وحالقتهم ووقفت إلى
جانبيهم زمن الفتح ، وناضلت العرب نضالاً مرأً^(١) . وأهم قبائل البرانس : أزداجة
وأوربة ، وعجيسة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وأوريفة ، ولطة وهسكورة ، وكزولة^(٢) .
وكانت الزغامة زمن الفتح لقبيلة أوربة^(٣) ، ثم آلت إلى صنهاجة الشمال مؤسدة
دولة بني زيري ، ثم إلى صنهاجة الجنوب مؤسدة دولة المرابطين .

ولم تكن صنهاجة في الواقع مجرد قبيلة ، بل كانت شعباً عظيماً^(٤) ، يتألف
من قبائل قبل أنها بلغت السبعين عندها^(٥) ، وانتشرت فوق صفحة المغرب .
انتشاراً بعيد المدى^(٦) ، حتى كتبت الغلبة لشعوب أخرى لعلها شعوب البتر ،
فأغارت على مواطنها وقسمت الكتلة الصنهاجية قسمين : قسم شرقي في أفريقية
والمغرب الأوسط ، وقسم غربي في المغرب الأقصى . كانت بطون صنهاجة في
الواقع تنتشر بإقليم الجزائر ، في ما بين المسيلة^(٧) ، وتري ، وميله ، وكانت تسيطر
على ذلك الطريق الموصل بين مرطانية السطيفية^(٨) ، ومرطانية القيصرية^(٩) .

(١) ابن خلدون : المغرب ج ٦ ص ١٠٨ .

(٢) ابن خلدون : المغرب ج ٦ ص ٨٩ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧١ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٥٧ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة صنهاجة) .

(O. Marçais) و Fournel : Les Berbères, Vol. I, p. 204.

(٦) مدينة بالمغرب الأوسط على الطريق إلى تونس ؟ (الادريسي) ص ٨٤ .

(٧) Gauthier, pp. 334, 335 مدينة مسيلة بكسر اللام من مدن المغرب الأقصى على

أربعة مراحل من الشرق ، من قلعة بني حماد ، وبينها وبين قسنطينة ١٠ ميلاً . أنظر

ياقوت : البلدان ج ٤ ص ١١٧ .

(٨) قسم من أقسام Mauritania في العهد الروماني ، Mauritania Sitifienne .

(٩) قسم من أقسام Mauritania في العهد الروماني Mauritania Caesarienne .

كما كانت بعض قبائل (أخرى) ^(١) تضرب في منطقة الأطلس الوسطى من تازا إلى إقليم بني هلال ^(٢)، وتحتل متحدرات الأطلس الكبرى الجنوبية وتوغل جنوبا بحتلة الواحات الواقعة على أطراف الصحراء ^(٣) وتوغل في المغرب الأقصى في إقليم الريف ^(٤) حتى طنجة ^(٥)، كما كان بعضها ^(٦) ينزل حول أزموزة ^(٧) « كانت بلادهم في القبلة ^(٨) مسيرة سبعة أشهر طولا، ومسيرة أربعة أشهر عرضا، من نول لمطة في أقصى المغرب، إلى قبلة أفريقية، وقبلة القيروان من بلاد أفريقية ^(٩) ».

ومن الغريب أن تنتسب هذه القبائل المغربية إلى العرب ^(١٠)، ولا نستطيع أن نعلل ذلك إلا بأنها أرادت بعد أن تم إسلامها، أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية، حتى تستطيع المشاركة في الحياة السياسية الجديدة التي أظلت المغرب بمجيء العرب، فاصطنعت لنفسها أنسابا عربية. ويرى جوتييه ^(١١)

(١) Gautier: (op.cit.) p. 335.

(٢) Terrasser: (op.cit) p. 23.

Idem. (٣)

(٤) مفاخر البربر ص ٦٦ .

(٥) مشيخة القاضي عياض ورقة ٢٤ ب .

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠ .

(٧) ثلاث ضمات متواليات ولشديد الميم والواو ساكنة وراء مهمة مدينة بالمغرب

الأقصى . ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٧ .

(٨) Terrasse : p. 23.

(٩) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٥ .

(١٠) الحلل الموشية ص ٤٧ . جامع تواريخ فاس ص ٢٧ . روض القرطاس ص ٧٥ .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (مخطوط بخداد قسم ٢ ص ١٠٢) : « الطرب لابن دحية . ورقة ٤٩ أ ، الخريدة ج ١١ ص ٦٠ ، الدهشقي ص ٢٦٧ ، مفاخر البربر ص ٥١ ، السعادة

بالأبدية ج ٢ ص ٨٨ — ابن خلدون ج ٦ ص ٩٤ ، ٩٧ . و Fournel (op. cit.) V. I, p. 36

(١١) Gautier: (op. cit.) p. 116—119.

في إنتساب صنهاجة إلى حمير ظلًا من تأثيرات فينيقية وفدت على المغرب في العصور القديمة ، على إعتبار أن الحميريين هم فينيقيو البحر الأحمر ، وأن بعض اللهجات الفينيقية ظلت باقية في البلاد إبان العصر الروماني ، فليس ببعيد أن تكون القبائل البرنسية قد خضعت لمؤثرات فينيقية قديمة ظلت ذكرها ماثلة لدى النسابين ، فربطوا بين صنهاجة وبين الحميريين ، وقد أقره فورنل^(١) ، ودي لا شابل^(٢) وجوتيه على هذا الرأي ، بل أن جوتيه يرى أن التأثيرات الفينيقية قد هيأت المغرب لإستقبال العرب ، عن طريق بثها للمؤثرات السامية في البلاد^(٣) . إذا صح هذا الرأي تكون صنهاجة قد خضعت لمؤثرات سامية فينيقية ولأخرى رومانية^(٤) ، هيأتها لتلعب ذلك الدور الزاهر الذي اضطلعت به في تاريخ البلاد . وقد تهيأ للقبائل الصنهاجية بحكم سعة انتشارها أن تتنوع حياتها الإجتماعية ، فقد كانت بعض القبائل تحيا حياة الاستقرار على النحو الذي عرضنا له ، كما كانت بعض القبائل الجبلية الأخرى تنتقل عادة نقلة الشتاء والصيف طلباً للرعى ، وكانت بعض البطون الأخرى تحيا حياة بدوية عريقة في صحراء المغرب^(٥) . ومن الغريب أنه رغم تفرق شعب صنهاجة على هذه الصورة ، ظلت رابطة الدم والثقافة المشتركة تؤلف بين أشتاته ، وتجعله يتخذ عند وقوع الخطر لدفعه ، وقد تمكنت صنهاجة بفضل هذه الحضارة التي أصابت منها بعض الشيء ، وبفضل هذا التنوع في الحياة الاجتماعية ، وهذه الرابطة الأسرية الوثيقة من أن تكتف لنفسها في المغرب تاريخاً مجيداً « فشرف صنهاجة أصيل ومجدهم أثيل » .

Fournel: Les Berbères. Vol. I, p. 36, 38. (١)

De la Chapelle : Hesperis, T. XI, p. 49. 1930. (٢)

Gautier : (op. cit.) p. 122. (٣)

Ibid p. 334. (٤)

Terrasse: (op. cit.) p. 22. (٥)

ورياستهم قديمة^(١) « أسست صنهاجة الجيل الأول دولة بني زيري ، وأسست صنهاجة الجيل الثاني دولة المرابطين :

٩ — قبائل الملتحمين مؤسسا لدولة المرابطين :

أما القبائل التي تستحق أن نوليها نصيباً كبيراً من عنايتنا ، فهي تلك التي أطلق عليها المؤرخون إسم قبائل الملتحمين ، لاتخاذها اللثام شعاراً يميزها عن سائر قبائل المغرب ، فإنها في الواقع صاحبة اليد الطولى على الدولة المرابطية ، بل يرجع إليها الفضل في نشر لواء الاسلام في ربوع إفريقيا ، والسودان الغربي ، لأنها ظلت بعد أن تم إسلامها قروناً طويلة تجاهد قبائل السودان ، وتحملها على الإسلام حملاً ، حتى توجت جهودها بالنجاح ، ولا تزال آثارها باقية حتى اليوم . نعم استطاعت هذه القبائل بعد أن تم تحالفها أن ترفع لواء مذهب مالك في أقاصي الصحراء وأن تخرج عن ديارها مجاهدة عاملة على إحياء الاسلام ، ونشر لوائه ، فتم لها ما أزدت من سؤدد ، وتأسست دولة المرابطين التي انبسط ظلها من منحى النيجر في الجنوب حتى البحر الأبيض في الشمال ، بل جاوزته إلى الأندلس ، على النحو الذي سنفصله فيما بعد . فمن حقها علينا أن نطيل الكلام عنها بعض الشيء ، وأن نعرف بها ، تمهيداً لتوضيح ذلك الدور الرائع الذي اضطلعت به في تاريخ البشرية .

هذه القبائل وفيرة العدد ، قيل أنها تجاوز السبعين عدداً ، وقد ذكر المؤرخون أن من أهمها قبيلة لمطة^(٢) ، وترغة^(٣) ، وسرته^(٤) ، وجزولة^(٥) ، ولمشتونة^(٦) ،

(١) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ورقة ٤٩ (أ) .

(٢) الدمشقي : نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٣ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٥

الحلل الموشية ص ٧ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، Terrasse p 213 .

(٣) ابن حوقل : المسالك ص ٨٧ ، Terrasse : (op. cit.) p. 196 .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٥٢ .

(٥) الدمشقي ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٦) الدمشقي ص ٢٣٨ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٥ .

وجدالة^(١)، وسمطة^(٢)، وتازكاغت^(٣)، وكاكدم^(٤)، وتندغ^(٥)، ومسوفة^(٦)،
واتنصر^(٧)، وبنو نيتسر^(٨)، وتريكة^(٩)، وزغاوة^(١٠)، وواشان^(١١)، وثمالة^(١٢)
وإيتواري^(١٣)، ومداسة^(١٤)، ودكالة^(١٥)، وهسكورة^(١٦). ولكن أهم هذه
القبائل جميعها لمتونة، ثم جدالة، ثم مسوفة^(١٧). وقد كانت الرياسة في قبائل
الملثمين على العموم لمتونة، التي كانت تنازع جدالة هذه الزعامة باستمرار^(١٨)
حتى كتب لها الظفر آخر الأرض، كما كانت الرياسة في لمتونة معقودة لبني ورتنطق،
الذين أنجبوا ذلك الزعيم المغربي الكبير يوسف بن تاشفين^(١٩).

-
- (١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١؛ وجامع تواريخ قاس ص ٢٧؛ الحلل الموشية ص ٧.
(٢) ابن حوقل ص ٧٨؛ الأدريسى ص ٥٧ - ٥٩.
(٣) دمشق ص ٢٣٧ - ٢٣٩.
(٤) المرجع السابق، نفس الصفحات.
(٥) R. Basset : Mission au Senegal p. 447.
(٦) النويري : نهاية الأرب، ج ٢٢ ص ١٧٣ ابن حوقل ص ٧٨ ابن خلدون ج ٦ ص ١١١.
(٧) البكري : المغرب ص ١٨٠.
(٨) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١.
(٩) نفس المرجع والصفحة.
(١٠) الأدريسى ص ٥٧ - ٥٩.
(١١) نفس المرجع والصفحة.
(١٢) البيهقي : كتاب أخبار المهدي ص ١٠٧؛ دمشق ص ١٣٨ - ١٣٩،
ابن المؤقت : المعادة الأبدية ص ٦٨.
(١٣) دائرة المعارف الإسلامية : مادة لطة، (G.S. Colin).
(١٤) دمشق ص ٢٣٨؛ Julién p. 376. Bel : Les Benou Ghanya p. 7.
G Demombynes : Masalik El Absar p. 60. ودائرة المعارف الإسلامية : مادة لمتونة
(Colin) .

(١٥) الحلل الموشية ص ٦.

(١٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١.

(١٧) دمشق ص ٢٣٨.

(١٨) الحلل الموشية ص ٦.

(١٩) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١.

وقد حاول جوتييه^(١) أن يشكك في إنتساب هذه القبائل كلها إلى الفرع الصنهاجي الأكبر ، بحجة اختلاف البيئة ، والحياة الاجتماعية . فقد تساءل عن الرابطة التي تربط بين هذه القبائل المستقرة المتحضرة النازلة بإقليم الجزائر ، وبين هذه القبائل الملتمة التي تضرب في الصحراء . والواقع أنه ما من مؤرخ معاصر لهذه الحوادث ، أو شبه معاصر لها ، إلا وقد نسب قبائل الملتمين لصنهاجة ، بل إن المراجع^(٢) التي تعرضت لهذا الأمر تكاد تؤكد هذا النسب ، وتعترف به حقيقة مؤكدة لاشية فيها ولا ريب .

بل إن مرجعاً مادياً معاصراً ينهض لتأييد ما نذهب إليه ، فقد ذكر بروفنسال في مجموعة النقوس الأندلسية شاهد قبر لأميرة مرابطية من سنة ٤٩٦ ، هذا نصه « هذا قبر بدر بنت الأمير أبي الحسن علي بن تاشا ... (فين) الصنهاجي توفيت رحمها الله : »^(٣) بل إن شاعراً معاصراً مثل ابن خفاجة الأندلسي مدح الأمير أبا يحيى بن إبراهيم ، وأبا بكر بن الحاج ، وأبا اسحق بن أمير المسلمين . وتعرض لإنتسابهم لصنهاجة والعرب^(٤) .
كما أن أميراً زيرياً هو عبد الله بن بلكين أمير غرناطة يقول في مذكراته التي نشرها ليثي بروفنسال في مجلة الأندلس . حين علم بقدوم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس « وطننا أن إقباله إلى الأندلس منة من الله عظمت لدينا لاسيما خاصة من أجل القرابة »^(٥) .

(١) Gautier p. 214.

(٢) روض القرطاس ص ٧٥ ؛ أبو الفدا ص ١٨٣ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٢ ،
الحلل الموشية ص ٩ ، جذوة الاقتباس ص ٣٤٢ ، السيوطي المغربي ص ٢ و Terrasse p. 203 .

(٣) E-Lévi-Provençal : Inscriptions Arabes c'Espagne No. 24. p. 31.

(٤) ابن خفاجة الأندلسي ص ٢٠ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ٩٢ قال :

تنميهم الدنيا إلى ضهاجة والدين ينميهم إلى الأنصار
شادت يد العلياء في عرصاتهم أعلى مناراً في أعز ديار

(٥) Al-Andalus Vol. II, Fase 2, 1935, p. 338.

كما أن المؤرخ جيانجوس ترجم نصا من كتاب الإكتفاء ، جاء فيه على لسان أم عبد الله بن بلسكين تحضه على لقاء يوسف بن تاشفين « اخرج لتحيي عمك يوسف »^(١).

كما أن جوتيه نفسه قد ذكر أن المرابطين لما غزوا تلمسان كانت أميرة من صنهاجة أفريقية تزور المدينة ، فلما خافت على نفسها تقدمت للفتحين ، ونهت بالقرابة القائمة بين الفرعين ، فردوها إلى بلدها مكرمة^(٢) . ولعل مما يؤيد هذا الرأي ما ذكره بعض المؤرخين المحدثين^(٣) من أن هذه القبائل كانت تضرب في شمال أفريقية في بوادي المغرب وسهولة ، شأنها شأن أخواتها من قبائل صنهاجة ، ولكنها أخذت منذ القرن الثالث الميلادي تهجر مواطنها متجهمة صوب المغرب ، ثم ما لبثت أن انحدرت نحو الجنوب . ويخيل إلينا أن السبب في ذلك يرجع كما بينا من قبل إلى أن استخدام الإبل في العصر الروماني ، قد أدى إلى هذه النتيجة ، فإن قبائل البتر كانت سباقة إلى استخدامها ، فأخذت تدفع قبائل صنهاجة أمامها دفعا ، فصمد بعضها ، وفر البعض الآخر إلى المغرب الأقصى^(٤) ، ثم استخدموا الإبل بدورهم ، وبدأوا يرتادون الصحراء ويستقرون في بعض جهاتها منذ وقت بعيد . وكانت هذه القبائل في الواقع تدفع إلى الصحراء موجة في أثر موجة ، لاتكاد الموجة الأولى تستقر في وطنها الجديد ، حتى تغادره نحو الجنوب ليحل محلها فوج آخر^(٥) ، وهكذا دواليك .

(١) Gayangos Vol. II, ap c. p. XL.

(٢) Gautier, p. 377.

(٣) Terrasse p. 211, De la Chapelle, Hesper. p 49

القديس ، أقطر الحلال الموشة من ٧ — الأديسي من ٥٧ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ .

(٤) Gautier : (op. cit.) p 184—185.

(٥) De la Chapelle, Hespéris 1930, T. XI., p 49.

وقد أذكت الغزوات العربية تيار الهجرة ، ففرت بعض القبائل الصنهاجية أمام الفاتحين إلى المغرب الأقصى ، فلما أوغل الفاتحون في هذه البلاد فرت بعض القبائل الصنهاجية إلى الصحراء^(١) ، حتى أن موسى بن نصير لما أوغل في بلاد السوس في طلب البربر ، وجد فريقاً من صنهاجة يحتل أطراف الصحراء جنوب جبال درن^(٢) .

وقد كانت ديار قبائل السودان تتخطى منحنى النيجر موغلة نحو الشمال ، وكانت تقف حجر عثرة أمام هجرة هذه القبائل الصنهاجية ، فلما انتشر الإسلام في ديار صنهاجة ، أخذت تعمل على نشره بين قبائل السودان^(٣) واتخذت هجرتها نحو الجنوب طابع الجهاد المقدس ، فأخذت تدفع السود نحو الجنوب^(٤) دفماً حتى تم لها إدراك منحنى النيجر في هجرتها .

وقد بلغت هذه الحركات الذروة في القرن الخامس الهجري ، وسنرى كيف أنه بعد أن تم توحيد هذه القبائل تحت لواء عبد الله بن ياسين ، أخذت تتدفق إلى الشمال مرة أخرى ، مساهمة في تأسيس الدولة الجديدة ، وأخلت ديارها لتحتلها بعض القبائل الزناتية المغلوبة على أمرها ، مثل قبيلة مغراوة ، بل أن الطوارق — أحفاد صنهاجة — لا زالوا حتى اليوم يعتقدون أنهم انحدروا إلى ديارهم من الشمال^(٥) .

ودراسة توزيع هذه القبائل ، وتحديد مواطنها ، أمر لا بد منه ، إذا أردنا أن نضع أساساً صليحاً لفهم تحركات هذه القبائل صوب الشمال ، إبان تأسيسها

(١) De la Chapelle, p. 57.

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب - ١ ص ٢٧ .

(٣) Arnold; The Preaching of Islam, p. 317 suiv.

(٤) De la Chapelle p. 49.

(٥) Rodd : People of the Vail p. 364.

لدولة المرابطين ، ثم غزوها لبلاد المغرب ، ثم الأندلس ، واعتمادنا في هذه الدراسة على البكري الذي وصف مضارب تلك القبائل في القرن الخامس الهجري ، قبل أن تتدفق صوب الشمال ، ذلك التدفق الشامل المعروف ، والادريسي الذي ألم بتلك البلاد بُعِيدَ سقوط دولة المرابطين ، وتفرق شمل هذه القبائل القوية ، وعودتها إلى حياتها القديمة من البداوة ، والتجول في الصحراء . أما ما كتبه الرحالة والمؤرخون المتأخرون فاعتمادنا عليهم ليس كبيراً .

وأهم ما نلاحظه في هذا التوزيع ، أن المؤرخين يحددون لهذه القبائل وطناً عاماً يمتد من غدامس^(١) جنوب طرابلس إلى المحيط الأطلسي ، في المناطق الصحراوية ، التي تلي سلسلة الجبال المعروفة بجبال درن ، كما يمتد هذا الوطن العام من جبال درن في الشمال ، حتى مصب نهر السنغال^(٢) ، بل يمتد إلى منحى النيجر أو يجاوزه بقليل ، بل تتخطى مضاربهم هذا النهر إلى الشرق بمراحل عديدة ، فتصل إلى تادمكه^(٣) في قلب الصحراء الكبرى^(٤) .

هذا هو الوطن العام أو المجال الحيوي الذي تجوس فيه قبائل الملتهمين طليقة من كل قيد . أما الأوطان الخاصة فإن لكل قبيلة مضاربها المعلومة ، ومجالها الذي تجوس فيه ، فقبيلة لمطة ، وجزولة ، تحتل المنطقة الممتدة من جبال درن ، حتى وادنول^(٥) القريبة من المحيط الأطلسي^(٦) ، على حين تنتشر ترغة في وادي

(١) بضم أوله أو بفتح مدينة بالمغرب ، ثم في جنوبيه ضاربة في بلاد السودان بإقليم

الواحات ، ياقوت البلدان ج ٣ ٧٧٤ .

(٢) الحلال الموشية ص ٧ ، جامع توارينغ فاس ص ٢٧ ، روض القرطاس ص ٧٥ ، ابن خلدون

ج ٦ ص ١٠٠ .

(٣) مدينة بصحراء المغرب على مسيرة خمسين يوماً من غانة إلى الشرق من البكري

١٨١ .

(٤) البكري : المغرب ص ١٨١ ، الدهشقي : نخب الدهر ص ٢٣٨ ٢٣٩ .

(٥) مدينة نول آخر مدن الإسلام ، وهي أول صحراء المغرب ونهرها يسمى وادي

نول يصب في البحر المحيط البكري ١٦٢ .

(٦) البكري : المغرب ص ١٦٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة سوس

. Terrasse p 196 Provençal 196

درعة^(١) ، وقد تمتد مضاربها غربا فتجاوز مضارب هاتين القبيلتين . ويبدو أن هذه القبائل جميعها تتصل ديارها إلى مدينة سجلماسة ، والمناطق القريبة منها^(٢) . أما قبيلة لمتونة أهم هذه القبائل وأقواها ، فهي تمتد من منطقة تلي منطقة لمطة وجزولة ، وتمتد من وادي نون على المحيط الأطلسي ، حتى رأس بوجادور الحالية . وإلى الشرق من وادي نون تقع مدينة أركي^(٣) على مسيرة سبعة أيام من وادي نون ، وهي حصن لمتونة^(٤) ومقلها . ويبدو أن هذه القبيلة ، توغل في الصحراء شرقا ، حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة ، وسجلماسة^(٥) ، حتى لقد قيل إن ديارهم تمتد مسيرة شهرين طولا وعرضا ، ولكنها لم توغل على ساحل المحيط حتى مصب السنغال ، كما يقول البعض ، ولا يبعد أن تكون بعض بطونها قد رحلت حتى أصبحت على مقربة من غانة ، بدليل أن الأدريسي يذكر أن تكرور من بلاد لمتونة . مع أن تكرور هذه في وادي النيجر^(٦) في الجنوب .

مهما يكن من شيء ، فإن هذه القبيلة كانت تحتل موقعا ممتازا ، فقد سيطرت على ذلك الطريق التجاري الهام ، الذي يسير بحذاء البحر المحيط ، كما كان طريق غانة - سجلماسة قاب قوسين من ديارها ، فليس بغريب أن تكتب لها السيادة على هذه القبائل جميعها . وفرة من المال ووفرة في العدد وموقع ممتاز^(٧) .

(١) De la Chapelle : Hesp. 1930, T. XI, p. 24. — Terrasse p. 196.

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ١٧٢ .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦١ ، الأدريسي ص ٥٧ ، ٥٩ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة (سوس) .

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٤ .

(٥) الأدريسي : أرض المغرب ص ٣ .

(٦) Cooley : The Negroland of the Arabs, P. 19.

(٧) Idem

وإلى الجنوب من مضارب لتونة ، تمتد صحراء تيسر ، أو أزواد ، فتصاقب
رمالها البحر المحيط ، ثم تمتد نحو الجنوب^(١) ، وتضرب قبيلة جدالة القوية جنوب
ذلك النطاق ، حتى مصب نهر السنغال ، متخذة مدينة أوليل مركزا لها ، حيث
يكثُر الملح الذي تحمله القوافل إلى الشمال والجنوب^(٢) . وهذه القبيلة أوفر مالا
وأكثر استقرارا ، فهي من ناحية ، قريبة من غانة ، وشعب صنغانة ، الواقع
على الضفة اليسرى من منحنى النيجر ، وقريبة من أود غشت ، وطريق سجلماسة ،
لذلك استطاعت أن تسير متاجرها عبر هذا الطريق ، وأن تجني من وراء ذلك
مالا وفيرا^(٣) . كما يذكر المؤرخون أنها أقرب قبائل اللثمين من بلاد السودان^(٤) .
أما قبيلة مسوفة فتتمتع بمضاربها في منطقة قاحلة مجربة ، تقع بين سجلماسة في الشمال
وأود غشت غشت في الجنوب ، وكانت بعض بطونها توغل شرقا حتى تصل إلى
تادمكة ، وكوكو^(٥) ؛ وكانت هذه القبيلة تسيطر على ذلك الطريق الحيوي
للتجارة السودانية حتى زمن ابن بطوطة^(٦) . كما أن ابن حوقل وهو يسبق
ابن بطوطة بمدة قرون وجد هذه القبائل في مضاربها تلك ، تسيطر على التجارة
المارة بين أود غشت في الجنوب ، وسجلماسة في الشمال^(٧) .

من ذلك يتبين كيف أن هذه القبائل الثلاث ، قد سيطرت على هذه
المساحات الشاسعة من الصحراء ، وكيف تمكنت في طرق التجارة العالمية ، فكثُر
مالها ، وازداد جاهها ، ونعمت بحياة ليست جافية ولا غليظة .

(١) البكري : المغرب من ١٧٢ . Cooley, p. 19 .

(٢) Cooley, p. 25 .

(٣) Ibid. p. 25 .

(٤) البكري : المغرب من ١٧٢ .

(٥) البكري من ١٨١ ، الدمشقي من ٢٣٨ - ٢٣٩ . تقع على ساحل البحر

في منطقة السنغال (البكري من ٢٨٣) .

(٦) ابن بطوطة ج ٤ من ٣٧٨ ، ٤٣٠٠ .

(٧) ابن حوقل : المسالك من ٧٨ .

وهناك ناحية أخرى يجدر بنا أن نتعرض لدراستها ، ونعنى بها دراسة الشخصية الجماعية لهذه القبائل ، ودراسة صفاتها ومميزاتها ، التي أهلتها للظهور في ميدان الصراع القبلي في المغرب الأقصى ، ودراسة الحياة الاجتماعية الداخلية لهذه القبائل الهامة ، حق نستعين بهذه الدراسة على تفهم ما غرض من أحداث تاريخ المزابطين . والمؤرخين القدماء لم يعرضوا لهذه الناحية بالتفصيل ، وإن كانوا قد عرضوا لها ، فقد فعلوا ذلك في شيء كثير من الإيجاز ، لذلك سنعمد إلى الاستعانة بما كتبه المحدثون عن شعوب الملثمين في العصر الحاضر ، أو من يطلق عليهم اسم الطوارق .

قد يقال ما هي الصلة التي تربط بين الملثمين في العصور الوسطى والطوارق في العصر الحاضر ؟ ؟ لكن يرد على ذلك بالقول بأن الروابط بينهما كثيرة ومتعددة . منها أن الطوارق في العصر الحاضر لا يزالون يحتلون نفس البقاع ، التي كانت تحتلها شعوب الملثمين في العصور الوسطى ، فهم يحتلون المناطق الممتدة من الطرف الشرقي لصحراء المغرب عند فزان^(١) ، حتى منطقة المحيط الأطلسي في غرب أفريقية^(٢) . وهذه البيئة بيئة عزلة تمكن لهذه القبائل الضاربة في فياق الصحراء من أن تعيش مستقلة ، بعيدة عن أية مؤثرات ، قد تغير من الحياة التي ألفها أجدادهم في العصور الوسطى . فقد ظلت الصحراء الكبرى على الأقل في معزل عن التيارات الأجنبية الوافدة على المغرب في العصور الحديثة ؛ فالنفوذ التركي لم يجاوز المناطق الساحلية ، فلما تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم في المغرب ، بدءوا يوغلون في الصحراء ، ويسجلون ما يشاهدون ، ويعنون بهذه القبائل الملثمة الضاربة فيها ، وقد استطاعوا بعد دراسة هذه البيئة الخاصة أن يثبتوا أن الملثمين في العصر الحاضر

(١) فزان بفتح أوله وتشديد ثانيته وآخره نون ولاية واسعة بين القيوم وطرابلس

المغرب . ياقوت : البلدان ج ٣ ص ٨٩٠ .

(٢) Rodd : People of the Vail, p. 8.

لا يختلفون كثيرا عنهم في العصور الوسطى . حتى إن بعض أسماء القبائل ظلت كما هي دون أن تتغير ، ولا زال الأحفاد يحسون بصلتهم بالأجداد .

وهناك ناحية أخرى تسند الرأي القائل بالصلة بين الملمثين القدماء ، والملمثين المحدثين ، وهي أن اسم الطوارق الذي خلع على الملمثين في الوقت الحاضر مشتق من ترغه ، وترغه كما قلنا قبيلة من قبائل الملمثين في العصور الوسطى ، كانت تضرب في المنطقة الواقعة في وادي درعة في المغرب الأقصى . فلما تفرق حلف المرابطين بعد سقوط دولتهم ، تشتت شمل القبائل وأخذت تضرب في الصحراء بحثاً عن وطن تأوي إليه ، كما أن دولة الزنوج في الجنوب قد توسعت صوب الشمال ، وأخضعت هؤلاء البربر لسلطانها ، فهاجرت قبيلة ترغه صوب الشرق ، وظلت باقية حتى اليوم ، وقد عم هذا الاسم حتى أصبح عاما على شعوب الملمثين كلهم ، لأن القبائل في المغرب كما نعلم كانت تتداول السلسلة والنفوذ ، فإذا تمت السيادة لقبيلة فرضت سلطانها وأخضعت القبائل الأخرى . فقد سادت لمتونة وأسست دولة المرابطين ، فلما سقطت الدولة ضعفت لمتونة وسادتها قبائل أخرى من مجموعة الملمثين ، وخلقتها في زعمامة صنهاجة الجنوب قبيلة ترغه ، فأخضعت القبائل لصولتها ، وخلعت اسمها على الشعب كله ، فأصبح يعرف باسم الطوارق . لذلك نستطيع - إلى حد ما - أن نستعين ببعض ما كتبه الرحالة المحدثون عن الطوارق ، أمثال دي فرييه^(١) ، وبارت^(٢) ، ورود^(٣) . على أن نعقد مقارنة بين ما رواه القدماء ، وما وصفه المحدثون ، علنا نوفق إلى إعطاء صورة صادقة لهذه القبائل مؤسسة دولة المرابطين .

H. Duveyrier : Les Touareg du Nord. (١)

H Barth : Travels and discoveries in north and central Africa (٢)
in the years 1849-1855.

F. R. Rodd : People of the vail. (٣)

وأهم ما يتميز به رجال هذه القبائل ارتداء لثام يستر الوجه كله ، فلا تبدو إلا محاجر العينين^(١) ، فسميت القبائل قبائل المثلثين ؛ وانفردوا بهذا دون سائر قبائل البربر ، حتى غدا ذلك الاسم علماً عليهم^(٢) . ولم يشر القدماء إلى هذا التلثم ، إنما المؤرخون العرب ، أو الفاتحون العرب ، هم الذين خلعوا عليهم ذلك الاسم لأول مرة^(٣) ، ومن الغريب أن اللثام لا زال الطوارق يستعملونه حتى اليوم^(٤) ، والواقع أن بدو الصحراء في شبه جزيرة العرب يتلثمون لاتقاء الحر والبرد ودفع الغبار ، الذي تثيره العواصف الرملية ، التي تثور في الصحراء^(٥) . ولكن اللثام عند قبائل صنهاجة الجنوب ، اتخذ طابعاً غريباً فريداً ، فهم يرتدون اللثام بالليل وبالنهـار^(٦) ، في أثناء الراحة ، أو العمل . بل ينامون وهم متنقبون ، ويأكلون وهم متلثمون^(٧) ، لا يعرف الرجل الرجل إذا أفاض اللثام عن وجهه « بل إن إبداء الوجه كإبداء العورة في التأنف والحياء^(٨) » . لا يعرف الشيخ من الشاب^(٩) ، لا يعرف الرجل الرجل إلا إذا انتقب ، وإذا قتل منهم رجل في معركة وزلزل قناعه لم يعرف من هو إلا إذا وضع القناع على وجهه . « صار القناع ألزم من جلودهم ، وهم يسمون من خالف زيهم هذا في جميع الناس

(١) البكري : المغرب ص ١٧٠ .

(٢) البكري : المغرب ص ١٧٠ ؛ ابن خلدون ص ١٨٩ ودائرة المعارف

الإسلامية . مادة (لثام) . W. Bjorkmann.

(٣) H. Duveyrier: Les Touaregs du nord p. 290 ; Rôdd : People of the Veil, p. 286.

(٤) Duveyrier p. 298.

(٥) دمشق : نخب الدهر ص ٢٦٧ ؛ النويري ج ٢٢ ص ١٧٩ ؛ ابن الأثير

ج ٩ ص ٢٦٠ ؛ أبو القدا ج ٢ ص ١٨٤ .

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ .

(٧) Duveyrier p. 290.

(٨) دمشق ص ٢٦٧ .

(٩) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٠ .

« أفواه الذبان بلفظهم^(١) » ، وهي عادة توارثها الأبناء عن الآباء^(٢) ، لم يتحولوا عنها حتى في العصر الحاضر^(٣) ، فإن أحدهم قد زار باريس فلم يشأ أن يخلع نقابه ، وقد أشار النويري^(٤) إلى مثل ذلك فقال « كان لي صديق في دمشق فأتيت يوما إلى زيارته فدخلت إليه وقد غسل عمامته ؛ وسراويله مشدودة على رأسه ، وقد تلثم بخلخاله » ، ولم يزل الطوارق المحدثون على هذه الحال ، فقد ذكر رُود^(٥) أن الرجل منهم « إذا أراد أن يربط لثامه ، اختفى عن الأنظار ، حتى عن أهله » . ويعد لبس اللثام في نظرهم مفخرة يتمدحون به ، كما يتمدح العربي بسيفه . لا يعتبر الفرد مكتمل الرجولة إلا إذا ارتدى لثامه ، لذلك تحتفل الأسر عند بلوغ الأولاد سن الرشد بارتداء اللثام و يقيمون احتفالا كبيرا ، هو نذير باستكمال الفرد لحقوقه المدنية ، واعتباره عضوا عاملا في المجتمع الملثم^(٦) .

وقد ذهب المؤرخون والرحالة مذاهب شتى في تفسير هذه العادة الغريبة الفريدة ، فقالوا إنها كانت خدعة ، يتنقب الرجال في وقت الحرب ، حتى يظن العدو أنهم النساء ، فإذا أدبر انقضوا عليه فأفنوه^(٧) ، ويقول آخرون أن لذلك أسباب صحية لاتقاء الغبار والحر^(٨) ، ولكن لما إذا يخلع عند الأكل ، ولماذا لاتتنقب النساء ولماذا ينامون به . وقال البعض أنه نوع من السحر ، أو أنه قد اتخذ صفة العقيدة ، أو أن له أسبابا سياسية^(٩) . وليس من شك في أن اللثام قد

(١) البكري : المغرب ص ١٧٠ .

(٢) الإدريسي : أرض المغرب ص ٣٩ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٣) Duveyrier p. 290 .

(٤) النويري ج ٢٢ ص ١٧٩ .

(٥) Rodd : People of the Veil p. 288 .

(٦) Ibid p. 289 .

(٧) الحلل الموشية ص ٢٨ ، النويري ج ٢٢ ص ١٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ .

(٨) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

(٩) دائرة المعارف الإسلامية (مادة لثام) Bjorkmann

اتخذ أول الأمر لاتقاء منغصات جو الصحراء ، توارثه الأبناء عن الآباء ، فأصبح يعضى الزمن عادة متغلغلة في النفس ، سمت إلى مرتبة العقيدة .

واللثام في العصر الحاضر قطعة من قماش مصبوغ ، يصنع في السودان ، ويحمل إلى ديار الطوارق^(١) ، ويبدو أنه كان هنالك نوعان من اللثم ، نوع يسمى « الریط » لونه أخضر ، وآخر يسمى « السامري » لونه قرمزي^(٢) ؛ وكان الرجال يلبسون إلى جانب ذلك المقندرات من الصوف^(٣) ، والعائم ذوات الذوائب^(٤) .

والطوارق في العصر الحاضر صنفان ، صنف يرتدى اللثم السوداء ، وهؤلاء غالباً من النبلاء ، وصنف يرتدون اللثم البيضاء ، وهؤلاء من العبيد ، ولعل هذا يفسر ما ذكره المؤرخون من أن المرابطين كان شعارهم السواد ، وأن المعتصم ابن صامدح أراد أن يتقرب من المرابطين ، فارتدى زيهم الأسود^(٥) ، وهذا موضوع سنناقشه بالتفصيل عند ما نبحث نظم الحكم وتناول الأشعة والبنود .
ومما يؤيد ما قيل من أن النبلاء كانوا يتخذون لثاماً مغايراً للثام العبيد ، أن ابن عبدون^(٦) صاحب رسالة الحسبة قد اشترط ألا يلتئم إلا صنهاجي ، أو لمتوني ،

(١) Rodd : People of the Veil p. 286.

(٢) ابن دحية : المطرب ورقة ٧٣ ب ، ديوان ابن خفاجة ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) الأدريسى : أرض المغرب ص ٣٩ ، مقندرات (voir) chemises (pl.)
Le Glossaire-Joint à la Description de l'Afrique et de l'Espagne, par Edresi, publiée par Dozy et de Goeje, Leyde 1866, 364. Dozy : Supplément aux Dictionnaire Arabes, II, p. 410.

(٤) عبد الرحمن بن زيدان : الاتحاف ج ١ ص ٦٨ .

(٥) Levi-Provençal : Le Traité d'Ibn Abdun (Journal Asiatique 1934 (٥) pp. 177-299) & Lévi-Provençal : Seville musulmane au Début du XII^e Siècle : Le Traité d'Ibn Abdoun (Paris. 1947) pp. 61-62.

(٦) محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي : رسالة في الحسبة ص ٢١٨ .

أولمطى « فان الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم
ويأتون أبوانا من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام ، وأوصى بالآلا يلثم الحشم ،
والعبيد حتى لا يحسبهم الناس نبلاء فيخدعون » . وقال « إن عبيد المرابطين إذا
تلثموا وجب أن يكون ذلك بعلامة يعرفون بها مثل أن يتلمثوا بخمار أو بمزر » .
ومن أغرب ما تمتاز به هذه القبائل ، أن مكانة المرأة في المجتمع مكانة
رفيعة ، بل تعتبر ندا للرجل ، وتمتع بالمساواة التامة ^(١) ، وهن يقتنين أغلب
الثروات ^(٢) ، ويتمتعن بنفوذ لا حد له ، ولا يباشرن أعمالهن البيتية ^(٣) ، بل
يقوم العبيد بأدائها ^(٤) . وقد بلغ من اتساع نفوذ المرأة ، أنها كانت تشارك في
مجلس القبيلة ، وتشارك في الأمور الهامة . ولقد لعبت زينب زوج يوسف بن تاشفين
دورا عظيما في إدارة دفة الأمور في الدولة في حياة زوجها ^(٥) ، ويبدو أن أهل
الأندلس لم يكونوا يألون ذلك ، فأخذوا على المرابطين اصغاءهم لرأى النساء ،
واعتبروا ذلك من نقائصهم ، وكان من أثر هذا المركز الممتاز ، الذي تمتعت به
المرأة ، أن الرجل كان ينسب إلى أمه في بعض الأحيان ^(٦) ، كما لم يعرف المجتمع
الملثم — على ما نعلم — عادة تعدد الزوجات .

وهناك أمر آخر جدير بالآلا نغفله ، ذلك أن الرحالة الفرنسي دى ثرييه ^(٧) ،
الذى درس بيئة الطوارق دراسة وافية ، لاحظ أن المجتمع الطوارق أو القبائل
الطوارقية صنفان : قبائل سيده ، وقبائل مسودة ، قبائل من النبلاء ، وقبائل من

(١) ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٨٧ .

(٢) ابن حوقل في المسالك ص ٧١ p. 339 Duveyrier : Les Touaregs du Nord .

(٣) Rodd : People of the Veil p. 168 .

(٤) Duveyrier : (op. cit.) p. 339 .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ص ١٨٠ .

(٦) النويرى : نهاية الأرب ص ١٨٠ ؛ ابن بطوطة ج ٤ ص ٣٨٧ .

(٧) Duveyriers (op. cit.) pp. 329—338 .

الأقنان (مع التحفظ في إطلاق هذا الاسم) . والنبلاء يحتكرون الحياة السياسية ، ويؤلفون مجالس القبيلة ، ويشولون القيادة في الحروب ، ويديرون دقة الحياة العامة ، ويسيطرون أمور القبيلة . وفق مشيقتهم ، كما يحتكرون التجارة ، ويهيئون للدفاع عن الشعب إذا حاق به الخطر ، أما الأقنان فإن لهم وضعاً غريباً بعض الشيء ، فهم لا يبيعون ولا يشترون كما يبيع العبيد أو يشترون ، ولكنهم يورثون كما يورث المتاع . ولا يعتقدون كما يعتقد العبيد لأن من يعتق ، لا يستطيع أن يحيا بمفرده في الصحراء ، والا حاق به الهلكة ، فهو يرضى بهذا الوضع عن طيب خاطر ، بل يفتخرون بهذا الوضع الشاذ ، ولا يقلون عن النبلاء تفانياً في الدفاع عن القبيلة ، وإعلاء لكلماتها ، وهم يفتنون الثروات كيفما طاب لهم وكثيرون منهم قد بذوا سادتهم في الثروة والجاه . ولكن هذه الأموال يرثها السيد بعد وفاتهم ، وعبء الأعمال اليومية يقع على عواتقهم . يرعون الماشية ويؤدون كل ما تحتاجه القبيلة من عمل يدوي ، وبشركون في القتال ^(١) ، ويؤدون لأسيادهم نصيباً معلوماً كل عام من الابل ونتائجها ^(٢) .

هذه الأوضاع التي عرض لها دي ثورييه ، توارثها الطوارق المحدثون عن أجدادهم القدماء ، وليس من شك في أن قبائل اللثميين في المصور الوسطى كانت تعرف ذلك النظام . فمنع نعرف مثلاً أن قبيلة لثمونة كانت لها الرئاسة زمن المرابطين ، وكان رجالها يديرون دقة الدولة ، ويحتكرون أغلب الحقوق السياسية ، كما كانت الرئاسة في لثمونة في بيت (ورتانطق) ، الذي أنجب يوسف بن تاشفين . وابن خلدون ^(٣) يشير إلى ظاهرة علماً تكررت في مجتمعات القبائل البربرية ، وهي أن القبيلة التي كانت تكتب لها السيادة ، كانت تخضع القبائل الأخرى بحد

(١) Duveyrier : (op. cit.) pp. 329—338.

(٢) Idem.

(٣) ابن خلدون : البربر ٦

السيف ، وتستعبدها استعباداً ، فتصبح القبيلة المنتصرة قبيلة السادة ، والقبائل الأخرى قبائل المسودين . فمتمونة مثلاً التي سادت في القرن الخامس الهجري أصبحت في المجتمع الطوارق الحديث قبيلة مسودة^(١) ، وانتقلت السيادة إلى قبيلة ترغة .

ويبدو أن ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة^(٢) أشار إلى مثل هذه الأوضاع ، حينما أشار إلى العشم والعبيد ، وطلب ألا يلتئموا حتى لا يختلط الأمر على أهل أشبيلية فلا يميزون النبلاء من غيرهم ؛ وقد يحدث في كثير من الأحيان أن تخشى القبيلة أن تتفرق كلمتها ، ويعتدى عليها جيرانها ، فتختار العبودية (أو التبعية) طوعاً ، حتى تنجو بنفسها من الأخطار المحدقة بها ، وقد أشار دى قرييه نفسه إلى أن هذا النظام قديم لم يغير اسلام الملتزمين منه شيئاً .

وتتمتاز هذه القبائل مؤسسة الدولة أيضاً بما يمتاز به البدو عادة من الشجاعة الفائقة ، والقدرة على تحمل المشاق ووفرة النشاط ، وليس من شك في أن البدو أكثر من المستقرين جلدًا على الكفاح والمقاومة ، وأشد منهم صبراً على الحروب ، كما أنهم أصلح الشعوب للقيام بفتوحات على نطاق واسع ، لأن حياتهم في الغالب حياة نقلة وترحال ، يستطيعون التحرك بجمعهم في سرعة غريبة ، فينقضون على أعدائهم من المستقرين انقضاض السهم^(٣) ؛ كما أنهم لا يتعلقون بوطن معروف يذبون عنه ، ويدفعون عنه المعتدين ، بل هم دائماً تجذبهم مواطن الخصب والاستقرار بخيراتها وحضارتها ، ولعل ذلك مما دفع ابن خلدون في مقدمته إلى الإشارة بالبدواة^(٤) ، حتى نسب إليها كل الفضائل ، قال بأن البدو أقدم من

(١) Daveyrier: (op. cit.) pp. 329—339.

(٢) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢١٨ .

(٣) Ramon Menendez Pidal : The Cid And his Spain, p. II.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١١٤ — ١١٩ .

الحضر وأن البادية أهل العمران ؛ وأن البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر وأقرب إلى الشجاعة من غيرهم .

والمثلثون في صحرائهم يعتمدون على الإبل في كل شيء ، وفي كل ناحية ^(١) من حياتهم ، فمنها مأكلهم وكساؤهم ، وهي مطيتهم التي تقرب المسافات وتعين على سلوك الصحراء ، بل استخدموا الإبل في القتال حتى يرعوا في ذلك الفن « كانوا يقاتلون على النجب أكثر من الخيل ^(٢) » . وكانوا يقيمون صفاً من الإبل في مقدمة الجيوش يجعلون عليها ظعائهم ، فيحتمون خلف الإبل من ناحية ، ويذكي منظر الحرائر من حميتهم من ناحية أخرى ، فيستमितون في القتال دفاعاً من أعراضهم ^(٣) ، فجمعوا بذلك بين الشجاعة الفائقة ، والقوة البدنية ، وحسن استخدام الإبل في القتال . وقد امتازت هذه القبائل فوق ذلك بحب الاستقلال والشعور بالعزة والأنفة ، فقد عاشت في ديارها في الصحراء ، لم تذق بأس الهزيمة ولم تخضع لما يخضع له المستقرون من غزو وفتح ^(٤) ، بل كانوا في ديارهم تلك بما آمن من كل عدو ، لذلك لا نعجب إذا رأيناهم « يختارون الموت على الانهزام ، ولم يحفظ لهم فرار من زحف ^(٥) » أو على حد قول صاحب الحل « لم تفسد مخالطة الأسافل ^(٦) » .

وإلى جانب هذه الصفات الجسمية النادرة ، من طول قامة ، ووفرة قوة وصلابة عود ، امتازوا بصفات خلقية عالية ؛ فقد روى دري فرييه ^(٧) أن الطواق

(١) Deveyrier : (op. cit.) p. 218.

(٢) الحل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص ١١ .

(٣) ابن خلدون : ٨ المقدمة ص ٢٥٩ .

(٤) Duveyrier : (op. cit.) p 384.

(٥) الحل الموشية ص ١١ .

(٦) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٧) Duveyrier : (op. cit.) pp. 382—385.

في العصر الحاضر يمتازون بالإخلاص الشديد والوفاء بالوعد لدرجة الإسراف ،
وبنوع من القروسية غريب ، فهم لا يستعملون الأسلحة النارية ، لا اعتقادهم أنها
أسلحة الغندر ، كما لا يطعنون عدوهم من الخلف ، ولا يسممون سهامهم ،
أورماحهم ، بل يربأون بشجاعتهم أن تنحدر إلى هذا الدرك . وإذا كان هذا
هو حال الملثمين في العصر الحاضر ، فكيف كانوا إذن في القرن الخامس الهجري
وقد أذكى عبد الله بن ياسين في نفوسهم شعلة الإخلاص للإسلام ، وطهر
نفوسهم من أدران الشر وحببهم في الجهاد في سبيل الله ، والعمل على إحياء كلمة
الدين ، فأخلصوا في جهادهم ، ودافعوا عن دار الإسلام ، وردوا عدوان الفرنجة ،
بل قضت الدولة نحبها دفاعا عن تراث الإسلام ، لم تقمدها عن ذلك أنانية
أو إثارة لمافية ، أو عزوف عن تضحية .

وهناك سؤال لا بد من أن نجيب عليه ، قبل أن نختم هذه الدراسة
الاجتماعية للقبائل مؤسسة الدولة ، وهو هل كانت هذه القبائل تحيا حياة بدوية
جافية ، لم تدركها مؤثرات حضارية ، تشع من مراكز الثقافة في شمال إفريقيا ،
فينفذ شعاعها إلى أعماق الصحراء ، إلى مضارب هذه القبائل المتبدية ؟ وهل هي
مجرد قبائل تهيم في الصحراء ، وتكلف بالنقلة والترحال ، دون أن يكون لها
تراث حضارى معروف ؟ الواقع أنه إذا صح ما قلنا من أنها انحدرت من مواطن
في شمال إفريقيا ، فلا بد أن تكون قد أصابت من الحضارات الوافدة على
المغرب بنصيب ، قبل أن توغل في الصحراء على هذا النحو ، كما أن المؤثرات
الحضارية لا بد أن تكون قد نفذت إليها في ديارها الجديدة . فقد وجد عقبة
ابن نافع في بلاد السوس حضارة محلية متأثرة بالحضارة الفينيقية^(١) . كما أن قبائل
صنهاجة والبرانس بالذات بزعامة كسيلة الأوربي ، وعبد الملك بن سكرديد

الصنهاجى ، قد نالحت العرب ، وحالفت الرومان ، كما كان هؤلاء الزعماء يدينون بالنصرانية^(١) ، فقد انتشرت النصرانية فى المغرب الأقصى ، كما انتشرت اليهودية من قبل ، بل إن اليهودية انتشرت فى توات ، وتافلت ، ووادى درعة ووادى نون ، وظلت باقية هناك حتى القرن الخامس الهجرى^(٢) . كما أن بلدة أوليلي ، التى اتخذها الإدارة حاضرة لهم ، هى بلدة (Volubilis) الرومانية القديمة^(٣) ، مما يدل على أن حضارات حوض البحر الأبيض تدفقت إلى المغرب الأقصى ، ونفذت إلى الصحراء وتركت فى هذه القبائل آثارا يقول الرحالة أنها لا تزال حتى اليوم^(٤) .

وإذا لم تسكن هذه القبائل على جانب من الحضارة غير قليل ، فلم احتفظت حتى اليوم بالقلم المغربى القديم ، وانفردت به دون سائر قبائل البربر ، حتى قيل أنهم حفظوا التراث البربرى القديم^(٥) ؟ لا بد إذن أن هذه المؤثرات قد نفذت إلى بيئة المثلثين فتركت فيهم آثارا ، كما يجب ألا يظن أن قبائل المثلثين كانت بدوية صرفة ، فقد رأينا كيف أن بعضها كان يحيا حياة الاستقرار فى واحات مراکش ، وأن قبيلة لمتونة كانت تنعم بلون من الاستقرار ، وكذلك قبيلة جدالة كانت ذات طابع مستقر نوعا ما ، ولم تحتفظ بالصبغة البدوية الخالصة إلا قبيلة مسوفة .

ويجب ألا تفوتنا الإشارة إلى هذه الثروات الضخمة ، التى كانت تؤول إلى قبيلتى لمتونة ، وجدالة ، بعد تحول طريق التجارة إلى ديارها منذ القرن العاشر

(١) Gautier : (op. cit.) p. 242.

(٢) De La Gaspelle: Hespéris 1930, T. XI.

M. delafosse : Chroniques du Fouta Sénégalais : Revue du Monde Musulmane, 1913, tome 25 p. 105.

Gautier p. 28. (٣)

Rodd : People of the Veil p. 275. (٤)

Terrasse p. 17, Duveyrier p. 391. (٥)

الميلادى^(١). كانت طرق القوافل تمر بديار ملتونة ، ثم جدالة ، ثم تذهب إلى أودغشت ، ثم إلى سبلماسة حاملة الملح ، والتبر ، والصمغ ، ومنتجات السودان^(٢) والرقيق^(٣). لذلك كانت سبلماسة ، وأودغشت بمثابة موانئ هذه الصحراء الكبرى^(٤). كانت سوق سبلماسة ، وأودغشت من أنفق الأسواق الصحراوية^(٥). فإذا كانت هذه القبائل قد نعمت بلون من الرخاء المادى ، ولون من ألوان الاستقرار ، أفنعبج بعد ذلك إذا كانت قد اتخذت لها لونا من ألوان الحضارة ، وأن حياتها لم تكن بدوية جافية . وبما يؤيد ذلك أن هذه القبائل كان دورها في تاريخ المغرب دور بناء ، ولم تكن أبدا معول هدم للحضارات القائمة . فإذا نظرنا مثلا إلى قبائل البدو من عرب بنى هلال التى غزت المغرب فى القرن الخامس الهجرى ، ورأينا الخراب الذى أصاب أفريقية على يديها ، حين انتهت القيروان كحاضرة سياسية ، وثقافية للمغرب ، وأصبحت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة ، ولم تفلح قبيلة من هذه القبائل فى إقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة بنصيب . وإذا لاحظنا أيضا أن قبائل زناتة عرفت فى تاريخ المغرب بمثل هذا اللون من الحياة غير المستقرة ، فلم تؤسس دولة ناجحة مستقرة حتى القرن الخامس الهجرى ، بل عرفوا بالجفوة والغلظة وكراهة الاستقرار . كانت قبائل اللثمين مؤسسة الدولة ذات طابع بدوى معروف ، ولكنها كانت على النقيض من قبائل بنى هلال ، وزناتة ، قبائل بدوية ذات نصيب من الحضارة قبائل بناءة غير هدامة .

(١) Terrasse: (op. cit.) p. 23.

(٢) Cooley : The Negroland p. 25.

(٣) الادريسي : المغرب وأرض السودان ص ٦ .

(٤) Demombynes : Masalik El-Abzar p. 20.

(٥) البكري : المغرب ص ١٥٨ .

١٠ — دور المسلمين في تاريخ الإسلام من قيام دولة المرابطين :

بعد أن أتممنا دراسة بيئة المغرب الأقصى ، وعرفنا بالقبائل مؤسسة الدولة. تعريفًا مفصلاً ، يحق لنا أن نتساءل قائلين كيف أسلمت هذه القبائل ، وكيف أتيح لها أن تلعب في تاريخ غرب إفريقيا دوراً رائعاً في الجهاد في سبيل نشر الإسلام ، وما هو موقفها من الأحداث ، التي وقعت بالمغرب الأقصى حتى بداية القرن الخامس الهجري ؟ .

أقبل العرب من مصر بعد أن تم لهم فتحها إلى إفريقية غازين فاتحين . أوغلوا في برقة ، وطرابلس ، ثم تدفقوا إلى إفريقية ، بقصد الاستيلاء عليها ، ولم يقدر للعرب أن تتوطد أقدامهم في إفريقية ، إلا بعد أن استطاع عقبة بن نافع الفهري أن ينشئ مدينة القيروان ، ويتخذها قاعدة حربية تتجمع فيها قوات العرب وتتدفق منها صوب الجهات الباقية من إفريقية والمغرب . ولكن جملة عقبة الأولى لم تتمخض عن إتمام فتح إفريقية ، ذلك أن طائفة البرانس كانت تتحصن في جبال الأوراس ، متخذة إياها معقلاً يعصمها من غارات العرب ، وبدأ الصراع يحتدم بين العرب ، والبرانس ، وخصوصاً بعد أن أيدت زناتة والبر العرب من أول الأمر بالرغم من أن أبا المهاجر دينار أوغل بجيوش أهل الشام ومصر ، وإفريقية ، حتى قرطاجنة^(١) ، وهادن البربر أو هادن البرانس بقيادة كسيلة^(٢) ، لأنه لم يكن في استطاعته إذ ذاك أن يقاتل عدوين في وقت واحد ، الروم والبربر . ويبدو أن سياسة أبي المهاجر السلمية آتت أكلها ، فقد انتشر الإسلام في صنهاجة إفريقية ، واشترك بعضهم في الجيش ، الذي وجه إلى فتح

(١) المالكي : رياض النفوس ص ٢٠ ، أنظر كذلك : أبا المحاسن : النجوم

الزاهرة ج ١ ص ١٥٢ .

(٢) الديباغ . معالم الإيمان ج ١ ص ٤٢ .

الجزائر^(١). وقد تمكن أبو المهاجر بسياسة تلك أن يوغل حتى تلمسان^(٢) قاعدة المغرب الأوسط، ولم تستطع قوات العرب أن تجاوزها.

فلما آلت قيادة حملة المغرب إلى عقبة بن نافع القهري للمرة الثانية، استطاع أن يقضى على مقاومة البرانس في المغرب الأوسط، ففرت قبائلها أمامه معتصمة بجبال المغرب الأقصى، متهيئة لرد العدوان، فلم يجد عقبة مفرا من أن يجاوز تلمسان^(٣)، ويتدفق بقوات العرب إلى المغرب الأقصى، فكان أول فاتح عربي تطأ أقدامه هذا الإقليم.

وقد أوغل عقبة في إقليم الساحل، حتى أدرك طنجة ولم يلق كيذا، ويبدو أن الجهود التي بذلها في نشر الاسلام في إقليم الريف كللت بالنجاح، فقد قال أبو المهاجر لعقبة « ليس بطنجة عدو لك لأن الناس قد أسلموا »^(٤)، وإذا كان الاسلام قد بدأ ينتشر بين صنهاجة إفريقية في عهد أبي المهاجر، فلا بد أن صنهاجة المغرب الأقصى الضاربة في منطقة طنجة قد أسلمت بدورها، واتصلت بالفاطميين الجدد.

وانحدر عقبة بعد ذلك إلى إقليم السوس^(٥) الأدنى، وانقض على مصمودة الساحل، واستطاع بفضل معاونة زناتة أن يقضى على مقاومتهم، ثم مضى قدما حتى أدرك مدينة ماسة بالسوس الأقصى^(٦). وغزا مدينة نفيس^(٧) قرب أغمات

(١) المالكي : رياض النفوس ص ٢٠ .

(٢) الديباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٤٢ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ص ٢٣ ، الديباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٤٤ .

(٤) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦ .

(٥) المالكي : رياض النفوس ص ٢٤ ، الديباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٦) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦ .

(٧) نفيس مدينة بالمغرب الأقصى تبعد عن أغمات وريكة بمقدار خمسة وثلاثين ميلا .

فاطر البكري ص ١٥٣ .

وريكه^(١) . بل تذهب بعض الروايات إلى أنه أدرك مدينة نول على ساحل المحيط في أقصى بلاد المغرب ، وإذا كنا نعرف أن قبائل الملثمين كانت تنتشر من جبال درن حتى نهر السنغال ، وأن لمتونة تنزل في المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادي نون ، وأن ترغة كانت تحتل وادي درعة ، وأن جزولة كانت تنزل بالقرب منها ، وأن بعض بطون مسوفة كانت في أحواز سجلماسة ، إذا عرفنا ذلك أدركنا أن عقبة بن نافع قد أوغل في ديار الملثمين .

ويبدو أن صنهاجة الجنوب ، لم تدعن لعقبة من أول جولة ، فقد قاومته مسوفة^(٢) ، ولا بد أن لمتونة وغيرها من القبائل ، قد اشتركت في هذا القتال دفاعا عن كيانهما ، ولكن عقبة استطاع أن يدرك مدينة تاردونت^(٣) ، وأن يهزم مسوفة من وراء السوس ، وأن يخضع صنهاجة اللثام لسلطان الإسلام ، ولا نعرف شيئا عن السياسة التي انتهجها عقبة في ديار أهل اللثام . وكل ما نعرفه أنه ابتقى مسجدا في مدينة ماسة^(٤) ، ولا يبعد أن يكون قد ترك من يعلم القوم مبادئ الإسلام ، وليس بعيدا أيضا أن يكون قد أقر بعض شيوخهم على ما بأيديهم من سلطة .

ولكن بعض الروايات تذهب إلى أبعد من هذا ، تذهب إلى أنه أوغل في بلاد السودان ، وفتح بلاد التكرور وغانة^(٥) ، بل إن الرحالة بارت^(٦) ذكر

(١) البكري : المغرب ص ١٦٠ . أغمات مدينتان مهيبتان إحداهما تسمى أغمات إبلان والأخرى أغمات وريكة وبينهما ثمانية أميال . أنظر البكري ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة . تارودنت من أهم مدن السوس الأقصى على بعد أربعة أيام من درعة . الإدريسي ص ٦١ .

(٤) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦ .

(٥) De la Chapelle: Hesperis 1930 T. XI, p. 24. (٥)

Barth : Travels and discoveries in north and central Africa, (٦)
Vol. IV, p. 579.

أن بعض الروايات المحلية تقول أنه كانت بغانة في عام ٦٠ هـ جالية إسلامية ، وأنه قد ابتنى بها عدد من المساجد ، وإذا علمنا أن غانه تقع عند منحني النيجر في المنطقة الواقعة بين النيجر والسنغال ، أدركنا كيف غلا الرواة في تقدير حملة عقبة في بلاد السودان ، ولم يكن من المعقول أن يستطيع عقبة بإمكانياته المحدودة والعدو من خلفه أن يدرك بلاد السودان ، ومصب السنغال ، ومنحني النيجر . على كل حال نستطيع أن نقبل هذه الرواية بشيء من التحفظ ، إذا عرفنا أن ديار السود كانت أكثر امتدادا نحو الشمال^(١) ، وأن قبائل الملثمين لم تكن قد أوغلت في ساحل المحيط بعد ، فليس ببعيد أن تكون مملكة غانة الزنجية قد بسطت ظلها شمالا حتى وادي نون ، فيكون عقبة حين غزا وادي نون — على ما بينا — قد أدرك الحدود الشمالية لمملكة السودان .

ومهما يكن من شيء ، فإن عقبة كان أول من حمل أهل اللثام على الاسلام ، وأول من ارتاد هذه الديار النائية من العرب ، وأول من فتح هذا الطريق أمام تجار العرب الذين بدءوا يتدفقون إلى هذه الديار ، واتخذوا مدينة^(٢) أزقي قاعدة لهم ، وبدأوا يخترقون الصحراء إلى أودغشت حاضرة مسوفة ، ولعلمهم كانوا ينظمون حملات مسلحة تعاونهم صنهاجة بقصد جلب الرقيق من بلاد السودان ، وحمله إلى المغرب الأقصى للتجارة فيه ، نعم لقد مهد عقبة الطريق أمام خلفائه لينشروا الاسلام ، حتى أدرك الاسلام أواسط أفريقيا^(٣) .

ولكن عقبة ما كاد يدرك تهودة في طريق عودته ، حتى انقضت عليه جموع البرانس بقيادة كسيلة الأوربي ، فأوقعت به ، واستشهد عقبة ومن معه

(١) R. Basset: Mission au Sénégal p. 446.

(٢) أزقي من بلاد مسوفة ولطة وهي أول مراقي الصحراء ومنها إلى سجلماسة ١٣

مرحلة ومنها إلى نول ٧ مراحل . الإدريسي ص ٦٠ .

(٣) De la Chapelle ; Hesperis 1930, tome XI, p. 24.

Demombyne : Masalik p. 311.

من جند المسلمين ، وكادت تضيع الجهود التي أنفقها ، وارتدت قبائل البربر ، وزحف كسيلة إلى الشرق متجاوزا المغرب الأقصى ، وانقضت على إفريقية ودخل القيروان^(١) .

ولم يستطع حسان بن النعمان أن يهزم كسيلة نهائيا ، إنما أقصاه عن القيروان وعن إفريقية ، ولم يشأ أن يجاوزها مغربا خوفا من أن يصيبه ما أصاب عقبة ، ولكنه أصلح الأحوال بإفريقية ، وتقرب من أهل البلاد ، وعمل على نشر الإسلام وبدأت القيروان تظهر ، وتعلو كلمتها ، وتوطدت دعائم الإسلام في إفريقية نهائيا^(٢) . ولم يستطع العرب أن يوغلوا في المغرب الأقصى مرة أخرى ، إلا بعد أن استطاع زهير بن قيس أن يهزم كسيلة عند ممس ، وأمعن العرب في تعقب البربر المهزومين حتى وادى ملوية ، بل أوغلوا حتى طنجة^(٣) فكان زهير بن قيس قد أخضع البرانس ، وقتل كسيلة ، وفتح الطريق للإسلام ليصيد الكرة في المغرب الأقصى .

فلما استقامت الأحوال لخلفاء بني أمية ، واستطاعوا في عهد عبد الملك ابن مروان ، أن يقضوا على الفتنة المفرقة لصقوف المسلمين ، استأنفت الفتوح في إفريقية ، وراح موسى بن نصير يترسم خطا عقبة بن نافع ، ويتم الرسالة التي كان قد بدأها ، فقاد جحافل المسلمين إلى المغرب الأقصى مرة أخرى ، وقد سلك نفس الطريق الذي سلكه عقبة ، أوغل في إقليم الريف حتى أدرك طنجة ثم انحدر إلى سبتة ، ثم انحدر إلى إقليم السوس الأدنى ، ثم انحدر على ساحل المحيط الأطلسي ، كما فعل عقبة تماما ، حتى أدرك وادي درعة ، وتناقلت^(٤) ، وراح يعمل على إخضاع القبائل التي تنكرت للإسلام غب مصرع عقبة .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٥ .

(٢) المالكي : رياض النفوس ص ٣٦ ، ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢٣ .

(٣) المالكي : الرياض ص ٣٠ ، ابن عذاري : البيان ج ١ ص ١٧ .

(٤) ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢٧ .

وقد نجح موسى حيث أخفق عقبة، وذلك بسبب ما بذل الولاة السابقون من مناجاة البرانس، ومقتل كسيلة الأوروبي، وتفرق شمل القبائل التي أيده في تضال العرب ومقاومتهم^(١). فلم يلق قبائل متحدة متساندة تقف أمامه صفا واحدا إنما وجد قبائل مبعثرة متفرقة أمكنه أن يقضى عليها، أو يخضعها، واحدة فواحدة، وهذا إلى أن إقليم الساحل كان قد تم إخضاعه من قبل، وانتشر الاسلام في ربوعه وقضى على آثار المقاومة البرنطية فيه، كما أن إفريقية كانت قد تمهد أمرها، وتم إسلامها وأخذت قبائلها تشرك في جند الفاتحين، وتظفر بما يظفرون به من أسلاب وغنائم.

ولكن موسى بن نصير كان أبعد نظرا من عقبة بن نافع، فلم يكن قائدا لحسب، إنما كان مصلحا وسياسيا في نفس الوقت؛ فقد قرب البربر إليه وحببهم في الحكومة الجديدة؛ فولام الأعمال؛ وأشركهم مع العرب في إدارة دفة البلاد^(٢)؛ فوجدوا أن انضمامهم للعرب ومحالقتهم قد يتمخض عن مكاسب مادية جمة؛ فبدؤوا يقبلون على الاسلام إقبالا عظيما. وكان نشر الاسلام يسير مع الفتح جنبا بلجنب، لأن موسى أحب ألا يكون الاسلام البربر خوفا أو رهبة، بل اقتناعا وحباً، فأخذ يفتحهم في الدين وينشيء المساجد في البلاد التي افتتحها، حتى لقد أنشأ مسجدا في أغمات هيلانة^(٣) في أقصى بلاد المغرب، وقد بدأت بذور الثقافة الاسلامية تنبت في هذه البيئة الجديدة، وبدأ نبتها يزكو؛ ويشب عن الطوق، وأتيح للبربر أن يحنوا ثماره الطيبة بعد وقت غير طويل. وقد نجحت سياسة موسى نجاحا بعيد المدى، فقد أصبح المغرب الأقصى بشعوبه وقبائله طوعا وبه، فما كاد يشرع في فتح الأندلس حتى وجد البربر إلى جانبه،

(١) Gantier: (op. cit.) p. 254.

(٢) ابن عذاري: البيان ج ١ ص ٢٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ج ١ ص ٢٨، ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠، نجب

تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ص ١٢.

يؤيدونه ، ويشدون أزره ، ويشاركون للمسلمين في هذا الجهاد المقدس . فلما تم فتح هذه البلاد تدفقت جماعات البربر اليها طمعاً في الغنم أو حبا في الجهاد ، ومنذ هذا الوقت نستطيع أن نقول دون تردد إن الإسلام قد توطدت أركانه في بلاد المغرب الأقصى ، وبدأ يبسط ظله على السكان ، كما أن التحالف قد تم بين العرب والبربر بعد إسلامهم .

وإذا كان موسى قد أوغل في فتوحه ، حتى بلغ وادي درعة ، وبلاد السوس ، فقد أوغل في الأطراف الشمالية لمواطن الملمثين ، واتصل بهم ، ولعله قد ردهم إلى الإسلام بعد أن ارتدوا عنه عقب موت عقبة : ولبكي يوطد للإسلام في ربوع هذه القبائل أنشأ مسجداً في أغمات ، هذه المدينة التي ستصبح من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في المغرب الأقصى ، وستلعب دوراً لا يقل عن دور مدينة فاس . وإذا كان موسى قد ولى البربر على الأعمال ، فهل يبعد أن يكون قد ولى بعض زعماء الملمثين أعمالاً في ديارهم على الأقل ، ويخيل إلينا أن الملمثين قد أقبلوا على الإسلام منذئذ إقبال سائر أهل المغرب طمعاً في المشاركة في ما ينعم به العرب الفاتحون ، فلما تهيأ المسلمون لفتح الأندلس اشتركت فرق من صنهاجة في جيش الفاتحين . لذلك لا يسعنا إلا قبول ما يذكره المؤرخون ^(١) من أن إسلام لمتونة تم في هذا الوقت بالذات ، وأنهم أخذوا منذئذ يقبلون على الإسلام شأنهم شأن القبائل الأخرى .

وقد تابع خلفاء موسى السياسة الرشيدة ، التي اتبعها من بث الدعوة إلى الإسلام بين صفوف البربر ، فان اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي ولى إفريقية من قبل عمر بن عبد العزيز عمل على نشر الإسلام في ربوع المغرب الأقصى

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، التويرى ج ٢٢ ص ١٧٣ ،

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٨ .

(م — • قيام دولة المرابطين)

« ولم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم » على حد قول ابن عبد الحكم^(١). وأمدّه عمر بطائفة من خيار التابعين انتشروا في البلاد يحضون الناس على الإسلام ، ويبصرونهم بشئون دينهم ، يقيمون الحدود ، ويحرمون الخمر ، ويحاربون المفسد ، كما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً^(٢).

ولم يغفل العرب أمر التوسع الحربى أيضاً ، فان عبيد الله بن الحبحاب قد سير حبيبا بن أبي عبيدة ، فأوغل في المغرب الأقصى ، حتى أدرك بلاد السوس الأقصى^(٣) ، بل قيل إنه أشرف على ديار الزنوج ، وقاتل مسوفة^(٤) . ولا ندري لم حمل حبيب هذه الحملة الشعواء على قبائل الملثمين بالمغرب الأقصى ، هل كان ذلك لارتدادهم عن الإسلام مرة أخرى ؟ يخيل إلينا أن هذا الأمر لم يكن الباعث الحقيقى على هذه الغزاة ، إنما أراد حبيب أن يرضى خلفاء المشرق وذوى رأى فيه ، بطلب السبي والعبيد ، فقد روى المؤرخون أنه حمل من ديار الملثمين سبياً كثيراً^(٥) ، وأنه كان يتخزن فيهم ليحمل عدداً كبيراً من الأسرى ، وكانت هذه السياسة الخرقاء مما ألب هذه القبائل وغيرها من قبائل المغرب الأقصى على عمال الخلفاء ، إلى جانب سوء سياسة عمر بن عبد الله المرادى عامل طنجة^(٦) ، الذى لم يحكم بين الناس بالسوية ، فساعد من حيث لا يدري على إذكاء نار الثورة .

(١) ص ١٠٦ من طبعة (A. Gateau) بالفرنسية والعربية

“Ibn Abd Al-Hakam : Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne (Texte Arabe et Traduction Française avec une introduction et des notes).

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ١٥٤ ، ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٣٤ .

دائرة المعارف : مادة السوس (Levi-Provençal) .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية — مادة « السوس »

(E. Lévi - Provençal).

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٦) ابن عذارى : — البيان المغرب ج ١ ص ٣٨ .

وقد انبعثت شرارة الثورة من طنجة أول الأمر : أذكى الخوارج نارها ، وحملوا لواء المقاومة ، وحببوا بعض القبائل في عقائدهم ، التي تنادى بالخروج على ولى الأمر . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن بلاد المغرب الأقصى قد اكتملت شخصيتها الإسلامية ، فأخذت تشارك الشعوب الإسلامية الأخرى فيما منيت به من فرقة مذهبية ، ففشت مذاهب الصُّفوية التي تنادى بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب بل يشترك المسلمون فيها على السواء ؛ حتى أن جمهور الثوار قد بايعوا ميسرة السقاء المطغرى ^(١) بالخلافة في مدينة طنجة .

وعمت الثورة بلاد السوس الأدنى أول الأمر ، ولكن ما لبثت أن عمت سائر جهات المغرب الأقصى ، ويخيل إلينا أن قبائل الملثمين التي كانت حافقة على ما اقترفه حبيب بن أبي عبيدة ، قد أيدت جبهة الثوار ، ولم تستطع الخلافة الأموية أن تحسم هذا الداء العضال ، الذي أخذ يستشري يوماً بعد يوم . فان جند الأندلس لم يستطيعوا العبور إلى العدو المغربية للمشاركة في إخماد الفتنة ، كما أن الجهود التي بذلها خالد بن حامد الفهمي ، وكثوم بن عياض باءت بالإخفاق ، وامتد لهب الثورة إلى إفريقية ، واشترك فيها البرانس بزعامة عبد الملك بن سكرديد ، وسقطت القيروان ، وعمت الفرقة ، وكاد سلطان العرب في المغرب أن يقضى عليه قضاء مبرما .

وعلى الرغم من أن حنظلة بن صفوان قد استطاع أن يسترد القيروان ^(٢) ، ويؤمن إفريقية ، ويقر السكينة والهدوء في ربوعها ، لم يستطع أن يرد الوحدة إلى ربوع المغرب ، فقد وضحت شخصية المغرب الأقصى وضوحاً تاماً ، وخرج عن طاعة القيروان ، وبدأ يقرر مصيره بنفسه ، وبعد أن اختفى نفوذ العرب من المغرب الأقصى أو كاد ، أخذ البربر يعتمدون على أنفسهم في حل مشاكلهم حسب الأوضاع السياسية أو الاجتماعية أو الدينية .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

فقامت في بلاد المغرب دويلات مستقلة ، تبسط كل نفوذها على منطقة معينة .
محاولة أن تفر السكينة في ربوعها ، وأن تؤمن أهلها ، حتى يستطيعوا أن يعيشوا
في سلام وطمأنينة ^(١) ، فأقامت صنهاجة إمارة باجة ^(٢) ، وأقامت هوارة صرح
دولة بطرابلس ^(٣) ، واستقلت نفوسة بمدينة قابس ، واستولى بنو واسول على
سجلماسة ^(٤) ، وأقاموا فيها إمارة ظفرت بتأييد قبائل المثلثين الضاربة في نواحيها ،
أما برغواطة الساحل فقد أقامت إمارة على رأسها صالح بن طريف . ورغم هذه
الفرقة ظلت الوحدة الثقافية على أشدها ، كما ظلت القيروان على اتصال بمدن
المغرب الأقصى ، وظل العلماء يجوبون هذه الأقطار رافعين لواء العلم .
ورغم أن ولاية القيروان قد فقدوا نفوذهم بالمغرب الأقصى فقد ظلوا يهتمون
بشئونه ، ويعملون جاهدين على الإبقاء على الصلات ، التي تربطه بأفريقية ، فقد
عمل عبد الرحمن بن حبيب على إقامة سلسلة من الآبار تصل بين واحات أفريقية
وبين أودغشت بصحراء المغرب الأقصى ^(٥) ، واستطاع جنوده بفضل هذه السياسة
الحكيمة أن يعبروا الصحراء لأول مرة ، وأن يعمنوا في نشر الإسلام في ربوع
صنهاجة الجنوب أهل اللثام الضارين في جوف هذه الصحراء . واستطاع حفيد
عقبه هذا أن يتم ما بدأه جده منذ نصف قرن تقريباً ، فأصبح التجار يتصلون
بديار المثلثين ، وبلاد السودان عن طريقين : طريق ساحل المحيط ، وطريق
الصحراء ، الذي أصلحه عبد الرحمن بن حبيب ، وأصبحت القوافل أكثر جرأة
على ارتياد هذا الطريق ميممة شطر غرب أفريقية ، وقد تمخضت هذه الجهود
عن نتائج طيبة ، إذ عملت على تسرب الإسلام إلى ديار صنهاجة عن طريق آخر
غير الطرق المألوفة من قبل .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ .

(٢) البيان للمغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٥ .

(٥) De la Chapelle : Hesp. 1930, T. XI, pp. 56-57. (٥)

واستطاع عبد الرحمن بن حبيب أن يضمّد جروح إفريقية بعد أن أتمّحت فيها ثورة الخوارج حتى كادت تأكل الأخضر واليابس ، فنشر السلام والطمأنينة في ربوع البلاد^(١) ، وبدأت الحياة الثقافية والاقتصادية تنمو وتزدهر ، كما بسط سلطانه غربا حتى تلسمان بل حاول غزو صقلية^(٢) ، وأغارت قواته على جزيرة سردينية . ورغم ما انتاب العالم الإسلامي من فتن بعد سقوط الخلافة الأموية ، بقيت الخلافة العباسية ، ظلت السكينة ضاربة بجذورها في ربوع البلاد ، بفضل سياسة هذا الوالي الحكيم . وقد استطاع الأغلبية من بعده أن يتموا الجهود التي بذلها ، فتألق نجم الحضارة في إفريقية^(٣) ، وغدت القيروان كعبة القصاد من كل فج . وقد استطاعت الإمارات التي انتشرت في المغرب الأقصى أن تتعاون فيما بينها : فأظلت المغرب السكينة التي أظلت إفريقية ، ومضى تيار الثقافة الإسلامية في طريقه المرسوم .

وقامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى بنفس الدور الذي قام به الأغلبية في إفريقية ، فاستطاعوا أن يوحّدوا البلاد تحت لوائهم ، وأن يقرّوا السكينة والطمأنينة في ربوعه بعد أن كادت فتن الخوارج تمزق شمله ، وتأتى على ما بذل من جهد في سبيل تنظيم شئونه وإتمام إسلامه ، وكان لا يتناسب الأدارسة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أثر كبير في توحيد القبائل المتنافرة الضاربة في المغرب الأقصى ، فظفروا بتأييد السكان على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ، فقد أيدهم البتر ، وأيدهم البرانس^(٤) ، وأيدهم المصامدة ، ونجح إدريس حيث أخفق غيره من العرب ، واستطاع لأول مرة أن يوحّد بين إقليم السهول وإقليم المراعي ، وبين إقليم الحضارات القديمة وإقليم البداوة ، فلما نجح في ذلك اطمأن أهل

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٤٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١١١ .

(٢) المراجع السابقة .

(٣) ابن خلدون ج ٥ ص ١١٣ .

(٤) ابن أبي ررع : روض القرطاس ص ١٣ ، Terrasse (op. cit.) p. 211 .

السهول ، واطمان البدو ، وازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل .

وقد نجح الإدارة في إقامة حكومة مركزية قوية اشترك فيها العرب والبربر جنباً إلى جنب^(١) ، واستطاعوا بفضل هذه الوحدة الشاملة ، والجهود المتضاربة أن يوجهوا أبصارهم إلى حركة جهاد مقدس ، بقصد إتمام إسلام البلاد ومحاربة العقائد الشاذة ، والقضاء على بقايا النصرانية واليهودية المنتشرة بين قبائل المغرب الأقصى^(٢) ، فانقضوا على المصامدة يردونهم إلى حظيرة الإسلام ، وتوسعوا شرقاً حتى تلمسان ، وبسطوا نفوذهم على إقليم الريف ، وعلى إقليم مكناس وفاس حتى منطقة الأطلس الوسطى ، كما فتحت بلاد نفيس ، وتامسنا^(٣) ، وشالة^(٤) ، وماسة ، وتادلة^(٥) ، وأوغلوا في كل فج يحاربون الشرك أينما كان .

وكان تأسيس مدينة فاس فاتحة عهد جديد في تاريخ البلاد ، فقد أصبحت حاضرة للمغرب الأقصى ، يقصدها العلماء والتجار من كل صوب^(٦) ، وبدأت مدارس فاس تتلقى المؤثرات الثقافية من مدارس القيروان ، وأخذت تكون شخصيتها المستقلة ، وتبث العلم في ربوع ذلك القطر النائي ، وكان الإدارة أنفسهم يذكون هذه الحركة المباركة بتأييدهم ، إذ لهم الفضل في نشر اللغة العربية في البلاد وإحلالها محل لغة البربر^(٧) .

(١) Terrasse : (op. cit.) p. 11.

(٢) الجسواني : زهرة الأسس ص ٢٢ ، الكتاني : الأزهار الماطرة الأنفاس

ص ٢٨ ، الأنحاف ج ٢ ص ٢٦ ، ابن خلدون ج ٦ ص ٧ - ٩ .

(٣) بلغة برغواطة للمغرب الأقصى . البكري ص ٧٨ .

(٤) من مدينة سلا الحديثة وهي من اللواتي الساحلية . الإدريسي ص ٧٣ .

(٥) مدينة من مدن المغرب الأقصى قرب أعماق من بلاد السوس . الإدريسي ص ٧٤ .

(٦) عبد الرحمن بن زيدان : الأنحاف ج ٢ ص ٦ .

(٧) نفس المرجع والصفحة .

ما هو موقف الملتزمين من هذه الأحداث الخطيرة ، التي بدأت تشكل تاريخ المغرب الأقصى ، وتكسبه الصبغة الإسلامية البحتة ؟. ذكر كثير من المؤرخين أن صنهاجة المغرب الأقصى بايعت إدريس ، وشدت أزره ، وأيدته ^(١) ، فليس بعيد أن يكون الأدارسة قد ظفروا بتأييد صنهاجة الجنوب أهل اللثام ، ولعلهم اشتركوا في بيعة إدريس بن عبد الله ، وأيدوه حتى ظفروا بما ظفرت به القبائل الأخرى من نعمة الدولة الجديدة . ويذهب ابن خلدون ^(٢) إلى القول بأن الإسلام ظهر في ربوع هذه القبائل لعهد المائة الثالثة ، وقد بينا كيف أن الجهود المتصلة التي بذلها عقبة وموسى وخلفاؤهما نشرت الإسلام في ربوع صنهاجة اللثام منذ عهد بعيد ، وإذا كان للأدارسة فضل فإنما يرجع هذا الفضل إلى إذكاء حركة الإسلام في بلاد المغرب الأقصى عامة ، فاشتد ساعد الإسلام ، وتمكن من نفوس هؤلاء القوم ، ولعل الثقافة العربية التي كانت تشع من مدينة فاس قد أصابت ديار الملتزمين بقبس من نورها ، لأن الأدارسة بسطوا نفوذهم على البلاد كلها تقريباً ، كما بسطوا نفوذهم أيضاً على النواحي الشمالية من ديار الملتزمين ، وتخطى نفوذهم جبال درن ، وانتشر في إقليم الواحات ، وروى المؤرخون أن عبد الله بن إدريس أخضع لمطة الضاربة على ساحل المحيط ، وتولى عمل أغمات والسنوس الأقصى ، وبلاد نفيس ، وصنهاجة الرمال ^(٣) ، أغنى صنهاجة اللثام الضاربة في منطقة سجلماسة . أما عمر بن إدريس بن إدريس فقد تولى تيجنساس وترغة ^(٤) ، وخلفه ولده على في حكم هذه المناطق ^(٥) .

(١) الجزائى : — زهرة الأس ص ١٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣) أبو بكر بن محمد السيوطى المغربى : نسب بعض الصحابة الأدرسيين وغيرهم من ملوك لتونة — ورقة ٩ (ب) .

(٤) ابن عذارى : البيان للمغرب ج ١ ص ٢١٩ ، الروض المختون ص ٢٨ .

(٥) روض القرطاس ص ٤٧ .

من ذلك يتبين أن مضارب المثلثين القريبة من جبال درن انضوت تحت لواء الإدارة ، وأصبحت جزءاً من أملاكهم ، يولون عليها الولاية ، ويخضعونها للحكومة المركزية في فاس ، ولذلك لن نتردد في القول بأن إسلام صنهاجة اللثام الذي بدأ في عهد عقبة قد اشتد وتأكد في عهد الإدارة ، ووضح إسلام أهل اللثام وضوحاً تاماً في القرن الثالث الهجري ، على ما ذهب إليه ابن خلدون^(١) .

وكان إسلام قبائل المثلثين في القرن الثالث الهجري ذا أثر بالغ في تاريخ هذه القبائل ، وتاريخ المغرب والسودان . فقد تمخض عن قيام تحالف قوى ضم قبائل المثلثين جميعها بزعامة لمتونة ، وذلك بفضل الجهود التي بذلها الزعيم اللموتي تيولوتان بن تيكلان^(٢) ، الذي أسلم وحسن إسلامه ، وأكسبه دينه الجديد القوة التي مكنته من إتمام هذا التوحيد ، فلما تم هذا التحالف كان على القبائل المتحالفة أن تعد العدة لتوسع جديد ، إما صوب الشمال باختراق نطاق جبال درن ، والإغارة على سهول المغرب الأقصى الحصبة ، أو بالتقدم صوب الجنوب .

أما الناحية الأولى فلم يكن من السهل أن تقدم القبائل على المغامرة فيها ، فإن دولة الإدارة في القرن الثالث الهجري كانت لا تزال بحيث تستطيع الاحتفاظ بما في يدها ، ورد أي عدوان يأتي من الجنوب ، كما أن قبائل زناتة المؤيدة للدولة الإدريسية كانت تجوس في هضاب المغرب الأقصى وتقف لقبائل المثلثين بالمرصاد لتحول بينها وبين التقدم صوب الشمال^(٣) ، هذا إلى جانب قبائل مصمودة القوية الحاربة التي كانت لا تزال في أوج قوتها ، وكانت مستعدة للدفاع عما يسندها من

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ . Julien p. 376. De la Chapelle p. 50 .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ - ١٨٢ ، جامع تواريخ فاس ص ٢٧ .

(٣) Terrasse : (op. cit.) p. 211 .

أرض خصبة ، وأن تردأى عدوان يفكر فيه البدو الضارب بين جنوب جبال درن ، فلم يبق أمام الخلف الجديد إلا أن يتوسع صوب الجنوب ، وقد حدث هذا فعلا . ومما أذكى تيار هذا التوسع أنه كان بقصد الجهاد في سبيل الإسلام ، والعمل على نشره في ربوع القبائل الزنجية الضاربة إلى الجنوب^(١) ، وكان القبائل الملتزمة حديثا العهد بالإسلام أرادت أن تسهم في حركة الجهاد المقدس ، وأن تدلى بدلوها في الدلاء .

وفي هذا العصر كانت مملكة غانة الزنجية قد بلغت أوج قوتها ، وعنفوان توسعها ، حتى لقد وصفها ابن خلدون بقوله « كانوا أعظم أمة وأضخم ملك^(٢) » امتدت منطقة نفوذهم من منحنى النيجر جنوبا حتى مدينة أركي في الشمال ، وتقع على مسيرة سبعة أيام من مضارب قبيلة لمتونة قرب وادي نون^(٣) . ولكن كان من حسن طالع هذا الخلف الصنهاجي الوليد ، أن دبت عوامل الضعف في هذه المملكة الزنجية الضخمة في هذا الوقت بالذات ، فقد روى المؤرخون^(٤) أن هذا البناء الضخم لنهار فجأة أمام ضربات اللثميين المتقدمين من الشمال ، ويقال في تعليل ذلك ، أن شعب صنوصو^(٥) النازل إلى الجنوب من ديار غانة أفلح في طعن هذه المملكة من الخلف ، والإغارة عليها في الوقت الذي أختتمت سيوف اللثميين من الشمال .

ويقال في تعليل ذلك أيضا أن المعركة كانت بين الإسلام والشرك ، بين شعب الهب الإسلام حماسته ، وجد في طلب الاستشهاد ، دفاعا عن الدين الجديد .

(١) Terrasse : (op. cit) p. 211.

(٢) ابن خلدون : — المبرمج ج ٦ ص ١٩٩ .

(٣) Cooley : Negroland p. 19.

(٤) الأدرسي ص ٢٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٩ ، القلقشندي : صبيح الأعشى

ج ٥ ص ٢٩٣ . Cooley, p. 71

(٥) صبيح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣ . Cooley, p. 71.

وشعب زنجي من عبدة الأصنام ، فلم يكن مستغرباً أن ينجح الحلف الملتزم نجاحاً بعيد المدى ، وأن يشخن في ديار غانة ، وأن يردهم صوب الجنوب ، وأن يمضي قدماً في توسعه حتى أصبح على مسيرة أيام من منحني النيجر ، كما وضع يده على مدينة أودغشت ، وفرض الجزية على الشعب المغلوب على أمره ^(١) ، واتخذ هذه المدينة حاضرة له ^(٢) .

ويفيض المؤرخون في وصف هذا الملك العريض ، الذي حققه زعيم صنهاجة اللمتوني ، فيقولون أنه كان مسيرة ثلاثة أشهر ، ويدللون على قوة هذا الملك الصنهاجي فيقولون أنه كان يركب في مائة ألف نجيب ^(٣) . وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على هذه القوة الجبارة ، التي تمتنعت عن هذا الحلف الملتزم القوي . ويروي المؤرخون أن هذا الزعيم توفي عام ٨٢٢٢ ، وأن الملك قد استمر في أعقابهِ حتى عام ٨٣٠٦ ، حين تفرق شمل الحلف ، وعملت عوامل الفرقة عملها ، فعدت صنهاجة على تميم خليفة تيولوتان ، فقتلته ، وتفرقت القبائل أيدي سباً ^(٤) . ويخيل إلينا أن قبيلة جدالة كانت في طليعة الفاتحين ، بدليل أن مضاربها أقرب مضارب الملتزمين من دولة الزنوج . ولم تكذ غانة تتحرر من ربة قبائل الملتزمين بعد تفرقها ، حتى عادت تبسط ظلها على مدينة أودغشت مرة أخرى ^(٥) ، ولكنها لم تستطع أن تسترد أملاكها السابقة بعد استقرار القبائل الملتزمة في البلاد التي تم فتحها ، ويبدو أن غانة قنعت بالسيطرة على أودغشت ، لأن ذلك معناه التحكم في طريق التجارة بين بلاد السودان وسجلماسة والمغرب وفي ذلك ربح طائل وثراء عريض .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٩ .

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 213.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ ، جامع تواريف فاس ص ٢٧ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨١ — ١٨٢ ، De la Chapelle 1930, t. XI, p. 29 .

Barth (op. cit.) Vol. IV, pp. 580—581.

(٥) Terrasse : (op. cit.) p. 213.

١١ — ظهور الزناتيين في المغرب الأقصى :

في الوقت الذي شغلت فيه صنهاجة الجنوب بمداغة غانة ، كانت الأمور في بلاد المغرب تجرى في صالح صنهاجة الجيل الأول ، النازلة في افريقية ، فقد قامت الدولة الفاطمية ، وحالقتها كتامة ، وصنهاجة من أول الأمر ، وسارتا في ركابها ، وبدأت الدولة الجديدة تتوسع صوب المغرب ، كما تحفزت الدولة الأموية في الأندلس للنزال ، وبدأ الفريقان يتخذان المغرب الأقصى ميدانا للصراع فيما بينهما طمعا في الغلبة والسيادة .

وفي الوقت الذي كان هذا الصراع على أشده بين الفاطميين ، وأحلافهم من زناتة ، استطاعت صنهاجة الجنوب أن تتحد مرة أخرى ، ولا ندرى الظروف التي أدت إلى هذه الوحدة ، إنما نخيل إلينا أن السبب في ذلك يرجع إلى أن قبائل الملتشين شعرت بأنها بين خطرين داهمين ، خطر في الشمال بسبب اضطراع القوى السياسية في المغرب ، وخطر في الجنوب ناجم عن سيطرة غانة على طرق التجارة ، التي هي عصب الحياة لهذه القبائل ، فقد ذكر المؤرخون^(١) أن لمتونة استطاعت بزعامة الأميرتين يروتان بن ويسنو أن تلم شعث الملتشين مرة أخرى ، ويخيل إلينا أن ذلك تم حول سنة ٣٥٠ هـ ، فإن ابن حوقل^(٢) طوف بلبنيار الملتشين في ذلك الوقت تقريبا ، ودخل مدينة أودغشت ، ووصف مبلغ قوة ذلك الحلف الجديد ، الذي عاد يتخذ هذه المدينة حاضرة له مرة أخرى ، بعد أن أقصى عنها عدوان غانة ، وعادت صنهاجة اللثام تبسط ظلها من جديد على الأقاليم الممتدة من جبال درن في الشمال إلى منبعى النيجر في الجنوب . ولكن الصراع لم تهدأ نأثرته ، إذ كانت غانة بالمرصاد ، فاستردت أودغشت مرة أخرى ، وتفرقت قبائل

(١) ابن حوقل : المسالك ص ٧١ ، البكري : المغرب ص ١٥٩ ، ابن خلدون

ج ٦ ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) ابن حوقل : المسالك ص ٧١ ، Barth (op. cit.) Vol. IV, p. 580

المُلتَمِين^(١) ، وأظلمها القرن الخامس وهي متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان ، حتى قدر لها أن تستعيد وحدتها ، وتسترد مكانتها تحدوها آمال جديدة ، وتدفعها بواعث أخرى ، وأهداف سامية .

وفي ذلك الوقت بالذات كانت زناتة وأحلافها من قبائل البُتر صاحبة السيادة على المغرب الأقصى ، فقد كان بنو خزررون ينزلون بسجلماسة ، ويتحكمون في مسالك الصحراء وكان المغراويون يسيطرون على إقليم فاس ، ويمدون نفوذهم إلى إقليم الساحل ، أما بنو يفرن فكانوا يسيطرون ظلهم على منطقة سلا^(٢) ، عذا كثير من البطون البترية التي كانت تنتشر في هذا الإقليم وتظفر بمعونة هذه الإمارات الثلاث .

ويحق لنا أن نسأل ، كيف تم لزناتة وأحلافها من البتر السيطرة على المغرب الأقصى على هذا النحو ؟ . نحن نعرف أن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط وطنها لها ، ومدينة تلمسان مركزا لنفودها ، وكانت في الواقع تشطر الوطن الصنهاجي شطرين : شطر شرقي ، وآخر غربي ، كما كانت بطونها تضرب في صحراء افريقية جنوب تونس وسفوح الأوراس والهضاب العليا ونطاق المراعي^(٣) .

كانت أوطان صنهاجة وزناتة متجاورة مختلطة ، والعداء بينهما معروف ، وهو صورة من ذلك العداء التقليدي بين البرانس والبُتر ، ذلك العداء الذي عرفه تاريخ المغرب منذ القدم ، عرفه الرومان^(٤) ، وعرفه العرب بعد فتحهم المغرب ، ولعب في التاريخ الإسلامي في العصرين الأموي والعباسي دورا كبيرا ،

(١) البكري : المغرب ص ١٦٤ ، ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٦ ،

القفشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٣ ، الملل الموشية ص ١٢ .

(٣) Gautier : (op. cit.) p. 197 .

(٤) Ibid. pp. 234—239 .

وترك في حياة المغرب آثارا واضحة . ويرى جوتييه « أن البتر قتلوا المغرب ولعبوا دورهم الحزن كأنهم ما يكون^(١) » .

ولكن الأحداث التي وقعت بالمغرب في القرن الرابع الهجري قدر لها أن تبرز أهمية هذا النزاع ، وتخرج به من نطاق النزاع المحلي بين شعبين متعادين . متباغضين إلى نطاق أوسع ، حين أكتسبته صفة عالمية دولية ، فقد قامت الدولة الفاطمية في أفريقية بمعونة قبيلتي كتامة وصنهاجة ، وظفرت هذه الدول الناشئة بتأييد البرانس ، ذلك التأييد الذي حقق أحلام المهدي كاملة ، وأتاح لجنود الفاطميين أن تتوسع إن شرقا وإن غربا ، كيفما طالب لها ، ولم تنظر القبائل الزناتية النازلة بالمغرب الأوسط إلى ذلك التأييد بعين الارتياح ، فارتابت في الدولة الجديدة التي قامت على اكتاف البرانس ، ووقفت منها موقف الحذر ، ثم تجاوزت الحذر إلى الموقف الإيجابي ، فأغار محمد بن خزر الزناتي على مدينة تيهرت في عهد المهدي^(٢) ، الذي استطاع أن يرد عدوانه ، وينزل به الهزيمة ، فلاذ بأذيال الفرار معتصما بالصحرَاء ، كما شق أبو هارون الهواري عصا الطاعة بطرابلس ، فحوصر وقضى عليه ، ولم تستطع زناتة أن تصمد طويلا أمام قوات هذه الدولة الفتية ، لأنها كانت تعتمد في نضالها على مواردها المحدودة^(٣) ، وهي ليست شيئا إذا قيست بموارد الدولة الجديدة .

وما لبثت الدولة الفاطمية أن ناصبت الدولة الأموية بالأندلس العداء من أول الأمر ، بسبب العداء المعروف بين الشيعة وبين الأمويين^(٤) . فاعتقد الأمويون بالأندلس أن الفاطميين بأفريقية يريدون بهم شرأ ، ويتربصون للإيقاع بهم^(٥) ، والأخذ بذلك النار القديم . كما أن اتجاه الفاطميين إلى بسط سيادتهم

(١) Gantier : (op. cit.) p. 402.

(٢) Fournel : Les Berbères, Vol. II, p. 95.

(٣) ابن أبي زرع : زون القرطاس ص ٥٢ .

(٤) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne, Vol. III, p. 14—21.

(٥) Ibid pp. 14—21.

على المغرب أول الأمر ، أشعر الأمويين بأن الخطر الذي كان بعيداً بأفريقية أخذ يقترب من ديارهم ، زد على ذلك أن عبيد الله المهدي أرسل يؤيد ابن حفصون الناصر بالأندلس^(١) ، ويشد أزره نكايته في أعدائه الأمويين .

ولم يكن عبد الرحمن الناصر يستطيع في ذلك الوقت أن يتدخل في شئون المغرب تدخلاً مباشراً بسبب مشاغله في الأندلس ، واشتغاله بمداغمة الفرنجة في الشمال^(٢) ، فلم يجد بداً من أن يؤيد الأمراء المغاربة الخارجين على الفاطميين ، فوجد في الزناتيين والبترا أجلاً فاطميين ، وكان البترا كانوا يتلهفون على مثل هذه الفرصة النادرة للثأر من الفاطميين وحلفائهم من البرانس ، فأقبلوا على الدعوة الأموية إقبالا متقطع النظير ، وأيدوها تأييداً مطلقاً ، ولبوا نداء عبد الرحمن الناصر عن طيب خاطر ، فدخل موسى بن أبي العافية في طاعته وخطب له على منابر بلاده^(٣) .

وأحس الفاطميون أن الزناتيين أصبحوا خطراً جليلاً الشأن ، حين عمد عبد الرحمن الناصر إلى الاستيلاء على سبتة ، واتخاذها قاعدة لأعماله الحربية ، فأرسلوا إلى المغرب الأقصى حملة بقيادة ميسور الفتى ، استعادت فاس سنة ٣٢٣ هـ^(٤) وهزم ابن أبي العافية هزيمة ساحقة ، ففر معتصماً بالصحراء . كما أن الخليفة القائم ابن عبيد الله ، انقض على محمد بن خزر المغراوي فهزمه أيضاً ، واتخذ العداء بين الفاطميين والزناتيين صورة جديدة عنيفة ستترك أبلغ الأثر في تاريخ البرانس والبترا معاً .

وأصبح واضحاً كل الوضوح أن البرانس فاطميون والبترا أمويون^(٥) ، وأمعن

(١) Dozy : Hist. des Musl. Vol. III, p. 17.

(٢) Fournel : Les Berbères. Vol. II, p. 199.

(٣) ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢١٧ ، روض القرطاس ص ٥٦ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٥٨ .

(٥) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٦٣ ، مفاخر البربر ص ٤ .

الصنهاجيون بدورهم في تأييد الفاطميين أكثر من ذي قبل ، فأقام مناد بن منقوش زعيم صنهاجة سلسلة من الحصون من أملاكه ، فاستطاع أن يرد عدوان الزناتيين عن إفريقية ، وكانت زناتة بالمغرب الأوسط لا تزال قوية ، وكانت تترصد بالغزوات الفاطمية العائدة من المغرب الأقصى ، فتزل بها خسائر فادحة .

وقد بلغ الخطر الزناتي أشده في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، الذي كاد يأتي على ملك الفاطميين بإفريقية ، والذي كان يرسل إلى بلاط قرطبة أنباء انتصاراته المتتالية ، يطلب العون والمساعدة . لكن الفاطميين انتصروا وهزم الزناتيون ، ولاذت قبائل بني يفرن ومغراوة بأذيال الفرار^(١) حين تلاشت قوة أبي يزيد ، ولم يعد يستطيع المقاومة .

وما كادت ذيول ثورة أبي يزيد تنتهي ، حتى عادت كتائب الفاطميين إلى المغرب الأوسط ، غازية بقيادة جوهر ونكلاوا بالزناتيين شر منكل ، وأصابت الجبهة الزناتية بتصدع كبير ، فقتل موسى بن أبي العافية^(٢) ، وهزم جوهر بن يفرن ، واسترد تهرت ، وخرب مدينة أفكان^(٣) حاضرة زناتة^(٤) ، فتنفرق شمل بني يفرن ، وتقلص نفوذهم ، وبدأت جموع زناتة بالمغرب الأوسط ترحل تدريجياً إلى المغرب الأقصى ، تلوذ به من غضب الفاطميين ، وانتقامهم ، وأمعن جوهر في طلبهم ، ودخل المغرب الأقصى ، واستولى على فاس وسجلماسة وشنت جموعهم : وما كاد محمد بن خزر المغراوي يلم شعثه ، ويعاود الكرة حتى تصدى له زيري بن مناد الصنهاجي ، والتقى به في موضع بين أشير وتلمسان^(٥) ، فأحرز نصراً عظيماً ، فاضطر محمد بن خزر إلى أن يقتل نفسه بسبب عار الهزيمة

(١) Gautier : (op. cit.) p. 263 .

(٢) السلاوي : الاستقصا ص ٨٢ .

(٣) أفكان من مدن المغرب الأوسط قرب تهرت . الإدريسي ص ٨٣ .

(٤) نبد ياربخية جامعة ص ٥ .

(٥) Gautier: (op. cit.) p. 375 .

واخترق الخط المغراوي ، وحوصر العدو ، وذاق البأس والشدة ، وبذلك تمت
السيادة البرنسية على المغرب الأوسط ، إذ لولا ذلك النصر ، لما بايع المعز
صنهاجة ، ولما قدر لها أن تخلف الفاطميين في ملك المغرب .

ولما حاول جعفر بن علي الأندلسي أن يحيي موات مغراوة ، ويقودها للقاء
البرانس من جديد ، خف إليه بلكين ، فهزمت زناته ، وولت الأدبار متجهة
صوب سجلماسة ، ولم يترك بلكين للعدو المنهزم فرصة يلتقط فيها أنفاسه ، بل
راح ينتزع مدن المغرب الأوسط واحدة واحدة ، فاسترد طبنة^(١) ، وبغاية^(٢) ،
والمسيلة^(٣) ، وبسكرة^(٤) ، وانقض على تلمسان فخر بها^(٥) ، وقتل من زناته
في هذه المعارك جموعاً لا تحصى ، وبلغ من شدة إمعان بلكين في التتكيل
بأعدائه من البتر أنه كان يقول : « لا أمان عندي لبربري ركب فرساً أو نتج
خيلاً أبداً حينما سلك من البلاد^(٦) » .

ولما كانت قبيلة بني يفرن قد تفرق شملها بعد أن قتل جوهر زعيمها ، فإن
مغراوة أيضاً ذهبت ريمها ، وأصبح المغرب الأوسط لأول مرة منذ الفتح
الإسلامي ، خلوا من زناته ، وتم بذلك القضاء على زناته الجيل الأول بالمغرب
الأوسط ، هاجرت فلولها إلى المغرب الأقصى ، مثل بني يفرن ، ومغراوة ، وانتقل
بعضهم إلى الأندلس^(٧) ، ونستطيع أن نقول إن سيطرة صنهاجة على نواحي المغرب
الأقصى قد بدأت من ذلك الوقت .

(١) طبنة بلدة في طرف أفريقية مما يلي المغرب على ضفة الزاب . أنظر : ياقوت ج ٣ ص ١٥٠ .

(٢) مدينة كبيرة في أقصى أفريقية بين عمالة وقسنطينة . ياقوت ج ١ ص ٤٧٣ .

(٣) بالتفح ثم الكسر والياء ساكنة ولام .

(٤) بسكرة بكسر الباء بلدة في المغرب من نواحي الزاب بينها وبين قلعة حماد مرحلتان .

ياقوت ج ٣ ص ٦٢٥ .

(٥) نبذ تاريخية جامعة ص ٨ .

(٦) مفاخر البربر ص ٨ .

(٧) Terrasse : (op. cit.) p. 159 .

وفي ذلك الوقت أيضاً كانت الدولة الأموية في عهد الحكم المستنصر قد تخلصت من أكثر متاعبها ، بحيث تستطيع التدخل في شئون المغرب الأقصى ، لمزيد العون لزنانة والبترا ، التي كادت أن تفتنيها جهود الفاطميين والزييريين . وقد انتهز الحكم المستنصر فرصة اشتغال بلكين بشئون المغرب الأوسط ، ففرض على الحسن بن كنون الإدريسي حليف الفاطميين ، وبذلك عاد المغرب الأقصى إلى طاعة الأمويين ، وراحت جموع زنانة الفارة من المغرب الأوسط تمن في تأييد حلفائهم الأمويين ، وتنهياً للقاء البرانس إذا حدثتهم أنفسهم بانحدوان على المغرب الأقصى .

ولم تكن بلكين شجاعته ، بل انقض على المغرب الأقصى ، لينال من زنانه . في عقر دارها الجديدة ، فلعله يستطيع القضاء عليها ، فيستريح من شرها ، وقد استرد فاس ، وسجلماسة^(١) . هزم البترا أقبح هزيمة ، ولاذوا بالفرار معتصمين بسبته ، ليكونوا على مقربة من القاعدة الأموية ، لتحمل ظهريهم ، وتقيم شر الصنهاجيين . وكان الأسطول الأموي على استعداد للدفاع عن سبته ، إذا هم بلكين بالانقضاض عليها ، ولكن جهود بلكين لم تستطع أن تستأصل الخطر الزناني من المغرب الأقصى تماماً ، فلم يكده يعود أدراجه حتى علم أن بني خزرون قد استولوا على سجلماسة ، وتوفي قبل أن ينجح في ردهم على أعقابهم .

وقد استطاع المنصور بن أبي عامر بعد وفاة بلكين أن يتحلى من الاتفاق ، الذي كان قد أبرم بينهما ، وأصبحت الدولة الأموية مطلقة اليد في شئون المغرب الأقصى ، وأصبح ميدان المغرب هو الميدان الذي يستطيع المنصور فيه أن يبدي نشاطه ، ويظهر مقدرته ، ويعمل على تأييد حلفائه من زنانة ، بقدر ما يستطيع . ويبدو أن جهود المنصور بن عامر كملت بالنجاح ، فقد استطاع رجل من بيت محمد بن خزر أن يجمع كلمة مغراوة ، وأن يلم شعبها ، واتجه صوب فاس

(١) ابن أبي ررع : روض القرطاس ص ٦٧ .

(م — ٦ قيام دولة المرابطين)

واستولى عليها^(١) ، كما حاول خليفة بلكين أن يدفع معراوة عما أرادته بفاس ، وسجلامة ، ولكنه ارتد على أعقابيه مهزوما ، وتأكدت سيطرة المغراويين بفاس ، وراحوا يدعون للخليفة هشام المؤيد ، بينما عمل زيري بن عطية على بسط سلطانه على المغرب الأقصى دون منازع .

ولكن يبدو أن المنصور بن أبي عامر رأى أن الوقت قد حان لعمل في المغرب الأقصى بحرية تامة ، دون أن يعتمد على تأييد زناتة ، وحلفائها ، ويخضع هذه البلاد لاحتلال أندلسي مباشر ، لأن سياسة تأييد الزناتيين كانت تكلفه أموالا طائلة ، ولأن الخطر الصنهاجي على المغرب الأقصى بعد وفاة المنصور قد زال أو كاد ، وانشغل الزيرون بمشا كلهم الخاصة ، وانصرفوا عن استعادة سيادتهم على المغرب الأقصى ، هذا إلى ما كان من أمر تدخل زيري ابن عطية في شئون السيدة صبح زوج المستنصر ، وعمله على إحباط خطط المنصور ، فسير المنصور واضحا الفتى عام ٣٨٧ هـ لقتال زيري ، واحتدم النضال بين الزعيمين ، فكان شعار جند زيري « هشام يامنصور » ، وشعار العامريين « يا منصور^(٢) » .

ولكن واضحا هزم وارتد إلى سبتة ، فأرسل المنصور ولده عبد الملك لينضم إلى واضح ، واستطاعا أن يوقعا بزيري بن عطية ، ودخل العامريون مدينة فاس ، ودعى للأمويين على منابرهما . وأصبحت القوات الأندلسية نفسها تحتل المغرب ، وتوغل فيه ، وفر ابن عطية إلى الصحراء ، وحاول أن يغير على المغرب الأوسط ، ولكن الصنهاجيين كانوا له بالمرصاد ، فردوه على أعقابهم خاسرا ، فلما توفي المنصور بن أبي عامر وخلفه ولده عبد الملك ، رد إلى المعز بن زيري بن

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤

(٢) ابن عذاري . البيان ج ١ ص ٢٦٣

عطية حكم فاس عام ٨٣٠٧ على «أن يعطيه عدة من الخيل والسلاح يحملها كل سنة إلى قرطبة»^(١).

ثم انقسم الصنهاجيون على أنفسهم في عهد باديس بن المنصور، واستقل حماد بن بلسكين بالمغرب الأوسط، وأمن المغرب الأقصى عادية بنى زيري الصنهاجين؛ واستطاع المعز بن زيري بن عطية المغراوي وحلفاؤه الزناتيون أن يتمكنوا لأنفسهم في السيادة على المغرب كيفما طاب لهم، وخصوصا بعد أن شغل أهل الأندلس عن المغرب نهائياً في حجابة عبد الرحمن بن أبي عامر، وأصبح المغرب الأقصى للبتر وشيعتهم لا ينازعهم فيه منازع، وأصبح النضال بين صنهاجة البرنسية وزناتة البترية نضالاً لا تحركه المطامع الأجنبية.

وكانت هذه الحروب الطاحنة مما أضعف من قوة الزناتيين وفت في عضد البتر. فإن جهود الفاطميين، ثم الزيريين من بعدهم مزقت شملهم وشتت قبائلهم، وأقصتهم عن المغرب الأوسط، ولاحقهم إلى المغرب الأقصى، فقضت على زهرة فرسانهم، ونخبة رجالهم، نعم خاض الزناتيون حرباً استمرت قرناً من الزمان، لم يحالفهم النصر إلا قليلاً، بل كانت الغلبة للبرانس، الذين استطاعوا أن يأخذوا ثأرهم كاملاً.

وقد وصف ابن حوقل آثار هذه الفتن الطاحنة في صفوف الزناتيين فقال «جميع هؤلاء البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن ودوام القحط وكثرة القتل والموت»^(٢). كما أن محالقتهم الأمويين كانت ذات نتائج بعيدة في تاريخ الأندلس، فقد أخذوا يفتدون إلى الأندلس منذ القرن الثالث الهجري، وكان البرانس كلما هزمهم، أو نكلوا بهم، هاجرت بعض بطونهم إلى الأندلس، ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يقدقون عليهم الأعطيات، ويرحبون بمقدمهم، ويولونهم

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٦٨ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٦٨ .

الأعمال ، و يشجعوهم بكل الطرق الممكنة على الوفود إلى الأندلس . أشركوهم في الجيش ، واعتمدوا عليهم اعتماداً كبيراً في حركة الجهاد المقدس في الأندلس ، بل أصبحت قبائل البتر في المغرب معيناً لا ينضب يستمد منه الجيش الأندلسي حاجته بين الحين والحين ، لأن الخلفاء لم يكونوا يستطيعون الاعتماد على الجند المرتزقة اعتماداً تاماً ، فأضعفت الهجرة قوة الزناتيين بالمغرب الأقصى اضعافاً كبيراً ، على حين صد الأمويين عن البرانس ، فأبقوا على قوتهم بالمغرب لم تمس بسوء . وقد أمدن المنصور بن أبي عامر في اصطناع البربر^(١) ، لأنه كان يريد في الواقع أن يجمع السلطة في يديه ، فجند من البتر جموعاً غفيرة ، وأغدق على زعمائهم وفرسانهم ، فوفدوا على الأندلس زرافات ، وشاركوا في الحملات المتعددة التي قام بها ، والتي أبلى فيها البلاء الحسن . كل هذه الظروف قد فتت في عضد البتر ، وأنقصت جموعهم ، وأصابته وحدتهم في المغرب الأقصى بمخطر جسيم .

أفنعجب بعد ذلك ، إذا رأينا قبضة زناتة على المغرب الأقصى في القرن الخامس الهجري يصيبها الضعف ، وأن هذه القبائل عصفت بها الفرقة ، وبدت حكومتها بالمغرب ضعيفة هزيلة؟؟ على أن هناك سبباً آخر يعزى إليه ضعف شأن البتر بالمغرب الأقصى في ذلك العصر ، وهو سقوط الخلافة الأموية ، وافتراق أمر الأندلس ، وضياع الوحدة الإسلامية في شبه الجزيرة ، حين أصبح المسلمون شيعة وأحزاباً متنافرين متحاربين متباغضين . فقد كانت الدولة الأموية تبسط ظلها على المغرب ، وتمد يد العون للقبائل الزناتية ، تجزل لها العطاء ، وتمد لها يد العون وتمنحها ما تحتاج من مال لتنفيذ مشاريعها ، وتقف إلى جانبها إذا عدا عليها البرانس ، فكانت هذه القبائل المتنافرة كانت توحيدها وحدة الولاء للخليفة الأموي ، والدخول في طاعته ، فكانت هذه الإمارات في الواقع تدعو لهشام على منابرها ، وتدين بالطاعة والولاء للبيت الأموي .

(١) Dozy : Histoire, Vol. III, p. 184.

فلما سقطت الخلافة تفرق شمل المغرب^(١) ، كما تفرق شمل الأندلس ،
وعدمت الوحدة ، التي كانت تمد رواقها على هذه البلاد ، ووجدت القبائل
الزناتية نفسها حرة طليقة تعاود سياستها القديمة ، سياسة الاغارة والعدوان ،
فانقسمت السلطة على نحو ما بينا بين امارات بترية ثلاث متباغضة متحاربة فيما
بينها . وقد صور المؤرخون مدى افتراق الكلفة في المغرب الأقصى غب تدهور
الخلافة الأموية بعد هشام المؤيد أصدق تصوير ، ووصفوها بأبلغ وصف ، فقد
قيل « انخرمت الامامة ، وتفرقت الجماعة ، وانهدمت الدولة المروانية ، وصار
أمر الناس بجزيرة الأندلس شيعا ، ولما كانت الطاعة بالأندلس واحدة ، وإمامتهم
واحدة ، تشتت الناس بالمغرب كفعالهم بالأندلس ، وانترى بعضهم على بعض^(٢) » .
يضاف إلى ذلك ، ما عرف به البتر في تاريخهم الطويل من حب النقلة
والترحال وافتراق الكلمة ، فلم تستطع القبائل البترية أن تتحد فيما بينها لتكون
حلفا قويا يستطيع أن يصمد أمام الأخطار ، أو تكتب له صفة الدوام^(٣) ، هذا
على النقيض مما عرفت به صنهاجة من حب الاستقرار ، والتعلق بأسباب الحضارة ،
والوحدة التامة بين قبائل الحلف الواحد ، بل إن الوحدة والتفاهم كانا على أتم
ما يكون بين صنهاجة افريقية ، وصنهاجة الصحراء ، رغم بعد الشقة ، واختلاف
الظروف . فلم تستطع قبائل البتر في المغرب الأقصى والحالة هذه أن تتحد لمواجهة
الخطر المشترك ، بل سادتها شرعة الأسماك ، وعدا القوى على الضعيف ، فقد أغار
أمراء فاس على سجلماسة ، وأغار أمراء سجلماسة على فاس^(٤) ، ولم تستطع زناتة

(١) Marçais : Les Arabes pp. 20-21.

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٦٤ ، مفاخر البربر ص ٤١ ، ابن الخطيب :

أعمال الأعلام ص ٢٧٨ .

(٣) Marçais : Les Arabes p. 21.

(٤) مفاخر البربر ص ٤٢ — ٤٢ .

أن تنتهج سياسة بربرية ذات شخصية مستقلة . بل كانت دائماً صنعة غيرها ،
والعوبة في أيدي الدول المتنافسة على السيادة بالمغرب ^(١) .

ويبدو أن روح البداوة ، غابت على الإمارات التي كوتتها زناتة بالمغرب
الأقصى ، فلم تنجح في إقامة نوع من الحكومة المنتظمة المستقرة ، التي تؤلف
بين طبقات السكان على اختلاف مشاربهم ، فتضمن تعاونهم في سبيل المصلحة
العامة ^(٢) ، بل كان كره الزناتيين للاستقرار أكبر عقبة في سبيل إقامة نوع
من الحكومة المنتظمة ، فهم من هذه الناحية أكثر شبها بعرب بني هلال ، الذين
قوضوا بناء الدولة الصنهاجية ، وأخفقوا في إقامة نوع من الوحدة ، بل أقاموا
إمارات متنازعة متنافرة . لم يستطع الزناتيون إذن أن يوجدوا نوعاً من الوحدة
بين سكان السهول أهل الاستقرار ، والبدو أصحاب المناطق الرعوية ، كما فعل
الآدارسة من قبل ، إنما أفلحوا في إقامة حكومات تقسم بميسم الضعف والقسوة ،
حتى رماهم المؤرخون ^(٣) بكل نقيصة ، فقال صاحب البيان « جرت أمور
وخطوب لا يحسن ذكرها لشناعتها ، إن الدول إذا أدبرت فكل ما يجري فيها
يقبح ذكره ^(٤) » .

١٢ — اضطراب الأحوال الاقتصادية :

وقد اضطربت الأحوال الاقتصادية في المغرب الأقصى ، إلى جانب
اضطراب الحياة السياسية على النحو الذي عرضنا له . ذلك أن الفتن المستمرة ،
والثورات المتصلة ، والحروب غير المنقطعة ، لم تتيح للبلاد نوعاً من الهدوء

(١) Terrasse : (op. cit) p 175.

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 177.

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٦٨ ، جامع تواريف طاس ص ٢٠ .

القلقشندی : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٩٧ .

(٤) ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢٦٤ .

والاستقرار ؛ والاستقرار كما نعلم لا بد منه ليتوفر السكان الانتاج ، ويطمئن الزارع إلى زراعته ، والصانع إلى صناعته ، والتاجر إلى تجارته ؛ فلما عدم الاستقرار على هذا النحو قل الانتاج ، واضطربت الأوضاع الاقتصادية في البلاد ؛ لأن محور الحياة الاقتصادية في هذه البيئة هو حسن التعاون بين المناطق البدوية والمستقرة^(١) ، لا يعتدى البدو على المستقرين الآمنين ، فيصرفونهم عن أداة رسالتهم وزيادة إنتاجهم .

وقد زال هذا التعاون في القرن الخامس الهجري ، بل ساد التنافر بين مناطق السهول ، ومناطق الرعي ، ولم يستطع الزناتيون حماية أهل السهول زراع الأرض من عدوان البدو وغاراتهم^(٢) ، فما بالك إذا كان الحاكمون أنفسهم هم مصدر هذه الاغارات على الرعية الآمنة المستقرة ، وهذا عكس ما حدث في افريقية في عهد بني زيري ، الذين أفلحوا في إقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة من أن يزكوا نبتها ، وتؤتي الثمرات المرجوة ، فلما أغار عرب بني هلال على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأساً على عقب .

وهناك أسباب أخرى عملت على إشاعة الاضطراب في الحياة الاقتصادية في البلاد ، وهي أن التجارة بين أفريقية والسودان كانت تسلك طريقين : طريق فزان ، وبرنو ، وكانم ؛ وطريق سجلماسة ، وأودغشت ، ومنحني النيجر^(٣) . وقد حدث أن هجر الطريق الأول بسبب العواصف الرملية ، التي بدأت تجتاحه ، فخاف التجار على أنفسهم ، وعدلوا عن سلوك هذا الطريق ؛ فازدادت أهمية الطريق

(١) Terrasse : (op. cit.) pp. 203—205.

(٢) Terrasse : (op. cit.) p. 203.

اقرأ عن تجارة الصحراء في العصور الوسطى

Charles de la Roncière : La Découverte de l'Afrique au Moyen

Age, C. I., pp. 71—108.

Cooley : The Negroland of the Arabs (٣)

الثاني^(١)، وأصبحت مجلّسة على طرف الصحراء من الشمال، وأودغشت على طرف الصحراء من الجنوب من أهم مدن المغرب وأوفرها مالا^(٢)؛ فقصدتها التجار من كافة الآفاق؛ وكان هذا الطريق يمر بديار قبائل الملمثين فاحتكروه، وفرضوا أنفسهم لحماية المتاجر التي تعبره من المغرب إلى السودان، كما أن طريق المحيط الأطلسي زادت أهميته، وبدأت القوافل تسلكه، وهو يمر بديار جدالة، ولمتونه، فكانت النتيجة أن تحكمت قبائل الملمثين في هذا الطريق الحيوي، واحتكرت التجارة بين المغرب والسودان.

وكان هذا الاحتكار أول الأمر من نصيب زناتة، التي استطاعت بعد أن حالفت العرب أن تضع يدها على هذه التجارة الراجعة، ولكن الملمثين نازعوها هذا الأمر، وانزعوا هذه الموارد الضخمة من أيدي الزناتيين؛ بل ناضلوا مملكة غانة؛ وغيرها من الممالك الزنجية دفاعاً عن هذه الثروة الضخمة، ووضعوا أيديهم على مدينة أودغشت؛ كما أن قبيلة لمطة بسطت نفوذها على المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادي نون، وأنشأت مدينة نول لمطة التي أصبحت في الواقع من أهم المراكز التجارية في غرب أفريقيا^(٣)؛ وكان للملح من أهم السلع المتبادلة بين السودان والمغرب، كان يحمل من بلدة أوليل بديار^(٤) جدالة إلى المغرب والسودان على السواء، وكانت القوافل تحمل من بلاد السودان التبر والصمغ والصوف والخرز^(٥).

(١) Terrasse: (op. cit.) pp. 203—205.

(٢) De le Chapelle : Hesperis, 1930, T. XI, p. 59.

(٣) Demombyne : Masalik p. 200.

(٤) البكري : المغرب ص ١٧١ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ ، أبو حامد الفرناطي : تحفة

الألباب ص ٤١ — ٤٢ .

وكانت هذه المتاجر تحمل إلى موانئ المغرب ، ومنها تنقل إلى الشرق ، أو تحمل إلى أسواق أوربا^(١) ، فلما وجدت زناة أن هذه الموارد الغنية قد ضاعت منها ، فرضت المكوس الجائرة على تجار سجلماسة ، وعلى غيرهم من التجار^(٢) ، الذين كانوا يجتازون إقليم المغرب الأقصى ، فأدى ذلك كله إلى اضطراب الحياة الاقتصادية ، وقلت موارد بيت المال في الوقت الذي لم تعد فيه زناة تعتمد على معونة بنى أمية في الأندلس .

وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء في البلاد ، وانقطعت المواد ، وكثر الخوف ، وتبدل الرخاء بالشدة ، فاتصل الجوع ، والغلاء ، وعدمت الأقوات^(٣) ؛ حتى لقد قيل أن أوقية البر كانت تباع بدرهم^(٤) . وقد روى المؤرخون^(٥) صوراً غريبة لهذه الضائقة ، التي اجتاحت البلاد في ذلك الوقت ، إذ قيل أن الزنانيين كانوا يقتحمون الدور ليستولوا على الطعام ، ويمثلوا بالنساء والأطفال ؛ وكانوا يستولون على أموال التجار بالقوة ، بل قيل أيضاً أنهم كانوا يقفون على جبل قريب من فاس ، فإذا رأوا دخاناً منبعثاً من منزل انقضوا عليه بحثاً عن الطعام^(٦) ، فاتخذ الناس لأجل ذلك « مطامر تحت الأرض يطبخون فيها وغرفاً من غير أدراج تصعد بالسلالم خوفاً منهم »^(٧) .

(١) البكري : المغرب ص ١٨٠ .

(٢) De la Chapelle : Hespéris 1930, T. XI., p 69.

(٣) ابن الفاضي : جذوة الإقتباس ص ٢٠٩ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٢ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٢ ، جذوة الإقتباس ص ٢٠٩ ، جامع

تواريخ فاس ص ٢١ .

(٦) المراجع السابقة .

(٧) المراجع السابقة .

وليس من شك في أن هذه صورة قائمة قد تكون فيها مبالغة ، لكنها على كل حال تصور لنا اضطراب الحياة الاقتصادية في البلاد ، وتبرم الناس بالضائقة التي حلت بهم ، والمجاعة التي انتابتهم ، فليس عجيب أن يتطلع الناس إلى الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء ، بتأييد أية قوة جديدة تخلصهم مما هم فيه من ضنك وشدة ، وقد جاء الخلاص من ديار المثلثين على النحو الذي سنعرض له فيما بعد .

١٣ — اشهار المالكية على السبعة :

وقد تمخض القرن الخامس الهجري أيضا عن أحداث أخرى هامة كانت ذات آثار بعيدة المدى في تاريخ المغرب بوجه عام ، وفي تاريخ الدولة التي نحن بصدد التأريخ لها ، ذلك أن المالكية قد انتصرت ، وصمدت لما أريد بها وعت المغرب بأسره ، وأصبحت في نظر المغاربة مذهباً وعقيدة ووطنية . ولم تستطع المالكية أن تحرز هذا النصر ، وتظفر بهذا الفوز إلا بعد جهاد شاق وكفاح مرير ، ذلك أن الجهود التي بذلها العرب في نشر الإسلام في أفريقيا والمغرب في عهد حسان بن النعمان ، وخليفته اسماعيل بن أبي المهاجر^(١) قد آتت أكلها ، فعدت القيروان عاصمة المغرب السياسية والثقافية ، وقد إليها التابعون والفقهاء والعلماء وتلمذ عليهم كثيرون .

وأخذ البربر بعد أن انتهى دور الكفاح ، وجاء دور الاستقرار يقبلون على تفهم ذلك الدين ، الذي اعتنقوه ويفسرونه تفسيراً تقبله عقولهم ، وترضى عنه أفهامهم ، وكانت الجهود التي بذلها الولاة المتعاقبون ذات أثر بعيد في شد أزرها هذه الحركة المباركة وإذكاء جذوتها ، وأخذ نجم القيروان يتألق بمضي الزمن ، حتى غدت قبلة القصاد من كل فج ، وأخذت تنشر ثمار نهضتها الجديدة في أرجاء

(١) المالكي : — رياض النفوس ص ٣٦ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٦١ — ٦٢
ابن عذاري : البيان للمغرب ج ١ ص ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٤ .

المغرب الأقصى قاضية ودانية ، فقامت حركة إسلامية مغربية مباركة^(١) ، وأخذ الإسلام ينتشر بين الناس رويدا رويدا .

ولكن الوافدين على المغرب من العرب جلبوا معهم العقائد الشاذة ، فوفدت جماعة من الخوارج أخذت تبث في نفوس البربر بذور الخلاف والخروج ، وأخذ الإسلام في بعض نواحي المغرب يجرى في اتجاهات خطيرة كادت أن تشوهه في نظر المسلمين من البربر ؛ وكانت حركات خالد بن حميد الزناتي ، وثورة ورجومة^(٢) على عبد الرحمن بن حبيب ، وثورة أبي قرعة اليفرنى في تلمسان ، وأبي ميسرة البرغواطى استجابة لهذه العقائد الغريبة على أفهام المغاربة^(٣) ، ووفدت المذاهب المختلفة إلى القيروان ، فقد غلب عليها مذهب الكوفيين ، ثم وفدت عليها الشافعية^(٤) ، ومذهب داود ، ثم آوى إليها فريق من المعتزلة أهل الرأي ، والمغاربة أمام ذلك كله في حيرة من أمرهم .

وقد وفد مذهب مالك إلى القيروان ، شأنه شأن غيره من المذاهب ، إذ رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلا كلهم لقي مالك^(٥) ، كما وفد عليها على بن زياد التونسي وابن أشرس ، والبهلول بن راشد^(٦) ، ولكن لم يكن لهم القضاء أو الفتيا حتى جاء أسد بن الفرات ؛ أمام العراقيين بالقيروان كافة^(٧) ، ووفد على ابن القاسم أمام المالكية بمصر ، فسمع منه ، ودون ما سمع في كتاب سماه « الأسدية »^(٨) ،

(١) Terrasse : (op. cit.) p. 109.

(٢) قبيلة من قبائل البربر .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٨ .

(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٣ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥٢ .

(٦) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١ .

(٧) المسالكى : رياض النفوس ص ١٨١ .

(٨) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٨ .

وعاد به إلى المغرب ، فانتشر ذكره في الآفاق ، ورحل إليه الناس ، وتوافد عليه الكوفيون^(١) أنفسهم ، ينهلون من علم مالك الذي رواه أسد ، ولكن أسد لم ينصرف إلى مذهب مالك وحده ، بل كان « يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وافق الحق لتبحره في العلوم^(٢) » ، وكان يفسر المذهبين معاً ، ولكنه كان أكثر ميلاً لمذهب مالك فقد قال « إن أردت الله ورسوله والدار الآخرة فعليك بقول مالك ، وإذا أردت الدنيا فعليك بقول أهل العراق^(٣) » .

ولكن المغاربة وإن أعجبوا بالأسدية ، وكلفوا بمذهب مالك ، إلا أنهم لم يقتنعوا بما رواه أسد ، بل طلبوا المزيد حتى قيص الله لهم أبا سعيد سحنون بن سعيد ، الذي قدم القيروان سنة ١٩١ هـ^(٤) . ذلك الرجل الذي جمع فضل الدين والورع والعفاف والانتباذ ، فمالت إليه الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ^(٥) ، وقد رحل إلى مصر ، ولقى أبا القاسم ، وسمع منه فقه مالك ، وقابل الأسدية عليه ، وجمع ذلك كله في كتاب سماه « المدونة » طار ذكرها في الآفاق ، وتناقلها الناس وحملت إلى الأندلس^(٦) ، وكان لها فضل توطيد دعائم مذهب مالك في المغرب والأندلس ، بل أصبحت في قوتها تضارع موطأ مالك .

وقد أصيب مذهب أبي حنيفة من جراء سحنون وفقهه وعلمه في الصميم ، حتى قيل « وحى الله عز وجل كتب أبي حنيفة من أفريقية ، محامها سحنون^(٧) » ،

(١) القاضي عياض : ترتيب السدادك ج ١ ص ٦٨٣ .

(٢) المالكي : رياض النفوس ص ١٨١ ، وانظر M. Vonderheyden : La Berbérie Orientale sous la Dynastie de Benou-I-Arhab pp. 133-135.

(٣) القاضي عياض : المدارك ج ١ ص ٦٨٣ .

(٤) الدباغ : المعالم ج ٢ ص ٥٠ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٦) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦٧ ، ابن خبير : - الفهرسة ص ٢٤٠ .

(٧) المالكي : رياض النفوس ص ١٦٥ .

واستقر مذهب مالك بعد سحنون ، وشاع في المغرب جميعه . نعم كان الصراع محتد ما بين مذهبين : مذهب أبي حنيفة ، الذي يعطى رأى أهمية كبيرة ، ولا ينكر الاجتهاد ، ولا يحرم محبة السلطان ، أو تولى القضاء والفتيا^(١) ، أو كما يقول أسد بن الفرات « إذا أردت الدنيا فعليك بقل أهل العراق^(٢) » ، ومذهب آخر وهو مذهب مالك ، الذي كان أبغض الناس للمتكلمين والعراقيين ، وأشد الناس التزاماً لكتاب الله ، وسنة رسوله ، وسنة الصحابة والتابعين^(٣) ، وأكثرهم حرباً على القدرية ، حتى لقد روى عنه أنه أفتى ألا يصلى عليهم ، ولا تشهد جنازتهم ، ولا يناكحون ، ولا يصلى خلفهم ، ولا يحمل عنهم الحديث ، ولا يسلم عليهم ، ولا يعاد مرضاهم ، ولا تجوز مشاهدتهم^(٤) ، أو بعبارة أخرى مقاطعتهم سلبياً وإيجابياً ، ومذهب مالك هو أكثر المذاهب عزوفاً عن السلطان^(٥) ، وبغضاً في القضاء ، وزهداً في الفتيا ، فقد كان مالك يقول « يجب على أهل العلم والفقه أن يدخل إلى ذى سلطان يأمره بالمعروف وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العلم على غيره لأن العالم إنما يدخل على السلطان لذلك^(٦) » .

فلما امتحن أهل المغرب بمحنة خلق القرآن ، وتفشت آراء المعتزلة والقدرية كان المالكيون أشد الناس لهم حرباً ، وأكثرهم عنفاً في مقاومتهم ، وامتحنوا في سبيل ذلك ، فصبروا على الإيذاء^(٧) ، وتمسكوا بالكتاب والسنة ، وناخوا عنهما منافحة الأبطال ، حتى كتب الله لهم الظفر وأعز الله بهم الإسلام ورفع

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٧٩ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٦٨٣ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ١٩٨ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٥ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٦٩ — ٧٣ .

(٦) ترتيب المدارك ج ١ ص ٢٥٤ .

(٧) الداغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٢٢ .

كتابه ، وسنة نبیه ، وهزمت المعتزلة ، حتى لم يبق لها بالقيروان رأى ولا أتباع ولم يجد الأمراء مفرّاً من النزول على رأى المالكية ، فلما أحبوا أن يولّوهم القضاء والفتيا أعرضوا ، فأمعنوا ، حتى لقد كان الأمراء يشهرون في وجوههم السيوف ، ويهددونهم بالقتل في سبيل الرضا بالقضاء طمثنان الناس إلى عدالتهم ، أفنعجب بعد ذلك ، إذ كانت هذه السنة الحميدة ، وهذه التقاليد القويمة ، وهذا التمسك الشديد بالكتاب والسنة ، والتزام نصوص القرآن ، قد تردد صداها في المغرب كله ، وفي السودان^(١) ، بل في الأندلس أيضاً . حتى لقد قال الحكم المستنصر ، وهو العالم الفذ - في تفضل مذهب مالك « نظرناطويلا في أخبار الفقهاء ، وقرأنا ما صنف في أخبارهم إلى يومنا هذا ، فلم نرى مذهب من المذاهب أسلم منه ، كان فيهم الجهمية والرافضة ، والخوارج ، والشيعية إلا مذهب مالك رحمه الله ، فأنا ما سمعنا أحداً ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع ، فالاستمسك به نجاة إن شاء الله^(٢) » .

ولكن المالكية ما كادوا ينتصرون في هذه المعركة الأولى ، حتى خاضوا غمار معركة أخرى أعنف وأقسى ، فقد نجح الفاطميون في إقامة دولة بإفريقية ، وراحوا يبسطون ظل عقائدهم في كل ناحية^(٣) ، يسبون الصحابة ، ويفرضون على الناس أن يؤذّنوا بحمى على خير العمل ؛ حتى إذا تمكن نفوذهم من القيروان ناصبوا مذهب مالك العداء من أول الأمر ، وأعلنوها على فقهاء المالكية حرباً شعواء ، لأن المالكية يفضلون الصحابة على بن أبي طالب ، فقد روى أن هارون الرشيد سأل مالكا فقال « هل لمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفء حتى قال لا « ولا كرامة ، قال من أين قلت ذلك قال

(١) الديباغ : المعالم ج ٣ ص ١٣٩ .

(٢) عياض : المدارك ج ١ ص ١٧ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ١٨٨ .

قال الله تعالى « ليعيظ بهم الكفار » فمن عابهم فهو كافر ، ولا حق لكافر في فيء^(١) ، فلم يجد الفاطميون بدا من تحريم الإفتاء بمذهب مالك ، والحيلولة بين فقهاء المذهب وبين القضاء والفتيا^(٢) .

وقد توسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم ، ورفع لواء مذهبهم ، توسلوا بالمنظرة ، فعقدوا المجالس ، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان ، وأخذوا يناقشونهم الحجة ، ويقارعونهم بالرأى ، فما ازدادوا إلا تمسكا برأيهم ، حتى لقد قيل لأبي سعيد بن محمد الحداد ، اتق الله في نفسك فقال « حسبي من له غضبت وعن دينه ذبيت »^(٣) ، حتى لقد شبه أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة ، وعمد الفاطميون إلى إغداق المال والجاء ، فلم يجد ذلك النداء إلى قلوب المالكية سبيلا ، فلم يجدوا بدا من التنكيل والتعذيب ، فقد قال فقهاؤهم « إن من انتقص واحدا من نسل فاطمة فإنه مباح الدم »^(٤) فجلسوا في المساجد ومعهم البعاعة وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم إلى التشريق ، فمن أجاب أحسنوا إليه ومن أبى حبسوه^(٥) ، وذهبوا إلى أبعد من ذلك ؛ ضربوا الفقهاء والمؤذنين بالسياط^(٦) ، بل قطعوا لسان مؤذن نسي أن يقول حى على خير العمل^(٧) ، وضربوا الرقاب ، وصلبوا بعض الفقهاء أحياء^(٨) ، وصادروا الأموال ، وأخذوا

(١) هياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٤ .

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٠٠ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٠٢ ، ابن

عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٩٤ .

(٤) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٨٢ .

(٥) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٥٠ (عن ابن الأثير) .

(٦) الدباغ : المعام ج ٢ ص ١٣٧ ، ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٩٣ .

(٧) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٨٦ .

(٨) الدباغ : المعام ج ٢ ص ٢٤٤ .

أموال الأحياس^(١) ، وأجلوا أهل الربط والحصون^(٢) المتعبدین المنقطعين إلى الله يل افتنوا في التعذيب ، فكانوا يبطحون الناس على ظهورهم ، ثم يأمرسون السودان أن يدوسوهم بالأقدام ، حتى تزهق أرواحهم^(٣) ، وبثوا العيون على الناس في صلاتهم ينكلون بكل من لا ينصاع لأوامرهم أو يدخل في دعوتهم^(٤) . قد تكون هذه الروايات التي اعتمدنا عليها قد انتحلها أهل السنة المبغضون لبني عبيد ، ولكنها على كل حال تبين كيف أن الفاطميين أخذوا الناس بالشدة ، وعملوا بكل وسيلة على التنكيل بالفقهاء المالكيين .

وقد وقف المالكيون في وجه بني عبيد وقفة رجل واحد ، أفتوا بتكفيرهم لا تخطب لهم جمعة ، بل كل من خطب لهم على منبر يعتبر كافراً ، يقتل ولا يستتاب وتحرم عليه زوجه ، ولا يرث ولا يورث^(٥) اعتبروا الفاطميين زنادقة لما أظهروه من خلاف الشريعة ، ونادوا بقتلهم حيث وجدوهم ، كما يقتل الزنادقة^(٦) ، بل ذهبوا إلى أبعد من هذا أيضاً ، نادوا بالمقاطعة السليبية ، وأشهروا في وجوههم ذلك السلاح الماضى ، لا يؤمنون لهم صلاة ، منعوا الناس من حضور صلاة الجماعة ، وقاطعوا الجنائز^(٧) ، فأقفرَت المساجد من المصايين ، وقاطع الناس قضاة الشيعة وعماهم^(٨) ، ورفضوا دفع الأموال ، بل إن ققيها ألف كتاباً في تصحيح نسب بني عبيد ، فقاطعه الناس ، فنه من القيروان يلتمس النجاة بنفسه^(٩) .

(١) الدباغ : المعالم ج ٢ ص ٢٤٤ ج ٢ ص ١٩٩ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ٣ ص ٣٥٩ .

(٣) الدباغ : المعالم ج ٢ ص ١٩٨ .

(٤) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٣٩ .

(٥) المصدر السابق ج ٤ ص ١٥٧ .

(٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٥١٣ .

(٧) الدباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٨٦ .

(٨) المالكي : رياض النفوس ص ٢١٧ .

(٩) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٢٥ .

وقد انتشر تيار المقاومة في المغرب كله ، وشق الفقهاء في كل مكان عصا الطاعة على الفاطميين ، وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية مطمئنة ، لأن قتيلا الخوارج في رأيهم خير قتيل^(١) . قيل لأحدهم إن السيف ينتظرك ، فقال « الصراط أحد من من السيف ومن السلطان^(٢) » ، يخير الواحد منهم بين الدخول في طاعة العبيديين ، أو القتل فيختار القتل^(٣) ، قال ابن التبان لدعاة بني عبيد « شيخ ستون سنة يعرف حلال الله وحرامه ويرد على اثنين وسبعين فرقة يقال له هذا ، لو نشرت اثنين ما فارقت مذهب مالك^(٤) » . كانوا يقرون بمذهبهم إذا استطاعوا ، يعمتصمون بالمقابر^(٥) ، ويؤيدون كل ثائر ، انضموا إلى أبي يزيد محمد بن كيداد حين خرج على الفاطميين برغم أنه خارجي النحلة ، لأنه من أهل القبلة ، على حين أن الفاطميين في نظرهم زنادقة كفرة^(٦) .

أمعن الفقهاء في اصطناع هذه الروح العالية ، فلم يضعفوا أو يلينوا ، لم ينل منهم التعذيب أو القتل ، بل تركوا جيلا يعجب بهم ، ويتفانى في الاقتداء بهم ، سموا في نفوس الناس إلى مرتبة الشهداء والقديسين ، فنسبت إليهم الخوارق ، ونسجت حولهم أساطير وخیالات تمجد أفعالهم ، وتتغنى بمجاهداتهم . وقد قدر لهم أن يظفروا آخر الأمر ، وأن تعالوا كلمتهم ، ويرتفع علم مذهب مالك في عهد المعز بن باديس الصنهاجي ، حين قتل الشيعة بالقيروان وافرريقية ، قتلوا أيضا

(١) الديباغ : المعالم ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٣١ .

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٨ .

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ١٥١ .

(٥) الديباغ : المعالم ج ٣ ص ٤٧ .

(٦) عياض : ترتيب المدارك ج ٣ ص ٥٦٤ ، الديباغ : المعالم ج ٣ ص ٣٧ ،

ابن عسكاري : البيان ج ١ ص ٢٠٠ .

(م — ٧ قيام دولة المرابطين)

وجدوا^(١) ، في المغرب الأوسط ، أو في المغرب الأقصى^(٢) . فأباحت دعوة الإسماعيلية ، وتغلب مذهب مالك نهائياً ، فجب القدرية ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والإباضية ، والزبدقة . كما تغلب على مذهب أبي حنيفة ، فأوغل إلى قلوب المغاربة ، فأقبلوا عليه إقبالا عظيماً .

حدث هذا في القرن الخامس الهجري ، فهل من أسباب تلتبسها لذلك النجاح العظيم ؟ هل من أسباب توضح لنا كيف أصبح هذا المذهب للمغاربة وطنيه وعقيدة ؟ كانت المالكية للمقل الذي عصم أهل المغرب من شرور الفتنة في عصر كادت ريح الشر تعصف بالمجتمع ، صمدت المالكية للخارجية فأنت عليها ، وصارعت المعتزلة ، وانتصرت غلى العبيدين ، وحفظت على المجتمع وحدته وقوته ، وسلمته للأجيال التالية سليماً معافى ، ومصدق ذلك ما رواه الرحالة ابن جبير حين قال « إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة وما سوى ذلك بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة أو شيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها^(٣) » .

كما أن مقاطعة المالكية للسلطان وعزوفهم عن السير في ركابه ، بل معارضتهم له في كثير من الأحيان ، وأخذهم بالبأس والشدة صار نعمة محببة إلى قلوب أهل المغرب المعروفين في طول تاريخهم بالنزعة الإستقلالية ، وميلهم إلى الانتفاض من كل سلطان أجنبي يفرض نفسه عليهم ، فوجدت دعوة المالكية في نفوسهم صدى محبباً يرتاحون إليه ، كما أن الفقهاء المالكيين سموا في نفوس المغاربة إلى

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٢٩٦ ، الرحلة التيجانية ص ١١٥ ، الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٥ ، ابن عذاري : البيان ج ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ١ ص ٢١ .

(٣) ابن جبير ص ٧٨ .

مرتبة الزعماء ، الذين يدافعون عن الضعفاء والمغلوبين ، ويعارضون الحكم في سبيل إعلاء كلمة الحق ، ويستشهدون في سبيل عقيدتهم ، فأمنوا بزعامتهم ، وارتبط في أذهانهم معنى الولاية بصورة الزعيم القومي ، والدفاع عن الحق ، وحماية الرعية من عدوان الحكم ، وإصلاح المفسد ، فانتشرت فكرة الإيمان بالزهاد ، والأولياء ، ذلك الإيمان الذي مهد لقيام دولة المزابطين والموحدين ^(١) .

نعم اختفت الزعامة السياسية الحربية ، وحلت محلها زعامة أخرى دينية شعبية ، ينصاع لها الناس عن عقيدة وإيمان . والمغاربة بطبعهم معروفون بالعصبية يتعصبون للشيء ، فيخلصون ، ويصلون إل حد التضحية بأنفسهم في سبيل المبدأ الذي يؤمنون به ، كما عرفوا طوال تاريخهم بالشدة والتزمّت والصلابة في الحق ، والمالكية تمتاز بالشدة في الحق ، والتزمّت ، والتزام الجادة ، فكأنها وافقت طبيعة المغاربة ، ووجدت فيهم بيئة صالحة ، تنشر تعاليمها فيهم ، بل أمعن المغاربة في تعصبهم لمذهبهم المحبب ، فمن كان مالكيًا قبلوه وأحبوه ، ومالوا إليه ومن كان غير ذلك حاربوه دون رحمة ^(٢) ، وقد بلغ من شدة تعصبهم أن مغربيًا جمعه الطريق بالحجاز برجل بغدادى ، وكان إذ ذاك يرى رأى مالك فقال البغدادي « روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كذا » فقال له المغربي « فيما أذكر مالك لا يرى ذلك » فقال البغدادي « شاهدت وجوهكم يا أهل المغرب تعارضون قول النبي بقول مالك ^(٣) » .

وبعد ، هذه قبائل قوية محاربة مفترقة الكلمة في انتظار زعيم يرد الوحدة إلى صفوفها ، وهذا مغرب سرت فيه الفوضى ، وأساء حكمه من زناتة السيرة

(١) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ١٤ م .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣ م .

(٣) الحنفى : كتاب طبقات علماء أفريقيا ص ٢١٤ .

حتى تدمر الناس ، وضاقوا ، وتناقوا إلى أن يغير الله أحوالهم ، وهذا مذهب مالك
قد تألق نجمه ، وبسط رواقه على المغرب كله ، وسترى في الباب التالي كيف
اتحدت هذه القبائل ، لتقيم دولة عظيمة ، وكيف سقط المغرب الضعيف المتهاوى
أمام ضرباتها القوية ، وكيف توطد مذهب مالك وبسط ظله حتى أدرك
حوض النيجر .

الباب الثاني

توحيد صنهاجة

بزعامه عبد الله بن ياسين

(الدور الصحراوي)

١ — الظروف التي أدت إلى إخفاق الحلف الصنهاجي الثاني .

ذكرنا في الباب السابق كيف أن القرن الخامس الهجري أظل صنهاجة الجنوب وكنيتها مفترقة ووحدتها مشتتة بعد سقوط الحلف الثاني ، وكيف أن ملك غانة عاد يسيطر ظاهراً على مدينة أودغست ذات التجارة الراجحة والموقع الجغرافي الممتاز ، ولم تكن صنهاجة الجنوب تستطيع أن تعيش في ظل هذه الفرقة المتفشية بين قبائلها والأعداء يحفون بها ويترصون بها الدوائر . فقد كانت أحلاف زناتة والمصامدة في الشمال لا تزال تسد ميسالك المغرب ، وكانت مملكة غانة تهدد تجارة السودان تهديداً خطيراً ، هذه التجارة التي كانت مصدر يسر وغنى للقبائل الصنهاجة الضاربة في الصحراء ، أو على ساحل المحيط . نعم لا يمكن أن يستقيم لأهل اللثام حال إلا إذا اتحدت كلمتهم وقويت شوكتهم ، لذلك تم نوع من التحالف بين قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة^(١) ، بفضل الجهود التي بذلتها قبيلة لمتونة القوية ، التي كانت تحتكر زعامه صنهاجة الجنوب منذ وقت بعيد^(٢) .

Terrasse : Hist. du Maroc, vol. I, p. 214

(١)

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٩١ ، جامع توارينخ فاس ص ٢٧ ، القلقشندي : صبح

الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٨ .

ويبدو مما ذكره المؤرخون أن أهداف هذا الحلف كانت مدافعة ملك غانة في الجنوب ، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب ، واسترداد ما فقدته الحلف من تجارة ونفوذ . والمراجع حين تتحدث عن هذا الحلف غامضة أشد الغموض متضاربة في أقوالها أشد التضارب ، فهي تختلف حتى في صحة اسم زعيم هذا الحلف ، فمن قائل أن اسمه أبو عبد الله بن تيفات^(١) ، أو أبو عبيد الله بن تيفات^(٢) ، أو أبو عبد الله بن نارشت اللمتوني^(٣) . وتختلف الرواية أيضاً في تحديد سنة أتمام هذا التحالف ، وفي مدة حكم أبي عبد الله هذا ، فيذكر بعض المؤرخين أنه تولى سنة ٤٢٦ هـ^(٤) ، وحكم خمس سنوات^(٥) ، أو ثلاثاً في رواية أخرى^(٦) ، ومعنى ذلك أنه توفي سنة ٤٣٠ هـ أو ٤٣٢ هـ . لكن أغلب المراجع تتفق على أن خليفة هذا الزعيم تولى سنة ٤٢٩ هـ ، وأنه حج ولقى أبا عمران الفاسي فقيه القيروان قبل وفاته سنة ٤٣٠ هـ^(٧) ، مما يدفعنا إلى القول بأن أبا عبد الله تزعم حلف صنهاجة عام ٤٢٤ على الأكثر ، وإذا كان قد حكم خمس سنوات ، فلا بد أنه توفي سنة ٤٢٩ هـ ، وهي السنة التي حددها المؤرخون لبيعة خليفته .

ومهما يكن من شيء ، فإن سياسة هذا الحلف الجديد كانت واضحة أشد الوضوح ، إذ كانت تقضي بمواصلة الجهود التي بذلت منذ إسلام صنهاجة ، التي تقضي بالجهاد في الجنوب ، ومدافعة ممالك السودان ، والحفاظة على طرق التجارة السودانية بأية وسيلة ، ولم تفكر صنهاجة في ذلك الوقت في إتهاج سياسة

(١) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

(٢) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٨٢ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٤) Barth : Travels and discoveries in North and central Africa
ap . p. 582.

(٥) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

(٦) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٨٢ .

(٧) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

مغربية بالإتجاه صوب الشمال ومنازلة زناتة وأحلافها الضاربة في المغرب الأقصى بل كانت سياسة الحلف الجديد محلية صرفة ، ويبدو أن هذا الحلف لم يحقق الغرض المعقود عليه ، ولم يكتب له أن تطول مدته ، فقد قتل زعيمه وهو يحارب ملك غانة ، وهزمت لمتونة وأخفقت في الاستيلاء على مدينة أودغشت والسيطرة على تجارة السودان ^(١) .

وكانت هزيمة لمتونة في معركة السودان هذه بعيدة المدى في سير الحوادث ، التي تمخضت عن قيام دولة المرابطين . فقد تخلت عن زعامة الملمثين في هذا الوقت العصيب من تاريخهم ، بعد أن ظلت الزعامة في بنيتها أكثر من قرنين ، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى أن مضارب لمتونة كانت في أقاصي الشمال ، قرب حدود المغرب الأقصى ، وكان انتقالها إلى الجنوب وتخطيها حوض السنغال لمداغة السودان يتطلب جهوداً شاقة وأموالاً طائلة ، فلم تستطع أن تمضي في هذا الجهاد حتى تبلغ نهايته ، وآلت زعامة الملمثين إلى قبيلة أخرى هي قبيلة جدالة ^(٢) فنجحت إلى المعركة التي كانت لا تزال دائرة الرحي ^(٣) ، إذ أنها لو تخلت عن القيادة لذهبت ريخ الملمثين ، وعادت مملكة غانة توغل صوب الشمال من جديد فتقضى على الجهود التي بذلت في نشر الاسلام في ربوع صحراء المغرب ، وكانت جدالة أقدر على كفاح السودان من أية قبيلة أخرى ، فكانت ديارها مصابة لديارهم ، وكانت أعرف بهم وبطبائعهم ، ثم أنها كانت من أغنى القبائل وأقواها بسبب اشتغالها بتجارة الملح والتبر والرقيق ^(٤) .

(١) البكري : المغرب ص ١٧٥ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٦ .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٤ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩ ، الحلل الموشية في الأخبار

الراكشية ص ٩٠ ، جامع توارينخ فاس ص ٢٧ ، مغاخر البربر ص ٥٢ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٢ ، روض القرطاس ص ٧٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢ .

٢ — الظروف التي مرهت بـ اختيار عبد الله بن ياسين :

وقد قدر جدالة هذه القبيلة القوية الفتية أن تقبى الحركة الدينية التي انتهت بقيام دولة المرابطين ، فكانت صاحبة فضل على الملتزمين بوجه خاص ، وعلى قبائل البربر بوجه عام ، لذلك يجدر بنا أن نعود إلى تقصى إسم ذلك الأمير الجدالى الذى أمسك براية الملتزمين غيب إستشهاد الزعيم الممتونى السابق ، لأن تحقيق إسمه وتحديد سنة حكمه يعيننا على كشف الغموض الذى أحاط بأول خطوة تمت فى سبيل إقامة الدولة . يذكر بعض المؤرخين أن هذا الأمير يدعى الجوهر^(١) ، كما نسبته بعضهم خطأ إلى قبيلة جزولة^(٢) ، وجزولة كما نعلم كانت تنزل قرب جبال درن فى قاصية المغرب ، ولكن البكرى^(٣) يذكر أن الجوهر هذا كان من الخارجين على الفقيه عبد الله بن ياسين فيما بعد ، وأن زعيم جدالة فى ذلك الوقت كان يدعى يحيى بن إبراهيم^(٤) ، وقد أيد البكرى فى روايته تلك كثير من المؤرخين الثقات .

وقد أوتى هذا الزعيم الجدالى من رجاحة العقل وبعد النظر وصدق الإيمان بدينه ومستقبل أمته ، مما جعله يدرك أنه آن لأمر الملتزمين أن لا يتخذوا سياسة محلية صرفة ، بل أن يتخذوا سياسة عالمية ، عن طريق وصل مجتمعهم بسائر المجتمعات المغربية الأخرى ، أعنى وصل تاريخ صنهاجة الجنوب لا بتاريخ السودان فحسب ، بل بتاريخ العالم الإسلامى فى المغرب والشرق ، كما أدرك أن هذه الأحلاف التي تمت بين قبائل صنهاجة الجنوب كانت أحلافا ذات أهداف

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٧٩ ،
النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٢ .
(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .
(٣) البكرى : المغرب ص ١٦٤ .
(٤) نفس المرجع ص ١٦٤ .

مادية صرفة ، وأنه قد آن لهذه القبائل القوية الفتية أن تتآلف وتتآزر على سياسة جديدة روحية صرفة بتقويم المعوج من الأخلاق والتمسك بأهداب الدين ، لأنه أدرك أن وحدة هذا أساسها ستكون وحدة قوية باقية الأثر .

وليس يبيح أن يكون يحيى بن إبراهيم الجدالي قد ارتاد أسواق المغرب الأقصى متاجراً أو زائراً ، فأحس بذلك البون الشاسع بين البيئتين ، بيئة المغرب الأقصى الزاهرة بالحياة العقلية الرفيعة ، وبيئة الصحراء التي يظلمها الجهل وتقف سوقها من العلماء المتضامين في العلم ، بسبب طول السفر ومشقة الطريق . نعم كانت الحياة العقلية في المغرب الأقصى قد بلغت الأوج في القرن الخامس الهجري ذلك أن العلماء بعد أن وردوا مورد القيروان والأندلس والمشرق بدؤا يستقرون وينتجون ويحودون ، وبدا المغرب الأقصى في ذلك العصر بالذات حافلاً بالمدارس والعلماء الذين قصدهم الناس من كل فج .

كانت مدرسة قرطاس أكثر مدارس المغرب الأقصى تفوقاً وتجويداً ، حتى قصدها الناس من كل حدب^(١) ، فأصبحت دار فقه وعلم وحديث وعربية ، فقهاؤها يقتدى بهم جميع فقهاء المغرب ،^(٢) شبهها المؤرخون بالأسكندرية « في الحفاظ على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس »^(٣) . زادت شهرة جامعة فاس بعد إضطراب أمر قرطبة والقيروان^(٤) ، حتى لقد قصدتها أحد الباباوات طلباً للعلم^(٥) ، وانتشرت المدارس بدو وكالة ،^(٦) وأصبحت وسبباً

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

(٣) القلقشندي : الصبح ج ٥ ص ١٥٧ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٥) عبد الرحمن بن زيدان : الأعقاب ج ٢ ص ٧ .

(٦) التادلي : النشوف ص ١٥٥ .

وطنجة^(١) وأغمت وريكة ، واشتهر من علمائها أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن الهواري^(٢) ، ويوسف بن موسى الكلابي ، وهو أول من أدخل علوم الاعتقاد إلى المغرب الأقصى^(٣) ، كذلك اشتهرت مدرسة سجلماسة وغدت من قواعد فقه مالك بن أنس ، ومن أشهر علمائها في ذلك العصر الفقيه أبو عبد الله مروان ابن عبد الملك بن كتون زعيم المغرب وشيخه^(٤) ، وابن الغرديس الذي قصده الطلاب من الأندلس^(٥) ، ولم تكن مدرسة تلمسان بأقل من مدرسة سجلماسة فقد غدت « دارا للعلماء والمحدثين ، وحملت الرأي على مذهب مالك^(٦) » . وأخذ علماء السبر ، بعد أن نهلوا من موارد العلم بالأندلس وإفريقية يذيع صيتهم ويقصدهم الناس من كل صوب ، مثل عبد الكريم بن عبد الرحيم الصنهاجي^(٧) وأبوزكريا يحيى يسولان^(٨) وزاوي بن مناد بن عطية بن المنصور^(٩) ، وأحمد ابن موسى بن عطاء الله الصنهاجي^(١٠) ، وميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوفي الذي سكن المرية وذاع علمه في الأندلس^(١١) ، بل شارك المصامدة في هذه النهضة المباركة فنبغ منهم تونارت بن تبيدي^(١٢) .

-
- (١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٣٠١ .
 - (٢) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية ج ١ ص ٦٥ .
 - (٣) التشوف ص ١٠٤ .
 - (٤) مشيخة عياض : ورقة ٦٦ ب .
 - (٥) المرجع السابق ورقة ٢٠ ب .
 - (٦) البسكري : المغرب ص ٧٧ .
 - (٧) ابن الأبار : المعجم ص ٢٦٦ .
 - (٨) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية ج ١ ص ٦٥ .
 - (٩) ابن الأبار : المعجم ص ٨٩ .
 - (١٠) المصدر السابق ص ١٨ .
 - (١١) المصدر السابق والتكملة ج ١ ص ٣٩٥ .
 - (١٢) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .

حدث هذا كله ، وتفوق المغرب الأقصى على هذه الصورة ، على حين خيم الظلام على ربوع الصحراء وفي ديار المثلثين ، ولم تستطع هذه المدارس أن تحيل هذه الظلمة نوراً . نعم صور المؤرخون المجتمع المثلثي في ذلك الوقت تصويراً قاتماً ، فذكروا أن المثلثين لم يعرفوا من الإسلام إلا اسمه ، لم يقلعوا عما اعتادوه في جاهليتهم من مساوئ^(١) قضى عليها الإسلام في كل مكان حل فيه ، ولم يجرؤ العلماء على المخاطرة باختراق البوادي وتعليم الناس مبادئ دينهم القويم ، أو كما قال يحيى بن ابراهيم « اتنا في الصحراء منقطعين لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجاهل حرقهم الاشتغال بالبيع والشراء وفيما أقوام يحرسون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً^(٢) » .

أفنعجب بعد ذلك كله إذا رأينا يحيى بن ابراهيم الجدالي يعهد بالأمر إلى ابنه ، ويخرج من ديار المثلثين لا طلباً للحج كما يذكر المؤرخون^(٣) ، وإنما بحثاً عن الحقيقة ، يزتاد مدارس المغرب طلباً للعلم وإرواء لروحه المتعطشة للاستزادة من أمور الدين ، أو بحثاً عن فقيه يثق به ويطمئن إليه فيعود به إلى قومه مبشراً ونذيراً ، عله يخرجهم من الظلمات إلى النور ، فيوحد صفوفهم معتصمين بحبل الإسلام .

وهنا يحق لنا أن نسأل في أي وقت خرج يحيى بن ابراهيم من ديار المثلثين بقصد ارتياد مدارس المغرب وإشباع رغبته في العلم ، والإجابة على هذا السؤال وتحديد التاريخ الذي قام فيه الزعيم الجدالي برحلته تلك في غاية الأهمية ، إذ ستترتب عليه نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الدعوة المرابطية ، فهو يعيننا على التعرف

(١) البكري : المغرب ص ١٦٥ ، عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٣٢٢ .

(٢) الحلل الوشبة في الأخبار المراكشية ص ٩ .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٤ ، الحلل الوشبة ص ٩ ، روض القرطاس ص ٧٦ ،

ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٢ ، جامع تواريخ قاس ص ٢٨ .

إلى الفقهاء الذين قصدهم وتعلمذ عليهم ، وإذا عرفنا العصر الذي يعيش فيه الفقيه استطعنا بعد دراسة ترجمته أن نعرف شيوخه في الشرق أو الغرب أو الأندلس ، وأن نعرف التيارات العلمية المختلفة التي أثرت في الدعوة المرابطية أم هي مشرقية أم هي مغربية أو أندلسية .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين في تحديد هذا التاريخ ، وذهبوا فيه مذاهب شتى ، فقد ذكر كل من ابن عذارى^(١) ، والنويرى^(٢) أنه خرج سنة ٤٤٥ هـ ، وذكر صاحب الحلل الموشية^(٣) ، والقلقشندى^(٤) أن ذلك كان سنة ٤٤٠ هـ ، بل إن ابن الأثير^(٥) يذهب أبعد من هذا ، فيقرر أنه خرج سنة ٤٤٨ هـ ، في الوقت الذي يروى فيه ابن أبي زرع^(٦) وصاحب جامع تواريخ فاس^(٧) أن الرحلة قد تمت عام ٤٢٧ أو ٤٢٩ هـ . والرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة من الرواية الأولى لأن المراجع كلها المؤيدة أو المعارضة أجمعت على أن الجدال تعلمذ على الفقيه أبي عمران الفاسي بمدينة القيروان ، ولما كانت كتب التراجم وكتب التاريخ وكتب الطبقات^(٨) تجمع على أن أبا عمران قد توفي عام ٤٣٠ هـ ، فلا بد أن تكون الرحلة قد تمت قبل هذا التاريخ ، وإلا لما استطاع أن يحضر مجالس أبي عمران الفاسي ويتعلمذ عليه ، وفي هذه الحالة تصبح رواية ابن أبي زرع أقرب

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٢ .

(٣) الحلل الموشية ص ٩ ، القلقشندى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٤) القلقشندى : صبيح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ .

(٦) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٦ .

(٧) جامع تواريخ فاس ص ٢٨ .

(٨) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٢٠ ، معالم الإيمان ج ٣ ص ٢٠٤ ، روض

القرطاس ص ٧٤ ، النفوس ص ٨١ ، شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٤٧ ، البيان المغرب ج ١

ص ٢٧٥ ، التكملة لابن الأبار ج ١ ص ٢٥١ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ ، جذوة الاقتباس

ص ٢٣٠ ، الديباج المذهب ص ٣٤٤ .

هذه الروايات من الحقيقة ، وليس ببعيد أن تكون الرحلة قد تمت سنة ٤٢٧ أو ٤٢٩ على الأكثر .

ومهما يكن من شيء ، فقد يمم يحيى بن ابراهيم شطر القيروان حاضرة المغرب الثقافية ، وكعبة القصاد من قاصية المغرب والأندلس ، وكانت القيروان في ذلك الوقت بالذات قد تحررت من نير الشيعة ، واستردت حريتها كاملة ، وابتصرت فقهاء المالكية في معركة الفاطميين والزيريين نصرا عظيما ، أعاد إلى هذه الحاضرة شهرتها السابقة ومجدها القديم ، وذلك عقب هذه الثورة الجامحة التي قضت على الشيعة بأفريقية والمغرب عام ٤٠٩ هـ ، في عهد المعز بن باديس الصنهاجي^(١) . قصد الزعيم الجدالي القيروان لأنه مالكي المذهب والقيروان عاصمة المالكية وعلماؤها أقطاب الفقه وأئمة المذهب ، كما أحب أن يقصد إمام المالكية في المغرب قاطبة في ذلك الوقت ، ونعني به ذلك الفقيه الذائع الصيت أبا عمران القاسي الذي تألق نجمه وذاع صيته ، وقصده الطلاب من قاس وأغمات ومن الأندلس من سرقسطة^(٢) وأشبيلية^(٣) ، كما قصده فقهاء المصامدة^(٤) وأهل وشقة^(٥) وعلماء من بجاية^(٦) والمرية^(٧) وطليطلة^(٨) وقرطبة^(٩) وصقلية^(١٠) أيضاً .

(١) الرحلة التياجانية ص ٨ ، ابن بشكوال : الصلة ص ٤٩٨ ، ابن حذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٨٦ ، ابن الأبار ج ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن الأبار ج ٢ ص ٤٤٦ .

(٤) التادلي : النشوف ص ٨٦ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٠ .

(٦) التكملة لابن الأبار ج ١ ص ٥٢ .

(٧) ابن بشكوال : الصلة ص ١٧٢ ، ٢٧٧ ، ٤٣٠ .

(٨) المصدر السابق ص ٣٣٤ ، ٣٩١ .

(٩) الديباج للمذهب ص ١١٠ .

(١٠) المصدر السابق ص ١٧٤ .

ولم يصل أبو عمران إلى هذه المسكنة الرفيعة في ذلك العصر إلا بعد دراسات عميقة وسفر طويل ودأب على التحصيل ، فقد خرج من المغرب مُشْرِقاً فسمع من علماء مصر^(١) ، ورحل إلى الحجاز^(٢) ، وسمع بمكة^(٣) ، ثم قصد مدارس العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس ، وأبي الحسن المستملي ، وأبي الحسين بن الحماس المغربي^(٤) ، وتلمذ على الفقيه أبي بكر بن الطيب المعروف بالباقلاني المتكلم على مذهب أهل الحديث وطريقة الأشعرية^(٥) ، وتلقى عليه علم الأصول^(٦) ، وظل يلازمه ببغداد فترة طويلة^(٧) ، وكان قبل رحيله إلى المشرق قد تلمذ على الفقيه المالكي الذائع الصيت أبي الحسن القابسي^(٨) ، واختلف إلى مدارس الأندلس ونهل من علمها ما طاب له ، فأخذ عن عبد الوارث بن سفيان^(٩) وأبي الحسن أحمد بن محمد بن الصلت القرشي^(١٠) ، وسمع بقرطبة^(١١) وأشبيلية^(١٢) ، وعاد إلى القيروان بعد ذلك ليلقن علمه للناس الذين جاؤا من كل صوب .

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ١٤٥ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) ابن بشكوال : الصلاة ص ٥٥٢ .

(٤) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤١٣ ، الديباج المذهب ص ٣١٤ .

(٥) النباهي : المرقبة العليا ص ٣٧ ، الجذوة ص ٢٣٠ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ .

شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٤٧ ، روض القرطاس ٧٩ .

(٦) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ، الديباج المذهب ٣٤٤ .

(٧) النباهي : المرقبة العليا ص ٣٧ .

(٨) المدارك ج ٤ ص ٤١٣ ، الروض ص ٧٦ .

(٩) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٤٧ .

(١٠) ابن الأبار : المعجم ص ٣٨ .

(١١) المدارك ج ٤ ص ٤٣ ، ابن بشكوال ص ٥٥٢ .

(١٢) ابن بشكوال ص ٧٦ .

كان أبو عمران قد برع في علم الأصول وعلم الكلام و«تأمل»^(١) ، «وكان من أحفظ الناس وأعلمهم جمع حفظ المذهب المالكي والحديث وعلوم القرآن»^(٢) . وقد شهد له الباقون بذلك كله فقال «لواجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب لاجتمع علم مالك»^(٣) ، شب أبو عمران في هذه البيئة الزاهدة في متاع الحياة ، بيئة الفقهاء المالكية في القيروان الذين عريقوا بالشدة في الحق والتزمت والميل إلى التقشف ، وأطراح حياة التمتع والميل إلى التأمل والعبادة ، وقد بث أبو عمران هذه التقاليد فيمن قصده من تلاميذ المغرب ومنهم ذلك الفقيه الزاهد المتعبد عبد العزيز التونسي^(٤) وفقه السوس وناسكها ومتعبدها وجاج بن زللو اللطفي .

تلمذ الزعيم على ابن عمران بالقيروان ، ولم يكن يقصد أن يختص نفسه بما يحصل من علم أو بسمع من درس ، إنما كان يتألم لحال قومه ، ويريد أن يتقدم بما يهيمون فيه من جهل ، يريد أن يرد إليهم دينهم كاملاً نقياً ، وأن يجمعهم على هذه التقاليد الحميدة التي أثبت لها مدرسة القيروان ، أو بمعنى آخر يريد أن يقيم وحدة صنهاجية من نوع جديد ، فكان أول ما فعله بعد أن لقي أبا عمران أن طلب من الإمام فقيهاً من تلاميذه المالكيين ليصحبه إلى بلاده^(٥) ، ليعينه في هذه المهمة الشاقة التي وضع نصب عينيه أن يضطلع بها إعلاء لشأن قومه .

والمؤرخون^(٦) يصفون على هذه القصة لوناً طريفاً ، فيصورون كيف أن

(١) ابن بشكوال : الصلاة ص ٧٢ ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٣٠
ابن خير : الفهرسة ص ٤٤٠ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(٤) ابن بشكوال : الصلاة ص ٣٧٠ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القوطاس ص ٧٧ ، الحلال اللوشية في الأخبار المراكشية

ص ٩ ، جامع تواريف فاس ص ٢٨ ، البكري ص ١٦٥ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٢ .

(٦) المراجع السابقة .

أبا عمران جمع تلاميذه وانتدبهم لهذه المهمة الشاقة ، وأنهم أحجموا جميعاً خوفاً من بعد الدار ومشقة السفر ، وأنهم أشفقوا على أنفسهم مما سيلقون هناك من مشاق ، وهو في الواقع تصوير يفسد الصورة الرائعة التي رسمتها كتب الطبقات لفقهاء المالكية في المغرب ، فقد عرفنا عنهم الحرص على رفع لواء المذهب لا يهمهم اغتراب ولا تنهيم مشاق ، والواقع إن في رواية المؤرخين اسرافاً كبيراً . ويخيل إلى أن هؤلاء الفقهاء أو التلاميذ لم ينتدبهم الإمام لهذه المهمة ، وبالطبع لم يرفضوا ، وإنما رأى الإمام أنه لا بد لتحقيق هذه المهمة على الوجه الأكمل من فقيه من البربر يعرف البيئة المثلثة معرفة تامة ، ويلم بلسانها إماماً تاماً ، حتى يستطيع في أقصر وقت أن يهدي هؤلاء القوم سواء السبيل ، فلما لم يجد في تلاميذه من يحقق هذه الرغبة ، سير الجدال إلى أحد تلاميذه فقهاء المغرب الأقصى ، إلى رجل يدعى وجاج بن زللو فقيه مالسكي مشهور تلمذ على أبي عمران^(١) ونهل من علم القيروان وتقاليدها وتلقن زهداً وتقشفها وأطراحها لحياة اللهو . لذلك نراه يتخذ بلاد نفيس أو قرية ملكوس^(٢) مكاناً يأوي إليه بعيداً عن الناس ، يتزهد فيه ، ويتقشف ويتعبد ، وقد بنى رابطة من أجل ذلك ، وكان مر يدوه وتلاميذه يقدون عليه من كل فج ، ويتلقون عنه هذه التقاليد فيرضون عنها ، ويتعصبون لها . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن تقاليد المالكية بالقيروان نفذت إلى قاصية المغرب ، فأحيت موات الأمل ، وقومت دين البربر ، ورسمت لهم الجادة المستقيمة الواضحة ، كما أن هذا الفقيه لمطى صنهاجي من قبائل المثلثين أعرف الناس بطبائع قومه ، وأكثرهم خبرة بما ينفعهم ويضرهم .

(١) الحلال الوشية في الأخبار المراكشية ص ٩ ، وروس القرطاس ص ٧٧ .

(٢) السكري . المغرب ١٦٥

هذه إذن هي جذور هذه الحركة الدينية التي سنعرض لها بالتفصيل بعد قليل . بدأت خيوطها الأولى في القيروان على يد أبي عمران القاسي ، ثم تنهت إلى فقيه السوس وزاهدها وجاج بن زللو اللمطي ، وكانت رسالة إمام القيروان إلى هذا الفقيه الورع المتزهد أن « أبعث إلى بلدك من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ، ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين ^(١) » . وبذلك يكون الزعيم الجدالي قد أرضى رغبته في التفقه في الدين ، وأوشك أن يحقق ذلك الأمل الذي طالما ساروه ، وهو هداية شعب الملتجئين ولم شعبه وجمعه على الهدى والتوحيد ، فقد ذكر المؤرخون أن فقيه السوس ما كاد يتلقى رسالة أستاذه أبي عمران حتى جمع مريديه رواد رابطته ، وأطلعهم على رغبة إمام القيروان . وقد أضاف المؤرخون إلى ذلك قولهم أنه قد وقع اختياره على ابن أخيه ليمضي إلى الصحراء ، غير أنه خشي المغبة ، وبكص على عقبيه ، لكن تخيل إلينا أن وجاج ابن زللو اللمطي هذا أراد أن يحقق رغبة أستاذه ، فوقع اختياره على تلميذ من تلاميذه صنهاجي الأصل يدعى عبد الله بن ياسين ، فلم يتردد عيد الله في الاضطلاع بهذا الأمر ، بل أقبل عليه ، وتحميس له ورأى فيه لوغاً من الجهاد في سبيل الله وإغلاء كلمة الإسلام .

٣ — التعريف بعبد الله بن ياسين :

وناختيار عبد الله بن ياسين يتعدى عهد جديد في تاريخ شعوب الملتجئين ^(٢) . بل في تاريخ الإسلام في السودان وتاريخ المغرب ، بل في تاريخ العالم الإسلامي . فقد استطاع بفضل ما توفر له من صفات ، وما وهبه الله من إخلاص أن يحقق الآمال التي ساورت يحيى بن إبراهيم الجدالي وغيره من المخلصين من

(١) البكري : المغرب ص ١٦٥ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٢ .

(٢) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .

(م — ٨ قيام دولة المرابطين)

زعماء هذا الشعب ، فاليه يرجع الفضل في جمع كلمة الملمثين ولم شعبهم ، وإقامة حلف قوى ، بل إقامة دولة مبسوطة الأطراف عزيزة الجانب . ألهب النفوس بالحمية الاسلامية ، فخرجت القبائل التي كانت منذ عهد غير بعيد يقاتل بعضها بعضا فاتحة غازية مجاهدة . أتت على ملك زناتة ، واحتلت المغرب وخفت إلى الأندلس ترد عادية للمسيحيين ، وتشارك في حركة الجهاد المقدس ، وتحمل تراث الحضارة الاسلامية الذي كادت أن تذهب ريحه في عصر الحقبة . فمن حقه علينا بل من حقه على التاريخ أن نترجم له ونعرف به ونكشف عن الأحوال التي هيأته ليقوم بذلك الدور الممتاز ، ونبين الصفات التي توافرت فيه ، وأهله لحياة الكفاح والجهاد .

ولد عبد الله من أب صنهاجي بدعي ياسين بن مكوك بن سير على . وقد اختلف المؤرخون في إسم القبيلة التي ينتسب إليها ، فذكر فريق^(١) أنه ينتسب إلى قبيلة جزولة الضاربة كما أشرنا في أقصى المغرب قرب جبال درن ، ولكن البكري^(٢) انفرد برواية غريبة بعض الشيء ، فقال أنه ولد في قرية تياماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، أعني في أحواز مدينة أودغشت . فلا يبعد إذن أن يكون قد انحدر من هذه القبائل الملمثة التي تضرب في تلك النواحي . ويخيل إلينا أن ذلك يرجع نسبته إلى قبيلة جدالة التي تضرب قرب منطقة السنغال ، وتوغل جنوبا حتى منحني نهر النيجر . ومن السهل جدا أن يحرف الرواة اسم الجدالي فيصبح الجزولي بسبب خطأ النسخ أو عدم التحقيق . وهذا في رأينا أقرب إلى الحقيقة ، لأنه يفسر لنا لماذا أقبل عبد الله على التطوع لهذه المهمة دون تردد ، شأنه في ذلك شأن غيره من الفقهاء ، فإذا صحت نسبة عبد الله إلى

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨ ، جامع تواريخ فاس ٢٨ ، مفاخر البربر

ص ٥٢ .

(٢) البكري : المغرب ص ١٦٥

جدالة يكون أعرف الناس بأحوال قومه ، وأكثرهم اطلاعا على مواطن الضعف فيهم ، وأقدرهم على رأب الصدع وتقويم المعوج .

والمراجع لا تذكر لنا عن نشأة ذلك الزعيم الديني شيئا يشفي الغلة ، ولم نجد في كتب الطبقات — للأسف — أية ترجمة لذلك الفقيه الجريء والمصلح القذ، اللهم إلا ترجمة واحدة في كتاب ترتيب المدارك^(١) للقاضي عياض اليحصبي ، لكنها ترجمة مقتضبة مضطربة لم تلق ضوءاً كافياً لدراسة حياة هذا الرجل الذي شكل تاريخ الملتزمين ، واستطاع بمعونة أميرهم أن يحقق ما يشبه المعجزة .

ومن أسف ، أن القاضي عياض ترجم له ترجمة مفصلة في كتاب له عن تاريخ سبته لا زال مفقودا حتى اليوم لم يعثر له على أثر ، لأن عياض وهو من أئمة المالكية في المغرب أواع بتقصي أخبار فقهاء هذا المذهب ، فلم يترك فقيها دون أن يترجم له أو يعرف به ، ومن الطبيعي أن يفرد لابن ياسين فصلا طويلا ، لأنه كان قريبا من عصره ، إذ توفي عياض في القرن السادس الهجري ، وكان يعرف تلك الجهود الشاقة التي بذلها لرفع لواء مذهب مالك في صحراء الجنوب وفي السودان .

مهما يكن من شيء ، فانه يخيل إلينا أن الفتى عبد الله خرج من مسقط رأسه في فجر شبابه ليشتيع رغبته في العلم ، ويرد مناهل الثقافة في المغرب الأقصى ، ويتلمذ على أئمة الفقهاء في المدارس التي انتشرت في المغرب كله ، ولا ندري كيف اتصل بفقيه السوس وجاج ، أتلمذ عليه قبل ذهابه إلى الأندلس أم بعد عودته منه ؟ . فقد ذكر المؤرخون^(٢) أن الفتى الملتزم شد الرحال إلى الأندلس في طلب العلم والمعرفة ، ولا بد أنه تردد على أئمة العصر وأعلام الفكر في الأندلس .

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ وما بعدها .

(٢) الحلال للوشية في الأخبار المراكشية ص ١٠ .

ومن الغريب أن كتب الطبقات الأندلسية سكنت عن هذا الأمر سكوتاً ليس من العسير تعليله ، فإن أغلب هذه الكتب ألف في عصر الموحدين الذين كرهوا المرابطين ، واعتبروهم زنادقة كفرة ، وجهدوا في إخفاء آثارهم وطمس معالم تاريخهم ، فلا يبعد أن يكون كتاب الطبقات قد خافوا البطش فسكتت أقلامهم عن ذكره . وقد انفرد صاحب الحلل بذكر قصة ذهاب عبد الله بن ياسين^(١) إلى الأندلس ، فقال أنه رحل إليها في عهد ملوك الطوائف أعنى بعد عام ٤٠٠ هـ ، ومكث هناك سبع سنوات ، ثم عاد إلى المغرب الأقصى بعد ذلك ، فقلعه اتصل بوجاج فقيه السوس في ذلك الوقت ، ذلك الفقيه الذي كان قد رحل إلى القيروان^(٢) ، وتلمذ على أبي عمران الفاسي ، وعاد إلى المغرب فابتنى الرابطة وتزهد وتعبد ، وأخذ يث دعوة القيروان وتقاليدها في نفوس مريديه .

ولا يبعد أن يكون عبد الله بن ياسين قد أعجبه هذه التقاليد التي اتسم بها فقهاء المالكية من البعد عن السلطان ، وإطراح النعيم ، والتعبد والزهد والتقشف والايواء إلى الربط تقرباً من الله . وإذا كان عبد الله بن ياسين قد تلمذ على وجاج وهذا قد تلمذ على أبي عمران ، فيعتبر ابن ياسين من هذه الناحية تلميذاً لأبي عمران^(٣) عن طريق غير مباشر ، ويكون بذلك قد جمع إلى علم الأندلس علم القيروان . ويبدو أنه كان لعبد الله بن ياسين ذكر وصيت كحدث ، فيذكر ابن بشكوال^(٤) عرضاً أن أحد علماء الحديث قد روى عنه .

ومهما يكن من شيء ، فقد أجمع الرواة — على قلتهم — «على أن عبد الله بن ياسين كان من الفقهاء النابهين . كان شهماً قوى النفس حازماً ذا رأى وخير

(١) ليس يبعد أن يكون عبد الله من المغمورين في ذلك الوقت فلم تسجله كتب الطبقات .

(٢) مفاخر البربر ص ٦٩ .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٤٢٦ .

وتدبير حسن^(١) ، كما ذكر صاحب الروض أنه « كان من حذاق الطلبة الأذكياء
النبهاء النبلاء من أهل الدين والفضل والتقى والفقه والأدب^(٢) » . هذه هي الصفات
التي اتسم بها ذلك الفقيه الجريء الذكي ، وقد حق ليحيى بن إبراهيم أن يستشر
بقدمه ويعتقد أن تحقيق آماله قد آن .

* * *

٤ — عبد الله بن ياسين في ديار ملتونة :

دخل ابن ياسين الصحراء بصحبة أمير جدالة ، ولا نعرف بالضبط الطريق
الذي سلكه ، ولا الوجهة التي اتجهها ، فهل اتجه إلى ديار ملتونة كما يذكر النويري^(٣)
أم سلك طريقاً آخر ؟ . يجيل إلينا أنه اتجه إلى ملتونة أولاً ، لأنه كان يتعين عليه
أن يمر بمضاربها قبل أن يصل إلى جدالة ، ثم إنه اضطر إلى محاربة ملتونة بعد
أن أيدته جدالة ، ولا يعقل أن يجاهد ملتونة إذا لم تكن قد عرضت عن دعوته
وهذا هو ما يؤكد الرواة^(٤) حين يقولون إنه دعا ملتونة إلى طريق الحق ،
ووسط أمامها سبل الهداية فصدت عنه وأعرضت ، فاضطر أن يشد الرحال جنوباً
إلى مضارب جدالة ، عليه يستطيع بمعونة أميرها يحيى أن يحقق ما أخفق في تحقيقه
في صفوف ملتونة .

وتغرب الرواية في الخيال حين تصور قدوم عبد الله بن ياسين فقيه الملتمين
وهادئهم ، فذكرت — وإن كان ذلك تفصيل لا غناء فيه — أنه كان يركب
بعيراً يقوده يحيى بن إبراهيم ، وهو يقول للناس هذا يحيى سنة رسول الله ، يعرضه

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٣ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٣ .

(٤) الحلال الموشية ص ١٠ ، روض القرطاس ص ٧٨ .

على الناس ، ويدعوهم لحضور مجلسه والاستماع إلى مواعظه ^(١) . مهما يكن من شيء ، فقد كان لقدم عبد الله بن ياسين رنة فرح وصدى بعيد في ديار الملمين ، جاءت الوفود من كل فج داعية مرعبة ^(٢) ، لأنهم كانوا كما يبدو يحسون بذلك المستقبل الزاهر الذي أخذ هذا الفقيه الجري يرسمه لهذه الشعوب التي لم تكن قد اضطلمت بدور يذكر في تاريخ المغرب ، فقد ذكر المؤرخون أن شيخا منهم قال حين رآه يمتطي راحلته ، ويمضي في طريقه « أرايتم هذا الجبل لا بد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم » ^(٣) ، وكان يحيى بن إبراهيم الذي أطلق عليه اسم إمام الحق في سعيه وراء الحقيقة وعمله على إحياء شريعة محمد ، وجلبه فقيها يعلم الناس ويهديهم سواء السبيل الإمام المثالي الذي رسمه الطرطوشي إذ قال « فإمام العدل النبوي كان يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم الأدلاء على الله تعالى والقائمون بأمر الله والحافظون لحدود الله والناصحون لعباد الله . فواجب على السلطان ألا يقطع أسرا دونهم ولا يفصل حكما إلا بمشاورتهم ، لأنه في ملك الله يحكم ، وفي شريعته يتصرف » ^(٤) .

أخذ عبد الله بن ياسين منذ وطئت قدماه ديار الملمين يرسم لنفسه المنهج الذي يدنيه من الأهداف التي حالف يحيى بن إبراهيم الجدالي على تحقيقها ، وهي — كما أشرنا من قبل — تأليف قلوب الملمين ، وإقامة نوع من التوحيد بين القبائل المتنافرة على أسس من الدين الصحيح ، وإخلاق القويم ، حتى لا يكتب لها أن يتفرق كما تفرقت من قبل . وهذا المنهج الذي اصطنعه عبد الله لنفسه يقع

(١) الحلال الموشية في الأخبار المراكشية ص ١ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٣) النويري ج ٢٢ ص ١٧٣ .

(٤) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٥٢ .

في دورين : دور سلبي ، ودور إيجابي . دور قنع فيه بالدعوة السامية ، وآخر امتشق فيه الحسام ، وأعلن الجهاد على المفسد ، دور كان يغط فيه بالحسن ، ويخوف الناس عاقبة آثامهم . ، ودر خاض فيه حومة الوغى في سبيل تحقيق غايته ، وإتمام رسالته وهو من هذه الناحية يتفق مع طبائع الأشياء ، ومع الدعوات الماثلة التي عرفها التاريخ ، دعوات المصلحين من رجال الدين الذين يسالمون ويعتمدون على القول ، حتى إذا خذلهم الناس استلوا السيوف بعد تأليف قلوب الأنصار وحشد المؤيدين لحلبة الكفاح .

بدأ الدور الأول من أدوار الدعوة حين اتخذ عبد الله بن ياسين صفة الفقيه المشاور المعلم ، واستطاع بسبب معرفته اللهجات البربرية ، وصدق يقينه ، وإخلاصه أن يجتذب إليه الطلبة من كل فج ، فكانوا يشدون إليه الرحال من أقصى الديار يحضرون حلقاته ، ويستمعون إلى دروسه^(١) . ويبدو أن عبد الله كان يرقى بهم في فهم الإسلام من البسيط إلى المعقد ، أعنى ينزل إلى مستوى أفهامهم ويلقنهم المبادئ الصحيحة للدين ، حتى إذا تمكن من نفوسهم ، وأقبلوا عليه بعقولهم وأفهامهم ، أخذ يفسر القرآن ويروي الحديث^(٢) ، ولعله وهو الفقيه المالكي كان يقرأ نصوصاً من موطأ مالك أو المدونة التي وضعها سحنون أو المستخرجة التي وضعها طلبة سحنون فقيه القيروان . واستطاع عبد الله بفضل فرط ذكائه وخبرته بطبائع الناس وسعة أفقه ، بسبب كثرة أسفاره أن ينفذ إلى قلوب العامة ، ويصبح قريباً من قلوبهم ، فوثقوا به وأقبلوا عليه ، وتفتحت أذهانهم لتعاليمه ، « فكانوا يحفظون من فتاويه وأجوبته لا يعدلون عنه^(٣) » ، وسما في نفوسهم إلى مرتبة

(١) الحلال الموشية في الأخبار الرا كشية ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٣ .

رفيعة من التقديس . كان يعلمهم ، ويفتي في مشاكلهم . كان صاحب الرأي والمشورة بل كان بيت ما لهم تحت إشرافه^(١) .

ويبدو أن عبد الله بن ياسين قد خطا في سبيل هذه الدعوة السلبية خطوة أبعد ، فلم يكتف بالدرس بل أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر^(٢) ، وليس بمستغرب أن يفعل مثل هذا وهو تلميذ فقهاء القيروان الذين عرفوا بأنهم حرب على الفساد ، ونقمة على المنكر ، وسيف على البغاة ، رأى كيف فشّت الرذيلة بينهم ، فأراد أن يقوم من أخلاقهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، فأراد أن يقيم حدود الشرع ويحكمه في رقاب المفسدين ، «أخذ في الشدة في ذات الله تعالى ، وتغيير المناكير وأظهر الإيمان^(٣)» . كما عمل على معاقبة السارق ورجم الزاني ومحاربة الداء بالسنة القويمة^(٤) ، ولعله فعل آتخذ مثل ما فعله بسجلماسة فيما بعد ، حين أراق الخمر وحطم آلات الطرب ودعا إلى الزهد والتقشف .

وقد رأى عبد الله كيف أن النبلاء من المثلثين يتحكمون في رقاب عبيدهم ومواليهم ، ويذيقونهم ألوان الخسف ، وقد ذكرنا في الباب الأول كيف أن المجتمع المثلث يضم قبائل سيدة وأخرى مستذلة مسودة ، وعرضنا لحالة الموالى عرضا مرجزا . وقد أحب عبد الله أن يقيم حدود الاسلام ، وأن ييسط لواء المساواة بين الناس ، فيخفف من غلواء السادة ، ويسرى عن المستضعفين في المجتمع . ولا ندرى بالضبط ما هي الوسائل التي استعان بها على تحقيق بغيته ، غير أن البكري يروي أنه أختط مدينة اتخذها حاضرة له ، وأنه أمر بأن تكون

(١) البكري : المغرب ص ١٦٥ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٣) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ .

دورها متساوية لا تغلو دار على أخرى ، فكأنه أراد أن يضرب لمريديه مثلاً وأن يكون لهم أسوة حسنة .

مهما يكن من شيء فإنه يخيل إلينا أن عبد الله لم يأل جهداً في التخفيف عن كاهل الموالى ، والحد من جبروت السادة والنبلاء^(١) . وقد اتخذ لنفسه منهج فقهاء القيروان في الزهد والتقشف والبعد عن مطايب الحياة ، فقد روى المؤرخون أنه لم يشارك الملتزمين في حياتهم الخاصة ، تورع عن أكل طعامهم ، وتناول شرايبهم وكان يعتمد على صيد البرية^(٢) ، كان يتقشف ، يلبس الخشن من الثياب ، ويكتفى من الطعام بأقله ، يتقرب إلى الله بالعبادة ، ويروض نفسه على الصبر . ويبدو أن سيرته تركت في نفوس الناس أثراً بعيداً ، فوثقوا به ، وآمنوا بدعوته ، وبدءوا ينسجون حول شخصه قصصاً هي الخرافة بعينها . وهي وإن كانت بعيدة عن التصديق إلا أنها تصور لنا كيف سما في نفوس القوم ، وكيف غدا في نظرهم في مرتبة الأولياء والصالحين ، فقد روى البكري كيف استعانوا به في استخراج الماء من جوف الصحراء بإذن الله ، كما ذكر روايات أخرى قريبة من ذلك المعنى^(٣) .

ولكن ما يلقاه الدعاة والمعلمون في مستهل رسالتهم من مقاومة أهل الشر والفساد قد لقيه عبد الله ، فروى المؤرخون^(٤) كيف تيرم الناس بحكم السنة ، إذ لم يألوا الخضوع لقانون يحّد من نزواتهم ، ويوقف شهواتهم عند حد . لكن يخيل إلينا أن المعارضة لم تفرخ في صفوف المستضعفين من عامة الملتزمين ، لأن عبد الله كان نصيرهم وحاميهم ، وكان هو الذي رد البغي والعدوان عن

(١) البكري . المغرب ص ١٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٥ ، عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ ، ابن أبي

زرع : روض القرطاس ص ٧٨ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ .

ساحتهم ، إنما انبعثت المعارضة من صفوف الزعماء والنبلاء ، الذين رأوه ينتقص من حقوقهم التقليدية ، ويضع حداً لجبروتهم وعدوانهم ، وينشر المساواة بين الموالى والسادة ، فسخطوا عليه . ومما يؤيد هذا الرأي ما أشار إليه البكرى حين قال « ققام عليه فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكن مع رجلين من كبارهم يقال لأحدهما أيارو ولا آخر اينتسكوا فعزلوه من الرأي والمشورة وطرده وهدموا داره ^(١) » .

٥ — انتهاء الدور الساسى من رسالة عبد الله بن ياسين :

واضطر عبد الله خوفاً على نفسه أن يخرج من ديارهم إلى حيث قدر للدعوة أن تمر في دورها الإيجابى الناجح ، الذى ينتهى بقيام الدولة في دورها الأول . ولكن يخيل إلينا أن جهاد عبد الله لم يضع هباء ، وأن الكثرة الغالبة من جمهور الملتزمين أحبته ووثقت به ، واعتقدت أنه منقذها من الضلال ، إنما القلة الحاكمة هى التى عدت عليه ، وأخرجته من الديار ظناً منها أنه تهنأ لها القضاء على هذه الدعوة الناشئة ، ولكن الأيام خيبت ظنهم .

وتختلف المراجع في الوجة التى اتجهها عبد الله بن ياسين بعد أن خرج من مضارب لتونة يطلب النجاة بنفسه ، بعد أن يئس من اصلاح حالهم ، فذكر فريق ^(٢) أنه غلب عليه اليأس من تقويم اللمتونيين ، فخرج إلى المغرب يلوذ بأستاذة وجاج فقيه السوس ، ويشكو إليه ما يلقاه من عناء ونصب . ويذكر فريق آخر أنه هم بالعودة إلى المغرب لولا أن قبيض الله أمير جدالة يحيى بن ابراهيم ^(٣) ليرده عما أراده من اعتزال الدعوة والمركة على أشدها .

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٧٨ ، جامع توارىخ فاس ص ٢٨ .

ويبدو أن عبد الله بن ياسين كان على صلة روحية بأستاذه فقيه السوس ،
وليس ببعيد أن يكون الأستاذ ظل يرقب تلميذه عن كثب ، مباركاً حركته
متمنياً أن يكتب له التوفيق ، وأنه كان يمدّه بالمشورة والرأى والنصح والتوجيه
كما يتبين من رواية البكرى^(١) . ويخيل إلينا أن عبد الله بن ياسين لم يشأ
أن يسير إلى الجنوب من تلقاء نفسه أول الأمر ، لأنه كان يخشى أن يلقى
في الجنوب مثل ما لقيه في الشمال من محاربة النبلاء ، وأعراض الزعماء الذين
أعمتهم الأنانية وأضلهم حب الذات ، ولأنه لم يكن على علم تام بمسالك البلاد
الجنوبية . وهذا يؤيد ما ذهب إليه بعض المؤرخين^(٢) ، من أنه هم فعلاً بالعودة
من حيث أتى لمعاودة حياة الدرس والتفقه ، لولا أن يحيى بن ابراهيم الجدالي
رأى أنه إذا تخلى عنه أخفقت آماله ، وأحببت مشاريعه التي عقد الخناصر على
تحقيقها ، فألح عليه في أن يصحبه إلى الجنوب وتوصل إليه أن لا يتخلى ، وهو
الفقيه المجاهد عن رسالته السامية ، فقال له « إني لا أتركك تنصرف وإنما أتيت
بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي ودينى ، وما على من ضل من قومي^(٣) » .

هكذا قدر لهذا الزعيم الجدالي المخلص أن يتدخل ليغير مجرى الحوادث ، ويوجه
مصير قومه الملتئمين ، فأثر أن يصطحب الفقيه معه إلى الجنوب إلى ديار جدالة
أهله وعشيرته ، لعله يلقى من قومه المعونة والتأييد لتحقيق غايته ، وقد سار عبد الله
ابن ياسين صوب الجنوب إلى ديار جدالة ، حيث قدر للدور الإيجابي أن يبدأ
وأن تثمر الجهود التي بذلت لإقامة دولة من الملتئمين على أسس جديدة قوية .

وقد بدأ الدور الإيجابي حين عهد عبد الله بن ياسين إلى بناء رباط يأوى إليه
وصحبه ، يبتعدون عن الناس ، يتقربون إلى الله ، يتزهدون ويجهدون . والمراجع

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٥ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

التي بين أيدينا وإن كانت قد اتفقت على ذلك ، تختلف أشد الاختلاف في الظروف التي أنشئ من أجلها ذلك الرباط . ويذهب البعض إلى أن يحيى بن إبراهيم الجدالي هو الذي أشار على عبد الله بن ياسين ببناء رابطة للعبادة . وهذا أمر بعيد التصديق ، لأن عبد الله بن ياسين وهو الفقيه المتملذ على علماء القيروان والمغرب الأقصى كان أدرى الناس بفائدة الربط ، التي كانت قد انتشرت في المغرب انتشارا بعيداً في ذلك الوقت . كما أنه هو نفسه تتلمذ على أستاذه وجاج في رابطة ابتدأها الأستاذ في بلاد نفيس جعلها مقراً له وخف إليها التلاميذ من كل صوب لتلقي العلم على يديه . إن يحيى بن إبراهيم الجدالي لم يشر على ابن ياسين ببناء رابطة للعبادة ، إنما كان له الفضل في اختيار المواقع لإقامة ذلك الرباط ، لأنه كان يعرف مضارب قومه حق المعرفة . يشير صاحب روض القرطاس إلى ذلك حين يروي أن يحيى بن إبراهيم قال لعبد الله « ولكن ياسيدي هل لك في رأي أشير به عليك أن كنت تريد الآخرة ... » ، قال « ما هو » قال « أن ها هنا في بلدنا جزيرة في البحر ... تدخل إليها فتعيش فيها ... فقال عبد الله هذا حسن ، فسلم بنا ندخلها باسم الله تعالى ، وأبنتى بها رابطة ^(١) » .

وإذا كانت المراجع قد اختلفت في هذا الأمر ، فإنها اختلفت أيضاً في تحديد الموضع الذي اختاره عبد الله وصاحبه مستقراً لحياتهم الجديدة ، ومأوى يضعون فيه أسس الدولة الجديدة . فيذهب فريق إلى أنهما ابتنيا هذا الرباط على حدود الصحراء فيما يلي تار ودانت إلى الجنوب ^(٢) ، وهذا رأي لا يطابق الحقيقة ، فتار ودانت تقع على حدود المغرب الأقصى ، على مقربة من جبال درن ، وقد ذكرنا كيف أن عبد الله بن ياسين بعد أن كفرت لمتونة بدعوته سار إلى الجنوب

(١) ابن أبي زرع ٧٩ .

(٢) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٦ م .

إلى ديار جدالة ، ليبدأ حياة جديدة ، وأنه لم يذهب إلى الشمال ، وليس من المعقول أن يبني رابطته حيث يحف به من كل صوب الأعداء الذين يتربصون به الدوائر .

ويذهب فريق آخر إلى أنهما قد لجأ إلى ديار جدالة ، وأنهما اختارا جزيرة صغيرة ، تقع في مواجهة الشاطئ ، على مقربة من بلدة أوليل قاعدة جدالة في الخليج الذي يطلق عليه الجغرافيون اسم خليج Arguin ، وأن هذه الجزيرة يسهل الخوض في الماء للوصول إليها إذا كان الجزر ، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد ^(١) . ويعتمد أصحاب هذا الرأي على رواية لصاحب روض القرطاس جاء فيها « أن هاهنا في بلدنا جزيرة في البحر إذا حسر (الماء) دخلناها على أقدامنا وإذا ملأ دخلنا في الزوارق وفيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوث » ^(٢) .

ويذهب فريق آخر ^(٣) إلى أن هذه الجزيرة تقع في مصب السنغال الأدنى وأنها في الصيف تصبح صلتها بالبر ميسورة وفي الشتاء تنقسم إلى جزيرات صغرى .

ويخيل إلينا أن ما ذكره الفريق الثاني أقرب إلى الصواب ، ذلك لأن الرباط لا يبني عادة إلا في المناطق التي تتعرض للغزو ، ويتطلب الأمر حشد القوى بقصد الجهاد ورد المغيرين ، فلا يعقل والحالة هذه أن يتخذوا هذه الجزيرة الواقعة قرب ساحل المحيط مركزاً لنشاطهم ، لأنه لم يكن ثمة خطر يهدد جدالة .

(١) De la Chapelle: Esquisse d' une histoire du Sahara Occidental p. 61

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

(٣) R. Basset: Mission au Senegal p. 446 ، ١٨٣ ،

R. Basset: Melanges Africains et Orientaux, p. 199. De Slane: Introduction p. XXX.

ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية) ، مادة سنغال (M. Delafosse)

عن هذا الطريق ، على حين نجد ممالك الزوج الواقعة إلى جنوب حوض السنغال تغير على مضارب المثلثين باستمرار ، وتهدد طرق القوافل ، وقد رأينا كيف أن المثلثين والزوج تبادلا الاستيلاء على مدينة أودغشت مرات عدة ، فكان يتعين على عبد الله بن ياسين أن يتخذ نهر السنغال ، وهو الحد الفاصل بين مضارب المثلثين ومضارب الزوج ، مستقراً لرابطته بقصد الجهاد ونشر الإسلام في ديار الزوج ومحاولة وقف عدوانهم وحسر تيارهم ، والحيولة بينهم وبين الإغارة على مضارب المثلثين . هذا إلى أن الحياة في هذه الجزيرة الصغيرة الواقعة في المحيط ، والتي ذكر بعض المؤرخين أنها اتخذت مقراً للدعوة الجديدة تكاد تكون شاقة بسبب قلة موارد الماء وضيق رقعتها ، فلا تستطيع أن تعمل عدداً ضخماً من المراكبات في بعض الأحيان أكثر من ألف مجاهد ، على حين تتيسر الحياة في الجزر الواقعة في مصب السنغال ، بسبب وفرة المياه العذبة ، ووفرة النبات والأشجار البرية ، يتضح ذلك من قول صاحب الروض « فيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من شجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحش والحوت »^(١) .

قد يقال كيف يجرؤ المراكب على بناء رابطتهم بحوض السنغال ودولة الزوج كانت تبسط نفوذها حتى حوض هذا النهر^(٢) ، وتهددهم بخطر جسيم ؟ . يرد على ذلك بالقول بأن الأطراف الجنوبية لديار جدالة كانت تمتد حتى تدرك حوض السنغال ، وكانت هذه القبيلة تستطيع أن تحمي ظهر العصابة المراكبة ، إذا ما فكر الزوج في الاعتداء عليها ، ولا تزال الأساطير الشعبية التي يتناقلها سكان حوض السنغال اليوم تردد ذكر أحد المراكبين ، الذين قدموا حوض هذا النهر

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

R. Basset : Misston au Senegal p. 477.

(٢)

في القرن الثاني عشر الميلادي ، مما حمل الأستاذ M. Gaden ^(١) إلى الظن بأن عبد الله بن ياسين هو بعينه ذلك الم رابط الذي تتحدث عنه الأسطورة .

وإذا كان المؤرخون قد اختلفوا في هذه الأمور كلها ، فإنهم قد اختلفوا اختلافاً شديداً في التاريخ لهذا الدور الجديد ، وكل ما استطعنا أن نصل إليه هو أن يحيى بن ابراهيم الجدالي توفي سنة ٤٤٠ هـ ، بعد أن استقر به المقام مع عبد الله ابن ياسين في رباط حوض السنغال ، لأنه صاحب الفضل في اصطحاب عبد الله ابن ياسين إلى ذلك المكان البعيد ، وذكر المؤرخون أيضاً أن العصبة الم رابطة خرجت من مستقرها مجاهدة ، واستولت على أودغشت سنة ٤٤٧ هـ ، وأن يحيى ابن عمر الذي خلف يحيى بن ابراهيم توفي في ذلك الوقت ، وخلفه أبو بكر ابن عمر . إذن فلا بد أن الفترة التي قضاها عبد الله بن ياسين في رباطه هذا فترة طويلة لا تقل عن سبع سنوات إن لم تكن تزيد ، لأنه أدرك الرباط قبل وفاة يحيى بن ابراهيم أعني قبل سنة ٤٤٠ هـ .

٦ — مركات الم رابطة في بلاد المغرب :

لكي نفهم الرسالة التي أداها الرباط الذي أنشأه عبد الله بن ياسين في مصب السنغال ، ونقف على الدور الذي لعبه الرباط في تاريخ قيام الدولة ، ونكشف عن المنهج الذي التزمه عبد الله حتى كتب له النجاح ، وحقق الغاية التي كان يصبو إليها ، يجدر بنا أن نعرض لحركة الم رابطة في المغرب على العموم ، نعرض لجذورها الأولى ، كما نعرض لتطورها ، ذلك التطور الذي خدم الإسلام في المغرب خدمة جليلة ، كل ذلك يعيننا على فهم الدور الإيجابي للدعوة فهما

صادقا ، لأن رباط السفنغال ليس إلا جزء من حركة المراقبة التي بدأت في المغرب منذ أن فتحه العرب .

وتفسير كلمة رباط يحدد لنا معالم التطور الذي أصاب حركة المراقبة في المشرق والمغرب ، فالرباط معناه ملازمة ثغر العدو ، ومعناه أيضاً المحافظة على أوقات الصلاة^(١) ؛ ذهب الإمام الطرطوشي^(٢) هذا المذهب حين فسر الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون^(٣) » ، بقوله « ورابطوا فيه قولان قيل رابطوا على الجهاد وقيل رابطوا على انتظام الصلوات^(٤) » .

والجهاد في سبيل الله من أخص صفات المراقبة ، الجهاد في الثغور حيث ترابط خيل المقاتلة ، تحمي حياض المسلمين^(٥) ، وترد عادية المعتدين .

وكانت المراقبة في المغرب بعد أن فتحه العرب على هذه الصورة ، ذلك أن سواحل البلاد ظلت بعد الفتح تتعرض لغارات الأسطول البيزنطي من قواعده في صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا^(٦) ، وكانت المدن الساحلية تصاب من جراء هذه الغارات بأضرار جسيمة ، فاضطر الغرب إلى تحصين الثغور بالمقاتلة ، الذين أخذوا يربطون فيها للدفاع عن المسلمين ، والحيولة بين المقاتلة البيزنطيين وبين النزول إلى البر^(٧) .

(١) الاتحاف ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٩ .

(٤) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٩٧ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (مادة رباط) Douglé : Notes sur l'islam

Maghrîbin " Les Marabouts " p. 29. (G. Marc,ais) .

(٦) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٥ .

(٧) Douglé : Notes sur l'islam Maghrîbin " Les Marabouts " p. 29. (٧)

كان المسلمون أنفسهم يرون في هذه المراقبة لوناً من ألوان الجهاد في سبيل الله ، فكأوا يتسابقون إلى الربط ، يحرسون عورات المسلمين ، وينالون الشهادة دفاعاً عن عقيدتهم ، فكانت الربط في الواقع مجرد حصون^(١) تقام في الجهات الأكثر تعرضاً لغارات العدو ، تشحن بالمقاتلة ، والمؤن لصد عادية المعتدين .

ويبدو أن عقبة بن نافع الفهري كان يدرك أهمية الرباط في الدفاع عن المغرب ، في وقت لم تكن البحرية الإسلامية قد تفوقت على البحرية البيزنطية في العدد والعدة ، فكانت القيروان رباطاً كبيراً اتخذ العرب لصد غارات الروم ، فقد قيل في تفسير كلمة قيروان إنها موضع اجتماع الجيش ، وقيل محط أثقاله^(٢) . ويتضح الغرض من إنشاء القيروان من حديث عقبة حينما قال له أصحابه « تريد أن تقربها من البحر ليجمع أهلها الجهاد والرباط^(٣) » ، فقال . « إني أخاف أن يطرقتها صاحب القسطنطينية ، فيهلكها صاحب البحر ، لكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا تقصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون » .

ويبدو أن هذه الروابط قد حققت الغرض الذي أنشئت من أجله ، وحمته تغور أفريقية من عادية الفرنجة ، ومكنت للإسلام وللحضارة الإسلامية من أن تنتشر وهي في مأمن من الغزاة ، فإن زهير بن قيس البلوي^(٤) لم يشأ بعد أن حاقته بجنده الهزيمة أن ينسحب من الميدان ، بل رابط ببرقة للدفاع عنها ، والاستعداد لرد العدوان .

وتوسع الأغالبة في بناء الربط (وكانت تسمى القصور والحارس^(٥)) ،

(١) الرحلة التيجانية ورقة ١٥ .

(٢) الدباغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٧ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٥ .

(٥) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ ب .

فانتشرت على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي ، وكان الناس إذا دهمهم الغزاة يلجأون إليها ، يتعاونون في الدفاع عن أنفسهم ، ويصمدون في وجه الغزاة ^(١) . لم تستطع الأساطيل البيزنطية في القرن الثاني الهجري أن تنال من الساحل الأفريقي ، لأن المحارس والربط كانت بالمرصاد ^(٢) ، وكان المتطوعون الراغبون في الجهاد يخرجون للعبادة والحرس على المسلمين ^(٣) بقلوب راضية مطمئنة .

ثم انتشر الإسلام بأفريقية ، وأخذت الثقافة العربية تتوغل في بيئة المغرب ، ووفد الفقهاء والرواة والمحدثون ، وأخذت المدارس تشارك في الحياة العقلية التي نشرها العرب في البلاد ، وشرع فقهاء مذهب مالك يثبتون أقدامهم في القيروان ، ويسيطون ظلهم على أفريقية ، يشيعون بين الناس تقاليدهم من الشدة في الحق والتورع عن مصاحبة السلطان ، ومحاربة أهل الأهواء والبدع ، والميل إلى التقشف ، والزهد في متع الحياة الدنيا ، وغدوا قبلة الناس ومحط رجائهم ، وأخذ القوم يروون الشيء الكثير عن ورعهم وإخلاصهم وتشبثهم بالسنة القويمية ، وانتشرت رسالتهم هذه في المغرب الأقصى وفي الأندلس على النحو الذي فصلناه في الباب السابق .

كل هذه العوامل ساعدت على أن تخرج بالربط عن وظيفتها الأولى ، وهي إيواء الجند المدافعين عن الثور ، ورد أساطيل الغزاة المغيرين ، وبدأ الناس يقصدون الربط ليس للجهاد فحسب ، بل لتلقى العلم أيضاً ، إذ غدت الرباطات مدارس يدرس فيها الفقه والحديث ، يقصدها العلماء من كافة جهات المغرب فينبهون من مواردها ما طاب لهم أن ينهلوا . ومن العلماء الذين آووا إلى الربط وذاع صيتهم ، وتحدث عنهم كتب الطبقات أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد

(١) الرحلة التيجانية ورقة ٣٦ ب .

(٢) Pinenne : Mahomet et Charlemagne, p.146.

(٣)

(٤) القاسم عياض : ترتيب الدارك ج ٤ ص ٤٢١ .

الحضرمي^(١) المعروف باللبدي ، وأبو الحسن اللواتي^(٢) ، وأبو اسحق الساحلي^(٣) .
وعبد الرحيم بن عبد ربه^(٤) ، وأبو عثمان الخولاني^(٥) ، وأبو محمد بن حكيم^(٦) .
وسعيد بن اسحق^(٧) ، وأبو الفضل يوسف بن نصر^(٨) ، وأبو بكر محمد بن مسعود
التميمي^(٩) ، وسعيد بن اسحق الفقيه^(١٠) .

ولم يكتف رواد الربط بذلك ، بل برعوا في التأليف ، وتناقل العلماء
كتبهم ، فقد ألف أبو الفضل يوسف بن مسرور العابد بالمنستير كتاب فضل
العلم والعلماء^(١١) ، رواه عنه أهل الأندلس ، وغدا عباد الربط من الفقهاء مقصد
علماء المشرق ، فقد ذكر المؤرخون أن بقية بن الوليد والأزهر بن عبد الله
من أهل الشام لقيا عبد المؤمن بن مستنير الجزري العابد^(١٢) ، ولما ذاع صيت
رباط رادس كتب علماء المشرق إلى أهل أفريقية يقولون « من رابط برادس
يوماً واحداً حججنا عنه حجة » .

وذاع صيت المالكية في هذا الضمار ، وانتشر فقهاؤهم في الربط يعبرونها
ويشيعون عليهم فيها ، حتى قيل « إن قصور زياد المراتب بساحل أفريقية

(١) العاصي عياض : ترتيب للدارك ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) أبو العرب تميم : طبقات علماء تونس ص ١١١ .

(٤) الحشني : طبقات علماء أفريقية ص ١٦٦ .

(٥) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٧) نفس المرجع والصفحة .

(٨) الداغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٢ .

(٩) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢ .

(١٠) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ١٤١ .

(١١) ابن خير : الفهرسة ص ٣٠٢ .

(١٢) أبو العرب تميم : طبقات علماء تونس ص ١١١ .

دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك^(١) .
كما أشاع المالكية في أفريقية والمغرب حركة من الزهد والتقشف والورع والتقل
من الدنيا ، وأصبح أئمتهم مثلاً يضرب في العدل والحكمة وعفة اللسان ، والتمسك
بأهداب السنة ، وأمامهم في هذا الميدان سحنون الفقيه المالكي المشهور ،
الذي قيل فيه « الفقيه البارع والورع الصادق والصرامة في الحق والزهد في الدنيا
والتخشن في اللبس والمطعم ، شديداً على أهل البدع^(٢) » . والواقع إن هذه
الصفات لم يتفرد بها سحنون وحده ، بل اتسم بها جميع فقهاء المالكية بأفريقية
والمغرب ، هم الذين بثوا هذا الزهد وهذا التقشف بين الناس ، وكان دستورهم
في ذلك حديثاً يروونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم « سئل رسول الله صلى
الله عليه وسلم أي الناس أفضل فقال مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله
عز وجل ، قالوا ثم من يا رسول الله : قال ثم مؤمن معتزل في الشعب يقيم الصلاة
ويؤتي الزكاة^(٣) » .

لذلك هرع أهل التقى والورع إلى الخارص والقصور والربط ، فارين من
الدنيا ، ينقطعون للعبادة والتقشف . كان بعضهم يغشى الرباطات في أوقات معلومة
من العام كل ما أحس أنه بحاجة إلى زاد من التقوى والتقرب إلى الله ، يغشونها
في شهر رمضان ، وفي أول رجب وشعبان^(٤) ، يأوون إلى ديارهم ، ولكن بعضهم
كان يفر من الحياة في المدينة إلى الأبد ، ويقوم في هذه الربط مدى الحياة^(٥) ،
وكثيراً ما يحدث أن يترك التاجر تجارته ، أو الزارع زراعته ، ثم يأوي إلى الرباط .
فلا يخرج منها إلا محمولا على الأعناق^(٦) .

(١) الرحلة التيجانية ورقة ٢ ب .

(٢) الداغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ٥١ .

(٣) المالكي : رياض النفوس ص ٢١١ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٤ .

(٥) عياض : ترتيب المذكر ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٦) المالكي : رياض النفوس ص ٣٣٤ .

ومن أمثلة أولئك المرابطين المنقطعين عبد الرحيم بن عبد ربه الربيعي^(١) ، وأبو سعيد بن اسحق الكلى ، الذى كان دائم الحشرات مغلق الباب حتى مات^(٢) . كانوا يقضون أوقاتهم فى رياضة روحية شاقة يقومون الليل ، ويصومون النهار مثل أبى حفص ، الذى لم يكن ينام أبداً^(٣) ، ومثل أبو يوسف جبلة ابن حمود بن عبد الرحمن بن مسلمة الصدفى ، الذى كان كثير الدعاة شديد التضرع ، وأبى الفضل يوسف بن نصر وبشير المنستيرى ، الذى كان من رهبان الليل لا ينام منه إلا قليلا ، فإذا أصبح يقول « أصبحت ونفسي وقاىي مصران على محبتك مشتاقان إلى لقائك فعجل يا سيدى بذلك قبل أن يأتى الليل^(٤) » .

كان أهل الربط يتقللون من الطعام ، فلا يكاد يزيد عن الشعير والزيت ، زار الفقيه ابن حارث إحدى الرباطات ، فرأى للمرابطين يستعملون التوابل فى طعامهم ، فاستكثر ذلك عليهم^(٥) ، وعده ترفاً وإسرافاً ، لذلك كان بعضهم يصومون عن الطعام أو يتقللون منه . روى أن « أبا عبد الله محمد المتعبد صام حتى نجبل وتغارت عيناه وعلاه شحوب^(٦) » ، كانوا يتقشفون فى اللبس كنتقشفهم فى المأكل ، لا يلبسون إلا الخشن الذى يكاد يستر العورة . وكان بعضهم يهيم على وجهه فى البلاد ، « أو يسبحون » على حد تعبير الرواة ، يأكلون النباتات البرية إمعاناً فى تعذيب النفس ، وإذلالها ، ومن هؤلاء أبو على شقران بن على الهمداني ، الذى روى عنه أنه قال « سح فى الأرض واستعن بأكل عشبها على أداء الغرض لا تحب الدنيا ، وعد الفقر غنى ، والبلاء من الله نعمة ، والمتع من

(١) عياض : المدارك ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٢) الدباغ : المعالم ج ٣ ص ١٧٣ .

(٣) عياض : المدارك ج ٣ ص ٦٥٠ .

(٤) المالكى : رياض النفوس ص ٣٢٤ .

(٥) عياض : المدارك ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٦) الدباغ : معالم الإيمان ج ٣ ص ١٥٢ .

الله عطاء ، والوحدة مع الله أمنا والذل عزاً^(١) » ، كما كان أبو عبد الله محمد .
للتعبد « في سياحات ورياضات وعزلة وانفراد^(٢) » .

ويبدو أن حركة الزهد والانقطاع للعبادة قد أشاعها المزابيون في كل
ناحية ، حتى أن أميراً من بني الأغلب اسمه أبو عقال غلبون بن الحسن انقطع
إلى السواحل ، وصحب عابداً اسمه أبو هارون الأندلسي^(٣) . وبلغ من شهرة
الرباطات بالعبادة والأتقياء أن ظهرت أحاديث منسوبة إلى الرسول صلى الله
عليه وسلم ، تشيد بفضل رباط المنستير ، فقد روى أنه قال « بساحل قونية باب
من أبواب الجنة يقال له المنستير^(٤) » ، وروى أنه قال « من رباط بالمنستير
ثلاثة أيام وجبت له الجنة ، فقال أنس بن مالك يا رسول الله ، قال نعم يا أنس
وله في هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين^(٥) » .

تناقل أهل المغرب عن هؤلاء العباد قصصاً غريباً أقرب إلى الأسطورة منه
إلى الحقيقة ، وسموا بهم إلى مرتبة الأولياء ، حتى بلغ صيتهم المغرب والمشرق ،
مثل أبو شقران بن علي الهمداني^(٦) ، الذي روى أن ذا النون المصري جاءه
وأقام على بابه أربعين يوماً ، وفروخ بن سعدون ، وأبو السري واصل بن عبد الله
الخمسي^(٧) وغيرهم كثير ، وأخذ الناس ينسبون إليهم الخوارق والمعجزات .

(١) الداغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٢١٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٢٢ . ولكن يبدو أن اسمه جاء بصورة أخرى .

في رياض النفوس (ص ٤٢٧) — أبو عقال بن علون . أنظر أيضاً : Vonderheyden : op. cit. p. 117.

(٤) أبو العرب ص ٢ ، ٣ .

(٥) الداغ : معالم الإيمان ج ١ ص ٤ ، الرحلة التبجانية ورقة ١٤ .

(٦) المعالم ج ١ ص ٢٢٠ .

(٧) المالكي : رياض النفوس ص ٣٣٤ .

وقد خدمت هذه الرباطات الاسلام أجل الخدمات ، وأسدت إلى السنة
المحمدية أياد بيضاء ، فعصمت أهل المغرب ، لم تعبت بهم يد الفتنة في وقت
انتشرت فيه المذاهب الضالة ، وأخذ مروجوها ينفثون سمومهم في البلاد ، كما
عمل المرابطون على نشر الإسلام ، والدفاع عن حوزته ، وأعلاء كلمته ، وكانت
الرباطات ملائجة . يفتضم بها الناس وقت الفتنة ، فلولا الربط والمرابطون لقضى
الخوارج والصفورية والأباضية والبرغواطيون على التقاليد السليمة والسنن القويمة ،
ولا سيما في عهد الفاطميين ، الذين مثلوا بفقهاء مالك شرمثل ، حتى كانوا يفرون
بأنفسهم وبدينهم إلى الرباطات ^(١) ، يتعبدون ويصونون تراث مالك ، حتى إنه
ليخيل إلينا أن أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنية ،
وهم الذين دكوا صرح الشيعة في أفريقية والمغرب ^(٢) .

أما في المغرب الأقصى فقد انتشرت حركات المراقبة انتشاراً بعيد المدى ،
أوغلت في السواحل حتى أدركت المحيط الأطلسي ، وأوغلت في قلب بلاد
السوس حتى وصلت إلى أطراف الصحراء ، ترفع لواء الزهد والنقش ، وتضرب
للناس أروع الأمثال من التقرب إلى الله ابتغاء وجهه ، وتعمل على نشر الاسلام
والتمكن لمبادئه من قلوب الناس .

(١) الديباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) وقد تأثرت بلاد الأندلس ببلاد المغرب بحسب الاتصال الوثيق بينهما فانقشرت
حركة الرباطات في الأندلس كما انتشرت في المغرب وأدركت تيارها هذا الجهاد المستمر لأعداء
الدين وهذه الحرب التي كانت مستعرة بين المسلمين والفرنجة فكان المجاهدون يخفون إلى الثغور
المراقبة فيها لمداغة العدو وردة عن حياض المسلمين وكان المغاربة أنفسهم يقدون إلى الأندلس
زراقات ووحدانا للمشاركة في حركة الجهاد والدفع عن حياض الاسلام ، وكما نشر المالكيون
تقاليد الزهد والنقش في المغرب نشروها في الأندلس وأخذت كتب الطبقات تتحدث عن
فقهاء متبتلين متقشفين يلبسون الصوف ويلتزمون الرباطات في ملاطلة ورباط بطليوس ورباط
الفهميين ورباط حصن ولش ، كانت هذه الرباطات — شأنها شأن رباطات المغرب — عامرة
بالعباد والزهاد المنقطعين إلى الله المتقشفين الباعدين بين أنفسهم وبين الحياة .

لعبت هذه الربط في تاريخ المغرب الأقصى دوراً رائعاً ، حمت الاسلام من الفتنة ، ووقت المسلمين وجنتهم شر المحنة ، وحالت بينهم وبين الانسياق في تيار النزعات الضالة ، وأوجدت في المغرب الأقصى جيلاً من الفقهاء الزهاد العباد كانوا خير من مهد الدعوة الملتئمين ، ومكنوها من الذجاح ، والتفوا حولها يباركونها ويؤازرونها ، ويحضون الناس على التمسك بأهدابها .

ومن أشهر رباطات المغرب الأقصى : رباط تازة^(١) ، ورباط وادي ماسة^(٢) ، ورباط تيطنقطر في بلاد آزمور^(٣) ، ورباط سلا على البحر ، ورباط بعض المنقطعين للعبادة قرب فاس^(٤) ، ورباط هرغه^(٥) ببلاد السوس ، ورباط أصيلا^(٦) ، ورباطات أخرى في أقصى بلاد السوس^(٧) . وقد لعب رباط نفيس الذي أنشأه وجاج بن زللو اللامطي^(٨) دوراً هاماً في تاريخ دولة الملتئمين ، ففي هذا الرباط تأدب عبد الله بن ياسين بأدب أهل الرباط ، وتلقن مبادئ الزهد والنقش والورع والاخلاص لله والجهاد في سبيل الدين .

وانتشرت حركات المراقبة إنتشاراً بعيداً المدى في القرن الخامس الهجري ، هذا القرن الذي بلغ فيه الصراع بين المسلمين والفرنجة أشده في البر والبحر ، وفي الأندلس كانت قوات الفرنجة بعد سقوط الخلافة تجوس في ديار المسلمين وتسيمهم سوء الخسف ، وكانت الأساطيل الفرنجية للعيرة من موانئ جنوب أوروبا وجزر

(١) دمشق : نجة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٣) التادلي : التشوف ص ١٨٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٥) أعز ما يطلب ص ٣ .

(٦) البكري : المغرب ص ١١٢ ، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤١ .

(٧) البكري : المغرب ص ٨٦ .

(٨) التادلي : التشوف ص ٨٦ .

البحر الأبيض تغير على الثغور ، تنهب وتسلب ، وتنزل بالمسلمين أفدح الأضرار .
وفي الجنوب كانت ممالك السودان تواصل تقدمها نحو السنغال بقصد القضاء ،
على الجهود التي بذلها المثلثون في نشر الإسلام في ربوع الصحراء وبلاد السودان ،
وكان عبد الله بن ياسين كما تقدم من ثمرات هذه الحركة المباركة .

وهنا يحق لنا أن نسأل هل كانت حركات المرابطة وما صاحبها من النزول
بالحصون بقصد الدفاع عن المسلمين ، ثم ما تطورت اليه من الزهد والتقشف
والانقطاع للعبادة ، أو صيام النهار وقيام الليل ، وتعذيب النفس وإذلالها بشقي
أنواع الحرمان في الملبس والمأكل ، وقتل الملذات بالتزام حياة شاقة قاسية تحطم
في النفس الرغبة في المتعة بأطاييب الحياة ، هل كانت حركة إسلامية صرفة ، أعني
هل تطورت هذه الحركة في ظل الاسلام وحده ، فلم تخضع لمؤثرات مسيحية مثلاً .
وقبل أن نجيب على هذا السؤال إجابة شافية يحسن بنا أن نعرض لأمر قد
يكون التعرض لها مما ينير أمامنا السبيل للإجابة هذا السؤال إجابة قريبة من
الصواب .

فقد كانت حركات المرابطة في الشام والمغرب متشابهة إلى حد كبير ، ففي
بلاد الشام على الحدود البيزنطية الإسلامية انتشرت الثغور والربط ، آوى إليها
المتعبدون والزهاد للدفاع عن الاسلام والعزلة والتقشف ، أما في المغرب فقد
انتشرت في موانيه المعرضة لغارات البيزنطيين القصور والحصون والمخارص والربط
لأداء نفس الدور الذي كانت تؤديه ربط بلاد الشام .

ولم يكن التشابه في الهدف فحسب ، بل كان في عمارة هذه القصور وهذه
الرباطات . زار ابن جبير بلاد الشام ، ودخل بعض هذه الرباطات ووصفها ،
فقال « ومن أعظم ما شاهدناه موضع يعرف بالقصر وهو صرح عظيم مستقل
في الهواء ، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها وهو من البلاد بنصف ميل

له شأن عظيم يتصل به . . . وقد وهبه نور الدين ووقفه برسم الصوفية مؤيداً لهم^(١) .

أما جورج ما رسيه فقد وصف قصر سوسة أو رباط سوسة ، الذي لا تزال آثاره باقية حتى اليوم ، فقال « بناء مربع الشكل في كل زاوية من زواياه برج أما الجدران فإنها تصعد ساقمة إلى السماء ، تنتهي بأقواس متعاقبة في هيئة كورنيش وهذه الأبرج مستديرة ، غير أن برجاً يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية شكله مربع ولكنه أكثر بروزاً من سواه ينتهي بمؤذنة أسطوانية كبيرة . . . ومن الداخل نجد صحناً تحيط به عمد تعلوها أقواس . وهو من دورين يتصل الدور الأول بالثاني بسلم ، وهذا الصحن تحيط به أو تطل عليه زوايا أو غرف ينزل بها المرابطون وتنتشر هذه الزوايا في الطابقين »^(٢) .

هذا التشابه بين وصف ابن جبر وما رسيه له دلالة ومغزاه ، فهو يدل في رأينا على تشابه في التأثيرات المعمارية في بلاد الشام وبلاد المغرب ، وإذا عرفنا أن التأثيرات الشامية بيزنطية ، وأن أفريقية كانت تخضع للنفوذ البيزنطي أدركنا سر هذا التشابه في عمارة هذه القصور ، وعلمنا أن التأثيرات النيزنطية واضحة في ربط بلاد الشام والمغرب ، التي كانت في الواقع حصوناً بيزنطية^(٣) ، أقيمت في الموانئ ، وشحنت بالمقاتلة للدفاع عن الساحل الطويل ، وكان البيزنطيون يقيمون سلسلة من الحصون الشامية على الحدود ، يشحنونها بمقاتلة يقفون على قدم الاستعداد لرد أي عدوان ، وهو ما يعرف بنظام الثغور . . . إذن هنالك تأثيرات مسيحية في عمارة الربط ، تأثيرات بيزنطية واضحة لا شك فيها^(٤) .

(١) ابن جبر ص ٢٨٧ ، ٢٦٣ — ٢٤٣ .

(٢) Marçais : Manuel d' art Musulman v. I, p. 27-47.

(٣) Ibid, p. 44.

(٤) Ibid, p. 44

ولكن إذا عرفنا أن الربط الإسلامية كانت في أول الأمر تؤدي غرضاً حربيّاً ، حين كانت تشحن بالمقاتلة والفرنسان ، ليرابطوا ، ويتخذوا الأهبّة للدفاع عن المسلمين ، وورد عادة الأسطول البيزنطي ، أدركنا أن هناك تشابهاً بين الربط الإسلامية وبين الحصون البيزنطية التي أقيمت على سواحل المغرب ، تشابه في الأغراض وفي الأهداف .

ولكن بلاد المغرب تحوّلت فيها الربط إلى أما كن للعبادة والانقطاع والتقشف وصيام النهار وقيام الليل وتعذيب البدن وإذلال النفس ، فهل تأثر المسلمون في هذه الناحية بحركات الرهبنة المسيحية ، أفرد صاحب كتاب رياض النفوس^(١) في نهاية كل طبقة من العلماء والفقهاء فصلاً خاصاً لأهل العبادة والنسك المنقطعين لعبادة الله ، يعرض لحياتهم ، ويصف ما يقومون به من صيام النهار وقيام الليل ، حتى لقد سمّاهم رهبان الليل ، لأنهم لم يكونوا ينامون من الليل إلا قليلاً ، يسيحون في البلاد ، يأكلون النباتات البرية ، ويمعنون في تعذيب النفس والبدن ، وهذه تقاليد قاسية ليست من الإسلام في شيء^(٢) .

لا ننكر أن الإسلام يحارب الشهوات ، ويرغب الناس في الحياة الأخرى . ويحض على القناعة ، ويحارب الأثرة ، ولا ننكر أيضاً أن المالكية على وجه الخصوص غلوا في هذه الناحية بعض الشيء ، وعرف قهواؤهم بالتزمت والبعد عن الهوى والميل إلى التقشف ، فقد روى عن سحنون أنه قيل « ما أحب أن يكون عيش الرجل إلا على قدر ذات يده ، ولا يتكلف إلى أكثر من ذلك ، وإذا احتاج إلى امرأة طلبها على قدر ذات يده في مؤنتها وقناعتها ، حتى يبقى في يده ما يستغنى به^(٣) » . ولكن هذه التقاليد التي وضعها سحنون وخلفاؤه لا تحض

(١) مقدمة رياض النفوس ص ٢٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) المالكي : رياض النفوس ص ٢٦٣ .

على الامعان في تعذيب النفس وإذلالها بالرياضة الروحية العنيفة من صيام الليل والنهار، وأكل العشب والفناء في ذات الله . بل هي مستمدة من تقاليد الاسلام ومتمشية مع تعاليمه نصا وروحا .

٧ — حياة المرابطين في رباط السنغال .

بعد أن عرضنا لحركات المراقبة في بلاد المغرب ، وألمنا بتطورها ، وكشفنا عن أهدافها ، وبيننا الفوائد التي جنتها البلاد من هؤلاء النساك المجندين لحماية الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، نستطيع على ضوء ما قررناه من حقائق أن ندرس هذه الحركة التي بشها عبد الله بن ياسين في حوض السنغال ، وأن نوضح الدور الذي لعبه رباط السنغال في تاريخ الملتزمين وتاريخ المغرب ، ويخيل إلينا أن عبد الله بن ياسين حين بنى رباط السنغال ، كان يحتذى مثل المغرب وأفريقية في طريقة بناء الرباط وفي نمط الحياة فيه ، فقد كانت ربط المغرب حصونا تشبه إلى حد كبير القلاع التي انتشرت في أوروبا في العصور الوسطى^(١) ، كان كل حصن يدافع عن نفسه ، وكانت الحصون تتعاون في الدفاع عن المجتمع وحمايته من الغزاة ، وكانت الرباط الاسلامية تتخذ الأهمية لكل طارئ ، فإذا دقت طبول الخطر^(٢) ، ولاحت طلائع العدو والمغير ، آوى المرابطون إلى رباطهم يعتصمون من العدو ، ويطلقون في وجهه الأبواب ، ويدفعونه حتى يرتد على أعقابهم وتحمل به الهزيمة .

فلا بد أن يكون عبد الله قد جمل هذا الرباط حصنا يدفع عن المرابطين خطر أعدائهم ، ويتيح لهم لوئاما من الحماية يفيثون إلى ظلها ، وينصرفون إلى نسكهم وتقشفهم .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة رباط (G. Marçais) .

(٢) المصدر السابق .

كان الم رابطون في حصون المغرب يحيون في داخل الرباط حياة جماعية تعاونية ، يتعاون النساء تعاوناً وثيقاً في الاضطالاع بأعباء الحياة ، كان للرباطات مزارع^(١) تمدّها بحاجتها من الطعام ، وكان الم رابطون يفلحون أرضهم بأنفسهم ، ويتعاونون في إعداد حاجتهم من الطعام^(٢) ، وكانوا في بعض الأحيان يعتصمون بالجبال ، يعيشون من نبات الأرض ، ويقتاتون من صيد البر والبحر ، أو على حد تعبير البكري « يتخلون عن الدنيا ويسكنون مع الوحوش^(٣) » . ولم تكن حياة الم رابطين في السنغال تختلف عن هذه الحياة في كثير أو قليل ، فقد كانوا يعتمدون على ما توافر بجزيرتهم من صيد البر والبحر ، ولعلهم كانوا يزرعون شأنهم شأن مرابطي المغرب^(٤) .

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت حياتهم بسيطة متواضعة خشنة ، وكان مجتمعهم مجتمعاً فاضلاً حقاً ، فهذه نفوس مغلصة لا تبتغي غير الدار الآخرة ، متعاونة في سبيل الله ، ترضى من الطعام بأقله ، وترتدى من الثياب أخشنها ، آبلوا على أنفسهم ألا يتكادروا الرباط ، وأن يقضوا العمر فيه متعبدين متنسكين^(٥) . وكانت هذه الرابطة بمثابة شعلة تسرب نورها في ظلمة الصحراء ، وتسامع الملمشون المنتشرة قبائلهم من جبال درن في الشمال حتى منتحى النيجر في الجنوب . بختبر فقيه الرباط ، وتقشفه ، وزهده ، وإخلاصه ، وجهاده ، وبختبر رفاقة المخلصين الذين تجردوا من الدنيا وعرضها ، تاركين الحياة والمال في سبيل الفوز برضاء الله ، فبدأت العصبة الصغيرة يطرد نموها^(٦) .

(١) عباس : ترتيب الدارك ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) البكري : المغرب ص ١٤ .

(٤) ابن جبير ص ٢٨٤ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٨ .

(٦) المرجع السابق ص ٧٩ .

ولم يعتمد عبد الله بن ياسين في جذب أنظار المريدين إلى مجرد تسامعهم بأخباره ، بل بعث إلى ديار القبائل البعوث ، تحدث الناس بخبره ^(١) ، وتقص عليهم ما يلقونه في رباطه ، يحضون القوم على الطاعة ، ويرغبونهم في الدخول فيما دخلوا فيه ، فتوافد عليه الناس ، حتى بلغت عدة المرابطين بحوض السنغال ألفاً ^(٢) . فلما كثرت أنصاره على هذا النحو ، بدأ رباط السنغال يدخل في طور جديد من أطوار نموه ، فقد أحس عبد الله بن ياسين أن هذه العصابة المرابطة قد تكون عنصراً فعالاً في تنفيذ سياسته ، وتحقيق أهدافه ، لو حسن إعدادهم ، وتهيئتهم لذلك الهدف العظيم ؛ الذي كان يسعى إلى تحقيقه ، وهو توحيد قبائل الملثمين تحت لوائه . فما هي الوسائل التي اصطنعها عبد الله بن ياسين لإعداد هذه العصابة لحياة من الجهاد والكفاح ، وكيف استطاع أن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يفرض عليهم منهجاً خاصاً ، استطاع عن طريقه أن يردم من بدو غلاظ جفاة إلى عصابة مؤمنة متحمسة متحفزة للجهاد ؟ .

ولم يكن عبد الله بن ياسين في الواقع مجرد فقيه يفتي بين الناس فيفسر القرآن ويروى الحديث ، بل كان رجلاً نافذ البصيرة بعيد النظر ذكياً خبيراً بالمجتمع الذي يعيش فيه ، له قدرة خارقة على التأثير في نفوس مريديه ، جعلتهم يؤمنون به إيماناً لا حد له ، فأصبحوا في يده آلات طيعة يسخرها في تحقيق الغاية التي رسمها لنفسه ، وفي سبيل هذه الغاية اصطنع لنفسه منهجاً في الإصلاح لم أجده مثيلاً في أخبار فقهاء المالكية الذين امتلأت بسيرهم كتب الطبقات .

فقد روى المؤرخون أنه كان يتردد طويلاً قبل أن يضم المريد إلى زمرة ، فإذا وافق على إدخاله في رباطه ألزمه أن يطهر روحه من الدنس والرجس ، وأن يسلم إسلاماً جديداً ، وأن يحاسب على ما اقترفت يده من إثم في حياته السابقة

(١) روض القرطاس ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

على دخوله الرباط^(١) ، فيطلب إليه أن يتوب عن ذنوبه ، ثم يقول « قد أذنبت ذنوباً كثيرة في شبابك فيجب أن تقام عليك حدودها^(٢) » ، ثم تقام عليه الحدود التي شرعها الاسلام ، فيضرب حد الزنا أعنى بضرب مائة سوط ، ثم يضرب ثمانين سوطا حد المفترى ، ثم يضرب حد الشارب ، ثم تضاعف العقوبة بالتدريج^(٣) ، فإذا تقبل ذلك راضياً ، فقد طهرت نفسه من الرجس ، وكفر عن آثامه ، وقبل في زمرة المرابطين ، وأصبح قادراً على تحمل أعباء الدعوة ومشاقها ، وإذا تدمر وتبرم اعتبرت نفسه غير مطهرة ، واعتبر غير أهل للانضمام إلى زمرة المرابطين.

ويمحق لنا أن نسأل لم عهد عبد الله بن ياسين إلى ذلك ، وخرج عن رسالته كفقيه ، واصطنع لنفسه منهجاً لم يعرف له مثيل في سير الفقهاء ؟ يخيل إلينا أن سياسته هذه رد فعل لما أصابه في الرحلة الأولى من دعوته ، فقد سالم واعتمد على النصيحة والموعظة الحسنة ، فلما أخفقت هذه السياسة السلمية اضطر أن يمتحن الذين يرغبون في الانضمام إليه ، حتى لا يقبل منهم إلا من يثبت إيمانه وشدة رغبته في التكفير عن ماضيه ، وفي الانصراف إلى حياة الزهد والجهاد ، وأن يدقق في اختيار أتباعه ، وأن يعذب أبدانهم حتى تمتحن نفوسهم ، ويتبين صدق إخلاصهم ، لأن الحياة في المجتمع الجديد كانت شاقة تفرض عليهم أن يتحدوا تحت لوائه ، وإلا أخفقت خطته ، ولم يؤد رباطه الغرض الذي انشأ من أجله . كان ينتقى من الملتزمين أطهرهم نفساً ، وأوفرهم قوة ، وأقدرهم على تحمل مشاق الجهاد ، وكان المریدون يتحملون ما يلقونه من أذى في صمت وصبر ، ويعتقدون أن سوط عبد الله هو سبيلهم إلى الخلاص من آثام الحياة ، وكانوا

(١) البكري : المغرب ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

يؤمنون به إيماناً لا حد له ، سموا به إلى مدرسة الأوياء ، وسبوا إليه الكرامات
وسجوا حوله الأساطير

وإذا اجتاز المرابطون هذه المرحلة الأولى بنجاح ، تولى عبد الله تثقيفهم
وتعليمهم ، فكان يقرئ القرآن ، ويفسره ، ويروي الحديث ، ويفسره ،
ويعلمهم أحكام الدين ،^(١) حتى إذا تم له ذلك خوفهم من النار ، وشوقهم إلى
الجنة ، وكشف لهم عن مفسد الحياة ، التي يحيونها ، وطلب إليهم أن يأمرؤا
بالمعروف وأن ينهؤا عن المنكر ، وأن يتهيؤوا لحياة من الجهاد والكفاح^(٢) في
سبيل إعلاء كلمة الحق ، ورد عصبة المثلثين إلى حظيرة الطاعة ، وتطهير المجتمع
من أدران الفساد .

وفي أثناء ذلك لم يكن يتهاون أبداً في حد من حدود الإسلام . أو يترك
للمريد فرصة للهو أو عبث ، فإنه يحملهم على الجادة حملاً ، فمن تخلف عن صلاة
الجماعة ضرب عشرين سوطاً ، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط ، « يأخذون
الناس بصلاة الظهر أربعاً قبل صلاة الظهر في الجماعة ، وكذلك في سائر الصلوات
فيقولون إنك لا بد قد فرطت في سالف عمرك فاقض ذلك^(٣) » بل من رفع صوته
في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب^(٤) .

ولم يكن عبد الله في الواقع يؤمن بحرية الاختيار ، أعنى أن يترك للفرد حرية
الاختيار بين الشر والخير ، بل كان يرد أتباعه عن طريق الشر بالقوة ، وكان
يلزمهم حدود الله إلزاماً ، ويفرض عليهم أحكام الدين فرضاً ، حتى إذا استقامت
قناتهم ، ورضخوا لحكم الدين أصبحوا أعضاء صالحين في مجتمعه الجديد . ولم

(١) البكري . المغرب ص ١٦٥ ، ابن أبي روع . روس القرطاس ص ٧٩

(٢) ابن أبي روع . روس القرطاس ص ٧٩

(٣) البكري : المغرب ١٧

(٤) للرجع السابق

يكن الناس يجدون في ذلك شذوذاً . ولا عراة ، بل كانوا يقبلون عليه ، وتزداد
جموعهم يوماً بعد يوم ، يرضون بأحكامه عن طيب خاطر ، يطيعونه طاعة عمياء ،
ويؤمنون به إيماناً لا حد له ، لا فرق في ذلك بين كبير أو صغير .

وقد قنع عبد الله بن ياسين في هذا المجتمع بدور الإمام الذي يعلم ، يأمر
بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويقود الناس إلى الطريق السوي . أما دور
الأمير أو دور الحاكم الذي ينفذ أوامر الإمام ، فقد تركه ليحيى بن إبراهيم
زعيم^(١) جدالة ، فلما توفي اختار يحيى بن عمر الامتوني لقيادة المرابطين ، وتدريبهم
على القتال وإعدادهم لمركة الجهاد .

٨ - خروج المرابطين من رباط السغال :

ثم أمر عبد الله المرابطين بالجهاد ، وهذا تطور طبيعي لهذه الدعوة التي بثها
وهذه الرسالة التي اضطلع بها ، فقد أئذرو وحذر ، وأرسل الدعوة إلى القبائل ،
يحضون على الطاعة ويحذرون الناس ، ويخوفونهم من النار ، ويرغبونهم
في الجنة ، فلما يئس من هدايتهم قال لعشر المرابطين « قد أصلحكم الله تعالى
وهذاكم إلى صراطه المستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمرؤا
بالمعروف وتنهؤا عن المنكر وتجاهدؤا في سبيل الله حق جهاده^(٢) » . ثم قال
لهم « أخرجؤا على بركة الله تعالى وأئذروا قومكم وخوفؤهم عقاب الله وأبلغؤهم
حجته ، فإن تابؤا وأنبؤا ورجعؤا إلى الحق وأطاعؤا فخلؤا سبيلهم ، وإن أبؤا وتمادؤا
في غيهم ولبؤا في طغيانهم استعنؤا بالله تعالى عليهم وجاهدؤا^(٣) » .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ٧٩ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

والواقع أن الجهاد والرباط متلازمان ، فقد كانت الثغور الاسلامية في المغرب والأندلس حافلة بالمرابطين والجهاديين ^(١) . واشترك مرابطوا أفريقية في فتح صقلية ^(٢) ، وكان محمد بن سحنون يأخذ ربحه ودرقته وسيفه وترسه وسهامه ، ويخرج لقتال الروم ، والدفاع عن عورات المسلمين ^(٣) ، كما خرج الفقيه سعد ابن أحمد في أربعة آلاف من المرابطين للجهاد ، ومدافعة الروم عن ثغور أفريقية ^(٤) .

لكن المرابطين في حوض السنغال لم يحملوا السيف لجهاد الروم ، بل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاربة الفساد في مجتمع المثلثين ، وغدوا رهن إشارة هذا الفقيه الورع ، الذي كان قلبه يضطرم بالتحمس للإسلام ، وهذا القائد اللطيف الذي وهب نفسه للجهاد في سبيل الدعوة الجديدة ، ألم يقولوا لعبد الله « أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين طائعين ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا ^(٥) » .

ولكن عبد الله لم يأذن للجماعة الجديدة بأن تخرج من الرباط مجاهدة قبل أن يتم تنظيمها على النحو الذي يكفل لها الظفر والنجاح ، لأن الحمية والحماس لا تجدان نفعاً إذا لم تقترنا بالتنظيم الدقيق ، والإعداد الطويل . ليس من شك في أن عصبة المرابطين قد أخذ عددها يزيد بمضي الوقت ، حتى بلغت ثلاثة آلاف مقاتل ^(٦) . ولكن عبد الله آثر أن لا يسارع إلى القتال إلا بعد أن ينظم المجتمع الجديد على أسس سليمة . كان يعرف أن المجتمع الجديد في حاجة إلى المال

(١) السيوطي : بغية الوعاة ص ٤٠٥ .

(٢) مؤنس : مقدمة رياض النفوس ص ٢٦ م .

(٣) الديباغ : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) عياض : ترتيب : للدارك ج ٣ ص ٣٦١ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ٧٩ .

(٦) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

للا اتفاق على الجند، وابتياح السلاح، فكان يجمع الزكاة والعشور^(١)، ويشترى السلاح، ويدرب المقاتلة على الحرب^(٢)، وكان عليه أيضاً لكي يتم له تنظيم الجيش أن يختار له قائداً بعد أن توفي يحيى بن إبراهيم الجدالي.

وقد واجه أزمة كادت تعصف بوحدة المرابطين، وتفرق شملهم، فقد كان الجداليون من أنصار عبد الله يرون أنهم أحق بالإمارة، لأنهم آووه ونصروه، وبثوا الدعوة، واحتضنوها، حتى شبت عن الطوق، واشتد ساعدها^(٣)، ولكن عبد الله لم يشأ أن ينساق وراء نزعات القبيلة ضارة، إنما أراد أن يختار أصلح القوم وأطهرهم نفساً، وأحسنهم أخلاقاً، وأصدقهم إيماناً بالدعوة، وأقدمهم على الاضطلاع بعبء القتال، ولكن جدالة شقت عصا الطاعة، وأرادت أن تفرض على المجتمع أميراً جدالياً خلفاً ليحيى بن إبراهيم^(٤)، ولكن عبد الله لم يهن ولم يضعف، إنما جمع مجلساً من وجوه القوم، وحكم على الحرص على الفتنة بالموت جزاء خيانتته^(٥)، فاستطاع بسياسة الحزم والقوة هذه أن يقضى على الفتنة في مهدها، وأن يرد الوحدة إلى المجتمع الجديد.

وكان عبد الله حين نقل القيادة من جدالة إلى ملتونة^(٦) صائب الرأي بعيد النظر، إذ كان يعلم أنه لن يستطيع أن ينفذ بمجموعه صوب الشمال، أو أن يتم الوحدة المنشودة، إلا إذا ظفر بتأييد ملتونة، هذه القبيلة القوية الغنية التي كانت تتحكم في طرق التجارة الساحلية، وتحتل في مجتمع الملتئمين مكانة مرموقة، فقد ظلت الزعامة في أمرائها ما يقرب من قرنين، هذا إلى ما كان يتمتع به يحيى

(١) روض القرطاس ص ٨٠، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٠.

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥.

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٧، النويري ج ٢٢ ص ١٧٥.

(٥) النويري ج ٢٢ ص ١٧٥.

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٩.

ابن عمر من صفات حازت رضا المرابطين ، وظفرت بإعجابهم . « كان من أهل الدين المتين والفضل والورع والزهد في الدنيا والصلاح لأمر الجهاد ^(١) » . لذلك جمع عبد الله مجلساً من أصحابه ^(٢) ، وأخذ البيعة لينحي بن عمر ^(٣) ، فأصبح أميراً على المرابطين ، واستطاع عبد الله بن ياسين ببعد نظره أن يحقق السياسة التي رسمها لنفسه ، استعان بجدالة وزعيمها يحيى بن ابراهيم في بث الدعوة ، وإقامة المجتمع الجديد ، ثم رأى أن يستعين بلمتونة في تزعم حركة الجهاد ، حركة المقاومة حركة توحيد قبائل الملتمين تحت لوائه .

كان الأمير الجديد يؤمن برسالة عبد الله بن ياسين إيماناً لا يرقى إليه الشك ، ويحرص على تحقيق أهداف حرصه على الحياة ، يطيعه طاعة عمياء ، ويأتمر بأمره ، وينفذ إرادته دون تردد ، وكان عبد الله بن ياسين لا تأخذه في الحق لومة لائم ، لا يتردد في أن يقتص من المخالف ولو كان أميراً ، لم يتردد في أن يضرب هذا الأمير عشرين سوطاً ، لأنه اشترك في القتال ، على حين كان يجب عليه أن يقف عن كذب ، يحرض الناس ، ويرسم لهم الخطة الكفيلة بتحقيق النصر ^(٤) .

استطاع عبد الله بن ياسين إذن أن يتم تنظيم المجتمع الجديد . أعد الجيش للجهاد ، زوده بالمال والسلاح ، واختار له أميراً يأتمر بأمره ، وينفذ إرادته دون تردد ، وقنع هو بالإشراف البعيد ، ونأى بنفسه عن الإمارة ، وكان يقول « إنما أنا معلم لكم دينكم ^(٥) » .

وبعد أن تم لعبد الله بن ياسين ما أراد من تنظيم مجتمعه ، والتأليف بين

(١) ابن أبي زرع : الروض ٨٠ .

(٢) روض القرطاس ص ٨٠ ، ابن الأثير ج ٩ ص ١٥٨ ، النويري ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٣) جامع توارخ فاس ص ٢٩ ، صبيح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٠ .

(٥) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٢٠ .

قلوب المخلصين من رجاله ، الذين بايعوه على الموت والاستشهاد في سبيل الدعوة أمرهم بالخروج للجهاد .

ولكن المؤرخين يختلفون في تحديد الوجهة التي اتجهت بها جموع المرابطين بعد خروجهم من رباط السنغال ، قال بعضهم إنهم اتجهوا صوب الشمال نحو مضارب قبيلة جدالة^(١) ، لإدخالها في الدعوة الجديدة بالقوة ، إذا لم تجنح للسلم ، ولأن مضاربها قريبة من مجرى نهر السنغال . ولكن كيف يستطيع عبد الله أن يخاطر بالإتجاه صوب الشمال والعدو من خلفه يهدده تهديداً خطيراً ، كيف يتجه إلى جدالة وهذه مملكة غانة لا تزال قوية تسيطر على مدينة أودغشت^(٢) ، وتتحكم في أهم الطرق التجارية التي تجتاز الصحراء ؟؟ . ليس من المعقول أن يتجه عبد الله ابن ياسين صوب الشمال ، ويترك دولة غانة من خلفه تهدد ظهره ، وتقضي على الجهود التي بذلها .

يخيل إلينا أن عبد الله بن ياسين لم يتجه صوب ديار جدالة أول الأمر ، إنما سار إلى الشرق نحو منغني النيجر ، صوب مدينة أودغشت لاستردادها من الدولة التي كانت قد اغتصبتها من الملتمين بعد سقوط التحالف الصنهاجي الثاني^(٣) ، وليحمل أهل غانه على اعتناق الإسلام ، فيحقق غرضين : فيستولي على هذه المدينة الهامة ، ويثأر لما حاق بالملتمين من هزيمة ، ويجاهد في سبيل نشر الإسلام .

ويبدو أن المعركة التي خاضها عبد الله بن ياسين وعصبته من المرابطين كانت حامية الوطيس ، استبسل فيها المرابطون استبسالاً عظيماً ، لأنهم كانوا يقدرون

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ ، النويري ج ٢٢ ص ١٧٤ ، ابن الأثير

ج ٩ ص ٢٥٨ .

(٢) البكري : المغرب ص ١٦٨ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٠ ، جامع تواريق قاس ص ٢٩ ، البكري

ص ١٦٨ .

النتائج الخطيرة المترتبة على النصر والهزيمة ، فلو حاقت بهم الهزيمة لما تمت الدولة الجديدة في المهد ، ولا تنصرت دولة غانة ، فابتاع مجتبع الملتئمين ، أما إذا تم لهم النصر ثبتت أقدامهم وارتفع شأنهم في مجتبع الملتئمين . وقد استشهد يحيى بن عمر في هذه المعركة الفاصلة^(١) ، وانتصر المرابطون^(٢) ، وإستولوا على مدينة أودغشت وأوغلوا في توسعهم صوب الجنوب ، بدليل أن المؤرخين يذكرون أن رئيس التكرور قد حالف المرابطين ، وخاض غمار الحرب إلى جوارهم^(٣) ، وإذا علمنا أن شعب التكرور يضرب إلى الجنوب من ملك غانة ، أدركنا أنه لا يبعد أن يكون المرابطون قد أوغلوا في ديار غانة حتى أشرفوا على ديار التكرور .

وقد حققت هذه الحملة آمال عبدالله بن ياسين ، فقد تأكد للناس صدق جهاد المرابطين في مدافعة ملك غانة ، وحمل أهلها على الإسلام بالقوة ، كما عرفت قبائل الملتئمين الأخرى أن جميع المرابطين الذين دحروا مملكة غانة لن يلبثوا أن ينقضوا عليهم بعد حين ، وقد ذاعت شهرة المرابطين في أرجاء الصحراء ، وتجاوزت أصداؤها جبال دزن إلى الشمال ، لأن المرابطين عملوا بعد إحتلال أودغشت على التمكين للإسلام الصحيح من نفوس الناس ، ومقاومة الفساد بمجد السيف ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتقويم العوج من سلوك الناس .

ومن أسف أن المراجع لم تتحدث عن هذه الأعمال الجليلة بالتفصيل ، إنما أشارت إليها في غموض وإبهام ، لا ينير السبيل أمام الباحث ، وليس يبيد أن

(١) جامع تواريخ قاس ص ٢٩ .

(٢) ذكر المؤرخون أن وفاته كانت سنة ٤٤٧ هـ وهذا التاريخ مقبول إلى حد ما . ولم نستطيع أن نحققه تحقيقاً سليماً لقلة المراجع المادية التي يعتمد عليها في التحقيق عادة مثل السكة والنقوش والآثار . وقد خلفه أخوه أبو بكر بن عمر وقد ذكر المؤرخون أن ذلك قد تم عام ٤٤٨ هـ إنما يخيل إلينا أنه بومع قبل ذلك بقليل ساعة وفاة أخيه يحيى أثناء المعركة المحترمة لأن لا يعقل أن يترك الجند بغير قائد يدير دفعة المعركة ويعرف عليها .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٧ .

تكون وفود أخرى من الملتزمين هزمت إلى الجنوب لتنضم إلى جموع المرابطين المظفرة ، وتشارك فيما يضطلمون به من شرف الجهاد ، فتضاعف عدد المرابطين ، واشتد أزر أبي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين ، وتدقت إلى بيت المال الأموال من الأعشار والصدقات والزكاة ، وأصبح المرابطون في مقدورهم أن يتبعوا هذا النجاح بنجاح آخر ، وأن يواصلوا الحملة إذ كانوا لا يزالون في بداية المعركة ^(١) .

وقد اتجهت جموع المرابطين بعد هذا إلى ديار جدالة ، لأن عبد الله بن ياسين أراد أن يؤدب هذه القبيلة على نقضها العهد والميثاق ، وتنكرها للدعوة إثر وفاة يحيى بن إبراهيم ، وكان لابد له كي يواصل تقدمه صوب الشمال أن يمر بمضاربها ويتجنب الصحراء ، التي تقترب من ساحل المحيط فتفصل بينها بين ملتونة . وقد اتخذ الجداليون الأهبة للقاء المرابطين ، وحشدوا — كما ذكر البكري — ^(٢) ما يقرب من ثلاثين ألف مقاتل ؛ وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على أن جدالة اعتزمت المقاومة والوقوف في وجه الدعوة الجديدة مهما كلفها الأمر ، وخاضت جيوش المرابطين المعركة مستميتة في الدفاع ، لأنهم كانوا يعلمون أن من يقتل سيكتسب أجر الشهادة في سبيل الله ، ولأن عبد الله راح يذكى في نفوسهم الحمية والحماس ، ويلهب عواطفهم ، ويؤجج صدورهم بالحق على أعداء الدين ^(٣) . وقد نجحت جداله في الأحداق بجيش المرابطين أول الأمر ، ولكنهم حطموا حلقات الحصار ، وانقضوا على أعدائهم ينكلون بهم شرمنكل ، وهزم الجداليون شر هزيمة ^(٤) ، وأذعنوا للدعوة الجديدة ، ودخلت هذه القبيلة طائعة أو مكرهة

(١) النويري . نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٢) البكري : المغرب ص ١٦٧ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) ابن أبي زرع : روس القرطاس ص ٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، النويري

في زمرة المرابطين المجاهدين ، وقد ضاعف هذا النصر أعداد المرابطين ، وشد من أزرهم ، فأمن الناس بأن جندهم مخوف بالنصر أينما سار .

كان من الطبيعي جداً أن يواصل عبد الله بن ياسين سيره صوب الشمال ، مخترقاً الطريق الذي يحف بساحل المحيط الأطلسي ، بعد أن أخضع جدالة ، وليس بمعقول أن يكون قد انحرف إلى الشرق لإخضاع قبيلة مسوفة ، التي تضرب في المنطقة الصحراوية الممتدة من سلجاسة في الشمال إلى أودغشت في الجنوب ، لأن مغامرة كهذه تكلف كثيراً من الجهد والمشقة ، في الوقت الذي تستطيع فيه لمتونة أن تهدده تهديداً خطيراً . لذلك يخيل إلينا — وهذا ما أجمعت عليه المراجع^(١) — أنه اتجه إلى لمتونة مباشرة ، وانقضت جموع المرابطين على مضارب هذه القبيلة توغل فيها وتنال منها . ولكن يبدو أن لمتونة لم تقاوم الدعوة الجديدة مقاومة جدية ، كما فعلت جدالة من قبل ، إنما دخلت في طاعة المرابطين دون أن تكلفهم جداً أو نصبا ، وهكذا استطاع عبد الله بن ياسين أن يضع لبنات ثلاث في صرح دعوة المرابطين : أخضع غانة ، وقهر جدالة ، واستمال لمتونة^(٢) .

عمل المرابطون بعد ذلك على إخضاع جميع قبائل الملثمين ، فأخضعوا مسوفة^(٣) ، ولطة ، وجزولة^(٤) . وهكذا تم لعبد الله أن يحقق الهدف الذي كان يسعى إليه ، وهو إقامة حلف جديد من قبائل الملثمين ، يقوم على أساس جديد . كانت الأحلاف السابقة تقوم على أسس مادية صرفة ، من دفع خطر مشترك ، أو للاحتفاظ بالتجارة عبر الطرق الصحراوية ، أما حلف اليوم فقد أقيم على

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٠ ، الحلل الوشية ص ١١ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٠ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ .

(٤) البكري : الغرب ص ١٦٦ .

أسس تختلف عن هذه تماماً ، أقيم على أساس روحى صرف ، من احياء الدين ، ونشر الفضيلة ، ومحاربة الرذيلة ، وبسط لواء العدل ، ورفع راية الإسلام . فليس بعجيب أن تصبح هذه الجموع الفقيرة من المقاتلة التى انضوت تحت لواء عبد الله ابن ياسين قوة ذات شأن عظيم ، لا فى تاريخ الصحراء فحسب ، بل فى تاريخ المغرب كله .

أما الأمل الذى كان يدور بمحمد يحيى بن ابراهيم الجدالى ، والذى من أجله رحل إلى المشرق وطلب العلم ، فقد تحقق بصورة لم يكن يتوقعها أحد من زعماء صنهاجة السابقين . فقد استطاع هذا الفقيه المتواضع أن يصنع المعجزة ، استطاع بقلبه وعقله أن يجعل من هذه القبائل البدوية جنوداً من جنود الإسلام المخلصين ، الذين لا يترددون فى بذل نفوسهم فى سبيل حماية هذا الدين ، والدفاع عنه . نعم استطاع هذا الفقيه الذى خرج من ديار لمتونة منذ وقت غير بعيد خائفاً يترقب أن يوحد القبائل ، وأن يقر السكينة والطمأنينة فى ربوع الصحراء ، وأن يهزم ملك غانة ، ويرده خاسراً إلى الجنوب ، وأن ينشر لواء الإسلام الصحيح على المنطقة الشاسعة الممتدة من جبال درن فى الشمال إلى منحى النيجر فى الجنوب ، فانتشر العدل ، وعلت كلمة الحق ، وأصبحت شرعة الأسماك وأكل القوى الضعيف لا محل لها فى هذا المجتمع الجديد .

ثم ما لبثت الأيام أن كشفت عن تطور جديد فى وجهة الحركة المرابطية ، أو فى أهداف قبائل المثلثين ، فبعد أن كانت هذه القبائل تتجهج سياسة صحراوية محلية . تتجه صوب الجنوب لمداغة ممالك السودان ، والحيولة بينها وبين الاستيلاء على مسالك التجارة المارة بين بلاد المغرب والسودان ، أصبحت تتجه وجهة أخرى ، وجهة مغربية إسلامية ، بل وجهة عالمية . بدأت تتطلع إلى ما وراء جبال درن ، إلى المغرب ، ثم إلى الأندلس ، وبدأ أهل المغرب أنفسهم يتطلعون إلى هذه القوة الجديدة ، التى بدأت تطرق أبواب المغرب . ذلك أن

أخبار عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر وصحبهما من المرابطين كانت تصل إليهم ، يتناقلها الرواة ، وينقلها التجار الساعون بين الشمال والجنوب . نعم كانوا يتناقلون أخبار تقاه وورعه وتقشفه وزهده ، وأخبار حكومته التي أقامها على أسس مستمدة من تعاليم الإسلام ، من المساواة بين الناس ، وبسط لواء العدل ، ومحاربة البدع ، والقضاء على المفسد ، وتأليف القلوب على الخير ، وعدم الإثقال على الناس في ما يفرض الشرع من أعباء مالية . وأصبح أهل المغرب وسكان الواحات الواقعة جنوب جبال درن ، يودون لو يخف المرابطون إلى إنقاذهم مما يرزحون تحته من ظلم المغراويين وعسفهم .

ولم يجد فقهاء سلجاسة وصلحاؤها بدأ من أن يكتبوا للمرابطين ^(١) ، يرغبونهم في الوصول إلى بلادهم لتطهيرها من المنكرات ، والقضاء على الأمراء الزناتيين ، فجمع عبد الله شيوخ قومه وشاورهم في الأمر ^(٢) ، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لأهل سلجاسة ، وقالوا له « أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا ويلزمك فسر بنا على بركة الله ^(٣) » ؛ فخرجت جموع المرابطين زاحفة صوب سلجاسة ^(٤) ، ونازلت أميرها المغراوى ، وهزموه هزيمة منكرة ، وفتحت المدينة ، ودخلت في طاعة المرابطين .

هكذا قدر للمرابطين أن يتجهوا وجهة جديدة صوب المغرب ، وأن يلتحموا بزنانة لأول مرة ، وأن يعجموا عودها ، وأن ينزلوا بها هزيمة ساحقة ستكون ذات أثر بعيد في تاريخ المغرب والأندلس .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

٩ — سياسة عبد الله بن ياسين في تحقيق أهدافه :

وهنا يحق لنا أن نسأل ، كيف استطاع عبد الله بن ياسين أن يصيب هذا النجاح ، وأن يحقق هذه النتائج البعيدة الأثر في تاريخ المغرب ؟ ما هي السياسة التي سنها لنفسه ، فحققت ما يصبو إليه ، وما هي الآثار التي تركتها هذه السياسة في تاريخ المغرب عامة ، وتاريخ الملتزمين خاصة ؟. كان عبد الله بن ياسين يعتقد أن قبائل الملتزمين خرجت على تعاليم الكتاب والسنة ، ما دامت قد حلت ما حرم الله ، وكانت سادرة في هذه الحياة الحافلة بالآثام والذائل ، ما دامت لم تأخذ من الإسلام إلا اسمه ، وظلت على تقاليد القديمة لا تريد أن تتحول عنها . كان لزاماً على هذه القبائل إذا أرادت أن تدخل في زمرة المرابطين فتتصوى تحت لوائهم ، وتدخل في دعوتهم أن تتطهر من مآثمها ، وأن تسلم إسلاماً جديداً^(١) ، فسكاناً ولدت من جديد ، وجبت ما بينها وبين ماضيها . وكان على هذه القبائل أن تباع الإمام عبد الله على الكتاب والسنة^(٢) ، والسير وفق تعاليمها ، والعمل على إحياء تراث الإسلام ، ونشر تعاليمه . وكان على كل فرد يريد أن يدخل في زمرة المرابطين أن يخضع لهذه الالتزامات القاسية التي فرضها عبد الله بن ياسين على أفراد مجتمعه في رباط السنغال : وهي أن يكفر المرید عن خطاياہ السابقة ، ويحاسب عليها حساباً عسيراً ، فيضرب بالسياط حد السارق والزاني وشارب الخمر^(٣) ، حتى يستهل صفحة جديدة في حياته ، أما من سالم وأسلم ، وتطهر راضياً طائعاً ، فإن له ما للمرابطین ، وعليه ما عليهم^(٤) . أما من أبي واستكبر فليس له إلا السيف يحكمه المرابطون في عنقه . كان عبد الله بن ياسين

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥ .

يجمع المعاندين ، أو المشركين الخارجين على دعوته ، ثم يحكم السيف في رقابهم ويذبحهم عن آخرهم ^(١) .

كان المرابطون في الواقع يجتازون حرباً لا هوادة فيها ولا رحمة ، فإما نصر وحياة كريمة ، وإما موت وإستشهاد في سبيل الدعوة ، وما داموا قد بدءوا بالمسألة ، ووعظوا وأنذروا وحذروا فليس عليهم لوم إذا لجأوا إلى السيف في نشر آرائهم ورفع لواء دعوتهم .

ويخيل إلينا أن عبد الله بن ياسين كان مضطراً إلى اتخاذ مثل هذه الوسائل ، وأنه لم يعتمد إليها حبا في إراقة الدماء ، إنما كان ذلك لتحقيق أهداف سامية عقد النية على تحقيقها بالسلم أو بالحرب ، وما دام قد اختار الحرب ، فلم يسعه إلا أن يحكم السيف في رقاب المعاندين .

ويبدو أن سياسة عبد الله هذه لم ترق في نظر معلمه فقيه السوس ، إذ روى المؤرخون ^(٢) أنه أخذ عليه إفراطه في إراقة الدماء ، وعمله على فرض الإسلام بالسيف ، ويبدو أن وجاج بن زللو اللمطي لم يفهم رسالة تلميذه عبد الله حق الفهم . إذ يخيل إلينا أنه كان يريد أن لا يجاوز عبد الله دور الفقيه المعلم ، الذي يفسر ويروى ويعظ ، ويؤدي رسالته السلمية في صمت وفي غير ما جلبة ، ولكنه لم يتصور أن يصبح هذا الفقيه المتواضع معلماً صاحب دعوة ورأى ومذهب في الحياة ، ويعمد بعد أن خابت سياسة المسألة إلى السيف ، ويخوض ميدان الجهاد في سبيل نشر الإسلام ورفع راية المثلثين ، وإتمام وحدتهم ، ولم ينكر على عبد الله اتخاذ هذه السياسة ؟ ألم يكن عبد الله صنهاجياً جزولياً يسمى بخير قومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ويود أن يرتفع بهذه القبائل إلى مثل ما إرتفعت إليه قبائل البربر ، فتوجه سير الحوادث في المغرب الأقصى ؟

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، روس القرطاس ص ٧٩ ، النويري ج ٢٢ ص ١٧٥ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٦ .

كان عبد الله بن ياسين يعتقد أنه حين لجأ إلى القوة لم يأنم ولم يخطئ . ، بل كان يرضى ضمير الفقيه المخلص المتحمس ، فقد كتب إلى أستاذه يقول « أما إنكارك على ما فعلت ، وندامتك على رسالي فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية يخرج أحدهم ابنه أو بنته لرعى السوام فيرعيان في المرعى . . . وليس دأبهم إلا إغارات بعضهم على بعض ، وقتل بعضهم بعض لادية ، عندهم من الدماء ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقى بينهم في الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم فمنهم من قبل واليته ومن تولى أرديته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته » (١) .

ولم يكن عبد الله يحكم السيف وحده في رقاب الناس ، بل كان يلجأ إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب المسلمين الجدد ، وترغيبهم في الدعوة الجديدة ، حتى يؤمنوا برسالتها إيماناً صادقا ، كان يسقط المغارم والمكوس (٢) ، ويلغى الضرائب الجائرة ، التي كان الحكام والولاة يلجأون إليها لامتصاص دماء الناس وإذلالهم لم يفرض إلا ما أوجبه الكتاب والسنة ، فرض الزكاة ، وأخذ الأعشار ، وألزم الأغنياء بدفع صدقات للفقراء (٣) ، وقسم الغنائم والأسلاب فجعلها فيئاً للمرابطين (٤) ، وأقام بيت مال للمسلمين ، ينظم دخلهم ومنصرفهم (٥) ، فآمن الناس بأن الدعوة الجديدة عادلة منصفة تأخذ بناصر الملهوف وتحمي الضعيف ، وتزيح عن الناس ما أثقل كواهلهم . فليس عجباً إذن أن نرى هذه الإصلاحات يتجاوب صداها في بلاد المغرب قاطبة ، وقد رأينا أن أهل سجلماسة كتبوا إلى المرابطين يسألونهم أن ينقذوهم مما هم فيه من بؤس وشقاء .

(١) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٦ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

(٤) الحلل الموشية ص ١١ ، روض القرطاس ص ٨٠ .

(٥) روض القرطاس ص ٨٠ .

ولم يغفل عبد الله بن ياسين أمر الدعاية للدولة الجديدة ، ونشر أخبارها بين الناس ، حتى يجذب إليها الأنظار ، ويأتيه الأنصار من كل فج ، فكان يبعث أموالاً من الزكاة والأعشار والأخماس إلى طلبسة بلاد المصامدة ^(١) وفقهاها وقضاها ومحتاجيها ، حتى يعرف الناس أن في الصحراء قوماً يحمون الفقير ، يأخذون بناصر الضعيف ، ويكرمون أهل العلم ، ويخصونهم بالبر ، ويمدون لهم يد العون .

على أن الجانب السياسي من شخصية عبد الله بن ياسين لم يحجب الجانب العلمي ، وهو جانب الفقيه المعلم ، إذا لم يكف عبد الله عن أداء رسالته ، إذ ظل يروى ويحدث ويعلم ^(٢) ، حتى خلق في الصحراء جواً من العلم والمعرفة لم يكن يألفه الناس من قبل ، إذ لا تثبت أركان الدين إلا بالعلم ، ولا إسلام صحيح إلا بدراسة حقه لكتاب الله وسنة رسوله ؛ وقد أدى ذلك إلى خلق جيل من الفقهاء الصنهاجيين عرفوا بالورع والتقوى وإنكار الذات ، خلصت نياتهم وزكت نفوسهم . ومن أمثلة هؤلاء الفقهاء تلاميذ ابن ياسين لمثاد بن نصير اللمتوني الذي يضرب المثل بفتياه في بلاد الصحراء ^(٣) ، ومنهم أيضاً ميمون بن ياسين الصنهاجي اللمتوني ، الذي رحل إلى الأندلس محدثاً وراوياً ؛ بل إن أمراء الملثمين أنفسهم أخذوا من العلم الذي بثه عبد الله بن ياسين بنصيب وافر ^(٤) .

وإذا كانت سياسة عبد الله بن ياسين قد تمخضت عن أذكاء نور العلم والعرفان ورفع الروح المعنوية لهؤلاء القوم ، الذين كانوا يضربون في بيداء الجهل ، إلا أنه عرف كيف يسمو بالروح الحربية في نفوس المرابطين من أنصاره ؛ ولم

(١) روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) الذويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٥ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ج ١ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٤) القاضي عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٥٣٢ .

يصبح القتال في نظره وسيلة للدفاع عن النفس، أو للسلب أو النهب، بل أصبحت له غاية سامية هي الدفاع عن الدين؛ وحمايته وبثه بكل وسيلة ممكنة والجهاد في سبيله والموت دونه. وليس من شك في أن الإيمان الصادق إذا اقترن بـ قوة التنظيم الحربي، وحسن الإعداد للقتال خلاق بأن يوجد طبقة من الجنود لا يعرف الخوف إلى نفوسهم سبيلا، بل يخوضون المعارك غير هيايين ولا وجلين.

وقد تحدث المؤرخون عن هذه العصبية الجديدة القوية، وأوردوا كثيراً من ضروب الشجاعة والأقدام في الحروب التي خاضوا غمارها، فكانوا « أثبت من الهضاب ولم يحفظ لهم فرار من زحف ^(١) ».

لذلك لا نعجب إذا كان صيتهم قد ذاع في المغرب والأندلس، وتناقل الناس قصصاً عجيبة عن هؤلاء القوم، عن قوتهم؛ وبطولتهم؛ وأخذت العصبية الناشئة تتخذ لوناً من ألوان الفروسية والفتوة « شاع في المدينة خروج الامتوينيين من الصحراء، وأنها دعوة دينية على دين متين وتأسيس بفقته، وأنه إسلام جديد، فحدقت إلى سمته الميرون، وصرفت إليه الوجوه، ثم ارتفع إليه الصراخ ^(٢) ». وبدأ المقاتلون الجدد يتهيئون لنجدة كل مظلوم، والوقوف بجانب كل ضعيف، يتهيئون لإصلاح المجتمع وتطهيره. فليس غريباً أن يتطلع الناس إلى هؤلاء القوم المتقذين يطلبون الخلاص مما هم فيه من بغي الولاة وفساد الحكام، يطلبون الدخول فيما دخلوا فيه، والمضي معهم في إصلاح المجتمع، والعودة بالإسلام إلى مجده السابق.

١٠ — أسن دعوة عبد الله بن ياسين :

أما وقد فرغنا من الكشف عن الجهود التي بذلها عبد الله بن ياسين في سبيل التمهيد لإقامة صرح دولة فتية جديدة، فقد بقي علينا أن نعرض لناحية

(١) الحلال الموشية في الأخبار المراكشية ص ١١.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٨.

هامة ، ناحية غامضة في تاريخ قيام دولة المرابطين ، ونقصد بها أسس دعوة عبد الله ابن ياسين . لقد كان لعبد الله دعوة وطريقة خاصة في إصلاح المجتمع ، له آراء وأفكار يجب أن نكشف النقاب عن منابعها الأولى ، وننير السبيل أمام الباحث لفهم هذه الناحية . وهذا الغموض مردد إلى أن المؤرخين لم يتحدثوا بالتفصيل في هذا الموضوع ، لأن المراجع المعاصرة تعد على الأصابع ، ولا يزال بعضها مفقوداً لم يعثر عليه حتى اليوم^(١) . كما أن المراجع التي كتبت بعد سقوط دولة المرابطين تأثرت بذلك العداء المر الذي شنه الموحدون على أعدائهم المرابطين فشوهوا تاريخهم وطمسوا معالم آثارهم ، وحاربوهم كما يحارب الكفرة ، والفساق ، فرمواهم بكل نقيصة ، واتهموهم بالكفر والإلحاد ، ولم يستطع المؤلفون أن يبرأوا من هذه النزعة العدائية ، فلم يذكروا الحقيقة كاملة ، سكتوا حيث يجب الإفاضة في الحديث ، وأوجزوا حيث يجب الإطالة ، وأبهموا حيث يجب الوضوح ، فلم يرووا غلة ولم ينقعوا صدى .

ثم نسب الموحدون إلى المرابطين أموراً ، ورموا بدواهي ، وأسهبوا في الرد عليهم وتكفيرهم . والمنطق السليم يقضي بأن نسد من هذه الدعوة الظالمة ، ونرى الأسباب الخفية لهذه التهم الجائرة ، ونفقد ما قالوه ، فنعرض أولاً لما رواه المؤرخون عن عقيدة عبد الله بن ياسين ، عن أسس دعوته ، ثم نعرض لأقول المتهمين له المشوهين لرسالته ، ثم نخلص بعد المقارنة والمناقشة إلى الرأي الذي يقبله العقل ويرضى عنه المنطق .

وقبل أن نمضي إلى هذه الغاية يجب ألا نفعل ناحية مهمة ، تستحق أن نقف عندها ، وأن نفصلها تفصيلاً^(٢) ، ونقصد بذلك مكانة عبد الله بن ياسين في المجتمع

(١) مثل كتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لأبي بكر بن الصيرفي المتوفى

سنة ٥٣٠ هـ .

(٢) كنا قد أشرنا إلى مثل ذلك أشارات عارضة في ثنايا الكتاب .

الجديد . هل أدى دور الفقيه لم يجاوزه ، هل كان صاحب دعوة إصلاحية ، هل كان إماماً في هذا المجتمع الجديد ، هل كان مهدياً كما قيل ، هل تجاوز رسالة الفقيه وذهب مذهباً آخر ، إلى أي حد خرج عن الدور الذي رسمه له أستاذه وجاج ، ولم يخرج عنه ، وما هي الأسباب التي برر بها هذا الخروج ؟ .

ليس من شك في أن عبد الله بن ياسين كما أثرنا بدأ حياته في الصحراء فقينها يعلم الناس ، ويفسر لهم القرآن ، ويروي الحديث ، ويفتي فيهم ، يؤمهم في الصلاة ويمظهم ويذكرهم ، ويحضهم على سلوك الطريق القويم ، وينهاهم عن البغي والمنكر ، لكنه ما لبث بعد أن أخفقت سياسته المسالمة أن سن لنفسه ولأتباعه خطة الجهاد المسلح لإخضاع قبائل الملثمين ، وردهم إلى حظيرة الدين بالقوة ، وتطهير نفوسهم . فهل تجاوز عبد الله حين اصطنع لنفسه ذلك المنهج الذي أثرنا إليه دور الفقيه المعلم . الواقع إن سياسة عبد الله الجديدة ، ونبذه سياسة المسالمة ، وتبنيه سياسة الكفاح والجهاد والحرب ، واصطناع الشدة لرد العصاة ، وتطهير المجتمع من أدرانته لم ترض كما تقدم أستاذه فقيه السوس وجاج بن زللو اللعطل ، ورأى في منهجه خروجاً عن رسالة الفقيه الذي يهدي الناس إلى الحق .

إذن فقد جاوز ابن ياسين في رأى وجاج دور الفقيه المسالم . واسكن قد يقال كيف يلام عبد الله بن ياسين على سياسته تلك ، وهام فقهاء القيروان من المالكية قدوسفوا من سلطنة الفقيه ، وأضافوا لأنفسهم حقوقاً لم تكن لهم من قبل ، فقد روى المؤرخون أن سحنون الفقيه المالكي المعروف كان أول من نظر في الأسواق ؛ أعنى أول من صم وظيفة المحتسب إلى وظيفة القاضي^(١) في المغرب على الأقل . «أخذ ينظر فيما يصلح ، من المعاش وما يقش من السلع ويجعل الأمتاء على ذلك . يؤدب على التقش وينفى من الأسواق من يستحق ذلك وهو أول من

(١) عباس . الدار ج ٢ ص ٣٧ - ٣٨ .

(م ١١ - قيام دولة المرابطين)

نظر في الحسبة من القضاة ، وأمر الناس بتغيير المنكر ، وأول القضاة الذي فرق خلق أهل البدع من الجامع . وشرّد أهل الأهواء منه وكان يضرب بالدرة وقيم الحدود في الجامع^(١) .

بل تطور دور الفقيه المالكي في القيروان إلى أبعد من هذا ، فقد روى بعض المؤرخين أن سحنون كان يجمع الصوفية من البراري ، فيجتمع إليه منهم نحو ألف يختار منهم فئة قوية يستعين بها في رد المظالم^(٢) ، وتأديب العصاة وإرهاب ذوى البغى والشر . نعم جرد عبد الله سيف الحق على البغى والفساد في مجتمع الصحراء ، وجاهد هو وعصبته من المرابطين جهاداً شاقاً مريراً ليتمكن للإسلام الصحيح من نفوس القوم الذين ضلوا طريق الحق ، وانهمسوا في حماة الرذيلة .

وليس من شك في أن فقهاء المالكية في ذلك العصر اضطرتهم الظروف إلى ذلك اضطراراً ، فقد بعدت الهوة بين المثل العليا الرفيعة التي رسمها القرآن للحياة الصالحة ، وبين الواقع المرير من الحياة المليئة بالضعف والانحلال والفساد والتخاذل^(٣) ، ولما أخفق الأمراء في إصلاح الحال ، وإنقاذ المجتمع مما يعانيه من ضعف وانحلال^(٤) ، التف الناس حول رجال الدين يلتمسون العون ، فأخذ الفقهاء يضطلعون بأعمال الإصلاح بقدر الطاقة ، ويحمون المجتمع من الفساد بقدر ما تيسر لهم من جهد . وكان البعض الآخر يصبرون على ما يجدون من مظالم مكرهين معالين النفس بأن المهدي سيظهر ليظهر العالم من الفساد ويحني الضعيف ويلغيث الملهوف^(٥) .

(١) عياض : المدارك ج ٢ ص ٤٧ — ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٦٧ .

(٣) جلدزير : العقيدة والعريضة ص ١٩٤ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

ولكن الفقهاء السنيين على وجه العموم ، والمالكيين على وجه الخصوص لا يقولون بالخروج على ولي الأمر أو شق عصا الطاعة عليه ، كانوا يعتقدون « بأن المسلم الصالح حياً في خير الجماعة ، وإبقاء على وحدتها لا ينبغي أن يشق عصا الطاعة ، بل عليه إثارة المصلحة العامة أن يحتمل صابراً المظالم القائمة ، ويتذرع بالصبر وطول الأناة في معاناة آثام الأشرار ، ولكنهم لا يتوقون علاوة على ذلك إلى التوفيق بين الواقع ومقتضياته ، وبين إيمانهم وتقواهم ، وأمدحهم بهذا التوفيق رجاؤهم الوحيد في ظهور المهدي ^(١) ... »

فإذا كان فقهاء المالكية قد أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر مضطعين القوة في بعض الأحيان ، وعارضوا أولى الأمر ، وجدوا في رد عدوانهم ، ولم يمتشقوا الحسام ^(٢) خروجاً على ولي الأمر ، وإذا كانوا قد قاوموا البدع بحد السيف فقد كانت مقاومات فردية ^(٣) .

أما عبد الله بن ياسين فقد امتشق الحسام ، وخاض غمار الحرب دفاعاً عن الإسلام ، ووضع أساس دولة جديدة ، واتخذ لقومه أميراً يلي أمورهم ، ويقود عسكرهم ، ورتب الجيوش ، وأمدحها بالسلاح ، وأقام بيتاً للمال وجبى الزكاة ،

(١) جلدزبير ص ١٩٤ .

(٢) قال ابن عباس « من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه فإنه من خرج عن السلطان خيراً مات ميتة جاهلية » . أنظر الطرطوشي : سراج الملوك ص ١١٥ .

(٣) رأى المالكية في الخروج على أمام الجور « ذكر يحيى بن عون قال دخلت مع سحنون غلى ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه وأصابه في علة قلق فقال له « يا ابن القصار ما هذا القلق الذي أنت فيه ؟ قال الموت والقدوم على الله عز وجل فقال له سحنون ألسنت مصدقا بالرسول أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله تعالى يرى يوم القيامة وأنه على العرش استوى ولا تخرج على الأئمة بالسيف وإن جاروا . . . مت إذا شئت » . أنظر رياض النفوس ص ٢٦٦ .

لم يكن عبد الله بن ياسين إذن مجرد فقيه من فقهاء السوس أو من فقهاء القيروان، لا تشكر أن عبد الله عزف عن الإمارة من المبتدأ^(١)، ولكنه كان كل شيء في المجتمع الجديد، هو للوحى والموجة والمشير. إذا خرج الأمير عن القواعد التي سنّها أدب على ذلك، لم يتورع عن ضرب الأمير يحيى بن عمر لأنه جاوز تعليماته وعصا أمره^(٢). وكانت الجيوش إذا خرجت للحرب خرج ابن ياسين في المقدمة بقبعة الأمير وسائر الجيش^(٣)، وكان الأمير في الوقع هو الذى يأمر وينهى^(٤).

لم يكن عبد الله إذن مجرد فقيه، بل كان صاحب دعوة في الإصلاح، كان من رأيه ألا يعصم المجتمع من الفساد إلا الشدة في الحق، ولو تجاوزت هذه الشدة الحدود المرسومة. كان صاحب آمال بعيدة، لم يكن يهدف إلى الوعظ والتذكير، بل كان يريد إقامة دولة إسلامية على أساس جديد من الدين الخفيف، يريد الرجعة إلى عالم مجيد مضى أيس المسلمون من رجوعه مرة أخرى. لم تكن حركة عبد الله بن ياسين مجرد أمر بمعروف ونهى عن منكر، كانت خروجاً على ولى الأمر للنفس في الفساد. كانت خروجاً على أمراء زفانة السيطرين على المغرب، وأوليسائهم من الأمويين الذين دالت دولتهم بالأندلس، كان عبد الله بن ياسين صاحب دعوة مصلحاً وزهياً دينياً وسياسياً. كان يؤمن بأن الوحدة بين قبائل اللشيين هي سر القوة، وهي الكفيلة بالمضى في حركة الإصلاح التي بدأها^(٥)، والتي إن غمت خلصت المجتمع من أدرانته، وباغدت بين الناس وبين ظلم الحكام. كان يخشى أن تدهم الفرقة أتباعه لتذهب ريعهم، وتتحطم الآمال التي عقدها عليهم. هذه السياسة تتبين بوضوح

(١) الزويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٢) السكرى : المغرب ص ١٦٦ .

(٣) الحلال الموشية ص ١٠ - ١١ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢ .

(٥) ابن أبى زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

في وصيته إلى قومه حين أشرف على الموت إذ قال ^(١) « يا معشر المرابطين إنكم في بلاد أعدائكم وإني ميت في يومى هذا لا محالة فأياكم أن تجبنوا فتفشلوا فتذهب ريحكم وكونوا ألفة وأعواناً على الحق في ذات الله تعالى وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء ويستخلف في الأرض من يشاء من عباده... » ^(٢)

وقد وصف صاحب روض القرطاس عبد الله بن ياسين ولقبه بمهدي المرابطين ^(٣)، فهل اتخذ عبد الله لنفسه لقب المهدي؟ الواقع أننا لم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على ما يؤيد اتخاذه هذا اللقب... وإن كان في الحقيقة قد أدى الدور الذي كان الناس يترقبون ظهور المهدي من أجل تحقيقه، وهو التقريب بين المثل العليا وواقع الحياة، ورد الإسلام إلى عنقوانه الأول، وإقامة صرح العدل وبث الطمأنينة في النفوس، والقضاء على ما كان يعانيه المجتمع من عال نخرت في عظامه وكادت تأتى عليه.

يخلع علينا أن ابن أبي زرع كان متأثراً بحركة الحسين، فإذا كان ابن
تومرت قد اتخذ لقب المهدي، فلا بأس من أن يخلع صاحب الروض على عبد الله
ابن ياسين لقب المهدي.

وقد تمكن ابن ياسين من قلوب معاصريه بفضل الصفات الشخصية الممتازة التي توفرت له، وبفضل السيرة الطيبة واصطناع التقشف وإذلال النفس بكثرة الصيام ^(٤)، إلى جانب قوة الحجة والقدرة الفائقة على التأثير في سامعيه، وخلق

(١) يذكر صاحب روض القرطاس (ص ١٧٤) أنه توفي في ٢٤ جادى الآخرة سنة ٤٥١ هـ كما يذكر صاحب كتابه المذكر (ج ٤ ص ٥٣١) أنه توفي عام ٤٥٢ هـ.

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٤ .

(٤) البكري : المغرب ص ١٦٨ ، روض القرطاس ص ٨٤ .

لبيهم بحديثه الممتع وعلمه العزيز ، فليس بغريب أن نرى المرابطين لا ينظرون إليه نظرتهم إلى فقيه مصلح أو زعيم ، بل نظروا إليه نظرتهم إلى ولي من أولياء الله ، وبدعوا ينسبون إليه الخوارق والمعجزات^(١) ، « تحفظ فتاويه وأجوبته فلا يعدل القوم عنها » ، بل ظلوا بعد وفاته لا يقدمون أحداً للصلاة بهم إلا إذا كان ممن صلى خلفه ونعم بصحبته^(٢) ، وظل قبره يحج إليه الناس من كافة الجهات متبركين ، وقد قيل أنه دفن بموضع يعرف بكريفة بتماسنا^(٣) ، ولكن يبدو أن الموحدين أخفوا معالمة انتقاماً منه ، وإن كانوا قد عجزوا عن إخفاء سيرته التي ظل الناس يتناقلونها جيلاً بعد جيل .

أما دعوة عبد الله بن ياسين فانها تقوم على أسس أهمها : الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وغيرها من الواجبات المالية . وقد أخذ الجهاد منذ أن شرع في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يحتل في الاسلام مكاناً مرموقاً خصوصاً بعد أن توسع المسلمون في بلاد الفرس والروم

وقد احتل الجهاد في المغرب الإسلامي أيضاً مكاناً رفيعاً ، لأن المغرب كان أكثر البلاد الإسلامية تعرضاً لغارات الروم وغزواتهم ، فقد كانت سواحله الطويلة مكشوفة معرضة للغزو في أى وقت ، وكانت أساطيل العدو لا تكف عن الإغارة على المدن الآمنة تسلب وتنهب ، كما كانت هذه السفن تعيث في البحر تسد المسالك على سفن المسلمين وأساطيلهم فتتال منها ، لذلك عنى المسلمين في المغرب بمداومة الروم أشد العناية ، واتخذوا الأبهة لرد عدوانهم ، فنشأت

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

(٢) البكري : المغرب ص ١٦٩ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٤ .

حركة المرابطين مقترنة برغبة جامحة في مجاهدة العدو ، وردة عن حياض المسلمين وكان المسلمون يقدون على الثغور من كافة الجهات ليشاركوا في الدفاع عن البلاد مكتسبين أجر الجهاد ، وكان مُلْك المسلمين في الأندلس يتعرض لمثل ما تعرض له ملكهم في المغرب ، فأصبح الجهاد هناك سياسة مقررة يلتزمها كل أمير ، ويحلها الحل الأول من سياسته .

وكان المسلمون يقدون على الأندلس ، ويرحلون إلى الثغور للعراطة والجهاد والمشاركة في دفع العدو وردة على أعقابهم . نعم احتل الجهاد في الإسلام محلا رفيعا ومكانا صرموقا ، حتى كاد أن يصبح ركنا سادسا من أركان الدين ، أصبح فرض عين عند طائفة من الخوارج^(١) ، وأصبح الجهاد والإسلام متلازمين يجب الجهاد طالما في المجتمع الإسلامي رمق من حياة ، ولا يكف المسلمون عن الجهاد إلا إذا انحل المجتمع الإسلامي وعفت آثاره^(٢) .

وللجهاد قواعد وأصول وأحكام رسمها الدين وحدد معالمها ، وسنرى إلى أي حد التزم عبد الله بن ياسين أحكام الدين في هذه الناحية ، كما سنرى إلى أي حد جاوز الحدود المرسومة وخرج عليها . وأول أحكام الجهاد أنه فرض كفاية على كل مسلم بالغ صحيح العقل والجسم ، توافرت له أسباب بلوغ جيش المسلمين ، ويجب أن يستمر هذا الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة في حكم الإسلام^(٣) . وقد فرض عبد الله بن ياسين الجهاد على أنصاره من المرابطين من أول الأمر ، بعد أن خابت سياسة المسالمة ، وأصبح لزاما عليه أن يمتشق الحسام في سبيل نشر الدين ، وفرض الجهاد على قومه ، ودعاهم إليه ، وحضهم على التزامه ، وقال لهم

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D.B. Macdonald) .

(٢) المرجع السابق .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D.B. Macdonald) .

« وجب عليكم أن تجاهدوا في سبيل الله حق جهاده وأن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام فاستعدوا لقتالهم ^(١) » .

نعم لقد أذكى عبد الله بن ياسين حركة الجهاد، وظل هو وعصبته يكافح كفاح الأبطال مجاهداً ، حتى لقي مصرعه شهيداً في قتال المرتدين من برغواطة . فرض الجهاد على أعوانه كافة لم يستثن أحداً، يستنفرهم ويؤجج قلوبهم بالحماس ، ويرغبهم في الشهادة : ومن أحكام الجهاد أيضاً أن يقوم عليه حاكم مسلم ^(٢) أو إمام ، ولم يغفل عبد الله بن ياسين هذه الناحية الهامة ، فما كاد يستقر له الأمر في رباطه بجزيرة السنغال ، وما كاد أتباعه تتضاعف أعدادهم حتى عقد النية على أن يتخذ المجتمع الجديد أميراً يقود الجيش ، وينفذ سياسة الجهاد ، فبايع يحيى ابن عمر ، فلما قتل اختار أخاه أبا بكر بن عمر ، وظل هو بمنأى يوجه الجماعة الجديدة من بعيد ، ويرسم لها سياسة الجهاد وفق أحكام الدين ، قال لقومه « اجعلوا لكم حزبا وأقيموا لكم راية وقدموا لكم أميراً ^(٣) » .

وإذا كانت أحكام الجهاد تقول بأن شرط الجهاد يتوفر إذا قام الإمام بغزوة مرة في كل عام ^(٤) ، فإن عبد الله بن ياسين قد جاوز ذلك فجعل أعوانه من المرابطين مجندين للجهاد في كل وقت ، يقفون على أهبة الاستعداد لكل طارئ ، ويخيل إلينا أن ذلك يرجع إلى أن المرابطين قد خرجوا من رباطهم في حركة غزو وفتح مستمرة ، فلم يكن من العقول أن يضعوا السيف حتى يقهر العدو ، ويدخل الناس كافة فيما يدعو إليه عبد الله بن ياسين من الإسلام الصحيح . ومن الغريب أن دولة المرابطين لم تضع السيف أبداً منذ قيامها حتى قدر لها أن

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، النويري ص ١٧٤ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٨ ، النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٤ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد (D. B. Macdonald) .

تسقط ، فبعد أن تم الجهاد في المغرب انتقل الجهاد إلى الأندلس ، فكانت دولة عاشت من أجل الجهاد ، وذهبت في سبيل الجهاد .

وإذا كانت أصول الجهاد تقضى بأن يدعى الناس إلى الإسلام قبل أن يعلن الجهاد ، فإن أبوا خيروا بين القتال أو الدخول في حكم الإسلام ^(١) ، فإن عبد الله بن ياسين أئذر وحرر وخوف ، وبعث البعوث إلى القبائل تدعو بالحسنى والموعظة الحسنة ، ولم يعمد إلى السيف إلا بعد أن أصموا آذانهم ^(٢) ، وتربصوا به وهموا بالقضاء عليه ، كان يفرض عليهم أن يسلموا إسلاماً جديداً وإلا عاملهم معاملة المشركين ، فإن أسلموا وتابوا وأتابوا بايعوه على الكتاب والسنة ، ودخلوا في زمرة رجاله ، لهم ماله وعليهم ما عليه ، وأن أبوا حكم السيف في رقابهم ، وحاربهم حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة .

وإذا كانت أحكام الجهاد قد قضت بأن أموال من يابون الدخول في الإسلام ويختارون القتال غنيمة للمسلمين ^(٣) ، يأخذ الجيش الغازي أربعة أخماسها ، فإن عبد الله بن ياسين اعتبر المناوئين له الصادقين عن الدخول في دعوته كفاراً يجب قتالهم ، فكان يقاتلهم حتى يقهرهم ، ويردهم على أعقابهم ، وكانت أموالهم غنيمة لجيش المرابطين وفيئاً لهم ، وكان يقسم الغنائم وفق ما قضت به السنة ^(٤) ، كما أنه التزم ما نصت عليه السنة من النهي عن قتل النساء والولدان ^(٥) ، فكان يقتل الرجال لأنه اعتبرهم مرتدين عن الإسلام ، يحل له قتلهم حتى لا يفتنوا غيرهم .

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة جهاد .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : مادة جهاد .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧٩ ، الحلل الموشية ص ١٠١ .

(٥) موطأ الإمام مالك ص ١٦٧ .

مما تقدم يتبين لنا أن عبد الله بن ياسين التزم السنة في أحكام الجهاد^(١) ، وحض على الإستشهاد في سبيل الله ، ونادى بالوفاء بالأمان^(٢) ، ولم يقتل النساء والأطفال ، كما التزم الأحكام في توزيع الغنائم والأسلاب .

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد اتفقت الأمة الإسلامية على وجوب الأخذ به^(٣) ، حض عليه القرآن ،^(٤) ونادى به الرسول صلى الله عليه وسلم^(٥) ، ولما كان من غير المعقول أن يخلى بين الأفراد وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فتعم الفوضى ويحدث الاضطراب ، فقد تولى الإمام هذا الأمر في مستهل قيام الدولة العربية ، فكان الخلفاء وعماهم يأمرون الناس بالمعروف ، ويحاربون المنكر ، ويحملون الناس على الجادة المستقيمة .

فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وتعذر على الإمام مباشرة هذا الأمر بنفسه ، استعين بالخطيب^(٦) ، يندبه الامام لهذا الأمر ، يتولاه بنفسه ، يرقب المجتمع بعين ساهرة يقظة ، ويحول بين الناس وبين السير في الطريق المعوج . ولكن العالم الإسلامي ما لبث أن دهمته الفرقة ، وعجز الأمراء عن تحقيق آمال

(١) الوطأ ص ١٦٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل بين الأهواء والملل ج ٤ ص ١٧١

(٤) قال تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر » . سورة آل عمران : آية ١٠٣

(٥) « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع

فبقلبه وذلك أضعف الإيمان . لا طاعة في معصية إنما الطاعة في الطاعة وعلى أحدكم السمع والطاعة لم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » . أنظر ابن حزم ج ٤ ص ١٧٣ ،

(٦) Lévi-Prevençal : Un Manuel Hispanique de Hisba : sur la

Surveillance des Corporations et la repression des fraudes en Espagne

Musulmano; p. 1.

جلديرير : العقيدة والعريضة ص ٨٧ .

جمهور الأمة ، وانتشرت المفسد ، وبعد ما بين المثل العليا الرفيعة ، والحياة الواقعية الحافلة بالاثم ، وإنحرف المحتسبون عن الجادة ، ولم يشددوا القبض على الفتنة^(١) ، فعم الجور وانتشر الفساد ، وبدأ أولى البصيرة يكتبون في الحسبة رسائل تبصر المحتسبين بأقوم الطرق التي يسلكونها لتحقيق آمال الناس ، ومحاربة البغي والفساد^(٢) . فبدأ الناس بعد أن يئسوا من الأمراء وأعوانهم يتطلعون إلى الفقهاء ليأخذوا بناصرتهم ، فيقوموا المعوج من أمور المجتمع ، وقد وضع هذا الاتجاه — على ما نعلم — في المغرب أكثر منه في أى قطر آخر ، بسبب هذه التقاليد الرفيعة التي بنها علماء المالكية في أنحاء البلاد ، من الشدة في الحق ، والزهد في الترف ، ونصرة الضعيف ، ومقاومة بغي السلطان وعدوانه .

وكان المالكيون في المغرب يستلهمون الإمام مالكا في تقاليده وآرائه ، وهو الإمام الذى نهى عن محبة السلطان ، ولم يتحرج من أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر إذا رأى منه أعوجاجا ، فقد روى أنه قال « حق على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئا من العلم والفقهاء أن يدخل إلى كل ذى سلطان ، يأمره بالخير ، وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين لأن العالم ، إنما يدخل على السلطان لذلك ، فإذا كان فهو الفضل الذى لا بعده فضل^(٣) » .

اضطلع فقهاء المالكية في المغرب بهذا الأمر بعد ما رأوه من انحراف الأمراء ، وإنصرافهم إلى غير إصلاح أحوال المجتمع . أمروا الناس بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، وشنوا على المفسد والبدع حربا لارحمة فيها ولا هوادة ، روى المؤرخون أن فقهاء القيروان كانوا حربا على المنكر ، فضيقوا على أهلها في ملاهيهم ، بل حاربوا أصحاب العقائد الضالة من الصقرية والإباضية^(٤) .

(١) Provençal et Colin : Un Manuel Hispanique de Hisba, p. 1.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧ .

(٤) المالكي : رياض النفوس ص ٢٧٦ ، ٣٨١ . الديباج : معالم الإيمان ج ٢ ص ١٣٥ .

وكان طبيعياً أن يترسم عبد الله بن ياسين خطى فقهاء القيروان، وغيرهم من فقهاء المالكية في المغرب، فلم يقنع بتعليم الناس وتثقيفهم في دينهم، بل أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر. وإذا كان فقهاء القيروان قد قاموا بمحاولات فردية في هذا السبيل، فإن عبد الله بن ياسين جند أمة بأسرها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وسخر المرابطون سيوفهم لتقويض صرح الباطل، وتطهير المجتمع من أدرانته ومفاسده، وإستطاع ذلك الفقيه المتواضع أن يخلق جيلاً من الحاربيين الأشداء، يتعصبون لفكرته، ويخفون إلى نصرته، ويبايعون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولكن هل تجاوز عبد الله بن ياسين الحدود التي رسمتها السنة لسل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. الواقع إن فتنة من الصحابة والتابعين قالوا إن الغرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما بالقلب فقط، ولكن أهل السنة^(١) اتفقوا على أن الإمام العدل إذا قام عليه فاسق وجب سل السيوف للدفاع عنه، ورد الفتنة الباغية الظالمة^(٢)، كما قالت غالبيتهم «بأن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يكن دفع المنكر إلا بذلك، فلذا كان أهل الحق في عصاة يمكنهم الدفع ولا يأسون من الظفر فرض عليهم ذلك^(٣)» قال تعالى «وإن فئتان من المؤمنين أقتلتوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى قاتلوا التي تبغى حتى تنفي^(٤) إلى أمر الله» فكانت قد فرض على المسلمين قتال الفتنة الباغية. إذن فقد ألزم عبد الله بن ياسين حدود الشرع في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فقد أمر بقلبه ولسانه

(١) ابن حزم: الفصل ج ٤ ص ١٧١

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٤) سورة الحجرات آية ٨.

سالم ونصح وحذر وأنذر ، حتى إذا أخفق لم يجد مناصاً من سل السيف دفاعاً عن الحق ، فقد كان يعتقد أن الأمير الذي بايعه المرابطون إمام عدل ، وأن الخارجين عليه فئة باغية ، وأنه يجب على المرابطين أن ينزلوا السيف دفاعاً عن هذا الإمام العادل .

وإذا كان الفقهاء قد قالوا بأن أهل الحق يستطيعون امتشاق الحسام إذا قدزوا على ذلك ، ولم يبتسوا من الظفر ، فإن عصبة عبد الله بن ياسين بعد أن زادت عدداً وعدة كانت قادرة على دفع العدوان ورد البغي ، واثقة من الفوز والظفر ، وإذا كان الكتاب الكريم قد جوز قتال الفئة الباغية بعد اليأس من الإصلاح ، فإن عبد الله يثس من إصلاح قومه واعتبر الخارجين عليه فئة باغية يحل قتالهم وجهادهم .

وإذا كانت أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قضت «بألا يؤخذ مال المسلم بغير حق ولا يضرب ظهره بغير حق»^(١) فإن فعل به ذلك فهو إثم وعدوان ، فإنه لم يرد عن عبد الله بن ياسين — فيما نعلم — أنه تجاوز هذا الحد ، فلم يغتصب مالا بغير حق ، ولم يضرب ظهراً بغير حق . وإذا كان لا يحل لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن «يهتك حرماً ولا أن يأخذ مالا بغير حق»^(٢) ، فإن عبد الله بن ياسين قد عفا عن ذلك ، وإلا لما كان ثمة ما يدعو للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل كان عبد الله حرباً على الإثم : أينما وجد ، وعلى البدع أينما كانت ، لا تكاد عصيته تظاً أرضاً حتى تغير المنكر وتقطع المزامير وتريق دنان الخمر^(٣) ، فلم يجاوز ما نادى به فقهاء القيروان من

(١) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٧١ .

قبل حينما حاربوا البدع والملاحى^(١) ، بل إن الإمام الغزالي يميز اقتحام البيوت لتعطيم آلات الطرب ودنان الخمر^(٢) .

ومن المبادئ الإصلاحية التي أخذ بها عبد الله بن ياسين عمله على أن يزيج عن الناس ما كانوا ينوون به من ضرائب ظالمة جائرة ، فإن اضطراب الأحوال السياسية بالمغرب ، وما أعقبه من جور الحكام وعسفهم ، وتنكبهم الطريق السوى ، وأثقالهم على الرعية بقصد ابتزاز أموالهم ، قد زهد الناس فيهم وجعلهم يتطلعون إلى من يخلصونهم مما يعانون من ظلم واصطهاد ، وقد أفن ولاية الأمر في فرض هذه المغارم ، فمن مكوس إلى معونة إلى قبالات إلى تقسيط^(٣) ، بل أمعنوا في ظلمهم وبغيهم ، فجبوا الخراج من الأرض التي أسلم أهلها ، فتركت على أن يدفعوا ضريبة العشر ، ومن الأرض التي وزعت على الفاتحين على شرط أن تعفى من الخراج اكتفاء بالعشر ، وقد اضطرب عبد الله بن ياسين إلى رفع هذه المظالم ، واعفاء الناس من هذه الضرائب الجائرة ، واكتفى بفرض ما أوجبه حكم الكتاب والسنة . فروى المؤرخون أنه التزم أحكام الكتاب ، ولم يحد عنه قيد أنملة^(٤) ، فرض الزكاة والتزم أحكام الدين التي تقضى بأن لا تفرض إلا على ثلاثة أشياء : الحرث والعين والماشية^(٥) ، وليس من شك في أن عبد الله جبا الزكاة بأنواعها من زكاة المعادن^(٦) ، وزكاة التبر والحلى^(٧) ، وزكاة أموال اليتامى ، والتجارة

(١) المالكي : رياض الناس ص ٣٠٣ ، ٣٨١ .

(٢) جلد زهر ص ٨٧ .

(٣) ابن اللؤقت المراكشي : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ ، ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ ، روض القرطاس ص ٨٧ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٨ ، السعادة الأبدية ج ٢ ص ٢٨٩ الجذوة ص ٢٤٢ .

(٥) الموطأ ص ١٠٣ .

(٦) الموطأ ص ١٠٥ .

(٧) الموطأ ص ١٠٥ .

هم^(١) ، وركاة الميراث^(٢) . وركاة العروض^(٣) ، وصدقة الماشية^(٤) ، وركاة ما يخرص من ثمار النخيل والأعناب^(٥) ، وركاة الحبوب والزيتون^(٦) ، وضريبة أهل الكتاب^(٧) ، وأخذ الأعشار من أهل الذمة الذين يتاجرون في بلاد المسلمين^(٨) .

وقد كانت هذه الإصلاحات ذات أثر بعيد المدى في تاريخ الدعوة المرابطية، إذ أظهرت للناس في المغرب والأندلس أن المرابطين قوم لا يبنون جاهاً ولا مالا، إنما يبنون الإصلاح وإنقاذ الناس مما تردوا فيه من جور وعسف ، فأخذوا يتطلعون إلى هذا الشعب الذي بعث بعثاً جديداً ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا بأن هذه السياسة كانت تكسب المرابطين عطف الجماهير الفقيرة ، التي كانت تهب للترحيب بهم ، وتأييدهم في كل مكان حلوا فيه .

ولكي تتم دراسة هذا الموضوع دراسة وافية شاملة ، لا بد من أن نعرض لتاحية أخرى هامة ، وهي مناقشة التهم التي ألصقا للوحدون بالمرابطين ، إذ لا يمكن أن تتم دراسة عقائد المرابطين دراسة صحيحة ، إلا إذا عرضنا لما يقوله الموحدون ، وحاولنا أن نعرف ما إذا كانت هذه الادعاءات صحيحة أم غير صحيحة .

(١) الموطأ ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) الموطأ ص ١٠٦ .

(٣) الموطأ ص ١٠٨ .

(٤) الموطأ ص ١٠٨ .

(٥) الموطأ ص ١٠٦ .

(٦) الموطأ ص ١١٢ .

(٧) الموطأ ص ١٠١ .

(٨) الموطأ ص ١٢١ .

رحل محمد بن تومرت المصمودي إلى الأندلس والمشرق^(١)، واغترف من معين الثقافة الإسلامية في المدرسة النظامية ببغداد^(٢)، ثم عاد إلى المغرب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويهاجم أسراء العصر، ويشدد النكير عليهم، ويتهمهم بأنهم مسئولون عما حل بالمجتمع من مصائب، وما دهاه من انحلال^(٣)، وسرعان ما وجه همه إلى دولة المرابطين. أعلن عليها حرباً لارحمة فيها ولا هوادة وظل يؤلب قبائل المصامدة، ويؤجج الحقد في قلوب البربر حتى أوغر صدورهم على الدولة التي دافعت عن العقيدة الإسلامية دفاعاً مجيداً، واستطاع بعد جهود متصلة أن ينال من الدولة وأن يهددها تهديداً خطيراً، وهو في سبيل ذلك يكفر المرابطين ويتهمهم بالزندقة، ويرمي فقهاءهم وعلماءهم بالجمود والتأخر، ويحملهم مسئولية ما أصاب المجتمع من فساد. وقبل أن تفصل ماري به المرابطين من كفر وضلال، وما حشده من تهمة يجدر بنا أن نشير إلى ناحيتين هامتين قد تعينان على استبطان هذه الدعوة الظالمة، والتعرف إلى موجهاتها، وأهدافها، ومعرفة الأسباب التي هيأت لمحمد بن تومرت من أن ينال من المرابطين على هذا النحو.

كان محمد بن تومرت ينتسب إلى قبيلة هرغة من قبيلة مصمودة^(٤) الجبلية الضاربة بالمغرب الأقصى، هذه القبيلة التي عرفت في طول تاريخها بشدة مراسمها، وكرهها الشديد لبدو الصحراء، الذين كانوا يغيرون على مواطنها، وينالون منها، وقد أخضع المرابطون هذه القبائل بعد فتح المغرب، وأذلوها، فاستكانت للغلبة ولكنها ظلت تضر الحقد والكراهية للمسلمين، وتتلمس السبل المؤدية إلى الثأر

(١) جلد زبير ص ٩.

(٢) جلد زبير ص ١٣، صبح الأعشى ج ٥ ص ١٩١.

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦، أعراب يطالب ص ٤٥، المراكشي ص ٢٠، المال

ص ٥٧، أبو الفدا ج ٢ ص ٢٤٣.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦، جامع توابيح قاس ص ٣١، أبو الفدا ج ٢ ص ٢٤٣.

د نالها ، واخلاص م بردت فيه من مدله وخصوع م كاد محمد بن تومرت
نصمودى يرفع علم المقاومة ، ويحمل نوء الجهاد حتى كانت قبائل المصامدة
خلفه ، تتبنى حركته ، وتشد أزره ، وسوق له الكتائب تدافع عنه ، وتنصره
« رأ لما نالها من هزيمة وإذلال على يد بدو الضحراء^(١) . إذن فإن دعوة الموحدين
دعوة أذكتها العصبية القبلية ، وأوحى بها ذلك العدو المريبين القبائل الجبلية
المستقرة ، وبين شعوب الملثمين ، هي دعوة ظاهرها الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وباطنها تعصب ذميم ، وكره دفين وطعن في المرابطين وتشويه لدعوتهم
ولتاريخهم . »

رفعت دولة المرابطين علم مذهب مالك ، فلا بأس من أن يعلن صاحب
الدعوة الجديدة الحرب السافرة على مذهب مالك ، وفقهاء مالك ، فيرميهم بالتعصب
والجور والتكالب على عرض الدنيا^(٢) ، وبلغ من كره الموحدين لهذا المذهب
أنهم أحرقوا مدونة سجنون^(٣) . دعا المرابطون لبني العباس ، وخطبوا لهم على
المنابر ، فلا بأس من تؤدي الكراهة العنصرية إلى أن يخرج المصامدة على بني
العباس ، وأن يعملوا لإقامة خلافة موحدية^(٤) ، لا تدين بالتبعية لبني هاشم ،
ولا لبني أمية .

وقد توسل محمد بن تومرت المصمودى بوسائل كثيرة لكسب الأنصار
لدعوته الجديدة ، فادعى الانتساب إلى بني هاشم^(٥) ، واتخذ لنفسه اسم محمد
ابن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الفاطمي الحمدي^(٦) ، ووضع أنصاره له نسباً

(١) الإدريسي م ٦٤ ، المراكشي م ١٢٣ ، ذيل تاريخ دمشق م ٢٩١ ، الاتحاف

ج ١ م ٦٢ .

(٢) ملحق البيدق م ١٣٦ .

(٣) أحمد بابا : نيل الابتهاج م ١٣٨ .

(٤) أبو بكر الصنهاجي (البيدق) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت م ٢٣ .

(٥) المرجع السابق م ٢٣ .

(٦) المرجع السابق م ١١ .

بربطه بعبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب^(١) . بل ذهب إلى أبعد من هذا ، أخذ يهين الأذهان لقرب ظهور المهدي ، يذكره ، ويشوق إليه ، ويجمع الأدب التي تقول بقرب ظهوره^(٢) ، ويبين للناس أن « الباطل لا يرفعه إلا المهدي وأن الحق لا يقوم به إلا المهدي وأن المهدي معلوم في العرب والعجم والبدو والحضر وأن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل ديوان وأن ما عدا ضرورة الاستفاضة قبل ظهوره يعلم ضرورة المشاهدة بعد ظهوره ، وأن الإيمان بالمهدي واجب وأن من شك فيه كافر ولا يدافع ولا يعاند ولا يخالف ولا يندزع يفتح للدنيا شرقها وغربها يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور»^(٣) ، ثم أعلن للناس أنه المهدي المنتظر^(٤) ، الذي يبعث في آخر الزمان ، لإنقاذ المجتمع مما يعانيه من بؤس وشقاء ، بل ذهب محمد بن تومرت إلى أبعد من هذا ، إذ أحيا نظرية الإمامة ، وادعى أنه الإمام المعصوم^(٥) ، لا يجوز عليه الخطأ ، من شك فيه فهو كافر مارق وزنديق^(٦) . لأن الإمام يجب أن يكون معصوماً من الباطل ليهدم الباطل ، معصوماً من الضلال ، لأن الضلال لا يهدم الضلال^(٧) ، « لا بد أن يكون الإمام معصوماً من هذه الفتن وأن يكون معصوماً من البدع»^(٨) ، من خرج عليه أو كفر بإمامته أو نقض بيعته أحل ماله واستبيح دمه^(٩) .

(١) الزركشي ص ١٤٦ .

(٢) المراكشي ص ١٢٠ .

(٣) أعز ما يطلب ص ٢٥٤ - ٢٥٧ .

(٤) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ٢١٤ .

(٥) البيهقي ص ١٥ ، ملحق البيهقي من رسالة الفصول ص ١٣٤ ، ١٣٦ ، المراكشي

ص ١٢٣ .

(٦) أعز ما يطلب ص ٢٤٥ ، البيهقي ص ٥٢ .

(٧) أعز ما يطلب ص ٢٤٥ .

(٨) المرجع السابق

(٩) المرجع السابق ص ٢٥١ . ٢٥٤ .

أمد الحياة الأخرى التي يجب أن نضعها نصب أعيننا حينما نحاول أن نتفهم سر هذه الحملة العنيفة ، التي شنها الموحدون على المرابطين ، فهي أن محمد بن تومرث ظهر في عهد علي بن يوسف بن تاشفين^(١) ، بعد وفاة عبد الله ابن ياسين بما يزيد عن نصف قرن من الزمان . كان يتنقل في مدن المغرب ، يأمر الناس بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر^(٢) ، وقد دخل المهديّة ثم بجاية ثم ذهب إلى أغمات^(٣) ، ثم بارحها إلى قاس ، حتى استقر به المقام في مراکش آخر الأمر^(٤) ، ولم يرد عنه في هذه الفترة أنه تعرض لعقائد الناس بالسوء ، فلم يكفر أحداً ولم يتهم أحداً ، كان همه منصرف إلى محاربة البدع ، وحض الناس على التزام أحكام الدين ، وإطراح ما انغمسوا فيه من إقبال على الدنيا ، وتناقل عن العمل للحياة الأخرى . وكانت دولة المرابطين بعد أن مضى على قيامها وقت طويل ، قد بدأ الفساد يدب في أوصالها ، وبدأت الدعوة الكريمة التي وضع عبد الله بن ياسين أساسها بوبناها بدمائه ، ودماء أعوانه من المرابطين ، تفقد أثرها في نفوس القوم ، وانصرف الأمير علي بن يوسف عن أمور الحكم إلى الانقطاع للعبادة^(٥) ، فازداد عتو الفقهاء وسيطروا على الحياة العامة في المغرب والأندلس ، وكان يديم تصريف شئون الدولة ، حتى ضج الناس بالشكوى ، متبرمين باستبدادهم بالسلطة وبدأت النساء تلعبن في المجتمع دوراً كبيراً ، يوجهن السياسة العامة ، ويتحكمن في مجريات الأمور^(٦) . كما أخذ الأمراء المرابطون يستبدون ببعض مناطق الأطراف ، ويهددون الدولة بالانقسام ثم الزوال^(٧) .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) ابن الخطيب رقم الحلل ص ٥٧ .

(٣) أعز ما يطلب ص ٤ ، ابن عذاري ج ١ ص ٣١٧ .

(٤) جامع تواريق قاس ص ٣٣ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ١١٤ - ١١٥ .

(٦) قس المرجع والصفحة .

(٧) قس المرجع والصفحة .

كانت هذه الأحوال السيئة مما أذكى الحمية في قلب محمد بن تومرت ، ودفعته إلى أن يعمل بقدر ما وسعه من جهد إلى مقاومة هذا المنكر ، وإصلاح هذا الفساد ، وكان يرى أن الأمير مسئول بين يدي الله عن ذلك كله ، وأن باستطاعته أن يقوم المعوج ويرد العاصي^(١) ، فلما دخل مرا كش ، وعظ على بن يوسف وأمره بالمعروف ، ونهاه عن المنكر في شيء من العنف ، ثم التجم مع الفقهاء المالكين المحيطين بعلي بن يوسف في مناظرة عنيفة ، استخدم فيها علم الكلام وتعاليم المدرسة النظامية ببغداد ، فأخم مناظريه وأجج نار العداء في صدورهم فأثمروا به ، وحملوا على بن يوسف على أن يخرج من مرا كش خائفاً يترقب^(٢) ، وبعد أن خرج ابن تومرت من مرا كش ، اتخذت دعوته مظهراً آخر ، أعلنها حرباً ضروساً على المرابطين ، وراح يؤلب قبائل المصامدة ، وبدأت حملاته على المرابطين وعقائدهم تشتد وتنف ، وبدأ منذ هذه اللحظة بالذات يشكك الناس في عقائدهم ، ويرميهم بالزيغ والمروق على الدين ، ويبين لهم أن الدعوة الصحيحة هي التي يحض عليها ويدعو لها . . .

ولكن قد يقال وما لعبد الله بن ياسين وعلي بن يوسف ، والشقة بينهما بعيدة ، توفي عبد الله بن ياسين عام ٤٥٠ هـ وولي علي بن يوسف عام ٥٠٠ هـ ، ولورد على ذلك نقول أن محمد بن تومرت لم يوجه حملته لعلي بن يوسف ، بل إنه وجهها للمرابطين على وجه العموم ، ولما كان عبد الله بن ياسين هو صاحب الدعوة ، وصاحب الرسالة ، ومنشئ الدولة ، فإنه تكفير المرابطين يعتبر تكفيراً له ، ومهاجمة عقائدهم يعتبر مهاجمة لعقيدته ، وإتهامهم بالمروق عن الدين يعتبر إتهاماً له بالمروق عن الدين ، لذلك يجب أن نعرض بعد ما ذكرنا من ملابسات لبعض هذه التهم فنثبتها على عبد الله بن ياسين أو تنفيها عنه .

(١) البيهقي ص ٦٨ ، رقم الحلل ص ٥٧ .

(٢) أعز ما يطلب ص ٧ .

كانت أهم التهم في نظر ابن تومرت ^(١) أن المراتبين يحسمون مشهور ،
يشبهون الخالق بالخلق ، وينسبون إليه من الصفات ما ينسبون إلى البشر من
السمع والبصر والحركة ، وما إلى ذلك ، وهم في نظر ابن تومرت كفرة يجب جهادهم
حتى يمتنعوا عن الخالق التشبيه ، والتشريك ، والنقائص ، والآفات ، والحدود ،
والجهات ، ولا يحطوه في مكان ، ولا في جهة ، فانه تعالى موجود قبل
الأمكنة ^(٢) والجهات ، فمن جعله في جهة ومكان ، فقد جسمه ، ومن جسمه ،
جعله مخلوقا ومن جعله مخلوقا ، فهو كعابد وثن ، فمن مات على هذا فهو مخلد
في النار ^(٣) ، هم في رأيه كفرة يجب جهادهم كما يجاهد الروم ^(٤) . دماؤهم حلال
سفكها ، وأموالهم فيء ، جهادهم فرض على الأعيان على كل من فيه طاقة على
القتال ^(٥) . وكل من قتل من الكفرة والمجسمين ، فهو مخلد في نار جهنم وبئس
المهاد ^(٦) « أعلوا أنكم في قتال الكفرة على الحق المبين ... أعلوا وفقكم الله
أن المجسمين أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس العين ^(٧) . حلهم ذلك على
الاقتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها . وحرفوا الكلام عن
موضعه ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد وإتباع السنة مخالفا ^(٨) » ...

والمجسمون في الواقع يفسرون النصوص المجسمة والمشبهة ، التي جاءت
في القرآن ، والحديث ، والنصوص المتواترة تفسير خرفيا ، فأنه بصير سميع غضوب

(١) اليدق ص ٤ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ٩ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٦) نفس المرجع ص ٤٠ .

(٧) نفس المرجع ص ٤ .

ضاحك يجلس ويقف له يدان ورجلان . . . وكانوا يفسرون هذه الآيات على
ظاهرها ويطلبون الإيمان الأعمى بحرفية النص^(١).

والواقع أن المسلمين في تفسير الصفات المنسوبة للخالق فريقان : فريق لم
ينكر هذه الصفات ، وفريق أنكرها إنكاراً تاماً . والفريق الأول هم جمهرة
أهل السنة ، والفريق الثاني هم فريق المعتزلة ، أو المعطلة الذين يعطلون الصفات
الإلهية^(٢) . فالفريق الأول قالوا بأن لله صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة
والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجود ، والأنعام والعزة ، والعظمة .
لا يفرقون بين صفات الذات ، وصفات الفعل ، ويثبتون صفات خبرية مثل اليدين
والوجه ، ويقولون بأن هذه الصفات قد وردت في الشرع ، فوجب تسميتها
صفات خبرية ، ثم قالوا أن الله تعالى ليس كمثل شيء ، ولا يشبه شيء من المخلوقات.
ولكنهم لا يعرفون معنى اللفظ الوارد فيه ، مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش
استوى » وليسوا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات ، يكفهم الاعتقاد بأن
لا شريك له ، وليس مثله شيء ، لا يريدون التأويل ، بل يقبلون النصوص على
علاتها ، ويؤمنون بها كما هي^(٣) . ويمثل هذا الرأي مالك بن أنس الذي
لم يتعرض للتأويل ، ولا وقع في التشبيه ، فلما سؤل في ذلك ، قال « الاستواء
معلوم والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة^(٤) » . وقد وقف
أحمد بن حنبل مثل هذا الموقف ، وكذلك سفيان ، وداود الأصفهاني من
الأمم^(٥).

(١) ابن حزم الفصل ج ٢ ص ١٤٠ .

(٢) جلد زهير : العقيدة الشريعة ص ٦٥ - ٩٦ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٦٤ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

أما المعتزلة فهم ينعون الصفات عن الخالق ، ويقولون بالتأويل : الله عالم بذاته ، قادر لذاته ، وقدرة وحياة هي صفات قديمة ، ومعاني قديمة ، واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار ، ونفى الشبه عنه « من كل وجه ومكان وهوية وجسم ، وتحيز وانتقال ، وروال وتغير وتأثير » . وقد سمي هذا التأويل توحيدا ، وأصبح العدل والتوحيد من أركان عقائد المعتزلة ^(١) . وقد حاول الأشعرية أن يوفقوا بين رأى أهل السنة وعلماء الكلام ، فأثبتوا الصفات للخالق ولكنهم استعانوا في تبرير ذلك بعلم الكلام ^(٢) ، فلم يقبلوا هذه الآيات على علاقتها كما فعل أهل السنة ، ولم يرق ذلك في نظر جمهرة الفقهاء السنيين ، فظلوا على رأيهم القديم لأنهم لم يكونوا يؤمنون بعلم الكلام ، لأن علم الكلام في ذاته عدو ، سواء أقاد إلى نتائج سنية أو بدعية ، شعارهم « فر من الكلام في أى صورة ما يكون كما تفر من الأسد » ^(٣) . وقد أمر الإمام الشافعى أن يضرب المتكلمون بالسياط والنعال ، وأن يطاف بهم مستهرين في الجامع والقبائل وينادى عليهم « هذا جزاء من ينبذ علم القرآن والسنة وينكب على علم الكلام » ^(٤) ، والكلام علم إذا أصاب المرء فيه ^(٥) لم يؤجر وأن أخطأ فيه كفر . نيس هناك حاجة للعقل في معرفة الحقيقة الدينية فهم موجوددة في القرآن والحديث . وقد رأينا كيف أن المالكية في المغرب كانوا يكرهون المتكلمين ، ويحاربون المعتزلة حربا لا هوادة فيها ولا رحمة . كانوا ينفرون من الرأى ، ويأخذون على أتباع أبى حنيفة توسعهم في ناحية الرأى لأن مالكا كان يكره أهل الرأى ، وكان يقول « الرأى والجدل في العلم يذهب بمر العلم في قلب العبد » ^(٦) .

(١) الملل والنحل ص ٢٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

(٣) حلد زهير : العقيدة والشريعة ص ١١٤ .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٦) ص فرحون : الديباج المذهب ص ٢٤ .

إذن تأثر ابن تومرت بالمعتزلة في هذه الناحية ، فأنكر الصفات كما أنكروا ، ونادى بالعدل كما نادوا ، وقال بالتوحيد كما قالوا ، فسمى أتباعه الموحدين ، وصب على أهل السنة أصحاب الصفات ، الذين لا يقولون بالتأويل جام غضبه ، وحمل عليهم حملة منكرة . وإذا كان المعتزلة قد قالوا بأن من أجاز رؤية الله تعالى بالأبصار بلا كيف فهو كافر ، والشاك في كفره كافر^(١) ، فإن ابن تومرت اتهم القائلين بالصفات بالكفر والزندقة . أحل دماءهم وحض على جهادهم . والمعتزلة يسرقون في التكفير ، على حين أن أهل السنة لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب دون الشرك^(٢) . إذن فاتهم المراتبين بالتجسيم هو اتهام عام ، اتهام لأهل السنة على العموم ، للفقهاء على اختلاف مذاهبهم .

وقد أنكر ابن تومرت المذاهب كلها ، كما أنكرها المعتزلة من قبل . ولم يكن عبد الله بن ياسين إلا فقيهاً من هؤلاء الذين ترسموا بخطى إمامهم مالك وغيره من أهل السنة في إثبات الصفات لله عز وجل . وعزوفهم عن التأويل واشتغالهم عن الخوض في بحر خضم هو بحر علم الكلاء والفلسفة . إن كفر ابن تومرت المراتبين فقد كفر المعتزلة أهل السنة جميعاً وحضوا على قتالهم وجهادهم . ليس من شك في أن طائفة من المتأخرين ، قد غت في التشبيه غلواً كبيراً فقالوا بأن الله تعالى جسم ، وحجتهم في ذلك أنه لا يقوم في العقول إلا جسم أو عرض ، فلما بطل أن يكون تعالى عرضاً ، ثبت أنه جسم . وقالوا إن العقل لا يصح إلا من جسم ، فالبارئ تعالى وجب أنه جسم ، واحتجوا بآيات من القرآن فيها ذكر اليد واليدين والأيدى والعين والوجه والجنب ، ويقول الله تعالى « وجاء ربك » وقوله « يأتيهم الله في ظلل من الغمام ونلائكة » ، وتجليه تعالى

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٥٢

(٢) عياض تريب مدارك ح ٤ ص ١٣٩

بأحاديثه للجبل فيها ذكر القدم واليمين والرجل والأصابع . وغلوا في ذلك وأسرفوا حتى خرجوا على ما قال به أهل السنة أنفسهم ، وانحدروا إلى مياوى الشرك^(١)

إن لم يجاوز الم رابطون الحدود التي رسمتها السنة ، وما أجمع عليه أهل المذاهب وإذا صح ما نسب به ابن تومرت إلى الم رابطين فلم اتصل إمام عظيم كالغزالي بيوسف ابن تاشفين وبارك جهاده ، وسعى له عند خلفاء بني العباس ، حتى اعترفوا بشرعية حكمه ، وأعجب به وبجهاده في سبيل إحياء الدين؟^(٢) ؛ فلو كان أتباعه مجسمة كفره ، أفكان الغزالي يبارك حركتهم وينظر إليها على أنها تحقيق للأهداف السامية التي كان يسعى إلى تحقيقها من إحياء الإسلام الصحيح !!!

كان عبد الله بن ياسين على جادة السنة ، لم يحد عنها ، قام يدعو إلى الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم ، « وهم على أهل السنة متمسكون بمذهب مالك ابن أنس رضي الله عنه^(٣) » ، نعم كان عبد الله بن ياسين متمسكا بأهداب السنة عاملا على إحيائها ، مالكي المذهب ، متمسكا بمذهبه ، حريصا عليه كل الحرص^(٤)

(١) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

(٣) للبكري : المغرب ص ١٦٤ .

(٤) الأتخاف ج ١ ص ٨٨ .

الباب الثالث

الدور المغربي

١ — أهمية الدور المغربي في تاريخ دولة المرابطين :

عرضنا في الباب السابق للدور الأول من أدوار قيم دولة المرابطين ، وهو ما أطلقنا عليه اسم الدور الصحراوي ، ورأينا كيف انتهى بتوحيد قبائل الملمثين تحت راية عبد الله بن ياسين ، وكيف استطاع ذلك الحلف الذي بعث بعثاً جديداً أن يبسط نفوذ الملمثين على صحراء المغرب ، من مصب نهر السنغال في الجنوب حتى جبال درن في الشمال ، وكيف استطاعت هذه القوى الجديدة أن تتمكن للإسلام ، وأن ترفع لوائه ، وأن تنشر الثقافة الإسلامية في ربوع الجنوب ، وأن تبصر الناس بشئون دينهم ، وأن تحارب دول الزموج وتردها إلى الجنوب فتقضي على خطرهما قضاء مبرما .

ولكننا سنعرض في هذا الباب لدور آخر من أدوار قيام الدولة ، نطلق عليه اسم الدور المغربي . ذلك أنه بعد أن تم لمرابطين بسط سيادتهم على الصحراء ، واطمأنوا من ناحية الجنوب ، بدأت جموعهم تطرق أبواب المغرب ، وتندفع صوب الشمال فاتحة غازية ، وتفتح في تاريخ المغرب على الخصوص ، وتاريخ العالم الإسلامي على العموم صفحة جديدة . ذلك أن الدولة الجديدة إذ تتجاوز حدود الصحراء متقدمة صوب الشمال ، لم يعد تاريخها تاريخاً محلياً يخص تاريخ الصحراء ، أو تاريخ السودان الغربي ، بل بدأت تتخذ صفة عالمية ، بدأت تحتك بمواطن الحضارة القديمة ، وبالتقافة الإسلامية المنتشرة

في أرجاء المغرب الأقصى . والمرابطون حين يردون هذا المورد ، ويقتحمون هذا الميدان الجديد ، يتجدد تاريخهم ، ويكتسبون فوق قوتهم قوة ، ويخضعون لبيئة المغرب الأقصى ، كما خضعت لها الدول التي قامت هناك من قبل ، فزاد صلتهم بالأندلس^(١) ، ويتشوفون إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فيحتلون الموانئ الساحلية ، ويضطرون وهم الصحراويون البدو إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل ، ويسهمون في حركة الجهاد العام . أعنى أن الدولة الجديدة ستنتقل من حركة جهاد خاص في صحراء الجنوب إلى حركة جهاد عام ، إذ تدخل المعترك الدولي من أجل تثبيت السيادة الإسلامية ، وتضطر إلى منازلة القوى المسيحية التي بدأت تظهر في القرن الخامس الهجري ، وتنبش العالم الإسلامي ، وتهده بالخطر .

بدأت قبائل المرابطين تطرق أبواب المغرب الأقصى في وقت اشتدت فيه حاجة العالم الإسلامي في المغرب إلى دماء جديدة ، وقوى فتيّة تلم الشعث ، وتوحد الجهود المبعثرة ، بعد أن كاد الناس يئسّون من الوحدة ، ويستسلمون لغير الغلبة . وظهورهم في هذا الوقت المناسب يكاد يشبه ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الحوادث في الشرق الإسلامي^(٢) ، فكلاهما قوتان فتيّتان حديثتا عهد بالإسلام تضطّرمان بالحمية والحماس ، وتتقدّمان الصفوف في وقت ضعف فيه المسلمون وتفرّقوا^(٣) .

بما تقدم ، يتبين أن الدور المغربي من أدوار قيام الدولة دور بالغ الأهمية ، ذلك أن قبائل الملمّثين لو قنعت بالسيطرة على إقليم الصحراء لتفرّق شملها بعد قليل ، ولضاعت الجهود الشاقة التي بذلها زعيم أمين وأمرأه متفانون في خدمة بني جنسهم . نعم لو لم تتقدم قبائل الملمّثين إلى المغرب الأقصى ، لما سجل

(١) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ص ٢٧٤ .

(٢) ابن دحية : النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص ١٣٧ .

(٣) Menedez Pidal : The Cid and his Spain, p. 212 .

كتاب تاريخها هذه الحوادث التي هزت مشاعر المسلمين في الشرق والغرب .
فإن أقدام المرابطين على فتح المغرب يؤذن ببداية دور من أدوار الاستقرار
والتنظيم ، بعد استيلائهم على موارد المغرب الممخوعة ، وباتهاء دور الزعامة الدينية ،
وبروز الأمراء الملتهمين من القادة والفاحين ، الذين سوف تخلد المعارك التي
سيخوضونها اسمهم في مكان بارز من تاريخ الجهاد .

٢ — أسباب فتح المغرب :

وقبل أن تعرض للحوادث التي ستنتهي بفتح المغرب ، لابد من أن نسأل
هل جاء المرابطون إلى المغرب تلبية لنداء الطبقة المضطهدة في المجتمع المغربي ؟
ليس من شك ، في أن المجتمع المغربي كما قلنا في الباب الأول كان يعاني من تسلط
الزناتيين ، ومن سوء الحالة الاقتصادية ، ومن هذه الأعباء الثقالة التي كان يرزح
تحتها ، ويتوق إلى الخلاص منها . روى بعض المؤرخين ، أن الفقهاء تطلعوا إلى
هؤلاء المنقذين الجدد ، يلتمسون العون ويرجون الخلاص^(١) . ونحن لا نستبعد
هذا ، ولكن يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن الملتهمين كانوا سوف يندفعون
إلى المغرب لفتحة ، سواء استنجد بهم أهله أو لم يفعلوا ، لأن عبد الله بن ياسين
— كما يبدو — رسم لنفسه هذه الخطة ، وجعل من أهدافه أن يبسط نفوذه
على المغرب ، كما بسطه على الصحراء من قبل . فقد ذكر صاحب الحلل الموشية ،
« أن الشيخ أبا محمد عبد الله بن ياسين لما رأى استقامة ملتونة ، واجتهادهم أراد أن
يظهرهم ، ويملكهم بلاد المغرب وقال لهم انكم صبرتم ، ونصرتم دين رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وقد فتحتم ما كان أمامكم ، وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم ،
فأمروهم بالخروج من الصحراء^(٢) » .

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٨ .

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٠ .

ثم إن الحركة التي بثها عبد الله كانت بمثابة طاقة عظيمة لا بد من أن تنصرف على صورة غزوة كبرى ، أو هجرة عظيمة ، وهذا يتلاءم مع ما عرف عن طبائع البدو ، ما تكاد قبائلهم تتحد برئاسة زعيم ، حتى تهب غازية فاتحة . وكان من الممكن أن تنصرف هذه الطاقة صوب الجنوب ، لولا أن جهود عبد الله ابن ياسين ، ومن سبقه تمخضت عن هزيمة الزنوج ، وإخضاعهم ، ونشر الإسلام في بلادهم . فلم تعد قبائل الملثمين تخشى أن تطعن من الخلف ، إذا هي انصرفت إلى الشمال للفتح والغزو . كان لا بد إذن أن تتجه قبائل الملثمين إلى الشمال ، وأن تغادر مواطنها بأية صورة ، وخاصة بعد هذه الروح العالية ، التي بثها ابن ياسين في هذه الجيوش الكثيفة التي حشدتها لتحقيق أغراضه وتنفيذ مشروعاته . هو تيار كان لا بد أن يندفع نحو غاية معينة ، لا بد أن تتحقق في وقت عجرت فيه قبائل المغرب عن المقاومة بسبب تفرقها وضعفها وتحاذلها .

٣ — العوامل التي تحكم في زحف المرابطين إلى المغرب :

وقبل أن نخوض في تفصيل الحوادث التي أدت إلى إتمام فتح المغرب ، يحسن بنا أن نكشف النقاب عن العوامل التي كانت تتحكم في حركة الزحف صوب المغرب الأقصى ، وأن نكشف عن التيارات الباطنية التي كانت تسير هذه الهجرة الكبيرة . وسنعرض لهذه الموجهات بصفة عامة ، ثم نحاول أن نعرض للدور الذي لعبه كل منها في إتمام فتح المغرب ، وتحقيق ذلك الهدف الذي كان عبد الله بن ياسين يتغيا . .

وأهم هذه العوامل ، وأبعدها أثراً ذلك النزاع التقليدي المعروف بين قبائل البتر وقبائل البرانس ، هذا العداء الذي ظل يوجه تار يخ المغرب الأقصى مدة خمسة قرون متوالية . إحتدم النزاع أول الأمر بين صنهاجة الجيل الأول وزناتة ، وتدخلت الدولتان الفاطمية والأموية فيه ، ثم ما لبثت صنهاجة الجيل الأول

أن يفرق بعد أن حارب بنى هلال أفريقية ، وقوصوا صرح الدولة الريرية ،
وبدءوا يطرقون أبواب المغرب الأوسط ، ويهددون دولة بنى حماد^(١) ، ولكن
صنهاجة الجنوب أهل اللثام استطاعت أن تتم وحدتها على يد عبد الله بن ياسين ،
وبدت قلوب أفرادها تضطرم بحمية دينية لم تعهد من قبل .

شاءت الأقدار أن تهوى صنهاجة الجيل الأول لتخلفها صنهاجة الجيل الثاني
وقد رشحتها الحوادث لزعامة شعب البرانس على وجه العموم ، وكان عليها أن
تمكن لهذه الزعامة بأن تحف إلى مناضلة البتر ، الذين أذلوا الملتزمين طوال القرون
السابقة ، واضطهدوهم ، ونكلوا بهم ؛ تفرق سبل زناتة ، وضعف شأنها بعد
إنهيار الخلافة الأموية بالأندلس ، في وقت أحدث صنهاجة الجنوب ، واشتد
ساعدها ، وبقي عليها أن تحف إلى الميدان ، منتهزة هذه الفرصة للأخذ بذلك النار
القديم ، وانتزاع هذه الأرض الحصبة ، التي ظل الزناتيون يسيطرون عليها فترة
طويلة . هذا إلى أن القبائل الزناتية في المغرب الأقصى كانت تسد مسالك البلاد ،
وتحاول أن تقاسم شعوب الملتزمين رزقهم من تجارة المغرب والسودان ،
فكان على الملتزمين إذا أرادوا أن تخلص هذه التجارة لهم كلها أن يناضلوا زناتة ،
وأن يخفوا إلى قتالها .

وهناك عامل آخر لا يقل عن العامل السابق أثراً في إذكاء تيار الغزو ، وهو
الرغبة في تحقيق الدعوة ، التي بثها عبد الله بن ياسين ، منذ كان يريد أن يجند
قبائل الملتزمين في حركة لتطهير المجتمع الإسلامي كله . كان يريد أن تمتد صيحة
الأمس بالمعروف والنهي عن المنكر إلى المغرب والأندلس . ولعل هذا يفسر
ما ذكره المؤرخون من استنجاد الفقهاء^(٢) ، واستغاثتهم بالمرابطين . فبعد أن

(١) Marçais : Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e Siècle p; 127

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

أنتهى جهادهم الأصغر بالصحرَاء ، لم يكن بد من أن يتطلّعوا إلى جهاد أكبر
بميدان المغرب والأندلس .

وهناك عامل ثالث اشترك مع العاملين السابقين في توجيه الملتجئين صوب
المغرب الأقصى ، ذلك أن الصحراء أصبحت تضيق بمجموع المرابطين ، الذين كانوا
يتزايدون يوماً بعد يوم^(١) ، وكان لابد من أن يجد أولوا الأمر لهم مجالا حيويًا
يتجهون إليه^(٢) ، بعد أن ضاقت في وجوههم سبل الرزق بالصحراء .

هذه إذن هي المعالم الرئيسية للعوامل الثلاثة التي ساعدت على توجيه فتح
المرابطين للمغرب ، والتي أذكرت هذه الحملات المتعددة ، التي شنها الملتزمون ، حتى
تهيأ لهم آخر الأمر أن يفتحوا هذه البلاد ، وأن يتموا المرحلة الثانية من مراحل
قيام الدولة . ولكن بقي علينا أن نفصل هذه العوامل ، وأن نتبعها من البداية
إلى النهاية ، لنرى إلى أي حد أسهمت في إتمام هذا الفتح .

٤ — تحقيق بدء تدفق المرابطين صوب المغرب :

وقبل أن نعرض لقصة الصراع بين زناتة وحلفائهما ، والملتجئين وحلفائهم ،
يجدر بنا أن نحقق تاريخ بدء تدفق المرابطين صوب المغرب الأقصى ، لأن روايات
المؤرخين فيما يتعلق بهذا التاريخ مضطربة أشد الاضطراب ، متضاربة أشد
التضارب ، والسبب في ذلك يرجع — على ما يبدو — إلى أن المؤرخين لم يدونوا
أخبار هذه المرحلة الأولى إلا بعد أن تم قيام الدولة ، وبرزت في عالم المغرب قوة
مستقرة ، كما أن النقود والنقوش التي يمكن أن يعتمد عليها لضبط هذه التواريخ
لم تظهر إلا بعد أن استقرت الدولة في أرض المغرب ، وبدأت بعد أن تهيأت لها
أسباب القوة والاستقرار تسك النقود وتشيّد العمارات .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٢) A. Bel : Les Benou Ghanya, p. VI

والمؤرخون في تحديد تاريخ بدء هذه الحملة ويريدون فريقين بسوق توارنج
بعد سنة ٤٥٠ هـ^(١)، وفريق آخر يذكر أن رحف المرابطين على المغرب الأقصى
بدأ قبل سنة ٤٥٠ هـ^(٢). أما رواية الفريق الأول فنستطيع أن نستبعداها، ونحن
مطمئنون غاية الاطمئنان، لأن أول نقود ظهرت للمرابطين ضربت بمدينة
سجلماسة^(٣) سنة ٤٥٠ هـ، ولا يعقل بالطبع أن يضرب المرابطين النقود في مدينة
لم يتم لهم فتحها، فلا بد إذن أن يكون المرابطون قد تحركوا صوب المغرب في تاريخ
سابق لسنة ٤٥٠ هـ، تاريخ ظهور أول عملة مرابطية.

وقد ذكر ابن خلدون^(٤) أن فتح المغرب بدأ عام ٤٤٥ هـ، ولا يعقل أن
يستغرق سير المرابطين من ديارهم بالجنوب صوب واحات المغرب الأقصى خمسة
أعوام طوال، وإن كان بعض المؤرخين قد ذكرت أن إقليم الواحات الجنوبية،
فتح مرتين: فتح مرة فاسترده الزناتيون، ثم استعاده المثلثون من جديد. ويحيل الينا
أن النضال حول سجلماسة استمر مدة لا تزيد على ثلاث سنوات، وعلى ذلك
تعتبر رواية صاحب البيان من هذه الناحية أقرب إلى التصديق، لأنه ذكر أن
الحملة بدأت حول سنة ٤٤٧ هـ^(٥)، أو بعد هذا الوقت بقليل.

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩. التويري: نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٧. أبو الفدا
ج ٢ ص ١٨٣. ابن الخطيب: رقم الحلل ص ٥١.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٣. ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣، صبح
الأعشى ج ٥ ص ١٦٨.

(٣) Laveix: Catalogue des Monnaies de la Bib. Nat. pp. 556-554.
Pièce: 507, Menudas de las Dinastias Arabigo Espanolas: Pièce: 1425.

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٣.

٥ — النزاع بين البرانس والبتر وأثره في فتح المغرب :

خرج المرابطون إذن من ديارهم في الجنوب في هذا الوقت ، بقصد فتح المغرب الأقصى ، ومصارعة البتر ، والقضاء على قوة زنادة قضاء مبرما . ومن الغريب أن النزعة القبلية سيطرت على هذه الحملة ، وتحكمت فيها ، وكانت توجهها كيف تشاء ، وقد كان من الممكن أن تتقدم القبائل في زحفها بحذاء الساحل ، فتسير في بلاد تحتلها قبائل الملثمين ، حتى تدرك جبال درن ، ثم تسلك نفس الطريق ، الذي تسلكه عقبة بن نافع ، وموسى بن نصير من قبل ، فتستطيع أن تطوق المولة الزناتية ، وتجعلها بين شقي الرحا . ولكن للملثمين لم يفعلوا ذلك ، بل كان هدفهم الأول مهاجمة منطقة الواحات الجنوبية بالذات ، هذه المنطقة الممتدة من وادي درعة في الجنوب ، حتى مدينة تافلالت في الشمال ، لا شيء إلا لمهاجمة الإمارة التيرية صاحبة السلطة على هذه الرقعة الصحراوية من صحراء المغرب . فقد كان مسعود بن وانودين بن خرزون المغراوي^(١) من أشد الناس عدااة لصنهاجة الجنوب ، إذ كان يقف وقبيلته من خلقه سدا منيعا يحول بينهم وبين تدفقهم صوب الخرب ، لذلك لا نعجب إذا رأينا جموع الملثمين تنقض أول ما تنقض على الخط الزناتي الأول .

وقد خرج المرابطون أول الأمر في جيش ضخم^(٢) ، ونزلوا وادي درعة^(٣) ، فلما أحس أمير مغراوة بالخطر يقترب من دياره ، خرج في اثني عشر ألفا من قومه^(٤) للقاء المرابطين ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمامهم ، فقد كانت تعاليم

(١) الحلال الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ ، البيان للمغرب ج ١ ص ٢٦٤ وج ٣

ص ٢٤٣ . القلقشندي ج ٥ ص ١٦٨ . Julién (op; cit.) p. 378

(٢) اسان الدين بن الخطيب : رقم الحلال ص ٢٠٢ . De la Chapelle (p. 62)

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٩ .

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩ .

ابن ياسين قد وحدت صفوفهم ، وألفت بين قلوبهم ، فاعتقدوا أنهم إنما يخوضون الحرب دفاعا عن المستضعفين من أهل البلاد ، الذين أذلهم الزناتيون . ولم تصمد القوات الزناتية طويلا ، ولم تظهر ما عرفت به من شجاعة وفروسية ، فقتل مسعود ، وتفرق شمل الزناتيين^(١) ، وفتح طريق وادي درعة أمام المرابطين ، الذين أخذوا يتقدمون صوب الشمال كييفا أحبوا . وقد تقدم المرابطون على الفور ، يتعقبون قلوب الزناتيين ، وينسكرون بهم ، ولكن يبدو أن الزناتيين لم يستسلموا لليأس ، ولم يستكينوا للغلبة ، فقد كانوا يعرفون أن هذه الحرب كانت حرب حياة أو موت ، لو غلبوا على أمرهم علت كلمة البرانس ، وتم لهم التفوق والسيطرة على المسالك الجنوبية المؤدية إلى المغرب ، فاعتصموا بمدينة سجلماسة ، ودافعوا عنها دفاع الأبطال . ولكن المرابطين اقتحموها بالسيف وأوقعوا بهم ، وفرقوا شملهم ، وتمت لهم الغلبة ، وعقد لهم لواء النصر^(٢) .

ولكن زناتة لم تصبر على الهزيمة ، فما كادت بعض جموع المرابطين تعود إلى الصحراء للقضاء على ثورة الزوج^(٣) ، حتى هب الزناتيون ، وأعملوا في الملتحين السيف ، وقتلوا حامية المرابطين بسجلماسة ، وكادت انتصارات المرابطين تضع هباء ، لولا أن عبد الله بن ياسين حرضهم على الحرب مرة أخرى ، وأخذ يذكى في قلوبهم جذوة الجهاد ، فعادوا أقوى مما كانوا ، موطين العزم على كبج جماع الزناتيين ، مهما كلفهم الأمر ، ولم تصمد زناتة الجنوب أمام زحف المرابطين ، وانتهى الأمر بهزيمتها شر هزيمة ، ووطد المرابطون أقدامهم في إقليم الواحات^(٤)

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) الخلل الوشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ . البيان لأفرب ج ٣ ص ٢٤٣ . صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٨ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٤) رقم الخلل ص ٩ . روض القرطاس ص ٨١ . De la Chapelle : Esquisse. d'une histoire de Sahara Occidental, t. XI, p.62.

جواسسوا مدينة تلبلا^(١) ، واتخذوها قاعدة للرحلة التالية من مراحل
مفتح المغرب .

مهما يكن من شيء ، فقد كسب البرانس من ضهاجة الجنوب الجولة
الأولى في هذه الحرب ، وإنهار صرح ذلك الحصن ، الذي كان يحرس مضارب
زناتة في الجنوب ، ويسيطر على مسالك الصحراء ، وعلى الطرق المؤدية إلى
المغرب الأقصى . نعم حقق ذلك النصر ثماره المرجوة ، ورفع كلمه المرابطين
في أقاليم الواحات ، وانتشرت أخبار ذلك النصر في أرجاء المغرب كله ، مؤذنة
بظهور هذه الدولة الفتية على يد هؤلاء القوم الأشداء من بدو الصحراء .

وكان من الممكن أن تنصرف جهود المرابطين بعد أن تمت السيطرة على
أقاليم الواحات ، والقضاء على إمارة مغراوة في الجنوب ، إلى تخطي النطاقات
الجبلية الواقعة في الجنوب ، ثم تنقض على قلب بلاد المغرب ، ونعني به إقليم
مقاس ، ذلك الإقليم الذي إذا سيطر عليه فاتح استطاع أن يسيطر على أقاليم المغرب
الأقصى كله دون عناء . ولو فعل المرابطون ذلك لاستطاعوا أن يشطروا الجبهة
الزناتية شطرين ، ويحولوا بين زناتة المغرب الأوسط ، وبين مد يد المعونة لإخوانهم
أهل المغرب الأقصى . ولكن يبدو أن الرغبة في الانتقام السريع من أعدائهم
الذين لم تسيطر عليهم هذه المرة ، إنما سيطر عليهم نوع من الحذر والحرص والدهاء
فقد كانت الكتلة المصمودية تسيطر على إقليم السوس الأقصى ، وتكون كتلة
متماسكة قوية شديدة المراس صعبة المقاومة^(٢) . كانت قبائل المصامدة تكره
الزناتيين أشد الكره ، وتغنيق بحكمهم ، وتتحين الفرص للقضاء عليهم . وكانت
تتوق إلى محليف تشد أزره ، وتبارك جهوده ، وقد وجدت ذلك الحليف المنتظر

De la Chapelle (op. cit.), p. 62. (١)

Terrasse : Hist du Maroc, p. 177. (٢)

في قبائل الملتمين الزاحفة من إقليم الواحات، فزوى المؤرخون أن المصامدة ^(١) يقوموا المرابطين، بل عاونوهم، وأيدوهم،، ومدوا لهم أيديهم لمناضلة الزناتيين عدوهم المشترك، سواء أكان ذلك خوفاً من المرابطين، أو رغبة في الانتقام من الزناتيين، فقد يسروا مهمة الغزاة، فاستطاعوا في وقت قصير أن يحتاحوا إقليم السوس الأقصى في جموع حاشدة، فاستولوا على بلاد جزولة، وبلدة ماسة، ودخلوا تارودانت عاصمة الإقليم دون مقاومة تذكر ^(٢)، ثم عبروا ذلك النطاق الجبلي العظيم المعروف بجبال درن عند أطرافه القريبة من ساحل المحيط ^(٣)، ولم يكن يتيسر لهم ذلك أبداً، إلا بعد استرضاء قبائل المصامدة، فلم يتم استرضائهم لا تقضوا عليهم من خلاف، فأتوا على جهودهم، وفرقوا شملهم.

لذلك يعتبر استرضاء المصامدة عملاً سياسياً ممتازاً، كما يعتبر اجتياز نطاق جبال درن عملاً عسكرياً ممتازاً أيضاً، ويدل على أن هذه القبائل البدوية لم تكن مجرد جموع تغير في غير نظام، كما يدل على أن الجيش المرابطي كان منظماً أدق تنظيم، يعمل كوحدة متماسكة متعاونة. وقد استولى المرابطون على شفشافة ونفيس، وبلاد رودة، وإقليم جدموية، واتفهم قبائل رجرجة، وحاجة مستسلمة مبايعة ^(٤). وقد أوغل المرابطون في إقليم السوس حتى وادي تنسيفت، الذي يصب في المحيط الأطلسي، وبذلك سقط في أيديهم آخر معاقل بلاد السوس، وأطاعتهم جميع قبائلها ^(٥)، وأصبحوا سادة الجنوب دون منازع. نعم استطاعوا أن يسيطروا ظلمهم على إقليم مراکش الجنوبية، وأن يقطعوا في سبيل فتح المغرب الأقصى شوطاً بعيداً، إذ مما لا شك فيه أن هذه الانتصارات

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .
De La Chapelle, (op. cit) p. 62. دائرة المعارف الإسلامية: مادة مرابطين (A.Bel).

(٢) Julién, (op. cit.) p. 379.

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢ .

(٤) المصدر السابق والصفحة نفسها .

المتلاحقة كانت تشد من أزر عبد الله بن ياسين وتزيد من بعد صيته ومن قوته ، وتقوى روح الترابط ، والاتحاد بين القبائل الملتزمة ، ما دامت قد جنت هذه الثمار الأولى .

بقيت لدينا ناحية أخرى لا بد من أن نعرض لها ، وهي تحديد التاريخ الذي أتم فيه المرابطون فتح إقليم السوس الأقصى . ونحن نعلم أن إقليم الواحات تم إخضاعه للمرة الأولى حول سنة ٤٤٧ هـ ، ولا يبعد أن تكون الحرب الزناتية الصنهاجية قد استغرقت عاما أو عامين . لذلك نميل إلى تصديق رواية ابن خلدون التي تذكر أن فتح إقليم السوس تم سنة ٤٤٩ هـ^(١) على وجه التقريب ، ومما يعزز بهذا الرأي أن المراجع التي بين أيدينا تشير إلى أن عبد الله بن ياسين قتل في حرب برغواطة عام ٤٥٠ هـ ، وهو لم يقدم على محاربة برغواطة إلا بعد أن تم إخضاع إقليم السوس الأقصى^(٢) .

وقد أخذت النزعة القبلية تتحكم في سير الحملة المرابطية مرة أخرى ، فقد كان على قوات الملتزمين الزاحفة أن تتقدم صوب الشمال مخترقة ديار برغواطة في طريقها إلى السهول الشمالية ، لتقطع صلة المغرب بالأندلس ، ولكنهم انحرفوا فجأة صوب الشرق ، لمنازلة قبائل البتر مرة أخرى ، ذلك أن لقوط بن يوسف بن علي المغراوي كان قد أسس إمارة بترية في منطقة أغمات^(٣) ، وكانت هذه الإمارة وإمارة بترية أخرى في منطقة تادلة تعتبران حصونا أمامية يجب على الغزاة أن يستولوا عليها قبل الهجوم على منطقة فاس ، ومصارعة الإمارة الزناتية للسيطرة عليها ، لذلك اجتاحت جموع المرابطين منطقة أغمات ، ويبدو أن لقوط البرغواطي أخذ على غرة ، فقد حاصرته القوات المهاجمة بللمدينة ، وشددت عليه التكير^(٤) ،

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٨٣ .

(٢) الحلال الوشية في الأخبار للراكية ص ١٢ . ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) الحلال الوشية في الأخبار للراكية ص ١٤٠ . القلقشندي : صبح الأعشى

ج ٥ ص ١٨٩

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢ .

غير أن أميرها استطاع أن ينفذ من ذلك الحصار ، وفر بنفسه ملتجئاً إلى الإمارة
البترية الأخرى^(١) في منطقة تادلة ، فاقبضهم المرابطون المدينة بالسيف ، واستولوا
على وريكة وهيلانة وهزميرة^(٢) .. ويبدو أن موقع مدينة أغمات صاذف هو
في نفوس الفاتحين ، فاتخذوها أول حاضرة لهم بالمغرب ، ولم يتركوها إلا بعد أن
تم لهم بناء مراكش ، على النحو الذي سنعرض له فيما بعد . وقد فرت القوات
الزناتية لما فر أميرها ، والتجأ إلى إمراء تادلة^(٣) ، فلم يجد المثلثون بدا من أن
ينقضوا على إمارة تادلة هي الأخرى . وقد حاققت الهزيمة بالقوات البترية هناك ،
وأنزلت بهم هزيمة ساحقة^(٤) ، وبذلك أفاح المرابطون في القضاء على الإمارات
الزناتية في إقليم الجنوب ، ولم يبق أمامهم لتعاوكتهم وتتم لهم الغلبة على الشعب
الزناني أجمع ، إلا أن يقضوا على الإمارة المسيطرة على منطقة فاس والجهات
المحيطة بها .

ولكن يجدر بنا هنا أن نعود إلى تحقيق تاريخ استيلاء المرابطين على
منطقة أغمات ، محاولين ضبطه بقدر الإمكان . والمؤرخون في صدر هذا التاريخ
فريقان : فريق يذكر أن المرابطين قد دخلوا أغمات عام ٤٤٩ هـ^(٥) ، وفريق
آخر يذكر أن دخول أغمات كان سنة ٤٥٠ هـ^(٦) . ومن الغريب أن أغلب
هؤلاء المؤرخين يجمعون على أن عبد الله بن ياسين دخل أغمات سنة ٤٥٠ هـ^(٧) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) De la Chapelle : Esquisse d'une histoire de Sahara p. 62 .

(٥) ابن أبي زرع : روض القواطع ص ٨٢ . مفاخر البربر ص ٥٢ . القلشندي :

صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٦) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣ .

(٧) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٢ . مفاخر البربر ص ٥٢ . ابن خلدون

قبلاً أن يتقدم لحرب قبيلة برغواطة ، ويذكرون أيضاً أنه قتل في نفس هذه السنة وفي نفس هذه الحرب ، وقد رأينا كيف أن الملتزمين دخلوا بلاد السوس الأقصى سنة ٤٤٩ هـ ، فلا يعقل أن يكونوا قد وصلوا أغمات في نفس السنة مع بعد الشقة بين إقليم السوس الأقصى ومنطة أغمات . وإذا كانت حملة إقليم الواحات قد استغرقت أكثر من عامين ، فلا يبعد أن يكونوا قد دخلوا منطقة أغمات في أواخر سنة ٤٤٩ هـ ، أو أوائل سنة ٤٥٠ هـ . ويخيل إلينا أن هذا الرأي هو أقرب هذه الآراء إلى الحقيقة .

ويبدو أن المرابطين بعد أن تم لهم النصر في أغمات وتلدلة ، لم يواصلوا الفتح على الفور فقد بقيت قواتهم بمدينة أغمات حتى سنة ٤٥٢ هـ . ويخيل إلينا أن ذلك راجع إلى ما ذكرناه من مقتل عبد الله بن ياسين قائد المرابطين وإمامهم ، واضطرابهم إلى اختيار من يخلفه . على كل حال يذكر المؤرخون أنهم قد عاودوا الهجوم سنة ٤٥٢ هـ^(١) ، بعد أن خلصوا من مشاكلهم ، وتم اختيار خلف لعبد الله بن ياسين . وكان الهدف الذي يسعون إلى تحقيقه هو القضاء على القوات البترية الأخرى ، التي هزمت في معركة أغمات وتلدلة ، وفرت إلى الشمال لتلج شعنها ، وتعود إلى مصارعة الملتزمين من جديد ، فقد أنقضت قوات المرابطين على ديار بني يقرن ، وأزولوا بهم هزيمة ساحقة ، ففروا إلى الشمال إلى منطقة فاس ، يلودون بأمرائها الزناتيين ، واحتل المرابطون مدنت فازاز ، ولوانه ومكناسة^(٢) .

ويبدو أن صدى هذه المعارك الحامية الوطيس التي كانت محتدمة بين البرانس والبتري قد ذاع في المغرب كله ، وأخذت القوات البترية والبرنسية المنبثة في بلاد

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٢ . مسبع الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥ .

المغرب تهيأ لا متشاق الحسام دفاعاً عن كيانه ، فقد روى المؤرخون أن بلسكين الحمادي خنف إلى المغرب الأقصى ، ليمد يد العون لبني عمومته الملمشين أبناء صنهاجة الجنوب في هذه المعركة التاريخية الدائرة الرحي .^(١) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ الإحساس الوثيق بالقرابة بين صنهاجة الشمال ، وصنهاجة الجنوب وإعتقادهما أنهما يقاقلان عدواً مشتركاً ، يشتركان في كرهه ، والرغبة في القضاء عليه ، وقد دخل بلسكين مدينة فاس ، وطعن الزناتيين من الخلف ، ولكنه ما لبث أن ارتد إلى المغرب الأوسط مرة أخرى .

ومهما يكن من شيء فقد تنخفضت حركته عن أحداث اضطراب في صفوف الزناتيين ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا بين عدوين كبيرين ، وكانت البطون الصنهاجة الأخرى المنتشرة في أرجاء المغرب الأقصى تنضم لجيش المرابطين ، وتخف إلى نجدتهم ، وتقدم لهم المعونة الصادقة^(٢) ، ويبدو أن تيار الفتح كان قد بلغ مداه ، وأن له أن يتوقف بعض الشيء . فقد توقفت حركات المرابطين ، وكفوا عن الزحف حتى سنة ٤٥٤ هـ . ومما يساق في تفسير ذلك التوقف أن بعض القوات المرابطة اضطرت إلى السير نحو الجنوب ، لإخضاع ثورة قام بها الزنوج^(٣) كما أنه بقي على المرابطين قبيل أن يخوضوا المعركة الكبرى التي ستقرر المصير المغرب كله أن يستعدوا لها كل الاستعداد ، فيرمحوا الجند ، وينظموا شئون البلاد ، ويؤمنوا القبائل ، حتى إذا انصرفوا إلى الفتح لم يطعنوا من الخلف ، فتذهب ريحهم ويتفرق شملهم ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن تأمين البلاد المفتوحة ، وإقرار السكينة بين ربوعها خير من التعجيل بزحف لا تؤمن مغيبته

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٥ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤

Julien, (op. cit.) p. 379. ,Gautier (op. cit) p. 377..

(٢) De la Chapelle : Esquisse d' une Hist. de Sahara p 62. (٢)

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥ .

لذلك اختطوا مدينة مراکش في هذا الوقت بالذات ، أعنى سنة ٤٥٤ هـ ^(١) ، لتكون معسكرا لقواتهم تستطيع أن تقيم فيه ، وهي مطمئنة كما تستطيع أن تتخذها نقطة إرتكاز تتدفق منها صوب أهدافها الجديدة .

أفاد المرابطون حقا من هذه الهدنة الطويلة التي أعقبت فتح أغمات ، فقد أخذوا يتهيأون للمعركة الكبرى التي سوف تحتدم على بطاح إقليم قاس ، ويخيل إلينا أنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أهمية هذا الاشتباك الكبير ، الذي يقفون فيه أمام القوى الزناتية وجها لوجه ، لذلك عنوا بالجيش عناية فائقة ، وأمعنوا في تنظيمه وتسليحه ، فاستكثروا من الجنود ، واتخذوا الطبول ، والبنود ، وجعلوا في جيشهم الأغزاز والرماة ، كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب ^(٢) ، حتى لقد قيل إن الجيش المرابطي بلغت عدته أزيد من مائة ألف فارس ^(٣) ، وهو قول وإن بواغ فيه بعض الشيء ، إلا أنه يدل على أن ذلك الطابع البدوي الذي كان من سمات القوات المرابطية الأولى قد بدأ يختفي وبدأت الجيوش تنظم على أساس حديث .

ويبدو أن سياسة المرابطين في استرضاء قبائل المغرب ، وتأليف قلوبها قد أتت أكلها ، وأقبل المصامدة على الاشتراك في الجيش ، وانخرطت في سلكه الفرق الزناتية ، وبعض فرق من برغواطة نفسها ^(٤) ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المرابطين بدأوا يضعون أيديهم على موارد حرية هائلة ، سواء في الرجال أم في الأموال ، وبدأت الدولة تخلص من الطابع الصحراوي نهائياً ،

(١) ابن بسام : الفخيرة (مخطوط بغداد) ، القسم الثاني ص ١٤ . ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٤ . صحيح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .
(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٩ .
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٤) للرجع السابق ونفس الصفحة .

وتتخذ طابع الدول التي قامت على مسرح المغرب من قبل ، وأخذت منذ ذلك الوقت تتخذ سياسية مغربية صرفة ^(١) .

وبعد أن تم استعداد المرابطين ، وتم تهيوهم قرروا خوض المعركة ، والمضى بتيار الزحف قدما ، وهنا نجد أن الإحن القبلية تتحكم فيها مرة أخرى ، فبدلا من أن ينقضوا في غزوات خاطفة ضوب الشمال ، بجذاء البحر بعيد أن هزمت برغواطة ، نجدهم ينحرفون صوب الشمال الشرقي ، صوب ديار زناتة عدوهم اللدود ويخيل إلينا أن المرابطين كانوا محقين إلى حد ما ، لأنه لا تطمن قلوبهم وهذا العدو المرهوب جاثم بمدينة فاس وضواحيها مستعد للأخذ بناصيتهم في كل حين ، كما كانوا يدركون أن مدينة فاس ، والوادي الذي تقع فيه مركز الثقل في المغرب الأقصى كله ، موارده متوفرة ، وحضارته راقية ، كما أن من يسيطر على فاس يستطيع دون عناء إذا توفرت له القوة أن يتحكم في السهول الشمالية كلها ، لذلك قرر المرابطون التقدم صوب فاس مهما كلفهم ذلك من تضحيات .

وما كاد الزناتيون وحلفاؤهم يشعرون بذلك ، حتى أخذ القاسم المكناسي ينظم المقاومة في وجه المرابطين في الشمال الشرقي ^(٢) ، ولكن ما كاد هذا الأمير يلتحم بجيوش المرابطين ، حتى حلت به الهزيمة ، ولاذ بالفرار ، ودخل الزاحفون مدينة مكناسة ، وفرقوا شمل القبائل الزناتية الضاربة بالقرب منها ، ثم تابعوا الزحف فاستولوا على قلعة مهدى ، وصيفرو دون عناء ، ولكنهم ما كادوا يتقدمون مرة أخرى ، حتى تألفت قبائل زواشه ، ولماية ، وصدينة ، وسدراته ، ومغيلة ومديونة واتخذوا مدينة مديعة معقلا لمقاومتهم ^(٣) . ولكن المرابطين تمكنوا من اقتحامها ، ودخلوها بالسيف ، وقتلوا من البتر أعدادا غفيرة ، وبذلك فتح

(١) Terrasse : Hist' du Maroc, p. 119

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

الطريق إلى فاس ، وزحف المرابطون يقصد الإستيلاء على هذه المدينة الهامة ،
والمؤرخون يجمعون على أن المرابطين دخلوا مدينة فاس للمرة الأولى سنة ١٠٥٥ هـ^(١) ،
وهذا تاريخ مقبول إلى حد ما ، وخال من المغالاة ، وإن كان صاحب كتاب
جامع تواريخ^(٢) فاس يذكّر أن ذلك تم عام ١٠٤٦ هـ . ويبدو أنه قد خلط بين
الحملة الأولى والثانية .

ويبدو أن المرابطين بعد هذه الانتصارات الملاحقة قد أعجلهم الطمع ،
فتركوا بمدينة فاس حامية ضئيلة ، ثم أخذوا يتقومون صوب الشمال في بلادهم^(٣) ،
بقصد الالتفاف حول مدينة طنجة ؛ والإستيلاء عليها ، ونسوا أن العدو لهم
بالمرصاد .

وكانت القوى الزناتية فعلا تترصد بهم الدوائر ، وكانت القبائل الزناتية
طوال تاريخها لا تعرف اليأس ، فامتداد تحقيق بها الهزيمة ، ويظن الناس أنها
القاضية حتى تتحد من جديد ، وتنجف إلى النضال والمقاومة ، وفيلا استمرزوا فرصة
توسع المرابطين صوب الشمال ، فأشعلوا نار الفتنة ، ونشبت معارك عنيفة تذكرونا
بتلك المعارك الحامية الوطيس ، التي نشبت في بلاد المغرب بين البرانس والبر
طوال القرون السالفة .

وروايات المؤرخين^(٤) فيما يتعلق بهذه المقاومة متضاربة أشد التضارب ،
مختلفة أشد الاختلاف . ومهما يكن من شيء فقد روى صاحب روض القرطاس^(٥)

(١) ابن القاضي : خذوة الاقتباس ص ٥٢ . الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٧ .

(٢) جامع تواريخ فاس ص ٢٠ .

(٣) الفلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٧ .

(٤) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٥ . ابن أبي زرع : ص ٧٠ ، ابن خلدون .

ج ٦ ص ١٨٥ . جامع تواريخ فاس ص ٢٠ . صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٧ . الأعراف

ج ١ ص ٢٧ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٠ .

أن المرابطين أرسلوا إلى حليفهم المهدي بن يوسف الكزنائي زعيم مكناسية ، يطلبون إليه السير بقواته صوب الشمال للمساهمة في فتح السهول الشمالية ، فما كاد المهدي يهيم بالمسير حتى كانت القوات الزناتية قد لمت شعنها ، وتقدم تميم ابن معنصر بن المعز بن زيري ، يعاونه بنو موسى بن أبي العافية ملوك زناتة بتوسل^(١) ، والتقوا بالمهدي فهزموه شر هزيمة ، وخر صريعا في الميدان ، وأرسل المكناسيون يستنجدون بقائد المرابطين سنة ٤٥٦ هـ^(٢) فبعث المرابطون نجدة تنقذ حلفاءهم من برائن الزناتيين ، خصوصا بعد أن اقتحصم الزناتيون مدينة فاس وقتلوا الحامية المرابطية^(٣) ، ونكلوا بها شر نكل ، وقد أحاطت قوات الملتزمين بمدينة فاس ، ولكن الزناتيين قاوموا مقاومة رجل واحد ، ثم خرجوا للقاء المرابطين خارج أسوار المدينة ، فأوقعوا بهم وهزم المرابطون هزيمة نكراء^(٤) ، وأصبح موقفهم في غاية الخطورة ، وكادت تضع جميع الجهود التي بذلت في فتح منطقة فاس . كما خشوا أن تنتشر أخبار هذه الهزائم ، وتتألب القبائل التي استكانت ، وحالفت المرابطين خوفا من بطشهم ، فاضطر قائد المرابطين إلى أن يعود أدراجه إلى مدينة فاس مرة أخرى ، وأحاط بها إحاطة السوار بالمعصم^(٥) وشرع يسترد البلاد المحيطة بها ، حتى عزلها عن الجهات المجاورة لها^(٦) . وقد اضطرت المدينة بسبب اشتداد وطأة الحصار إلى التسليم ، فدخلتها قوات المرابطين ونكلت بالزناتيين ، وقتل أغلبهم ، وفرت البقية الباقية منهم إلى المغرب الأوسط حتى لقد قيل إن عدد من قتل من بني يفرن وزناتة ثلاثة آلاف ، وأمعن يوسف

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) جامع تواريخ فاس ص ٢٠ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٠ .

(٥) المرجع السابق ص ٧٠ .

(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة .

في التنكيل بأهل فاس ، كما هدم أسوار المدينة هدمًا . وبسقوط مدينة فاس
تنتهى الحلقة الأخيرة من حلقات ذلك الصراع العنيف الذى احتدم بين زناتة
وبين صنهاجة الجنوب ، وقد تفرق شمل زناتة ، ولم تعد لها بالمغرب الأقصى قوة
تذكر . وللاستيلاء على فاس أهمية بالغة الأثر ، فقد فتح الطريق أمام المرابطين
ليتموا فتح الأقصى كله ، ويستولوا على السهول الساحلية ، كما أنه يمثل بدء
احتكاك المرابطين بالحضارة المغربية الأندلسية ، التى كانت مزدهرة بفاس
وبالسهول الساحلية من إقليم الريف .

ومهما يكن من شيء ، فقد نجح المرابطون في القضاء على قوة الزناتيين
بالمغرب الأقصى ، ولكن بقيت بعض فلولهم بالمغرب الأوسط تتحفر للنضال من
جديد . وكان المرابطون يودون لو انصرفوا إلى السهول الشمالية لإتمام فتحها ،
فتكمل سيطرتهم على إقليم المغرب الأقصى جميعه ، ولكنهم آثروا أن يشموا قصة
الصراع مع الزناتيين ، ويمضوا فيها حتى نهايتها . فقد رأينا كيف خفت بعض
البطون الزناتية بالمغرب الأوسط إلى نجدة الزناتيين بفاس ، ورأينا كيف أن
بعض البطون الزناتية قد آوت إلى المغرب الأوسط ، لتتجمع فيه ، وتتهيأ للقيام
بعداون جديد ، فأثر المرابطون أن ينقضوا على المغرب الأوسط ، فباتوا على
المقاومة الزناتية ، ويضعوا لها حدا ، حتى ينصرفوا إلى فتوحهم مطمئنين .

ويخل إلينا أنه لو أن الدولة الحمادية كانت قوية في ذلك الوقت ، لاطمأن
المرابطون وانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية تاركين أمر زناتة المغرب الأوسط
إلى بنى عمومتهم ، ولكن حدث في ذلك الوقت أن بدأت جموع الأعراب بعد
أن اجتاحت إفريقية تطرق أرض بنى حماد ، فشغلوا عن المغرب الأوسط ، ولم
يستطيعوا أن يقاوموا الزناتيين مقاومة الند للند . لذلك لم يتردد المرابطون في
التوسع صوب الشرق ، فاستولوا على وادى ملوية ، ومدينة ومطاط ، ووجدوا^(١)

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٥٨ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

وانقضوا على إقليم تازا ، وأوقعوا بالقاسم بن أبي العافية عند أقرسيف^(١) ، ثم انقضوا على مدينة تلمسان وفتحوها^(٢) كما فتحوا وهران وتنس ، وبلغت قواتهم مشارف إقليم الجزائر . وكان من الممكن جدا أن يتم لهم فتح أفريقية ، لو كان بنو نيتهم المضي إلى فتحها ، لأن هذه البلاد إذ ذاك كانت قد تمزقت وحدثها ، وأصبحت صنهاجة الشمال يسبب عرب بنو هلال بأضرار جسيمة . إنما يخيل إلينا أن المرابطين وقفوا عند حدود الجزائر ، ولم يجاوزوها ، لا إشفاقا من فتح أفريقية إنما إبقاء على صلات القرى بينهم وبين بني حماد .

تمخضت هذه المعارك الخطيرة ، وهذا الكفاح الطويل الذي استمر نحو عشرين عاما (٨٤٤٧ — ٨٤٦٧) عن نتائج بعيدة الأثر في تاريخ البرانس وتاريخ صنهاجة — ربما لأول مرة — منذ وقت طويل تسيطر على إقليم المغرب كله ، فتسيطر صنهاجة الشمال على أفريقية ، بينما تسيطر صنهاجة الجنوب على المغربين الأوسط والأقصى ، فارتفع شأن البرانس ، وتقلص نفوذ البتر ، وأصبح المرابطون سادة المغرب دون منازع . نعم كفاح طويل مرير اذ كتته العصبية المتأججة ، واستمر عشرين عاما حافلة بالكفاح .

وقد نسأل لم استغرق المرابطون في فتح المغرب هذه السنين الطويلة ، على حين استطاع الفاطميون وحلفاؤهم أن يوغلوا في المغرب كله ، في سنوات قلائل يخيل إلينا أن السبب في ذلك يرجع إلى الطرق التي سلكها الفاطميون ، وتلك التي سلكها المرابطون . فقد سلك الفاطميون الطرق والوديان المؤدية من الشرق إلى الغرب ، وهي وديان سهلة العبور تستطيع القوات المتفوقة أن تمضي فيها قدما ، لكن التوغل حتى ساحل المحيط لا يعني فتح المغرب الأقصى كله ، إذ تبقى

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٨ .

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٢١ .

بعد ذلك المناطق الهضبية ، والجبلية ، والصحراوية . أما المرابطون فقد جاءوا من الجنوب ، وفتحوا إقليم الصحراء ، ثم توغلوا في المغرب الأقصى يفتحونه إقليما بعد آخر . لم يتركوا ناحية إلا أوغلوا فيها ، سواء في الهضاب أو الجبال أم في السهول ، لذلك استغرقوا هذا الوقت الطويل ، وجاء فتحهم للمغرب أتم من أى فتح آخر .

٦ — تعاليم ابن ياسين وأثرها في فتح المغرب :

وهناك دوافع أخرى غير العصبية القبلية كانت ذات أثر بالغ في توجيه حركة فتح المغرب ، بل في إتمام فتح هذه البلاد . ذلك أن قبائل الملشين لم تخرج من مضاربها متجهة صوب الشمال بدافع الغزو والانتقام من الزناتيين المسيطرين على المغرب الأقصى فحسب ، بل خرجت بقصد الإصلاح يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن فقهاء سجلماسة أرسلوا إلى المرابطين يرغبونهم في الوصول إلى بلادهم بقصد تخليصها مما تعانيه من بؤس وشقاء ، وبقصد القضاء على البدع والمنكرات التي كادت تعصف بالمجتمع الإسلامي في ذلك العصر^(١) ، ولأول مرة منذ الفتح الإسلامي تخرج جيوش غازية ، لا حبا في الغزو والفتح ، أو بسط رقعة الدولة فحسب ، بل حبا في الإصلاح ورفع لواء الدين . نعم خرجت هذه القبائل أيضا لإقامة العدل وإظهار السنة^(٢) .

ومما يؤسف له أن المراجع لم تمدنا بتفصيلات وافية عن هذه الإصلاحات العظيمة ، التي أدخلها المرابطون على المجتمع المغربي ، بل هي مجرد إشارات غامضة مبهمه ، لا تشفى غلة ، ولا تنفع صدى ، لأن سير الفتوح والغزو على ما يبدو قد طغت على سير الإصلاح . فصل المؤرخون القول في الحروب والمعارك ،

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٢ .

وأجملوا أخبار الإصلاح إجمالاً. ومهما يكن من شيء فإن لنا ما حدث في سبيل سياسة أسوء ، لأن السياسة التي التزمها المرابطون في هذه المدينة هي نفس السياسة التي التزموها في الصحراء عند فتح أودغشت ، ولعلها هي نفس السياسة التي التزموها في فتح المغرب ، بل في فتح الأندلس . فقد ذكر المؤرخون « أنهم أصلحوا أحوال سبيلاسة ، وغيروا ما فيها من المنكرات ، وقطعوا المزامير وأحرقوا الديار التي كان بها بيع الخمر^(١) » . أعنى أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر وحاربوا البدع حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة ، وكانوا في الوقت نفسه يقربون الفقهاء والعلماء^(٢) ، وينصرون المستضعفين من الطبقات الفقيرة المضطهدة . وقد تسامع الناس في كافة بلدان المغرب بأخبار هذه الإصلاحات الجديدة ، فهزت مشاعرهم ، وتناقلها الناس ، وتقبلوها قبول المندعش ، لأن الناس طوال ذلك العصر اعتادوا أن يسمعوا قصص العسف والجور والظلم ، « شاع خروج لمتونة من الصحراء واستيلاؤهم على بلاد المصامدة ، وخلعهم لموكهم وناموس عدلم^(٣) » . ليس من شك في أن هذه السياسة الإصلاحية كانت أبلغ أثراً من السيف ، فكانت تمهد الطريق أمام القوات الزاحفة ، وتفتح أبواب أمنع الحصون ، وأقواها ، وربما يرجع الفضل إلى هذه السياسة في استسلام قبائل المصامدة دون مقاومة تذكر ، واستسلام غيرها من القبائل ، إذ لا شك في أن الغالبية من الناس فقيرة مستضعفة تخف إلى تأييد أمثال هذه الحركات الإصلاحية التي تفتح أمامها آفاقاً جديدة من العدالة والمساواة ، فقد كان المرابطون « يقيمون

(١) روض القرطاس ص ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٦٤

العدل ويظهرون السنة^(١) ، وكان الناس يقارنون بينهم وبين ملوك زناقة
الفاشمين المستبدين . نعم كانت هذه السياسة أشد وقعا من السيف ، وكأي
الإصلاح يعقب الفتح ، أو إن شئت فقل كان الفتح والإصلاح يسيران جنبا
إلى جنب .

وقد لجأ المرابطون إلى وسائل أخرى لتأليف قلوب الناس وكسب ثقتهم ،
فقد كانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء^(٢) في كافة جهات المغرب
وليس من شك في أن الفقهاء ورجال الدين في بلد مثل المغرب كانوا في ذلك
الوقت للقادة الحقيقيين للشعب ، يوجهونه كيف شاءوا ، فلا نعجب إذا رأينا
المرابطين يعملون على كسب ودهم واسترضائهم طمعا في استرضاء الرعية وكسب
ودها ، لذلك كان المرابطون يستقبلون في كل بلاد يحلون فيها استقبال المنقذين
المخلصين . وبدا واضحا لكافة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح والغلبة ،
ولكن لإحياء الدين ، وتطهير المجتمع من الفساد . وليس هذا بقول مبالغ فيه
فقد كان المرابطون فعلا يتغيون الإصلاح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فكانوا
يقتصرون في الضرائب على أخذ الزكاة والعشر ، ويسقطون ما سوى ذلك من
المغارم المحدث^(٣) ، ولا يخفى أثر هذه السياسة في المغرب الأقصى ، لأن الزناتيين
كانوا كما رأينا قد أثقلوا كاهل الناس حتى كادت البلاد يعمها الخراب ، لذلك
لا نعجب إذا وجدنا طريق الفاتحين ميسرا في أغلب الجهات التي نزلوا بها ، وكان
الناس يرحبون بهم ، ويستبشرون بمقدمهم ، « والبلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد
تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه . فانتالوا عليه أثيال الجياع على الوليمة وتباشروا به
تباشر البلد بالديمة^(٤) » ، حتى لقد أصبحوا في نظر الكافة المنقذين الذين بعثتهم

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

(٤) الذخيرة (مخطوط بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٢ .

العناية الإلهية لإنقاذ الناس من المذلة والفقر والعبودية وإن المرء ليعجب لهذه القبائل البدوية التي استطاع عبد الله بن ياسين أن يحقق فيها المعجزة حين ردها عن طريق الإغارات إلى طريق الإصلاح .

ظلت هذه السياسة الحكيمة سياسة الإصلاح توجه حركات فتح المغرب ، وتمتد يد العون لقواد المرابطين حتى بعد وفاة عبد الله بن ياسين ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إن هدف فتح المغرب بقصد الإصلاح لا يفر قوة عن هدف فتح المغرب للقضاء على قوة زناتة وجبروتها ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا أيضاً إن محاربة زناتة ربما كان القصد منها إلى جانب الانتقام بوحى من العصبية القبلية تخلص المغرب من شرها وطغيانها .

وكانت صيحة الجهاد في سبيل الدين^(١) لا تقل أثراً في توجيه جيوش الفتح عن صيحة الإصلاح وانصاف الطبقات المظلومة ، فكدت القبائل الزناتية تنقض على الحامية المرابطية بسجلماسة ، وتستعيد ما فقدته حتى أعلن عبد الله ابن ياسين الجهاد ، واعتبر الزناتيين ناكثين للعهد ، يحرق قتلهم وقتلهم ، وقد أذكت هذه الصيحة الحمية في قلوب الملثمين فألفت بينهم ، وانقضوا على الزناتيين انقضاض الصاعقة ، فشتتوا شملهم ، واستعدوا بسجلماسة ، ومنطقة الواحات الصحراوية .

وإذا كنا قد أشرنا إلى أنه كان من الواجب أن يمضى المرابطون بعد فتح سجلماسة قدماً صوب الشمال ، وبينما أنهم عدلوا عن ذلك لأنهم خافوا أن ينقض المصامدة على جناحهم الأيسر فيوقعوا بهم ، فيجب أن نضيف هنا أنهم اتجهوا إلى الغرب صوب ديار المصامدة ، لا للقضاء عليهم فحسب ، بل للجهاد أيضاً ، فقد كانت بمدينة تارودانت ببلاد السوس الأقصى طائفة من الشيعة ،

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٥٩ .

يقال لهم البعلية — نسبة إلى علي بن عبد الله البجلي الرافضي — قدموا إلى السوس الأقصى زمن أبي عبد الله الشيعي ، وزمن فتوح الفاطميين في المغرب الأقصى ، وقد نشروا مذهبهم وتوارثوه جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن ، « لا يرون الحق إلا ما في أيديهم »^(١) ، فقرر المرابطون أن يعلنوا عليهم الجهاد بقصد ردهم إلى الطريق القويم . وقد روى المؤرخون أن الملتزمين اقتحموا مدينة تارودانت ، وقتلوا من الشيعة أعداداً كبيرة ، وحملوا أهل البلاد على أن يسلموا^(٢) إسلاماً جديداً ، أعنى أن المرابطين طبقوا نفس السياسة التي طبقوها في الصحراء حين كانوا يضطرون الناس إلى أن يسلموا إسلاماً جديداً ، ويبايعوا بيعاً جديدة . وكانت حملة السوس الأقصى فوق ذلك ترمي إلى القضاء على اليهودية التي كانت قد استقرت في إقليم الصحراء منذ عهد بعيد ، وانتشر اليهود في توات وتافلت ووادي درعة ووادي نون ، وسيطروا على الحياة الاقتصادية ، وليس بعيد أن يكون المرابطون قد حملوا أكثرهم على الإسلام ، وإن كانت بعض بقايا اليهود لا تزال بالمغرب حتى اليوم^(٣) .

وبعد أن تم للمرابطين فتح أعماق على ما رأينا علت صيحة الجهاد من جديد ، يقصد القضاء على قبائل برغواطة الضاربة على ساحل المحيط ، والمسيطرة على المسالك المؤدية إلى إقليم طنجة^(٤) . وكان المرابطون في الواقع في زحفهم تحركهم أسباب حربية ودينية ، فقد كانت هذه القبائل تحتل منطقة جبلية وعرة المسالك ، وكانت معروفة دائماً بشدة المراس ورباطة الجأش ، والاستبسال في الدفاع ، كما كانت تسد الطريق إلى طنجة ، ذلك الثغر الهام الذي لم يكن بد من الاستيلاء عليه ، لمن يريد أن يتحكم في السهول الشمالية .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) De la Chapelle : Esquisse d'une Hist. de Sahara p. 51 .

(٤) الحسن الموشى في الأخبار المر كشية ص ١٤ .

وقد ظهر أمية قناتل برغواطة سنة ١٢٧ هـ في خلافة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وأخذوا يبشرون عقائدهم الضالة^(١) ، وقد حاوت القوى التي سيطرت على المغرب الأقصى أن تقضى على بدعتهم ، وتردهم إلى الطريق القويم ، وتطهر المغرب من شرهم . فقد هاجمهم بلكين بن زيري الصمعي ، واشتبك معهم في حرب طاحنة وهزمهم^(٢) ، ولكنهم ظهروا من جديد . وحاربهم واضح الفتى عامل المنصور بن أبي عامر ، فخرج لغزومهم ، وأثنى في ديارهم^(٣) . وقتلهم الزناتيون . ولكن هذه القوى جميعها لم تتمكن من القضاء عليهم ، فلم يجد المرابطون بقيادة عبد الله بن ياسين بداً من أن ينقضوا على مواطنهم في معركة دامية جرح فيها عبد الله حتى أشرف على الهلاك . ولم يهن المرابطون بسبب وفاة إمامهم^(٤) ولم يضعفوا ، بل اختاروا إماماً غيره استشهد هو الآخر في ساحة القتال ، واضطر أبو بكر بن عمر أن يقود المجاهدين من المرابطين ، وأن يمضي في الحرب حتى « أذل برغواطة وفروا بين يديه وهو في أثرهم يقتل ويسبي حتى أثنى فيهم وتفرقت برغواطة في الشعاري وأذعنوا له بالطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً ولم يبق لديانتهم أثر^(٥) » . وبذلك استطاع المرابطون أن يحققوا غرضين : فتحوا الطريق إلى طنجة ، واستأصلوا هذه العقيدة الضالة من المغرب الأقصى .

(١) مفاخر البربر ص ١٢٨ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٦ . للمفاخر ص ١٨٠ . ابن خلدون ج ٦

ص ٢٠٩ .

(٣) مفاخر البربر ص ٣٦ .

(٤) بن أبي زرع . روض القرطاس ص ٨٣ .

(٥) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١١ . روض القرطاس ص ٨٥ ، ابن خلدون

ج ٦ ص ٢٩٩ .

٧- العامل الاقتصادي وأثره في فتح المغرب :-

ولكن يجب ألا ننقل أهمية العامل الاقتصادي في فتح المغرب ، بل
ألا نكون مغالين إذا قلنا إن الدوافع الاقتصادية كانت ذات أثر بالغ في توجيه
غزوات المرابطين ، واستنهاض هممهم لفتح بلاد المغرب . خرجت القبائل الملتمة
من الصحراء تريد الإصلاح ، وتريد الأخذ بذلك الثار القديم بين البرانس والبترا ،
ولكنها كانت مضطرة إلى أن تجد مجالا لتعيش عيشة رخية ، فقد ذكر المؤرخون
أن أعداد القبائل الملتمة قد زادت وتضاعفت حتى ضاقت الصحراء بهم^(١) ،
وكان يجب عليهم أن يلتمسوا مواطن جديدة ، وكانت منطقة الواحات الصحراوية
لا يستطيع أن تعول عددا كبيرا من السكان ، لأن مواردها محدودة ، ورقعتها
ضيقة ، وكان أهلها إذا ضاق بهم العيش انصرفوا إلى الشمال صوب الأراضي
الخصبة والعيشة الرغيدة^(٢) ، كما ذكر المؤرخون أن ديار الملمين قد قحطت في
ذلك الوقت « فمات مواشيهم ولقوا شدة عظيمة فأمرهم عبد الله بالخروج إلى
السوس »^(٣) . ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن بلاد الملمين أصيبت بضائقة مالية
في ذلك الوقت بالذات ما رواه النويري « من أن أبا بكر سار في أطراف البلاد
إلى مدينة سجلماسة فنزل عليها وطلب أصحابه من أهلها الزكاة فقالوا له أنكم لما
أتيتمونا في عدد قليل وسعكم فضلنا والآن فضعتونا فيهم كثرة وقد آثرناكم سنين
وما هذه حالة من يطلب الزكاة بالسلاح والخيول إنما أتم محتالون ولو أعطيناكم
أموالنا بأسرها ما رغبتم بها »^(٤) .

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٢) Terrasse : op. cit. p. 218 .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٧٦ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٧ .

هذا إلى أن زناتة كانت تحتكر تجارة المغرب، وتتم منذ البداية بطرق القوافل، وبالتجارة الذهابية إلى الجنوب^(١)، فلما أصبحت مدينة سجلماسة وغيرها من واحات الصحراء بمثابة موانئ لهذه التجارة الناقصة استولت زناتة على إقليم الواحات ليشدد من قبضتها على هذه التجارة. وكانت زناتة في الواقع تحتكر سوق الأندلس بسبب صلتها الوثيقة بالأمويين^(٢). وكانت السلع الآتية من السودان تصادف رواجاً لا بأس به في أسواق الأندلس، وكانت صنهاجة تقنع بنصيب متواضع، كانت قائمة بمجرد المشاركة في نقل هذه المتاجر من أسواق الجنوب إلى أسواق الشمال^(٣)، ولكن حدث بعد سقوط الخلافة الأموية واضطراب شئون الأندلس أن فقدت زناتة سوق الأندلس، ولم تعد تستولى على الأرباح الطائلة التي كانت تصيبها من قبل، فاضطرت أن تفرض على التجارة وعلى القوافل رسوماً جائرة تعوض الخسارة التي أصابتها^(٤)، فنفرت المتاجر وبدأ التجار يتبرمون بسوق المغرب الأقصى، وأثر ذلك في انوارد التي كانت صنهاجة تستولى عليها، لذلك لا نحب إذا رأينا صنهاجة الجنوب تتجه أول ما تتجه إلى إقليم الواحات لا نزاعه من زناتة، حتى تستطيع أن تتحكم في هذه التجارة الصحراوية الرائجة.

وهناك ناحية أخرى يجب ألا ننقلها، وهي أن القبائل البدوية عادة إذا خرجت غازية، أو مهاجرة خرجت برجالها ونسائها وأطفالها بقصد الاستقرار والإستيطان في البلاد المفتوحة، لذلك يغلب على الظن أن للثمين خرجوا إلى إقليم الواحات على هذه الصورة، وليس بعيد أن تكون هذه الأسر المهاجرة.

De la Chapelle : op. cit. pp. 57—58. (١)

Ibid, p. 60. (٢)

Ibid, pp. 57—58. (٣)

De la Chapelle : Esquisse d'une Histoire de Sahara Occid. (٤)
pp. 57—58.

قد استقرت في البلاد التي كانت تعمرها زناتة من قبل ، ويخيل إلينا أيضا أن هذه المعسكرات التي كان المرابطون يعمدون إلى إقامتها مثل تبليلا ومراكش ، إنما كانت بقصد العناية بهذه الأسرات المستقرة مخافة أن ينقض عليها الأعداء فيجلبونها عن البلاد التي استوطنتها . وكانت الفنائم والأسلاب التي توزع على الجند تغري بالفتح والتوسع ، وتحفز القبائل المتخلفة عن الركب إلى السير إلى المغرب والمشاركة فيما شارك فيه اخوانهم من قبل .

وكانت الحكومة الجديدة شأنها شأن الحكومات القبلية الأخرى تختص أبناء جنسها بالغنى ، وتفدق عليهم بقدر ما تستطيع ، فتذكي تيار الهجرة ، وتشد من أزره . وقد روى المؤرخون أن قائد المرابطين بالمغرب أرسل إلى قبائل المتونة ، وجدالة ، ومسوفة يرغبها في الاستقرار في البلاد التي فتحها ، ويزين لها الهجرة صوب الشمال ، حتى تجنى ثمار الفوز ، وتنعم بمطايب الحياة في بلاد المغرب ، فأخذت القبائل منذئذ تتسابق في الرحيل إلى المغرب في موجات متلاحقة للاستقرار والاستيطان^(١) ، فانتشرت الأسر الصنهاجية في هذه البلاد المفتوحة . يتبين ذلك من المقارنة بين ما كتبه كل من البكري والإدريسي عن إقليم الصحراء ، فقد وصف البكري ذلك الإقليم قبيل تحرك قبائل اللثمين ، كما وصفه الإدريسي بعد خروج القبائل ، ورحيلها إلى المغرب . لا حظ الإدريسي أن بني جدالة لم يعودوا أصحاب الكلمة الأولى في صحراء الجنوب ، كما لاحظ أن قبيلة مغراوة تحتل نفس المنطقة التي كانت تحتلها جدالة من قبل . أما كيف ذهبت مغراوة إلى الجنوب ، فمر تفسيره يسير ، ذلك أن القبيلة إذا اقتصرت طردت القبيلة المغلوبة على أمرها ، واحتلت ما بيدها من أرض خصبة فتضطر القبيلة المغلوبة على أمرها إلى الرحيل إلى وطن آخر تحيا

(١) Du Mas Latrie (op. cit.) p. 24.

(٢) الحلل للوشية في الأخبار للرا كشيقة ص ٢١ .

فيه مطمئنة بعيدة عن أى^(١) عدوان ، فلا بد أن مغراوة طردت إلى الصحراء ، وأن المهاجرين الجدد احتلوا المنطقة التي كانت جدالة تحتلها من قبل ، هذا إذن يفسر ذلك الاختلاف الواضح بين ما رواه البكري وما رواه الإدريسي .

٨ — العامل الجغرافي وأثره في فتح بلاد المغرب :

وهناك عامل آخر يرجع إليه الفضل في توجيه اهتمام المرابطين إلى استكمال فتح المغرب ، ونعني به العامل الجغرافي ، الذي يملئ على الفاتح الذي يستطر على بلاد المغرب الأقصى الواقعة إلى جنوب جبال الأطلس الساحلية أن يتم فتح الإقليم كله ، بالتوغل في ذلك السهل المسمى بإقليم الريف المشرف على البحر الأبيض المتوسط . ذلك أن الطرق والمسالك التي تتفرع من الجنوب متجهة صوب الشمال تيسر للفاطميين أن يوغلوا في تقدمهم صوب الساحل بنجاح ، إذا هم أفلحوا في القضاء على مقاومة القبائل البدوية الضاربة في منطقة الهضاب ، ويفرض العامل الجغرافي أيضا على الدولة المسيطرة على المغرب الأقصى أن تعمل على ضم إقليم الساحل الغني بموارده وموانيه وبأرضه الصالحة للزراعة ذات الإنتاج الوفير . سيطر الإدارة على ذلك الإقليم من قبل ، كما استولى عليه الأمويون ، واتخذوا سبتة وطنجة مقلا تتجمع فيه قواتهم لتوغل في البلاد^(٢) ، لذلك كان على المرابطين كي تتوطد أقدامهم في المغرب أن يتجهوا صوب إقليم الساحل لإتمام فتحه والاستيلاء على موانيه الهامة مثل سبتة وطنجة . فقد كانت هاتان المدينتان في الواقع مفتاح المغرب وهمزة الوصل بين العدوتين^(٣) .

يضاف إلى هذه العوامل أن البرغواطيين بعد أن سقطت الخلافة الأموية أفلحوا في إقامة إمارة بمنطقة سبتة وطنجة ، فطردوا عامل بني حمود ، واعتمدوا

(١) Cooley : The Negro Land of the Arabs p. 59.

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ . مفاخر البربر ص ٤ .

(٣) المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢٠ .

على قبائل غمارة للتمكين لأنفسهم^(١)، وبسط سلطانهم، كانوا في الواقع بمثابة شوكة في ظهر جيش المرابطين الذي أصبح يسيطر على منطقة فاس. نعم تم للمرابطين القضاء على غالبية برغواطة الضاربة على ساحل المحيط، إلا أن هذه الإمارة البرغواطية بقيت تسيطر على إقليم الساحل، وتتحكم فيه، وتشرف على منطقة المضائق، وتسيطر عليها، فقد كانوا يشتغلون بالقرصنة في البحر «أضرم أميرهم بلججة ناراً ولقي ريحة إعصاراً يأخذ كل سفينة غصبا» وأضاف إلى كل رعب رعباً فضجت منه الأرض والسماء والتفت الشكوى عليه والدعاء^(٢). «أضف إلى ذلك أن مينائى سبتة وطنجة بعدان مرافئ طبيعية لأسطول قوى يسيطر على المضائق، ويتحكم في تجارة الأندلس. وكان لا بد إذن للدولة التي تسيطر على المغرب الأقصى، وتبسط ظلها على الساحل من أن تتخذ أسطولا يحمي سواحلها، ويؤمن موانئها. يضاف إلى ذلك أن بقايا القوات الزناتية اعتصمت بمنطقة الدمنة قرب طنجة^(٣). ولم يكن من المعقول أن يترك المرابطون هؤلاء الزناتيين يعيشون في السهول الساحلية، ويستمدون العون من البرغواطيين^(٤). كل هذه الأسباب مجتمعة أملت على المرابطين أن يخفوا لفتح طنجة، وبسط نفوذهم على إقليم الساحل، أو إقليم الريف. ومهما يكن من شيء، فقد تقدمت القوات الملتمة صوب طنجة، قبضت على بقية الزناتيين واشتبكت مع البرغواطيين في معركة دامية انتهت بهزيمة أمير طنجة وقتله، ودخلت قوات المرابطين المدينة سنة ٤٧١ هـ^(٥). ويبدو أن المرابطين بعد فتح طنجة اتجهوا صوب الشرق، وأطبقوا على مديقة سبتة^(٦)، وحاصروها من البر، واشتركت بعض سفنهم في حصارها من البحر^(٧).

(١) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ ص ٤٤٣ . البيان المغرب ج ٣ ص ٢٥٠ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ج ٢٦٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ .

(٤) مفاخر البربر ص ٥٤ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٩ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ ، ٢٢٢ .

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٥ .

(٧) الذخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢ .

وهنا يحق لنا أن نسأل كيف تم للمرابطين بناء أسطول في هذا الوقت القصير ، وهم قوم بدو صحراويون ليست لهم خبرة بركوب البحر ، ليس يبعد أن يكون المرابطون قد استطاعوا بعد فتح وادي ملوية ، والاقتراب من الساحل إبتياح بعض السفن ، وشحنها بالرجال ، والأقوات ، وأصبحت هذه السفن نواة لأسطول المرابطين ، الذي لعب دوراً عظيماً في تاريخ النضال في حوض البحر الأبيض المتوسط .

وقد أثار المؤرخون ^(١) الذين رووا قصة حصار سبتة مسألة أخرى ، وهي أن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية بعث سفينة أعانت المرابطين على حصارهم سبتة . ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين أن المعتمد تطوع بمساعدة المرابطين في فتح هذه المدينة ، لأنه كان يفكر في أن يستنجد بهم لرد عدوان الفرنجة بالأندلس ، كما ذكروا أيضاً أن المرابطين قد وعدوه بالمساعدة إذا هم فرغوا من الإستيلاء على سبتة وطنجة ^(٢) ، ولكن ابن بسام ^(٣) يسوق رأياً يختلف عن الرأي السابق ، إذ يذكر أن سفينة المعتمد بن عباد كانت بميناء سبتة تمتاز وقت نشوب المعركة ، فطلب المرابطون أن تمد لهم يد المساعدة ، فلم يبخل بها في وقت كانت سفن المرابطين قد منيت بالهزيمة ، ودب اليأس في نفوس المقاتلة وكادوا ينصرفون عن فتح سبتة ^(٤) . وهذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن المعتمد بن عباد قد شارك المرابطين في القضاء على هؤلاء القراصنة ، الذين كانوا يتعرضون لسفن أشبيلية بالنهب والسلب .

وقد أفلح المرابطون في الاستيلاء على سبتة ، وقتل المعز بن سقوت ، وزفت بشري ذلك النصر إلى قائد المرابطين بمدينة فاس ^(٥) ، وتعتبر هذه المعركة في

(١) ابن أبي زرع . روض القرطاس ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) الذخيرة ، مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

الواقع من المعارك الفاصلة في تاريخ المرابطين ، بل في تاريخ المغرب ، فهي أول معركة تخوضها سفن الأسطول المرابطي الناشئة ، كما أنها وضعت أسس تقاليد بحرية عظيمة ستنمو وتزدهر ، وتؤتي أكلها بعد حين . نعم مكنت هذه المعركة المرابطين في إقليم الساحل الغني بمدنه الزاهرة ، وموارده الجمة ، ومعينة الحضارى الزاهر ، فتحت لهم السيادة على المغرب الأقصى كله ، وبسطوا ظلهم من أقصى الجنوب حتى ساحل البحر في أقصى الشمال ، ولعمري أنه لنصر لم يسبق له مثيل منذ عهد موسى بن نصير ، فالأمويون مثلاً سيطروا على إقليم الساحل ، وتوغلوا في المغرب الأقصى ، إلا أنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد كلها هذا التوحيد الذي حققه الملتزمون .

٩ — ظهور يوسف بن تاشفين وسياسه في فتح بلاد المغرب :

كللت جهود المرابطين بالنجاح ، وعقد لهم لواء النصر على هذا النحو بفضل قائد عظيم ظهرته الحوادث وساقته المقادير ليدير دفة الحرب في هذا الوقت العصيب وقد عظم ذكره بالمغرب ، وملك المدائن المتصلة بالبحر مثل سبتة وسلا وطنجة وغيرها ^(١) ، «وكانت البلاد تنقاد بحكمه والمنابر تكاد تهل باسمه وسمع الرعية بمقدمه فانشأوا عليه انشال الجياع على أولية وتباشروا به تباشروا البلد بالديمة ^(٢)» . ذلكم هو يوسف بن تاشفين اللامتونى ، فما هو الدور الذي اضطلع به هذا القائد المظفر في بناء صرح الدولة الجديدة .

الواقع أننا لا نكاد نعرف شيئاً يذكر عن حياة يوسف بن تاشفين في الصحراء حتى كان خروج الملتزمين إلى المغرب غازين قاتحين ، فبدأنا نسمع به لأول مرة حين ذكر المؤرخون أنه كان قائد مقدمة الجيش المهاجم ^(٣) ، وليس بعيد أن

(١) كنورى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٧٨ .

(٢) تلخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) ابن أبي زر ج : روض القراض ص ٨١ .

تكون مواهب يوسف كقائد شجاع قد ظهرت بواكيرها في هذه الحملة ، التي أبلى فيها البلاد الحسن ، فلما تم للمرابطين فتح إقليم الواحات والسيطرة عليه ولاء ابن عمه علي سجلماسة ، فأحسن السيرة ^(١) ، وظهر للناس كافة أنه قد تشبع بمبادئ الإمام عبد الله بن ياسين ، فقد أحسن إلى الناس ، وعمل في سبيل الإصلاح بقدر الطاقة ، فلما انصرف المثلثون إلى فتح إقليم السوس الأقصى كان يوسف على رأس الجيش الغازي ^(٢) ، وإذا كانت حملة السوس قد أصابت من النجاح والتوفيق القدر الذي عرضناه له فإن الفضل في ذلك يرجع إلى ما أظهره يوسف القائد الناشئ من حنكة ودربة وجلد وتغلب في الجهاد .

سارت الجيوش المثلثة قدما ، ففتحت أغمات ، وانصرفت بعض قوات المثلثين إلى قتال برغواطة ، وقتل عبد الله بن ياسين ، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر بن عمر بالإمامة ^(٣) ، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، ولكن الصفة السياسية الأمير الجديد أخذت تغلب على صفته الدينية ، لأن الدولة أخذت تمر بدور من أدوار الكفاح المر يتطلب حزماً وسعة أفق ، وحسن توجيه ، فلما تشعبت مهام أبي بكر ، وثقل العبء عليه ، اشتد اعتماده على ابن عمه يوسف بن تاشفين لما ظهر من إخلاصه وشجاعته ، فإذا كان أبو بكر بن عمر قد أخذ على عاتقه الماضي في قتال برغواطة إتماماً لرسالة الإمام عبد الله بن ياسين ، فلا يبعد أن يكون قد اعتمد على يوسف في قيادة القوات المثلثة المرابطة بمدينة أغمات ، وأخذ الأهمية لذلك الصراع العنيف الذي نشب بين زناتة وصنهاجة الجنوب ، هذا النزاع الذي قرر مصير المغرب على النحو الذي بيناه .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٢٥١ ، أبو القداح ج ٢ ص ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٣ ، جامع تواريخ قاس ص ٢٤ .

وقد شكك ظهور يوسف ، وبدأ نجمه يعلو ، وشخصيته تبرز حين أتت الأنباء من جنوب منبثة أن الصراع قد احتدم بين جدالة ولمتونة ، ذلك الصراع الذي كان يهدد حركة المرابطين تهديداً خطيراً ، في وقت كانوا فيه يتهيأون للدفاع عن عدوهم ، ومنازلته . كما يبدو أن ملوك الزنوج في الجنوب انتهزوا فرصة إنصراف غالبية القوات الملتزمة إلى فتح المغرب ، فأرادوا أن يطعنوها من الخلف ^(١) ، فلم يجد أبو بكر بن عمر بداً من أن يمضي بنفسه إلى الجنوب ، ليقتضي على هذه الثورات والفتن ، ويوحد بين قبائل الملتزمين ، حتى لا تتفرق الكلمة وتتبعثر الجهود . إنصرف أبو بكر إلى الصحراء ^(٢) ، ولكنه إضطر إلى أن يستخلف قبل سفره ، فلم يجد خيراً من ذلك القائد الشجاع يوسف بن تاشفين ، الذي عقد له على المغرب وفوض إليه أمره ، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبني يفرن وقبائل البربر وزناتة ^(٣) . وقد أقره شيوخ المرابطين على هذا الاختيار ، فمضى أبو بكر لحماية ظهر الملتزمين ، حتى يفرغوا لما هم بصدد من الكفاح ، فبرز يوسف بن تاشفين إلى الصفوف الأمامية ، وآلت إليه وحده قيادة حملة المغرب .

ويبدو أن حسن طالع هذه الدولة الناشئة قد هدى الأمير أبا بكر بن عمر إلى اختيار يوسف بن تاشفين في هذا الوقت العصيب ، الذي قامت فيه الأخطار تحديق بالدولة في كل مكان ، فهامى القوات الملتزمة تصارع برغواطة صراعا عنيفا ، وهامى فرق أخرى من الملتزمين تقاتل في الجنوب ، وهامى أولاء زناتة وحلفاؤها

(١) التادلي : التشوف ص ١٠٤ . ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢١ . ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٣ . الحلل الموهبة ص ١٦ . صبح الأعشى ج ٥ ص ١٨٩ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥ .

M. de Lafosse : Chronique de Fautas Senegalais, Rev. M. M. 1913, t. 25 p. 183.

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٥ . جامع تواريخ قاس ص ٢٥ .

من مغراوة يؤلبون الناس ، ويتجمعون في الشمال قرب قاس لمقاومة
الملثمين ووقف تقدمهم ، والثأر لما نالهم من هزائم ، وكانت هذه الظروف
تتطلب سرعة البت والحزم والإقدام في غير خوف والقدرة على إدارة دفة المعركة
لمصارعه جميع القوى في وقت واحد ، أو بعبارة أخرى تجنيد جميع القوى ،
وحشدها لهذه المعركة الهائلة . وكان يوسف بن تاشفين كفتاً لذلك المجهود المضي ،
وهذه المسئوليات الجسام « لما له من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وورعه
وسداد رأيه ويمن نقيته ^(١) » ، فقد توفرت له الصفات التي تجمع حوله قلوب
شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة ، وتجمع قلوب
الجند الصنهاجي ، الذي يقدس البطولة ، ويتغنى بالشجاعة ، ويمجد القائد المبرز
الشهم ، فقد كانت شهامة يوسف وشغفه بالحرب التي كان يقودها بفضنة وحسن
طالع يسبغان عليه جلال الفروسية ، التي تلهب حماسة الجند ، فيندفعون وراءه
اندفاع الصاعقة ^(٢) ، كما كان جوده ، وتقشفه ، واحتقاره لمظاهر الترف في
ملبسه ومسكنه أسوة حسنة ، وقدوة يحثيها كل مرابط مخلص . بل بلغ من
تقشفه ، وزهده أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ، ولحم الإبل ، ولا يشرب
سوى لبنها ^(٣) ، فلا نعجب إذا كان يوسف قد استطاع بهذه الصفات النادرة
التي توفرت له أن يؤلف القلوب ، يذكي الحمية في النفوس ، ويصبح سيد الموقف
بلا نزاع . وقد ظهرت آثار هذه القيادة الجديدة في هذه الانتصارات السريعة التي
تلاحقت عقب انصراف أبي بكر بن عمر إلى الجنوب . وكانت خطة يوسف
منحصرة في أن يواجه الأعداء جميعاً دفعة واحدة ، تقوم القوات الصنهاجية كلها
قومة رجل واحد تواجه الأعداء ، وتناضلهم مناضلة عنيفة ، لأنه خشي إذا

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ٨٥ .

(٢) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ٧٠ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

انصرفت قواته إلى ناحية واحدة نبعث الخطر من النواحي الأخرى ، التي أهملها أو شغل عنها .

وقد عمد يوسف إلى توزيع عبء القيادة على فرسان قومه وأنجادهم ، فاختار أربعة من اتقوا دهم محمد بن تميم الجدالي ، وعمر بن سليمان المسوقي ، ومدر ك التلكاتي ، وسير بن أبي بكر اللعتوني ، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته^(١) . وسيرهم لقتال القبائل العاصية ، ولا نعرف بالضبط خط سير هؤلاء القواد ، ولكننا عرفنا من قصة الفتح التي عرضنا لها فيما سبق أنه في الوقت الذي كانت فيه القوات المثلثة مستبكة في معركة فاس كانت هنالك قوات أخرى تطرق باب المغرب الأوسط وأخرى تهاجم برغواطة وتقترب من مدينة طنجة . ويبدو أن يوسف اختص نفسه بمنطقة فاس ، وما جاورها لأنها قلب المقاومة ، ومركز ذلك الصراع . وقد تمخضت سياسة يوسف بن تاشفين عن نجاح كامل ، وأخذت قلاع العدو تسقط واحدة بعد أخرى ، وبدأت الجيوش المثلثة تتحرك فوق صفحة المعركة تحركها يد قائد ماهر .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد فرغ من القتال في جبهة الجنوب ، ورد القبائل العاصية ، ووحدها ، وصارع ملوك الزنوج ، وعاد إلى المغرب الأقصى مرة أخرى في سنة ٤٦٥ هـ ، على نحو ما يذكره المؤرخون^(٢) .

والمؤرخون يصورون لقاء أبي بكر بن عمر يوسف بن تاشفين صورة روائية ، ويضنون على هذا اللقاء مسحة الأسطورة^(٣) ، فيقولون أن يوسف عقد النية على أن يختص نفسه بأقليم المغرب ، فيصبح أميراً عليه يأمر وينهى ، وأن أبا بكر ابن عمر سمع أن يوسف أراد أن يستبد بالأمر دونه ، فعاد لتوه ليخلعه ، ويولى

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٢) احلال الوشية ص ١٤

(٣) روض القرطاس ص ٨٦

غيره^(١) ، وهم يسوقون على لسان كل من يوسف وأبي بكر بن عمر حواويل وأحاديث . ليس من شك في أن يوسف مكن لنفسه في المغرب كله ، كما استطاع بفضل جهوده أن يفتح مغاليق حصونه ، وأن يؤدب قبائله ، ويردها إلى الطاعة وليس ببعيد أيضاً أن يكون قد اتخذ حرساً خاصاً من العبيد السودان ، أو من الروم على ما يذكره المؤرخون^(٢) ، فقد كان أميراً للجيش ، ونائباً للأمير المرابطين ، فلا يستغرب أن يكون قد اتخذ حرساً يخلع عليه نوعاً من الأبهة والسطوة ، وليس ببعيد أيضاً أن يكون يوسف قد جمع لبيت المال ثروة طائلة ، سواء من الزكاة ، أو الغنائم بدليل هذه الهدية الضخمة التي جهزها للأمير أبي بكر^(٣) .

ولم يكن في ذلك شيء من الغرابة ، فإدام نائباً للأمير بالمغرب فمن حقه أن يجمع المال لبيت المال ، أما عودة أبي بكر بن عمر فقد كانت عودة طبيعية ، فرغ من مهمته في الجنوب ، أدب العصاة ، ووجد القبائل ، وصان ظهر القوات المقاتلة في المغرب ، ولو كان قد أحس حقاً أن يوسف قد قلب له ظهر المجن ، لكان في استطاعته لو أحب أن ينقض عليه من خلف ، وأن يجند من القبائل ما يستطيع به مدافعة يوسف وردده عن العصيان . وكان أبو بكر رجلاً زاهداً متورعاً محبوباً يلي المرابطون نداءه إذا أراد ، ولكن أبا بكر عاد إلى المغرب لا طمعا في سلطة ، ولا في قيادة ، إنما ليتقعد الأحوال بنفسه ، ويقف على الجهود التي بذلها ابن عمه في فتح البلاد ، وإصلاح شأنها ، لم يطمع أبو بكر في القيادة وهو الذي ولي يوسف من تلقاء نفسه ، وأمره على المغرب ، وعهد إليه أن يتم فتحه ، أفيسكون جزاء يوسف أن يأتي أبو بكر لخلعه بعد هذه الجهود التي بذلها ؟

(١) جامع توارخ فاس ص ٢٥ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٤ .

(٣) للرجم السابق ص ١٦ .

لم يكن يوسف يفكر في اغتصاب السلطة ، فقد كان يقدر مركزه حتى قدره ، ويعرف أنه قائد مفوض من قبل أمير البيت اللتوني . يدل على ذلك أنه ما كاد يعلم نبأ قدوم ابن عمه حتى جهز له هدية عظيمة « وكتب إليه كتاباً يعتذر فيه إليه ويرغب في قبول الهدية ويقول له كل ذلك قليل في حقك »^(١) . وقد طابت نفس أبي بكر لذلك اللقاء ، ووضعت رغبته حين قال ليوسف « أنه لا غناء لي عن الصحراء وما جئت إلا لأسلم الأمر إليك وأهدئك في بلادك وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا »^(٢) . إذن أكد أبو بكر بن عمر تولية يوسف بن تاشفين على المغرب مرة أخرى ، استخلفه أول الأمر ، فلما رأى حسن بلائه ، وحة ملكه ، وحب الناس إياه ، أحب أن يوليه على المغرب رسمياً ، وينصرف هو إلى الصحراء ، لأنه كان رجلاً زاهداً في الدنيا عزوفاً عن السلطان ، يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أنه أحضر شيوخ لمتونة ، وأعيان الدولة ، وأمراء المصامدة والكتاب ، والشهود ، والخاصة ، والعامية ، وأشهد له بالتخلي عن الأمر بوطن المغرب^(٣) .

وقد تخلى أبو بكر بن عمر ليوسف بن تاشفين من تنقاء نفسه ، لا مرغماً ولا مضطراً ، وقد ظلت السيادة الأسمية بالطبع من نصيبه ، يؤيد ذلك ما رواه البكري حين قال « وأمير المرابطين إلى اليوم (وذلك سنة ٤٦٠ هـ) أبو بكر ابن عمر »^(٤) ، ويدل على ذلك أيضاً أن النقود كانت تضرب باسم أبي بكر ابن عمر حتى توفي عام ٤٨٠ هـ باعتباره أمير الدولة وحاكمها الأوحده^(٥) . وقد

(١) الخلل الموشية في الأخبار المرابطينية ص ١٦ .

(٢) انرجع السابق ص ١٥ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) البكري : المغرب ص ١٧٠ .

(٥) H. Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la bib-

liothèque Nationale (Espagne et Afrique) pp. 201, 202.

Monedas de las Dinastías Arabigo — Espanolas p. 238.

(م — ١٥ قيام دولة المرابطين)

يقال كيف استباح يوسف بن تاشفين لنفسه أن يسك النقود باسمه^(١) . الواقع أن يوسف لم يكن من هذه الناحية مجددا ولا مبتدعا ، فقد ذكرت مجموعات النقود أن إبراهيم بن أبي بكر بن عمر سك نقودا باسمه عام ٤٦٢ هـ ، ٤٦٥ هـ^(٢) ، وذلك في حياة أبيه بوصفه أميرا على سجلماسة . وتفسير ذلك أن المرابطين كان من عادتهم دائما أن يحكموا البلاد التي يفتحونها حكما اقطاعيا ، فيولون أمراء من البيت الحاكم على أقاليم بعينها يصبحون أصحاب الكلمة الأولى فيها ، ويكونون مسئولين أمام أمير البيت الملتوني . فإذا كان يوسف قد سك نقودا فقد فعل ذلك بوصفه أميرا للمغرب من قبل أبي بكر بن عمر ، الذي كانت له السلطة العليا حتى وفاته سنة ٤٨٠ هـ .

مهما يكن من شيء فإن يوسف بن تاشفين يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المرابطين ، نحن لا ننكر أثر الجهود التي بذلها عبد الله بن ياسين ، ويحيى بن عمر ، وأبو بكر بن عمر ، لكن مما لا شك فيه أن الفضل في إتمام فتح المغرب يرجع إلى يوسف بن تاشفين . إذ لو لم يفتح المثلثون المغرب لتفرق شملهم ولما قامت لهم قائمة ، بل لما تمت دولتهم في المهد ، فلا نعجب إذا رأينا اسم ذلك القائد المحنك يعلو على اسم الأمير الشرعي ، ويتحدث الناس بذكره ، ويتردد صدهاء في المغرب كله ، وفي الأندلس ، ويحس الناس أن قوة فتية ظهرت على مسرح المغرب يحسب لها ألف حساب .

وكان اختيار يوسف بن تاشفين أميرا للمغرب في ذلك الوقت بالذات يدل على بعد نظر أبي بكر بن عمر وسعة أفقه ، فقد كانت البلاد في حاجة إلى قائد ماهر ، وسياسي ذاهية ، يؤمن هذه الفتوح الواسعة ، ويضمد جروح المغرب

Lane-Poole : Catalogue of the Collection of Arabic Coins in (١)
the Khedivial library p. 328.

H.Lavoix : Cat. des Monnaies Mus. p. 201. (٢)

ويرتق فتوقه ، ويؤلف بين قلوب أهله . فما هي إذن السياسة التي اتبعها يوسف ابن تاشفين في إصلاح البلاد وتثبيت دعائم الدولة فيها ؟

كان على يوسف إذا أراد أن يمضي في مشروعاته الحربية أن يسد حاجة الجيش من الرجال . ولم تستطع القبائل الملثمة وحدها أن تضطلع بعبء القتال . في هذه الميادين المتعددة ، فاضطر يوسف إلى أن يوسع دائرة التجنيد بعض الشيء ، فأشرك القبائل الأخرى ، جند من زناتة ، ومن مصمودة ، ومن غمارة ^(١) . وكان يطلق على هؤلاء المجندين اسم (الحشم) ^(٢) ، وكانت فرق الحشم تختلف عن الفرق المؤلفة من فرسان صنهاجة ، وقد اضطر يوسف أن يتخذ حرسا من السودان كما اشترى عبيدا من بلاد الروم ^(٣) . وأصبح الجيش لأول مرة يتألف من طوائف متعددة يؤلف بين قلوبها جميعا حب يوسف واحترامه وكثرة بذله واغداقه . كما عمد يوسف إلى تنظيم الجيش الجديد تنظيما دقيقا فبعد أن كانت جموع القبائل الملثمة تتقدم إلى الميدان جهة واحدة ، أو كتلة واحدة مترامية ، اضطر إلى توزيع المسؤولية على القواد ، فجعل الجيش فرقا على رأس كل فرقة قائد من رجاله الذين يثق في اخلاصهم وصدق جهادهم ^(٤) . كما اتخذ البنود والطبول ، وزاد عدد الجيش حتى بلغ — على ما نذهب إليه الرواية — مائة ألف جندي ^(٥) . إذا دقت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو ^(٦) ، لذلك لا نعجب إذا غدت هذه الجيوش آلة طبيعة في يد ذلك القائد الماهر يستخرها في مشروعاته الحربية بحذق ومهارة ، حتى حقق ما أراد من نصر وظفر .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٢) الجلال الموشية ص ٦٤ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٦) يوسف أسنخ ج ١ ص ٧٦ .

أضف إلى ذلك أن الفتوحات المرابطية كانت تتسع رقعتها بالتدريج ، وكانت القبائل الملتزمة تنتشر فوق رقعة المغرب كله^(١) ، وتشتبك مع قبائله ، تناصبها العداء وتقف لها بالمرصاد ، وكانت ديار المرابطين بعيدة ، ووسائل الاتصال بين القبائل الغازية ، وبين ديارها الأصلية عسيرة ، فكان لا بد ليوسف من أن يؤمن هذه القبائل الفاتحة على نفسها ، ويعمل على الإبقاء على البلاد المفتوحة بأية وسيلة^(٢) ، ويحول بين القبائل المغلوبة على أمرها ، وبين شق عصا الطاعة ، وانتهاز فرصة اشتباك المرابطين مع أعدائهم ليرفعوا راية العدوان ، فاضطر إلى بناء المعسكرات لحماية الفتوحات الجديدة ، فلما فتح إقليم سجلماسة أسس المرابطون مدينة تلبلا^(٣) . كما أنشئت مدينة مراکش في قلب بلاد المصامدة ، لتكون معسكرا يحشد فيه الجند الصنهاجيون ؛ فيقفون بالمرصاد للمصامدة يردون عدوانهم^(٤) إذا حدثتهم أنفسهم بالثورة . وكان يوسف بن تاشفين يبني الحصون المنيعة ، ابنتى في مراکش قاعة اسمها دار الحجر^(٥) ، كما بنى في تلمسان الجديدة بالمغرب الأوسط^(٦) قلعة تحرس الزناتيين ، وتقف لهم بالمرصاد ؛ كما أقام في إقليم الريف حصنا لا تزال آثاره باقية حتى اليوم^(٧) . ولا بد أنه أقام سلسلة من الحصون تمتد من مراکش في الجنوب حتى مدينة فاس في الشمال ، ومن تلمسان في الشرق إلى طنجة في الغرب ، ومن أسف أن معالم هذه الحصون قد درست ، لأن الموحدين استطاعوا بعد أن تم لهم الأمر أن يطمسوا رسمها امعانا في التنكيل بأعدائهم . وكانت كل

(١) Marçais : op. cit. pp. 346 — 349.

(٢) Idem.

(٣) De la Chapelle : op. cit. p. 62—63.

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ . النويرى ج ٢٢ ص ١٧٨ .

(٥) الجزنائي : زهرة الآس ص ٣٠

(٦) القرى : نفع الطيب ج ٢ ص ١٧٥ .

(٧) Marçais : op. cit. pp. 346—347.

قلعة من هذه القلاع تشحن بالأقوات والمقاتلة والسلاح ، لتكور مستعدة لمواجهة العدو في أى وقت ، ولا ندرى كيف استطاع هؤلاء البدو أن يتخذوا هذه السياسة الحربية الحكيمة ، وليس بعيد أن يكون احتكاكهم بالمغرب وورودهم مورد الحضارة المنبثة في أرجائه ، قد مكن لهم من تعلم هذا الفن وتطبيقه في بلاد المغرب .

وقد جمع يوسف بن تاشفين ثروة طائلة من الغنائم ، والأسلاب ، ومن حصيلة الزكاة ، والعشور^(١) ، وقد استغل هذه الأموال في تأليف قلوب زعماء الملتزمين ، فأغدق عليهم ، فحفقوا إليه طامعين في رفقده وكرمه^(٢) ، كما عمد إلى توزيع الأراضي الخصبية على قبائل الملتزمين القادمة من الجنوب^(٣) ، وولى رجالها الأعمال^(٤) ، واستطاع بهذه السياسة البعيدة النظر أن يستميل الزعماء ، وأن يكسب ودهم ، فمالوا إليه ، ووقفوا إلى جانبه ، وأصبحوا رهن إشارته ، وطوع يمينه . كما اتخذ من ذوى قرباه ولاية على البلاد المفتوحة ، فولى سير بن أبي بكر مدائن مكناسة ، وبلاد تكلالة ، وفازاز . وولى عمر بن سليمان مدينة فاس ، وأحوازها . وولى داود بن عائشة سجلماسة ، ودرعة . وولى ولده تميم مدينة أغمات ومراكش ، وبلاد السوس ، وسائر بلاد المصامدة ، وبلاد تادلة وتامسنا^(٥) . وقد عمد يوسف إلى مهادنة القبائل المغلوبة على أمرها ، فكان يستدعى زعماءها فيبرم ويكرم وفادتهم ، ويجزل عطاءهم ، ويتألف قلوبهم ، فيلتفون حوله ، ويبايعونه^(٦) .

(١) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

(٣) Gooley : The Negro Land of the Arabs p. 57 .

(٤) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٢١ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩١ . ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ .

(٦) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٦٠ .

فاستطاع أن يطفى « نار الفتنة » وأن ينشر السلام في المغرب^(١)، ويقر الطمأنينة في ربوعه ..

كانت هذه السياسة الحكيمة ذات آثار اقتصادية وسياسة بعيدة المدى ، فقد انصرف الناس إلى الإنتاج ، فزادت الأموال ، ونشطت الصناعة والتجارة والزراعة ، كما أنه استطاع بعد أن تألف قلوب أهل المغرب كله أن يجندهم للجهاد في الأندلس فلبوا ندائه طائعين . ولم ينس يوسف أن يعضى في السياسة الإصلاحية التي رسمها عبد الله بن ياسين^(٢) ، كان يتفقد أحوال الرعية وينظر في أمر الولايات ، ويرد المظالم ، ويحكم بين الناس بنسوية . فلا نعجب إذا رأينا هذه السياسة الحكيمة تكلل بالنجاح ، وتأتي أكلها فقد أصبح المغرب طوع يمينه ورهن إشارته .

(١) الاتحاف ج ١ ص ٦٢ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٦١ ..

الباب الرابع

الدور الأندلسي

١ — انصراف الطاقة إلى معركة الجهاد :

استطاع يوسف بن تاشفين إذن أن يتم فتح المغرب الأقصى ، وأن يعلى كلمة المرابطين فيه ، ويرفع من شأنهم ، وينشر الطمأنينة والسكينة في ربوع البلاد بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها ، هذه السياسة التي أثمرت ونجحت إلى حد بعيد ، فبدأت الحياة في بلاد المغرب الأقصى تتغير تغيرا كبيرا ، وبدأت قبائل الملتهمين تنتشر في البلاد فتستقر فيها وتستولى على ما كان بيد القبائل الأخرى من أرض خصبة .

نعم بدأت قبائل الملتهمين بعد هذا النصر العظيم يشتد ساعدها وتشعر بقوتها خصوصا بعد أن فرغت من أكثر مشاكلها وقهرت كل أعدائها ، وبدأت الموارد الهائلة تتدفق على بيت المال ، وبدأ المرابطون بعد كفاح دام عشرين عاما يثقفون الصعداء ويحسون بنعمة الظفر .

نعم أتم يوسف بن تاشفين ما بدأه عبد الله بن ياسين ، كما أن دور يوسف في بناء الدولة الجديدة لا يقل عن دور عبد الله نفسه ، لا تنكر أنه يرجع إلى عبد الله الفضل في بث الدعوة التي طهرت النفوس ، وصقلت القلوب ، وخلقت من الملتهمين شعبا جديدا فنيا نابضا بالحياة والقوة ، لكن لا ننسى أنه إلى يوسف يرجع كل الفضل في فتح المغرب كله ، والانتقال بالدولة إلى الدور الثاني من أدوار قيامها . إليه وحده يرجع الفضل في تخلص الدولة من طابعها الصحراوي ،

واتخاذها السمة المغربية الخالصة . نعم أتم يوسف حركة الجهاد الرائعة التي أو قد عبد الله شرارتها وأضرمت ناراها . كانت الجذوة التي أوقدها عبد الله بن ياسين في نفوس الملتزمين لا تزال تضطرم في نفوس أصحابه وعهدهم به قريب كما نعلم .

لم نحمد إذن هذه الدعوة المباركة التي بثها عبد الله بسبب هذا النصر الذي أحرزه أتباعه ومريدوه ، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه عمل جاهدا على ألا تنطفئ شعلة الحماس في نفوس أصحابه من المرابطين ، وقومه من الملتزمين ، وكان بتواضعه وتقشفه وزهده وتقواه صورة ماثلة لإمامه عبد الله ، كان في الواقع المثل الحي لهذه الإمارة التي جمعت بين الدين والدولة معا ، وإذا كان أبو بكر بن عمر قد اختاره الناس خليفة لعبد الله بن ياسين بسبب تواضعه وتقواه ، فإن الناس قد آمنوا بيوسف كما آمنوا بأبي بكر واعتقدوا بحق أنه الزعيم الخليلي بأن يقودهم في ميدان الجهاد والتضحية .

كان لابد لهذه القوى الماثلة التي جند ها يوسف ، وهذه الأموال الضخمة التي جمعها ، وهذه الطاقة التي أقام صرحها أن تنصرف إلى ميدان جديد من ميادين النشاط والكفاح . نعم كان لابد من أن تنصرف هذه الطاقة في ميدان الجهاد في سبيل الدين ، وإعلاء كلمته ، ومصارعة أعدائه ، وليس هذا بغريب فإن الدولة قامت على الجهاد وأصبح الجهاد الطابع المميز لها من نشأتها الأولى . جاهدت في بلاد السودان ، وجاهدت في الصحراء ، وجاهدت في المغرب . كان الجهاد إذن دستور الملتزمين ورائد المرابطين . ولم يكن من المستطاع أن تخلد هذه القوى الكبرى المضطربة بالحماس إلى الراحة والطمأنينة والدعة ، لو فعلت ذلك لما اعتبرت رسالة عبد الله بن ياسين قد نجحت أو حققت الأمل الذي عقده الناس عليها . ليس من شك في أن هذه القبائل لو ركنت إلى الراحة بعد هذا الكفاح المر لتفرق شملها ، وتبعثرت كاعتها ؛ كانت وحدتها يذكيها الجهاد ، ويصونها الكفاح من أجل نشر الإسلام .

كان من الممكن أن تنصرف هذه القوى الكبرى نحو الشرق فتفتح إفريقيا، وكانت الأحوال السائدة — كما ذكرنا — في هذه البلاد تمهد لذلك الفتح : ولو تقدم المرابطون لما وجدوا مقاومة تذكر ، بل لبسطوا سلطانهم على البلاد في غير كبير عناء ، فقد كانت إفريقيا قد تفرقت شتت أهلها بسبب غارات بني هلال ، كما ضعف بنو حماد ودهمتهم الفرقة التي دهمت بني عمهم بإفريقية . ولكن الدولة في هذا الدور الجديد من أدوار قيامها لم تكن في حاجة إلى كسب مادي ، فلم تكن في حاجة إلى أن تكسب أرضاً جديدة أو تمضي في توسع جديد . إنما كانت تريد أن تحقق الأهداف التي رسمتها دعوة عبد الله بن ياسين ، ألم يكن عبد الله بن ياسين سلفياً يهدف إلى إحياء الإسلام ، ورده إلى قوته الأولى ومحاربة البدع والفساد ، وبعث الأمة الإسلامية بعثاً جديداً ؟ كان لابد للدولة الجديدة إذن بعد أن فرغت من الجهاد في سبيل نشر الإسلام في الصحراء . وفي بلاد المغرب الأقصى أن تنصرف إلى الجهاد العام ، إلى مدافعة أعداء الإسلام ، إلى رد القوى الإسلامية إلى ما كان لها من سبق وتفوق ، كانت الدولة الجديدة تريد أن تضرب للأمم الإسلامية مثلاً . تريد أن تتمثل في أذهانهم دولة مجاهدة في سبيل الإسلام مسخرة كل جهد وكل مال في سبيل إذكاء حركة الجهاد ، ورد أعداء الإسلام إلى سابق عهدهم من الضعف والتخاذل .

وقد ترك العامل الجغرافي في توجيه الدولة في هذا الدور الجديد من أدوار قيامها أثراً بعيداً ، فقد أطلت على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، وأصبحت شواطئها الطويلة معرضة لأن تتغير عليها الأساطيل الفرنجية ، فتتال منها ، وتعيث في نواحيها ، فلم يكن بد إذن من أن تهتم الدولة بما يجري في حوض البحر المتوسط الغربي من صراع بين المسلمين والفرنجة من أجل السيادة البحرية ، كما أصبحت تطل على الأندلس وتهتم بما يجري فيه وعادت الصلة بين العدوتين وثيقة قوية .

وكان ما يجري في حوض البحر الأبيض أو في الأندلس تهلع له قلوب المسلمين المخلصين لدينهم وتراثهم ، نعم جاءت الدولة إلى المغرب في وقت كانت فيه المعركة دائرة الرحي بين المسلمين والفرنجة منذرة بتطور خطير في تاريخ المغرب والأندلس كان لا بد إذن من أن تدخل الدولة في هذا الدور الجديد ميدان الجهاد لمداخلة الفرنجة ، وردهم عن حياض المسلمين سواء في حوض البحر الأبيض أم في الأندلس وقد يقال ألم يكن من الممكن أن تنتهى مراحل قيام الدولة بعد إتمام فتح المغرب الأقصى ، والإجابة على ذلك نقول أن المرابطين لو وقفوا من الأحداث المؤسفة التي كانت تجري في بلاد الأندلس مكتوفى الأيدي لا يدلون بدلوهم في دلاء الجهاد ، لا اعتبروا خارجين على رسالة إمامهم عبدالله بن ياسين ، حائثين بعهد خائتين للأمانة التي عقدها الناس عليهم . فإن قصة قيام الدولة لم تكن في الواقع إلا حركة جهاد مستمرة ، بدأت الحلقة الأولى في الرباط الذي أنشأته عبدالله ابن ياسين في حوض السنغال ، ثم أخذت الحلقة تتسع رويدا رويدا ، فشملت الصحراء والمغرب والأندلس ، ولم يقف الجهاد إلا بعد أن حقق أهدافه ، حين تأكد قيام الدولة في أذهان المعاصرين في الشرق والغرب .

٢ — الدوافع التي أذكت رغبة المرابطين في الجهاد :

ولكى نعطي صورة واضحة لذلك الدور العظيم الذي اضطلع به المرابطون في معركة الجهاد ، يحسن بنا أن نصور الدوافع التي أذكت الحماس في صدور المرابطين ، ونستعرض القوى الإسلامية في الجزء المغربي من جوض البحر الأبيض ونبين مدى ما أصابها من ضعف وتحاذل وإستسلام ، ثم نبين الأسباب التي أدت إلى رجحان كفة القوى الأفرنجية في البحر الأبيض ، وفي بلاد الأندلس حتى يتيسر لنا أن نعطي صورة واضحة لهذه الأوضاع المؤسفة التي اضطرت المرابطين إلى المشاركة في حركة الجهاد ومحاولة بعث القوى الإسلامية المبعثرة المتفرقة .

نعم كان من مظاهر الضعف الذي منى به المسلمون في القرن الخامس الهجري أنهم فقدوا السيادة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ؟ فكيف استطاع الفرنجة أن ينالوا من هذه السيادة ، وكيف تمت لهم الغلبة حتى استطاعت أساطيلهم أن تشن في ديار المسلمين ، وتغير على موانئهم وتهددهم في عقر دارهم .

اشتدت حاجة المسلمين بعد فتح الشام ومصر إلى ركوب البحر وبناء الأساطيل والاستعانة بالسفن في مدافعة الروم ، فقد وضعوا أيديهم على موانئ هامة وجزر ذات أهمية حربية عظيمة ، مثل قبرص ورودس وغيرها من الجزر الصغرى المتناثرة في حوض البحر المتوسط ، واضطر العرب أن يتخذوا الأهبة لرد عادية أسطول البيزنطيين ، الذي كان يغير على موانئ الشام ومصر^(١) ، فبدؤا يبنون السفن ، ويروضون أنفسهم على ركوب البحر ليصارعوا البيزنطيين في ميدانه . وقد أحرز العرب في هذا الميدان البحري تقدما ملحوظا ، فقد استطاعت سفنهم أن تهاجم مدينة القسطنطينية نفسها ، ثم فتح المسلمون إفريقية والمغرب الأقصى ، وأصبحت سواحل الطويلة معرضة لغارات الأساطيل المسيحية ، التي كانت تتخذ من جزر حوض البحر الأبيض معاقل تغير منها على الشواطئ الإفريقية المقابلة^(٢) ، ثم فتح المسلمون بلاد الأندلس واستولوا على الموانئ الهامة المطلة على حوض البحر الأبيض ، وكانت الأساطيل الفرنجية تأوى إليها ، وتعصم بها ، وكان الحوض الغربي لهذا البحر قد أصبح بخيرة إسلامية^(٣) .

وشرع المسلمون في المغرب يعملون في بناء الأساطيل بهمة لا تقل عن همة إخوانهم بالشرق ، وإذا كانت أساطيل الشام قد أغارت على قبرص ورودس^(٤) ، فإن عبد الله بن سعد بن أبي السرح بدأ يستعين بالسفن الحربية على إتمام فتح

(١) رينو : غزوات العرب في أوروبا ص ١٨

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٥ .

(٣) Pirenne: Mohamet et Charlemagne p. 142

(٤) Ibid, p. 132.

إفريقية^(١) . ولكن موسى بن نصير هو في الواقع المؤسس الحقيقي للبحرية الإسلامية في غرب البحر الأبيض^(٢) . فقد أكثر من إنشاء دور الصناعة ، كما أكثر من بناء السفن ، لأنه كان يعتقد أن العامل البحري سيكون له أثر هام في فتح الأندلس ، فلما فتحت هذه البلاد توطدت سيادة المسلمين في البحر ، وانتشرت دور الصناعة في موانئ الأندلس ، كما انتشرت في موانئ المغرب من قبل . ولم تكن الأساطيل البيزنطية تستطيع وحدها أن تبسط ظلها على البحر الأبيض كله ، من آسيا الصغرى إلى الأندلس ، إذ حاق بها الهزائم المتلاحقة في الشرق والغرب ، وضعف شأنها ، ولم تستطع مقاومة التيار الإسلامي ، أو الوقوف في وجهه . ولم تكن القوى المسيحية في المغرب تستطيع أن تضطلع بععب الكفاح وحدها ، إذ لم تكن لها أساطيل تذكر ، فالقوط الغربيون لم تكن لهم بالبحر مفاصم ذات شأن^(٣) ، حصن المسلمون دور الصناعة وجعلوها قلاعاً يصعب اقتحامها أو الاقتراب منها ، كما أنشئوا سلسلة من الربط والحارس على طول الساحل الإفريقي من برقة إلى طنجة لئتمعاون فيما بينها على صد الخطر القرنجي إذا ظهرت طلائعة أو بدت نذرة^(٤) .

ولم يقنع المسلمون بذلك القدر ، بل أخذوا ينظمون غارات متتابعة على الجزر والقواعد البحرية التي كان المسيحيون يلوذون بها ويعتصمون فيها ، أجهت أبصارهم إلى جزيرة صقلية من أول الأمر ، ووجدوا أن في بقاء هذه الجزيرة في يد البيزنطيين خطراً داهماً لن يكف عن تهديدهم في عقر دارهم ، وكان أول من اهتم بأمر صقلية معاوية بن حديج الكندي^(٥) ، وظل المسلمون منذ سنة ١١١ هـ

(١) المالكي : رياض النفوس ص ١٧ .

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) Pirene: Mohamet et Charlemagne, p. 146.

I dem. (٤)

(٥) المكتبة الصقلية ج ١ ص ١٦٥ .

لا يكفون عن الإغارة على موانئ هذه الجزيرة ومدنها^(١) ، ويقلقون بال
القوات البيزنطية ويهددون بها بخطر متلاحق . فقد أرسل عامل إفريقية سنة ١٢٢ هـ
حملة على صقلية فتحت سرقوسة ، واضطرت أهلها إلى دفع الجزية^(٢) . ولكن
الولاة من العرب شغلوا عن صقلية بشؤون البربر ، وظلت الحال على ذلك حتى
قام الأغالة سنة ٢٠١ هـ بتجهيز حملة للإستيلاء على هذه الجزيرة^(٣) . وكان
المسلمون جميعاً يتطلعون إلى هذه الجهود التي تبذل للإستيلاء على هذه القاعدة
العظيمة ، فقد روى المؤرخون أن القوات الاندلسية أسهمت في هذه الجهود
للمتلاخقة ، التي بذلها الأغالة في فتح صقلية^(٤) ، حتى كملت جهودهم بالنجاح
سنة ٢٦٦ هـ ، وسقطت آخر قلاع الجزيرة^(٥) ، وأخفقت محاولات البيزنطيين
لاستردادها ، فاستسلموا ، وسلموا للمسلمين بما فتح الله عليهم^(٦) . وقد وجه
المسلمون عنايتهم لسردانية أيضاً ، فقد أغارت عليها سفن^(٧) عبد الرحمن بن حبيب
سنة ١١٥ هـ^(٨) ، وسفن ابن الحبحاب سنة ١١٧ هـ ، كما أغارت عليها سفن
الفاطميين سنة ٣٢٣ هـ ، حتى كتب لمجاهد العاصري أن يستولى عليها آخر الأمر
سنة ٤٠٦ هـ^(٩) . كما فتح المسلمون جزيرة ميورقة^(١٠) ، وأغاروا على قرسقة ،
وفتحوا مالطة سنة ٢٥٦ هـ^(١١) . وفي عهد الأغالة « ملك المسلمون الجزائر المنقطعة

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٦٦١ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٢٠ . المغرب لابن دحية وزقة ٤٤ (١) .

(٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٢٤ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٩ .

(٦) Pirenney op. cit. p. 141 .

(٧) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٨ .

(٨) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٦ .

(٩) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(١٠) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١ .

(١١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٢٧ .

مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة وما حة واقربطش^(١)». هكذا بلغت السيادة الإسلامية الفروة ولم يعد القرنبجة يسيضرون إلا على الطرق البرية ، وأصبح القراصنة المسلمون مطلقى السراح يفعلون كما يشاءون ، وانهارت الوحدة الاقتصادية فى حوض البحر الأبيض ، هذه الوحدة التى لم تنل منها غارات البرابرة على الدولة الرومانية . ويعتقد (Pirenne) أن انهيار هذه الوحدة هو البداية الحقيقية لتاريخ العصور الوسطى^(٢).

ولم يكتف المسلمون بذلك القدر ، بل بدأت قواتهم تغير على سواحل أوروبا نفسها ، فأغاروا على مدينة طارنت وبارى بجنوب إيطاليا سنة ٢٢٨ هـ^(٣) ، كما فتحو كريت سنة ٢٤٤ هـ^(٤) ، ووصلت غزواتهم إلى روما ، فدخلوا من نهر التير ، وأحرقوا بالمدينة ونهبوا كنائس القديسين بطرس وبولس^(٥) ، واضطر البابا إلى أن يدفع الأتاوة للمسلمين ، حتى يكفوا عن تهديده فى عقر داره^(٦) . بل أغار المسلمون على مدينة جنوة وشاطيء دناشيا سنة ٢٥٩ هـ^(٧) ، بل غزوا مرسيليا وأوقعوا بالسفن المسيحية الراسية فيها^(٨) ، وحملوا العرب إلى صفوف القرنبجة ، فلم يعودوا يجرؤن على المخاطرة بأنفسهم فى اقتحام هذا الميدان . وعلى الرغم من أن الفرقة دهمت القوى الإسلامية فى المغرب بسبب قيام الدولتين الأموية والفاطمية ، لم تصب السيادة الإسلامية بأذى ، بل اشتد

(١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٤٦١

(٢) Pirenne : op. cit. p. 143.

(٣) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٢٧

(٤) المرجع نفسه ص ٣٥٤

(٥) رينو : غزوات العرب ص ١٥٥

(٦) Pirenne : op. cit. p. 141.

(٧) Pirenne : op. cit. p. 148.

(٨) رينو : غزوات العرب ص ١٥٦

ساعدها عن ذى قبل ، إذ عكف الفاطميون على العناية بالأسطول وزيادته ، حتى لقد أصبحت المهديّة من أهم اللوانى الحربية فى حوض البحر الأبيض . كما غزا الفاطميون سردانية سنة ٣٢٣ هـ^(١) ، وجنوة ومرسيليا^(٢) ، وأرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت مضيق مسينا ، وثبتت سيادتهم فى جنوب إيطاليا ، وأرغمت الأهلين على دفع الجزية^(٣) . وقد فاقت الأساطيل الفاطمية غيرها من الأساطيل الإسلامية فى عنف هجومها وجراتها . أما الأمويون فى الأندلس ، فقد عمدوا إلى الإكثار من الأساطيل ، حتى بلغت البحرية الأندلسية الذروة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، الذى استولت سفنه على جزر البليار ومنورقة^(٤) ، وبدأت دور الصناعة التى أنشئت فى موانئ طرْقونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية والنورية^(٥) تسهم فى إمداد البحرية الأندلسية بحاجتها من السفن ، ورغم العداء المربىن الفاطميين والأمويين إلا أنهما كان شبه متفاهمين على رد عدوان الفرنجة والنيل منهم .

ولسكن القوى الإسلامية بعد أن بلغت الأوج فى القرنين الثالث والرابع بدأت تتقهقر حينما أظل العالم الإسلامى القرن الخامس الهجرى ، وبدأت السفن الإسلامية ترتد على أعقابها خاسرة . وأخذت القوى المسيحية تنال من هذه السيادة ، فقد انتقل الخلفاء الفاطميون إلى مصر ، ولم يعودوا يهتمون بأمر هذا الجزء من العالم الإسلامى ، وبدأت الأساطيل الفاطمية التى كانت موضع رعب وفزع تنقل ميدان أعمالها إلى الشرق إلى ثغور مصر والشام ، كما أخذ شأن الخلافة الأموية يضعف ويبدأ حتى سقطت آخر الأمر ، وتفرق شمل الأندلس ،

(١) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٦

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٧

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٣

(٤) ابن مغازى : البيان ج ٢ ص ٢٣٨

(٥) المكتبة الصقلية ج ١ ص ١٩٦

وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة ، وأخذت البحرية الأندلسية التي طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها ، وبدأت تختفي من الميدان . ونحن لا ننكر أن بنى زيري الذين ورثوا ملك الفاطميين بالمغرب ، قد اهتموا بالناحية البحرية ، وأخذوا يعملون بقدر الطاقة على الاحتفاظ برمق البحرية الإسلامية^(١) ، إلا أنهم كانوا يعملون منفردين ، ولم يكن باستطاعتهم أن يضطلموا بالعبء كله .

حدث هذا في الوقت الذي بدأت فيه الملكية الفرنجية التي قامت في فرنسا تمكن لنفسها ، وتنمو وترعرع^(٢) ، وأثمرت الجهود التي بذلت منذ أيام شارلمان بعد أن تم توحيد الإمبراطورية الغربية ، وأخذت الكنيسة بعد أن حالت ملك الفرنجة تسترد نفوذها القديم ، وتبسط ظلها على المجتمع الغربي بالتدريج . وقد تنصر النورمانديون وصاروا عاملا عظيما من عوامل القوة المسيحية ، كما تنصر الحيار ، وأصبحت أوروبا كلها مسيحية تقريبا^(٣) . وبدأ ديب النهضة يدب في جسم أوروبا بعد أن تخلصت من أثر غارات الجرمان ، وغيرهم من الشعوب المتبربرة ، وبدأت الشعوب يشتد ساعدها ، وتبرز قوتها مطالبة بحقوقها وتناقش الملوك بالحساب^(٤) . كما انتعشت الحالة الاقتصادية ، وبدأت جمهوريات إيطاليا ، مثل البندقية وبيزة وجنوة توطد من سلطانها التجاري والبحري ، تبنى الأساطيل ، وتنازع المسلمين السيادة على البحار ، وبدأت تطهر حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي من القراصنة المسلمين ، وتنزع أوكار الأساطيل الإسلامية بالتدريج ،

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ١ ص ٢٣٨

(٢) Pignier op. cit p. 2

(٣) Du Mas latrie : op. cit p. 2

(٤) رينو : غزوات العرب ص ٢٠٠

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة

فهاجمت جزيرة سردينيا^(١) التي كان قد استولى عليها مجاهد العاصري^(٢) ، ثم تطلعت إلى غزو المسلمين في عقر دارهم ، فدخلت أساطيل المسيحيين ميناء بونة سنة ٤٢٠ هـ^(٣) ، وعانت فيها ثم ارتدت ظافرة لم تمس بسوء .

ثم ظهر عامل جديد أخذ يؤكد من تفوق السيادة المسيحية ، ومن انهيار السيادة الإسلامية ، فظهر النرمان في جنوب إيطاليا ، وبدءوا يتشرفون إلى صقلية منذ سنة ٤٥٣ هـ^(٤) ، وانهزوا فرصة انشغال الزيريين في ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب المهلاليين ، وبدؤا يفتزعون مدن صقلية من أيدي المسلمين ، ولم يجد الصقليون دولة إسلامية قوية تغنيهم ، وتنتشلهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنرمان الاستيلاء على صقلية نهائياً سنة ٤٨٤ هـ^(٥) ، وبدؤا يرنون بأبصارهم إلى الشاطئ الأفريقي المقابل ، فأغارت قواتهم على مدينة زويلة ، كما أغارت أساطيل بيعة وجنوة على المهديّة سنة ٤٨٠ هـ ، حتى لقد قيل إن أساطيل هذه الجمهوريات بلغت ثلاثمائة قطعة تضم ثلاثمائة ألف محارب^(٦) ، وامتحنّت المهديّة محنة لم يشهدها المغرب منذ فتحه العرب :

هكذا انهارت السيادة الإسلامية في البحر الأبيض ، ومنتن المسلمون واستذلوا واستضعفوا ، وأغار المسيحيون عليهم في عقر دارهم سرون وينهبون وينكفون . وما يصور شعور الناس أصدق تصوير حيال هذه الكارثة التي حلت بالبحرية الإسلامية ، ما روى من أن ابن عباد أمير أشيلية دعا شاعرا يدعى الحصري القيرواني لزيارته فأجاب بقوله :

(١) Du Mas latrie : op. cit p. 7

(٢) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢١٨

(٣) Du Mas latrie op. cit p. 7

(٤) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٦٠ ، المغرب لابن دحية ورقة : ٤ (١)

(٥) المكتبة الصقلية ج ١ ص ٢٧٢

(٦) أس عداراري : البيان للمغرب ج ١ ص ٣١١

(م ١٦ — قيام دولة المرابطين)

لا تعجبين لرأسى كيف شاب أسى وأعجب لأسود عين كيف لم يشب
البحر للروم لا يجسرى السفين به إلا على مصص والبر للعرب^(١)

هذا هو شعور عامة الناس ، فما بالك بشعور قوم كالمرابطين كانوا يعملون
على إقامة دولة جديدة بالمغرب ، ويذكرون الحمية والحماس ويبعثون الهمة ويمهدون
الأسر لحركة جهاد عامة ، وتجنيد عام للقوى الإسلامية . لا يمكن أن تمر بهم
مثل هذه الأحداث الخطيرة دون أن تهز مشاعرهم ، وتدمى قلوبهم ، وتشجذ
عزائمهم للتهيؤ للجهاد لخوض معركة حياة أو موت .

لذلك لا نعجب إذا رأينا ابن تاشفين بعد أن فتح سبتة و طنجة يحاول إحياء
البحرية الإسلامية التي كانت قد درست معالمها ، وذهبت ريحها . ويبدو
أن جهود المرابطين في إحياء البحرية كللت بالنجاح ، وسنرى حين نعرض لحركة
الجهاد في الأندلس كيف أن فتح هذه البلاد أعاد إلى الأذهان جهود موسى
بن نصير في إحياء البحرية الإسلامية ، فقد استطاعت الأساطيل المرابطية
سنة ١٠٧٥ هـ أن تشترك في حرب نظمها القوى الإسلامية في المغرب لمهاجمة
الزمان ، واشتركت القوى الإسلامية فيما يمكن أن نسميه حرباً صليبية بحرية .
ما أقرب الشبه بين موسى بن نصير ويوسف بن تاشفين .

وترتبط بهذه الصورة القائمة صورة أخرى أشد منها خلكة ، فكما تفوقت
القوى المسيحية في البحر ، كذلك تفوقت في البر ، وبدأ المسيحيون يطرقون
أبواب الأندلس ، يفتحون وينكفون ويأسرون ، وكما كانت المسيحية تذكى
تيار الجهاد البحري وتبث الحمية في نفوس قادة الأساطيل الفرنجية ، راحت تبارك
جهود المسيحيين في أسبانيا ، وتنظر إلى الجهود التي يبذلونها لمقاومة المسلمين

(١) الكنية المقلية ج ٢ ص ٦٢٨

(٢) الرحلة النيجانية ورقة ١٤٥ (ب)

نظرة الرضا والآرتياخ ، وراح بعض الكتاب يعتقدون أن الحروب الصليبية بمحطاتها المعروفة بدأت في الغرب قبل أن تبدأ في الشرق ، بدأت فوق صفحة البحر الأبيض المتوسط الغربي ، وفوق غرب الأندلس ذاتها ، حيث كان الصراع محتدما بين عقيدتين : بين الإسلام ، والنصرانية .

بل يذهب بعض الكتاب إلى أن الحروب الصليبية في الشطر الغربي من العالم الإسلامي كانت أبعد أثرا ، لأنها كانت دائرة الرحي على أبواب أوروبا بذاتها ، وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ لو قدر للمجاهدين المسلمين أن ينجحوا ويصمدوا في وجه هذا التيار المتدفق . أما في الشرق فلأخفق الصليبيون فلقنموا بالعودة إلى ديارهم ولما هددت أوروبا بخطر كبير .

نعم أصبحت الغلبة للفرنجية في البحر ثم في البر ، وكان المسلمون بعد أن فتحوا الأندلس قد تجاوزوا جبال البرانس ، وأوغلوا في جنوب فرنسا ، ولولا هزيمتهم عند تورلمسوا في تيار الغزو ، حتى أدركوا نهايته . وظل الولاة المسلمون يقاتلون الجهود التي بذلها خلفاء موسى في مدافعة الفرنجة ، والإمعان في القضاء عليهم ، فقد روى المؤرخون أن عقبة بن الحجاج السلوي فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة ، « ولم يبق لأهل الإسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك إلا جبال قرقشونة وبنبلونة ، وصخرة جليقية^(١) » . وبدا للناس جميعا أن المقاومة القوطية قد انتهت ، وأن السيادة الإسلامية في شبه الجزيرة قد توطدت أركانها .

وقد ظل الولاة من العرب من بعد عقبة بن الحجاج يدفعون تيار الفتح ، وأو على الأقل يبقون على ما يبد المسلمون ، حتى أفلح الأمويون في توطيد أقدامهم بالبلاد ، واستطاعوا أن يسيطروا عليها ظل الوحدة والطمأنينة ، حتى برأت من

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨

علل الفتنة ، وإحس العداوة والتطاحن ، وأخذ الأمويون يفرعون لجهاد الفرنجة ، يدفعونهم ويتالون منهم ، كانوا دائما على أهبة الاستعداد ندفع الخطر ، والذود عما بيد المسلمين من حصون وقلاع ، فقد روى المؤرخون في سياق التدليل على ذلك أنه « كان للحكم بن هشام ألف فرس مرتبطة يرب قيصره على جانب النهر عليهم عشرة من العرقاء تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه . . . حتى يخلط به ^(١) » . فاستطاع الأمويون بسياسة الحذر والحيلة هذه أن يوقفوا القوى الفرنجية عند حدها ، حتى لا تطمع في تذوق طعم الراحة أو الطمأنينة .

ولكن تيار الجهاد الإسلامي قارب أن يبلغ الأوج بعد قيام الخلافة الأموية . فقد كان لزاما على الأمويين كي يثبتوا للعالم الإسلامي أنهم جديرون بالخلافة أن يبعثوا حركة الجهاد ، ويشدوا من أزرها ، ويتوسعوا فيها ، ويصارعوا الفرنجة بعزيمة أشد وبأس أكبر ، إنما بلغت حركة الجهاد في شبه الجزيرة الذروة حقا على يد الحاحب المنصور بن أبي عامر ، وبدا للناس كافة كأن أيام الفرنجة معدودات ، وأن نجمهم مؤذن بالأفول لا محالة . فقد ظل المنصور طيلة حياته لا يخلع رداء الجهاد ، يتابع ارسال الصوائف إلى أطراف البلاد ، لتتال من عدوه كل منال .

ويكفي للتدليل على أن تيار الجهاد قد جرف المسلمين في ذلك الوقت ، وجرف معهم زعيمهم المنصور أنه مات مجاهدا ، مات في الميدان بعد غزوة بريشتر . ويبدو أن حركة بعث الجهاد في الأندلس كانت قوية ، بدليل أنها استمرت إثر وفاة المنصور ، بعد أن كان يظن أنها ستقف بعد ذلك ، فقد ظل ابنه عبد الملك المظفر يثخن في أرض العدو بهمة لا تعرف الملل ، فعزا جليقية سنة ٣٩٥ هـ ، كما عزا بلاد قشتالة في غزاة النصر ، وكذلك حصن شنت مرتين .

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨

سنة ٣٩٨ هـ^(١) ، وبلغ من هيئة عبد الملك ، بعد صيته أن ملوك الفرنجة كانوا يحتمون إليه إذا شجر بينهم خلاف ، كما اشترك بعضهم في حملاته ، مثل شاذي بن غرسية ، زعيم الجلالة وصاحب قشتالة^(٢) .

ولكن هذه الجهود الضخمة التي استمرت ثلاثة قرون ، قد تبخرت بين يوم وليلة ، وانهار ذلك الصرح الذي ظللنا بعث الرعب في قلوب الأعداء ، وانهارت المقاومة الإسلامية بالأندلس انهياراً مفاجئاً أذهل الكافة ، كما أدهش المعاصرين ، وانقلبت الكفة ورجحت في جانب الأمم النصرانية .

ولا يمكن أن يفسر ذلك إلا بأن جهود المنصور بن أبي عامر كانت جهود فرد قاد أمة ، وليست جهود أمة خلقت قائداً ، بدليل أن المسلمين في الأندلس بدوا أمام الناس بعد سقوط الخلافة كأنهم لا يستطيعون المقاومة إطلاقاً . في هذه القرون الثلاثة التي بقيت فيها السيادة الإسلامية كالطود الشامخ كانت الدويلات النصرانية في شبه الجزيرة تناضل وتكافح ، « بقوى مضاعفة وحب متقد للحرية والدين والوطن »^(٣) . كانت تتقدم تقدماً بطيئاً ولكنه تقدم أكيد ، كأنها عقدت الخناصر على بلوغ الهدف مهما كلفها ذلك ، فما قصة هذا البعث وما أهميته في حركة الجهاد التي اضطلمت بهادولة المرابطين في المرحلة الأخيرة من مراحل قيامها؟

الواقع إن قصة بعث القوى النصرانية في شبه جزيرة أسبانيا تعتبر عنواناً طليعاً للنضال من أجل المبدأ ، والتفاني في الدفاع عن العقيدة . فقد رأينا كيف أن فئة قليلة من بقايا قوات القوط لاذت بأذيال الفرار أمام الفاتحين العرب ، واعتصمت بتلك المنطقة الجبلية الوعرة الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من شبه

(١) ابن عذاري ج ٣ ص ١١

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٥

(٣) يوسف أشبالخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج ١ ص ١٠

الجزيرة ، حيث تنحرف جبال البرانس صوب الشمال قليلا مخلفة وراءها منطقة جبلية وعرة وقف الفاتحون العرب حيلها لم تستطع خيلهم أن تنال منها^(١) ، فتهدى المقاومة النصرانية ، وتأتى على القوة القوطية نهائيا. في هذه المنطقة الوعرة أخذت هذه النواة القوطية تنمو بالتدريج بعيداً عن أذى المسلمين وضرهم ، وأخذت تنبعث منها حركة قوية لمقاومة الفاتحين تعتبر في الواقع من أروع حركات المقاومة في تاريخ العالم .

وأخذت هذه القوة تنمو رويداً رويداً مستغلة ما أصيب به المجتمع الأندلسي من الفرقة في عصر الولاة ، وما اجتاحت البلاد من فتن داخلية مبيدة ، وكانوا كلما أمعنوا في تقدمهم صوب الجنوب اتخذوا لهم حاضرة جديدة تكون معصما لهم من الغزو ومقراً لإمارتهم . اتخذوا مدينة Oviedo حاضرة ثانية لهم في بلاد أشتوريش^(٢) .

ثم ما لبثت الأحوال في فرنسا أن تخضعت عن أوضاع جديدة هيأت لهؤلاء المجاهدين من القوط ظروفًا استغلوها خير استغلال ، فقد استطاعت الملكية الفرنجية الناهضة أن ترد العرب على أعقابهم في جنوب فرنسا على يد شارل مارتل وخلفائه . بل إن هذا النصر على الغزاة العرب كان من أقوى الأسباب التي أدت إلى توطيد أركان هذا البيت الفرنجي الناهض ، وبدأت الوحدة تبسط ظلها على فرنسا ، وتنبعث في نفوس الفرنسيين الحمية والحماس لمقاومة العرب ، وردهم على أعقابهم ، ويعتبر هذا النصر على العرب نقطة تحول في تاريخ مملكة الفرنجة ، وفي تاريخ حركة المقاومة النصرانية ، بل يعتبر أول لبنة تنهار من صرح السيادة الإسلامية في غرب أوروبا^(٣) . ذلك أن أهل جليقة استطاعوا أن ينصرفوا

(١) Duruy: Hist du Moyen Age pp.324—326.

(٢) Idem.

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١١٤

إلى العرب يقاومونهم ويدفعونهم وهم مطمئنون إلى أن الملكية الفرنجية الجديدة تحمي ظهورهم ، وتشد من أزرهم . واستطاع ملوك الفرنجة الذين كانوا مقبلين على محالقة الكنيسة الغربية أن يجدوا في مقاومة العرب ما يمكنهم من التمكن لأنفسهم في نفوس المعاصرين ، وإظهارهم أمام العالم المسيحي أجمع بمظهر حماة المسيحية ، والذادة عن تراثها . فأخذ التطوعة من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا يخفون لشد أزر إخوانهم ليشاركوا في جهاد العرب . بل إن الملكية الفرنجية ذهبت في المساعدة إلى حد أبعد من هذا بكثير ، فقد أقدم شارلمان على عبور جبال البرانس من ناحيتين : هما بنبلونة وبرشلونة بقصد شد أزر المقاومة النصرانية^(١) ، والنيل من السيادة العربية بشبه الجزيرة ، وتعتبر حملة شارلمان في الواقع بداية المقاومة المسيحية التي اشتدت في القرن الحادي عشر^(٢) .

وقد اشتد ساعد النصارى في عهد الفونس الثاني (٧٨٨ م) ، فأسس الغسقونيون الأسبان إمارة نبرة ، التي آلت إلى أمير برشلونة ، وسرعان ما مدت أرغونة يدها إلى برشلونة ونبرة وقشتالة ، وتآلف من هؤلاء جميعاً حلف نصراني عظيم^(٣) ، كان من الممكن أن يشتد أزره بسبب ما أصاب الخلافة الأموية من متاعب في ذلك الوقت .

مهما يكن من شيء فإن القوى المسيحية أحرزت بعض التقدم في عهد أدولف الثالث (٨٦٢ م) ، الذي مد سلطانه حتى نهر دويرة ، وجمع شمل الإمارات المسيحية ، وراح يذكي جذوة الحرب المقدسة ، ويستدر عطف القوى المسيحية في أوروبا ، ونقل الحاضرة أو مركز المقاومة من أشتوريش إلى ليون^(٤)

Duruy: Histoire du Moyen age p.p. 324—326. (١)

Idem. (٢)

Idem. (٣)

Duruy: Hist. du Noyen Age, pp. 324—326 (٤)

واكن حركة البعث النصراني لم يطل أمدها ، فقد أفاقت الخلافة الأموية من متاعبها ، واستأنفت حركة الجهاد بصورة قوية بلغت مداها في عهد المنصور بن أبي عامر ، وبدل الناس أن المقاومة النصرانية الباسلة أو شكت أن يسدل عليها الستار ، وأن المسلمين مستردون ما فقدوه من الحصون والقلاع . فقد استطاعت جيوش المنصور أن تخضع ملك قشتالة وليون ، واستولت على قلورية ، ودخلت شانت ياقب ، واستولت على برشلونة ، وانتزعت كل ما استولى عليه المسيحيون جنوب نهر دويرة والإيبرو .

وإذا كان القرن العاشر الميلادي عصر محنة بالنسبة لمقاومة النصرانية ، فقد قدر لهذه المقاومة أن تبعث في القرن الحادي عشر بعثاً جديداً^(١) ، فقد سقطت الخلافة الأموية ، وتفرق شمل الأندلس ، وبات الناس لا يصدقون ما تراه أعينهم من ضعف وتخاذل وتقاعس ، وبدأت حركة المقاومة النصرانية تدخل في دور جديد من أدوار نضالها ، بدأت تدخل في دور جديد نستطيع أن نطلق عليه بحق دور الاسترداد Reconquista . فقد انهارت المقاومة الإسلامية على غير انتظار ، وبات على القوى المسيحية أن تجمع شملها ، وأن توحد صفوفها لترد المسلمين على أعقابهم ، وقد تمت وحدة القوى النصرانية على يد الملك شانجة الكبير سنة (١٠٠٠ م^(٢)) . فقد استطاع أن يجمع بين نبرة وقشتالة وليون وأرغونة وبرشلونة عن طريق المصاهرات . استطاع إذن أن يبسط سيادته على أسبانيا النصرانية من جبال البرانس إلى ما وراء شانت ياقب ، ومن بحر بسكونس حتى نهر دويرة فيما يلي هضبة الجزيرة الوسطى عند وادي الرملة الوعر^(٣) . كان شانجة الكبير هذا هو باعث هذه الحركة الكبرى المسماة بحركة

(١) Duruy : Hist. du Moyen age pp. 334—326

I dem. (٢)

(٣) يوسف أسباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين - ص ١١

الاسترداد ؛ التي استمرت في عهد ولده فردناند الأول ، ثم في عهد حفيده ألفونسو السادس ؛ ثم استمرت في آل بيته ، حتى كتب لهم الفوز ، فطردوا المسلمين نهائياً من شبه الجزيرة ..

وقد شاءت الظروف أن يخلف شنبعة الكبير ولده فردناند الأول ، الذي استطاع أن يتوسع في حركة الاسترداد ، وأن يخرج بها إلى نطاق أوسع . ولما كانت حركة الاسترداد تتطلب توحيد الصفوف قبل كل شيء ، فإن فردناند الأول لم يأل جهداً في ذلك السبيل ، بل وضع هذا الهدف نصب عينيه ، فما كاد يستقيم له الأمر حتى طمع في ملك ليون ، واستطاع بعد انتصاره في معركة تمارون أن يضم الإمارة إلى أملاكه ^(١) ، كما حازع البشكنس وتغلب عليهم ^(٢) . وبذلك تم له التوحيد بين ليون وقشتالة . وقد استولى أيضاً على مملكة نبرة الواقعة على الضفة اليمنى للإيبرو ^(٣) . كما حارب ملك أرغونة ، واستطاع بعد جهاد طويل أن يمهّد الطريق أمام القوى النصرانية لتخوض معركة الاسترداد ، فتم له توحيد الإمارات النصرانية تحت رايّتها ، واستطاع أن يوجه جموع المسيحيين وجهة واحدة هي مناضلة المسلمين ومدافعهم . وكان يعلم أن شدّ أزر حركة الاسترداد لا يتأتى إلا بتوثيق الصلات بين الدول النصرانية بأسبانيا ، وبين بقية الدول الأوروبية الأخرى . ويبدو أن هذه السياسة آتت أكلها ، فقد عمد البابا اسكندر الثاني سنة ١٠٦٣ م إلى تنظيم حملة لشدّ أزر الإمارات الأسبانية في كفاحها ضد المسلمين . وقد اشترك في هذه الحملة أمراء فرنسيون وجرمان وفرسان من إيطاليا . وقد هاجم المسيحيون برشتر ، وظلوا يحاصرونها أربعين

Pidal : The Cid and his Spain p. 59. (١)

I dem. (٢)

(٣) يوسف أشباخ ١٠ ص ١٢ — ١٠

يوما ، فلما سلم المحاصرون أجمع الغزاة فيهم قتلا ، حتى لقد روى أنهم قتلوا من الأسرى ما يقرب من ستة آلاف^(١) .

هكذا بدأت حركة الاسترداد في عهد فردناند تتخذ صفة دولية ، وبدأ المسيحيون في كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنها حركة جهاد مقدس ، ويبدو أن سياسة التقرب من الكنيسة الرومانية أثمرت ، فقد اتخذ فردناند لنفسه لقب امبراطور كتأكيد لسيادته على أسبانيا المسيحية ، كما كان يريد في الواقع أن ينافس هنري الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة^(٢) . كان فردناند يريد ألا يلعب دورا محليا صرفا إنما دورا عالميا ويسيطر نفوذه لا على شبه الجزيرة فحسب بل على غرب أوروبا كله إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

وقد مضت حركة الاسترداد في عهد فردناند في طريقها حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب باخضاع المسلمين ، وإجلائهم عن البلاد . فقد روى صاحب البيان أنه قال « إنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم فقد سكنتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الآن عليكم بزداءتكم ، فارحلوا إلى عدوتكم واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم^(٣) » .

فهل استطاع فردناند أن يجني من وراء حركة الاسترداد الغاية التي ينشدها الواقع إن سياسة فردناند في مدافعة المسلمين كانت ذات شقين ، فقد كان يعمل على إرهاب القوى الإسلامية ، وييث الدعر في قلوب المسلمين ، فلا يترك لهم فرصة يتنسمون فيها نسيم الراحة ، أو يذوقون طعم الطمانينة . كان يريد أن تظل

(١) ابن بسام : الذخيرة (مخطوط بغداد) . قسم ٣ ص ٨٩ ، ٨٤ ، Pidal,

(٢) يوسف أشباح ج ١ ص ١٢

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨١

القوى الإسلامية مجندة تجنيدا مستمرا ، حتى يثقل على الأمراء ويثقل على الناس حتى إذا ضاق الأمراء المسلمون ذرعا ، وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا إلى دفع الجزية ، والاستعانة بالأموال لدفع خطر الفرنجة : وقد دفع الجزية صاحب طليطلة ، وأشبيلية ، وصاحب بطليوس وسرقسطة^(١) . واشتط فردناند في طلب الجزية ، وكان يجنى من وزاء ذلك أموالا طائلة . وكان إذا آانس من الأمراء المسخين ضعفا مضى في توسعه لا يلوى على شيء ، فقد هاجمت قواته مدينة قلمرية^(٢) ، واستولت عليها ، وانصرف صوب الشرق ، وهاجم سرقسطة^(٣) ، ثم انحدر إلى الجنوب ، فحاصر طليطلة ، بل هجم أشبيلية نفسها وجاصر بلنسية ، وتمخضت هذه الحملات المتعددة عن توسيع رقعة أملاكه ، فلم تعد حدود قشتالة تنهى عند جبال وادي الزبوة بل انبسطت رقعتها شرقا وغربا^(٤) .

منهما يكن من شيء فإن حركة الاسترداد بلغت ذروة أوكادت في عهد فردناند ، وبدا للناس أجمع أن أيام المسلمين في شبه الجزيرة معدودات ، « ولم يزل ثغر الأندلس يضعف والعدو يقوى والفتنة بين أمراء الأندلس تسهر إلى أن كلب العدو على جميعهم ، وهل من أخذ الجزية ، ولم يقنع إلا بأخذ البلاد^(٥) » . ولولا وفاة فردناند سنة ١٠٦٥ م^(٦) ، وتفرق شمل ملكه عقيب ذلك لدالت دولة المسلمين بالأندلس نهائيا .

(١) ابن عذارى ج ٣ ص ٢٣٨

(٢) انرجع السابق ونفس الصفحة

(٣) يوسف أشباخ ج ١ ص ٢٠

(٤) المرجع السابق ص ٢٠

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨

(٦) Cambridge Med. Hist. vol. VI, pp. 393-395

ومن أسف أن الإمارات الإسلامية لم تستطع أن تنبذ خلافاتها ، أو تتحد
متمهزة هذه الفرقة التي أصابت المجتمع النصراني ، بل ظلت مفترقة الكلمة
يحارب بعضها بعضاً ، حتى قدر للإمارات النصرانية أن تنهض من كبوتها ،
وأن تسترد سابق قوتها ووحدةها حينما آلت الزعامة إلى ملك الفونس السادس .
ويبدو أن حركة الاسترداد كانت سياسة مرسومة لأمراء قشتالة منذ عهد شانجة
الكبير يتوارثها الخلف عن السلف ، إذ ما كاد الأمر يؤول إلى الفونسو حتى
أخذ يعمل جاهداً في سبيل التمكين لحركة الاسترداد ، واستئناف الجهاد على
صورة أوسع وأتم ، ولما كانت الوحدة هي سياج حركة الاسترداد وحصنها ، فقد
استطاع الفونسو بعد جهود شاقة أن يجمع أطراف ملك أبيه ، فاستولى على ليون
بعد وفاة أخيه شانجه ، كما انتزع غاليسيا ، وبسط سلطانه على الأقاليم الواقعة في
وسط البلاد وغربها إلى الشمال من نهر تاجه ، وبدأ يثب إلى زعامة القوى
النصرانية وثياً^(١) . فاستطاع أن يجمع كلمة أرغونة ونبرة ، فاتفقوا على نبذ
خصوماتهم والتعاون في سبيل مدافعة المسلمين . واتمام السياسة التي رسمت منذ
عهد شانجة الكبير^(٢) . ثم عمد إلى الإمعان في التقرب من الكنيسة الرومانية
ليستدر عطف الأوربيين وتأييدهم في كفاحه مع المسلمين . وكانت الكنيسة
الغربية في ذلك الوقت قد نهضت نهضة موقفة ، وبدأت تبسط سلطانها على دول
أوروبا المسيحية فرأى الفونسو أنه إذا أفلح في استدراخ عطفها وتوثيق صلته بها
فإنها ستجند القوى النصرانية لتأييده وشد أزره . وكان من أثر ذلك كله أن
ألغيت الطقوس القوطية من الكنيسة الإسبانية ، وحلت محلها الطقوس
الرومانية ، وانضوت الكنيسة الإسبانية تحت لواء روما^(٣) .

(١) Cambridge Med. Hist. Vol. VI p p. 393—395.

Idem. (٢)

Pidal: op. cit. p.p. 137—139. (٣)

وقد كان لهذه السياسة أثر بعيد في سير حركة الاسترداد، إذ أن الحروب التي كانت دائرة في شبه الجزيرة أضحت حروبا صليبية بمعنى الكلمة ترعاها كنيسة روما، وتباركها وتدعو لها، وتجنّد المسيحيين من أجل المشاركة فيها. وعند ما دعا البابا أوربان لإيقاد حملة صليبية إلى الشرق أحب بعض الإسبان أن يشارك فيها، فأبى لأنهم حاربوا المسلمين في الأندلس، فكأنهم قد اشتركوا فعلا في هذه الجهود الصليبية^(١). وكما وثق الفونسو صلته بروما وثق صلته بفرنسا، وأخرج بلاده من عزلتها الدينية، فتزوج كونستانس ابنة أمراء برجونية، الذين ينتمون إلى آل كاييه ملوك فرنسا^(٢).

فاستطاع الفونسو إذن أن يمكن الحركة الاسترداد، وأن يهد السبيل أمامها لتنتج وتحقق أهدافها. فلنحاول إذن أن نعزف مقدار ما أحرزه من نجاح في هذا السبيل.

الواقع إن الفونسو السادس لم يأت بمجديد في وسائله ولا في أهدافه، فقد سار على خطة سنها أسلافه وأملت لها طبيعة الحياة في الأندلس فقد كانت الحرب بين المسلمين والنصارى حرب قلاع وحصون وليست لقاء في معارك حاسمة تقرر مصير هؤلاء ولا هؤلاء. ولم يكن في مقدور القوى النصرانية أن تحاصر هذه القلاع والحصون، أو أن تقتحمها دفعة واحدة، لذلك كان من أهداف الفونسو أن لا يعرض جنده لخسائر فادحة بمصارعة هذه الحصون ومحاولة اقتحامها، إنما كان يرمى إلى استنزاف دماء الإمارات الإسلامية بأن يشهر عليها سلاح الإرهاب ويضطرها إلى دفع الجزية ويضاعف مقدار هذه الجزية عاما بعد آخر، حتى إذا عجزوا عن الدفع ضرب عليهم الحصار، وأرغمهم على قبول شروطه ارغاما^(٣).

(١) A. Lemann: L'origine de l'idée de la Croisade, Hesp. 1937, T., XXIV, p. 139.

(٢) يوسف أشباخ ج ١ ص ١٣٩.

(٣) عبد الله بن بلكين: البيان ص ٣٢٠. أعمال الأعلام ص ٢٧٧.

كان يعتمد أيضا إلى ضرب الحصار على القلاع والحصون بينما تعمل قواته على اتلاف الزرع وهلاك الضرع ، حتى إذا عض الجوع المحاصرين سلموا للطاغية بلا قيد أو شرط . وقد قدر لهذه السياسة أن تنجح نجاحا تاما لأن المسلمين لم تسكن تجتمع لهم كلمة لمواجهة مثل ذلك الخطر مع أنهم كانوا يعرفون أهداف الفونسو ومشروعاته معرفة تامة .

وكان من أثر سياسة الفونسو السادس هذه أن سقطت مدينة طليطلة في يده كما تسقط الثمرة الناضجة ، فقد أثقل على صاحبها بالجزية ، وانتزع منه بعض الحصون المحيطة به ، ثم انقض على المدينة ، وضرب عليها حصارا طويلا فت في عضدها وأنهك قواها ، فلم يجد المحاصرون بدا من التسليم^(١) . وكان لسقوط طليطلة في يد الفونسو أثر عظيم في حركة الاسترداد ، وفي الهاب حماس القوى النصرانية ، فقد كانت عاصمة القوط القديمة ، وكان فتحها نذيرا بأحياء ملك القوط القديم ، والعمل على طرد العرب من الأندلس نهائيا ، وسما قدر الفونسو السادس في نظر معاصريه إلى مرتبة رفيعة ، فاتخذ لقب امبراطور^(٢) ، كما اتخذ لقب « ذى الملتين » ، وصار يكاتب أمراء المسلمين قائلا « من الإمبراطور ذى الملتين الملك المفضل أذفونش بن شانجة^(٣) » . وبدأت تراودة الآمال التي راودت أباه من قبل ، وهي طرد العرب من الأندلس نهائيا . قيل على لسانه « انما كانت الأندلس للروم في أول الأمر حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأبخس البقع جليقية فهم الآن عند التمكن طامعين في أخذ ظلاماتهم^(٤) » .

وإذا كان النصارى قد تضاعفت آمالهم ، فإن المسلمين في شبه الجزيرة قد فت في عضدهم وتفشى الرعب في أوصالهم ، وبادروا إلى الفونسو بخطبون

(١) النخبة : القسم الرابع المجلد الأول ص ١٢٧ . ابن خلكان ج ٢ ص ١٨٦ ، ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٧ . المقرئ ج ٢ ص ١٢٢٥ .

(٢) Pidal: op. cit. p. 207.

(٣) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ٢٥ .

(٤) عبد الله بن بلسكين : البيان ص ٣٢٠ .

وده ويسترصونه بالمداغة في دفع الأتاوة . ولكنّه لم يقنع بذلك إذ كان لابد له بعد أن استنزف أموالهم أن يقتحم ديارهم . كان بطمع في قرطبة حاضرة الخلافة « أشاروا عليه بلبس التاج فقال لا حتى أطأ ذروة الملك وأخذ قرطبة وإسطة السلك^(١) » . ثم تفتحت أمامه الآمال ، وبدأت الحصون الإسلامية في شبه الجزيرة تنهار أمامه واحدة بعد أخرى ، فاستولى على بلنسية^(٢) ، كما أرسل إلى كل الإمارات الأندلسية نواباً عنه ليفرضوا سلطانه ويرهبوا عدوه ، ويحصلوا الغرامات والأتاوات^(٣) ، وضرب الحصار على سرقسطة ورفض الأموال السخية التي عرضها صاحبها^(٤) عليه ، وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة ، كما استولت على حصن لبيط (Alledo) بأقليم مرسية ، كما سيطرت على المريّة وبلغ التوسع النصراني الأوج^(٥) ، وبات الناس يعتقدون أن معركة الاسترداد لن تقف عند حد ، بل تمضي كالتيار الجارف تقتلع كل ما في طريقها ، فلا تبقى على شيء . وتذهب الروايات في تصوير آمال الفونسو مذاهب الغلو ، فتقول « أنه سار حتى وصل إلى جزيرة طريف في أقصى الجنوب ، فأدخل قوائم فرسة في البحر وقال هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته^(٦) » ، وسواء أصبح ذلك أم لم يصبح فإنه يصور لنا كيف أن آمال ملك قشتالة قد تجاوزت كل غاية ، وأعتقد عن يقين أنه محيى ملك لدريق ، وأنه لا معصم للمسلمين من بطشه إلا التسليم ، أو الفرار بدينهم إلى بر العدو . ولكن الأيام سوف تخلف ظنه ، حين تدلف عصبة مجاهدة مؤمنة إلى الميدان آخذة بناصر المسلمين .

(١) النخبة القسم الرابع المجلد الأول ص ١٣١ .

(٢) Pidal: op cit. p. 207.

(٣) I bid: p. 205

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٨٦ .

(٥) Pidal: op. cit., p. 189.

(٦) النخبة القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٢١ .

وما دمنّا قد استعرضنا مظاهر القوة التي طرأت على مجتمع النصراني في شبه الجزيرة قلبت الأوضاع ، فلا بد من أن نعرض للأسباب التي أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية هذا الانهيار المفرط ، والتي أدت إلى تفرق شمل القوى الإسلامية ، وانحلالها على هذا النحو الذي رأيناه . كان انهيار الخلافة الأموية هو الكارثة العظمى التي خطبت الوحدة الإسلامية بشبه الجزيرة ، فقد كان الأمويون وهم قرشيون يخلعون على البلاد نوعا من الوحدة الشرعية ، وكانوا في الواقع خير من يوحد بين الأحزاب المتنافرة ، ويصفي على البلاد لونا من ألوان الاتحاد ، حين عملوا على توجيه الجهود المختلفة وجهة واحدة نحو الكفاح المشترك .

وكانت البلاد في الواقع تحكم حكما اقطاعيا ، فقد تمخضت طبيعة البلاد الجغرافية ، وتنوع بيئاتها عن قيام لون من ألوان الاستقلال المحلي في ظل هذه الوحدة العامة ، ويبدو أن ضعف الخليفة أوقوته لم يكن له أثر يذكر في ضعف المجتمع أوقوته . فقد كان هشام المؤيد خليفة ضعيفا ، ولكن المنصور بن أبي عامر كان يدير دفة الجهاد باسم الخليفة الأموي في قوة خارقة للعادة . فلما سقطت الخلافة الأموية وعز الأمير الشرعي الذي يؤلف بين القوى المتنافرة انتشر الهلك وتفرقت الوحدة ، واستردت كل مقاطعة استقلالها كاملا . وهذه الفرقة الشاملة كانت ظاهرة انتابت الشرق الإسلامي كله في مثل هذا الوقت تقريبا ، ولكنها في الأندلس كانت كارثة لا معصم منها ، فقد كانت الحركة الدائرة الرخي بين المسلمين والنصارى القاطنين في ديار متجاورة متلاصقة تتطلب الوحدة ولم الشمل . ومن الغريب أن ملوك الطوائف قد استمروا سياسة الاغتصاب ، وأكسبوها في نفوسهم صبغة شرعية ، فقد روى المؤرخون أنهم كانوا يقولون « توارث هذه الإمارة مخزقة وضعتها قریش لاستعباد الناس والناس لأب وأم والفخار باطل

أحقهم بالملك من استقل به^(١) .

حدث هذا كله في الوقت الذي بدأت فيه القوى المسيحية تنهض اقتصاديا وتقر الأمن والطمأنينة في البلاد المفتوحة ، فتنوعت مصادر الثروة حين تضاعف عدد المشتغلين بالزراعة والتجارة ، وبدأت هذه القوى يستظلمها نوع من الوحدة بزعامة ملوك قشتالة، الذين راحوا يعملون على بعث القومية في نفوس مواطنيهم وتوجيههم نحو هدف مشترك^(٢) . وقد حدث هذا أيضاً في الوقت الذي أخذت فيه النهضة تدب في أوصال أوروبا في القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر ، وظهرت ملكيات جديدة في الوقت الذي نهضت فيه الكنيسة الرومانية نهضة عظيمة بعد حركة الإصلاح الكلوونية ، وبدأت تبسط سلطانها على غرب أوروبا ، وتدفع القوى المسيحية المختلفة إلى خوض معركة حاسمة مع الدول الإسلامية في الشرق والغرب^(٣) .

ومن الأسباب التي أدت إلى انهيار المقاومة الإسلامية أيضاً هذه الطائفة البغيضة التي أصابت البلاد ، فنخرت في صرح وحدتها حتى دكتته ، ونعني ذلك النزاع الذي نشب بين العرب والبربر ، هذا النزاع الذي ظهرت بوادره في عصر الولاة ، ولكن آثاره تضاعفت منذ عهد المنصور بن أبى عامر ، الذي كان لا بد له ليضطلع بحركة الجهاد على نطاق واسع من ألا يعتمد على المطوعة والمرتقة من جند الأندلس ، بل على المجندين من البربر فكثر منهم ، واعتمد عليهم اعتماداً مطلقاً في تنفيذ مشروعاته السياسية ، ومناضلة الأرستقراطية العربية في شبه الجزيرة ، فلما سقطت الخلافة أوقدوا نار الفتنة وعاثوا في الأرض ، وفرقوا الوحدة الإسلامية شر مفرق^(٤) .

(١) ابن إسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، مجلد ١ ص ١١٢ .

(٢) Cambridge Med. Hist. Vol. VI. p. 393.

(٣) Ibid p. 267

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٤ .

(م — ٢٤ قيام دولة الموحدين)

يضاف إلى هذه الأساليب أيضا أن سياسة المنصور من أبي عامر القاضية بالافراط في الجهاد أنهكت الدولة . كما أن هذه الحملات العديدة استنزفت أموال البلاد ، وحصدت زهرة الجند ، وكان باستطاعة المنصور لو كان بعيد النظر أن يحتفظ بحدود الدولة كما هي ، وأن يتخذ سياسة الدفاع والتفرغ للإصلاح الاقتصادي والاجتماعي . ولكن المنصور كان يريد أن يتخذ من الجهاد سلما يحقق أغراضه وأهدافه ، ولا ندري إلى أي هدف كان يسعى ذلك الرجل البعيد الأطلاع .

ولم تكن أخطاء المنصور السياسية هي التي أدت وحدها إلى أن تعصف بالوحدة الإسلامية ، بل اتخذ المنصور سياسة اقتصادية كانت ذات أثر فني منيت به الأندلس ، فقد كانت الدولة تقطع الجند أرضا يستغلونها لقاء خدمات حربية يؤدونها في أوقات معلومة ، ويظهر أن هؤلاء الجند كانوا يعنون بالإنتاج الزراعي عناية فائقة ، « فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والأجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج إليه ^(١) » . لكن المنصور في أواخر عهده عمد إلى مصادرة هذه الإقطاعات ، ومنح الجند أعطيات شهرية ، ورتب على الأرض جباة أساءوا السيرة وظلموا الرعية ، « فلما ثقلت اوطاة على الناس بدعوا يهيجرون الأرض ويفرون منها حينما اشتد ساعد الفتنة وظهرت ريح المحنة ^(٢) » .

يضاف إلى ذلك أيضا ما منيت به البلاد من طائفة المستعربين ، وأشباه المسلمين الذين كانوا يعرفون العربية ، ويؤلفون جاليات كبيرة انبثت في طول البلاد وعرضها ، فلما انتهزت الخلافة كانوا من أشد أنصار الممالك النصرانية إخلاصا ، يفشون أسرار المسلمين ، ويكشفون عن عوراتهم . وكان النصاري

(١) الطرموشي : سراج الملوك ص ١٢٣ .

(٢) Pidal : op. cit p. 43

إذا تقدموا محاربين أو محاضرين ، ساروا كأنهم بين أهلهم وقومهم ، فكانوا
يضرّبون خيامهم في ظاهري مرسية أو بلنسية دون أن يخشوا شيئاً^(١) .
مهما يكن من شيء فإن الأوضاع في الأندلس تنهت في السوء ، وأصبحت
الحياة فيها شاقة عسيرة ، ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها . تحكمت
الذاتية في أطماع الناس شعباً وحكاماً ، وأصبح الأمراء يعيشون لساعتهم لا يحسبون
حساباً لغدهم ، منغمسين في الترف ، متهاقين على الملذّة^(٢) . وكان من الممكن
أن تضطلع إمارة أشبيلية بحركة توحيد القوى الإسلامية في شبه الجزيرة ،
وكانت الظروف ترشحها لمثل هذه الزعامة^(٣) ، ولكن أمراءها أعمتهم الأهواء
الخاصة ، وابتاعوا السلم الزائف بأفدح الأثمان ، ومدوا أيديهم للطاغية بحالفونه
ليفتك بإخوانهم في الدين . وقد تجلت هذه السياسة القصيرة النظر فيما رواه
المؤرخون على لسان بعض أمراء الأندلس^(٤) ، ومنهم المعتمد بن عباد حين قالوا
« الحال مع العدو قصمه الله سيئة لا تحتاج إلى جلاء ولا كشف معروفة لا تفتقر

(١) « يل حلت الفاقة بعد مجاعتهم حين أيقن النصارى بضعف الاتن وقويت أطباعهم
بافتتاح المدن واضطربت في كل جهة نارهم ورويت من دماء المسلمين أستهم وشغارهم ومن
أخطأ القتل منهم فانما هو بأيديهم سبابا يمتحنونهم بأنواع البلاء حتى ذبو عما أرادوه من
أمن الثوب وأشرفوا على ما أملوه من التغلب وحصلت مدينة قورية أولاً في يد العدو إلى
عدة حصون وقلاع كلها في غاية الحضانة والامتناع ثم لم يزل التخاذل يتزايد والتدابير يتساند
حين حلت الفاقة وقضيت القضية وتعجلت البلية بحصول مدينة طليطلة في أيدي النصارى
وذلك سنة ٤٧٨ هـ وفي من الجزيرة كنقطة الدائرة وواسطة القلادة تدركها من جميع نواحيها
ويستوى الاضرار بها فاسيها ودانها وفي ذلك يقول بعض الشعراء .

حنو مطاياكم عن أرضي أندلس فسا اللقائم بها الا من الفلظ
فالتوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

(الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠١ - ١٠٢) .

(٢) Dozy : Abbadidarum Vol. II, p. 8.

(٣) Camdribge Med Hist. Vol. 6 p. 395.

(٤) الذخيرة ، مخطوط بغداد ، قسم ٢ ص ١٥٣ .

إلى نعت ولا وصف ومن لا يمكن مقاومته ومخاشفته فليس إلا مداراته وملاينته^(١) .

وقد اضطرت روح الضعف هذه ملوك الطوائف إلى تسخير المرتزقة من النصارى في تحقيق أغراضهم ، والإغارة على إخوانهم في الدين ، وقد تفشى في الناس شعور بالذلة والمسكنة لم نعهده في أمة عربية من قبل ، فقد وسعوا بالجن ولم تقوا أجنتهم المهيضة على أن تثبت أمام العدو في زحف أو قتال^(٢) ، ولا يمكن أن نفسر ذلك إلا بأن الدين قد ضعف سلطانه على قلوب الناس ، على حين كان الجند النصارى يجاهدون من أجل هدف واحد معروف يؤلف بين قلوبهم ويلهب حماسهم ويدفعهم إلى البذل والفداء^(٣) . وليس بغريب أن نرى جمهرة الشعب على هذا النحو من التخاذل ، ما دام أمراؤهم قد خانوا الأمانة على مرأى ومسمع من الناس ، فانهارت القوى المعنوية للشعب ، وكاد يفقد قدرته على المقاومة والنضال . هذا إلى جانب ما كانوا يرزحون تحته من أعباء مالية باهظة ، فقد كان الأمراء في سبيل استرضاء ملوك النصارى يغالون في فرض الضرائب ، ويبتزون أموال الناس ويثقلون عليهم حتى أصبحوا بين عدو يترص بهم وأمير يستنزف دماءهم ، ويكفى للتدليل على فساد الحياة في الأندلس في ذلك العصر ما صورته ابن عبدون صاحب رسالة الحسية من على اجتماعية خطيرة ومفاسد دبت في جميع مرافق الحياة حين قال « وبالجملة كان الناس قد فسدت أديانهم وإنما الدنيا القانية والزمان على آخره وخلاف هذه الأشياء هو ابتداء المهرج وداعية الفساد وانقضاء العالم^(٤) » .

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد ، قسم ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٣) Dozy : Recherches, vol. II, p 103

(٤) ابن عبدون : رسالة في الحسية ص ٢٥١ .

وكان الفقهاء والمفكرون^(١) يشاهدون هذه الفرقة الداهية ، فيتألمون لما أصاب المجتمع من انحلال ، وبصورتهم هذه الحالة المفجعة بأسلوب مغمم بالألم . والحسرة . كتبوا إلى الأصحاء يدعون إلى الوحدة ، وتأليف القلوب لمواجهة ذلك العدو الذي استشرى داءه ، فلم يستجب لهم مستجيب ، إلا أن جهودهم لم تذهب سدى ، فقد أخذوا يزهدون أهل الأندلس في الأوضاع القائمة على الفساد ، ويهينون العقول لقبول تحول جديد في تاريخ البلاد ، ويمهدون السبيل لأمم المرابطين الذين خفوا إلى حومة الجهاد متأخين مناضلين .

١٢ — استدعاء المرابطين للمجهاد في الأندلس :

وقبل أن نعرض لقصة الجهاد في الأندلس ، ونكشف عن ذلك الدور الرائع الذي اضطلع به المرابطون يجب علينا أن نبين رأينا في أمر نعتقد أنه على جانب عظيم من الأهمية . لا بد أن نعرف هل لبى المرابطون داعي الجهاد في الأندلس حبا في الجهاد وخدمة للدين ، أم أنهم استدعوا إلى الأندلس استدعاهم ملوك الطوائف لإيقادهم مما حل بساحتهم من عدوان النصارى . ومن الغريب أن روايات المؤرخين في هذا الصدد متناقضة أشد التناقض مختلفة أشد الاختلاف مشوبة بظايع خرافى مبالغ فيه . وكل ما يمكن أن نخلص به من هذه الروايات المختلفة^(٢) أنها تحاول أن تظهر المعتمد بن عباد أمير أشبيلية بمظهر

(١) أبو عبد الرحمن بن طاهر (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص ٧٢)
أبو محمد بن أبي عمر بن عبد البر النمري (الذخيرة بغداد قسم ٣ ص ٥٥)
أبو عبد الله البزلياني (الذخيرة القسم الأول مجلد ٢ ص ٤٥٧)
أبو الوليد الباجي الأندلسي (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص ٣٩)
أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني (الذخيرة بغداد قسم ٢ ص ٣٤)
أبو الوليد محمد بن عبد العزيز والوزير أبو عامر التماري وأبو الأصمغ بن أرقم
(٢) الحميري : الروض للعطار ص ٨٥ . الحلال للوشية في الأخبار المراكشية ص ٣٠
بو ٣٢ . روض القرطاس ص ٩٢ و ٩٣ . المراكشي : المعجب ص ٨١ . الذخيرة : مخطوط
بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ . المطرب لابن دحية ورقة ٩ ب .

صاحب اليد الطولى فى استدعاء المرابطين إلى الأندلس . تبني الفكرة ودافع عنها ، وراسل يوسف بن تاشفين ، يصوره له سوء الحال ، ويلهب حميته وحماسته ويستدر عطفه . بل ذهب المؤرخون ^(١) إلى أبعد من هذا ، فقالوا إن المعتمد قد عبر البحر إلى المغرب ، وسمى إلى مقابلة يوسف شخصيا لاستنهاض همته ، فكان يوسف كان عازفا عن التدخل حتى حمل المعتمد على ذلك حملا . وذكروا أيضا أن ابن الأفطس ، صاحب بطليوس قد شاركه هذه الخطة ^(٢) ، وأيده فيها كل التأييد . وبعد أن كان أمراء الأندلس يقفون من هذه السياسة وقفة التردد اضطروا إلى أن يدلوا بدلوهم فى الدلاء ، ويشاركوا فى هذه السياسة ويستصرخوا بالمرابطين يعدونهم بالنصرة والتأييد إذا هم عبروا البحر إلى الأندلس مجاهدين ^(٣) .

ولا يمكن أن نمر على هذه الروايات دون أن نرى لنا فيها رأيا . ويبدو أن أغلب المؤرخين الأندلسيين حاولوا أن يظهروا أمراء أشبيلية بمظهر البطولة وأصحاب الفضل في بعث حركة الجهاد . كما حاولوا أن ينعضوا من شأن أهل المغرب ، ويظهروهم بمظهر الذي يلبي نداء أهل الأندلس ، هو يأتمر بأمرهم ، ومن الغريب أن هذه الظاهرة تشاهد بجلاء ووضوح فيما يرويها المؤرخون المنحدرون من أصل أندلسي ، فهم يحاولون دائما أن يرفعوا من شأن الأندلس ، ويعلموا من ذكرها ، كما أن بعض المؤرخين الذين تعرضوا لهذا الموضوع كتبوا في عصور متأخرة نوعا ، وقد يكون ذلك في عصر الموحدين ، أو بعدهم ، حين اعتاد الناس أن ينظروا إلى المرابطين نظرة معادية ، وأن يشوهوا تاريخهم ، وينعضوا من شأنهم في الوقت الذي يحاولون فيه أن يرفعوا من شأن الموحدين ، ويعلموا من

(۱) المراكشي: المعجب من ۸۱. الطرب لابن دحية ورقة ۹ ب.

الأصبهاني: الحريدة ج ١١ ص ١٨٠. النويري ج ٢٢ ص ١٨١.

(٢) الحميري : الروض المطار ص ٨٦ .

(٣) النخيرة : بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ .

ذكركم ، فبأن يكون المرابطون هم البادئون بالجهاد ، وه أصحاب الفضل على الإسلام ، وعلى أهل الأندلس .

ومن الغريب أن المؤرخين حين تعرضوا لتوسع المرابطين في المغرب غزوا ذلك إلى ما كان من استنجد بعض فقهاء سلجلماسة بقيادة الملتزمين رزعمائهم . ثم تعود المراجع^(١) فتعترف بأن دولة المرابطين قامت من أجل الجهاد ، وأنها تحله من سياستها محلاً رفيعاً ، وتسخر قوتها من أجل إحياء الإسلام ، وإنقاذ العالم الإسلامي مما دهمه من فرقة وتخاذل ، يدل على ذلك ما رواه صاحب الذخيرة^(٢) على لسان بعض من كتب يستنجد بيوسف ، إذ قال « وقفت على الجهاد عزائمك وضح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر وعلى غزوه الشرك أقدر قادر وجب أن تستدعي لما أعضل من الداء وتستغاث ... ، وما أحضكم على الجهاد ، بما في كتاب الله فإنكم له أتلى ولا أحضكم على الشرع وبما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم إلى معرفته أهدى » .

لذلك أخذ يوسف بعد أن تم له فتح بلاد المغرب يحب أرجاءه محرراً على الجهاد داعياً له مستنقراً القبائل على أن تنخرط في سلك المجاهدين^(٣) ، سواء أكانت هذه القبائل من أنصاره أم من أعدائه ، لأنه كان يعتقد أنه لا بد من أن تتحد القوى الإسلامية كلها للقيام بجهد مشترك موحد . نعم كان الجهاد هو الشعار الذي اتخذ يوسف بن تاشفين لنفسه ، حين قال « أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا نفسي^(٤) » ، فكأنه كان ينفذ

(١) الحلل الموشية ص ٣٦ . روض القرطاس ص ٩٣ . المراكشي ص ٨١ الذخيرة

مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٢٥٩ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

(٤) المراكشي : العجب ص ٨١ .

تعاليم إمامه عبد الله بن ياسين ، وابن عمه أبي بكر بن عمر . نعم أقدم يوسف على فتح سبتة وطنجة لاحقاً في التوسع والفتح فحسب ، بل ليكن دولته الناشئة من أن تتخذ قواعد لأسطولها الناشئ الذي سوف تسخره لمناهضة القوى الفرنجية في البحر ، وحماية القوات المرابطية حين تعبر إلى الأندلس مجاهدة في سبيل الله^(١) إذ لا بد أن يكون يوسف قد وضع أمر الجهاد في الأندلس نصب عينيه ، وهو يسير جيشه لفتح سبتة وطنجة ، فقد كان يمكن لقواته ويتخذ العدة لحشد القوى الإسلامية لمواجهة خطر الفرنجة ، كما يجب ألا ننسى أن فتح سبتة وطنجة قرب الصلة بين المغرب والأندلس ، وأصبح المرابطون وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون ما يجري فيها من أحداث ، ويرقبون المعركة الدائرة الرحي بين المسلمين والنصارى .

ويجب أن لا تغفل ناحية أخرى هامة هي أن الفقهاء والعلماء كانوا يرحلون من الأندلس إلى المغرب ، وكان كثيرون من الأندلسيون ينفرون إلى بر العدو معتصمين بالمرابطين نجاة بأنفسهم ودينهم . يروى المؤرخون أن هؤلاء الفقهاء كانوا يروون لشيوخ المرابطين قصصاً دامية ، وحوادث مفرجة يهتز لها كيان كل مسلم مخلص لدينه معتز به . وكان بعض هؤلاء الفقهاء يخفون إلى لقاء يوسف ابن تاشفين مجتهدين بالبكاء لما أصاب بلادهم من بؤس وشقاء^(٢) فتهتز نفسه ، وتقوى عزيمته على وجوب التدخل مهما كان السبب .

ويبدو أن توسع المرابطين صوب سبتة وطنجة لم يصادف هوى في نفوس أمراء الأندلس ، فتوجسوا خيفة ، وأحسوا أن قوة جديدة بدأت ترقب حركاتهم وسكناتهم ، وتتهم بمباذلم ومساخرم ، وتتهماً للأخذ بتأصيتهم . يدل على ذلك ما رواه المقرئ حين قال « لما ملك يوسف بن تاشفين اللطوني المغرب وبنى

(١) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ١١٧٥ .

(٢) الحميري : الروض المطار ص ٨٦ .

مدينتي مرا كش وتلمسان الجديدة وأطاغى البربر مع شكيمة الشديدة وتمهدت له
الأقطار الطويلة المديدة تاقت نفسه إلى العبور إلى جزيرة الأندلس فهم بذلك
وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا
للسامه بجزيرتهم وأعدوا له العدة وصعبت عليهم مدافعتة وكرهوا أن يكونوا
بين عدوين القرنج عن شمالهم والمسلمون عن جنوبهم وكانت القرنج تشتد وطأتها
عليهم^(١) ، كما أن المعتضد بن عباد لما علم بزحف المرابطين أمر بتحصين الجزيرة
الخضراء وجبل طارق .

أما المراجع التي تصور لنا المعتمد بن عباد بأنه بطل الاستنجاد ، ومتبنى
فكرة استدعاء المرابطين فإنها تعود فتذكر أن ثمة خلافا وقع بينه وبين ابنه الراشد
الذي كان يرى ألا يستنجد أبوه بالمرابطين مخافة أن يطمعوا في ملكه ويصرفوه
عما بيده من البلاد^(٢) ، ويضيفون إلى ذلك أن غالبية ملوك الطوائف كانت
تتوجس خيفة من تفكيز المعتمد في هذا المشروع ، وكان « كلهم يحذره سوء
عاقبته وقالوا له الملك عقيم والسيوف لا يجتمعان في غمد واحد^(٣) » . وأشاروا
عليه بمداواة الفونسو ومصانعته وإجابته إلى ما يطلب^(٤) . بل إن الأمير عبد الله
ابن بلكين أمير غرناطة الذي شهد هذه الأحداث ، واشترك في هذه الوقائع
يشير إلى هذا التوجس ، وهذا الخوف من يوسف فيقول « وأنس الجميع ولما
يتربص في البلاد ألا يوحش سلاطينها بما يتوقعوه من انخياش رعيتهم إليه فكل
من شكوا إليه ذلك الوقت من رعيته يقول له لم تأت لهذا والإسلاطين أعلم بما
يصنعون في بلادهم^(٥) » . إذن لم يكن هنالك إجماع على الاستنجاد بالمرابطين

(١) المقرئ : فتح العليب - ٢ ص ١١٧٥ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣١ . أعمال الأعلام ص ٢٨١ .

(٣) الحميري : الروض المنظر ص ٨٥ .

(٤) ديوان ابن حمد يس الصقلي ص ٣٧٧ .

(٥) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٩ .

كما يصور المؤرخون ، بل كان من رأى بعض رجلاء الأندلس أن يستنجدوا
بعرب بني هلال ، الذين كانوا قد غزوا إفريقية ، وكادوا يطوحون بملك
بني زيري^(١) .

ولكن المراجع كشفت النقاب^(٢) عن ناحية أخرى هامة ، كشفت
عن الدور العظيم الذى لعبه الفقهاء فى الأندلس ، وبينت كيف سعى هؤلاء
المخلصون لقضية وطنهم إلى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية
المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى ، وخصوصاً بعد سقوط طليطلة ،
واستشراء داء النصارى فى شبه الجزيرة ، فعقدوا مؤتمرا فى قرطبة تذاكروا
فيه أحوال البلاد ، وما منيت به من ضعف وتخاذل ، وعرضوا لما كان من عجز
الإمارات الإسلامية عن الاتحاد والتعاقد ، وإمعانها فى التخاذل والتخاصم ، ورأوا
أنه ليس أحسن من الاعتصام بالمرابطين ، وتأييد المشاريع التى كانوا قد بدءوا
يعدونها لخوض معركة الجهاد فى الأندلس . ومن أئمة هؤلاء الساعين إلى توحيد
القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصر
الإسلام ، ويروم جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم^(٣) ، ولم لا يكون رسل المرابطين
من فقهاء المغرب قد انبثوا فى بلاد الأندلس فى ذلك الوقت يؤلبون فقهاءها قادة
الرأى العام على ملوك الطوائف ويمهدون لجيوش المرابطين إذا هى نزلت شبه الجزيرة
حتى يخف إليها الشعب مؤيدا ومؤازرا ، فلا يجد ملوك الطوائف مناصا من
السير مع السائرين . كان باستطاعة يوسف بن تاشفين لو كان عازقا عن التدخل
فى شئون الأندلس أن ينصرف إلى غزو إفريقية والتوسع شرقا ، وكانت الأحوال
هنالك تمهد لمثل هذا التوسع لو أن المرابطين أقدموا عليه . ولم يكن يوسف

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٢ . المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٨ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثانى ص ٩٩ ؛ ابن خلكان ج ٢ ص ٣٠ ، المقرئ

ج ٢ ص ١١٧٨ - ١١٧٩ .

(٣) القاضى عياض : ترتيب الدارك ج ٤ ص ٥٧٢ .

يسعى إلى كسب مادي ، بل كان يسعى إلى نصر أدبي ، هو تحقيق أهداف المرابطين من الجهاد والتمكين للدولة الناشئة ، فانصرف إلى فتح سبتة وطنجة ، وشرع في بناء السفن واتخاذ الأهبة لخوض معركة الجهاد ، والدفاع عن القوى الإسلامية في المغرب .

ويخيل إلينا أن يوسف كان يعد العدة للتدخل في الأندلس ، حتى لو لم يستجد به ملوك الطوائف ، وهل كان في تأييدهم له ووقوفهم في صفه غناء ما دام الشعب والفقهاء يؤيدونه ويقفون في صفه . ويخيل إلينا أيضا أن ملوك الطوائف في الأندلس قد أحسوا بهذا ، ولسوا بأنفسهم مبلغ تهيو يوسف لدخول الأندلس فأحبوا أن يستفيدوا من حركة قائمة قبل أن يكتسحهم تيارها ، فيظهروا أمام العالم الإسلامي بمظهر المتقاعسين عن الجهاد^(١) ، فكاتبوا يوسف بن تاشفين تحت ضغط الفقهاء . وليس يبعد أن يكون شأن المعتمد بن عباد شأن بعض الأمراء مثل المتوكل بن الألفطس وعبد الله بن بلكين قد كاتب يوسف بن تاشفين في هذا الوقت بالذات حينما أحدثت به قوات الفونسو ، وأحس أنه لن ينج من المصير المحتوم إلا بالسير في ركاب المحبذين لجواز المرابطين إلى الأندلس ، والمؤيدين لمشروعات المرابطين في شأن الجهاد^(٢) . كما أن تطور الحوادث في الأندلس سنة ٤٧٩ هـ قد أظهر لكل ذي عينين أن القوى النصرانية تريد أن تبتلع كل شيء ، وأنه لا بد للأمراء إذا أرادوا السلامة أن يؤيدوا الدولة الناهضة التي كانت تستعد للجهاد في ذلك الوقت .

(١) ابن الكردبوس التوزري : كتاب الاكتفا نقلا عن .

Gayangos vol. II, ap. C. P. XXXII.

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثاني ص ٩٨

يتبين مثل هذا الاتجاه مما رواه شاهد عيان لما كان يجري في هذا الوقت من حوادث ، ذلكم هو الأمير عبد الله بن بلكين الزيري الذي وصف استيلاء المرابطين على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق ، فقد ذكر أن المعتمد بن عباد أخذ يماطل ويسوف في تسليم هذه الجزيرة برغم وعده بتسليمها ، وأن المرابطين انقضوا على هذا الموقع ، وفوجئت قوات أشبيلية بمساكر المرابطين تحديق بهم «التفت القوم إلى خيل قد ضربت محلها لم يدر متى أقبلت ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزيدون ويترادفون حتى انكسر المعسكر كله على الجزيرة مع داود بن عائشة وأحدقوا حوالها يجرسونها^(١)» . وقد عارض الراضي ولد المعتمد في ذلك ، فقال له داود بن عائشة « وعدتمونا بالجزيرة الخضراء ونحن لم نأت لأخذ بلد إنما أتينا للجهاد فأما أن تخلوها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا وإلا فالذي تقدر عليه نصنع » ، فلم يجد أمير أشبيلية مناصا من التسليم ما دام المرابطون قد وضعوه أمام الأمر الواقع .

كان المرابطون كما قلنا يعدون المدة لخوض معركة الجهاد مهما كلفهم ذلك ، فقد قال يوسف « إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استبدادهم على أكثرها وغفلة ملوكهم وأهالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإبشارهم الراحة . . . ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه القتنة إلى المسلمين ، ولأملأها عليهم خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش إنما هم أحدهم فرس يروضه^(٢) » . هذا هو دستور الجهاد في الأندلس وتلك هي أهدافه وأغراضه فلنحاول أن نتتبع قصته حتى نعرف إلى أي حد أفلح يوسف في تحقيق ما تنهيه .

(١) عبد الله ابن بلكين : البيان ص ٢٣٧ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٠٣ .

١٣ — الدور الأول من أدوار الجهاد في الأندلس — فكرة الجبهة المتخفية

ومهما يكن من شيء فقد احتلت طلائع المرابطين الجزيرة الخضراء وبدءوا يتخذونها معسكراً كبيراً تتدفق إليه قواتهم فوج يتلوه فوج ، كما أخذوا يحشدون القوات ويشترون العدة والسلاح^(١) ، وتهيأون للخطوة المقبلة ، كما بعثوا إلى الجزيرة بأعداد كبيرة من الإبل لتشارك في معارك الأندلس ، وربما كان ذلك للمرة الأولى^(٢) ، وقد علت صيحة الجهاد فتردد صداها في الأندلس والمغرب ، وبدأت القوات تحتشد عند مدينة سبتة ، وجاءت الوفود المجاهدة من الصحراء وبلاد القبلة والزاب ، ولم تتخلف قبيلة عن المساهمة في هذه الحركة الكبرى^(٣) . وكان يوسف بن تاشفين قد وجد في حركة الجهاد هذه بلسمًا يشفي جراح المغرب ويوحد بين قبائله كلها تحت لوائه ، ويقر الأمن والسكينة في ربوعه ، وما دام الجميع ينصرفون نحو هدف واحد لا يلوون على شيء في سبيل تحقيقه . وقد علت صيحة الجهاد في الأندلس ، وكان الفقهاء وقادة الفكر يحجوبون البلاد ، ويستنفرون الناس ، ويعملون على توحيد الجهود ليمهدوا السبيل أمام القوات المجاهدة الآتية من المغرب . وقد عبر يوسف البحر ونزل الجزيرة الخضراء « وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وامتلات المساجد والرحبات بضعفاء المطوعين^(٤) » .

ويبدو أن الهدف البعيد الذي كان يوسف بن تاشفين يرمى إليه وهو حشد القوات الإسلامية في صعيد واحد ، وتبكتل القوى ووقوفها صفا واحداً كالبنين المرصوص لمجابهة العدو يداً واحدة كان قد شارب النجاح ، إذ كان لقدمه فعل

(١) الحلل الموشية ص ٢٤ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٣ .

(٤) الحميري : الزورنر المطار ص ٨٧ .

السحر في نفوس الناس ، وخصوصا حين أخذت قواته بعد احتشادها في الجزيرة الخضراء تتجه صوب أشبيلية بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة^(١) ، فما كادت قواته تقترب من هذه المدينة حتى خف إليه الناس من سائر الجهات متطوعين للمشاركة في الجهاد^(٢) ، وانضمت إليه قوات المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الألفس ، وبعض قوات ابن صمادح صاحب المرية ، وصاحب غرناطة ، والثغراء الأعلى ، وابن ذي النون وبنو عزون^(٣) ، حتى « لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج^(٤) » . وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير ، وبدأت وفود المطوعة من سائر الأقطار تقبل إلى أشبيلية^(٥) ، فلم يجد يوسف بدا من جعل القوات معسكرين : معسكر الأندلسيين في ناحية ، ومعسكر الصحراويين في ناحية أخرى ، حتى لا يختلط المعسكران^(٦) .

وبدا للناس كأن المعجزة التي طالما انتظروها قد تحققت . فاجتمع شمل أهل الأندلس بعد تفرق ، وتوحدت جهودهم بعد طول تحاسد ، وبدا كأن جهود يوسف بن تاشفين قد وصلت ما انقطع من تاريخ البلاد منذ وفاة المنصور ابن أبي عامر ، حين كان المجتمع الأندلسي عبارة عن معسكر كبير يعج بالمجاهدين والمطوعة من كل فج . لم يكن من المستطاع أن يوحد الأندلسيون أنفسهم بأنفسهم ، فكان لا بد من قوة خارجية تمل شملهم ، وتنظم وحدتهم ، وتحملهم على الوقوف صفا واحدا .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٧٧٩ .

(٤) الضي : بغية الملتبس ص ٣١ .

(٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .

(٦) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩ .

وبدا المجتمع الإسلامي في الأندلس وكأنه أفاق فجأة من هجمة طويلة ،
وبدأ ينتفض انتفاضة القوة والحياة على يد هؤلاء القوم الغلاظ الأشداء الذين
لم توهن عزائهم ملذات الحياة ، ولم تصرف قلوبهم عن خشية الله ، بل تألفت
قلوبهم على الإيمان . واجتمعت على الجهاد . يدل على ذلك ما قاله أمير معاصر
هو عبد الله بن بلسكين صاحب غرناطة . الذي اشترك في حركة توحيد القوى
هذه ، فقد كتب يقول « وظننا أن إقباله على الأندلس منة من الله عظمت لدينا
إلا سيما خاصة من أجل القرابة وللذي شاع من خيرهم وإقبالهم على طلب الآخرة
وحكمهم بالحق فنعمل بأنفسنا وأموالنا في الجهاد بعد كل عام فمن عاش منا كان
عزيزاً تحت ستر وحماية . ومن مات كان شهيداً . والعجب في تلك السفارة من
حسن النيات وإخلاص الضمائر كأن القلوب إنما اجتمعت على ذلك ، ولقينا
أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجيوشه ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا
ما زادنا ذلك فيه رغبة لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلاً على أموالنا ولقينا
المتوكل بن الألفطس محتفلاً بعسكره كل يرغب في الجهاد قد أعمل جهده ووطن
على الموت نفسه^(١) . »

وقد أراد يوسف أن يبقى على هذا الشعور الفياض ، وأن يؤثّل لهذه الوحدة
الفريدة ، فعاقد ملوك الطوائف على أن يكونوا يداً واحدة ، وأن تتصل جهودهم
لغزو الروم بمعونته على ألا « يعرض لأحد في بلده ولا يقبل عليه رعيته ممن يروم
الفساد عليه^(٢) . »

وقد أحيس المعسكر النصراني بهذا الخطر الداهم ، وأدرك أن ثمة تغيراً

(١) عبد الله بن بلسكين : التبيان ص ٣٨٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٧ — ٣٣٨

وقع في الجبهة الإسلامية ، وأن الوحدة قد شملت صفوف المسلمين ، وشدت عن أزرهم ، وأتت الأنباء للملك الفونسو السادس ، وهو يشدد الحصار على سرقسطة فاضطر إلى رفع الحصار ، وبدأ يحشد القوى النصرانية ، ويستنفرهم الأمم المسيحية ودوت أصوات الاستغاثة والاستنجاد في أرجاء أوروبا . ولا بد أن الكنيسة الرومانية التي كانت قد تمت سيطرتها على كنيسة أسبانيا قد عمت على إذكاء الحماس في نفوس المتطوعين « رفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم ^(١) وخف الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قشتالة وأرغونة وجالقية كما استعان بـ *Sancho Ramirez* صاحب أرغونة وبنبلونة والكونت برنجار ريموند ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جالقية وليون وبسكونيا وأشترويس وقشتالة ^(٢) ، ورفع الحصار عن بلنسية وخف إليه البرهانس *Alvar Hanez* » .

كانت الأحوال إذن تنذر بأن الصدام بين الإسلام والنصرانية سيكون صداما عنيفا ، وأن المعركة التي سوف يشترك الطرفان في خوض غمارها ستكون من المعارك الفاصلة في تاريخ جميع القوى المشتركة فيها . فقد كانت القوى النصرانية في شبه الجزيرة قد بلغت الأوج ، كما كانت الروح التي بثها مجيء المرابطين وحركة الوحدة التي تفشت بين أمراء الأندلس قد جددت الغزائم وقوت القلوب وأحيت موات الآمال . ونحن إذ نعرض لوصف ذلك الصراع الموشك أن يحتدم بين الفريقين يجب أن نلتزم نهجا واضحا لا نعيد عنه ، فلا نفرق في التفاصيل ولا نلم بكل دقيقة من دقائق المعركة ، إنما الذي يعيننا هو أن نعرض الآثار التي تركتها هذه المعركة في حركة الجهاد بالأندلس . والذي يعيننا قبل غيره

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨٠ .

(٢) أشباح ج ١ ص ٨٢ .

هو نتائج هذا الصراع وآثاره في سير حركة الجهاد ، وفي التمكين لدولة المرابطين .

من الغريب أن جل ما كتبه المؤرخون المسلمون في موضوع هذا الصراع يشوبه غموض وتناقض ومبالغة ، إذ تحاول بعض الروايات أن تبرز المعتمد ابن عباد بأنه فارس الحلية وبل الصراع ، وأنه ساهم في النضال بجهد مشكور ، وتحاول بعض الروايات الأخرى أن تغالى في النتائج التي أحرزها المرابطون مغالاة تخرجها عن طابع الحقيقة ، حتى لقد نشأ حول هذه المعركة ما يمكن أن نسميه أدب الزلافة . فهناك شعراء معاصرون كانوا في بلاط المعتمد شهدوا المعركة عن كثب ، وسجلوا نتائجها في شعرهم ، مثل الشاعر عبد الجليل بن وهبون ، الذي مدح المعتمد ، ووصف النصر الذي أحرزه المسلمون ، وابن حمديس الصقلي ، الذي رحل إلى الأندلس سنة ٤٧١ هـ^(١) ، وتقرب إلى المعتمد بن عباد ، وأقام بأشبيلية حتى شهد معركة الزلافة ، ومدح المعتمد كما مدح يوسف بن تاشفين . وقد جاء ابن يسام بنماذج من أدب السكاك أبي بكر بن القصيرة ، الذي خدم ابن عباد ثم خدم المرابطين ، ووصف المعركة في أسلوب رفيع . وهناك مرجع آخر بالغ الأهمية يكشف لنا بعض الغموض الذي شاب حوادث ذلك الصراع ، هو كتاب التبيان للأمير عبد الله بن بلكين أمير غرناطة ، الذي اشترك في هذه المعركة ، وسجل ما شاهد وما عاين . هذه الروايات المعاصرة سنعتمد عليها كل الاعتماد في دراسة هذا الصراع والإلمام بدقائقه .

ولكن يجب علينا أن نوضح أهداف طرق النزاع ، وندرس تحركات المرابطين بعد دخولهم أشبيلية ، وتحركات القوى النصرانية بعد أن غادرت مضاربها حول سرقسطة . أقام المرابطون وحلفاؤهم بأشبيلية بعض الوقت^(٢) ،

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٦٢٦ .

(٢) الحلل الموشية ص ٣٩ .

ثم أخذت قواتهم تتحرك صوب بطليوس^(١) ، ولا ندري لماذا تحرك الحلفاء المسلمون صوب بطليوس التي تقع إلى الشمال العربي من مدينة أشبيلية ؟ . هل كان في نيتهم أن يتقدموا صوب مدينة قورية على نهر تاجة^(٢) ، ثم ينقضوا منها على مدينة طليطلة^(٣) ، فيضربوا عليها الحصار ، ويتزعموها من أيدي النصاري ، ويردوا هذه المدينة إلى السيادة الإسلامية مرة أخرى ؟ .

لم يكن من اللعول أن تعتمد القوى المتحالفة في ذلك الوقت إلى المغامرة والتقدم صوب طليطلة رأساً ، لأنهم كانوا يعلمون أنهم إذا فعلوا ذلك أشد توغلبهم في ديار النصاري ، فطالت خطوط مواصلاتهم ، وسهل على الفونسو وحلفائه أن ينقضوا عليهم من الخلف ، فيقطعوا صلاتهم بالجنوب ، ويقضوا عليهم قضاء مبرماً . ثم إن المسلمين كانوا قد سمعوا وهم في أشبيلية أن الفونسو حين علم نبأ قدوم المرابطين أقلع عن حصار سرقسطة ، وبدأ يستنفر القوى النصرانية وتهيأ ليوم اللقاء . فكيف يقبل المرابطون على مثل هذه المخاطرة ، وهم حديثوا عهد ببقاء النصاري لا يطمئنون إلى ملوك الطوائف كل الاطمئنان ، على حين كان الفقهاء الأندلسيون يشككون في أهل الأندلس ، ويحذرون المرابطين مغبة الثقة بهم ثقة كاملة ، فعمد يوسف بن تاشفين من قبل إلى فصل معسكره عن معسكر الأندلسيين غب رحيله عن أشبيلية .

ونحن نستبعد أن يكون المرابطون قد فكروا في السير إلى طليطلة في ذلك الوقت ، إنما ساروا إلى بطليوس لأن أميرها المتوكل بن الأفطس دعاهم للإمام

(١) عبد الله بن يلكين : البيان ص ٣٣٨ — ٣٣٩ . الذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ . الروض المطار ص ٩٠ . المطرب لابن دحية ورقة ١٢٠ (١) .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ .

(٣) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا قلاص . Gayanges, ap. C p p. XXXV.

بمدينته لتنضم قواته إليهم^(١) . ثم يفكرون في وضع خطة مشتركة لمحاربة قوات الفونسو المهيئة للقائهم . يخيل إلينا أن الحلفاء المجتمعين ببطليوس لم يفكروا في مغادرة هذه المدينة ، بل إنهم آثروا أن يعسكروا قريب منها في انتظار لقاء الفرنجة ، حتى إذا جاءت جهود المسلمين بالإخفاق استطاعوا أن يلوذوا بأسوارها ، ويعتصموا بقلعتها فلا تكون الخسارة فادحة . وقد أشار عبد الله بن بلكين^(٢) إلى ذلك ، وروايته رواية شاهد صدق . وليس يبعد أن يكون في نية الحلفاء التقدم إلى مدينة قورية ، إذا وثقوا من الغلبة في هذا الصراع ، أو إذا أبطأ الفونسو في الزحف إليهم .

وقد أشار عبد الله بن بلكين إلى ناحية هامة تلتقى ضوء على موقف يوسف بن تاشفين في تلك الأيام العصيبة ، فقد أشار إلى أن يوسف تلقى وهو ببطليوس أنباء من المغرب شغلت عقله ، واضطرب لها قوداه ، وأنه « لولا ذلك لكان في أرض النصارى مدوخالها »^(٣) ، كما أشار الضبي إلى مثل ذلك فقال « إن يوسف تلقى خبر وفاة أكبر بنية وهو بمدينة بطليوس »^(٤) . إذن فقد قرر الحلفاء البقاء قرب بطليوس بسبب هذه الظروف ، التي أملت بأمر المرابطين ، وبسبب ما تواتر من أنباء تدفق قوات النصارى صوب بطليوس ذاتها للملاقاة للمسلمين . نعم كان بوسع الفونسو لو كان بعيد النظر أن يرقب تقدم المرابطين ، ويتحصن حول طليطلة حتى إذا نالت منهم متاعب السفر ومشقة الطريق انقض عليهم من مكانة ، ولكنه آثر أن يكون البادىء بالهجوم ، فانقض على قورية ، وسبق المسلمين إليها^(٥) . وقد أخذت قوات الفونسو تتقدم حتى صارت

(١) ابن دحية: المطرب ورقة ١٢٠ (١) .

(٢) عبد الله بن بلكين : البيان ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) الضبي : بنية المائس ص ٣٦ .

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ . الروض المطار ص ٨٨ .

على مبعدة ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين في فحص الزلاقة ، وكان يفصل بينهم ^(١)هر بطليوس

في بطاح فحص الزلاقة إذ نشب ذلك الصراع العنيف بين القوى النصرانية والإسلامية ، ذلك الصراع الذي انتهى بنصر رائع مؤزر أحرزه المرابطون ، حين قهروا الفونسو السادس ، وفرقوا شمل جموعه ، وشتتوها كل مشتت . فما هي الظروف التي جعلت يوسف يبرز إلى مصاف أعظم قواد المسلمين ، ويمكن لدوائمه الناشئة من نفوس المعاصرين سواء في الأندلس أم في المغرب أم في العالم الإسلامي كله ؟ . ليس من شك في أن يوسف وجيشه من الملتهمين خاضوا غمار معركة غير متكافئة ، فقد كان العدو يفوقهم في العدد والعدة ، كما كانت دياره قريبة من الميدان يستطيع أن يجلب إليها المؤن والذخائر والمقاتلة في أى وقت شاء ، كما أن خلفه سلسلة من الحصون يستطيع إذا انسحب أن يعتصم بها ، ويصمد لأى عدو تحدته نفسه بالتقدم صوب بلاده ، على حين كان يوسف يعتمد على قواته وحدها ، ولم يكن باستطاعته أن ينقل من المغرب إلى الأندلس إلا أعدادا محدودة ، ولم يكن يثق بأهل الأندلس .

وقد حدث ما توقع يوسف بن تاشفين ، فقد هزم أهل الأندلس لأول لقاء خارت قواهم ، ووهت عزائمهم ، وفروا لا يلوون على شيء معتصمين بأسوار بطليوس ، تاركين المرابطين في الميدان وحدهم يصطلون بنار القتال ، ويتجرعون كأس البأس والشدة ^(٢) . اضطلع المرابطون إذن بالعبء كله ، وأصبح مصير الأندلس ومصير المغرب متعلقا إلى حد كبير بشخص ذلك القائد العظيم . وأول ما يجب أن نوضحه من نواحي القوة في موقف هذا القائد في هذه اليوم الخالد ، أنه لم يؤخذ على غرة كما تصور بعض الروايات ^(٣) ، لأن المعتمد

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٤ .

(٢) الحلال الموشية ص ٤٧ . الروض المظار ص ٩٢ .

(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٣٩ . الروض المظار ص ٩٠ .

ابن عباد كان يعزف مكاييد الفرنجة وحيلهم ، فبث العيون لترقب حركات العدو^(١) ، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يبيتون ليلتهم على أهبة واحتراس يتربصون ساعة بدء الهجوم^(٢) . أما يوسف بن تاشفين فقد كان يرقب تحركات العدو^(٣) بعين القائد المجرب ، الذي حنكته وقائع الصحراء ، وصهرته معارك المغرب ، فما كاد الليل يحن حتى عمد إلى تغيير موضع قواته دون أن يشعر أحد ، كما قضى الليل يرتب الصفوف ، ويعد العدة لكل احتمال^(٤) ، فما كادت طلائع العدو بقيادة البرهانس^(٥) (Alvar-hanes) تبدأ الهجوم ، حتى تبين ليوسف أن الفونسو قد بدأ بمهاجمة معسكر أهل الأندلس ، وحمل رجاله عليهم حملة منكرة ، فوجد كان يريد إذا تم له القضاء على أهل الأندلس أن ينصرف إلى جموع المرابطين ، فيحرق بهم ويوردهم موارد التهلكة^(٦) .

ولكن يوسف ما كاد يعلم نبأ تراجع أهل الأندلس ، حتى أرسل فرقة من القوات المغربية بقيادة داود بن عائشة لتشد أزرهم ، وتحول دون تحقيق الأهداف الأولى للهجوم النصراني^(٧) . ولما عرف أن قوات داود لم تستطع أن تشد الثغرة سير إليهم سير بن أبي بكر على رأس زناتة ومغراوة^(٨) . إذن لم يبتباطا يوسف بن تاشفين ، أو يتلكأ في مد يد العون للقوات الأندلسية عن عمد بغية اضعافهم ، وكسر شوكتهم كما يقول بعض الرواة^(٩) ، إنما كان

(١) الحميري : الروض المطار من ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق من ٩٧ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس من ٩٤ .

(٥) Pidal: The Cid and his. Spain, p. 219 .

Idem. (٦) .

(٧) ابن أبي زرع من ٩٥ . الروض المطار من ٩٧ .

(٨) ابن أبي زرع من ٩٥ .

(٩) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفاء ، قلاعن . XXXV. Gayangos, ap. C. p.

الرجل يهدف إلى غرض بعيد واضح ، يهدف إلى أن تستمر المعركة دائرة الرحي لأطول أمد ممكن ، حتى تشغل على النصارى تفكيرهم ، وتستغرق جل اهتمامهم فلا يشعرون بما يدبر ابن تاشفين وما يدخره من عنصر المفاجأة .

وقد حدث ما توقعه يوسف ، ذلك أن النصر شجع القوات النصرانية فتركت مواطنها الأصلية ، وأخذت تعقب أهل الأندلس ، وهم يتقهقرون^(١) ، فلم يكن من يوسف إلا أن سار بنفسه على رأس جيش ملتونة ، ليضرب عساكر الفونسو من الخلف ، فهاجم معسكر النصارى ، واستولى عليه ، وأضرم فيه النار^(٢) ، فاضطرت قوات الفونسو إلى أن ترتد صوب المعسكر تريد أن تنقذه من الوقوع في يد المرابطين^(٣) ، وما كاد أهل الأندلس يعلمون بذلك ، حتى انقلبوا من الفرار إلى الهجوم ، وأطبقوا على النصارى من الخلف ، فأصبحوا بين شقي الرحي^(٤) . وهنا يطيب لبعض المؤرخين الأندلسيين^(٥) أن يصوروا المعتمد ابن عباد بصورة المنتصر الصامد لهجمات العدو الثابت الجنان ، الذي لم يهلع للهزيمة التي لحقت به ، بل وقف كالأطود يصد العدوان . وهذا قول مبالغ فيه إلى حد كبير ذلك أن المعتمد إذا كان قد صمد حقاً ، فإن الفضل في ذلك لا يرجع إلى شجاعته بقدر ما يرجع إلى استبسال داود بن عائشة ، وسير ابن أبي بكر . ولما حى وطيس القتال أنزل يوسف إلى الميدان فرقة من السودان المسلحين بمزاريق الزان وسيوف الهند ودرق اللط^(٦) ، انقضت على قوات

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٥ .

(٢) Pidal : op. Cit. p. 218.

Idem (٣)

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٦ .

(٥) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٣ . المطرب لابن دحية ورقة ٩١ ب ..

(٦) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧ .

النصارى انقضا الصاعقة ، وشقت طريقها إلى حيث الفوسو ونفسه^(١) ، فعمجت
بالنهاية ، وحاقت الهزيمة بالقوات النصرانية ، وجرح الفوسو ، وفر في جنح
الظلام لا يهوى على شيء^(٢) .

ولم تكن خطة يوسف وحدها هي التي قررت مصير هذه المعركة الحاسمة ،
وأُنقذت القوى الإسلامية مما أريد بها من شر ، بل يرجع الفضل لذلك الفن
الجديد الذي أدخله يوسف بن تاشفين ، هذا الفن الذي لم تعرفه الأندلس من
قبل — على ما نعلم — ولم يشهده النصارى في المعارك التي خاضوا غمارها مع
القوات الأندلسية المستضعفة^(٣) . فقد كان النصارى يعتمدون في فن الحرب
على الشجاعة الفردية أكثر من اعتمادهم على أي شيء آخر ، كانوا يهتمون
بالفارس كفرد ، ولا يهتمون بالفرسان كمجموعة تحركها إرادة واحدة^(٤) ،
لذلك كانوا يغالون في لبس الزرد والدروع ، التي تغطي الفارس من الرأس إلى
القدم ، فكأنه حصن يتحرك «تحصنوا بالحديد من قرونها إلى أقدامهم واتخذوا
من السلاح ما يزيد في جرأتهم وأقدامهم»^(٥) ، وقد جربوا هذا الفن في قتالهم
مع أمراء الأندلس ، فحقق لهم ما شاءوا من أهداف . أما في الزلافة فقد التقوا
بجيوش منظمة على أسس جديدة نظمتها عبقرية قائد فذ ، فقد كانت الجيوش
المرابضية على ما يبدو تستعين بلون من الفن البدوي في القتال ، تقيم صفاً من
الإبل يصبح بمثابة درع يتقدم القوات المهاجمة ، فيوقع الرعب في صفوف
الأعداء ، فتجتمع خيلهم ، ويضطرب فرسانهم . وقد استعان المرابطون إلى
جانب ذلك بصفوف متراصة من الجنود مدربة أتم تدريب تخضع لراية واحدة ،

(١) ابن بسام : الذخيرة (بغداد) قسم ٢ ص ١٠٠ .

(٢) الروض للعطار ص ٩٦ — ٩٨ .

(٣) Pidal : The Cid and his Spain, p. 219 .

Idem (٤)

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ٩٩ .

وتتحرك كأنها رجل واحد في نظام رتيب^(١) ، كما ستعانوا بفرق من المشاة
السودان مسلحين بالسهم ، ومزاريق الزان ، ودرق اللط^(٢) ، يتقدمون في
خطى رتيبة ، يلقون بقذائفهم من السهم والرمح وفق حركات مرسومة ، وقد
استطاع هؤلاء الرماة أن يطعنوا الخيل برماحهم ، ويرموها بسهامهم ، فجمعت
بالفرسان ، وولت الأدبار^(٣) . وهناك ناحية أخرى أشار إليها المؤرخ بيدال ،
وهي أن المرابطين كانوا يستعينون بطبول هائلة تدق دقا قهتيز لها الأرض ،
وترتعد لها فرائص الفرسان هولاً^(٤) ، فتصم آذانهم بدويها المزعج^(٥) .
ويخيل إلينا أن المرابطين استمدوا هذا النوع من الطبول من الدول الزنجية
الواقعة إلى جنوب حوض السنغال ، لأن الطبول تلعب في الفن الحربى عند
الزنج دوراً عظيماً .

غير أن هنالك سلاحاً آخر لا يقل عن هذه الأسلحة مضاء ، ونعنى به
هذه الروح الجديدة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين
من الحمية والتحمس للدين ، والتسابق إلى الاستشهاد . وكان يوسف يركض
يجواده بين الصفوف يحض رجاله على القتال ، ويرغبهم فى الموت فى
سبيل الله^(٦) ، وقد اشترك كثيرون من الفقهاء فى الموقعة يعظون الناس ،
ويشدون عزائمهم^(٧) .

(١) Pidal : op. Cit. p. 219 .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) Pidal : op. Cit. p. 219 .

(٥) الحلل اللوشية ص ٤٨ .

(٦) Pidal : op. Cit p. 219 .

(٧) ابن بشكوال : المسئلة ص ٤٥٧ و ٤٧١ . ابن الأبار : النكلة ج ٢

وفي ختام التعرض لهذه المعركة الحاسمة في تاريخ الإسلام يجب أن نحدد التاريخ الصحيح الذي حدثت فيه . ومن الغريب أن المراجع التي تفيض في وصف المعركة ، وتكشف عن آثارها ونتائجها ، وتعرض لكثير من التفاصيل الدقيقة تختلف في تحديد هذا التاريخ . فالنويري^(١) مثلاً يذكر أنها حدثت في العشر الأول من شهر رمضان سنة ٤٧٧ هـ ، على حين نجد ابن خلدون^(٢) وابن الكردبوس التوزري يذكران أنها حدثت سنة ٤٨١ هـ ، ويظهر أن ابن خلدون وصاحبه يخلطان بين الجواز الأول ليوسف ، والجواز الثاني ، أما بقية المؤرخين فيجزمون على أن المعركة حدثت في شهر رجب سنة ٤٧٩ هـ^(٣) . وليس من شك في أن تدخل المرابطين في شئون الأندلس جاء تالياً لاستيلاء النصارى على مدينة طليطلة ، فقد استولوا على هذه المدينة في الحرم سنة ٤٧٨ هـ^(٤) ، وهذا التاريخ صحيح إلى حد كبير لأن مجموعات السكة تذكر أن آخر النقود الإسلامية التي ضربت بالمدينة كانت مؤرخة سنة ٤٧٨ هـ^(٥) ، ثم أخذت النقود تضرب بهذه المدينة وعليها طابع الفونسو السادس وخاتمه^(٦) ، إذن فلا بد أن معركة الزلاقة

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١١ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ .

(٣) المطرب لابن دحية ورقة ٢٠ (أ) . جامع تواريخ فاس ص ٣٠ . الجذوة ص ٣٤٣ .
بغية الملتصق ص ٣١ . الحلال الموشية ص ٤٦ . ابن الأبار ج ٢ ص ٦٢٠ . ابن بشكوان ص ٧١ . ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٣ .

(٤) التكملة لابن الأبار (القسم المفقود) ص ٢٩ .

(٥) Prieto et Vives. : Los Reyes de Taifas, p. 241 Catalogo de.
Monedas Arabigos-Espanolas, p. 105 (Driham 441)

(٦) انظر القطعة رقم ١١٢٧ بتاريخ ١٠٨٨ م Lavoix (op. cit.) p 524
أمير

القتوليين .

الفونس بن شانجه .

أيده الله ونصره .

بسم الأب والابن والروح القدس الاله الواحد .

من آمن وتعبد يكون سالماً .

أمام البيعة المسيحية بابا رومية .

حدثت بعد سنة ٤٧٨ هـ . ومن محسن الصدف أن ابن بسام صاحب كتاب
الذخيرة^(١) جاء بنص يعد على جانب عظيم من الأهمية . فقد نقل لكتاب
أبي بكر بن القصيرة رسالة على لسان المعتمد بن عباد بن ولده بأشبيلية يصف
فيها المعركة ، وما أحرزه المسلمون من ظفر ، كما يصف ما حل بالفونسو ، ويذكر
أنه لا يدري ماذا أصابه أحي هو أم ميت ، مما يدل على أن الرسالة كتبت صبيحة
المعركة بالذات ، حينما اكتشف المسلمون أن الملك قر في جناح الظلام لا يلوي على
شيء ، ولم يكونوا يعرفون أحي هو أم ميت . وقد أرخ ابن القصيرة هذا الكتاب
بصبيحة السبت الثالث عشر من رجب سنة ٤٧٩ هـ^(٢) ، مما يدل على أن رأى
الفريق الأخير من المؤرخين صحيح كل الصحة .

بقى علينا كي تتم القول في معركة الزلاقة أن نعرض للأثار التي تركها هذا
النصر العظيم في موقف يوسف بن تاشفين من حركة الجهاد في الأندلس وفي موقف
أهل الأندلس أنفسهم ، وفي الكسلة النصرانية والقوى الصليبية المتحفزة لانضال .
ليس من شك في أن المرابطين قد انفردوا بإحراز النصر في يوم الزلاقة ، أما أهل
الأندلس فقد حاقت بهم الهزيمة ، ولم يستطيعوا الصمود في وجه قوات الفونسو
الزاحفة للقائهم ، فعرف يوسف عن يقين أن أمراء الأندلس لا غناء فيهم ، فقد
تركوه في الميدان وحده أمام الفونسو وجهاً لوجه ، فأخذ يدرك أنه لا بد من أن
يضطلع بالعبء كله وحده ، إذا كان يريد لحركة الجهاد في الأندلس أن تنجح ،
وأن تحقق النتائج المعقودة عليها ، كما لمس بنفسه هذه الفرقة الضاربة أطنابها في
صفوف الرؤساء الذين لم ينسوا أنفسهم حتى في ساعة الحنة ، لذلك ما كادت
تنجلي المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفاق وإطراح التناوب والتخاصم ، حتى
لا يضيعوا بمقاتلتهم ثمار هذا النصر^(٣) .

(١) الذخيرة . مخطوط بن داد . قسم ٢ ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) عبد الله بن بلكين . البيان ص ٣٣٩ .

ولكن نصيحة أمير المراتبين لم تجد صدى في قلوب معرك الطوائف ، إذ ما كاد يعبر المضيق إلى بر العدو ، حتى ساروا سيرتهم الأولى من الفرقة والبغضاء^(١) . ويظهر أن بوادر الإنقسام في الرأي بين يوسف والمعتمد بن عباد أمير أشبيلية قد ظهرت في صبيحة المعركة ، فقد كان المعتمد يود لو تعقب المراتبون العدو القار ليجهزوا عليه ، فلا يستشري دأؤه بعد^(٢) ؛ ولكن يوسف الذي كان النصر قد كلفه كثيراً ، وأرهق جنده وقواده ، لم يرد أن يحمله الزهو إلى الإسراف في التكيل بالعدو المقهور^(٣) ، في الوقت الذي كان عليه أن يعبر إلى المغرب ليواجه الفتنة التي بدأت تطل برأسها . ويذكر المؤرخون في معرض التذليل على وقوع البغضاء بين يوسف وبين المعتمد بعيد الزلافة أن أنصار المعتمد عللوا أعراض يوسف عن تعقب العدو بأنه ، « خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعى فيقع الاستغناء عنه^(٤) » ، كما أن أنصار يوسف رأوا في إصرار المعتمد على تعقب العدو ما يوحى بأنه يريد قطع حبال يوسف من العودة إلى الجزيرة^(٥) مرة أخرى ؛ على حين يذكر آخرون أن يوسف ورجاله طمعوا في امتلاك الأندلس بعد أن رأوا وهم بأشبيلية ذلك الترف والنعيم الذي يرقل فيه الأمراء والنبلاء^(٦) .

وفد أيقن أهل الأندلس أن طائفة الرؤساء لا غناء فيهم ، وآمنوا بأن نصر الزلافة يرجع الفضل فيه إلى يوسف وشيعته من المراتبين ، فوثقوا به واعتقدوا عن يقين أن إنقاذهم مما تردوا فيه من محنة لن يكون إلا على أيدي

(١) ابن السكردابوس : كتاب الاكتفا . نقلا عن Gayangos : Ap. C. p

(٢) الحميري : الروض المطار ص ٩٣ .

(٣) الحلل الموشية ص ٤٩ .

(٤) الحميري . الروض المطار ص ٩٣ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) بن خاسكان ج ٢ ص ٣٦٨ .

هؤلاء الصحراويين الغلاظ ، فتألق نجم يوسف ، وعلا ذكره في بلاد الأندلس ، كما علا في المغرب من قبل^(١) ، كما أن هذا النصر الذي لم يكن يخطر على بال أحد من أهل الجزيرة قد هز مشاعر يوسف هزاً ، وملكت الفرحة عليه زمام نفسه ، فأرسل الكتب إلى العدو بشرح فيها سير المعركة ، ويكشف عن الدور الذي لعبه فيها^(٢) ، ويغلو في وصف ذلك الظفر الذي أصابته قواته ، حين أبلت البلاء الحسن ، فقرئت الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب^(٣) ، بل قيل أنه بعث برهوس القتلى إلى مدن الأندلس والمغرب وأفريقية ، حتى يرى الناس رأي العين مبلغ ما أحرزه من نصر وتوفيق^(٤) ، إذ يبدو أن خسارة النصارى يوم الزلاقة كانت قاذحة حقاً ، فقد اعترف مؤرخوهم بهول القاذحة ، لم ينكروا آثارها ، ولا غضوا الطرف عن نتائجها^(٥) .

وكن لهذا النصر صدى عظيم في الشعور الإسلامي العام ، إذ سرعان ما تناقله الناس في الأندلس والمغرب ، واحتفلوا به أبلغ احتفال^(٦) ، وراح المؤرخون يشبهون يوم الزلاقة بيوم القادسية واليرموك^(٧) ، وعمت الفرحة بلاد المشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي هنا يوسف بهذا النصر ، واعتبره الأمير المثالي الذي كان يرجو أن يظهره الله ليعيد للإسلام سابق صولته وقوته ، كما كتب الأمراء المعاصرون إلى يوسف مهنئين مباركين^(٨) .

(١) للراكشي : المعجب ص ٨٤ .

(٢) الحميري : الروض للمطار ص ٩٦ .

(٣) الحلال الوشيع ص ٤٩ . الإحاطة ج ٢ ص ٧٩ .

(٤) الروض للمطار ص ٩٦ .

(٥) يوسف أشباح ج ١ ص ٩١ .

(٦) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٧) الحلال الوشيع ص ٤٩ .

(٨) الحميري : الروض للمطار ص ٩٦ .

وقد ترك هذا النصر آثاراً لا يستهان بها في الأوضاع القائمة ببلاد المغرب ، فقد ساعد يوسف على حل جميع المشاكل الداخلية التي كانت تعترض مسيله ، وأيقن الناس أن القوة المرابطية الفتية مخوفة بالنصر لا يستطيع دفعها أو مغالبتها ، فاستكانت القبائل ، وسارت طاعة أو مختارة في ركب الدولة الجديدة . كما ارتفع قدر يوسف بن تاشفين بين أمراء لمتونة ، وأصبح بعد هذا الفوز العظيم أحق الأمراء بأن يخلف أبا بكر بن عمر في زعامة دولة المرابطين . كما يجب أن لا ننسى أن هذا النصر الذي أحرزه المرابطون في الأندلس كان نصراً للمبادئ الجديدة التي دعا لها عبد الله بن ياسين ، وتوارثها الأمراء من بعده ، وأحلوها الحل الأول من نفوسهم . نعم انتصرت مبادئ عبد الله بن ياسين في الأندلس كما انتصرت في المغرب والصحراء من قبل^(١) .

وقد تمخض هذا النصر أيضاً عن آثار بعيدة المدى في الشعب الأندلسي نفسه ، فقد ارتفعت روحه المعنوية أكثر من أي وقت مضى ، وأيقن أن العدو النصراني الذي كان يحوس في شبه الجزيرة دون منازع من الممكن أن يقهر ، وأن يرد على أعقابها إذا اجتمعت الكلمة ، وتضافرت القوى ، واتحدت الجهود^(٢) ، ذلك أن الضعف والتخاذل واليأس والقنوط قد أدى إلى القضاء على الروح المعنوية للشعب ، أما الآن فقد أصبح أهل الأندلس يؤمنون بأن العهد الزاهر الذي مرت به البلاد في عهد المنصور بن أبي عامر قد عاد من جديد ، فاهتزت نفوسهم وقويت روحهم المعنوية^(٣) ، كما شهدوا عن كثب ما سمعوا به من عدل المرابطين وتمسكهم بالسنة ، وعملهم على إحياء الدين ، ورأوا رأي العين كيف أن هؤلاء الصحراويين ينشرون مبدأ المساواة بين الناس ، ويحققون عن كواهلهم أعباء الضرائب القادحة

(١) Pidal : op. cit. p 221

(٢) كتاب الاكتفا ، نقلاً عن XXXII Gayangos: ap

(٣) التذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثاني ص ٩٩ .

التي فرضها عليهم الأمراء^(١) فرضاً ، فكان المرابطون في الواقع قد انتصروا على الفرنجة وانتصروا على الأمراء ، واحتلوا من نفوس الشعب الأندلسي محاراً رقيقاً . وكان لا انتصار الزلافة أثر واضح في نفسية المعسكر النصراني ، ذلك أن ألفونسو كان الزهو والغرور قد أغراه بركوب المركب الصعب ، فلم يعرف لأطماعه حداً ، ولا لأغراضه نهاية ، بل كان يأمل أن يبسط ظله على شبه الجزيرة كلها . فلما قدم المرابطون وتغلبوا عليه أحس لأول مرة بأنه أمام جبهة متحدة من المغرب والأندلس ، تقف له بالمرصاد ، وتهده تهديداً خطيراً ، وأيقن أن هذا النظام الجديد الذي بعث في الأندلس قوة بعد ضعف ، ووحدة بعد تناذر لن ييسر له تحقيق أهدافه ، بل إن المعسكر الإسلامي سوف يسترد كل ما استولى عليه من قلاع وحصون^(٢) ، فلا عجب إذا رأينا الأمراء الذين كانوا يدينون له بالطاعة يتألبون عليه ، ويكفون عن دفع الجزية ، التي كانوا يدفعونها في صغار وذلة . أما المعسكر الصليبي بزعمارة كنيسة روما ، فقد أذكي هذا النصر الخامس في صفوفه وبدأت القوى النصرانية المختلفة تعقد العزم على مدافعة المسلمين ، والاستعداد للمعركة القادمة .

ولكن يوسف رجع إلى المغرب ، وترك ميدان المعركة فجأة دون أن يتعقب العدو المهزوم ، ويجهز عليه ، وقبل أن يسترد قوته ، ويجمع جموعه ، ويلم شعثه ، وينتهي للنضال من جديد . فهل رجع يوسف إلى المغرب لأن ولده الأكبر أبا بكر قضى نحبه^(٣) ؟ ليس ببعيد أن يكون أبو بكر بن يوسف قد قضى نحبه قبل أن يشتبك أبوه مع الفرنجة ، أو بعد ذلك بقليل . ولكن وفاة ابنه على ما اعتقد لم تكن لتزعج إلى المغرب إزعاجاً تاركاً ثمار النصر الذي أحرزه تحت

Pidal : op. cit. p. 222 (١)

Pidal : op. cit. p. 222 (٢)

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٨ .

الأقدار ، ومعركة الجهاد لا تزال دائرة الرحي مؤذنة بصراع رهيب . قد يقال أن أبا بكر هذا هو ولي عهده فخاف أن يضطرب الأمر بموته ، ولكن قد يقال أنه كان في استطاعته أن يولي غيره ولاية العهد ، ويظل هو بالأندلس يتابع معركة الجهاد .

يخيل إلينا أن سبب رحيل يوسف إلى المغرب أهم من ذلك بكثير ، ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين كان عامل أبي بكر بن عمر على المغرب ، وأن المرابطين درجوا على نوع من الحكم الإقطاعي ، يولون أميراً من الأمراء على إقليم بعينه ، ويطلقون يده فيه يتصرف كيف يحلو له على أن لا ينازع صاحب السيادة حقة في الملك^(١) ، فكان يوسف عبر البحر إلى الأندلس ، وهو لم يزل أميراً للمغرب من قبل أبي بكر بن عمر . ولكن حدث أن توفي أبو بكر زعيم المرابطين وأميرهم سنة ٤٨٠ هـ^(٢) ، على نحو ما يذكر المؤرخون . وقد بلغت يوسف أنباء وفاة الأمير ، وهو بالأندلس ، فأحب أن يعجل بالعودة إلى المغرب ليترث ملك أبي بكر ، ويأخذ البيعة لنفسه ، وإلا اغتصبها بعض الأمراء الآخرين منتهزين فرصة تغيبه بالأندلس ، واشتغاله بمعركة الجهاد .

وليس ببعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين فقالوا أنه رحل ل وفاة أبي بكر ابن عمه ؛ فقالوا ابنه خطأ في النقل أو الرواية . وما يؤيد هذا القول أن النقود ظلت تضرب بإسم الأمير أبي بكر بن عمر من سنة ٤٥٠ هـ إلى

(١) ابن الكردبوس : كتاب الاكتفا ، نقلا عن Gayangos: Ap. C p. XXXVII

(٢) يذكر دى لا شابل أن قبر أبي بكر بن عمر بمكان يقع بين جبل البيبة وجبل أم مكبرى على مسيرة خمسة وحشى كيلومترا جنوبى تاجيكة فى إقليم تاجانت وتقرش قبره كما يلى :

رحم الله
سندى أبي
بكر بن
عامر

سنة ٤٧٩ هـ ، ثم نجد ضرب هذه النقود يتلاشى فجأة ، ثم تضرب رسمياً باسم يوسف بن تاشفين ، اعتباراً من سنة ٤٨٠ هـ^(١) ، وهي سنة وفاة أبي بكر بن عمر ، وتولى يوسف السلطة ، وتدلنا مجموعات النقود أيضاً على أن إبراهيم بن أبي بكر كان أميراً على سجلماسة ، وكانت النقود تضرب باسمه ، فليس يبعد أن يكون إبراهيم قد طمع في الملك بعد وفاة أبيه منتهزاً فرصة غياب يوسف ، فلما عرف يوسف الحقيقة هرع إلى المغرب ليقطع عليه خط الرجعة .

هذا إلى أمور أخرى أشار إليها صاحب الذخيرة ، فقد نقل رسالة بعث بها يوسف إلى أمير بني حماد^(٢) يعاتبه على الاستعانة بعرب بني هلال في الوقت الذي يجب أن تتضافر فيه جهود الأمراء لمداغة القرنية ورد عدوانهم ، فلا بد أن بني حماد حاولوا اغتنام فرصة يوسف ، وانقضوا على المغرب الأوسط مستعينين بالأعراب^(٣) ولكن يوسف ترك بلاد الأندلس وهو مطمئن غاية الاطمئنان ، فقد استولى على الجزيرة الخضراء فوثق الصلة بين المغرب والأندلس ، وعمل على توحيد جهود أهل البلاد ، وترك سير بن أبي بكر على رأس جيش من المرابطين لمواصلة معركة الجهاد^(٤) ريثما يصلح من شأن المغرب ، وبعد العدة لمرحلة أخرى من

(١) Lavoix (op.cit) pp.536--552 : Pièces 507, 508, 506, 510, 511, 512,

Menedas Arabigo Espanolas : 1425 to 1441, 1446

نقوش دينار أبي بكر بن عمر كما يلي :

الامام	لا اله الا الله
عبد	محمد رسول الله
الله	الأمير أبو بكر
أمير المؤمنين	بن عمر

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . يد الله عز وجل
هذا الدينار بسجلماسة سنة ٤٥٠ .

Menedas Arabigo. Espanolas p. 235

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد القسم الثاني ص ١٠٦ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٨ .

الجهاد لا تقل أهمية عن مرحلة الزلافة ، أما سير بن أبي بكر فقد شارك أمير بطليوس في الإغارة على أواسط البرتغال الحالية مما يلي نهر تاجة ، وأنحن في تلك الأمحاء تخريباً ونهباً ، كما زحف المعتمد أمير أشبيلية على ولاية طليطلة ، واستولى على أقليمش وقونقة ، ثم نفذ إلى أرض مرسية^(١) ، حيث كانت جموع كبيرة من فرسان النصراني تغير على المدن الإسلامية هناك ، فاشتبكوا مع المعتمد ، وارتد على أعقابهم خاسراً ، ولمولا اعتصامه بقلعة لورقة لقضى عليه ، ثم غادر لورقة إلى قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها المحتوم^(٢) .

وبدا للناس كأن معركة الزلافة لم تكن حاسمة في تاريخ الجهاد في الأندلس ، لأنها لم تحسم الداء ، ولم تقض على القوى النصرانية قضاء مبرماً . فقد أخذ العدو يفيق من أثر المعركة ، ويسترد قوته ، ويعمل على مواصلة العدوان ، والثار لما ناله على يد المرابطين . فأخذ الفونسو ينظم قواته ، ويزيل ما لحق بجيشه في موقعة الزلافة ، وقد انتهز فرصة رحيل يوسف إلى المغرب ، وأخذ يعاود الكرة من جديد ، فذكرت الرواية أنه خرج غازياً حتى وصل إلى قرب أشبيلية^(٣) ، كما كانت قوة من الجند القشتاليين توازر فرسان حصن لبيط (Alledo) ، وتعيث في منطقة مرسية ، وخلق بال المعتمد^(٤) ، وتهدد أشبيلية من الشرق ، وتشير الذعر في نفوس أهلها .

أما في شرق الأندلس فقد أخذت الأحوال تسوء والأوضاع تتغير ، فقد ظهر السيد القمبياطور ، الذي ظل سبع سنوات يعيث في منطقة لازدة ، ويغير على منطقة بلنسية^(٥) ، وأصبحت دانية ، وشاطبة ، ومرسية مهددة بالوقوع في

(١) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) روس القرطاس ص ٩٩ .

(٤) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٤ .

(٥) Pidal : The cid and his Spain p. 240 .

قبضة العدو^(١). وقد استجابت القوى النصرانية في أوروبا لنداء القونسو، وأخذ الجيش الذي كان منذ وقت طويل يتجمع في فرنسا يصل إلى شبه الجزيرة، اشترك فيه دوق برجانديا، وهنري أخوه، وابن عمه راييموند، وصاحب طولون، ومعهم فرق من بروفانس ولا نجلدوك، وبعض الفرسان من نرماندى، وراح البابا اسكندر الثانى يشد أزر هذه الجهود، ويباركها، ويعلق عليها الآمال السكبار^(٢)، ولكن هذه الحملة وقفت عند نهر الإيبرو لم تجاوزه إلى الجنوب، وأخذ المتحالفون ينصرفون إلى محاربة صاحب سرقسطة، وبدءوا في الواقع يهاجمون مدينة طليطلة^(٣).

حدث هذا في الوقت الذي انفض فيه جمع الأمراء الأندلسيين عقب معركة الزلاقة، وانصرف كل أمير إلى بلده^(٤)، واضطر المعتمد بن عباد أن يضطلع بالعبء كله في الشرق، وكان الجيش الذي تركه يوسف بقيادة سير بن أبي بكر مشغولا في الجهاد في الغرب، والعبء الذي يضطلع به أكثر من أن يحتمله وحده، ما دام أمراء الأندلس قد انصرفوا عن الجهاد إلى منازعاتهم الخاصة، فاضطر سير إلى أن يكتب إلى يوسف « يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على حكايدة العدو، وملازمة الحرب والقتال في أضييق عيش وأنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهلهم في أرغد عيش وأطيه^(٥) »، وأصبحت البلاد في الواقع في حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها^(٦).

(١) ابن الكردبوس : كتاب الإكتفاء ، قلا عن Gayangos, ap. C.

p. XXXVII.

(٢) Pidal : (op. cit.) p. 226.

Idem. (٣)

(٤) كتاب الإكتفاء ، قلا عن Gayangos : Ap. C. p. XXXVII

(٥) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ١١٨٤ .

(٦) Dezy : Hist des Musul. vol IV p. 212.

وهل كان من المعقول بعد ذلك كله ، وبعد هذه الأوضاع المضطربة التي كانت تهدد بالقضاء على الجهود التي بذلها المرابطون من أجل الجهاد أن لا يبادر يوسف إلى التدخل في شئون الأندلس مرة أخرى ، حتى لا تضيع الجهود التي أفقتها والدماء التي أهرقها . ولكن الرواية تعود مرة أخرى فتصور يوسف متقاعساً عن مواصلة الجهاد ، وأن المعتمد بن عباد صاحب الفضل في دفع يوسف إلى التدخل في شئون الأندلس^(١) مرة أخرى . ليس بعيداً أن يكون ما ذكر من رحيل المعتمد إلى المغرب لمقابلة يوسف صحيحاً ، وليس بعيداً أيضاً أن يكون قد عبر البحر إلى العدو ، ومعه بعض وجوه أهل بلنسية ولورقة ومرسية ليطلعوا يوسف على الأوضاع السيئة في شرق الأندلس والمؤذنة بخطر جسيم إن لم يتداركوه اتسع الرق ، وبخاصة أن المعتمد كان أكثر الأمراء خوفاً من هذا الخطر النصراني المهدق به من الشرق ، وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة ، ولكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة ، وأن يخف إلى ميدان الجهاد بعد فراغه من مشاكل المغرب وتجنيد الجند ، واتحاد العدة . ويخيل إلينا أنه كان سيعبر البحر إلى الأندلس سواء أحضر المعتمد إليه ، أم لم يحضر ، فقد ذكر المؤرخون أنه عبر البحر إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٤٨١ هـ^(٢) .

وكانت أهداف يوسف في هذه المرة تختلف اختلافاً واضحاً عن أهدافه في المرة الأولى . كان يهدف في المرة الأولى إلى أن يسير اتقوات المتحدة كلها إلى طليطلة قلب الجزيرة النابض لاستنقاذها من براثن العدو ، أما هذه المرة فقد اتجه صوب الشرق حيث اشتد ساعد القوى النصرانية ، وبدأت تمكن لنفسها وتستعد للدفاع المسلمين عن هذه البلاد .

وما كاد يوسف يستقر به المقام بالجزيرة الخضراء حتى كتب للملك الطوائف

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .

(٢) الحلال الوضعية ص ٤٠٤ ، روض القرطاس ص ٩٩ .

يستفهم ويستفهمهم^(١) ، ويوحد جهودهم للقيام بجهد مشترك اللانقضاء على حصن ليط معقل المقاومة النصرانية في الجنوب الشرقي . وقد غادر الجزيرة الخضراء إلى مالقة^(٢) ، ثم اتجه صوب المرية ، ثم دخل لورقة^(٣) حيث لحقت به قوات المعتمد بن عباد ، واتجهت جموع القوى المتحدة صوب هذا الحصن الذي يقع على مسيرة نصف يوم من مدينة لورقة^(٤) ، ولا ندري لم اختص الحلفاء حصن ليط بهذا الاهتمام البالغ ؟ كان في مقدورهم أن يطوقوه ويقطعوا صلته بما جاوره من البلاد ، ثم يتقدموا صوب الشرق ، ويخفوا إلى مناجزة القوى المتحدة من الصليبيين والقشتاليين ، فيحولوا بينهم وبين ما يتوهم من الاستيلاء على بلنسية . ولكن نخيّل إلينا أن المعتمد بن عباد هو صاحب خطة الهجوم على هذا الحصن^(٥) لأن الجنود القشتاليين الذين اعتصموا به^(٦) كانوا يغيرون على ما جاوره من البلاد ، فيسلبون وينهبون ، ثم يأوون إليه معتصمين إذا أحرق بهم الخطر^(٧) . وقد ذاق المعتمد من رجال ليط الأمرين ، فقد استعان بهم صاحب مرسية ليرد كيده ويحبط مشروعاته .

وقد لبى الأمراء نداء يوسف ، وتوافدوا إلى ليط للاشتراك في هذه المعركة الجديدة^(٨) . جاء عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة^(٩) ، وأخوه تميم صاحب

(١) عبد الله ابن بلكين : البيان من ٣٤٠ . الحلل الموشية من ٥٥ . روض القرطاس من ٩٩ .

(٢) الحلل الموشية من ٥٥ .

(٣) الأخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ من ١٠٧ .

(٤) الحلل الموشية من ٥٤ .

(٥) Pidal (op. cit.) p. 243

(٦) يوسف أشباح ج ١ من ٩٦ .

(٧) الحلل الموشية من ٥٤ .

(٨) عبد الله بن بلكين : البيان من ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٩) ابن الخطيب : أعمال الأعلام من ١٨٦ . الحلل الموشية من ٥٥ .

حالقة والمعتصم بن صيادح صاحب المرية وأصحاب شقورة وبسطة وجيان وصاحب مرسية^(١)، فلم يتخلف غير ابن الأفطس صاحب بطنيوس^(٢).

وقد أطبق المسلمون على الحصن من كل ناحية، ولم يتركوا فناً من فنون الحصار إلا استعانوا به^(٣)، وشنوا الحرب ليل نهار، واختص كل أمير بناحية يشدد عليها التكبر وبهاجمها هجوماً مستمراً^(٤)، كما قطعوا الماء عن المحاصرين^(٥) وأذاقوهم البأس الشدة، ودامت المعركة أربعة أشهر^(٦)، واستبسل المعتصمون بالحصن استبسالاً منقطع النظير، فكانوا يخرجون من حصنهم في بعض الأحيان، وينقضون على المهاجمين، فينالون منهم، ثم ينسحبون إلى معقلهم من جديد^(٧).

ولكن هل أفلح المسلمون في تحقيق أغراضهم بعد هذا الجهاد الشاق والاستعداد الطويل؟ تذكر الرواية العربية أن القوى المتحالفة انصرفت عن ذلك الحصار. وارتدت قوات المرابطين إلى مدينة لورقة^(٨)، واختلف المؤرخون أيما اختلاف في تحليل هذا الارتداد، وتقدير أسبابه ونتائجه، فصور بعضهم الانسحاب على أنه هزيمة للمرابطين وحلفائهم ونصر للجبهة النصرانية، وصوره البعض الآخر على أنه فوز وظفر، وحبجته في ذلك هذه الكتب المتبادلة بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صيادح، التي تصف هذه الفوز وتشيد بهذا الظفر^(٩) كما أن ابن حديس الصقلي وهو شاعر معاصر هنا المعتمد بهذا الفتح، وأنشد بين

(١) الحلل الموشية ص ٥٥.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٩.

(٣) عبد الله بن بلسكين: البيان ص ٣٤١.

(٤) الحلل الموشية ص ٥٥ — ٥٦.

(٥) التذخيرة: مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص ٩٩.

(٧) يوسف أشباح ج ١ ص ٩٥.

(٨) الحلل الموشية ص ٥٦.. الروض من ٩٩.

(٩) التذخيرة مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧.

يديه قصيدة تصور هذا الظفر وهذا الفوز^(١) ، وحاول بعض المؤرخين أن يعلن هذا الانسحاب بحلول الشتاء ويأس المحاصرين من الغلبة . وكان المعتمد بن عباد هو صاحب فكرة الارتداد عن الحصن فأغضب الخفاء ، وأوغر صدورهم إذ خافوا أن يتخلى المرابطون عنهم ، فيقعوا لقمة سائغة في يد النصارى^(٢) .

لكن يخيّل إلينا أن السبب المعقول لهذا الارتداد صور عبد الله بن بلكين أصدق تصوير ، حين ذكر أن الارتباك ساد صفوف الخفاء ، وكانت الرعية لا تقف تتوافد على يوسف شاكية متظلمة من جور الأمراء وعسفهم ، فكان ينصت لهم ، ويعطف على مطالبهم ، ويؤيد ما ينادون به من إصلاح فأوغر صدور الأمراء وغير قلوبهم عليه^(٣) .

ثم عصفت ريح الفرقة بالقوى الإسلامية المجتمة حول أليط بسبب النزاع الذي احتدم بين صاحب مرسية وبين المعتمد بن عباد ، فقد اتهم المعتمد ابن رشيق بمؤازرة الفرنجة ، فأمر يوسف بالقبض على ابن رشيق وسجنه ، ففرق شمل شيعته ، وانسحب جنده من المعركة ، وقطعوا الميرة عن القوم ، فوقعت المجاعة وغلت الأقوات ، وخشى الأمراء أن يصيبهم ما أصاب ابن رشيق^(٤) ، ويصور عبد الله ابن بلكين هذه الأوضاع المؤسفة أصدق تصوير ، حين يقول «... ونحن أحوج ما كنا إليه للاتفاق ولا سيما في تلك المرحلة التي عذمت فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع وطالت تلك الحملة الملعونة فكأنها مثلق أبان الطيب من الخبيث ، وكشف العداوات فلم يزد الرؤساء إلا توحشا ولا الرعية إلا تسلطاً ، وكانت مقدمات سوء وزماناً على السلاطين عسيراً^(٥) .

(١) ديوان ابن حمديس ص ١٦٤ .

(٢) يوسف أشباخ ج ١ ص ٩٥ .

(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤١ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٤٣ . الحلل اللوشية ص ٥٦ . أعمال الأعلام ص ٢٩٥ .

(٥) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤١ .

وبينما المسلمون مختلفون أشد الاختلاف مرتكبون أشد الارتباك ، وردت الأنبياء بتقدم القونسو صوب لبيط لإنقاذ المدافعين عنها^(١) ، فخاف يوسف أن تتكرر مأساة الزلاقة فيرتد الأنديلسيون على أعقابهم تاركين المرابطين يصلون نار القتال^(٢) ، كما خاف أن يشتبك في صراع مع جند قشتالة والفرقة تعصف بالقوى المتحدة عصفاً ، وتفرقها أيدي سبا ، فارتد إلى لورقة ، ولم يكن ارتدادد ضعفاً ولا خوراً ، إنما كان حكمة وبعد نظر ، فلم يشأ أن يشتبك في قتال لا تؤمن مغيبته من أجل بضع مشات من الفرسان اعتصموا بلييط ، وأوشكوا على الموت جوعاً وعطشاً .

وقد حدث ما توقعه يوسف ، فقد تقدم القونسو صوب لبيط ، واقتحم الحصن ، وأنقذ المحصورين فيه ، ثم دك الحصن دكا ، وانسحب صوب طليطالة لا يلوى على شيء^(٣) ، لأنه كان يخشى أن يشتبك بالمرابطين فتتكرر هزيمة الزلاقة ، ومن الغريب أن الرعب من لقاء المرابطين ظل يتحكم في القونسو حتى وفاته ، فكان يتردد طويلاً قبل أن يشتبك معهم في صراع سافر ، ولولا هذا الخوف لانتفض مجموعه على لورقة ، وأرغم يوسف على القتال . لذلك حق للمعتمد بن عباد أن يعتبر ذلك نصراً له ، وتحقيقاً لأهدافه الخاصة ، فقد قبض على ابن رشيق ، كما قضى على حصن لبيط ، ورحل المعتصمون به ، وبات في مأمن من شرهم لا يخشى عدوانهم بعد أن أمن جانبهم .

ولكن يوسف بن تاشفين لم يكن ينظر إلى الأمور نظرة المعتمد ، فلم يكن همه أن يحقق أطماعاً مادية فحسب ، بل كان همه الأول أن يوحد بين القوى الإسلامية المختلفة ، وأن يجند المجتمع الإسلامي كله في صراع مع النصاري لاستعادة ما كان للمسلمين من قوة وسيادة ، فأمن بإخفاق ملوك الطوائف في تحقيق

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ . روض القرطاس ص ٩٩ .

(٢) Dozy, Vol. IV, p. 224. Pidal : op, cit, p. 243.

(٣) بن أبي زرع : روض القرطاس ص ٩٩ .

الآمال التي عقدها على التوحيد بين صفوفهم ، وحدث ما كان يخشاه ، فقد تفرق شملهم وهامت قلوبهم حينما أقبلت قوات العدو تريد مناجزتهم .

واعتقد يوسف عن يقين بإخفاق سياسة توحيد القوى إخفاقاً ذريعاً ، وبقى عليه ألا يعتمد على ملوك الطوائف في مواجهة العدو ، بل عليه أن يعتمد على نفسه إذا أراد مواصلة الجهاد في الأندلس . ولم يكن ضعف الجبهة الإسلامية المتحدة بسبب افتقارها للمدد أو العدة ، بل بسبب هذه الفرقة التي عصفت بوحدة الجهود ، وهذه الأطماع التي فرقت هؤلاء الملوك شيعاً^(١) .

وقد اعترف عبد الله بن بلكين بذلك كله ، فقال « فنحن لم يغن بعضنا بعضاً على الروم فكيف على المسلم مع حرب ... وقيام أهل البيت »^(٢) . فلم يتردد يوسف في أن يصارح هؤلاء الملوك برأيه فيهم ، حين قال « أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم »^(٣) . لذلك تعتبر معركة لبيط فيصلا في قصة الجهاد في الأندلس ، أنهت فكرة الجبهة المتحدة ، وآذنت ببدء عهد جديد . وكان على يوسف إما أن ينسحب من الميدان ويترك أهل البلاد لمصائرهم يقعون غنائم في أيدي العدو ، فيغضب ضمير المجاهد الصادق العزم ، وإما أن يضطلع بالجهاد اعتماداً على قواته وحدها ، ويبقى العدو وجهاً لوجه ، فيرضى ضمير المجاهد ، ويحقق الأهداف التي وضعها إمامه عبد الله بن ياسين . وقد رأى يوسف أن يلقى النصارى وجهاً لوجه ، وصح عزمه على أن يقضى على هذه الفرقة الضاربة أطنابها في صفوف أهل الأندلس بخلع ملوك الطوائف ، واستنزاهم من صياصيمهم ، كي يفرغ للجهاد الأكبر . فهل من أسباب نلتمسها لتعلل هذا الاتجاه الجديد ، الذي اتجهه يوسف في سير حوادث الجهاد في الأندلس ، هذا الاتجاه الذي ينذر بنتائج بعيدة المدى في تاريخ الأندلس وتاريخ المغرب ؟

(١) Cambridge : Med. Hist. Vol VI. p. 399

(٢) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٩ .

١٤ — الدور الثاني من أدوار الجهاد في الأندلس — التدخل المباشر

اختلف المؤرخون في تعليل الأسباب التي أدت إلى تغير يوسف بن تاشفين على ملوك الطوائف حلفائه بالأمس ، وأسرف كثيرون منهم في لومه ، بل لم يتورعوا عن اتهامه بالغدر والخيانة ، وأخذ الملوك على غرة منهم بعد أن آووه ، ونصروه ، وأعانوه في جهاده ، ووقفوا بجانبه في نضاله مع القونسو السادس . وقد انساق المؤرخ دوزي وراء هؤلاء المؤرخين ، وحمل على المرابطين حملة شعواء ، بل لم يتردد في أن يسم أميرهم بميسم الجبل والتعصب^(١) . والسرف في ذلك كله واضح كل الوضوح ، ذلك أن دوزي اعتمد على مؤرخين أندلسيين يعطفون على المعتد ابن عباد عطفاً خاصاً ، ويرون في قصته مأساة تستدر العطف والرثاء ، ويصورون مأساة خلعة في صورة تظهر يوسف بمظهر الغادر الخائن . ومن هؤلاء الكتاب الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان ، على حين نجد المراجع المعاصرة تشيد بموقف يوسف من ملوك الطوائف ، وترى أن إقدامه على خلعهم والتخلص منهم عمل فريد يسجل له بالحمد والثناء . وقد قال صاحب الذخيرة « ولم يزل إدارهم على ما ذكرت يستشرى وعقارب بعضهم على بعض تدب وتسرى حتى أذن الله لأمر المسلمين رحمه الله في إفساد سعيهم وحسم أدواء بغيهم والانتصار لكواف المسلمين من فعلهم الذميمة ورأيهم فجعلت البلاد عليه تنثال والمنابر بإسمه تزهر وتختال ، واستمر ينثر نجومهم ويطمس رسومهم^(٢) » .

ولن نتأثر بأية حال بأقوال هذا الفريق أو ذاك ، بل سننظر إلى الحقائق نظرة مجردة ، ونحاول أن نفسر موقف يوسف من ملوك الطوائف تفسيراً مقبولاً . تبين ليوسف أن ملوك الطوائف غير مخلصين في جهادهم ، وأنهم غير مقبلين على

(١) Dozy : Hist. des Musul. Vol IV, p. (١)

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩ .

هذا الجهاد إقبالا لا تشوبه منفعة ، ولا توحى به مصلحة ذاتية . فقد تحلى الأندلسيون عن المرابطين يوم الزلافة ، ولولا صدق إيمان الملتزمين ، وتفانيهم في القتال لذهبت ريحهم ، ولحقت عليهم الغلبة . كما تحلوا عنه يوم لبيط ، وانصرفوا عن الجهاد وشغلوا بمنازعاتهم وترهاتهم ، واتهم بعضهم بطلب المعونة من الفونسو السادس ، مما أدى إلى القبض عليه وخلعه .

وما كاد أمير المرابطين يعود أدراجه إلى المغرب بعد غزاة لبيط حتى وجد الفونسو أن الوحدة التي كانت تستظل بها الجبهة الإسلامية وتكسبها القوة والمنعة ، قد انتثر عقدها ، وعاد الملوك إلى سابق عهدهم من التنازع والتباغض والتحاسد ، فأثر أن يأخذ كل واحد منهم على انفراد ، كما كان يفعل من قبل فبعث صاحبه البرهانس إلى عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة يهدد ويتوعد ويطالب بالجزية المتأخرة^(١) ، كما عاثت قواته في أرض المعتمد بن عباد^(٢) ، وراحت تبدد أشيالية كما هددت غرناطة من قبل . فهل أتحدث كلمة الأمراء لمواجهة هذا الخطر ، وحماية الجبهة الإسلامية من التصدع ربما يستعد يوسف ابن تاشفين للعودة مرة أخرى ، ليمد يد المعونة ، فيشتركوا جميعاً في نضال جديد ويستطيعوا جميعاً أن يدفعوا النصارى إلى الشمال ، كما دفعوا من قبل ؟ . كلا وقف الأمراء من هذه الجملات موقفا سلبيا ينطوى على الخيانة والجبن والتنكر لحركة الجهاد ، يتبين ذلك من هذا الموقف الذي وقفه عبد الله بن بلكين من عدوان الفونسو واستعلائه ، فقد كان يخشى أن يحمى ظهر المرابطين ويقاوم القوات النصرانية الزاحفة فيغضب الفونسو ، كما كان يخشى أن يمد يد العون للقوات الفرنجية ، فيغضب المرابطين فاتخذ لنفسه موقفا وسطا لا يغضب هؤلاء ولا هؤلاء^(٣) .

(١) عبد الله بن بلكين : التيسان ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) للرجع السابق ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣) للرجع السابق ص ٨٩ - ٩٠ .

وكانت أنباء هذه المواقف الشائنة تبلغ يوسف^(١) ، فيتألم ويأسف ويعتقد عن حق أن هؤلاء الملوك خانوا الأمانة ، وحق عليهم العقاب ، بل إن عبد الله صاحب غرناطة أخذ يعد العدة ، ويحشد الجند ، ويصاح الحصون لا يدفع غارات العدو ، بل ليحتاط لنفسه من المرابطين إذا هاجموا قلاعهم وحصونهم^(٢) . ولم يكن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية أكثر إخلاصا لحركة الجهاد من عبد الله بن بلسكين ، وعرف يوسف أن صاحب أشبيلية لا يختاف عن صاحب غرناطة ، أو صاحب مرسية في كثير أو قليل ، فقد استغل نوايا المرابطين الطيبة وإخلاصهم لحركة الجهاد في تحقيق مآربة الشخصية ، والتوسع على حسابهم ، فوجه الحملة المرابطية الثانية نحو حصن لبيط لا شيء إلا ليتخلص من ابن رشيق ، ويضع يده على إقليم مرسية بعد أن يتخلص من فرسان لبيط . وقد أدرك يوسف أنه انساق وراء أطماع المعتمد دون أن يقدر العواقب ، فكاد يرتد على أعقابها لولا مبادرته بالانسحاب صوب لورقة على النحو الذي رأيناه . وقد تسبب المعتمد بسياسته الخرقاء في أغضاب ابن رشيق ، بل ألّب عليه يوسف حتى قبض عليه ، فكان ذلك سببا في تفريق صوف المسلمين وتشيت جموعهم . نعم عرف يوسف ما بيته له المعتمد فقال « قصد ابن عباد أن يربنا صعوبة قتال الحصون المنيعه ، وأن بلادهم ذات معاقل صعبة^(٣) » .

وقد أخذ المعتمد يدل على غيره من ملوك الطوائف ويتعالى عليهم فتجاوز الحدود في استعلائه وتسكبره ، يتبين ذلك من الكتب التي تبودلت بينه وبين المعتصم بن حمادح غداة الزلافة^(٤) ، والتي حاول فيها أن ينسب لنفسه الفضل كله فيما أحرزه المسلمون من نصر وتوفيق . وقد ظهرت أطماع المعتمد سافرة بعد

(١) عبد الله بن بلسكين ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٨ .

(٣) Dozy : Abbadidarum, Vol. II, p. 9

(٤) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٠٧ .

أن استولى يوسف على غرناطة ، فقد روى المؤرخون أنه كان يطعم فيها^(١) لتعوضه عن فقد الجزيرة الخضراء . نعم كانت أطماع هذا الأمير بعيدة لا تقف عند حد ، ومن يدري ربما كان يهدف إلى بسط سلطانه على الأندلس الإسلامية ، حتى إذا تم له ذلك تنكر للمرابطين وقلب لهم ظهر المجن واستعان بالفرنجة على إخراجهم من الجزيرة . نعم كان يوسف يعرف أن هؤلاء الأمراء لا يؤمن جانبهم ، وأنهم قد يتنكرون له حينما يستشعرون القوة أو يطمثنون من جانب الفرنجة ، فقد روى المؤرخون أنه بث أصحاب الرباط في الحصون والثغور المصاوبة للروم ليمدوا يد العون للجيش المرابطة الزاحفة^(٢) . قد تكون هذه الرواية غير صحيحة ، ولكنها تصور لنا أن المرابطين كانوا قد أخذوا حذرهم وعقدوا العزم على مواجهة ملوك الطوائف إذا ما حدثتهم نفوسهم بالعدوان^(٣) .

وهناك ناحية أخرى لعبت دورا كبيرا في تغير يوسف على ملوك الطوائف ، وهي أن المرابطين لم يكونوا دعاة جهاد فحسب ، بل كانوا دعاة إصلاح أيضا ، وكانت الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية تسير في أعقاب الجيوش الغازية الفاتحة ، وكانوا أينما حلوا يأمررون بإلغاء الضرائب الجائرة ، ولا يأخذون إلا ما يأمر به الكتاب والسنة ، وقد كان لهذه الإصلاحات صدى بعيد في الأندلس انتشرت بين الناس انتشار النار في الهشيم ، وكانت الرعية الأندلسية لا تفتأ ترد على معسكرات المرابطين شاكية متظلمة ، تريد أن تنعم بما نعم به شعب المغرب من عدل وإصلاح^(٤) .

وكان الإصلاح لا يتأتى إلا بالقضاء على هذه المغارم التي كان الأمراء يجربونها من الناس ، ويشقون بها كاهلهم ليستطيعوا دفع الجزية للذصارى والعيش عيشة

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) المراكشي : المعجب ص ٨٧ .

(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤٣ . الدحية : مخطوط بنداد قسم ٢

مجلد ٢ ص ٢٣٩ . Dozy : Recherches, Vol I ap. XXI .

(٤) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٣٤٠ .

المترفين الناعمين . وكان على يوسف إما أن يصانع الأمراء فيخسر ولاء الرعية ، وتأيد الرأي العام ، ويتنكر لمبادئ الإصلاح التي سارت عليها الدولة الجديدة ، أو يصانع الرعية فيخسر الأمراء . وقد اختار أن يصانع الرعية وأن يتقرب منها ، فبدأ يصغى للشاكين ويطلب من الأمراء التخفيف عن الناس ، وإلغاء المغارم الظالمة . وقد عبر عبد الله بن بلسكين عن ذلك أحسن تعبير ، وصور هذه الأوضاع أصدق تصوير ، حين قال « وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس ورعيته في ذلك يأتون أفواجا شاكين لما وجدوا ، الراضى منهم يلتبس الزيادة والساخط يرجو الانتقام ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم عليهم وامتناعهم عن مغارم الاقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم إلى الاتفاق ما قلق به وساء الظن من أجله .. فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أو امتناع يؤدي إلى استئصال ^(١) » . كان على يوسف إذن إذا أراد أن يأخذ بيد الشعب ويخفف عنه بعض ما يجد من عنت وأرهاق أن يحول بين ملوك الطوائف وبين ما يستملكون فيه من ظلم وبنى . كانت المبادئ الجديدة إذن تفرق بين الشعب والأمراء وكان الصراع على أشده بين الجديد والقديم .

وقد لعب الفقهاء دوراً كبيراً في قصة خلع ملوك الطوائف ، لأن الرعية كانت تلوذ بهم وتلتصق بمعوتهم وتأيدهم وتتوسل إليهم أن يشفعوا لما عند أمير المرابطين ^(٢) . وكان يوسف يحترم الفقهاء ويعتز بهم ويصغى إليهم ويشاورهم في كل أمر ، ويستعين بهم في كل ما يعرض له من شئون ، وقد انقلب الفقهاء على أمراء الأندلس لاسيما بعد مأساة حصن لييط ، وأخذوا يكشفون ليوسف النقاب عن مكرهم وسوء رأيهم ، ويحسون له الإيقاع بهم وخائهم ^(٣) . وقد

(١) عبد الله بن بلسكين ص ٢٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٠ .

(٣) Dozy : op. cit. Vol. IV, p. 225

لعب القاضي ابن القليعي الدور الأول في إفساد ما بين يوسف وبين عبد الله صاحب غرناطة ، فقد عبر البحر إلى العدو ، ولاذ بيوسف فبدأ يطلعه على مكر عبد الله وخداعه^(١) ، ولم يتردد فقهاء الأندلس الذين ارتفعوا في نظر الشعب إلى منزلة القادة والزعماء في أن يحسنوا ليوسف استفتاء فقهاء المشرق في خلع هؤلاء الملوك ، فأفتى هؤلاء الفقهاء ومنهم الغزالي بأنهم خانوا الأمانة وجاوزوا الحدود^(٢) ، وأنه لا بد من خلعهم لتبرأ البلاد من إثمهم وطفيانهم . كل هذه الظروف مجتمعة جعلت يوسف على خلع هؤلاء الملوك والاضطلاع بعبد الجهاد وحده .

كان على يوسف كي يحقق أهدافه في هذا الدور الجديد من أدوار الجهاد أن يخوض معركتين عقيقتين : معركة ضد ملوك الطوائف ، وأخرى ضد القوات النصرانية كي تقف بمنزل في صراعه مع أمراء الأندلس ، فلا تتدخل لشد أزركم . فأخذ يستعد لهذا الدور العظيم من أدوار الجهاد . أخذ يجمع الرجال والأقوات حول مدينة سبته^(٣) ، حتى إذا اكتمل له الاستعداد عبرت قواته المضيق دفعة واحدة بقيادة طائفة من أعلام قواد المتونة وأنجادها^(٤) ، فاستولت على جزيرة طريف^(٥) .

وبمخيل إلينا أن يوسف كان يحسب للقوات النصرانية ألف حساب ، إذ كان يخشى أن يقبل على قتال ملوك الطوائف فتطاعنه القوى الفرنجية من الخلف ، وتفسد عليه خطته ، فلم يبدأ بالعدوان على ملوك الأندلس إلا بعد عبوره ، بل ظل يصانعهم ويترقب بهم ، ولم يكشف عن أغراضه^(٦) ، ولكنه كان يترصد أخطائهم

(١) عبد الله بن بلكن : البيان ص ٣٤٠ و ٣٤١ و ٤٨٧ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٩٠ .

(٣) ابن خابكان ج ٢ ص ٣١ . النويري ج ٢٢ ص ١٨٢ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ٨٨ . الإحاطة ج ٢ ص ٨١ . الحلل الأوشية ص ٥٨ .

قلائد العقيان ص ٢٠ . أعمال الأعلام ص ١٨٩ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٨٨ .

(٦) عبد الله بن بلكن : البيان ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

ويرقب مسلكتهم ، حتى إذا أحس بتقربهم من النصارى اتخذ ذلك ذريعة لخلعهم والقضاء عليهم^(١) . ويبدو أن ملوك الطوائف كانوا بدورهم يحسون بازورار يوسف وإعراضه عنهم ، فباتوا يرقبون عن كشب نذر المعركة التي ستقرر مصائرهم لم يدعهم يوسف للمشاركة في الجهاد كما فعل في المرات السابقة^(٢) ، بل آثر أن يعتمد على نفسه مخافة أن يتكرر ما حدث في معركتي الزلافة ولييط .

ولم يبدأ يوسف بالإطباق على مدينة غرناطة رغم أن خيانة صاحبها كانت واضحة جلية لا تحتاج إلى برهان ، إنما أقدم على غزو طليطلة وحصارها ليوقع الذعر في نفوس القوي النصرانية قبل أن يكشف عن خطته حيال ملوك الطوائف فلا يحدث الفونسو نفسه بطمعة من الخلف متنبهاً فرصة انشغاله بقتال هؤلاء الملوك .

وقد أطبق الملتزمون على طليطلة^(٣) وحاصروها ، وعاثوا في نواحيها ، ووصلوا في زحفهم إلى مدن الحدود مما يلي شمالي طليطلة ، ثم حاصروا قلعة رباح التي تسيطر على الطريق المؤدى إلى مملكة قشتالة^(٤) ، لكن المرابطين لم يشتركوا مع القوات الفرنجية في معركة حاسمة ، إنما كانوا يهدفون إلى إرهاب العدو وإرهاب ملوك الطوائف على السواء .

وبعد أن تم للمرابطين ما أرادوا ، وحققوا الأهداف التي وضعوها نصب أعينهم ، وقطعوا الصلات بين النصارى وملوك الطوائف ، زحفت بعض قواتهم إلى غرناطة فدخلتها في ١٣ رجب سنة ٤٨٣هـ^(٥) ، كما استولوا على البيرة^(٦) وجيان

(١) عبد الله بن بلكين من ٢٧٣ — ٣٢٤ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرماس من ٩٩ .

(٣) يوسف أشباخ ج ١ من ١٠٠ .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

(٥) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ من ٢٩ . الضبي : بغية الملتبس من ٣٢ .

(٦) مفاخر البربرص ٤٤ .

ومالقة^(١)، والمنكب^(٢)، فقصوا على ملك بنى زيرى بالأندلس . بدأ يوسف بعبد الله ابن بلكين لأنه تبين أنه اتصل بالفرنجة وصانعهم ودفع الجزية لهم ، ولم ينكر عبد الله نفسه هذه الصلة ، ولم يحاول أن يتفحصها ، بل حاول أن يبرر موقفه بحجج واهية ملتوية^(٣) ، كما أراد يوسف أن يحل من أمير غرناطة عبدة للملك الطوائف ، فيفت في عضدهم ، ويوقع الرعب في صفوفهم .

وقد فزع المعتمد بن عباد والمتوكل بن الأفطس لما أصاب صاحب غرناطة واعتقدا أن النهاية آتية لا ريب فيها ، خصوصاً بعد أن أبى يوسف أن يعطى غرناطة للمعتمد ، وصد عن رسل المتوكل^(٤) ، فأوى كل من الرئيسين إلى بلده يحصنه ويستعد للدفاع عنه^(٥) ، وقد وضحت نية المعتمد بن عباد سافرة حين أبى أن يلي دعوة يوسف بالقدوم للقائه ، بل آثر أن يبقى بأشبيلية^(٦) ، وأوصى ولده المأمون بتحصين قرطبة والدفاع عنها بقدر ما يستطيع^(٧) . كما أقدم المعتمد في هذه الأوقات العصيبة على الاتصال بالفرنجة يطلب منهم العون والتأييد للدفاع المرابطين والقضاء عليهم^(٨) ، ويروى المؤرخون أنه زوج الفونسو ابنته^(٩) تعزيزاً لأواصر الصداقة بينهما^(١٠) .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٣ .

(٢) مفاخر البربر ص ٤٤ .

(٣) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٩١ ، ٩٢ .

(٤) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٥) للقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١٢١ .

(٦) عبد الله بن بلكين ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٧) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٨) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

(٩) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(١٠) حاول بروميسال أن يثبت أن ثنى ززوجها الفونسو - تسكن ابنة المعتمد بل هي

زوج ولده المأمون التي لا ذت بالفونسو بعد سقوط قرطبة : Provençal : Mora Zaida :

Hésp. 1934, t. XVIII, pp. 68 8.

وكان المرابطون المعتمد بالمرصاد ، قبا كادوا يعلمون نبأ اتصاله بالقرنجة حتى استفتوا الفقهاء فأفتوا بخلمه^(١) ، وأطبقت عليه جيوشهم بقيادة سير بن أبي بكر فاستولت على أشبيلية في رجب سنة ٤٨٤ هـ^(٢) ، كما اقتنم الأمير أبو عبد الله محمد ابن الحاج أسوار قرطبة ، واستولى عليها بعد قتل المأمون بن المعتمد ووزيره^(٣) ودخلت قوات المرابطين قرطبة ورندة^(٤) ، وهوجت البرية وتم الاستيلاء عليها^(٥).

وما كاد سير بن أبي بكر يفرغ من أمر ابن عباد حتى خف إلى بطليوس ، لأن المتوكل صاحبها حاول بدوره أن يتحالف مع النصارى بعد أن نزل لهم عن مدينة شنترين^(٦) ، وقد حوصرت بطليوس ، ثم سقطت في أيديهم آخر الأمر^(٧) ، كما سقطت شلب ويايزة . حدث هذا كله في الوقت الذي كانت فيه قوات داود بن عائشة تستولى على السهلة وألبونت ومرسية ، كما زحف على دانية وشاطبة وأخذ يهدد مريظار وبلنسية وشتنمرية الشرق والبراسين^(٨) ، كما استولى المرابطون على بياضة وأيدة وحصن لبيط وشقورة^(٩) ، فسطوا لواءهم على أملاك الرؤساء بالأندلس ، وتم لهم تحقيق ما أرادوا من توحيد الجبهة الإسلامية بتوحيد الشعب الأندلسي بزعامتهم ، بعد أن أخفقوا في التآليف بين ملوك الطوائف واجمع بين صفوفهم في جبهة متحدة .

(١) عبد الله بن بلكين ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٢ ص ١٩ . المطرب ورقة ١٢ (أ) . الخريدة ج

١١ ص ١٤٥ .

(٣) عياض : المدارك ج ٤ ص ٤٤٧ . قلائد العقبان ص ١٩ .

(٤) عياض المدارك ج ٤ ص ٤٤٧ : قلائد العقبان ص ٢٠ .

(٥) النيران ص ٢٧٢ .

(٦) أعمال الأعلام ص ٢١٤ .

(٧) المطرب ورقة ٢٠ (ب) .

(٨) أشباح ج ١ ص ١٠١ .

(٩) روض القرطاس ص ١٠٠ .

ولكن المرابطين لم يحققوا هذا النصر على ملوك الطوائف في سهولة ويسر ، فقد كان عليهم أن يقاوموا النصارى مقاومة جبارة ، إذ أن الفونسو لم يستكن ولم يفرغ من حصار طليطلة ، ولم يهلع لما أظهره المرابطون من ضروب البأس والشدة . فما كاد المعتمد بن عباد يستنجد به حتى اعتقد أن الفرصة قد حانت ، وأن ثغرة قد حدثت في صفوف المسلمين ، ولم يكن بد من أن يتدخل ليجنى الثمار ، ولكن المرابطين كانوا قد أعدوا لكل احتمال عدته ، لأنهم كانوا يعلمون أن مصير الأندلس كلها ومصير معركة الجهاد متوقف على مدى توفيقهم في منع الاتصال بين المعتمد والفونسو ، فما كادت القوات النصرانية بقيادة البرهانس تدرك حصن المدور حتى خف المرابطون للقائهم بقيادة الأمير إبراهيم بن إسحاق اللتوني ، ونشبت معركة دامية لا تقل في أهميتها عن الزلاقة أولييط . استبسل المرابطون وثبتوا ثباتاً جديراً بهم ، وأوقعوا بالقوات القشتالية فتفرق شملها وحلت بها الهزيمة ^(١) ، وبذلك أفلحوا في قطع اتصال الأمراء بالفونسو ، وقدر لهم أن يهزموا القوى الأندلسية مجتمعة . هزموا الأمراء ، وهزموا قوات قشتالة .

١٥ — الجهاد في شرق الأندلس — يوسف والقميياطور :

ولكن ما كاد يوسف يظفر بهذا التوقيع ويسيطر على القسم الجنوبي من جيلاد الأندلس ، ويقهر قوات الفونسو ، حتى تهيأ للنضال في ميدان آخر من ميادين الجهاد في الأندلس ، أو بمعنى آخر بدأت معركة الجهاد تدخل في دور جديد لا يقل في أهميته أو في النتائج المترتبة عليه عن الأدوار السابقة . ذلك أن شرق الأندلس بدأ كأنه وشيك السقوط في أيدي القوى الصليبية ، التي كانت منذ معركة الزلاقة تتقدم ضوب حوض الإيبرو ، وتشدذ النكير على سر قسطة ، وتصارع بني هود . وراحت سفن جنوة وبيزة تغير على موانئ الشرق وتنال منها ^(٢) .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

(٢) Cambridge : Méd. Hist. Vol. VI, p, 401

شغل يوسف بالجهاد في جنوب الأندلس بمداغة الفونسو حيناً ، ومناجزة مملوك الطوائف أحياناً أخرى ، فلم ينتبه إلا والخطر قد أحرق بهذا الإقليم من كل صوب ، فقد بلغ الخطر المسيحي أوجه في مأساة بلنسية الدامية ، وقصة حصارها ثم سقوطها . فقد حوصرت بلنسية سنة ٤٨٥ هـ ، دام حصارها عشرين شهراً ، ثم سقطت في أيدي المحاصرين في أواخر سنة ٤٨٧ هـ وأوائل ٤٨٨ هـ^(١) .
نفخا قصة بلنسية ، وكيف تطورت ، فأصبحت مأساة هزت العالم الإسلامي المعاصر هزاً عنيفاً ، وأفرغت المسلمين في المغرب والأندلس ؟ ؟ .

كانت إمارة بلنسية لأبي عمرو عثمان بن أبي بكر محمد بن عبد العزيز حتى سنة ٤٧٨ هـ^(٢) ، حين طمع الفونسو في طليطلة ، ولكنه لم يشأ أن يأخذ هذه المدينة غصباً ، فسيء إلى صاحبها القادر بن ذي النون الذي آواه ونصره إبان اختلافه مع أخيه شانجة ، لذلك آثر أن يعرضه عن طليطلة فيوليه بلنسية . وقد استطاع الفونسو أن يقهر ابن عبد العزيز ، وأن يولي صاحبه القادر على بلنسية^(٣) ، نفيقى فيها يدين بالولاء للأفونسو تارة ، ويستنجد بالمستعين بن هود أويخضع للتهديد صاحبه القميياطور ، ويؤدي له الجزية اتقاء لشره ودفعاً لخطره^(٤) .
وقد ظل أمر القادر ببلنسية يسير على هذا النحو ، حتى تقدم المرابطون صوب مرسية ، فاستولوا عليها ، ثم تدفقوا صوب دانية وشاطبة ، وأصبحت قواتهم تغطاً إقليم الشرق وتصاقب إمارة بلنسية^(٥) .

(١) النخبة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٣٠ . المطرب لابن حجة ورقة ١٥٨ . (أ) .
البيان للغرب ٣ ص ٣٥٦ - ابن الأبار ج ١ ص ٤٨ .
(٢) النخبة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٩ . أعمال الأعلام ص ٢١٠ . البيان
للمغرب ج ٣ ص ٣٠٤ .
(٣) المراجع السابقة .
(٤) Dozy : Recherche, Vol II. p. 137 .
(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢١٠ .

ثم رأى أصحاب بلنسية المتبرمون بالأعباء الفادحة التي كان القادر يشغل بها عليهم استرضاء لأصدقائه من أمراء النصارى أن الفرصة قد سنحت لإطراح هذا العبء الثقيل ، فدخلوا في طاعة المرابطين^(١) ، وثاروا على القادر فقتلوه^(٢) ، وولوا عليهم القاضي جعفر بن جحاف ، هذا القاضي الذي أراد أن يكون له مثل ما كان لرؤساء الأندلس وأمرائها من بعد الصيت ووفرة النفوذ^(٣) . كان ابن جحاف يخشى القمبياطور^(٤) ، ويخشى المرابطين ، فأراد ألا يغضب المرابطين ، ولا يغضب القمبياطور ، فلم يرض أحداً منهم ، فضيق القمبياطور الخناق على المدينة ، وضرب عليها الحصار^(٥) ونكل بأهلها شر منكل .

كان حصار بلنسية في الواقع صورة دامية من الصور التي حفل بها تاريخ الصراع بين الإسلام والنصرانية في شبه جزيرة إيبيريا ، وقد سجل هذه المأساة وصورها أصدق تصوير المؤرخ ابن علقمة الذي عاصر الحوادث ، ورأى ذلك البؤس والشقاء والخوف الذي هاض جناح مواطنيه وأذلهم وأفناهم . كما هزت مأساة بلنسية مشاعر المعاصرين جميعاً^(٦) ، وكان لها وقع سي في نفوس المسلمين في المغرب والأندلس ، سجلها الشاعر ابن خفاجة^(٧) ، كما سجلها أبو عبد الرحمن ابن طاهر حين كتب إلى بعض إخوانه يقول « كتبت منتصف صفر ، وقد حصلنا في قبضة الأسر بخطوب لم تجر في سالف الدهر ، فلورأيت قطر بلنسية نظر الله إليه وعاد بنوره عليه ، وما صنع الزمان به وبأهله ، لكنت تنديه وتبكيه . »

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٢١٠ . كتاب الاكتفا ، قلا عن Richerches, vol. II, p 142

(٢) ابن عذاري : البيان ج ٣ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٣) ابن الأبار : النكلة (القسم المفقود) ص ٢٨١ . الضي ص ٢٤٠ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٦) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٣١ .

(٧) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٣ .

فلقد عبث البلي برسومه ، وعدا على أبقاره ونجومه ، فلا تسأل عما في نفسي وعن
نكدي ويأسي^(١) » ، فلما اشتدت بالناس الضائقة ، وأكلت الحنة الأخضر
واليابس استسلموا للعدو المحاصر^(٢) . وبلغ التنكيل بهم مداه ، فروى المؤرخون
أن الفاتح أحرق القاضي ابن جحاف^(٣) ، وأسر أبا عبد الرحمن بن طاهر في سنة
٤٨٨ هـ^(٤) ، كما أحرق أحمد بن عبد المولى بن أحمد البتي^(٥) ، وتناقل المسلمون
أخبار هذه الفاجعة ، وارتفع ابن جحاف رغم مساوئه إلى مرتبة الشهداء الأبرار
« وأضرمت هذا المصاب الجلل أقطار الجزيرة يومئذ نارا وجليل سائر طبقاتها
- حزنا وعارا »^(٦) .

كان بطل بلنسية وصانع مآساتها فارسا قشتاليا يدعى لذريق ، ولد في برغش
بقرية بيدار قرب حاضرة قشتالة في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي . ظهرت
ببواكير نبذته وشجاعته في أواخر أيام فردناند الأول ، فلما توفي وخلفه ولده
شأنجه كان لذريق ساعده الأيمن ، فلما مات شأنجه انتقل إلى خدمة ألفونسو
أخيه^(٧) . ولكن قصة لذريق الفارس المغامر الجري تبتدى منذ أن غضب عليه
ألفونسو ، فخرج من قشتالة طريدا سنة ١٠٧١ م^(٨) . وكان من يمن طالعه أن
التجأ إلى شبرق الأندلس ، إلى ولاية سرقسطه في عهد أميرها يوسف المؤمن ،
وكانت هذه الإمارة إذ ذاك بين شقي الرضا ، بين صاحب قطلونية وبرشاونة ،

(١) الذخيرة : مخطوط بغداد قسم ٣ ص ٢٠٩ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) الضي : بغية الملتبس ص ٢٤٠ . أعمال الأعلام ص ٢٣٤ . كتاب الاكتفا

Recherches, : Vol. II. ap. XXIX

(٤) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٢٩ .

(٥) ابن دحية : المطرب ورقة ١٤٥ (ب) و ١٤٦ (أ) . بغية الوعاة ص ١٤٤

للضي : بغية الملتبس ص ١٨٢ .

(٦) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣١ .

(٧) Cambridge : Med. Hist. vol. VI, pp. 399 - 400

Idem. (٨)

وأرغفه من ناحية ، وصاحب قشتالة من ناحية أخرى ، وكانت في حاجة إلى قائد ماهر ، ومغامر شجاع ، فوجد أميرها طلبته في ذلك القارص القشتالي المتمرد لذريق ، فاستقدمه ، وأسلم له قياده^(١) . وقد قاد لذريق جيوش المؤمنين إلى النصر ، فهزم الكونت رامون برنجار صاحب قطلونية عند المنارة وأمره ، ثم أطلق سراحه ، فعلا نجمة ، وتناقل الناس قصص بطولته^(٢) ، ولولا يقظة يوسف المؤمنين وصاحبه لذريق لأتخن ألفونسو في مرقسطة ولناها ما نال طليطلة فيما بعد .

عاد لذريق إلى قشتالة مرة أخرى ، ولكنه غادرها مغضباً ، وعاد إلى أمير مرقسطة^(٣) ، وشرع في ظل بني هود يسطر جمائته على الولايات الإسلامية الواقعة إلى الجنوب من قطلونية ، حتى لقد انتشر نفوذه من جنوب أرغونه حتى بلنسية ومرسية^(٤) ؛ ثم كان أن انسحبت القوات القشتالية التي كانت تحمي القادر ابن ذي النون صاحب بلنسية بعد معركة الزلاقة ، فلم يجد القادر بداً من أن يطلب العون من صاحب مرقسطة خوفاً من المندرن بن هود صاحب طرطوشة ولارده^(٥) ، فخفف القمبياطور إلى بلنسية ، وأعان القادر ، وهزم صاحب طرطوشة وألبونت ، وألبرسين ، وفرض على أمير بلنسية جزية قيل إنها بلغت مائة ألف دينار^(٦) ، فلما قامت ثورة ابن جحاف التي أشرفنا إليها اعتبرها لذريق انتقاصاً من قدره ، واعتداء على حلفائه^(٧) فاستولى على المدينة على النحو الذي عرضنا له

(١) الأخيرة م . بغداد قسم ٣ ص ٢٩ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) Cambridge : Med. Hist. vol. VI, p. 401.

في دائرة المعارف الإسلامية — مادة سيد ص ٤٠٩ (Provençal)

(٤) Cambridge, vol VI, p 401.

Idem. (٥)

(٦) Dozy : Recherches, vol. II op. II. p. XVII — XX

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ .

وأصبحت بلنسية قلعه المسيحية الحصينة في الشرق ؛ ووقفت في وجه المرابطين
تحول دون توسعهم صوب الشمال (١) .

هذه هي قصة السيد القمبياطور ، وهي القصة التي اختلطت فيها الأسطورة
بالحقيقة بصورة غير مألوفة بسبب ذلك العصر الذي عاش فيه ذلك الفارس الجريء ،
عصر الحروب الصليبية ، عصر الصراع العنيف بين الإسلام والنصرانية . وكان
السيد يحاصر بلنسية ، وينكل بلعائها في نفس الوقت الذي كانت فيه قوات
صليبية أخرى تنهياً لاسترداد بيت المقدس ، لذلك لا نعجب إذا اعتبره الإسبان
مجاهداً صليبياً ، وبطلاً من أبطال الاسترداد (٢) اقترن اسمه بالظفر والنجاح ، في
الوقت الذي اقترن فيه إسم إمبراطور قشتالة بالإخفاق والخذلان ، فلا بدع إذا
بالغت الرواية النصرانية في تصوير قصة السيد ، واعطائها لوناً زاهياً براقاً . يتبين
ذلك مما كتبه المؤرخ بيدال ، الذي جعل من لذريق بطلاً من أعظم أبطال
أسبانيا ، وحاول أن يثبت أن السيد القمبياطور كان على حق دائماً (٣) . على
حين كان السيد هذا مجرد مغامر من المغامرين ، الذين امتلأت بهم بلاد الأندلس
في هذا العصر الحافل بقصص الكفاح والحرب (٤) ، ولم يكن ملوك الطوائف
إلا مغامرين من هذا القبيل ، وكان من الممكن أن تمر سيرة السيد دون أن تلبسها
الرواية ثوب الأسطورة ، لولا هذا العصر الصليبي الذي جعل من لذريق أخيراً
عصره .

ولكن سيرة لذريق القمبياطور تركت في المعاصرين من الكتاب المسلمين
أثراً غريباً ، هو مزيج من التقدير والكراهة ، يتمثل ذلك في قول ابن بسام

(١) Cambridge, vol. VI. p. 401.

(٢) أشباح ص ١١٠ - ١١٦ .

(٣) Pidal : op cit. p. 280.

(٤) Dozy : Le Cid d' Apres des Nouveaux textes, Recherches Vol.

II, p. I Suiv.

وغلظ أمر ذلك الطاغية حتى قدح التهاشم والنجود وأخاف القريب والبعيد
بلغنى أنه كان يقول وقد طمى طمعه ، ولج به جشعه على لذريق فتحت الأندلس
ولذريق يستنقذها ، كلمة ملأت الصدور وخيلت وقوع المحذور ، وكان هذا الباقية
فريد وقته في درب شهامته ، واجتماع حزامته وتنأهى صرامته ، آية من آيات الله ،
وكان لعنه الله منصور العلم مظفراً على طوائف العجم لقي زعماءهم قتل حد جنودهم
وقتل بعده اليسير كثير عديدهم ^(١) .

كان على يوسف بن تاشفين وقد أضحي بطل الجهاد في الأندلس أن يخف
إلى نجدة بلنسية ، وأن يجاهد في الشرق ويصارع ذلك المغامر الجريء والمخارب
القد ، وأصبحت قصة الجهاد في هذا الدور صراعاً سافراً بين بطل الجهاد الإسلامى
والنصرانى ، أى بين لذريق وبين يوسف . ذلك أن الجوادث جعلت نجم لذريق
يعلو على نجم الفونسو ، ويبرز في مخيلة المعاصرين كبطل معركة الاسترداد ، بعد
أن تخلى عنها ملك قشتالة ، بسبب هزائمه المتتالية في المارك التى خاض غمارها
مع المرابطين .

ولكن يجب أن يكون واضحاً أن الروايات تتضارب أشد التضارب حين
تعرض لقصة النضال بين يوسف وبين القمبياطور ، فالمراجع الأسبانية تظهره
بمظهر الذى لا يقهر أبداً ، وتحاول بصفة خاصة أن تروى قصة صراعة مع يوسف
على أنها ظفر خالص وبطولة خالصة ، لتتال من شهرة يوسف قاهر الفونسو
ومبدد خراقة الاسترداد ^(٢) .

على كل حال بدأ المرابطون يتطلعون إلى بلنسية بعد استيلائهم على مرسية
ودانية ، وظهر ابن عائشة فاتح حصن لبيط أمام أهل شرق الأندلس بمظهر المنقذ

(١) الذخيرة م . بغداد قدم ٣ م ٣١ .

(٢) Pidal : p. 295, 296, 297, 298, 299, 302, 312, 313, 315, 316, 318, 319, 352,

الذى أرسلته العناية^(١) لتخلصهم مما كانوا يرزحون تحته من أعباء ثقال ، من العسف والجور والاضطهاد . وكانت جيوش المرابطين أينما حلت تثير في الناس الأمل في حياة أفضل تتوفر فيها العدالة والإنصاف . ويبدو أن أهل بلنسية قبل أن يحاصرهم السيد سنة ٤٨٥هـ^(٢) ، قد تطلّعوا إلى الإصلاح الذي ظفرت به المدن الأندلسية التي استولى عليها المرابطون ، وبخاصة أن الجزية التي فرضها القمبياطور على المدينة كانت باهظة حقاً تثقل كاهل الناس وتثير سخطهم وتبرهمهم . وقد اتهم القاضى ابن جحاف هذه الفرصة المواتية ، واستغل تقدير المرابطين للفقهاء والقضاة ، كما استغل هذا التذمر الذى بدت تذرّه ، وتسلم مقعد الرئاسة بالمدينة^(٣) ، وبدأ يتصل بالمرابطين في مرسية يطلب العون والمساعدة^(٤) .

ولم يستطع ابن عائشة أن يغادر دانية ، فبعث أحد قواده إلى بلنسية على رأس خمسمائة من رجاله^(٥) تلبية لنداء ابن جحاف . وقد شقت عصبة المرابطين طريقها إلى المدينة ، واستولت على القلاع الواقعة في الطريق ، ففر سايمان بن هود إلى طرطوشة ، وما كادوا يقتربون من المدينة حتى لاذ أعوان القمبياطور بأذيال الفرار ، ولم يستطيعوا الصمود أمام هذا النفر القليل من الملتزمين^(٦) . وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن القوة الخارقة التي ينسبها المؤرخون الفرنجة إلى أتباع القمبياطور حديث خرافة . ومن الغريب أن المؤرخين الأوروبيين يعترفون بفرار الجند النصراني^(٧) أمام هؤلاء المرابطين ، الذين دخلوا المدينة دون

(١) Pidal : op. cit. p. 295.

(٢) ابن الأبار : النكمة ج ١ ص ٤٨ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠١ . . .

(٥) Dozy : Recherches vol. II, p. 142.

(٦) Pidal : op. cit. p. 297.

Idem. (٧)

مقاومة ، واستطاع القاضي الداهية أن يحقق أغراضه كاملة ، فقتل القادر بن ذى النون ، وبيع له بالرتاسة ، والقمبياطور بسرقة بعيد عن مسرح الحادث (١) . ولا ندري لم لم يتقض القمبياطور في هذه اللحظة بالذات على المدينة ، فيطرد جند المرابطين ؟ ، كما لا ندري لم قنع بتهديد ابن جحاف ، ومحاولة التقرب إليه (٢) ؟ ، ليس من شك في أن السيد القمبياطور كان يخشى المرابطين ، ويخاف أن يشتبك معهم في معركة سافرة ، قد تتمخض عن هزيمته كما كان يعرف أن القوات المرابطية قريبة في دانية ومرسية تحمى ظهر بلنسية ، وتخف إلى نجدتها عند الحاجة ، فاستطاع بدهائه وحكمته أن يجب ما بين ابن جحاف وبين عصبته من المرابطين ، وحمله على أن يصرفهم عن بلنسية صرفاً (٣) ، وأوهمه أنه قد يجد في مخالفته ومخالفة ابن هود ما يعوضه عن مخالفة المرابطين (٤) . وبعد أن تم للقمبياطور عزل ابن جحاف عن حلفائه المرابطين ، حاصر المدينة على النحو الذي عرضنا له ، واستنجد أهل بلنسية بالمرابطين ، كما استنجدوا بخيرهم من الأمراء المسلمين ، وكان يوسف يود أن يابى نداء أهل بلنسية ، وأن يخف إلى نجدتهم ، لولا أن الظروف قد أقعدته عن تحقيق ذلك الرجاء ، وكتب إلى القمبياطور يهدده ويتوعدده ، ويطلب إليه أن يكف عن حصار المدينة ، فرد عليه السيد ساخراً متهمكاً مندداً بتقاعسه عن الجهاد وخوفه من اللقاء (٥) .

ولكن يخيل إلينا أن هذه الرواية مبالغ فيها إلى حد كبير ، فالمراجع العربية لم تشر إلى مكاتبات من هذا القبيل ، كما أن يوسف لم يكن بحاجة إلى أن يعبر البحر ليلقى لذريق ، فقد كان قواده بالأندلس كثيرون ، وكان باستطاعته أن

(١) Pidal : op. cit. p. 297.

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام من ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) الذخيرة : بغداد قسم ٣ ص ٣٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ .

(٥) Pidal : op. cit. p. 312

يسير الجيش المعسكر بمرسية ودانية ، دون أن يحشم نفسه مشقة العبور لارضاء غرور القمبياطور . هذا في الوقت الذي تصور الرواية الأوروبية القمبياطور بصورة الخائف المرتاع لقدوم المرابطين ، وتذكر أنه اتصل سرا بابن جحاف ليعاونه ، ويشد أزره ، ولكنهما خافا مغبة الأمر ، واكتفيا بأن يكتبوا إلى الأمير أبي بكر ابن إبراهيم القائد الذي أوقفه يوسف لاستنقاذ بلنسية مخوفانه لقاء القمبياطور الذي حالف صاحب أرغونة ، وجند ثمانية آلاف من خيرة الفرسان^(١) ، وينصحانه بالعودة من حيث أتى مخافة أن تحقيق به الهزيمة ، ولكن قائد المرابطين سار ميمًا شطر مرسية ، وطرب المحاصرون ، واعتقدوا أن يوم الخلاص بات قريبًا ، وقرروا خلع ابن جحاف ، وتنصيب ابن طاهر^(٢) ، ثم تقدم الجيش المرابطي حتى أدرك شاطبة ، ثم اتجه صوب بلنسية ، وبات على مرأى الناظر من أسوار المدينة ، وما كاد الصبح يسفر عن وجهه ، حتى كان جيش المرابطين قد اختفى عن الأبصار ، وانسحب من مواقعه قرب بلنسية .

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى في تعليل انسحاب القائد أبي بكر ، فقد ذكر ابن علقمة^(٣) أن يوسف كتب إليه يؤنبه وغضب عليه وعزله^(٤) . ولكن لم ننساق وراء ابن علقمة ، ونسم أبا بكر بميسم الجبن والخور ؟ . فلو كان الخوف هو الذي رد المرابطين على أعقابهم ، لما تقدموا من مرسية إطلاقا ، ولتركوا بلنسية تقع فريسة في يد القمبياطور . على حين نجد رواية المؤرخين الأسبان تؤيد وجهة نظرنا في أسباب انسحاب المرابطين ، فتذكر أن السماء قد أمطرت مطرا غزيرا في أمسية للعركة ، وأصبحت الطرق غير مأمونة للسالك ، فأثر أبو بكر أن ينسحب

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٣٥ . Pidal : p. 315 .

(٢) Dozy : Recherches, vol II, p. 158 — 159 .

(٣) Pidal : op. cit p. 319 .

(٤) ابن علقمة : ص ١٢٢ — ١١٣ . Provencal : Al Andalus, vol. XIII 1948 .

إلى مرسية^(١)، وكتب ابن عائشة إلى بني طاهر أنصار المرابطين يذكر أنهم لم يتراجعوا حيناً أو خوراً، ولكن لنقص الأتوات ووعورة الطريق^(٢)، فلم يجد أهل بلنسية مفراً من التسليم^(٣)، وسقطت في يد القمبياطور، فكان وقع سقوطها في نفس يوسف عظيماً^(٤)، وجاء حرق القمبياطور لابن جحاف وسومه أهل بلنسية سوء الخسف والعذاب ضغناً على أبالة^(٥).

ومن الغريب أن المؤرخين المسلمين لم يعرضوا لقصة الصراع بين يوسف والقمبياطور عقيب استيلائه على بلنسية، لم يعرضوا إلا للحملة الضخمة التي أعدها يوسف سنة ٤٩٥ هـ لاسترجاع المدينة نهائياً، فهل من المعقول أن يغفل المرابطون عن بلنسية طيلة هذه السنوات السبع، ويتركوها فرسة للسيد القمبياطور؟ وهل من المعقول أيضاً أن تظل القوات المرابطية تحتل مرسية، ودانية وشاطبة سبع سنوات، تواجه قوات السيد دون أن تلتحم بها أو تناوشها؟ لكن المراجع الإفرنجية لم تسكت كما سكتت المراجع العربية، بل ذكرت أن صراعاً عنيفاً نشب بين القمبياطور الذي اتخذ بلنسية مركزاً لأعماله العدوانية، وبين المرابطين في دانية ومرسية، ولكن هذه المراجع تلون سيرة القمبياطور في هذه الفترة باللون الأبيض، وتصور المواقع التي خاض غمارها على أنها نصر كلها، وتصور كفاح المرابطين في هذه الفترة على أنه هزائم متلاحقة يأخذ بعضها بتلايب بعض، فقد ذكر كل من بيدال ودوزي^(٦) أن محمد ابن عائشة حاول أن يسترد بلنسية لأنه سار إليهما على رأس ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل، وعسكر عند مدينة

(١) حسين مؤنس: السيد القمبياطور ص ٦١

(٢) Dozy: Recherches vol. II, p. 158 — 159

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٣٥.

(٤) النخبة: بغداد قسم ٣ ص ٣١.

(٥) ابن الكردبوس: الاكتفا نقلًا عن Recept ches, vol. II, ap, XXIX

(٦) Dozy: Recherches, vol II, p. 186 -- 195

(Cuerta) ، وأن القمبياطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام ، وكبدته خسائر فادحة ، فهل يعقل أن يهزم القمبياطور جيشاً قوامه ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، من فرسان المرابطين^(١) بقيادة ابن عائشة مدوخ الفونسو؟ لو صح ذلك أكان القمبياطور يقنع أو تقف أطماعه عند حد؟ . يخيل إلينا أنه لو صحت هذه الرواية لا نقض القمبياطور على دانيه ومرسية ، بل لعمل على اخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائياً !.

ليس يبعد أن تكون هذه القوات التي اقتربت من بلنسية قليلة العدد ، وربما كانت فرقة صغيرة أو مجرد كتيبة بقيادة أحد رجال ابن عائشة ، بدليل أن القمبياطور عندما أراد أن يتوسع خارج بلنسية بعد ذلك لقيته قوات بقيادة ابن عائشة فناوشته وقاومته^(٢) . هذا إذن يؤيد ما قلناه من أن هذه الحروب التي وقعت هي مجرد مناوشات لا أكثر ولا أقل ، فالمرابطون كانوا يستعدون ويطيئون الاستعداد ، لأنهم كانوا يعرفون أن هذه المعارك ستقرر مصير شرق الأندلس كله ، بل مصير معركة الجهاد في الأندلس بأسرها ، كما أن القمبياطور نفسه كان يخشى أن يشتبك في صراع سافر مع المرابطين فيصيبه ما أصاب الفونسو فتسقط هيئته .

وتعود المراجع الأفرنجية فتروى قصة نصر آخر أحرزه القمبياطور وحليفه بيدرو ملك أرغونة على قوات محمد بن عائشة على مقربة من بلدة بيرين ، استطاع القمبياطور بعده أن يستولى على مرييطر^(٣) . ويكفي المرابطين فخراً أنهم استطاعوا طوال هذه السنوات السبع أن يحدوا من نشاط القمبياطور ، وأن يحتفظوا بقواعدهم في المرية ومرسية ، وأن يشغلوا عدوهم بهذه المناوشات المتصلة .

Pidal : op. cit, p. 354 (١) .

Dozy ; Recherches vol, p. 188 — 195 (٢) .

Pidal : op. cit, 373. (٣) .

حتى أتم يوسف الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة ، التي بدت نذرها تلوح ، فقد أطبق محمد بن الحاج على قوات الفونسو عند (Consuegra) ، فأنزل بها هزيمة ساحقة ، وقتل ولد القمبياطور الوحيد^(١) ، كما هزم البرهانس عند كونكة ، وأوقع ابن عائشة بفرقة من جيش القمبياطور عند جزيرة شقر^(٢) ، ثم سار محمد بن مزدلي أعظم قواد المرابطين إلى بلنسية لخوض المعركة الفاصلة . ولكن القمبياطور كان قد توفي قبل ذلك بقليل ، ولم تستطع أرملته أن تقاوم طويلا ، فسقطت مدينة بلنسية في يد المرابطين في منتصف رجب سنة ٤٩٥ هـ^(٣) .

واستطاع المرابطون بعد كفاح متصل ، وجهاد مستمر في شرق الأندلس ، دام عشر سنوات أن يحرزوا هذا الظفر ، الذي لا يقل أثرا في تاريخ معركة الجهاد عن نصر الزلاقة ، فقد كان له دوى هائل في العالم الإسلامي كله ، خلده الشعراء والكتاب^(٤) ؛ كتب أبو الفضل جعفر بن شرف يقول « وحيالك بلسان الأقلام حين أشرق وجه الدين ، فأسفر وزهق حصن الملحد ففر ، وأقبل الفتح في لمة التأييد يرقل في ثوب النصر الجديد ، وجاء الوعد الناجز ببلنسية . فالآن قد نشر الليث من لحده ، وعاد الحسام إلى غمده ، فهبت ريح النصر ، ومد بحر الظفر بعد حسر » . فلا تعجب بعد ذلك كله إذا كان شرق الأندلس قد انفتحت أبوابه أمام المرابطين يوغلون فيه كيف شاءوا .

كان لسقوط بلنسية في أيدي المرابطين أثر بالغ في سير معركة الجهاد في شرق الأندلس ، فقد مات القمبياطور ، وانهارت الجبهة النصرانية في الشرق ، ووأغلت

(١) Pidal : op cit, p 376

(٢) كتاب الاكتفا نقل عن Recherches, vol II, ap. II p.XXI

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٦ Dozy : vol, IV p 245

(٥) ديوان ابن خفاجة ص ١٠٣ .

القوات المرابطية في إمارة بلنسية ، فاستولت على مريطر والمنارة والسهلة وغيرها من القلاع والحصون المنتشرة في هذا الإقليم ، كما تمخض هذا التوسع عن حماية ظهر إمارة سرقسطة ، وتوثيق الصلات بينها ، وبين المرابطين ليتعاونوا في صد التيار النصراني ، الذي يهدد الجزيرة من الشمال الشرقي . فقد كانت إمارة سرقسطة معرضة لخطر جسيم ، إذ تتصل اتصالاً مباشراً بحدود ممالك إسبانيا النصرانية وإماراتها ، تصاحبها من الشمال إمارات قطلونية وأرغونة ، وتتصل بها حدودها من الشرق بمملكة نبرة وليون^(١) ، فاضطرت أن تقف من جيرانها النصراني موقف المصانع المداري لتخلص من شرهم ، ولما عبر المرابطون البحر لأول مرة تخاف بنو هود ، ولم يدخلوا فيما دخل فيه غيرهم من الأمراء . ولم عذرهم فلم يكن باستطاعتهم أن يغفلوا ساعة واحدة عن هذه القوى النصرانية التي تتحفر للقضاء عليهم ، بل لعلمهم بنجحوا من حيث لا يريدون في الحيلولة بين القوات التي كانت تتدفق من فرنسا وغيرها من بلدان أوروبا ، وبين شد أزر القونسو في كفاحهم المرابطين ، فقد وقعت القوى الصليبية عند الإيبرو لم تستطع أن تجاوزه خوفاً من بني هود^(٢) ؛ ولكنهم رغم التظاهر بصداقة المرابطين كانوا يعملون في الخفاء على وقف توسعهم في شرق الأندلس خشية أن يصيبهم ما أصاب ملوك الطوائف الذين انتزع يوسف ملكهم ، ووقفوا وقفة المتخاذل المتردد من حصار بلنسية ، ومن جهاد المرابطين وكفاحهم من القمبياطور^(٣) ، لأنهم كانوا يتبنون السيد الذي كان يعمل لحسابهم .

كان بنو هود يطمعون في بلنسية ، أو على الأقل يأملون أن يقيم القمبياطور إمارة صديقة تحول بينهم وبين المرابطين^(٤) ، ولكن الملتزمين صمدوا للقمبياطور

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٢٠٠ .

(٢) الحلل الوشية ص ٦٠ .

(٣) الذخيرة : قسم ٣ ص ٢٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٦ .

على النحو الذي رأيناه ، وفتحت بلنسية ، وانسابت قوات المرابطين تتوسع صوب الشمال ، فاضطر بنو هود إلى أن يغيروا من موقعتهم ، وأن يقفوا من يوسف بن تاشفين وقفة المؤيد المناصر ، وهل كانوا يستطيعون غير هذا ، والعدو ينوشهم من الشمال ، ويهددهم في عقر دارهم ؟ لذلك عمد المستعين بن هود إلى أن يصل يده بيد يوسف قبل أن يكتسحه التيار ، ويجبر على الدخول فيما دخل فيه غيره ، فروى المؤرخون أنه اتصل به مرتين ، فقد كاتبه غب عبوره الأندلس غداة الزلافة ببرر له تقاعسه عن نصرته المجاهدين^(١) ، واتصل به في المرة الثانية عقب سقوط بلنسية^(٢) ، وآثر يوسف أن يصفح عن موافقه السابقة إيثاراً للعافية وإبقاء على وحدة اليهود ، ورغبة في إيجاد نوع من الجبهة الإسلامية المتحدة ، تمتد من حدود قطلونية إلى أقصى الجنوب ، لذلك أبقى على بنى هود يمدحهم بالعون والمساعدة ، ليدفعوا عادية الفرنجة ويصدوا تيارهم^(٣) .

وبتعاون بنى هود والمرابطين على الجهاد نستطيع أن نقول دون تردد إن المرابطين قد أتموا الجهاد في شرق الأندلس ، أو على الأقل وضعوا أسسا دائمة ثابتة لتعاون وثيق لم تره الأندلس منذ وفاة المنصور بن أبي عامر . وإذا كان المرابطون قد شغلوا بالجهاد في الشرق ، فإنهم لم يغفلوا عن الفونسو السادس ، بل وقفوا له بالمرصاد ، وفي الوقت الذي كانوا فيه يوطدون أقدامهم في منطقة مرسية ودانية ، ويتشوفون إلى بلنسية كانت قواتهم تشتبك مع جند قشتالة عند بلدة جيان ، وأوتعوا بقوات الفونسو ، ومزقوها شرمزق ، وفرت لا تلوى على شيء ، وذلك سنة ٤٨٥ هـ^(٤) ، بل يذهب المؤرخون إلى حد تشبيه معركة جيان بالزلافة . وكان الأقدار قد شاءت ألا يقترن اسم الفونسو في صراعه مع

(١) الحلل الموسية ص ٦٠ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٢٢٥ .

(٣) الحلل الموسية ص ٥٩ - ٦٠ .

(٤) ابن الأثير ص ١٠ - ٨٣ .

يوسف إلا بالهزيمة ، فما كاد يعاود الكرة مرة أخرى سنة ٤٩١ هـ ، حتى خف المجاهدون إلى مناجزته ، وأوقعوا الهزيمة به عند (Consuegra)^(١) ، وهي الموقعة التي قتل فيها ابن السيد القمبياطور ، كما هزموا قائده البرهانس عند كاونسكة ، وصاحب برجندية عند (Malagon) سنة ٤٩٤ هـ^(٢) . وشاء الله أن لا يرى يوسف نهاية عدوه الفونسو ، إنما قدر لولده على أن يحنى ثمار هذا النضال ، الذي استمر عشرين عاما ، حين هزم قوات الفونسو عند إقليش^(٣) ، قتل ولده ، وفنيت زهرة رجاله ، ومات غما وكدا بعد ذلك بعام واحد ، وفقدت حركة الاسترداد بطلبها السيد القمبياطور والفونسو السادس في سنوات متلاحقة ، هذا في الوقت الذي اتحدت فيه كلمة المسلمين تحت لواء واحد هو لواء يوسف بن تاشفين .

عبر يوسف البحر إلى الأندلس للمرة الأخيرة سنة ٤٩٧ هـ متوجا الهامة بالظفر والنصر تحقق أعلامه وبنوده على ربوع البلاد ، وقد عبر في هذه المرة ليضع أسساً ثابتة للدولة الجديدة التي ألفت بين المغرب والأندلس . نعم في هذه السنة بالذات أحس يوسف بأنه قام بواجبه ، وأرضى ضميره ، وعفر جبهته بتراب الجهاد ، وأجج الحرب المقدسة التي أحييت موات الآمال ، وثبتت أقدام الاسلام في شبه الجزيرة بعد أن كادت تعصف به الخطوب ، فرأى أن يبايع لولده على ابن يوسف بولاية العهد ، إحساساً منه بقرب الخاتمة ، وقد روى أنه عاد إلى المغرب في آخر سنة ٤٩٨ هـ^(٤) ، فرض وتوفي بمراكش سنة ٥٠٠ هـ^(٥) .

(١) Pidal: op.cil, p 414 .

Idem (٢)

Duruy : Hist. des Moyen Ages p 330 (٣)

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠١ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٤٥٧ ، روض القرطاس ص ١٠١ . الخلل

الموشية ص ١٧ .

(م ٢١ — قيام دولة المرابطين)

١٦ — أثر معركة الجهاد في دعم قيام الدولة :

ظلت معركة الجهاد في بلاد الأندلس في عهد يوسف دائرة الرحي مستعرة الأوار عشرين سنة كاملة ، قالى أى حد استطاعت هذه الحركة أن تحقق آمال يوسف بن تاشفين التى كان العالم يرقبها ويتطلع إليها ؟ . تمخضت معركة الجهاد عن تبيد خرافة الاسترداد ، هذه الخرافة التى تبناها ملوك قشتالة منذ أيام فردناند الأول منتهزين الفرقة الضاربة أطنابها بين ملوك الطوائف فى الأندلس ، فقد قهر الفونسو ، وتحطمت أحلامه ، وتبددت آماله ، ووقف حائراً أمام هذه القوى التى تكثرت ، واتحدت بصورة لم يشهدها الناس منذ أيام المنصور بن أبى عامر كما أن القوى الصليبية وقفت عاجزة أمام هذه الدولة الجديدة ، فلم تستطع أن تتجاوز سرقسطة إلى الجنوب ، كما مات القيمايطور مقهوراً ، ولم تغن شجاعته شيئاً ، وأصبح يوسف بن تاشفين فى الواقع أعظم شخصية فى المغرب الإسلامى ، ويكفى أن يقال إن من أهم نتائج معركة الجهاد فى الأندلس أنها حققت وحدة البلاد ، هذه الوحدة التى عزت منذ سقوط الخلافة ، وتفرق كلمة المسلمين فى الأندلس سنة ٨٣٩٩ .

نعم تمخضت جهود يوسف طوال الأعوام العشرين عن التوحيد بين المغرب والأندلس ، واستطاع أن يؤسس دولة المرابطين بالصورة التى عرفها الناس موحدة بين المغرب والأندلس ، جامعة بين تقاليد هذين البلدين . نعم كلن الرباط والجهاد متلازمين دائماً ، وكان الجهاد من أهم الأركان التى اعتمد عليها عبد الله بن ياسين فى بث دعوته بين الناس ، كما كان من أهم الدعائم التى اعتمدت عليها الدولة فى تكوين شخصيتها ، وتوسيع رقعتها . وقد تأثر المعاصرون بهذا الدور الرائع الذى قامت به الدولة الناشئة من انقاذ الإسلام مما تردى فيه من ضعف وتخاذل

وفرقه ، وأصبح الناس في المشرق يرقبون في شغف واهتمام ذلك التوفيق والظفر
الذي اقترن باسم يوسف ، حتى إن الإمام الغزالي^(١) رأى في هذا الأمير الإمام الأمثل
الذي طالما تمنى أن يراه ، كما رأى في الدولة الجديدة مدينته الفاضلة ، وروى أنه
أراد أن يذهب بنفسه إلى المغرب ليرى رأى العين هذه تعجزات التي تحققت
في هذا العصر عصر الضعف والتخاذل والفرقة ، ليشهد عن كثب ما تردده
الرواية من عدل الأمير وزهده وتقشفه ، ولكن قيل أنه ما كاد يبلغ الإسكندرية
حتى علم ب وفاة يوسف ، فعاد من حيث أتى^(٢) . وقد كتب العقيه أبو بكر
الطرطوشي يوسف مبدئاً إعجابه بما تواتر من أنباء بطولته^(٣) وتقواه ، كما اهتمت
الخلافة العباسية بهذا الجهاد الموفق ، فاعترفت بيوسف أميراً يحكم من قبل الخليفة
العباسي^(٤) بعد وفاة أبي بكر بن عمر ، وكتب يوسف إلى الخليفة ينوه بالدور
الذي اضطلع به في معركة الجهاد ، ويبين مدى ما أصاب من توفيق ، وما تحمل
عن جهد^(٥) ، وتردد اسم يوسف مقترناً باسم الخليفة العباسي على منابر الأندلس
والمغرب ، كما نقش اسم الخليفة على السكة ، وبذلك تكون دولة المرابطين قد
قامت واقعياً ونظرياً بعد اعتراف الخلافة العباسية بها .

نعم وضع للناس أجمعين أن دولة جديدة قامت بالمغرب ، تحمي تراث
الإسلام وتقهر أعداءه ، وتوحد بين المسلمين ، وتشد أزرهم ، ولولا الجهاد
في الأندلس — على ما نعتقد — لكان من الممكن ألا يختلف تاريخ المرابطين
عن تاريخ هذه الدويلات التي قامت بالمغرب ، وانتهت دون أن تثير اهتمام الناس .
نستطيع إذن أن نقول إن هذه الدولة قد أقامها رجالان : عبد الله بن ياسين صاحب

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٠ . مفاخر البربر ص ٤ .

(٢) Goldziher: Mohamed Ibn Toumart, p 12

(٣) ابن خير الفهرسة : ص ٢٩٩ .

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٠ .

(٥) التويرى ج ٢٢ ص ١٨٥ .

الدعوة ويوسف بن تاشفين صاحب السيف ومنفذ تعاليم الإمام ، ومخرج فكرة
الجهاد إلى حيز الوجود في معارك متلاحقة دامت قرابة خمسين عاما ، تؤيده
شيعة من المرابطين المخلصين لمعركة الجهاد ، بل إن بعضهم لم يتردد في أن يتطوع
لخوض معركة الجهاد في الشرق ، والمساهمة بنصيب في وقف التيار الصليبي المتدفق
على بيت المقدس^(٢) .

كان يوسف من صناع التاريخ في المغرب الإسلامي ، فقد أعاد إلى الأذهان
سيرة موسى بن نصير ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر ، وغيرهم من
أبطال الإسلام . كان يوسف معجزة حققتها الإسلام ، إذ استطاع ذلك الدين
أن يجعل من هذا الرجل الصحراوي بطلا ظل النصر يقترن باسمه مدى نصف
قرن في معارك المغرب والأندلس ، فقد صارع الفونسو والقمبياطور ، والبابوية
الناهضة ، والقوى الصليبية المتحفزة ، ووضع أسسا للجهاد ونظم الحكم ظلت باقية
بعده مدة طويلة . كان يوسف زاهدا متقشفا عادلا صادقا تتمثل في شخصه سيرة
السلف الصالح^(٢) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٣ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٢ .

الباب الخامس

نتائج قيام دولة المرابطين

١ — أثر قيام الدولة في الأوضاع السياسية :

الآن وقد فرغنا من ترسم الخطا التي أدت إلى قيام الدولة ، وتتبعنا الأدوار التي مرت بها منذ أن كانت مجرد رباط عند مصب نهر السنغال ، حتى بسطت رواقها ومدت ظلها على المغرب الأقصى والأندلس ، يحسن بنا أن ندرس الآثار التي تركها قيام هذه الظاهرة البارزة في أحداث المغرب الإسلامي في القرن الخامس الهجري ، وأن نستبطن الحوادث ، ونجلس مدى ما تركه قيام الدولة من أثر في تاريخ المغرب وحضارته .

وأول ما نلاحظه أن قيام هذه الدولة يختلف عن قيام دول البربر التي سبقتها ، فقد قامت دولة الإدارة مثلاً على أساس البيعة لعلى فر بن نفسه ، وآوى إلى المغرب معتصماً به من بطش العباسيين وانتقامهم ، وقامت دولة بنى زيري بعد أن حالفت صنهاجة كتامة ، وآزرت الدعوة الاسماعيلية بالمغرب وظلت تدين للفاطميين بالتبعية والولاء دهرأ طويلاً ، أما دولة المرابطين فقد قامت على أسس مختلفة كل الاختلاف ، فقد قامت على أساس نشر مذهب مالك في صحراء المغرب ، ومحاولة بعث القوى الإسلامية والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى عهد السلف الصالح ، ورسمت لنفسها طريق الإصلاح واضحاً جلياً ، واعتمدت في سبيل التمكن لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأعلنت على البدع والمنكرات التي شاعت في البلاد في أواخر القرن الخامس الهجري حرباً لا رحمة

فيها ولا هودة ، حطمت دنان النحر ، وكسرت آلات الطرب ، وفرضت صلاة الجماعة على الناس فرضاً ، وعممت الزكاة ، واقتصرت في فرض الضرائب على ما أوجبه الشرع ، فلقيت ترحيباً أينما حلت ، وكانت المدن تفتح أبوابها لهاؤلاً .
القوم المخلصين في جهادهم وفي إصلاحهم .

كما أن الدولة الجديدة توسعت في مبدأ الجهاد بصورة لم تعهدها دول المغرب من قبل ، عاشت من أجل الجهاد وذهبت ريمحاً في سبيل الجهاد . لا ننكر أن الدويلات المغربية التي سبقت دولة المرابطين في المغرب قد وضعت مبدأ الجهاد نصب أعينها ، وعملت بقدر طاقتها على مدافعة الفرنجة ، ونشر الاسلام ، ولكن لأول مرة في تاريخ المغرب نجد دولة تجند المجتمع كله من أجل الجهاد ، وتسخر موارد الدولة كلها له ، وتعمل من البلاد معسكراً ضخماً يتجاوب بأصداء القتال .

ويعتبر قيام دولة المرابطين من ناحية أخرى متوجاً للجهود التي بذلها البربر منذ القرن الثاني للهجرة ، بعد أن رسخت فيهم قواعد الدين ، وظفروا بالمساواة المطلقة بالفاطميين من العرب ، حتى آل الأمر إليهم آخر الأمر ، وأصبحوا أصحاب الكلمة الأولى في المغرب يشكلون تاريخهم حسبما يريدون . وقد قامت دولة المرابطين في وقت انتهى فيه نفوذ العرب في المغرب وأفريقية بانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، وبسقوط الدولة الأموية ، فخلا الجوأمام البربر ، وانتهى الأمر بأن أقاموا خلافة مغربية في عهد الموحدين عندما اتخذوا لقب أمير المؤمنين .

ويعتبر قيام الدولة من وجهة النظر القبلية انتصاراً لشعب البرانس ، فقد استطاعت صنهاجة بشقيها بعد جهود متواصلة أن تصرع أعداءها من البتر ، وأن تقهرهم ، وأن تبسط ظلها على بلاد المغرب كلها ، فقد كانت صنهاجة الشمال تسيطر على أفريقية والمغرب الأوسط ، وكانت صنهاجة الجنوب تسيطر على المغرب

الأقصى ، والأندلس ، فارتفع شأن البرانس ، وعلت كلمتهم ، وتفوقوا على أعدائهم البتر .

على أن قيام هذه الدولة قد ترك آثارا أخرى بعيدة المدى عميقة الأثر في تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس ، ذلك أن الدولة الجديدة استطاعت لأول مرة أن توحد في المغرب الأقصى بين المنطقتين الساحلية التي تسود فيها المؤثرات الحضارية الأندلسية ، والتي ينزل بها قوم يشتغلون بالزراعة ، وبين المنطقة الأخرى الهضبية والجبلية التي كانت في الواقع بربرية لحما ودما لم تنفذ إليها المؤثرات الثقافية الأجنبية ، ويحيا أهلها حياة النقلة والترحال^(١) . كان يحدث أن تبسط الدول التي قامت بإفريقية سلطانها حتى ساحل المحيط الأطلسي ، ولكنها كانت تتوغل في المنطقة الساحلية ، أما المناطق الداخلية فقد بقيت في معزل عما كان يجري من الحوادث ، حتى قامت دولة المرابطين فأخرجتها من عزلتها ، ووصلت تاريخها بتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس ، وقد وحدت الدولة لأول مرة بين إقليم السودان والمغرب الأقصى ، فقد كانت الأقاليم السوادية تكاد تعيش بمعزل عن حوادث المغرب ، حتى أخرجها المرابطون من هذه العزلة ، ومكفوا للثقافة الإسلامية من أن تتسرب إليها ، وتنتشر بين ربوعها . كما أن قيام الدولة وتوسعها في الأندلس يمثل ظاهرة فريدة في تاريخ المغرب الإسلامي ، ذلك أن أهل الأندلس ظلوا يتفوقون على أهل المغرب ، ويتحكمون في مصائرهم دهرأ طويلا ، وكانت جيوش الناصر والمستنصر وهشام المؤيد تجوس في أرجاء البلاد ، ترفع لواء الأمويين وتبسط ظلهم ، وتمكن للحضارة الأندلسية حتى قامت دولة المرابطين ، فقلبت الأوضاع ، وأصبحت الغلبة من نصيب أهل المغرب ، وكتبت لهم السيادة على أهل

M.L. De Mas Latrie : Traité de paix et de commerce et (١) documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de L'Afrique Septentrionale au moyen age : p. 27.

الأندلس ، وأصبحت شئون تلك البلاد تصرفها مرا كش حاضرة هذا الملك الجديد .

وقد ترك قيام الدولة أثراً واضحاً في ناحية أخرى بعيدة الأثر ، ذلك أن المغرب شهد ظاهرة جديدة وفدت عليه ، فقد غزا عرب بني هلال أفريقية ، وخرّبوا القيروان ، ونالوا من الحضارة ، وقوضوا ملك بني زيري ، ثم طرّقوا باب المغرب الأوسط ، وهددوا الدولة الحمادية . وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى ، فيمثلوا فيه نفس الدور ، ويعيشوا فيه فساداً ، كما عاشوا في أفريقية من قبل ، لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الأوسط ، ووضعها حامية قوية في تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب الأقصى شر بني هلال^(١) . وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط لأنهم كانوا يعلمون أنه يتحكم في الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى . ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الأقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد الممتونى الشهير مزدلى فاتح بلنسية ليرعى شئونه ويحرس مسالكه^(٢) فلا ينفذ إليه العرب ، ويطرقون باب المغرب الأقصى .

وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الأوسط ، وعملهم على مدافعة عرب بني هلال إلى اصطدامهم ببني حماد أصحاب القلعة بعد أن كانوا قد آزرهم حين فتحوا المغرب الأقصى ، لأن بني حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين في المغرب الأوسط نظراً لارتياح والرضا ، بل ظلوا يترقبون فرصة مواتية حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس ، وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد . فاستعانوا بعرب بني هلال وأغاروا على المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين^(٣) . مما حمل

G. Marçais : Les Arabes en Berbérie du XI Au XIV Siècle (١)
p. 116.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ .

(٣) المرجع السابق ج ٦ ص ١٨٨ .

يوسف على مغادرة الأندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم^(١)، ويبدو أن المرابطين قد أقروا السكينة في ربوع المغرب الأوسط، وحالوا بين بني حماد وحلفائهم من العرب، وبين ما يريدون، بل جاست قواتهم فيه، وهددت مدينة أشير^(٢). ويخيل إلينا أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط، وعملهم على تحصينه وإقرار السكينة في ربوعه لم يكن يقصد به مجرد مناهضة بني حماد والسكيد لهم، بل لرد العرب عن المغرب وتجنيب البلاد ما أصاب إفريقية من قبل، بدليل أن يوسف سالم بن حماد^(٣) بعد أن اطمأن إلى أن المغرب الأوسط قد نجا من الوقوع في قبضة العرب، فنجت حضارته وسلم تراثه.

وقد ترك قيام دولة المرابطين أثراً بعيد المدى في توازن القوى في الجزء الغربي من البحر الأبيض. ذلك أنه في ذلك الوقت بالذات ظهر النرمان بجنوب إيطاليا وبدءوا يتشوفون إلى صقلية ويمكنون لأنفسهم فيها، في الوقت الذي عمدت فيه أساطيل جمهوريات إيطاليا إلى تهديد حرية الملاحة في هذه المنطقة، وراحت مملكة قشتالة وليون تبسط ظلها على الأندلس، وتستذل ملوك الطوائف، وتحاول أن تنتزع منهم القلاع والحصون. وكانت البابوية قد نهضت نهضة موفقة، وبدأت تبسط ظلها على أوروبا، وتهيء الأذهان لمعركة صليبية حامية الوطيس، فلما قامت دولة المرابطين، وبسطت ظلها على الساحل المطل على بحر الروم، اهتمت بالبحر، وبدأت تنشي أسطولاً بعد فتح سبتة وطنجة. وقد خف المرابطون إلى معركة الجهاد في الأندلس، واستطاعوا بعد جهود متصلة دامت عشرين عاماً أن يوقفوا توسع الفرنجة في الأندلس، وأن يبددوا خرافة الاسترداد وأن يؤخروا سقوط شبه الجزيرة في يد النصارى بضعة قرون. وقد استولى المرابطون

(١) التبخيرة (م . بغداد) القسم الثاني ص ١٠٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٧٦ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٨ .

على الساحل الشرقى لبلاد الأندلس، كما استولوا على جزيرتي ميورقة ومنورقة (١)،
واتخذوا من موانئ الأندلس قواعد لأسطولهم الناشئ، الذى أخذ ينشط فى حوض
البحر الأبيض، ويظهر تفوقه، ويغير على بلاد الفرنجة محاولاً أن يستعيد السيادة
الإسلامية التى كان قد انتهى أمرها. ومن آيات تفوق أسطول المرابطين فى البحر
أن بنى زيرى وهم يصارعون روجر صاحب صقلية استغاثوا بهم فلم يترددوا
فى مساعدتهم، واشترك أسطول المرابطين فى مهاجمة صقلية (٢).

نعم استطاعت هذه الدولة الناشئة أن تقضى على السياسة التى سارت عليها
البابوية لإثارة حرب صليبية فى الغرب، بل لعبت دوراً فى غاية الأهمية فى تاريخ
المعركة الصليبية التى كانت توشك أن تضطرم نارها فى الشرق، فقد نجحوا
فى الحيلولة بين ممالك الأندلس وبين المساهمة فى الحملات الصليبية التى نظمت
للاستيلاء على بيت المقدس، ولأن المرابطين كانوا يقفون لهم بالمرصاد، إذ كانوا
يفاوشونهم، ويهددون بلادهم، ولا يكفون عن غزوهم ومحاربتهم؛ ويخيل
إلينا أنه لولا قيام دولة المرابطين فى ذلك الوقت بالذات؛ لكان النجاح الذى
أحرزته الحملات الصليبية فى الشرق أبعد أثراً، ولا استطاعت القوى الأوروبية
كلها أن تنصرف بكليتها إلى معركة الشرق، ومن يدري ربما كان وجه التاريخ
الصليبي قد تغير. ولم لا نقول أن قيام دولة المرابطين ونجاحها فى المعركة الصليبية
الدائرة الرخى فى المغرب قد أحيا موات الآمال، وهز مشاعر المعاصرين فى الشرق
فأدركوا أن فى المغرب قوة إسلامية ناشئة استطاعت حين وحدت القوى المتنافرة
أن تحرز ذلك النصر الرائع وأن تذيب أعداءها البأس والشدة. وقد اهتم المرابطون
بالجهاد فى الشرق اهتماماً عظيماً، وكانت يحز فى نفوسهم أن يروا إخوانهم
فى الشرق قد تفرقوا وتباغضوا غافلين عن الداء الذى بدأ يستشري فى بلادهم

(١) التادل : التشوف ص ١٥٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٣ ، ٢٦٠ .

ويهددهم تهديداً خطيراً . يدل على ذلك ما رواه ابن الأثير^(١) من أن بعض هؤلاء الملتزمين رحلوا بعد الحملة الصليبية الأولى إلى بغداد ، وخطبوا في الناس الناس ، يستنهضون لهم ، ويلهبون الحماس في النفوس ، ويدعون إلى الجهاد في الشرق كما دعوا إليه في الغرب^(٢) .

استطاعت هذه الدولة إذن أن تجمع بين المغرب والأندلس ، وإن تبسط نفوذها حتى إقليم السنغال والنيجر ، وجمعت بين التأثيرات الأندلسية والمغربية والسودانية ، وألفت بين التراث الأندلسي والمغربي والسوداني ، وسنرى كيف أن ذلك كله سترك في الحضارة في عهد المرابطين آثاراً باقية وسمات واضحة . كما استطاعت أن ترفع من شأن مذهب مالك ، وأن تنشره في المغرب والسودان وأن تعلى كلمته في الأندلس ، وعملت على إقامة مجتمع مثالي فاضل على أسس من من أحياء السنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومحاربة البدع ، والتوسع في الجهاد بصورة لم تحسن معهوده من قبل ، كما عملت على القيام بإصلاحات اقتصادية واسعة النطاق .

وقد تركت هذه الأسس التي قامت عليها الدولة أنثراً واضحاً في وضع الدولة الشرعي ، وفي ألقاب ولي الأمر ، وفي السكة ، ونظم الحكم وفي النظام الحربي ، وفي فن القتال ، وفي الحياة الاقتصادية والاجتماعية وفي الحياة الثقافية ، وفي جميع مقومات الحضارة . وواجبنا الآن أن نبرز هذه الآثار ، وأن نكشف عنها النقاب ، وأن نوضح إلى أي حد استطاعت هذه التأثيرات أن تشكل مجتمعا جديداً يختلف اختلافاً واضحاً عن غيره من المجتمعات السابقة .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٣ .

(٢) قال ابن الأثير : « وفي سنة ٤٩٩ ورد إلى بغداد إنسان من الملتزمين ملوك المغرب قاصداً إلى دار الخلافة فأكرمه وكان معه إنسان يقال له الفقيه من الملتزمين أيضاً فوعظ الفقيه في جامع القصر واجتمع له العالم العظيم وكان يحظ وهو ملتزم » بل روى ابن الأثير أيضاً أن بعض هؤلاء الملتزمين قد شارك الأفضل في حربه مع القوى الصليبية في الشرق ، وهذا إن دل على شيء ، فإنه يدل على هذه الفيرة للإسلام التي كان تضطرم بها قلوب رجال هذه الدولة .

وقد أثرت الأسس التي قامت عليها الدولة في وضعه الشرعي . فنحن نعلم أن الدعوة التي بثها عبد الله بن ياسين في ربوع المغرب كانت تهدف إلى إحياء السنة ، وبعث التقاليد الإسلامية الصحيحة ، ومحاربة العقائد الضالة ، وكان عبدالله — كما رأينا — مجرد فقيه من فقهاء المالكية في المغرب اضطرم فؤاده بحب الإصلاح بسبب الانحلال والتفرق الذي أصاب العلم الإسلامي في عصره ، فأراد أن يعود العالم الإسلامي إلى وحدته ، وأن يعود الناس إلى السنة القويمة ، وأن تقوم الدولة كل معوج ، وأن تعلى كلمة الحق والفضيلة في مجتمع فشا فيه الفساد ، ولم يكن يدور بخلد عبد الله غيب نجاحة في توحيد قبائل صنهاجة الجنوب ، وتوجيهها نحو المغرب لفتحه أن يقيم دولة يرثها أبناؤه من بعده ، بل قنع بإرساء قواعد الإصلاح ، وتوجيه المجتمع الجديد الوجهة التي يريدونها دون أن يطمع في ملك أو سلطان .

ولما كانت مذاهب السنة تنادى بأن الإمامة لقريش^(١) ، وترى أنه « لا تتم حياثة إلا بإمامة يدعى إليها وتجري السنن عليها^(٢) » ، ولما كانت رسالة الدولة الجديدة هي إحياء تعاليم السنة كان من الطبيعي أن تعترف بإمامة قريش ، وتعتقد اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكها مشروعاً إلا إذا باركته الإمامة القرشية ، ولما كانت الخلافة الأموية في الأندلس قد سقطت ولم يعد يمثل الخلافة القرشية في ذلك الوقت إلا بنو العباس في بغداد ، كان طبيعياً أن تتجه الدولة صوب العباسيين تلتمس العون وتستمد التأييد وتطلب الاعتراف . ولم يكن طبعاً أيضاً أن يعترف المرابطون بإمامة الشيعة ، وهم المالكيون المتعصبون الذين يكفرون بني عبيد ، ويرمونهم بالزندقة والإلحاد ، « كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر الاعتقاد القبيح ، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر ، وكان أمير

(١) البندادي : الفرق بين الفرق ص ٢٣ .

(٢) الذخيرة قسم ٢ مجلد ٢ ص ١٤٨ .

الجيوش بدر أراد إصلاحهم فلم يميلوا إليه ولأقاربوه»^(١)، وقد تمثل إيمان المرابطين بأحقية بنى العباس في الإمامة والخلافة في ما نسب إلى يوسف بن تاشفين، حين طالبه قومه بأن يتخذ لقب أمير المؤمنين فقال «حاشا لله أن تسمى بهذا الاسم، إنما تسمى به خلفاء بنى العباس، لسكونهم من تلك السلالة السكرية، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة، وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم»^(٢). وهذه صورة واضحة للعقلية الإسلامية في العصور الوسطى، فقد كن الناس لا يفهمون حكما لا يعترف به خليفة، لا ينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأى الجماعة. ويتمثل هذا الرأى فيما رواه النويرى على لسان الفقهاء بالأندلس، حين قالوا ليوسف بن تاشفين «أنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة»^(٣).

كانت الدولة إذن لا تكاد تختلف في وضعها الشرعى عن الدويلات المستقلة التى قامت في الشرق والغرب معترفة بالخلفاء العباسيين تخطب لهم على المنابر، وتنقش أسماءهم على السكة. ففى اتصال المرابطون ببغداد يطلبون الاعتراف بهم ولاية شرعيين، يدينون للخلافة بالطاعة. ينسب بعض المؤرخين إلى يوسف بن تاشفين أمر الاتصال بالخليفة العباسى فى بغداد يطلب الاعتراف به، وإرسال التقليد والخلاعة ويذكر بعضهم أن هذا الاتصال تم بعد معركة الزلاقة. أعنى بعد سنة ٤٧٩ هـ، كما يذكر البعض الآخر أنه راسل الخليفة أبا العباس أحمد المستظهر بالله^(٤)، والمستظهر كما نعلم ولى الخلافة سنة ٤٨٧ هـ، أعنى بعد الزلاقة بثمان سنوات. ويذهب فريق آخر^(٥) أنه اتصل بالخليفة المقتدى بأمر الله الذى ولى الخلافة كما نعلم من

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٣.

(٢) الحلال الموشية فى الأخبار المراكشية ص ١٨.

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥.

(٤) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٤ . النويرى ج ٢٢ ص ١٩٥ .

(٥) ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٤ .

سنة ٤٦٧ إلى ٤٨٧ هـ ، فكان معاصراً لمعركة الزلاقة . وتؤكد مراجع أخرى هذا الاتصال ، وتقول أن يوسف كان يفخر « بأنه معيد دعوة أمير المؤمنين ^(١) » . ولم يكن من المعقول أن يتصل يوسف بالخليفة العباسي قبل سنة ٤٨٠ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها أبو بكر بن عمر ، وتمت البيعة ليوسف رسمياً ، فلا يبعد أن يكون يوسف قد اتصل بالمقتدى يطلب الاعتراف بشرعية حكمه ، فلما توفي المستظهر سنة ٤٨٧ هـ ، وخلفه المقتدى اتصل به يوسف يطلب تجديد الاعتراف ، فقد كان التقليد يتجدد كلما مات خليفة وخلفه آخر ، وهذا يفسر التناقض الظاهر في رواية المؤرخين . كما أن السكة في عهد يوسف بن تاشفين قد نقش عليها اسم (عبد الله) أمير المؤمنين ، إشارة للخليفة العباسي ^(٢) .

ولكن كتب المقود تظهر لنا أن المرابطين دعوا للخليفة العباسي قبل فتح الأندلس بوقت طويل ، فنقشوا أسماءهم على السكة منذ سنة ٤٥٠ هـ ، وذلك في عهد الأمير أبي بكر بن عمر ^(٣) ، وظل اسم الخلفاء العباسيين يذكر مقروناً

(١) الحلال الموشية : نقلا عن Dozy: *Arbadiarum*, vol. II. p 189, 192

يذكر ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ ما نصه (وتسمى بأمر المسلمين وخاطب المستنصر العباسي الخليفة المهدي ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العرب النعماني الأشبيلي وولده القاضي أبا بكر فتناطف في القول وأحسن في الإبلان وطلب من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك في أيدي الناس وانتقلوا إليه بتقليد الخليفة وعهد على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم .

(٢) *Katalog der Orientalischen Münzen*, Zweiter band, p 124

قطعة رقم ٥٦٤ بتاريخ ٤٩٧ . انظر : ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) M. H. Lavoix : *Catalogue de Monnaies Musulmanes de la*

Bibliothèque Nationale, p. 198

Vivesy Escudero : *Monedas de los Dinastias Arabigo— Espanolas*, p. 235.

Katalog der Orientalischen Münzen (op. cit.) Vol. II, p. 123

قطعة رقم ٥٦٣ : نقوش القطعة كما يلي : باسم الامم عبد الله أمير المؤمنين » قطعة

رقم ٤٨٥ .

Catalogo de Monedas Arabigos, p. 125

باسم أبي بكر بن عمر حتى توفي سنة ٤٨٠ هـ ، وخلفه يوسف بن تاشفين ، فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسي ، وفي هذا تأييد لما قلناه من أن الدولة الجديدة قد دعت للعباسيين من أول الأمر ، وليس بعد الزلافة كما يذكر المؤرخون الذين سبقت الإشارة إليهم^(١) .

وهناك ملاحظة أخرى هي أن اسم الخليفة العباسي المنقوش على السكة المرابطية هو (عبد الله أمير المؤمنين) ، وقد ظل هذا الاسم كما هو حتى آخر العهد بالدولة ، فكان ذلك سببا في أن بعض الباحثين أثار جدلا حول اسم عبد الله المنقوش على السكة ، فقالوا إنه قد يكون اسم عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين ، ولكن عبد الله كما نعلم لم يتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، ولم يكن من الممكن أن يتخذ هذا اللقب ، وهو يعلم أنه من القاب الخلافة ، كما أن الرجل لم يتجاوز أبدا سلطة الفقيه ، وترك أمر الحكم ومستوليته ليحيى بن عمر وأبي بكر بن عمر . كما أن الخليفة المعاصر لقيام الدولة هو أبو جعفر عبد الله القائم بن القادر ، الذي ولي من سنة ٤٦٢ هـ إلى ٤٦٧ هـ ، ثم خلفه أبو القاسم عبد الله عدة الدين المقتدى بأمر الله بن محمد بن القائم ، الذي ولي من سنة ٤٦٧ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ ، وكلا الخليفين يسمى عبد الله ، كما أن صاحب شذور العقود^(٢) يفسر النقوش التي ذكرت على السكة للمرابطية هكذا « في ديناره لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب في الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، وكتب في الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع السكة »^(٣) . ويرى ما كس فان يرشم أن الخلفاء العباسيين والأمويين

(١) Katalog der Orientalischen Münzen. (op. Cit) Vol. II, p 128

القطعة رقم / ٥٨٢ و ٥٨٣ و ٥٨٤ و ٥٨٥ و ٥٨٦ و ٥٨٧ و ٥٨٨ و ٥٨٩ .

(٢) المقرئ : شذور العقود في ذكر النقود ص ٦٦ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

كانوا يكتنون عن أنفسهم بلفظ عبد الله في النقوش أو النقود ، خصوصا في عهد عبد الملك بن مروان وهشام ، والمأمون ، والمقتدر ، ويرى أيضا أن اسم عبد الله كان يخلع دائما على من يجهل اسمه الجرد ، ويضيف إلى ذلك قوله أن التقاليد الدبلوماسية كانت تقضى بعدم ذكر الأسماء المجردة ، إنما اكتفت بالكنى والألقاب ^(١) .

لذلك لم يشأ المرابطون أن ينقشوا اسم الخليفة الجرد على السكة ، واكتفوا بقولهم (عبد الله) ، وهي كنية يمكن أن تخلع على أى خليفة عباسي ، كما أضافوا قولهم أمير المؤمنين ، وهو لقب لا يلقب به إلا الخلفاء ^(٢) .

وهنا لك ناحية أخرى تسترعى الانتباه ، وهي ما قيل من أن المرابطين قد اتخذوا السواد شعاراً لهم ، لأن أعلام العباسيين وأشعرتهم كانت سوداء ، فقد ذكر التيجاني ^(٣) صاحب الرحلة المعروفة حينما عرض للقتال بين الموحدين وبين بني غانية الملتئمين أن شعارهم كان أسود اللون على حين كان شعار الموحدين أخضر اللون لأنهم كانوا يميلون للدعوة العلوية ^(٤) . ولكن يجب ألا تغيب عن اذهانتنا حقيقة هامة أشرنا إليها في الباب الأول ^(٥) من هذا الكتاب ، وهي أن الطوارق في الوقت الحاضر فريقان : فريق النبلاء ، وفريق العامة ، ورداء الفريق الأول أسود اللون تمييزاً لهم عن الفريق الآخر ، الذي كان يرتدى الملابس البيضاء ، فليس يبعد أن يكون الطوارق الحاليون ، ورثوا هذا الرداء عن أسلافهم الصنهاجيين ، وظلوا يستعملونه حتى اليوم . ويؤيد هذا القول ما روي من أن المعتصم صاحب المرية أراد أن يتقرب من المرابطين ، فارتدى ثوباً مرابطياً أسوداً فكان كما يصفه بعض الرواة العرب « كالغراب الأسودين الحمام الأبيض » ^(٥)

(١) M. Max Van Berchem : Titres Califién d' Occident (Journal asiatique, dixieme Serie T, IX, 907, p. 1274

Idem (٢)

(٣) الرحلة التيجانية ص ١٥٨ .

(٤) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٢٤٠ .

(٥) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٩٥ .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن السواد كان شعار المرابطين قبل أن يدعوا للعباسيين على منابر بلادهم ، كما يدل على أن بعض التقاليد القبلية للملثمين قد أثرت في نظم الحكم ، ولعل مما ذكرناه ينهض دليلاً على أن ظابع الدولة قد أثر في وضعها الشرعي ، وأن التزامها أحكام السنة قد جعلها تعترف بالخلافة العباسية الشرعية ، وقد ظل المرابطون يدعون للعباسيين^(١) حتى دالت دولتهم ، فانتهت الدعوى العباسية من المغرب بانتهاهم .

٢ — أثر قيام دولة المرابطين في نظم الحكم :

هذه الروح التي برأملت على المرابطين أن يخطبوا للخلفاء العباسيين على منابرهم ، وأن يكتبوا لهم يطلبون الاعتراف بشرعية حكمهم هي التي أملت عليهم أيضاً ألا يتخذوا من الألقاب ما يتعارض مع هذه التبعية . فالمعروف أن من ألقاب الخلافة لقب أمير المؤمنين ، جرى العرف على هذا ، واصطلح عليه الناس ، فكان من الطبيعي ألا يتخذ المرابطون لقب أمير المؤمنين ، وقد وضحت هذه الروح بجلاء في ذلك الحديث الذي نسبة صاحب الخلل الموشية^(٢) إلى يوسف بن تاشفين حين أراد قومه أن يلقبوه بألقاب الخلافة فذئ ، وقال بأن هذا اللقب من ألقاب الخلفاء العباسيين القرشيين الهاشميين أئمة الحرمين ، وأصحاب الحق المشروع في إمامة العالم الإسلامي .

فما هي إذن الألقاب التي خلعتها المرابطون على أنفسهم ؟ اتخذ أولى الأمر من المرابطين لقب الأمير أول الأمر ، وظل هذا اللقب ينقش على السكة منذ سنة ٤٥٠ هـ ، طوال حكم أبي بكر بن عمر^(٣) ، فما كاد الأمر يؤول إلى يوسف بن

(١) التيجاني : الرحلة التيجانية ص ٤٤ . المراكشي ص ١٣٢ .

(٢) Katalog der Orientalischen Münzen (op. cit.), Vol. II p. 130

Pièces No. 59, 601, 603, 648, 649, 650

(٣) الخلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧ .

(م ٢٢ — قيام دولة المرابطين)

تاشفين حتى روى المؤرخون أن تغيراً حدث في ألقاب الأمراء ، ذلك أن يوسف اتخذ لقب أمير المسلمين ، فمضى اتخذ يوسف هذا اللقب ، وما هي الظروف التي هيأت له أن يتخذ لقباً هو أقرب شيء من الألقاب الخلافية ؟

يُميز المؤرخون في حياة يوسف بين فترتين : فترة ظل يتخذ فيها لقب أمير شأنه شأن أسلافه ، وفترة أخرى اتخذ فيها لقب أمير المسلمين ، وقد أشار صاحب الحلل الموشية^(١) إلى أن يوسف ظل يتخذ لقب أمير حتى تضرخت مملكته ، واتسعت أعماله ، فاتخذ لقب أمير المسلمين سنة ٤٦٧ هـ ، قبل أن يعبر البحر إلى الأندلس^(٢) ، هذا إلى أن ابن بسام صاحب الذخيرة ذكر طائفة من الكتب بعث بها المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وغيره من ملوك الطوائف إلى يوسف ابن تاشفين يستنجدون به وينعتونه بلقب أمير المسلمين^(٣) . ومن الغريب أن حاكس فان برشم^(٤) يذهب هذا المذهب ويؤيد هذا الرأي . ولكن يجب ألا يفوتنا أن نلاحظ أن ابن بسام صاحب الذخيرة شرع في كتابة موسوعته سنة ٥٠٠ هـ ، أعني في أواخر أيام يوسف وأول العهد يعلى بن يوسف ، وفي هذا الوقت بالذات كان قد تأكد للمعاصرين صدق يوسف في الجهاد ، وتوفيقه في مدافعة الفرنجة عن بلاد الأندلس ، وانتشر صيته في الآفاق وأصبح لقب أمير المسلمين شائعاً على كل لسان ، فليس بغريب أن تجد ابن بسام حين يؤرخ للفترة السابقة على سنة ٥٠٠ هـ ، يقرن اسم يوسف بن تاشفين بلقب أمير المسلمين وناصر الدين ، لأن ابن بسام وهو يؤلف كتابه الذخيرة كان يطمع في أن يظفر بتقدير على بن يوسف ، أو على الأقل كان يعلى من ذكر يوسف إرضاء لولده على صاحب الأمر في البلاد . كما يجب ألا يفوتنا أن يوسف بن تاشفين ظل

(١) Katalog der Orientalischen Münzen (op. cit) Vol. p. 123

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧ .

(٣) الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٩٨ و ٩٩ .

(٤) M. Van Berchem : Titres Califiens, p 273

عامل أبي بكر على المغرب حتى سنة ٤٨٠ هـ ، حين مات أبو بكر وآل الأمر إليه رسمياً ، فكيف يتسنى ليوسف أن يتخذ لقب أمير المسلمين ، وهو لم يزل عاملاً من عمال الدولة ، ومجرد أمير لا أكثر ولا أقل ؟

مما تقدم يتضح أن يوسف بن تاشفين لم يكن في مقدوره أن يتخذ هذا اللقب قبل سنة ٤٨٠ هـ ، فلما عبر البحر إلى الأندلس بقصد الجهاد ، وخالط أهل الأندلس وخالطوه شاع ذكر ذلك اللقب على ألسنة الناس ، كتابهم وشعرائهم ، مدحه الشاعر عبد الجليل بن وهبون فقال ^(١) :

وليرقبوا من أمير المسلمين ومن مؤيد الدين ليلاً ماله سحر
كما أشار شاعر آخر هو أبو بكر محمد بن سوار الأشبوني في رثائه ليوسف ابن تاشفين إلى هذا اللقب فقال ^(٢) :

ملك الملوك وما تركت لعامل علامن التقوى يشار إليه
اسمع أمير المسلمين وناصر الد ين الذي بتفوسنا فديه
وقد ورد في رسائل المعاصرين التي ذكرها ابن بسام في ذخيرته هذا اللقب معترناً باسم يوسف بن تاشفين . ورد ذكره في رسائل كتبها ابن القصيرة عن المعتمد بن صمادح ^(٣) ، وفي رسالة أخرى كتبها ابن طاهر بعد سقوط بلنسية ^(٤) ، ورسالة ثالثة كتبها أبو بكر محمد بن ذى الوزارتين المشرف أبو مروان بن عبد العزيز إلى المستعين بن هود ^(٥) ، وفي كل هذه الرسائل لا يكاد يذكر اسم يوسف بن تاشفين مجرداً من لقب أمير وناصر الدين .

-
- (١) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٤ .
(٢) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧ .
(٣) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٧ .
(٤) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٣ ص ١٨ .
(٥) الذخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١١٦ .

لذلك يخيّل إلينا أن يوسف بن تاشفين لم يتخذ هذا اللقب إلا بعد اشتراكه في معركة الجهاد في الأندلس ، بل يخيّل إلينا أن الأمر ، الأندلسيين والفقهاء وذوى رأى خلعوا عليه هذا اللقب ، اعترافاً بفضلهم وإشادة بالجهود الموفقة التى بذلها في محاربة الفونسو السادس ، وانتصاره المسلمين . أشار صاحب شذور العقود إلى ذلك فقال « فلما فتح يوسف بن تاشفين الأندلس ، وصنع غزاة الزلافة بايعوه وسلموا عليه بأمر المسلمين ، وهو أول من تسمى بأمر المسلمين من ملوك المغرب ^(١) » .

وقد درج الكتاب المعاصرون وغير المعاصرين على أن يذكروا اسمه مقترناً بهذا اللقب ^(٢) ، ويخيّل إلينا أن يوسف كان أول الأمر يتحرج من ذكر هذا اللقب في مكاتباته الرسمية لأنه كان متواضعا لا يحب أن يدل على الناس بفضل الجهاد في سبيل الدين ^(٣) ، فلما اعترف الخليفة العباسى به أمر بأن يذكر في الخطبة ^(٤) .

ولكن عدم إشارة العقود المضروبة في عهد يوسف بن تاشفين ^(٥) إلى هذا

(١) المقرئى : شذور العقود ص ٦٦ .

(٢) مشيخة عياض ورقة ١٠ (أ) و ٦٥ (أ) و ٦٦ (أ) . المطرب لابن دحية ورقة ١٩ (ب) و ٩٠ (ب) .

(٣) يدل على ذلك ما ذكره صاحب الحلال الموشية - بين قال (بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والسكافة أدام الله كرامتهم بتقواه ووقفهم لما يرضى وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر وميسر اليسر وواهب النصر والصلاة على محمد البعوث بنور الفرقان والذكر . وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم واسبغ علينا من أنعمة الظاهرة والباطنة برود النعم وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخمس أنفسنا بهذا الاسم لنتناز به على سائر امراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فن خطب الخطبة العلوية السامية فليخطبها بهذا الاسم ان شاء الله تعالى » انظر الحلال الموشية ص ١٧ .

(٤) الحلال الموشية في الأخبار المراكشية ص ١٧ .

(٥) Katalog der Orientalischen Munzen (op. cit) vol II; p. 124

Pièces 565, 567, 568, 569, 570, 571, 572, 573, 574, 575, 577, 578, 579; 580; 581.

اللقب لا يعنى أنه لم يخلع على يوسف فعلاً^(١) لأن النقود التي حفظتها المتاحف المختلفة ليست هي كل النقود المنسوبة إلى عهد يوسف بن تاشفين ، وليس يبعد أن تكون هنالك دنانير قد نقش عليها هذا اللقب ، ولكنها ضاعت ، ولم يعثر عليها بعد ، بدليل أن صاحب كتاب شذور النقود فسر الكتابات المنقوشة على عملة يوسف بن تاشفين بقوله : « ونقش في دينار لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب في الدائرة ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، وكتب في الصفحة الأخرى الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكوته »^(٢) .

ومن الغريب أن هذه القراءة تطابق النقوش الموجودة على الدنانير المرابطية التي تحت أيدينا ، مما يدل على أن صاحب الكتاب قد قرأ فعلاً نقوش أحد هذه الدنانير المرابطية . مهما يكن من شيء فإن على بن يوسف قد ورث هذا اللقب عن أبيه وأنه ظهر على السكة مقروناً باسمه منذ توليه سنة ٥٠٠ هجرية ، واستمر ملوك المرابطين يتخذون هذا اللقب ولقب ناصر الدين حتى آخر العهد بهم^(٣) ، بل إن على بن يوسف اتخذ لقب ولي الله ونقش على السكة أيضاً^(٤) .

= Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationales, p. 202.

Pièces : 516, 527, 534, 535, 536, 537, 538, 540, 542, 543.

Monedas de las Dinastias Arabigo-Espanolas

Pièces : 1504, 1505, 1510, 1512, 1513, 1521, 1522, 1526.

M. Van Berchem : Titres Califiens d'Occident, J. As. Xème (١)

Serie. S. T. IX. 1907, p. 273

(٢) المقرئ : شذور النقود ص ٦٦ .

Cataloge de Monedas Arabigos Espanolas que se conservan en el (٣) Museo Arquelógico Nacional.

Pièces : 551, 552, 593, 493, 492. Lavoix: Catalogue des Monnaies-

Musulmanes de la Bibliothèque Nationale : Pièces : 547, 588. 638. 652.

Monedas de las Dinastias Arabigo-Espanolas : Pièces : 1552, 1706

Don Francisco Cadera y Zaidin : Tratado de Numismatica Arabigo-Espanola. p. 199.

قد أثرت طبيعة قيام الدولة في طريقة اختيار ولى الأمر ، ذلك أن دولة المرابطين قد أقامها شعب صنهاجة الجنوب من الملمثين ، فكان من الطبيعي أن تكون الرئاسة في صنهاجة الجنوب ، وأن يكون ولى الأمر صنهاجياً . وقد أشرنا في الباب الأول من هذا الكتاب إلى أن القبيلة الغالبة في المجتمع المغربي كانت تستأثر بالنفوذ والسلطان كله ، وتستبدل القبائل المغلوبة على أمرها ، وتحاول أن تستفيد من النصر بقدر ما تستطيع ، وتختص أبناءها بالنعيم كله وبالثمار كلها ، وقد رأينا كيف أن قبيلة لمتونة كانت سيدة شعب الملمثين ، وصاحبة الكلمة فيه وصاحبة الفضل الأول في إقامة الدولة ، فكان طبيعياً أن يكون ولى الأمر لمتونياً . من القبيلة الغالبة . كما أشرنا إلى أن القبائل صاحبة السيادة كانت تؤلف طبقة أرستوقراطية في المجتمع الملمث تختص نفسها بالشرف والرئاسة ، ولما كانت رئاسة لمتونة في بني ورتنطق كان لا بد أن يكون ولى الأمر من بني ورتنطق هؤلاء ، كان منهم يحيى بن عمر وأبو بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ، وعلى بن يوسف وجميع خلفائه .

إذن لم تكن البيعة عامة ، ولم يكن حق الاختيار مطلقاً ، بل كان على الشعب أن يختار أميره من هذا البيت بالذات ، ومن قبيلة لمتونة ، ومن شعب صنهاجة . ولكن الدور الذي اضطلعت به الدولة في إحياء السنة ، والسير وفق تعاليمها قد جعلها تعتمد إلى نوع من الشورى في اختيار الأمير ، فكانت تقام بيعة خاصة ببائع فيها أفراد الأسرة الحاكمة ، ثم الأمراء من بني ورتنطق ، ثم سادة لمتونة ، ثم سادة القبائل الأخرى ، ثم زعماء القبائل الخاضعة لنفوذ المرابطين ، حتى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة تلى العقد في المساجد وقرى على الناس ، ثم يخطب للأمير على المنابر إلى جانب خلفاء بني العباس ، وينقش اسمه على السكة والطرز والبنود^(١) .

(١) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٧٣ .

وإذا كنا قد عرضنا لولى الأمر وألقابه وطريقة اختياره وأخذ البيعة له فيجب علينا أن نعرض لنظام ولاية العهد ، وأن نبين إلى أى حد تأثر المربطون بتقاليدهم البدوية ، وبالمذهب الذى أحيوه ، ورفعوا لواءه وعملوا بتعاليمه . ليس من شك فى أن المجتمعات البدوية لم تكن تعرف مبدأ التوريث الذى يقضى بأن يرث الابن أباه فى السؤدد وفى مشيخة القبيلة ، لأن القبائل البدوية عادة لم تكن تعقد لواء المشيخة إلا لمن توافرت فيه صفات خاصة من حكمة ونجدة وشجاعة وكثرة بذل وعطاء ، لذلك قلما كانت المشيخة تنتقل من الأب إلى ولده ، إنما كانت تنتقل إلى الأضلع من أقربائه وأهل أمرته .

وقد تجلت هذه التقاليد البدوية بوضوح وجلاء فى طريقة اختيار الأمراء فى أول العهد بالدولة ، فقد بايع عبد الله بن ياسين الأمير يحيى بن عمر لتحمسه للدعوة وصدق جهاده ، فلما مات يحيى بويع لأبى بكر بن عمر ، وهو من نفس البيت ومن نفس القبيلة ، ولم نسمع أن يحيى قد ولى أحدا بعده ، كما لم نسمع طوال حكم أبى بكر بن عمر الذى امتد من سنة ٤٥٠ هـ إلى ٤٨٠ هـ أنه ولى بعده أحدا .

لا ننكر أن بعض النقود ظهر عليها اسم إبراهيم بن أبى بكر ، وأن هذه النقود ضربت بسجلماسة^(١) ، ولكن سك النقود باسم إبراهيم بن أبى بكر لا يعنى أنه كان ولى عهد ، إنما كان أميراً على سجلماسة فى الوقت الذى كان فيه يوسف ابن تاشفين أميراً على المغرب ، وقد قضت التقاليد بأن يتمتع كل أمير بشبه استقلال محلى فى ولايته ، وأن يكون له حق سك النقود باسمه .

أما يوسف بن تاشفين الذى خلف أبى بكر بن عمر ، فقد اختير بسبب احرازه النصر فى معارك المغرب والأندلس . اختاره المثلثون لما أسداه للدولة من

خدمات جليلة . من ذلك يتبين أن الدولة حتى عهد يوسف لم تكن تعرف نظام ولاية العهد بالصورة التي ترسمها النظم الإسلامية ، إنما كان المجتمع اللمتوني يولى الأصلح ، ويعقد لواء الإمارة للقادة الشجعان الذين يتوسمون فيهم الإخلاص للمبادئ الجديدة . وقد ظهر في طريقة اختيار هؤلاء الأمراء صدى التقاليد البدوية والتقاليد الإسلامية ، التي تقول بالشورى واختيار الأفضل والأصلح .

لكن عهد يوسف بن تاشفين تمخض عن تطور جديد ، إذ ظهر نظام ولاية العهد في النظم المزابية لأول مرة ، فقد رأى يوسف أن الدولة قد اتسع نطاقها وانبسط ظلها فشمّل المغرب والأندلس وإقليم الصحراء حتى نهر السنغال والنيجر ، فأراد أن يضع للدولة نظاماً يكفل لها الوحدة ، ويعصمها من الفرقة ، ويحسم داء الخلاف^(١) الذي قد يهدد الدولة الناشئة بانقسام خطير ، فأدخل نظام ولاية العهد ، وأصبح تقليداً سار عليه خلفاؤه ، فقد روى المؤرخون أن يوسف قدم إلى الأندلس سنة ٤٩٦ هـ أو ٤٩٧ هـ ، وكانت بلنسية قد سقطت منذ سنة أو أكثر ، وكان المرابطون قد أحرزوا نجاحاً في المعركة الصليبية ، وهدأت الأحوال في البلاد ، وبدأت الأمور تستقر ، وقد أحضر معه ولده علياً وأخذه البيعة بقرطبة^(٢) حاضرة الأندلس ، كما أخذها بمدينة مراکش^(٣) حاضرة المغرب حتى يشترك الأندلسيون والمغاربة في مبايعة الأمير الذي سيحكم القطرين ويوحد بين الشعبين .

وقد أتى صاحب كتاب الحلل الموشية بنص عقد البيعة^(٤) ، وهي وثيقة هامة

(١) الحلل الموشية في الأخبار للراكية من ٥٦ — ٥٧ .

(٢) ابن أبي زرع : روض القرطاس من ١٠١ . مفاخر تيجر من ٥٣ .

Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale. p. 210 Pièce : 536

(٣) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية

ج ١ ص ١٢٢ .

(٤) نص عقد البيعة وهو من إنشاء الفقيه أبي محمد بن عبد التفور .

تلقى ضوء على نظام ولاية العهد كما وضعه يوسف بن تاشفين ، إذ تبين أن أمير المسلمين حين نزل بقرطبة دعا أمراء لمتونة ، وأشياخ البلاد والفقهاء وقادة الرأي في البلاد ، ثم تلى عليهم عقد البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على اختيار ولي العهد ، ويضع الشروط التي يجب أن تتوافر فيه ، ويوضح المبادئ التي يسير عليها في حكم البلاد ، ثم أخذت البيعة من الحاضرين الذين أقسموا بيمين الطاعة والولاء ، ثم وقعوا على العقد ، وتقدم ولي العهد فأقسم أمام الجماعة بالتزام شروط العقد ، وترسم السياسة التي وضعها أبوه ، لا يحيد عنها قيد أنملة ، ثم أشهد الكتاب ، وأخذ توقيعة على الوثيقة^(١).

يتبين من عقد البيعة هذا أن يوسف قد خضع لمؤثرات قبلية ومؤثرات مستوحاة من طابع الدولة وسياستها القاضية بإحياء السنة ، ورفع لواء مذهب مالك والتمسك بأهداب تقاليد السلف الصالح ، لأن يوسف لم يغفل مبدء الاختيار الذي تفرضه التقاليد البدوية ، فكان له أبناء كثيرون ، ولكنه اختار أصلحهم واقدرهم على الأضطلاع بهذا العبء الثقيل ، برغم أن عليا كان أصغرهم سناً . لأن الدولة بطبيعتها المزدوجة في حاجة إلى أمير يؤلف بين قلوب أبناء الأندلس والمغرب ، لا يغفل أمر الجهاد ، ولا يتنكر لمبادئ عبد الله بن ياسين . بيد وهذا كله بجلاء من نصوص الوثيقة إذ تقول : « فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن

« أما بعد فإن أمير المسلمين وتناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباد الله المؤمنين خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستتب فيه سواء ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة ، وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة كيف في هذه الأمور وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة ، قد أعز الله رماحه ، وأحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى العالي ، واهتزازاً وأكرمها سجية وانقسمها اعتزازاً فاستناب فيما استترعى ودعا إلى ما كان إليه دعا بعد استشارة أهل الرأي على القرب والتأني فرضوه لما رضيه وامطفوه لما اسطفاه ، ورأوه أهلاً أن يستترعى في ما استرعاه فاحضروه مشرطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين الشروط قبل ورغى ... »

(١) الخلل الوشية في الأخبار المراكشية ص ٥٦ — ٥٧ .

أكثرهم ارتياحا إلى المعالي واهتزازا وأكرمهم سجية وأنفسهم اعتزازا فاستنابه فيما استرعى ، ودعاه إلى ما كان إليه دعى^(١) .

وتكشف لنا الوثيقة عن أمر آخر هو تمسك يوسف بالشورى ، وحرصه على استشارة أهل الرأي تحقيقا للتقاليد الإسلامية والبدوية معا ، « ودعاه إلى ما كان إليه دعا بعد استشارة أهل الرأي على القرب والتأني ، فرضوه لما رضىه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه »^(٢) . وكانت البيعة مشروطة بشروط خاصة ، إذ كان على الأمير للبائع له أن يلتزم سياسية معينة لا يجيد عنها ، لأنه أقسم أمام الملأ أن يلتزمها وألا يتعداها ، فإذا أحس أهل الرأي ووجوه القوم أنه قد خرج على نصوص عقد البيعة ، وحاد عن المبادئ التي أقسم على احترامها كان لهم أن يتحللوا من إيمانهم ، وأن ينقضوا العهد . وكان باستطاعة أمير المسلمين إذا شاء أن يخلع هذا الابن من ولاية العهد ، إذا آس منه تغيرا أو تبديلا ، ويولى من أبنائه أكثرهم صلاحية لهذا المنصب الخطير ، جاء في الوثيقة « ورأوه أهلا أن يسترعى فيما استرعاه فأحضروه مشرطا عليه الشروط الجامعة بينه وبين الشروط ، فقبل ورضى وأجاب حين دعى بعد استشارة الله الذي بيده الخير والاستعانة بالله الذي من آمن به شكره »^(٣) .

وكان ولي العهد يتخذ لقب أمير ، كما يتبين من عقد البيعة ومن الألقاب المنقوشة^(٤) على السكة ، وكان اسمه ينقش على السكة إلى جانب اسم أبيه فيقال

(١) الحلال الموشية ص ٥٦ — ٥٧ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) Lavoix : catalogue des Mannaies Musulmanes p. 210.

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

الأمير على بن الأمير

يوسف بن تاشفين

« الأمير علي بن الأمير يوسف » ، ويقال أحيانا أخرى « الأمير يوسف وولي عهده الأمير علي » . وقد ظل اسم علي بن يوسف يكتب على السكة إلى جانب اسم أبيه من سنة ٤٩٧ هـ إلى سنة ٥٠٠ هـ ، كما ظل اسم سير بن يوسف يكتب على السكة ، حتى استبدل به الأمير تاشفين بن يوسف ، وقد اختار تاشفين ولده ابراهيم وليا لعهد ، ونقش اسمه على السكة أيضا . وكان يدعى للأمير ولي العهد علي المنابر بعد أبيه ، كما يختص بالولاية على الأندلس ، يقيم في قرطبة^(١) ، حتى إذا مات أبوه انتقل إلى مراکش ، وبويع أميرا للمسلمين .

وهنا لك ناحية أخرى تركت في نظم الحكم في عهد المرابطين آثارا بعيدة المدى ، هي أنه لابد للقائمين على الدولة والمهيمين على شئونها من أن يحولوا بين الحلف المؤسس للدولة وبين التفرق ، لأن الدولة تستمر قوية فتية متسادة طالما كانت القبائل مؤسسة الملك متآلفة وابناء القبيلة الواحدة متحالفين متآزرين ؛ فاذا دب النزاع بين قبائل الحلف الواحد أو بين أفراد القبيلة الواحدة تفرق الشمل^(٢) ، وتقدمت القبائل المعادية من مضاربها تنال من الدولة ، وتذك صرحها ، لذلك يجب أن تختص القبيلة المنتصرة بثمار النصر ، وتحرص على أن يكون لها الامتياز في جميع مرافق الحياة ، وتؤلف طبقة حاكمة مهيمنة .

فطن إلى هذه الحقيقة المؤرخون الذين تعرضوا لدراسة النظم الإسلامية في المغرب والأندلس على الخصوص ، مثل ابن خلدون^(٣) ، والطوطوش صاحب كتاب سراج الملوك حين قال « ويدخل تحت هذه الترجمة أمر اتفق عليه حكام العرب والروم والفرس والهند وهو أن تضطلع وجوه كل قبيلة والمتقدمين من كل عشيرة وتحسن إلى حملة القرآن والعلم ، وحفاظ الشريعة وتدني مجالسهم

(١) لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٩ .

(٢) Rodd : People of the Veil p 343

(٣) ابن خلدون : المقدمة .

وتقرب الصالحين والمتزهدين وكل متمسك بعروة الدين ، وكذلك فلتفعل بالأشراف من كل قبيلة والرؤساء المتفرعين من كل غط ، هؤلاء هم أزمة الخلق وبهم يملك من سواهم فمن كمال السياسة والرياسة أن تبقى على كل ذي رياسة رياسته ، وعلى كل ذي عززة وعلى كل ذي منزلة منزلته ^(١) .

وقد وضع أسراء المرابطين هذه السياسة نصب أعينهم ، فقد روى ابن خلدون أن يوسف « اقتسم المغرب عمالات على بنيه وأسراء قومه وذويه » ^(٢) ، فلتنظر إلى أي حد يصدق قول ابن خلدون ، وإلى أي حد طبق يوسف هذه السياسة القبلية سواء في الأندلس أم في المغرب .

كان ولاية المغرب جميعهم من قبيلة لمتونة على الخصوص ، أو من صنهاجة على العموم ، وقد كان يوسف بن تاشفين نفسه قبل أن يصير إليه الأمر عاملا على المغرب من قبل أبي بكر بن عمر ، أما مدينة فاس وسبتة ، فقد وليهما الأمير أبو بكر بن ابراهيم ^(٣) وولى تلمسان تاشفين بن تيناصر ^(٤) ، والأمير مزدلي ^(٥) ، وولى أبو بكر بن محمد اللمتوني بلاد السوس ^(٦) ، وكان أبو بكر بن ابراهيم قبل أن يولى على فاس عاملا على إقليم الصحراء ^(٧) ، أما سجلماسة فقد وليها ابراهيم ابن أبي بكر بن عمر ^(٨) ، وأبو عبد الله ابن أبي زنقي ^(٩) ، كما كان عامل دكالة من قبيلة لمتونة ^(١٠) .

(١) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١١٤ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٢ .

(٤) Marçais : Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e Siècles. (٤)

p. 141.

(٥) التادلي : التشوف ص ١٠٩ .

(٦) الزركشي : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٤ .

(٧) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٨) Lavocx : Cat. des. Monnaies. Musul. p. XLII (٨)

(٩) الفتح بن خاقان : القلائد ص ٢٩٤ .

(١٠) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩ .

ولم يختلف الحال في الأندلس عنه في المغرب ، فقد ولى يوسف على غرناطة عليا
ابن يوسف ، وأبا الحسن علي بن الحاج ، وموسى بن الحاج ، وأبا بكر بن إبراهيم ،
ويحيى بن أبي بكر بن إبراهيم ، وأبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ،
وأبا محمد مزدلى ، وأبا محمد تاشفين بن علي بن يوسف ، وأبا بكر بن أبي محمد ،
وأبا طلحة الزبير بن عمر ، وعثمان بن بدر اللمتوني ^(١) . أما قرطبة فقد ولىها
محمد بن الحاج بن عمر الصنهاجى ، وولده المنصور ، وأبو محمد تاشفين
بن علي ، والزبير بن عمر الملقب ^(٢) ، وولى مرسية أبو عبد الله بن عائشة ،
وابراهيم بن يوسف بن تاشفين ^(٣) ، وأبو عبد الله محمد بن تاشفين ، وأبو بكر
بن تيفويت ، وأبو عبد الله بينتان بن علي ، وأبو عبد الله بدر بن ورقاء ، وابراهيم
بن تاعياشت ، وأبو زكريا يحيى بن غانية ^(٤) ، وولى إشبيلية سير بن أبي بكر ،
ويحيى بن سير بن أبي بكر ، وعبد الله بن فاطمة ، وابراهيم بن يوسف بن تاشفين ،
وأبو حفص عمر ، وعبد الله بن أبي بكر بن جنوة ، ويحيى بن علي بن منصور ،
وأبو يعقوب بن علي ، وأبو بكر بن علي بن يوسف ، ويحيى بن اسحق ، وآتمجار ،
وأبو بكر بن مزدلى ، والأمير آسنجور وطلحة بن العنبر ، والمنصور بن الحاج ^(٥) ،
وولى سرقطة أبو عبد الله محمد بن الحاج وأبو بكر بن ابراهيم ، وابن تيفلويت ^(٦) .

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٣٩ .

(٢) ابن بشكوال : كتاب الصلة ص ٥٩٤ . ابن الأبار : النكلة لكتاب الصلة .

ج ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ . ابن الخطيب الإحاطة ج ١ ص ٢٨١ .

Dozy : Recherches sur L' histoire et la Litterature de L. Espagne
Pendant le Moyen-age. vol. I. ap. XXVIII p lxxiv

(٣) ابن الأبار النكلة ج ١ ص ٥٥ . ديوان ابن خفاجة ص ٢٠٠ . الضي : بنية .

الماتيس ص ١٧ ، الفتح : المطح ص ٩٨ .

(٤) مفاخر البربر ص ٨٢ .

(٥) ديوان خفاجة ص ٧٩ و ٨١ .

Levi - Provencal : Introduction p. 181

(٦) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٣٠٢ ، المقري : أزهار الرياض ج ٢

ص ٢٠٩ .

وولى المرية عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجى ، وتاشفين بن على^(١) ، وولى بلنسية الأمير مزعل بن سلتكمان ، وأبو عبد الله بن فاطمة^(٢) ، ثم الأمير على بن مجون ، ثم القائد أبو عبد الله محمد بن الحاج ، ثم الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت ، ثم الأمير أبو الطاهر بن تميم بن يوسف ، ثم الأمير إبراهيم بن تاعياشت ، ثم القائد أبوزكريا يحيى بن تاسورة ، ثم القائد بدر بن ورقاء ، ثم القائد أبو يعقوب بن يينتان بن على ، ثم القائد أبوزكريا يحيى بن على^(٣) .

من هذا يتبين كيف كانت الدولة أمينة على ترانها القبلى ، حريصة عليه ، عاملة بقدر الطاقة على أن تؤلف بين قلوب الأمراء والأشراف وشيوخ العشائر والقبائل ، حتى يظل الحلف قوياً متماسكاً لا تذهب ريحه ، ولا يتفرق شمله . وليس عجيباً أن تثير هذه السياسة ثائرة أهل الأندلس الذين كانوا يطمعون فى أن يصيبوا من الدولة الجديدة نفعاً وغناً .

ولما كانت الأحلاف القبلية المؤسسة للدول تتألف من قبائل عدة تربط بينها رابطة القرابة والمصلحة المشتركة ، تتمتع كل قبيلة باستقلال ذاتى فى نطاق هذه الوحدة العامة ، لكل شيخها وأشرافها الذين يصرفون شئونها ، ويتمتعون بنفوذ مطلق على أفرادها ، كان طبيعياً أن تتسم هذه الحكومات القبلية بسمة اللامركزية ، لا يستبد ولى الأمر برأيه ، بل يشاركه النبلاء والأمراء فى كل ناحية من نواحي الإدارة .

وقد تأثرت دولة المرابطين بهذه الروح القبلية تأثراً عظيماً ، حتى إنه ل يبدو للتأمل فى نظام الحكم فى عهد المرابطين ، أنه نظام اقطاعى لا مركزى^(٤) ، يتمتع

(١) ابن الأبار : النكلة ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) ابن الأبار : الحلة الساء ص ٢٢٥ .

(٣) مفاخر البربر ص ٢٠٢ .

(٤) Terrasse : Hist. Du Maroc p. 248

حكام الأقاليم في ظلة بسلطة محلية مطلقة لا تربطهم بولي الأمر ، إلا رابطة الولاء من ناحية ، ورابطة القرابة من ناحية أخرى .

وقد تجلى هذا النظام اللامركزي بوضوح في الأندلس ، وفي المغرب فكانت بلاد الأندلس ولاية شبه مستقلة يحكمها نائب من قبل أمير المسلمين ، مطلق السلطة ، ولا يولي في هذا المنصب الخطير ، إلا أقرب المقربين من ولي الأمر من ذوى قرباه^(١) ، وكثيرا ما كان ولاية العهد يولون على الأندلس في حياة أبيهم ، فإذا اعتلى ولي العهد العرش ولي أكبر أخوته في هذا المنصب الخطير ، ومن حظى بالولاية على الأندلس القائد الشهير سير بن أبي بكر ، الذي أخضع ملوك الطوائف ، وبسط سلطان المرابطين في البلاد^(٢) ، وقد خلفه أبو عبد الله محمد ابن عائشة^(٣) ، ثم على بن يوسف وقت أن كان وليا للعهد فصار أميراً للمسلمين ولي أخاه أبا الطاهر تميم^(٤) .

وكان نائب أمير المسلمين في الغالب يتخذ غرناطة أو قرطبة أو اشيلية مقراً لحكمه^(٥) . وكانت سلطة هؤلاء النواب في الواقع شكاد أن تكون مطلقة ، فكانوا يولون الولاء ويعزلونهم ويراقبونهم مراقبة دقيقة ، يتبين ذلك من كتاب ليوسف بن تاشفين بعث به إلى أحد هؤلاء النواب ، جاء فيه « واستعمل عليها من يرفق بها ، ويعدل فيها ، وأخرج كل من يحيف عليها ، ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو خرق في أمرها عادة أو غير رسم أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما ، فأعزله عن علمه وعاقبه في بدته^(٦) » ، بل كانوا

(١) الحلال الموشية ص ١٣ .

(٢) ديوان ابن خفساجة ص ٤٩ و ٤٥ . الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٦٦

الحلال ص ١٣ .

(٣) المراجع السابقة .

(٤) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) مفاخر البربر ص ٨٢ .

(٦) الفتح : قلائد العقيان ص ١١٣ .

يولون القضاة وينقلونهم ويعزلونهم ، فقد روى أن الأمير سير نقل القاضي ابن شبرين إلى قضاء أشبيلية^(١) . وكان القضاء خاضعين لنائب أمير المسلمين^(٢) .

وكانت تعقد للوالى القيادة العليا على جيوش المرابطين بالأندلس ، حتى تظل معركة الجهاد مستمرة لا تتوقف ، لذلك كان أغلب أعوانه من رجال الحرب والقواد . قال يوسف لنائبه سير بن أبي بكر « كل بلد أخذته فول عليه أميراً من عساكرها »^(٣) ، فكانت الحكومة ذات صبغة عسكرية بحتة ، وكان الأمير يحرص أشد الحرص على تزويد الحرب بما تحتاج إليه من جعدة وسلاح : « قوى الحصون وسد الثغور وأذكى العيون واتخذ مخازن السلاح وعمل التراس ونسج الأذراع وفصل البيضات والسيوف وربط الخيل »^(٤) .

ويبدو أن الأمير كان يتخذ دور ضرب في عواصم الأقاليم لسك النقود باسم أمير المسلمين ، يدل على ذلك ما ذكرته كتب السكة من تعدد دور الضرب في الأندلس ، فقد اتخذ الأمراء دور ضرب في أشبيلية ، وبلنسية ، والجزيرة ، ودانية وغرناطة ، وقرطبة ، ومالقة ، ومرسية والمرية ، وسرقطة ، وسنلوكة ، وقونكة^(٥) .

كما اتخذوا دوراً للضرب في أغمات وتلسان وسجلماسة وقاس وهر اكش ونول ونول لمطة وسهبة وسلا^(٦) . وكان الأمير فوق ذلك كله يجلس للنظر

(١) المقرئ : أزهار الرياض ص ١٥٦ .

(٢) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ١٩٧ .

(٣) Dozy : Historia Abbadidsrum, vol II p 249

(٤) ابن الخطيب الإحاطة ج ١ ص ٢٨١ .

(٥) Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de Bibl Nat.

Monedas de las Dinastias Arabigo - Espanolas.

Catalogo de Monedas arabigo sEspanolas

Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de La Bib. Nat. (٦)

Monedas de las Dinastias Arabigo-Espanolas

Catalogo de Monedas Arabigos-Espanolas.

في المظالم ، و يقرأ الرقاع و يجيب عنها ، و يكتب التوقيعات . و يتفرغ للمناظرة في يوم الجمعة^(١) ، فكان قصره في الواقع عصب الحكومة في بلاد الأندلس .

و يبدو أن ما كان يتمتع به نائب أمير المسلمين في هذه الحدود العامة قد تمتع به الأمراء المحليون في حدود ضيقة ، فقد كان نائب أمير المسلمين يولى على مقاطعات الأندلس رجالا من أمراء البيت اللمتوني^(٢) ، وكان هؤلاء بدورهم يولون في حدود اختصاصاتهم ولاية من أهل اللثام ، وكن العامل الصغير يدين بالولاء لقائد المنطقة ، وقائد المنطقة يدين بالولاء لنائب أمير المسلمين الذي يدين بالولاء للأمير المسلمين صاحب السلطة العليا في الأمبراطورية كلها .

وكان نائب أمير المسلمين ومعاونوه من أمراء الأقاليم يتخذون كتابا يخام عليهم بعض المؤرخين لقب وزراء^(٣) ، يتولون الأعمال الإدارية ، فيحررون الرسائل ، ويعرضون على الأمير ما يعين لهم من أمور لأخذ رأيه فيها ، فقد اتخذ سير بن أبي بكر أبا محمد عبد المجيد بن عبدون^(٤) ، واتخذ أبو عبد الله محمد بن الحاج محمداً بن عبد الملك بن عبد العزيز ، وأبا عبد الله بن أبي الخصال^(٥) ، واتخذ أبو بكر بن إبراهيم أبا بكر بن الصائغ^(٦) ، وأبا جعفر بن البني^(٧) ، واتخذ تميم بن يوسف علياً بن عبد العزيز بن الإمام الأنصاري^(٨) ، وعبد الرحمن ابن أحمد بن إبراهيم^(٩) . واتخذ تاشفين بن علي الزير بن عمر اللمتوني ، وأغلب

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٤ .

(٢) الفتح بن خاقان : قلائد الغيان ص ١١٤ .

(٣) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٤) المر كشي : المعجب ص ١٠٤ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٣٢ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٧) الفتح بن خاقان : قلائد الغيان ص ٣٠١ .

(٨) ابن الزبير : كتاب صلة الصلة ص ٨٢ .

(٩) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٤١ .

هؤلاء من فحول البلاغة وأعلام الأدب في الأندلس . وكان كل أمير من هؤلاء كأنه ملك مستقل له قصره وله حاشيته وله بطانته . وصف ابن الأبار مجلس الأمير تميم بن يوسف حين أناخ بظاهر مرسية ، فقال « كان معه فقهاء قرطبة وعميدهم أبو انوليد بن رشيد فيهم ، وهم حوله وقد استداروا به حلقة مع من حضرهم من الرؤساء^(١) » .

ويبدو أن المغربين الأوسط والأقصى قد نظما على هذا النمط ، مصداق ذلك هذه السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها يوسف بن تاشفين ، وهو لم يزل أمير المغرب ، نثبا عن أبي بكر بن عمر ، حتى حيل إلى المؤرخين أنه صاحب السكامة الأولى في البلاد ، فكان يولى العمل ويعزلهم ويؤسس المدن ويحشد الجند ، ويتصرف كأنه حاكم مطلق السلطة لا تربطه بالأمير الشرعي إلا رابطة الولاء .

وكان للأمير المسلمين نائب في الأندلس وأكثر من نائب في المغرب ، كان نثبة في إقليم مراکش الساحلية يتخذ مدينة فاس قاعدة لحكومته^(٢) ، ويذكر بروفسال في مقدمته لكتاب البيدق أنه كان يسمى سلطان المغرب^(٣) . وقد لعبت إمارة فاس دورها في تاريخ المرابطين ، حتى لقد حاول بعض أمراء آل تاشفين أن يستقوا بها استقلالاً تاماً^(٤) فلم يفلحوا . وكان أمير المسلمين لا يولى على إمارة فاس إلا أقرب الناس إليه وأدنىهم منه^(٥) .

ويخل إلينا أن إقليم المغرب الأوسط كان يتمتع باستقلال لا يقل عن استقلال الولايات الأخرى ، بل كانت أهمية المغرب الأوسط تنوق أهمية غيره

(١) ابن الأبار : السكامة ج ١ ص ٥٧ .

(٢) الفتح من حاقان : الثلاث ص ١١٢ .

(٣) أبو بكر الصنهاجي البيدق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت : مقدمة

بروفسال .

(٤) يوسف أشباح : بلاد الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٥) الفتح من حاقان : الثلاث ص ١١٢ .

من أقاليم المغرب ، فقد كان يحرس المغرب الأقصى ، ويوقف بني حماد وحلفاءهم عند حدهم ، ويرد كيدهم عن المغرب الأقصى ، وممن تولوا إمرة تلمسان تاشفين بن تينامر ومزدلي فاتح بلنسية^(١) . ومن الولايات الهامة أيضاً ولاية سجلماسة ، فقد كانت تحرس حدود الدولة من الجنوب لأنها تحف بإقليم الصحراء ، وقد وليها أول الأمر يوسف ابن تاشفين ، واتخذها حاضرة للدولة ، ثم وليها إبراهيم بن أبي بكر^(٢) ، وكانت هذه الإمارات الكبرى تتألف من وحدات صغرى يتولاها رجال من قبيل النواب والأمراء . ولا يبعد أن تمثل دور ضرب النقود في المغرب قواعد هذه الإمارات الصغرى ، مثل أغمات وتلمسان وسجلماسة وفاس ومراكش ونول ونول لمطة وسبتة وسلا^(٣) .

وكان الأمراء سواء في المغرب أو في الأندلس يعيشون في مقاطعاتهم شبه مستقلين كأنهم الملوك ، ويمنحون سلطانا واسعا ، ولكنهم يدينون بالولاء للأمير المسلمين . ويخيل إلينا أن أمير المسلمين لم يكن يتيح لهؤلاء النواب فرصة البقاء في إماراتهم مدة طويلة مخافة أن يستقلوا بالأمر ، كما حدث في قرطبة حينما أراد صاحبها أبو عبد الله محمد بن الحاج أن يستقل بها عن أمير المسلمين علي بن يوسف^(٤) ، فنقل أبو بكر بن إبراهيم من سجلماسة^(٥) إلى سبتة ثم إلى الأندلس^(٦) ، ونقل مزدلي من بلنسية إلى تلمسان ، ولا بد أن تكون ثمة تنقلات كثيرة من هذا القبيل قد حدثت ، ولكن لا نعرف عنها الشيء الكثير .

(١) البادلي : التشوف ص ١٠٩ .

(٢) Lavoix : (op. cit.) p. XLII

(٣) Ann.les de L'institut des études orientales (Faculté des Lettres de L'université d'Alger) T. I, p. 187

(٤) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٩٣ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٦) الفتح بن خاقان : القلائد ص ١١٢ .

وكان أمير المسلمين يقظا عينه ساهرة لا تغفل ، يراقب هؤلاء الولاة مراقبة دقيقة ، ويرقب سير الأمور عن كثب مخافة أن يستبد أمير - لأمر أو يسوء السيرة - ، فإذا ولي أمير وانصرف إلى مقر إمارته أرسل إليه أمير المسلمين يرسم له السياسة التي يسير عليها في حكم الرعية ، ويضع له قواعد لا يتعددها ، ويبين له أمورا لا يغفل عنها .

ومن حسن الحظ أن صاحب قلائد العقيان^(١) جاء بنص في غاية الأهمية ، وهو كتاب وجهه يوسف بن تاشفين إلى أحد هؤلاء الأمراء . يعتبر في الواقع دستورا في الحكم يطبق في عصره ، يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ويضع مصلحة الرعية في المقام الأول ، وقد جاء فيه « وكتب عنه أبو القاسم بن الجدايد الله ونصره ، إلى أبي محمد عبد الله بن فاطمة رحمه الله : كتابنا أطال الله في طاعته عمره وأعز بتقواه قدره وشده فيما تتولاه أزرك وعضد بالتسديد أمرك من حضرة مراکش حرسها الله وقد رأينا والله ولي التوفيق والهادي إلى سواء الطريق أن نجدد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق وإيثار أسباب انفرق لما نرجو من ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه في قول وعمل وأنت أعزك الله ممن يستغنى بإشارة التذكيرة ويكتفى بنسحة التبصرة لما تأوى إليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك وملك يده زمامك واصبر عليه في القوى والضعيف أحكامك وارفع الدعوة المظلوم حجبك ولا تسد في وجه المضطهد بابك ووطن للرعية أحاطها الله أكنافك وابذل لها أنصافك واستعمل عليها من يرقى بها ويعدل فيها واطرح كل من يحيف عليه ويؤذيها ومن سدد عليها من عمالك زيادة أو خرق في أمرها عادة أو غير رسمها أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما فأعزله عن عمله وعاقبه في بدنه وألزمه ما أخذ متعديا إلى أهله واجعله نكالا لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى .

(١) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٣ .

نولى تسديدك والملق بمضدك وتأيدك لا إله إلا غيره ولا خير إلا خيره^(١) .
هذا الكتاب يشف في الواقع عن هذه المؤثرات الجديدة التي أحيتها
دعوة عبد الله بن ياسين إمام المرابطين ، بل هي أبلغ دليل على ما يستطيع الإسلام
أن يفعله حين يهدى أمثال هؤلاء البدو إلى صراط الحق وطريق العدل .
وكان أمير المسلمين معين هؤلاء الأمراء لفترات محدودة ، ويضعهم تحت
الاختبار حتى إذا ثبتت صلاحيتهم ، ورضى عنهم الكفاة ثبتهم في مرا كزهم ،
ومنحهم سلطة الأمير كاملة غير منقوصة^(٢) ، وكان أمير المسلمين يخطر أهل
الولاية ويبلغهم نبأ تعيين الأمير ، ويبين لهم محاسنه ، ويرغبهم في طاعته ،
ويؤلف قلوبهم على محبته^(٣) . فقد كتب إلى أهل سبته بولاية الأمير أبي زكريا
يحيى بن أبي بكر يقول : « كئنا بأبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ويسركم لما
يرضاه وأسبغ عليكم نعمه وقد رأيت والله فضله يقرن جميع آراءنا بالتسديد
ولا يخلينا في كافة أعمالنا من النظر الحميد أن نولى أبا زكريا يحيى بن أبي بكر محل
ابننا الناشئ في حجبنا أعانه الله وسدده فيما قلناه إياه من مدينتي فاس وسبته
وجميع أعمالنا حرسهما الله على الرضم الذي تولاه غيره قبله فأنفذنا ذلك له لما توسمناه
من مخايل النجاة قبله ورضينا بما نرجو أن يحتديه ويمثله ويجرى عليه قوله
وعمله ونحن من وراء إختباره والفحص عن أخباره لا ننى بحول الله في امتحانه
وتجريبه والعناية بتخريجه وتدريبه والله عز وجل يحق مخيلتنا فيه ويوفقه من
سداد القول والعمل إلى ما يرضيه ، فإذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع
والطاعة والنصح والمشايعه جهد الاستطاعة وعظموا بحسب مكانه منا قدره
وامثلوا في كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره^(٤) » .

(١) الفتح بن خاقان : فلائد المقيان ص ١١٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

وكان الأمير أو النائب برغم هذا السلطان الواسع الذى يتمتع به يشاور أمير المسلمين فى كل أموره ، ويكتب إليه بكل ما يجد فى ولايته ، لا يقطع بأمر جال إلا بموافقة ، كما كان يكتب إليه بالفتح ويواليه أولا بأول. باخبار الجهاد فى الأندلس^(١).

مما تقدم يتبين لنا فى وضوح وجلاء أن الأمور العسكرية كانت وقفا على أشرف لمونة على وجه الخصوص ، وأشرف صنهجة على العموم ، أو بمعنى أوضح كانت السلطات العليا وقفا على رجال القبيلة الذين أقاموا الدولة بمجاهدكم وكفاحهم ، لكن يبدو أن الوظائف المدنية الأخرى من الكتابة والحسبة وجباية الأموال والبريد^(٢) والقضاء لم تكن وقفا على رجال القبيلة مؤسسة الدولة ، فقد روى المؤرخون أن المرابطين استخدموا فى هذه الوظائف رجالا من غير قبيلة صنهجة ، استعانوا فى المغرب بأهل القبائل الأخرى التى دانت لهم بالطاعة ، كما استعانوا بالأندلسيين الوافدين على المغرب والمقيمين فيه خصوصا بعد أن وحدت الدولة بين العدوتين .

نعم بدأ المؤرخون يتحدثون عن طائفة من الكتاب والوزراء دخلت فى خدمة الدولة الجديدة ، وبدأوا يتحدثون عن الكتابة والوزارة كنظام قائم وطيد الأركان له تقاليده ، وهنا يطيب لنا أن نسأل متى استخدم المرابطون الكتاب والوزراء ، ومتى جعلوا من الكتابة والوزارة نظاما ثابتا ، وإلى أى حد تأثرت طبيعة هذا النظام بالظروف التى لا بدت قيام هذه الدولة ؟

(١) Marinus Hoogoliet : Specimen elitteris orientalibus (exhibens) diversorum scriptorum locos de regia Aphthasidarum familia Ibn Abduno Poeta (ex. Mss. codicibus bibliothecae Leidensis editos latine redditos et annotatione illustratos. p. 134

(٢) ابن عدون التجيبى : رسالة فى الحسبة ص ١٢٢ و ٢٠١ و ٢٠٦ .
ابن عبد المنعم الحميرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبه من كتاب الروض المطار فى خبر الأقطار ص ١٩٧ . الفتح بن خاقان القلائد ص ١٨٠ . الناضى : التشوف ص ١١٧ .
المقرئ : نظم الطب ص ٢٩٩ .

يتحدث بعض المؤرخين^(١) عن الكتابة في عهد المرابطين كأنها نظام لم تعرفه الدولة قبل يوسف بن تاشفين ، فيذكرون أنه ما كد يعبر بقواته إلى الأندلس للمشاركة في معركة الجهاد حتى اتخذ دواوين ولى عليها كتابا من رجال الأدب في الأندلس يدعى أبا بكر بن القصيرة^(٢) . فهل معنى ذلك أن الدولة لم تعرف هذا النظام قبل فتح الأندلس؟

لقد قضى يوسف في المغرب عشرين عاما قبل أن ينتح الأندلس يجاهد ويتوسع ، ويرسى الدولة على قواعد ثابتة ، ينظم الجيش ، ويضع للبلاد نظاما إداريا دقيقا ، فليس بعيدا أن يكون قد اتخذ دواوين للكتابة والإشياء يتولاها رجال من أهل المغرب باسم الأمير أبي بكر بن عمر .

وقد وجد يوسف بن تاشفين وخلفاؤه في الأندلس معينا لا ينضب من هؤلاء الكتاب ، الذين تألق نجمهم في سماء الأدب ، وشهد الناس لهم بالبلاغة والفصاحة ، فقد بلغت الحياة الأدبية الأوج في عهد ملوك الطوائف ، وعملت الإمارات التي تنافست في التقرب من الأدباء وتشجيعهم على إذكاء شمعة الأدب ، حتى بلغت الذروة في ذلك العصر . وكان كل ملك من ملوك الطوائف يتخذ له بطانة من الكتاب والشعراء والفقهاء والفلاسفة وأعلام الفكر يسامرونه وينادمونه ويتبارون في فنون القول ، فلما قضى المرابطون على ملك الرؤساء تفرق شمل هؤلاء السمار ، واضطر كثيرون منهم إلى الدخول في خدمة المرابطين .

وكانت وفود هؤلاء الكتاب تعبر البحر إلى العدو ويصحبهم الأمراء عندما ينقلون إلى المغرب ، فعلت كلمهم على كلمة أدباء العدو ، وكادوا يحتكرون

(١) يذكر دوزي في مجموعته (Abbadidarum. vol II) نقلا عن الحلل اللوشية أن يوسف اتخذ كتابا من أهل الأندلس يدعى عبد الرحمن بن اسباط .

(٢) الذخيرة : (م . بغداد) قسم ٢ ص ٩٨ . الفتوح بن خافان : فلائد المقيان ص

صناعة الكتابة والإنشاء ، خصوصاً لأن الدولة كانت قد بدأت تقيم نوعاً من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب ، ومع الخلفاء وأمراء المشرق ، فكان الأمراء بحاجة إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود ، وتجيد فن القول . وكان كتاب الأندلس يعرفون لغات النصارى ، ويستطيعون أن يتفاهموا معهم ، وأن يقوموا بالترجمة عنهم ^(١) .

(١) ومن أعلام الكتاب الأندلسيين الذين استخدمهم الرابطون يحيى بن حمص البرقلى وعبد الملك ابن أبى الحصال مسعود بن فرج بن خلسة الغافقى وطاحه بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسى وأحمد بن أبى جعفر بن محمد القضاعى ، وأبو القاسم بن الجذ المعروف بالأحذب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطزنى ، وعبد المجيد بن عبدون الفهرى البارى ، وأبو عبد الله محمد بن أبى الحصال ، وعبد الرحمن بن جعفر بن أحمد المعافى أبو محمد بن الحاج وأبو جعفر بن إبراهيم ، وعلى بن عبد العزيز بن الإمام الانصارى ، ومحمد بن سليمان الكلاعى المعروف بأبى بكر بن القصيرة ، ويحيى بن محمد بن يوسف الانصارى ، ويكنى أبو بكر بن الصيرفى وأبو الحسن غلام الكرى ، وابن الصائغ ومحمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن السقاط وأبو جعفر أحمد بن عطية القضاعى .

اشتغل أغلب هؤلاء بالأدب ، وبرعوا فيه ، وتفوقوا وغدوا من فرسان الكلام وحملوا السيف ، والأعلام على طريقة القدماء ، من إظهار جزل الالفاظ وصحيح المانى واشتغل بعضهم بالتأليف مثل ابن أبى الحصال الغافقى ، فقد روى أنه ألف كتاب المنهج فى معارضة المنهج وكتاب ظل الإمامة وطوق الإمامة فى مناقب من خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلم بالكرامة كما اشتهر بالسمع والرواية فروى الناس عنه سيرة رسول الله لمحمد بن اسحق والمستصفي لابن امارود والشاميل للترمذى . وعرف برواية الحديث ، حتى لقد حدث عنه نخسون شيخاً منهم قاضى القضاء . كان آدب أهل الاندلس بالاجماع والاحقاق مع التقيد للحديث والاشتغال بعلومه فى القديم والحديث ، ومنهم من كتب فى التاريخ وبرع فيه مثل أبى بكر بن الصيرفى ، ومنهم من اشتغل بالفلسفة والتأليف فى الموسيقى ، مثل ابن باجة الذى ظل عشرين سنة يكتب لأحد أمراء غرناطة وسرقسطة ومنهم من اشتغل بالتاريخ والأدب ورواية الشعر وغريب المثل والنظوم مثل الكاتب أبى محمد عبد المجيد بن عبدون وكان الرابطون يفخرون ويدلون على سائر الأمراء بأبوابهم هؤلاء الأعلام يبرون بهم ويديطون عليهم ظل حياتهم .

أنظر : ابن الأبار ج ٢ ص ٧٢١ و ٦١١ و ج ١ ص ٢٣٣ . ابن الخطيب الإحاطة ج ١ ص ٣٢٩ و ص ١٣٢ : الراكشى المعجب ص ١١١ — ١١٢ . مشيخة عياض ورقة ٥٧ (١) ، ابن خير الفهرسة ص ٤٥٠ . صلة الصلة لابن الزبير ص ٨٢ . ابن بشكوال ص ١١٣ . قلائد العقيان ص ٢٩٠ ، الأنيس المطرب ص ٣٤٩ ، الجذوة ص ١٥٩ .

وهذا يكشف لنا عن النتائج البعيدة للدى التى تمخض عنها قيام دولة المرابطين وجمعها بين المغرب والأندلس ، فتدقت ينابيع الثقافة الأندلسية حتى عمت المغرب ، وعملت عملها فى سبيل خلق تراث فكرى جديد ، كما بين فى وضوح موجلاء كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تصقل عقول هؤلاء الصحراويين ، وأن يجعلهم يشاركون فيما شارك فيه العالم الإسلامى . من نعمة هذه الحضارة الإسلامية الوارفة الظل .

وإذا كنا قد فرغنا من الحديث عن الكتابة ، فيجب أن نسأل هل عرف المرابطون نظام الوزارة كما عرفوا نظام الكتابة وديوان الإنشاء ، وإذا كانوا قد عرفوا نظام الوزارة فما هى اختصاصات الوزير ، وما مقدار مطابقتها للاختصاصات التى رسمتها النظم الإسلامية ؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين اكتفى بطائفة من الكتاب أول الأمر يصرفون شئون الأندلس بأشرافه ، حتى قدر له أن يضم بلاد الأندلس لملك المرابطين ، فتأثر بالنظم السائدة فى هذه البلاد ، وقبس منها ما وافق أحوال الدولة . وما دام ملوك الطوائف قد اتخذوا الكتاب فلا بد أن يوسف قد حذا حذوهم ، واتخذ لنفسه كتابا ووزراء ، كتاب يشرفون على ديوان الإنشاء يذيعون المراسيم والبراءات ، ويحررون الرسائل ، ويختتمونها بخاتم الأمير بعد اعتمادها منه ، ويراجعون الرسائل الرسمية ويضعونها فى الصيغة النهائية ، ويختتمونها بخاتم الدولة^(١) ، ووزراء أرفع من هؤلاء رتبة وادنى منزلة من أمير المسلمين يجالسونه ويشاورونه فيما يعن من مختلف الشئون .

وقد تطور هذا النظام وأصبحت معالمه واضحة واختصاصاته محددة فى عهد خلفاء يوسف بن تاشفين ، وفى عهد على بن يوسف على وجه التحديد^(٢) . وقد صور

(١) حسن إبراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨٠ .

(٢) كتاب أعز ما يطلب مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت ص ١٧ ، ابن خبير الفهرسة ص ٤٥٠ . ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٣٣ . ابن الزبير . صلة الصلة ص ٨٢ . ابن خاقان : الطمع ص ١٠٦ . العلى : الأنيس المغرب ص ٢٤٩ . أبو بكر الصنهاجى : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ٦٧ .

ابن دحية المغرب ورقة ١٣٠ (ب) ، النخبة (م . بغداد : قسم ٢ ص ١١٨) .

ابن عبدون صاحب رسالة الحسبة الوزير في صورة واضحة جلية ، فهو الشخص المقرب من السلطان الذي يحضر مجلسه ، ويطلع على كل كبيرة وصغيرة في شئون الدولة ، ويشرف على تصريف الشئون الإدارية والمالية ، وهو الواسطة بين السلطان والقاضي ، أو بين السلطتين التنفيذية والتشريعية « إذا اتفق الوزير والقاضي صلحت الدولة وصلاح العالم ^(١) » .

ويصور ابن عبدون هذا روح العصر تصويراً واضحاً ، ويكشف المقاب عن هذا المركز الممتاز الذي كان الوزير يحتله في نظم المرابطين ، وفي المجتمع الإسلامي في أواخر القرن الخامس ، وأوائل القرن السادس ، ويؤيده في ذلك الطرطوشي الذي يرى أن الوزير يأتي في المرتبة التالية بعد الخليفة ، إذ يقول « أشرف منازل الآدميين النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة ووزير عون على الأمور وشريك في التدبير وظهير على السياسة ومفزع عند النارة الوزير مع الملك بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه وفي الأمثال نعم الظهير الوزير ^(٢) » . نعم احتل الوزير في النظم المرابطية مكاناً ممتازاً ومحلاً رفيعاً « كان من سمو الهمة بحيث يجلو الظلام العاكر ويخجل الموسم الباكر ^(٣) » .

كان المرابطون يثقون بوزرائهم ثقة كبيرة ، ويطنقون أيديهم في الشئون المالية والإدارية ، فقد أطلق على بن يوسف مثلاً يدى الوزير أبى محمد بن مالك . « فأقطعه ماله في الأندلس من خطة وأفعده على تلك المنصة وجد في صرف الشوائب عن حماه ووجه أموالا لم خلاله وحسم عله وإقامة ميله وانتعاش رجله وخيله ثم خف أن ينهبها العمال وتتعدى تلك الآمال فقلده فوقها وحمله أوقها ووجه لبناء الأقطار ونهبه لقضاء تلك الأقطار فاستقل بها أحسن استقلال ونظم معالمها نظم الآل ^(٤) » .

(١) ابن عبدون التجيبي : رسالة في الحسبة ص ٢٠٤ .

(٢) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٧٠ .

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ٢٩٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٠ .

وقد تركت الظروف التي نتجت عن قيام الدولة أثراً عظيماً في ناحية أخرى من نظم الحكم في العهد المرابطي ، ونعني بها نظم القضاء . يرجع الفضل الأول في التمهيد لقيام الدولة لعبد الله بن ياسين فقيه المرابطين ، وقاضيه ، وإمامهم ، وزعيمهم ، فكان طبيعياً أن يحتل الفقهاء والقضاة في الدولة الجديدة محلاً رفيعاً ومكاناً مرموقاً ، فقد كان فقهاء المغرب الأقصى هم الذين مهدوا الطريق لفتح المرابطين لبلاد المغرب ، فقد حببوا الشعب فيهم ومدوا لهم يد العون ، وساروا في ركابهم . كما ظهر تأييد الفقهاء والقضاة للدولة الجديدة واضحاً في معركة الجهاد في الأندلس ، فقد كانوا في الواقع زعماء الشعب الحقيقيين المعبرين عن آماله وآلامه ، في الوقت الذي انصرف فيه ملوك الطوائف إلى حياة اللهو والترف : فما كادت أقدام المرابطين تخطأ أرض الأندلس حتى هب الناس يؤذون بهم ، منفسين عن كربهم ، متذمرين من ملوك الطوائف ، وكان الفقهاء هم المدافعون عن حقوق الناس العاملين على رد الظلم عنهم ، ولما وضعت خيانة ملوك الطوائف ، وتنكروا لمعركة الجهاد كانوا أول من أفتى بخلعهم وظاهروا يوسف ووقفوا بجانبه^(١) ، يشدون أزره ، ويؤيدونه ، ويباركون أعماله ، وقد لعب القاضي^(٢) ابن القليبي دوراً كبيراً في القضاء على ملك بني زيري أصحاب غرناطة ، كما ألجأ فقهاء أشبيلية المرابطين على بني عباد ، لهذا اعتقد المرابطون عن يقين أنهم مدينون بنجاحهم في المغرب والأندلس لجهود الفقهاء .

هذا إلى أن الدعوة التي بثها عبد الله بن ياسين في نفوس القوم ، وتشبث الملتزمين بأهداب الدين جعلهم ينظرون إلى القضاء والفقهاء نظرة تجلة وتقدير واحترام^(٣) ، فلا نكون مغالين إذ قلنا إن الدولة كانت في الحقيقة دولة

(١) التباهي : الرقبة العباسية ٩٧ . الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٣٩ .

(٢) عبد الله بن ملكين : البيان عن الحادثة السكائنة بدولة بني زيري في غرناطة

ص ٣٤١ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥ .

الفقهاء^(١). فقد كان ما اتصف به ملوك الدولة من تتوى وورع وخشوع وإقبال على التفقه في الدين والإلمام بدقائقه سبباً في تقريب الفقهاء والعلماء وإدناء مجالسهم والوثوق بهم .

وضح ذلك منذ عهد أبي بكر بن عمر، فقد ذكر المؤرخون^(٢) أنه كان يقرب الفقهاء ويصفي إليهم ويدني مجالسهم، ولكن يوسف بن تاشفين ذهب في تقريبه من الفقهاء والقضاة إلى أبعد من هذا، فكان لا يسير إلا وهم في ركابه، ولا يجلس إلا وقد حفوا به، ولا يكاد يقطع برأى إلا بعد استشارتهم، فروى المؤرخون « إنه رد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون ذلك من الأحكام الشرعية^(٣) » .

وهذا القول في الواقع يعبر لنا ذلك الإصلاح الخطير الذي لجأ إليه يوسف حين جعل القضاة أصحاب الأمر في البلاد، وقادة الشعب، وحكامه القائمين على تطبيق الشريعة الإسلامية التي أصبحت دستورهم الأول، يطبقون أحكامها، ويهتدون بهديها، إذ يبدو أن القضاة والفقهاء لم يكن لهم على المجتمع مثل ذلك السلطان الواسع الذي آل إليهم في عهد المرابطين، كما أن أحكام الشريعة لم تكن — على ما اعتقد — للدستور الأول الذي يعتمد عليه الولاة فيها يصدر عنهم من أحكام، وما دام الفقهاء هم حفظة الشريعة والملمون بخفاياها كان طبعياً أن يصبحوا أصحاب الكلمة الأولى في المجتمع^(٤)، لأنه لن يصدر حكم إلا إذا أقروه وأفتوا بأنه لا يخالف الشريعة ولا يناقض أحكامها .

وبلغ من بر يوسف بالفقهاء والعلماء أنه أجرى عليهم الأرزاق، ورتب لهم

(١) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne. vol. IV, p. 248,

(٢) القزويني : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦١ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥ . السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢١ .

(٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٨٥ . السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

الأعطيات من بيت المال^(١) . وكان علي بن يوسف أكثر من أيّيه انصرافاً إلى مخالطة الفقهاء ، ومجالستهم ، فقد كان أميراً ورعاً تقيّاً متزهداً متبحراً في الدين^(٢) ، حتى لقد اتخذ لنفسه لقب (ولي الله) ، ونقش على النكة ، وأصبح الفقهاء في عهده سواء في المغرب أو في الأندلس أصحاب الكلمة الأولى في البلاد ، يفرع إليهم الناس كلما تعرضوا لخطر أو أصابهم مكروه .

وهناك ناحية أخرى جعلت المرابطين يعتمدون على الفقهاء والقضاة اعتماداً عظيماً وهي توسعهم في تطبيق مبدأ الشورى ، هذا المبدأ الذي يمثل من النظم الإسلامية مكاناً مرموقاً ومحلاً رفيماً ، جعله الطرطوشي أساساً من أهم أسس الحكم حين قال « سياسة الملك ثلاثة : الدين وترك الفظاظة والمشاورة وأن لا يستعمل على الأعمال والولايات رغباً فيها ولا طلباً لها ، ولما دلم الله تعالى ما فيها من انتظام أمر الملة واستقامة الأمر نص عليها سبحانه ورسوله أعلم أن هذه الخصال من أساس الممالك وقل من يعمل بها من الملوك ، اثنتان نزلتا من السماء وواحدة قال بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . والإشارة الثانية قال وشاورهم في الأمر ، فإذا قيل لماذا كيف يشاورهم وهو نبيهم وإمامهم وواجب عليهم مشاورته وأن لا يفعلوا أمراً دونه قلنا هذا أدب أدب الله تعالى نبيه عليه السلام به وجعله مادة لسائر الملوك والأمراء والولاة لما علم الله تعالى ما في المشاورة من حسن الأدب مع الجليس ومساهمتهم في الأمور ، فإن نفوس الجلساء والنصحاء والوزراء تصلح عليه وتحيل إليه وتخضع عنوة بين يديه شرعة نبيه عليه السلام ومن أقبح ما يوصف به الرجال ملوك كانوا أو سوقة الاستبداد بالرأى وترك المشاورة^(٣) » .

(١) مشخة عياض ورقة ٦٧ () .

(٢) الخلل الموشية ص ٦٩ .

(٣) تافري : أزهار الرياض ج ٣ ص ١٦١ .

(٤) الطرطوشي : سراج الملوك ص ٥٠ و ٥٤ .

نعم حقق المرابطون آمال الطرطوشي كاملة وتوسعوا في المشاورة توسعا عظيما^(١)، فكان يوسف وخلفؤه لا يقطعون في أمر إلا إذا استفتوا الفقهاء، واستشاروا القضاة، وقد وضع ذلك من سياسة يوسف في الأندلس^(٢). بل بلغ من تزمته وتبعية بشورى في أوسع نطاق أن أرسل يستفتي فقهاء مصر والعراق والشام^(٣) خوفا من أن يتورط في خطأ لا يرضى عنه الله، ويبدو أن قاضي الجماعة بمراكش كان أكثر هؤلاء القضاة اتصالا بولي الأمر^(٤)، بل كان يشترك في مجلس الأمير ويؤخذ رأيه في كثير من الأمور، وكان أمراء الأندلس أيضا يستفتون قاضي الجماعة بقرطبة في كل ما يتعلق بهذه البلاد من شئون^(٥). هذه إذن هي الظروف التي مهدت لسيطرة الفقهاء والقضاة على الحياة العامة، سواء في المغرب أم في الأندلس، ويسرت لهم أن يستمتعوا بسلطان واسع، وكلمة مسموعة في شئون البلاد، فما هي ألوان ذلك السلطان الذي تتمتع به القضاة في كنف الدرية المرابطية وما هي نتائجه في الحياة العامة؟

وقبل أن نعرض لهذا السلطان الواسع الذي تتمتع به القضاة في الحياة العامة في المغرب والأندلس، يجدر بنا أن نشير إلى ذلك النظم الدقيق الذي وضعه المرابطون للقضاء في العدوتين. والمتأمل في كتب الطبقات التي أرخت للقضاة في عهد المرابطين يستطيع أن يتبين أنه كانت هناك مراتب للقضاة أو درجات فهنالك قاض يتمتع بسلطان القضاء في مدينة صغيرة أو في قرية، وهنالك قاضي الجماعة بمدينة كبيرة مثل قرطبة أو اشبيلية أو غرناطة^(٦)، وهو بالطبع أرفع درجة

(١) ابن الأبار السكالة ج ١ ص ٥٦.

(٢) عبد الله بن بلكين ص ٢٧٤ و ٣٤١ و ٣٤٢.

(٣) Dozy : (op. cit.) vol. IV, p. 235.

(٤) مشيخة عياد ورقة ٩ (ب) و ١٠ (أ).

(٥) مفاخر البربر ص ٥٣. معجم ابن الأبار ص ٥٦. الإحاطة ج ١ ص ٢٠.

Dozy, IV, p. 219.

(٦) ابن الأبار : السكالة ج ١ ص ٦٢ و ٧٤ و ١١٤ و ٢٥٣ و ج ٢ ص ٦٢٠.

و ٧٤٠.

وأعلى رتبة لأنه كان ييسط سلطانه على المدينة وأحوازها . ثم هنالك قاضى الاقليم كله ، ذلك أن بلاد الأندلس كما نعلم كانت مقسمة إلى أقاليم جغرافية ثلاثة : إقليم الشرق والموسطة ، وبلاد الغرب . ويبدو أنه كان لكل اقليم من هذه الأقاليم الكبرى قاضى جماعة ييسط سلطانه على قضاة المدن الواقعة فى اقليمه ، فقد روى أن المرابطين قلدوا محمداً بن ابراهيم بن أحمد بن أسود الغساني قضاء شرق الأندلس^(١) ، كما روى أيضاً أن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن عصام بن أمية كان قاضى قضاة الشرق فى عهد المرابطين^(٢) . وهنالك قاضى أسمى من هؤلاء قدرا وأرفع مكانة ييسط سلطانه على بلاد الأندلس كلها ، ويخيل إلينا أن قاضى الجماعة بقرطبة^(٣) هو الذى يشرف على القضاء فى بلاد الأندلس قاطبة .

أما بلاد المغرب فكانت منظمة على غرار بلاد الأندلس ، وكانت زعامة القضاء بالمغرب كله معقودة لقاضى الجماعة بمراكش ، الذى كان يسمى فى بعض الأحيان بقاضى الحضرة^(٤) ، وكان هذا القاضى أقرب الفقهاء إلى قلب أمير المسلمين ، وادناهم منه مجلسا^(٥) ، فقد كان عضواً بمجلس الشورى يستفتيه ولى الأمر فى كل ما يعرض له من شئون .

ويخيل إلينا أن المرابطين قطعوا فى سبيل تنظيم القضاء شوطاً أبعد من هذا ، إذ اتخذوا فقيهاً له السلطة العليا على قضاة المغرب والأندلس على سواء ، بمثابة وزير العدل فى النظم الحديثة ، وقد تولى هذا المنصب العظيم أبو عبد الله مروان بن عبد الملك بن ابراهيم بن سحنون اللواتى قاضى طنجة ، الذى انصرف

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٥٦ .

(٣) مثل أبو الوليد بن رشد عميد فقهاء قرطبة . انظر مشيخة عياض ورقة ١٠ (أ) .

و ١١ (ب) .

(٤) مشيخة عياض ورقة ١٠ و ١١ ب و ٥٦ أ . ابن بشكوال : الصلة ص ٢٨٤ .

و ٥٥٤ .

(٥) مشيخة عياض ورقة ١٠ و ١١ ب .

إليه جميع أمور الأندلس والمغرب ، فوض إليه أمير المسلمين يوسف في كبارها ^(١) .
ويبدو أن مشيخة القضاة بالعدوتين كانت تعطى تارة لقاضى الحضرة أو قاضى
سبتة وطنجة ، وتارة أخرى لقاضى الجماعة بقرطبة ، وكان أبو الوليد بن رشد أول
من ولى هذا المنصب من الأندلسيين ^(٢) ثم خلفه محمد بن أحمد بن خلف بن
إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج ^(٣) .

وكانت سلطات القاضى متعددة ومهامه متنوعة ، وكان عليه أن يبسط
إشرافه على عدة خطط أو عدة وظائف . يشرف على خطة الشورى والفتيا ،
وخطة الأحكام والصلاة والخطبة . أما خطة الشورى فكان يتولاها فقهاء يختارهم
القاضى من أهل المدينة المعروفين بالورع والتقوى والتبحر فى الفقه يشاورهم
فى الأحكام . وكان عدد هؤلاء الفقهاء المشاورين فى العادة أربعة : اثنان
يشتركان فى مجلس القاضى ، واثنان يقعدان فى المجلس الجامع ، ليدليا بالشورة
لطلابها ^(٤) ، وكان لهؤلاء الفقهاء المشاورين رئيس منهم يتزعمهم وينظم
شئونهم ^(٥) .

أما الفتيا فكانت تضاف فى بعض الأحيان إلى الصلاة والخطبة ، وكان
القاضى فى بعض الأحيان يولى فى كل خطة من هذه الخطط فقيها ، يستقل بشئونها
ويختص بها كخطة الأحكام مثلا ، فقد كان القاضى يولى عليها فقيهاً يجلس
للناس وينظر فى مظالمهم ويحكم بينهم وينفض المنازعات التى طالما كانت تنشب
بين العوام والسوقة ، والتى كان القاضى يستقل أن يتولى أمرها بنفسه فكان

(١) مشيخة عياض ورقة ٦٧ أ .

(٢) المرجع السابق ورقة ١٠ (أ) و ١٠ ب .

(٣) ابن الأبار : التكملة ص ١١٤ .

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الخبة ص ١٩٧ .

(٥) مشيخة عياض ورقة ٣٧ (أ) . ابن الأبار ج ١ ص ١١٣ . المرقية العماض

٩٧ . ابن فرحون الديباج المذهب ص ٢٧٥ .

ينيب عنه صاحب الأحكام على ألا ينظر في رقاب الأمور ولا حكم له على الأيتام ولا فيه أمر من أمور السلطان والعمال^(١).

أما اللواء الكبيرة التي يتطلب الفصل فيها جرأة وشجاعة وعدلا لا يعرف في الله لومة لأثم فكانت تترك للقاضي نفسه لينفذ حكمه على جميع الناس سواء كانوا حكاما أو عمالا أو قوادا أو أشرافا.

وتمتضح هذه السلطة الواسعة التي كان القاضي يسطرها على جميع الأفراد دون تمييز مما ورد في عقد تولية قاضي الجماعة ابن حمدين ، إذا جاء فيه على لسان أمير المسلمين «ولا تبالي برغم راغم ، ولا تشفق من ملامة لأثم ، فأمس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ، وانصح لله تعالى ورسوله عليه السلام ، ولنا وجماعة المسلمين ، وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضية...»^(٢).

~~وكثيراً ما كان القاضي يولى أحد معاونيه خطة الصلاة وخطبه مجتمعتين^(٣) ، وأحيانا أحكام السوق أو الحسبة^(٤) ، وكان يستعين بطائفة من الشرطة بسميهم ابن عبدون (الأعوان) ، وقد اشترط ابن عبدون أن يكونوا عشرة «أربعة سودان برابر لحقوق المرابطين وغيرهم من الملتزمين والباقي أندلسية فهم أوثق وأخوف»^(٥) لأن المرابطين كانوا قد استقروا في مدن الأندلس وبدأوا يكونون جاليات~~

(١) ابن عبدون : رساله في الحسبة ص ١٩٧ ، ابن الأثير ج ١ ص ٣٨٤ . السيوطي بغية الوعاة ص ٣٩ . السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) التدخيرة (م . بغداد) القسم ٢ ص ١٠٦ . السيوطي : بغية الوعاة ص ٣٩ .

(٣) ابن الأثير : التكملة ج ٢ ص ٥٥٣ .

(٤) انرجع السابق والصفحة نفسها

(٥) ابن عبدون رساله في الحسبة ص ٢٠٠ .

مستقلة تستعلى على الناس، وتختص نفسها بمكانة فريدة في المجتمع، أما في المغرب فلم يكن القاضي بحاجة إلى هؤلاء الأعوان لأن سكان المدن كانوا جلهم من البربر وكان الشرطة جلهم من أهل البلاد.

وكان القضاة يتخذون الكتاب، فقد استكتب ابن حدين أنخيل بن أدريس الرندي^(١)، كما استكتب القاضي أبو موسى بن الملقوم محمداً بن عيسى بن القاسم الصديقي^(٢)، ومن كتب للقضاة أيضاً عبد الله بن علي بن محمد ابن عبيد العافري^(٣)، وعيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي^(٤)، وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي^(٥)، ويبدو أن القضاة كانوا يبدأون حياتهم العملية بالكتابة، ثم يتولون خطة الشورى وخطة الأحكام أو الصلاة أو الخطبة، ثم يرتقون إلى مصاف القضاة بعد أن يكونوا قد اكتسبوا خبرة ودربة تؤهلهم لتولى ذلك المنصب الممتاز.

وكان القضاة أيضاً يتخذون الحجاب على أبوابهم ليحولوا بين الناس وبين أن ينالوا من هيبة المجلس ووقاره^(٦)، وكان القاضي إلى جانب هذا السلطان الواسع يشرف على بيت المال وموارده من أموال الأقباس أو الأوقاف، فكان يصلح المساجد^(٧)، ويقيم الصوامع^(٨)، ويصنع المنابر والمحاريب، وينفق على خدم المساجد. ويبدو مما ذكره ابن عبدون أن هذه الأموال كانت تستغل في الجهاد، وسد الثغور^(٩).

(١) ابن الأبار: الحلة السراء ص ٢٢٢.

(٢) ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ١١٧.

(٣) ابن بشكوال: الصلة ص ٢٩٤.

(٤) المرجع السابق ص ٤٣١.

(٥) ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ ص ٦٨.

(٦) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٢٢٣.

(٧) ابن الأبار: التكملة ج ٢ ص ٥٣٥.

(٨) Lévi — Provençal: Inscriptions Arabes d'Espagne, p. 124.

الجزائري: زهرة الآس ص ٤٧.

(٩) ابن عبدون: رسالة في الحسبة ص ٢٠٠.

كما يبدو أن موارد بيت من المدينة كانت تعبت بها أيدي العابثين لأن ابن عبدون شدد التفكير على القاضى قائلا « يجب على القاضى أن لا يتمكن من بيت مال المسلمين أحداً وأن يحافظ عليه جهده ، وأن يخدمه ولا يتصرف فى أبوابه إلا رجل غنى عدل ، حتى لا يترك أحد يتصرف فى شيء منه إلا برأى من القاضى ^(١) » .

وكان القضاء فوق ذلك كله يشتركون فى الغزو والجهاد ، يخرجون مع الجند ويحضونهم على التفانى فى القتال ، ويحضرون مجالس الأمير ، يشاورونه فى كل ما يعرض له من شئون ^(٢) ، فلا تعجب إذا كان القضاء فى الأندلس أو المغرب قد عظم نفوذهم ، وكثر ما لهم وجاههم ، وارتفعت مكاتبتهم ، ويتبين ذلك مما كتبه ابن عبدون الذى كشف عن سلطة الفقهاء وصور سطوتهم ونفوذهم أصدق تصوير ، وذكر أنهم كانوا يسيطرون على الحياة العامة ، حتى أضحوا حكام البلاد الحقيقية ، وأضحت سلطة الأمراء الملتزمين لا تتجاوز الشؤون العسكرية ^(٣) .

وكان كاتب الأمير أو وزيره حلقة الاتصال بين القاضى وبين الأمير صاحب السلطة العليا ، فقد كان القاضى يمثل السلطة الفعلية والأمير يمثل السلطة العليا التى تسيطر وتهيمن من بعيد ، فإذا تعاونت السلطان صلحت الأحوال ، وإذا تعارضتا وتعارضتنا فسد حال المدينة ، ونشب الخلاف بين أهلها ^(٤) .

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٧ .

ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٥٩ وج ٢ ص ٢٦٠ . أزهار الرياض ج ٣ ص

١٥٧٢ .

Lévi — Provençal : Seville Musulmane au Début du XII^e (٣)

Siècle: Le [Traité D' Ibn Adbun sur la vie Urbain et les corps de metiers, p. XII.

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠٤ .

كان القاضي في الواقع يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شئون المدينة ، حتى في شئون أرباب الحرف والصناعات ، فكان يولى على كل حرفة رجلاً من أهلها يفض ما ينشأ بينهم من خلاف^(١) ، ويحرص ابن عبدون — وهو من الفقهاء — على أن تظل أزمة الأمور بيد القاضي ، فلا يتدخل الأمير في شئونه ، إذ يقول « إذا وقع بينهم الخلاف في شئ من أمورهم لا يبلغون الحاكم ، بل يحدهم القاضي ذلك أن يرجع إلى حكمه ورأيه فهو أرفق لهم وأستر لانكشافهم »^(٢) . وكان من أثر هذه المسكنة الرفيعة التي تتمتع بها الفقهاء أن كثرت أموالهم ، وارتفع قدرهم ، وعظم سلطانهم ، والتف الناس حولهم متزلفين متقربين ، وقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة^(٣) ، وحسدهم كثيرون من أهل الأندلس بسبب هذا الجاه العريض ، وهذه الأموال الجمة التي حازوها . يتبين ذلك من قول الشاعر أبي جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني يهجو القاضي أبا عبد الله محمد بن حمد بن قاضي قرطبة ويعرض به .

أهل الرياء لبستموا ناموسكم كالذئب أواج في الزمان العاتم
فملسكتموا الدنيا بمذهب مالك وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشهب وبأصبع صبغت لكم في العالم^(٤)

فما بالاك بقضاة الحاضرة المقربين من أمير المسلمين المتصاين به مباشرة ! .. يروى المؤرخون أن قضاء سلا كان في بني عشرة ، وكان هؤلاء القوم مقربين من السلطان ، كلمتهم مسموعة وأمرهم مطاع قصدهم الشعراء من الأندلس مدحونهم ويلوذون بمحامهم^(٥) .

(١) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢١٤ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) الراكشي : المعجب ص ١١٠ .

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٥) الحميري : الروض المعطار ص ١٩٧ .

ومع هذا السلطان الواسع الذي تمتع به القضاة كانوا يخضعون لأمير المسلمين خضوعاً تاماً ، بل كان أمراء المقاطعات يعزلون القضاة أو ينقلونهم في بعض الأحيان ، ويحيل إلينا أن أمير المسلمين كان يعين كبير القضاة ببلاد الأندلس وكبيرهم ببلاد المغرب ، ويترك للأمراء المحليين أمر تعيين القضاة في المدن والقرى بعد مشاوره قاضي الجماعة في قرطبة أو مراکش^(١) .

كان أمير المسلمين إذا ولى أحد هؤلاء القضاة كتب له عقد توليته وبعث به إليه^(٢) ، فيصبح بمثابة دستور على القاضي أن يحترم نصوصه ، ويعمل بموجبه ، فإن جار أو بدل أو خالف ما أشار به ولى الأمر تعرض للعزل . كان ولى الأمر يوصي القاضي بأن يكون حازماً لا يشتد غيظته الناس ، ولا يلين فيستضعفونه ، وأن يكون عادلاً لا يميل به الهوى عن جادة الحق ، وأن يسوى بين الناس بين أميرهم وحقييرهم ، لا تأخذه في الله لومة لأثم يؤدب كبيرهم قبل صغيرهم ، إذا أخطأ كبير ضربه وسجنه أو عزله .

يتضح ذلك كله من هذا الكتاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين إلى القاضي الجماعة بقرطبة أبي عبد الله بن حدين ، جاء فيه « فاستهدى الله يهدك واستتم بالله يعنك في صدرك ووردك وتولى القضاء الذي ولاك الله بمجد وحزم وجلد وعزم وامض القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنن نبيه ولا تبالي برغم رانغم ولا تشفق من ملامة لأثم ، فأس بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوى في حيفك ولا يئأس ضعيف من عدلك ، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوى حتى تأخذ الحق منه ،

(١) محمد بابا النسيبي : نيل الابتهاج بطريق الديباج ص ١٨٧ . المرقبة العليا

ص ٩٧ . ابن الأبار التسكيلة ج ١ ص ٢٩ . المراكشي ص ١١٠ . الجذوة ص ٢٣٤ . أزهار الرياض ج ٣ ص ١٠ . الديباج المذهب ص ٢٧٥ . البيان للمغرب ج ١ ص ٣١٧ .
(٢) النباهي : المرقبة العليا ص ٩٨ .

وانصح لله تعالى ورسوله عليه السلام، ولنا وجماعة المسلمين وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين، أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أول وكلهم آخر، قد صرت قاضيا سامعون منك غير معترضين في حق عليك والعمال كافة سواء في الحق فإن شكت إليك بعامل من رعية خلافة في الواجب فاشكه منها وقومها له ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه وإن استوجب العزل فاعزله واسترجع الحق شاء أو أبى. من لدنه والأمر في استكفاء من يكفيك^(١)».

من ذلك يتضح أن القاضي لم يكن عليه سلطان نصير القانون، يحكم وفق الشرع لا يخالفه أو يخرج عليه، ينفذ حكمه على الناس فهم سواء أما القانون، يحكم حتى على ولي الأمر نفسه إذا جاز أو بدل. ألم يقل يوسف «نحن أولا وكلهم آخر». انظر كيف استطاعت هذه التقاليد الإسلامية السمجة التي بشها عبد الله

(١) الذخيرة (م - بغداد) القسم ٢ ص ١٠٦. وقد أورد النباهي في كتابه المرقية: «أوليا عقد بيعة القاضي موسى بن حماد جاء فيه: وبعد فإننا قد فرغناك برهة من الدهر لأناك وأرسلنا على جهة الترضية زمانا عنك وحينما علمنا أنك قد أخذت لحظك من الاجماع ودارم بدودك وراحتك دور الأيام خيرناك لحطة القضاء ثانية بزمك وأعدناك إلى سيرتك الأولى من لزامك وقلدناك بعد استجارة القضاء بين أهل غزناة وأعمالها — أمنهم الله وحرسها — للثقة المكيبة بإيمانك والمعرفة الثاقبة بمكانك فتقلدنا معانا مسددا ما قلدناك وانقض نهوض مستقبل بما حملناك وتاق ذلك بانسراح من صدرك وانسباط في نفسك وفكرك وقم في الخطبة مقام مثلك ممن استحكمت منه ورجع حلة.. وليس هذه بأول ولايتك لها، فنبتهدي بوميتك ونعيد وتأخذ بالقيام بحقوق العهد الموفق السديد، بل قد سلفت فيها أيامك، وشكر فيها مقامك، واستمرت على سنت الهدى أحكامك فذلك الشرط عليك مكتوب وأنت بمنزلة من إقامة الحق مطلوب وإن على ما نعلمه من جميع نظرك واعتدال سيرك... فلا تنظر فيها إلا من كثر الثناء عليه، وأشير بالثقة إليه، ولتكن رقيبا على أعمالهم وسائلا عن أحوالهم، فمن بطيء به سعية وساء فيما تولاه نظره ورأيه أظهرته سخطتك وأعلنت في الناس جرحتك، فذلك يعدل جانب سواء ويشتربه النصيحة فيما تولاه.. أنظر المرقية العليا ص ٩٨».

ابن ياسين في مجتمع المثلثين أن تجعل من هؤلاء البدو الذين كانوا يضربون في مجاهل الصحراء حكاماً متواضعين مخلصين يأمرهم بالمعروف وينادون بالمساواة بين الناس ويحترمون القضاء .

٤- أثر قيام دولة المرابطين في النظم الحربية .

وكانت الأسس التي قامت عليها الدولة ذات صدى بعيد في النظم الحربية التي عرفها المرابطون ، ذلك أن الدعوة التي بثها عبد الله بن ياسين قد عملت في القوم عمل السحر ، فقد ألقت بين قلوبهم ، وفتحت أمامهم آفاق جديدة ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنها بثت في هؤلاء البدو روحاً جديدة لم تكن مألوفاً لديهم من قبل ، فقد نفخ عبد الله بن ياسين في نفير الجهاد ، وهياً الأذهان لمعركة طويلة الأمد من الكفاح في سبيل الدين ، وهياً النفوس للاستشهاد في سبيل الله في غير ما خوف ولا تردد . لا ننكر أن شعب المثلثين كان شعباً محارباً من الطراز الأول ، امتاز بالشجاعة الفائقة والجرأة والاقدام والصبر على تحمل مشاق الحرب وتضحياتها ، ولكن الدعوة الجديدة كانت بمثابة الوقود الذي ألهب فيهم هذه الصفات ، وجعل المرابطين قوة يخشى جانبها في المجتمع المغربي في القرن الخامس ، ولسنا بحاجة لأن نوضح أن الروح المعنوية أبلغ أثراً في الحروب من أمضى الأسلحة وأشدّها فتكاً ، وأن الجند الذين يقاتلون وقد وحدتهم آمال واحدة ، وجمعتهم أهداف سامية جند ، لا يعرفون التراجع أو التقهقر ، إنما يتقدمون إلى حياض الموت غير هيايين .

ظهرت هذه الآثار واضحة جلية منذ اندفعت جيوش المرابطين من رباط السنغال متجهة صوب الشمال كأنها الصاعقة انقضت على المغرب الأقصى . وتجلت هذه الروح واضحة جلية في معارك المغرب الأقصى التي خاضوها « كان للمتونة في قتالهم شدة وبأس ليس لغيره . بذلك ملكوا الأرض^(١) » . كما تجلت هذه

(١) البكري : المغرب ص ١١٠ .

الروح الجديدة في معركة الجهاد بالأندلس^(١)، إذ لم يهين المرابطون ولم يضعفوا في جميع المعارك التي خاضوها، كان لهم « في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم يختارون الموت على الأنهرام ولا يحفظ لهم فرار من زحف^(٢) » .

وإذا كان عبد الله بن ياسين هو صاحب الفضل الأول في بعث المرابطين وخلق هذه الروح الجديدة، فإن يوسف بن تاشفين صاحب الفضل الأول في تنظيم هذه الطاقة العظيمة، وتسخيرها في معركة الجهاد بحسبة ودربة وشجاعة، فقد أدرك أن الخطوة الأولى في سبيل النجاح في معركة الجهاد هي تنظيم قوى المرابطين لتصبح أداة فعالة في كفاح يقرر مصير المسلمين في المغرب والاندلس. فقد اشتهر نصارى الأندلس وحلفاؤهم بأنهم محاربون أشداء ومقاتلون مهرة، تفوقوا على ملوك الطوائف، وأصبحت جيوشهم تسيطر على شبه جزيرة إيبيريا دون منازع، فكيف يستطيع الملتزمون أن يلقوا هذا العدو الذي تفوق عليهم في العدد والعدة

(١) من شعر ابن حمديس في الاشادة بشجاعة المرابطين .

ألفت قلوبهم الخسوع لرهبهم	والبأس في أسببهم منكسر
يرمون أغراض الخنوف بأنفس	ووجوهها لعيونهم تنمر
وتغور في هام العلوج جداول	للضرب من أعمادهم تنفجر
من كل وحشى الطباع كأنه	بين القنسا الخفى ليت محذر

ومن قصيدة أخرى :

وآذنت عمار القفار بحرمهم	فيا قرب ما شقوا إليك المضارما
بنو الحرب غدتهم لبان تديها	ولم يستطيعوا منها إلا العلاقا
يحثون للهيجاء حرذا سلاهما	وينفون في البيداء بزلا صلاهما
إذا طعنوا بالسامرية خلتهم	ضراغم تغرى القنوب أراقها

(٢) يقول المقرئ : « ... مع ما ظهر لأبطال المائمين وشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات السيوف التي د الفارس والطعنات التي تنتظم السكلى فكان لهم بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنة لقتالهم » . أنظر المقرئ تقيلا عن .

Dozy : Abbadidarum, Vol. II. p. 236. Vide : Pidai op. cit) p. 280

انظر كذلك يوسف أشباح ١ ص ٦٩، وابن الأبار الخلة السراء ص ٢٠٩ .

دون أن ينظم صفوفهم، و كمل استعدادهم، لهذا كان العمل الذي قام به يوسف لا يقل في أهميته وخصورته عن جهاد عبد الله بن ياسين، فكلاهما صاحب فضل في إقامة صرح هذه الدولة

وكان يوسف وهو يحاول تنظيم هذه القوى الحاربة وتوجيهها نحو الهدف الذي حددته عبد الله بن ياسين متأثراً بطبيعة الدولة التي جمعت بين المؤثرات السودانية ومغربية والإندلسية، لذلك جاءت النظم التي وضع أساسها خليطاً من هذه المؤثرات الثلاثة، فلنحاول إذن أن نعرض لأوجه الإصلاح التي أدخلها يوسف على جيش الملمثين، وأن نتلمس صدى هذه التأثيرات المتعددة في النظام الذي وضعه .

اعتمد المرابطون في فتح المغرب على جهودهم الخاصة، وكانت فرق الملمثين من لمثونه وجدالة وحلفائهم هي التي اضطلعت بعبء الكفاح كله . وكانت مهمة يوسف بعد إتمام فتح المغرب أثقل من مهمته قبل هذا الفتح، إذ كان عليه أن يحتفظ بشر هذا النصر لتحقيق أهداف الدولة في الجهاد، فكان عليه قبل كل شيء أن يؤلف بين القبائل وأن يحببها في النظام الجديد، لأن المغرب إذا اتحدت شعوبه وتآزرت أصبحت قوة بعيدة الأثر في معركة الجهاد، وقد استطاع يوسف بوسائله الخاصة أن يحقق هذه المعجزة، وأن ينجح حيث أخفق من سبقة من الولاة، فقد أقر السكينة في ربوع البلاد، فأمنت القبائل بالنظام الجديد ووثقت به .

وكان من أهم الوسائل التي استعان بها يوسف على تحقيق هذا الهدف إشراك أهل المغرب من غير الصنهاجيين في معركة الجهاد، لأن وحدة الجهاد والكفاح من أجل غرض واحد تؤلف بين القبائل المتباغضة، فتتسى خلافتها إلى حين، وتلتف حول قائد المعركة، فقد روى أن يوسف استعان بفرق من قبائل المغرب ظهرت في معارك الاندلس، فاشترك الزناتيون والمصامدة مع

الصنهاجيين في معركة الزلاقة جنباً لجنب ، ومعنى هذا أن يوسف وضع تحت تصرف الدولة طاقة هائلة بعيدة الأثر ، فقد كان المصامدة وأحلافهم يمتازون بشدة البأس ، ووفرة العدد ، وقد أقبلوا على التطوع في الفرق الجديدة كسباً لأجر الجهاد ، وطلباً للغنم ، فقد كانت الغنائم والأسلاب توزع على المحاربين في الميدان .

ولكن الروح القبلية ظهرت بوضوح وجلاء في معاملة الملتزمين لأفراد هذه الفرق ، فكانت صنهاجة تؤلف فرقا مستقلة تشترك في القتال مستقلة بنفسها لا تدخل المعركة إلا بعد أن تكون الفرق الأخرى قد نالت من العدو وأنهكتها . كان المرابطون ينظرون إلى الفرق غير الصنهاجية على أنها في مرتبة أدنى من فرق لمتونة ، تجلت هذه النظرة بوضوح في الإسم الذي أطلقه المرابطون على هذه الفرق ، فقد سموها فرق الحشم أو الأتباع^(١) ، ويبدو أن أهل الأندلس كانوا يفرقون أيضاً بين هؤلاء الحشم ، وبين غيرهم من جند الملتزمين ، يتبين ذلك من قول ابن عبدون « يجب ألا يتلثم صنهاجي أو لمتوني أو لمطي فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهيبونهم »^(٢) . وكانت الفرق من الحشم لها أعلامها الخاصة وبنودها ، وكان يقودها رجال من لمتونة مثل القائد جرور الذي لقبته المراجع باسم جرور الحشمي^(٣) ، وقد أسدت هذه الفرق المرابطين يدا طولى في معركة الجهاد ، لأن صنهاجة لم تسكن تستطيع أن تعتمد على مواردها الخاصة .

استعان يوسف أيضاً بفرق من السودان^(٤) ، فقد كانت دولة المرابطين تمتد من حوض السنغال في الجنوب حتى البحر الأبيض المتوسط في الشمال ، وكانت

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣ .

(٢) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢١٨ .

(٣) الحلال الموشية نقلا عن Abbadidarum, Vol. 11 p.204 .

(٤) الفتنح بن خافان : وثائق العقبيان ص ٦٥ .

تستطيع أن تحصل على حاجتها من هؤلاء العبيد ، إما بالشراء^(١) وإما بإغرائهم بالاشتراك في معركة الجهاد ، ولم يكن يوسف بن تاشفين في هذه الناحية مبتدعاً ولا مجدداً ، فقد كان أمراء المغرب السابقون يعمدون إلى تجنيد فرق من هؤلاء السود يتخذون منهم حرساً خاصاً يدين لهم بالولاء .

استعان بهم الأغالبة ثم استعان بهم الزيرون ، وقد اشتركوا مع صنهاجة في قتال عرب بني هلال^(٢) ، وكانت هذه الفرق في جيش المرابطين بمثابة فرق الفدائيين في الوقت الحاضر ، كان أفرادها يسلمون بأسلحة خفيفة من درق اللط وسيوف الهند ومزاريق الزان^(٣) ، ويبدون كأنهم كانوا يدخلون المعركة في آخر لحظة لانتزاع النصر من الأعداء انتزاعاً ؛ إذ ينقضون كالصاعقة على العدو المهزوم ، فيدخلون الرعب في قلبه ، ويحملونه على الفرار ويندفعون كأنهم القذائف . وقد وضح ذلك يوم الزلافة حين أطلق يوسف هؤلاء العبيد في ختام المعركة ، فارتبك جند الفرنس وانهض أحدهم على هذا الملك فقتل جواده وطعنه في ساقه .

وقد أشار المؤرخون^(٤) إلى أن المرابطين استخدموا طائفة من الجند الصقاب ولا ندري بالضبط إلى من يرجع الفضل في استخدام هؤلاء الجند ؟ أيرجع ليوسف ابن تاشفين أو إلى ولده علي ؟ ذلك أن المؤرخ يوسف أشباخ^(٥) يذكر أن علياً ابن يوسف كان أول من استخدمهم وأكثر منهم واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً ،

(١) يوسف أشباخ : ج ١ ص ٧١ .

(٢) Marçais (op. cit) p. 155

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٨٨٢ .

(٤) أعز ما يطلب ص ١٩ . أبو بكر الصنهاجي الباق ص ٨٦ و ٩٥ .

Lévi-Provençal : p. 130

De Mas Latrie, p. 320. Recherches, vol II. p. 437

Terrasse (op. cit) p. 248

(٥) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢٢ .

ولسكنه يعود مرة أخرى^(١) فيذكر أن يوسف بن تاشفين هو البادىء باستخدام الصقلاب في حرسه الخاص .

ليس من شك في أن يوسف بن تاشفين هو أول من استخدم هذا النوع من الجند ، خصوصاً بعد أن اشترك في معركة الجهاد بالأندلس ، وبعد أن أدال المرابطون ملك الروساء ، وبسطوا نفوذهم على بلاد الأندلس . فهل كان هؤلاء الجند من الصقلاب أو من المعاهدين أو من المتطوعين من أهل الأندلس ؟ يذكر أشباح أن يوسف استخدم طائفة من فتيان النصراني المعاهدين الذين اعتنقوا الإسلام ، وأنه كان محبوبهم بعطفه ، ولا يفتأ يصدق عليهم من صلواته وأعطياته كلما اشتد إخلاصهم وتفانيهم في تحقيق أغراضه^(٢) ، ويشير دى ماس لاترى^(٣) إلى أن هؤلاء الجند كانوا من المتطوعين المرتزقة طلاب المغامرات ، لأن أهل الأندلس المسيحيين لم يجدوا بأساً من خدمة المرابطين ، فقد خدموا ملوك الطوائف من قبل^(٤) . لكن يخيل إلينا أنهم كانوا من الأسرى ، لأن معارك الأندلس المتعددة كانت تتمخض عن وقوع أعداد لا حصر لها من النصراني في أيدي المرابطين ، فلم يجدوا بداً من تجنيدهم في الجيش ، وتسخيرهم لتحقيق أغراضهم . ويبدو أن اللواء كان يعقد لرجل منهم ، فقد كان قائدهم في عهد تاشفين بن علي . رجلا يدعى الريدتر^(٥) (Riverter) ، كما يبدو أن طائفة كبيرة من هؤلاء الجند كانت لاتزال على دينها الأول ، بدليل ما يروى من أن المرابطين قد تركوا لهم حرية العقيدة ، وأباحوا لهم بناء الكنائس^(٦) .

(١) يوسف أشباح في ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) De Mas Latrie : Traité de Paix p 320

(٤) Terrasse : Hist. du Maroc, p. 248

(٥) أبو بكر الصنهاجى البيدق ص ٨٦ .

Lévi-Provençal (Introduction) p. 139

Dozy : Recherches vol. II, p. 437

Terrasse (op. cit.) p. 249

(٦) Terrasse (op. cit.) p. 248

فما هي الظروف التي اضطرت المرابطين إلى أن يستخدموا هؤلاء الجند ؟
نحن نعلم أن المرابطين سخرُوا جميع القوى في معركة الجهاد في الأندلس ، وكانوا
لا يفتأون يقذفون بني اتون المعركة بالفرقة تلو الفرقة ، فكانوا بحاجة إلى طائفة
من الجند تملأ هذا الفراغ الذي خلفته الفرق المشتبكة في القتال ، وكانوا بحاجة إلى نوع
من الجند يسخرون لحماية مدن المغرب ، وينتشرون في القلاع والحصون التي
أقامها المرابطون في بلاد المصامدة لحراستهم وارهابهم^(١) . استعان المرابطون
بالمغاربة في مقاتلة النصارى ، واستعانوا بالنصارى في حراسة أهل المغرب
واخضاعهم .

ولم يقنع المرابطون بهذه الموارد المتعددة من الجند سواء من الزناتيين
أو المصامدة أو الأسرى المسيحيين أو الزوج ، بل اضطرتهم المعركة التي شنوها
في البر والبحر إلى تسخير جميع الموارد ، والاستعانة بجميع طوائف المجتمع لإدارة
دفة الحرب في الأندلس . قال جانب هذه الفرق النظامية استعان المرابطون
بطائفة كبيرة من المطوعة من أهل الأندلس والمغرب^(٢) ، الذين كان تدفعهم
حميتهم إلى الانخراط في سلك المجاهدين طلباً للشهادة في سبيل الله ، وكانت
أعداد المتطوعين في بعض الأحيان تعد بالآلاف ،^(٣) يجتمعون إذا لاحت نذر
المعركة ، ثم يفترقون بعد انتهائها . ويبدو أن طائفة من عرب بني هلال قد
اشتركت في معركة الجهاد ، يتبين هذا من قول صاحب القلائد « وفيهم من
اجناده زنجها وعربانها »^(٤) .

(١) Terrasse (op. cit.) p.248

(٢) ابن الأبار: التكملة ج ١ ص ٩ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) الذهبي ابن خافان : قلائد المعيان ص ٦٥ .

وإذا كن يوسف بن تاشفين قد عمد في إصلاح النظم الحربية إلى إدخال نظام التجنيد الشامل لكافة طبقات المجتمع على الصورة التي عرضناها ، فإنه عمد إلى إصلاح ناحية أخرى ، عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش ، وطريقة إعداده للقتال ، ذلك أن أسلحة الملتحين كانت في الواقع أسلحة بدوية ، وكان شأنهم شأن بدو الصحراء يعتمدون على الإبل اعتماداً كبيراً ، ولا يكثرون من الخيل ، ويفضلون القتال وهم راجلون^(١) ، وضح ذلك كله حين أخذت جموعهم تطرق أبواب المغرب ، إذ روى المؤرخون أنهم « دخلوا المغرب في ثلاثين ألف رجل مسرج »^(٢) ، ولكن الإبل إذا كانت تصلح للقتال في الصحراء فإنها ليست صالحة للقتال في المناطق الحبلية والمضبية في المغرب الأقصى ، كما أن فرق الأبالا لا تستطيع أن تصمد أمام فرق الخيالة الممتازة من الزناتيين والمصامدة ، لذلك عمد يوسف إلى الاكثار من الخيل ، وكون فرقا من الفرسان ، ودرّبهم على هذا اللون من ألوان القتال . ويخيل إلينا أن يوسف استعان بالفرسان الزناتيين على نطاق واسع ، وكانت لهم في فنون القتال شهرة واسعة ، ولكن يوسف لم يغفل شأن الإبل ، فكان يجعلها تحمق بمسكركه ، حتى إذا احتدم القتال سيقّت الإبل للحرب فتدخل الرعب في قلوب الفرنجة ، وتجنح لمرآها خيلهم فيقع الارتباك في صفوفهم^(٣) كما أن الملتحين لم يألفوا السلاح الثقيل^(٤) من لبس الخوذات والدروع والزرر ، كما كان يفعل أهل الأندلس في حربهم وقتالهم . كانوا في الواقع قد اعتادوا على التسلح بأسلحة خفيفة تناسب طبيعتهم البدوية البسيطة ، وكانوا يتسلحون بدرق

(١) البكري : المغرب ص ١٦٦ .

(٢) جامع تواريج فاس مر ، ٢٤ .

(٣) القرى : نفح الطيب ج ٢ ص ١١٧٩ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ١٤١ .

اللامط والقنا الطوال^(١) والمزاريق المسنونة^(٢)، ويحمل الرجل منهم عدة مزاريق في آن واحد^(٣).

ولم يغير يوسف من هذا النظام في السلاح، بل أبقاه على ما هو عليه، ولكنه استعان بفرق من الرماة بالسهم والنشاب ذاع صيتها في شدة الفتك واتقان الرماية^(٤)، ويخيل إلينا أنه استعان بمقاتلة من المغرب. ولما التحم المرابطون بالفرنجة ووجدوا أنهم يعتمدون اعتماداً مطلقاً على السلاح الثقيل لم يغفل المرابطون هذه الناحية، وبدءوا يسلحون فرقتهم بالتروس، وينسجون الدروع، ويلبسون البيضات^(٥)، وأصبح الجيش المرابطي تتمثل فيه جميع الأسلحة المستعملة في عصره سواء كانت أسلحة بدوية أو مغربية أم أندلسية. أما مسألة استخدام طبول هائلة تصحب الجيش الزاحف فلا ندري بالضبط أكثر المرابطون من الطبول متأثرين بالتقاليد السودانية أم بالتقاليد المغربية؟ وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن المؤرخين رووا^(٦) أن طبول المرابطين كانت إذا ضربت اهتزت لها الأرض، وتجاوبت الآفاق، وارتاع العدو، وهم يتحدثون عن هذه الطبول حديث من لم يشاهد مثلها من قبل. ولعل أهل الأندلس لم يكونوا قد اعتادوا أن يروا في جيوش شبه الجزيرة عادة استخدام مثل هذه الطبول الكبيرة.

أما نظام إمرة الجيش فإن يوسف بن تاشفين لم يدخل عليه تعديلاً يذكر، إذ ظلت التقاليد القبلية تتحكم في هذه النظم وتسيرها، إذ كان على القبيلة الغالبة أن تخص أبناءها بالقيادة، فلا تستعين بسواهم، وكانت القيادة العليا لزعم القبيلة

(١) الحلل الأوشية في الأخبار المراكشية ص ١١.

(٢) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٧٩.

(٣) ليكرى : المغرب ص ١٦٦.

(٤) Terrasse : (op. cit.) p. 223.

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ج ٢ ص ٢٨١.

(٦) Dozy : Abbadidarum, vol. II, p. 247.

المنتصرة يوسف بن تاشفين^(١) ، أما فرق الجيش المختلفة فكانت إمرتها تعقد لقواد من أفراد البيت الحاكم بمن يثق بهم أمير المسلمين ، ويطمئن إلى إخلاصهم^(٢) حتى قوات الحشم وهي قوات غير صنهاجية^(٣) كانت قيادتها لرجال من لمتونة ، ويبدو أن أبناء لمتونة كانوا يؤلفون فرقة قائمة بذاتها يقودها أمير من المقربين من السلطان^(٤) .

وكان طبيعياً بعد أن فتحت الأندلس ، وتعددت الجيوش المرابطية المشتركة في معركة الجهاد أن توحيد القيادة في الأندلس ، وأن يعقد لواؤها لقائد واحد هو حاكم الأندلس من قبل أمير المسلمين^(٥) ، وهو حر التصرف بحرك قواته فوق رقعة شبه الجزيرة كيف يشاء . وكان قواد الفرق المختلفة وولاة الأقاليم من رجال لمتونة يجتمعون بالأمير على هيئة مجلس حرب للمشاورة في مختلف الشئون العسكرية ، ولاتخاذ خطة موحدة في معركة الجهاد^(٦) .

ويبدو أن السياسة التي كانت تملئ على أمير المسلمين أن يجرى تنقلات مستمرة بين ولاء الأقاليم حتى لا يستأثر أمير بالسلطة أو يفكر في الخروج على ولى الأمر هي نفس السياسة التي أملت عليه أن يحدث تنقلات مستمرة في قيادة فرق الجيش ، حتى لا يطول بقاء القائد في منصبه فيستبد بالأمر ، ويؤلب الجند على أمير المسلمين .

-
- (١) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ .
(٢) الفنج بن خاقان : المصنوع ص ١٩٧ . الحلل للوشية ص ٥٩ . أعمال الأعلام ج ٣ ص ٢٠٠ ، ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و ٥٢ و ٥٤ . البيهقي ص ٧٩ ، ابن الأثير ج ١ ص ٣٦ .
(٣) الحلل للوشية ص ٥٩ .
(٤) أعز ما يطلب ص ٤٥ .
(٥) ديوان ابن خفاجة ص ٤٩ و ٥٢ و ٥٤ .
(٦) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ .

ويبدو أن قيادة فرق المرابطين كانت في غاية الدقة والتنظيم ، مما يدل على أن اليد القابضة على السلطة العليا كانت يد مجرب حكيم ، فكانت الجيوش تتحرك صوب أهدافها في وقت واحد ، تقاتل في شرق الأندلس ، وفي وسطها ، وفي غربها ، وفي المغرب الأوسط ، وفي كل منطقة يشتد فيها الخطر . وكان المغرب بمثابة المعسكر الكبير يرسل منه الجند المعدون للقتال لمختلف أرجاء الجبهة ، ويخيل إلينا أن مدينة سبتة وطنجة كانتا بمثابة مراكز أمامية مهيأة لكل طارئ ، يربط فيها الجنود على استعداد لتلبية أي نداء بالعبور إلى الأندلس ، وقد رأينا كيف أن يوسف بن تاشفين كان ينقل مقر قيادته إلى سبتة وطنجة ليرقب المعركة في الأندلس عن كثب ، ويرسل أوامره للقائد الأعلى على جناح السرعة .

وقد نجحت سياسة ابن تاشفين نجاحاً بعيد المدى ، واستطاع أن يشغل العدو بقتاله في أكثر من جبهة واحدة في البر والبحر ، وأن يشل حركته ، ويوقع الارتباك في صفوفه . والفضل في تنظيم هذه القيادة ، ووضع أسسها يرجع إلى يوسف الذي كان خبيراً باختيار الرجال واكتشاف المواهب ، فما من قائد أمره على الجيوش إلا وظهرت مواهبه ، وأظهرت الحوادث أنه من أكفأ القواد وأشجعهم وأقدرهم ، وقد أظهرت معارك المغرب والأندلس طائفة من هؤلاء الأبطال الذين عفروا جباههم بغيار الجهاد ، وجادوا بدمائهم فوق بطاح الأندلس ، وكانوا مصدر رعب وفزع للعدو ، نذكر من هؤلاء سير بن أبي بكر^(١) ، وداود ابن عائشة^(٢) ، وعبد الله بن فاطمة^(٣) ، وأبو محمد مزدلي فاتح الشرق^(٤) .

(١) الحلل الموشية في الأخبار للراكية ص ٥٩ .

(٢) ابن الخطيب أعمال الأعلام ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) Dozy : Recherches, vol. II, ap. 1

(م ٢٥ . — قيام دولة المرابطين)

وابن ميمون قائد الأسطول وغيرهم كثير^(١) . وكان للعسكر قضاة يقضون بين الجند ويمظونهم ويحضونهم على الجهاد ويؤمنونهم في الصلاة^(٢) .

والآن نعرض لفن القتال كما عرفه المرابطون ، وما يتضمنه من طريقة إعداد الجند وتجهيتهم للمعركة ، وترتيب الصفوف ، وتنظيم الفرق المقاتلة ، وطريقة السير إلى المعركة ، وتقاليد الملتزمين في خوض غمار الحرب . كانت الملثمين قبل عهد يوسف بن تاشفين تقاليد معروفة في إعداد الجند للقتال ، إذ كانوا يعتمدون على صنفين من المقاتلة : يعتمدون على الرجالة ، وعلى الأباله الذين يقاتلون على النجيب التي تقوم في القتال مقام الخيل ، كانوا يجعلون من المشاه صفوفاً ، يجعلون في الصف الأول فريقاً من المقاتلة مسلحين بالبقنا الطون ، ويجعلون خلفهم صفّاً آخر من المشاه يتألف من رجال بيدهم المزاريق . وكان هؤلاء عادة من مهرة الرماة وحذاقهم « لا يكاد الواحد منهم يخطئ أو يشوي ، يتسلحون بأكثر من مزراق ، ويتناوبون الرماية في سرعة خارقة ودقة عجيبة ، وبلغ من حسن إعدادهم ، ودقة تنظيمهم أنهم كانوا يجعلون في مقدمة الصفوف صاحب الراية يرتهن المقاتلون بإشارته ، إذا انتصبت الراية وقفوا وإن أمالها جلسوا^(٣) » ، لأنه يرقب تحركات العدو بعين ساهرة يقظة ، يشير بهذه الراية كلما أحس بإقبال الخطر أو دنوه . وتقف خلف هؤلاء الرجال فرق من الفرسان الأباله على ظهور النجيب ، يتحفزون للهجوم إذا آنسوا من عدوهم ضعفاً أو أحسوا تخاذلاً .

فهل أبقى يوسف بن تاشفين حين تسلم قيادة الجيش على هذا النظام البدوي في فن القتال ، أم غيره واستبدله بنظام آخر ؟ . يجيل إلينا أن يوسف لم يدخل على هذا النظام تعديلاً يذكر ، إذ لم يكن باستطاعته أن يغير طبائع الناس ، وما درجوا

(١) انظر اللاحق .

(٢) الذخيرة (قسم ٤) ص ١٢٥ .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٦ .

عليه من أساليب القتال . تنقف على ذلك من وصف الطرطوشي لفن القتال في بلاد الأندلس في عصره ، « فقد قال » فأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا وهو تدبير نفعله في لقاء عدونا أن تقدم الرجالة بالدرك الكاملة والرماح الطوال والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ، ويركزوا سراكزم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض ، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه بخلفهم الرماة المختارون التي تمرق سهامهم من الدروع والخيال خلف الرماة فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة عن هيئاتهم ، ولا يقوم رجل منهم على قدميه ، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تلقاهم فأخذو يمتة ويسيرة فيخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم مما شاء الله ^(١) .

والطرطوشي كان معاصرا لقيام دولة المرابطين ولتدققهم إلى الأندلس ، كما أن تقاليد الحرب وفنونها في عهد ملوك الطوائف كانت لا تكاد تختلف عن تقاليد النصارى في هذا المضمار ، من الاعتماد على القلاع الحصينة ، واتقان فن الحصار ، والاعتماد المطلق على الشجاعة الفردية ، وعلى فرق من الخيالة الثقيلة المسلحة بالزرد والدروع والسيوف ^(٢) مما يجعلنا نعتقد بأن الطرطوشي في وصفه بذلك إنما كان يصف نظام القتال في بلاد الأندلس في أوائل عهد المرابطين ، وفي أيام يوسف بن تاشفين بوجه خاص ، وتكاد روايته تطابق رواية البكري في هذا الصدد ^(٣) .

إذن أبقى يوسف على هذه التقاليد ، لم يغير منها ، ولكنه عمد إلى التجديد ، فأعاد تقسيم الجيش على أسس جديدة لم تكن معروفة من قبل ، إذ جعل أساس

(١) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٧٩ .

(٢) Pidal : The cid and his Spain, p. 219 .

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٦ .

تقسمة قبليا محضا ، بمعنى أن تؤلف الفرق من أفراد القبيلة الواحدة ، حتى تقالفت قلوبهم ويكونوا متآلفين متحابين ، يقاتلون وفق نظام واحد ، ويستوحون تقاليد واحدة^(١) ، فكان الحشم وهم من الزناتيين والمصامدة يؤلفون قسما مستقلا بذاته وكان الأندلسيون والمطوعة يؤلفون قسما آخر مستقلا بثبته ، وكان المجاهدون من أهل الثغور يؤلفون قسما آخر مستقلا ، أما فرق لمتونة وغيرها من أهل الأناضول ، فكانت مستقلة عن الفرق الأخرى ، وكانت هذه الفرق جميعها تقاتل على الطريقة البدوية التي عرضنا لها . كانت فرق الحشم في مقدمة الصفوف ، وكانت فرق الملتمين تصطف في القلب ، وكان المحاربون من أهل الأندلس يصطفون في الساقة ، وأهل الثغور وغيرهم يؤلفون جناحي الجيش^(٢) . وتقديم فرق الحشم يتفق مع التقاليد القبلية إلى حد كبير ، فقد وضعت في موضعها ذلك لتصطلي بنار المعركة وتذوق طعمها ، وتكون بمثابة درع يقي زهرة شباب لمتونة وخيرة فرسانها ولا يتقدم الملتزمون إلى القتال إلا بعد أن تكون فرق الحشم قد نالت من العدو وأنهكتهم وأضعفته^(٣) ، حينئذ يتقدمون ليجهزوا عليه ، وينهروا المعركة لصالحهم ، ولكن يوسف لم يعتمد على المشاة وحدهم ، بل أعد طائفة من الفرسان الشجعان من جند لمتونة ، ولا بد أنه سلحهم بالأسلحة الثقيلة ، شأنهم شأن فرسان النصاري^(٤) ، وكان يجعلهم في القلب خلف صفوف المشاة من الحشم^(٥) ، وقد أبقي نظام الأباله ، فكان يقيم منهم صفوفاً تحمق بالمعسكر وتحف به ، تحمي مؤخرتهم وتؤمن طرق مواصلاتهم^(٦) ، فلا يعتمد العدو إلى قطعها ، وتهديد الجيش المهاجم.

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٥ ..

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣ .

(٣) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٥ ..

(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٢٨٣ .

(٦) Gautier (op. cit.) p. 170

مباشرة اتخذت كل فرقة موضعها ، ونهياً الجيش للقتال دقت طبول الحرب ، وتردد صوته المدوي في جنبات المعسكر إيذاناً ببدء الهجوم ، فتقدم فرق الحشم ، ثم تلوها الفرق الأخرى في دقة ونظام ، كما أنهكت فرقة تقدمت إليها فرقة أخرى . وهكذا دواليك^(١) . أما فرق لتونة فهي لا تخوض المعركة إلا في المرحلة الأخيرة لأن المراتبين كانوا يخشون دائماً أن يبدأوا بالقتال ، فتفر الفرق الأخرى من خلفهم ، وتتركهم لسيوف الأعداء ، تعمل فيهم عملها ، لذلك كانوا يقدمون الفرق الأخرى حتى لا تنكص على أعقابها ، ثم يتقدمون هم لجنى ثمار النصر والإجهاز على العدو .

على أن الجديد في فن القتال أن يوسف بن تاشفين كان يحسن تدريب هؤلاء الجنود وتنظيمهم ، ويعد كل فريق للدور الذي يصلح له وكان يخضع هذه الجموع الزاخرة لإرادة رجل واحد ، تتحرك وفق مشيئته في نظام رتيب كأنها قطع الشطرنج ، فتضرب هذه الكتل البشرية المتراسة ضربة رجل واحد ، فتقتل من العدو وتخالخل صفوفه فيرتبك ويتعثر . وقد كان لهذا الفن الجديد أثر هائل في معارك الأندلس ، لأن النصاري كانوا يعتمدون كما قلنا على الشجاعة الفردية ، وعلى الخيالة الثقيلة ، وتتحرك الفرق تحركات مستقلة لا أثر لنظام يجمع شملها أو يوائم بين حركاتها ، لذلك كانت أجنحة العدو تنهض وتتكسر أمام هذا النظام الدقيق^(٢) .

وكان المراتبون يعتمدون على عنصر المفاجأة ، وعلى الحرب الخاطفة السريعة لمواجهة هذه الحصون المتحركة من الخيالة الثقيلة . كانوا يعتمدون على الصفات الفردية المتمثلة في سرعة الحركة ، والثبات والشجاعة ، فكان الجنود ينقضون على العدو كالصاعقة في حركات مرسومة ونظام رتيب ، تنوشه رماحهم ومزاريقهم

(١) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المراتبين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

(٢) Menéndez Pidal : The Cid and his Spain, p-219

وتطرد سهامهم ، ثم يخرج قوساتهم في هجوم جريء مفاجئ^(١) ، وقد عمد المرابطون إلى ذلك لأنهم لم يكونوا يستندون على السلاح الثقيل ، فكانت خسارتهم في الساعات الأولى من القتال خسارة فادحة ، فكان من مصلحتهم أن يعجلوا ، وأن ينهوا المعركة بأسرع ما يستطيعون ، لذلك كن عنصر السرعة وعنفة الهجوم طابعاً مميزاً لهم في جميع المعارك التي خاضوها غمارها .

كانت تقاليد المثلثين تقضى بأن يثبت الفارس في موضعه لا يتقهقر أو يلقى حتفه^(٢) ، لأنه يجد في الفرار من الزحف عاراً وأى عار ، فما بالك إذا اعتقد أن هذا الثبات سبيله إلى الاستشهاد في سبيل الله ، وكان من تقاليدهم المعروفة حتى في مجتمعاتهم البدوية ألا يتعقبوا العدو المهزوم الفار ، لأنهم كانوا يأنفون من أن يطعنوا عدواً من الخلف ، وهو يولى الأدبار^(٣) ، بل يفضلون أن يقاتلوا العدو في مواجهته . وقد ظهرت هذه التقاليد بوضوح في معركة الزلاقة ، حين أبى يوسف أن يتعقب القونسو الذي فر في جنح الظلام ، وكان ذلك موضع عجب أهل الأندلس ودهشتهم ، لأنهم درجوا على أساليب الخيانة والغدر في القتال ، يأخذون العدو من مأمته ، وينالون منه إذا أدبر أو فر .

ولم يكن المرابطون يعرفون فن الحصار ، وكيف يتأني لهم أن يملوا به ، وهم البدو الرحل الذين لم يكن لهم بالحصار عهد ، ولكن يخيّل إلينا أنهم بعد أن أخفقوا في معركة لييط تعلموا فن الحصار ، وأتقنوه ، واستعانوا به ، فقد روى صاحب الحلل «أن يوسف شرع في بناء الأسوار ورم ما تشعث من الأبراج ، وحفر الحفير حولها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ، ورتب فيها عسكرياً قوماً من نخبة رجاله ، وأسكنهم بها»^(٤) .

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ١٤٩ ..

(٢) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٤ ..

(٣) البكري : المغرب ص ١٦٦ ..

(٤) الحلل الموشية ص ٦٧ — ٦٨ ..

وقد ازداد اتقائهم لهذا الفن في عهد علي بن يوسف ، فبرعوا فيه وظهر أثر ذلك في حصارهم مدينة شنترين واستيلائهم عليها ، فقد كتب سير بن أبي بكر إلى أمير المسلمين يتيه بهذا الظفر ، ويصف له ملاقاه العدو من آلام الحصار ومتاعبه^(١) .

وكانت جيوش المرابطين إذا تحركت من موضع إلى آخر سارت وفق نظام خاص . كانوا يسرون متأهبين للقتال كأنهم على وشك خوض المعركة ، وكانت الأقوات والخيام تحمل على ظهور الإبل ، تسير في مؤخرة الصفوف ، يتلوها الرماة ، يقودون قطعان الماشية من كل صنف ، فإذا حط الجيش رحاله أقاموا معسكراً تحف به الخنادق والتحصينات^(٢) .

وإذا كنا قد فرغنا من التحدث عن الجيش ، فلا بد من أن نعرض للأسطول في عهد المرابطين ، وأهم ما يلاحظ في هذا الصدد أن المرابطين ، وهم من بدو الصحراء لم يكن لهم عهد بركوب البحر ، حتى قدر لهم أن يفتحوا المغرب الأقصى ، وأن يتدفقوا صوب السهول الساحلية ، وأن يستولوا على موانئ الساحلية المطلّة على حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي ، فبدأت تواجههم مشاكل لم يكن لهم

(١) رسالة من سير بن أبي بكر إلى أمير المسلمين «أدام الله أمر أمير المسلمين وناصر الدين أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين خافقة بنصرة الدين اعلامه ؛ نافذه في السبعة الأقاليم أقلامه من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك وعن نفسك على المسلمين والحمد لله رب العالمين هذا يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ويسبق الأحاط الطامحة ... وكانت قلعة شنترين أدام الله أمر أمير المسلمين من احصن العاقل للمشركين وأثبت المعاهد على المسلمين فلم تزول بسعيك الذي اتفقنا به ومديك الذي اكتفينا به نخضد شوكتها ، وتنعت أثلتها ، وتتناولها عداً بعد ثمل ... ونحن الفارات على جميع الجهات ، فترد جيوشنا عليهم خفافاً ، وتضدر إلينا تقالاً قتلاً صدور الأعداء أوجالاً ، وأيدي الأوياء أموالاً ... قامكتنا الله تعالى من ذروتها وأنزل ركايبها لنا عن جهوتها ... ،

Hoogoliet : Specimen e Litteris diversorum Scriptorum Locos de Regia Aphtasidarum . . . pp. 134 — 136

(٢) يوسف أشبا . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والواحدين . ج ٢ ص ٢٣٦ .

بها عهد ، وكان يتعين عليهم أن يجدوا لها حلا . ذلك أن ساحل إقليم المغرب الأوسط والأقصى الممتد من وهران حتى طنجة كان في حاجة إلى قوة بحرية تحرسه وتحميه وتقيه شر غارات القراصنة التي بدأت تشتد في ذلك الوقت غب اختلال التوازن في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي .

ويخيل إلينا أن المرابطين أقادوا من خبرة أهل السواحل المشتغلين بركوب البحر ، كما أقادوا من دور الصناعة المنتشرة في هذه الموانئ ، فبدأوا يبنون أسطولا في عهد يوسف بن تاشفين ، وهو لم يزل أميراً على المغرب . ويبدو أن النواة الأولى لأسطول المرابطين الجديد قد اشتركت في حصار سبتة ، ومديد المعونة للقوات البرية التي كان تقاتل سقوت البرغواطى^(١) .

وقد أدرك يوسف بن تاشفين بعد انتصاره في معركة سبتة أهمية العامل البحري في كسب المعارك ، فبدأ يهتم بأمر الأسطول ، ويولييه من رعيانة الشيء الكثير ، ولعله استعان ببهاره الأندلس ودور صناعتها في تدعيم الأسطول وتنظيمه ، وقد استطاع الأسطول الجديد أن يمد يد العون لقوات المرابطين وهي تجتاز البحر لأول مرة^(٢) .

ثم أخذ المرابطون يتوسعون في بلاد الأندلس ، فاتجهوا صوب الشرق ، ففتحوا المرية وبدأوا يسيطرون نفوذهم على كثير من الموانئ الساحلية ، وكان هذا الفتح بداية عهد جديد في تاريخ البحرية في عهد المرابطين ، ذلك أنهم وضعوا أيديهم على أهم الموانئ في حوض البحر الأبيض المغربي ، واستولوا على دور صناعة كانت ذات شهرة عالمية في فنون البحر وصناعة السفن . وكان ثغر المرية على الخصوص ودار صناعتها ذات شهرة لا تبارى في هذه السبيل .

(١) النخبة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) يوسف اشباح . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٧ .

كان من أثر ذلك أن بدأ الأسطول المرابطي يظهر كمنصرف فعال في معركة النضال من أجل السيادة على بلاد الأندلس ، وبدأ يتخذ موقف المهاجم ، وبدأ المرابطون يعدون السفن لا مجرد نقل القوات بين العدوتين ، بل للحرب والنزال فاشترك الأسطول في معركة بلنسية التي احتدمت بين القمبياطور والمرابطين ، إذ روى المؤرخون أن بعض سفن المرابطين عاونت القوات البرية في شرق الأندلس^(١) .

ومن أسف أن المراجع لا يتحدث بالتفصيل عن نشاط البحرية المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين ، مما يحمل على الظن أنها كانت لا تزال في دور البناء والتكوين ، والمستشرق جاينجوس^(٢) في ترجمته لكتاب نفح الطيب أشار إلى أن عيسى بن ميمون والد أمير البحر علي بن ميمون كان يقود أسطول المرابطين في قádiz ، مما يحمل على الظن بأن عيسى هذا كان أمير البحر في أواخر أيام يوسف بن تاشفين ، وقد غدت إمرة البحر وقيادة الأساطيل وراثية في بني ميمون هؤلاء .

ومهما يكن من شيء فإن البذور التي غرسها يوسف بن بن تاشفين أينعت وقطف ولده على ثمارها كاملة ، فقد ازدهر الأسطول في عهده ، وبدأت المراجع تتحدث عنه ، وتسجل له نشاطاً بعيد المدى في معركة البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن أسطول علي بن يوسف كان يتألف من سفن عدة ، وأنه كان يتألف من جملة أقسام يختص كل قائد بقيادة قسم منها ، ويدين بالطاعة لأمر البحر ، فقد روى الإدريسي أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز « كان والياً لأمر المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على جملة من أسطوله »^(٣) .

(١) Pascual de Gayangos : The History of the Mohammedan dynasties in Spain, vol. II, p. 517, Note 4

(٢) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٤٤ — • • •

وقد ظهر تفوق أسطول المرابطين في عهد علي بن يوسف في معركة ميورقة ،
ذلك أن صاحب برشلونة كان قد حاصر جزر البليار عشرة أشهر ، واستولى عليها
فاستغاث صاحبها بمبشر بعلي بن يوسف ، فخفت أساطيل المرابطين لنجدته ،
وأحدثت بالجزيرة ، وأنزلت بالفرنجة هزيمة ساحقة ، وبسطت عليها سيادة
المرابطين ، فأصبحت من أهم قواعدهم في البحر الأبيض المتوسط ، وولوا عليها
عاملاً من قبلهم يدعى وانود بن أبي بكر^(١) ، كما ظهرت شهرة علي بن عيسى
ابن ميمون قائد أسطول المرابطين ، وبدأ المؤرخون يتحدثون عنه حديث المعجب
بجراته وشجاعته ، ومن الغريب أن بني ميمون هؤلاء ملثمون من لمتونة ، فكان
لمتونة لم تشأ أن تولى على أسطولها رجلاً من غير أبنائها^(٢) .

وباستيلاء الأسطول المرابطي على جزيرة ميورقة يتبدى عهد جديد في
تاريخ النضال بين المسلمين والفرنجة ، إذ بدأ المرابطون بعد أن عقد لهم لواء
النصر في البر يدخلون معركة البحر بقلوب مطمئنة وأقدام ثابتة ، وأصبح
أسطولهم قوة هائلة يحسب لها الأعداء ألف حساب . وكان من آيات تفوق
المرابطين في البحر أنهم دخلوا حومة الصراع بين النرمنديين أصحاب صقلية
والزيريين أصحاب إفريقية ، حين استنجد الحسن بن علي بن يحيى بأسطول
المرابطين ، فخف إلى صقلية ، وأغار على سواحلها ، وعاث في مدنها ، وقد
تعددت غارات المرابطين على صقلية ، حتى ضج روجر بالشكوى ، واعتقد أن
بني زيري هم الذين يحرضونهم ، ويدفعونهم لاتخاذ هذا الموقف العدواني ،
فأعدوا العدة لتأديب الزيريين بالاستيلاء على المهديّة ، وقد اشترك أسطول

(١) الفلّيشيندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢) Pascual de Gavangos : The History of The Mohammedan dynasties, vol. II, p 517, note 4

المرابطين في معركة المهدية ، وبدأت سفنه تجوس في أحواز صقلية ، تقتل ، وتأسر ، وتفتك^(١) .

ويبدو أن دائرة نشاط أسطول المرابطين بدأت تتسع ، وبدأت غاراتهم تمتد إلى سواحل إيطاليا وسواحل فرنسا ، بل دخلت ميسدان البحر الأبيض الشرقي ، وبدأت تصارع أساطيل بيزنطة^(٢) . ومن أدلة ذلك النشاط الجرم أن المراجع الإفرنجية بدأت تؤرخ لغارات المرابطين ، وتتحدث عنها في شيء من الإسهاب ، وهذه المراجع لا تسجل من أخبار المسلمين إلا الأحداث البارزة ذات الأثر ، فقد خللت أغنية رولان نشاط المرابطين في البحر^(٣) ، وبدأت تتحدث عن علي بن عيسى بن ميمون ، كما أن مدونة ألفونسو السابع اختصت هذا الأمير باهتمام كبير^(٤) ، فذكرت أنه أخذ يفرز جنوب إيطاليا ، بل وصلت غاراته إلى بلاد الشام ، كما وردت إشارات عن نشاط أسطول المرابطين وإغاراته على شواطئ بروفانس وإحراقه كل ما يصادفه من قرى وقصور وكنائس^(٥) ، بل إن مدونة ألفونسو السابع تمنع في تسجيل نشاط علي بن ميمون ، فتقول أن الجالية المسيحية ببلاد علي بن يوسف قد أسرها علي بن ميمون أثناء إغاراته بحوض البحر الأبيض ، وأنه قد نقلها إلى مراکش لتدخل في خدمة أمير المسلمين^(٦) ، فكان المرابطين قد أبوا إلا أن يجاهدوا في البحر والبر على حد سواء .

ولكي يتم القول في النظم الحربية في عهد المرابطين وأثر قيام الدولة في نموها وتطورها لا بد من أن نعرف بناحية أخرى من نواحي هذه النظم ، وهي ناحية

(١) رحلة التيجاني ، ورقة ١٤٧ و ١٤٩ .

(٢) Dozy : Recherches, vol. II, p. 410

I dem (٣)

I bid. p. 437 (٤)

I bid, p. 410 (٥)

I bid, p. 437 (٦)

طريقة ظهر فيها صدى التأثيرات القبلية ظهوراً واضحاً . هذه الناحية هي نظام القلاع والحصون التي انتشرت في جميع أرجاء المغرب الأقصى ، وخصوصاً حول المنطقة الجبلية في الجنوب والشمال^(١) ، وفي المغرب الأوسط^(٢) ، وفي أطراف الصحراء ، حتى لقد عدد البيدق منها ما يقرب من عشرين حصناً منبثة في أرجاء البلاد^(٣) ، وذكر مارسيه أن آثار هذه القلاع والحصون لا تزال باقية حتى اليوم^(٤) .

فهل عمد المرابطون إلى هذا النظام ، وأكثروا من هذه القلاع والحصون في عهد علي بن يوسف حين وضع خطر الموحدين ، وبدأوا يهددون الدولة تهديداً خطيراً ، أم أن يوسف بن تاشفين وضع أساس هذا النظام كما وضع أساس النظم المرابطية كلها ؟ يخيل إلينا أن يوسف بن تاشفين هو الذي وضع أساس ذلك النظام حينما أراد أن ينظم بلاد المغرب الأقصى على أسس سليمة ، وأن يقر السكينة في ربوعة توطئة للاشتراك في معركة الجهاد . يدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن يوسف أقام الحصون في بلاد الأندلس ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة « ورتب فيها عسكرياً نخباً من نخبة رجاله وأسكنهم بها^(٥) » .

وإذا كان قد فعل مثل ذلك ببلاد الأندلس أيكون من المعقول أن يهمل بلاد المغرب ، ويتركها عرضة للفتن والاضطرابات . كما روى المؤرخون أيضاً أن يوسف بن تاشفين بنى في المغرب الأوسط قرب تلمسان مدينة جديدة سميت تاكرارت^(٦) ، وتاكرارت في لغة البربر معناها الحلة أو المعسكر^(٧) ، كما بنى

(١) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 249

(٢) E. Lavust : L' Haditation chez les Transhumants du Maroc (٢) Centrale, Hesp. 1934, T. XVII

(٣) أبو بكر الصنهاجي البيدق : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٨ و ١٢٩ .

(٤) G. Marçais : Manuel d' Art Musulmans : L' Architecture, Vol. (٤) I, 346.

(٥) عن الحلال الموشية : نقلاً عن : Dozy : Abbadidarum Vol. II. p. 193

(٦) E. Lavust : L' Habitation Chez les transhumants du Maroc (٦) Centrale, Hespéris. 1934, vol. XVIII.

(٧) عبد الرحمن بن زيدان : الأعقاب ج ١ ص ٨٥ .

في مرا كش قلعة حصينة يعتصم بها الجند إذا لاحت نذر الخطر^(١) . إذن وضع يوسف أساس هذا النظام الفريد ، وكان يستوحى التقاليد البدوية الصحراوية ، ذلك أن البدو كانوا إذا أناخوا بموضع عمدوا إلى إقامة معسكر يضعون فيه دوابهم وأثقالهم ، ثم حصنوه وحرسوه مخافة أن ينتهبه مغير أو يطمع فيه عدو^(٢) .

وقد وضحت هذه السياسة منذ فجر الدعوة المرابطية ، فما كاد المرابطون يستولون على أودغشت حتى ابتنوا معسكراً على مقربة منها يكون مركزاً لعملياتهم الحربية ، ومستودعاً لأثقالهم وأموالهم ، فلما تدفقوا صوب المغرب الأقصى ، وتخطوا مدينة سجلماسة اتخذوا معسكرات من هذا القبيل قرب أغمات جعلوها مركزاً لعملياتهم الحربية في إقليم السوس الأقصى ، بل إن بناء مدينة مرا كش كان لتحقيق مثل هذه الأغراض الحربية ، فكانت كالقبروان بنيت لتكون معسكراً للقوات الزاحفة ، ونقطة مراقبة أمامية تقع على مشارف جبال أطلس ، ترقب تحركات قبائل مصمودة ، وتترصد لها^(٣) .

ثم سيطر الملتزمون على إقليم المغرب الأقصى كله ، وأخضعوا المصامدة والزناتيين والبرغواطيين ، ودانت لهم جميع شعوبه بالطاعة والغلبة ، وأحسوا منذ اللحظة الأولى أنهم أقلية حاكمة تسيطر على أغلبية محكومة ، وأنهم قبيلة فاتحة تسيطر على قبائل لاحصر لها ، تعترف بقوتهم وتفوقهم ، فكان طبيعياً أن تعتمد القبيلة الغالبة إلى أن تصون ما أدركته بعد توضحيات وبعد جهاد ، وأن تضمن ولاء هذه القبائل المسودة ، فلا تنقض من مضاربها في الجبال والهضاب ، فتغتصب منها ثمار النصر ، وكانت الدولة المرابطية تنهياً لجهاد أكبر ، فكيف يتم لها ذلك إلا إذا أمنت ظهر الجيوش المجاهدة ، وضمنت ألا تنكص القبائل

(١) يوسف أشياخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 248

(٣) G. Marçias : Manuel de L' Art Musul. vol. I, p. 346

الموالية على أعقابها ، منتهزة فرصة انشغال زهرة شباب متونة في معركة الأنداس .
لتطعنهم من الخلف ، ثم إنه لابد من التوحيد بين إقليم الساحل وإقليم الهضاب
والصحراء ، فتتعاون هذه الأقاليم الثلاث في سبيل الاستقرار لينصرف الناس إلى
الإنتاج ويعم الرخاء . كل هذه العوامل دفعت يوسف بن تاشفين إلى أن يقيم
سلسلة من الحصون ، تحف بمضارب قبائل مصمودة في الجنوب ، وغمارة في
الشمال ، وزناته بالمغرب الأوسط ، لترقب تحركاتها ، وترصد حركاتها ، وتحول
دون عبثهم بالأمن ، حتى تشدد القبيلة المتغلبة قبضتها على البلاد .
ويبدو أن نذر خطر الموحدين قد لاحت لعلى بن يوسف ، وأحس أن
الحصون التي ابتناها أبوه لم تحقق الغرض المنشود ، وأنها من القلة بحيث لم تحل
دون وثوب الفتنة في صفوف المصامدة ، فروى المؤرخون أنه استعان ببعض
الأندلسيين في إقامة سلسلة أخرى من هذه القلاع الحصينة^(١) . أو بمعنى أدق
إقامة خط دفاع يوقف هذه القبائل العاصية عند حدها ، ويمحق خطرها الوليد^(٢)
في وقت كانت كل جهود الدولة منصرفة لمعركة الجهاد ، التي جندت في سبيلها
كل مرافق البلاد ، يتضح ذلك كله من قول البيدق الذي أرخ لبواكير حركة
الموحدين « أخذ المجسمون الحصون وبنوها في مواضع دارت بها الجبال من
جميع الجهات لكي ينتصروا بها على الموحدين^(٣) » . وكانت هذه القلاع تبنى
من الحجر في مناطق وعرة لا يستطيع التطرق إليها في يسر وسهولة ، فتصبح
كأنها أبراج مراقبة^(٤) ، وكان المرابطون يشحنون هذه الحصون بالأقوات حتى
تصمد للحصار مدة طويلة ، وكانوا يعمدون بالدفاع عنها لأحد قواد لمتونة ،
تعاونته قوة تتألف في الغالب من مائتي فارس وخمسمائة راجل .

(١) Lévi-Provençal: Traduction du Baidac, p. 142

(٢) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 249

(٣) أبو بكر الصنهاجي البيدق : أخبار المهدي بن تومرت من ١٢٨ — ١٢٩ .

(٤) GMarçais : Manuel de L' Art Musul vol. 1, p. 346

٥ — أثر قيام دولة المرابطين في الحياة الاقتصادية :

وقد تركت الأوضاع التي تمخضت عن قيام دولة المرابطين آثارا بارزة في الميدان الاقتصادي ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن الأحوال الاقتصادية في البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التي أدت إلى قيام الدولة من أى ناحية أخرى من نواحي الحياة في المغرب في القرن الخامس الهجري وأوائل السادس ، فقد كان التوحيد بين السودان والمغرب والأندلس ذا نتائج بعيدة الأثر في تاريخ التجارة الداخلية والخارجية ، فقد عرفنا كيف أن تجارة السودان كانت تمر بديار الملثمين ، وكيف أن هؤلاء الملثمين كانوا يجنون من وراء هذه التجارة أرباحا ضخمة ، حاولت القبائل الزناتية الضاربة في المغرب الأقصى والمسيطرة عليه أن تقسم هذه الأرباح ، وأن تأخذ نصيبا من هذه التجارة الربحية ، لأن طرق القوافل كان لا بد لها من أن تسلك المغرب الأقصى ، إذا أرادت أن تبلغ الموانئ الساحلية ، وكانت زناتة تتحكم في هذه الطرق ، وفي هذه التجارة المارة بالمغرب الأقصى ، فكان ذلك من أسباب العداء العنيف الذي ثار بين صنهاجة الصحراء ، وبين زناتة المغرب الأقصى ، ذلك العداء الذي أدى إلى تدفق الملثمين صوب المغرب الأقصى ، والاستيلاء عليه ، وطردهم الزناتيين إلى المغرب الأوسط ، فكان معنى ذلك أن طريق المغرب الأقصى قد فتح أمام تجارة السودان على مصراعيه ، وأصبحت القبائل الملثمة حرة طليقة ، تستطيع أن تنقل متاجر السودان إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط دون رقيب أو حسيب ، وأن يشتد تدفق متاجر السودان إلى أسواق المغرب ، وأن تقوم في هذه البلاد حركة تجارية نشيطة ، وأن تتضاعف بذلك أرباح الملثمين ويعظم ثراؤهم .

ثم تدفق الملثمون إلى الأندلس على النحو الذي تقدم وتمخض ذلك كله

عن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان ، كما فتحت أسواق المغرب من قبل ، وأصبحت هذه التجارة تستطيع أن تتدفق إلى الأندلس كما طاب لها ، تحميها الدولة وتشد أزرها فادامت بلاد الأندلس أصبحت خاضعة لحكومة مراکش ، وغدت في الواقع مجرد ولاية من الولايات التابعة للمرابطين ، كما أن فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان معناه تهديد الطريق إلى أسواق أوروبا عن طريق موانئ شرق الأندلس ، إذ أصبح بمقدور السفن أن ترد موانئ الشرق وأن تحمل من تجارة المغرب والسودان ما شاء لها أن تحمل .

وكان من أثر هذا النشاط الجلم الذي تمتعت به التجارة في عهد المرابطين أن ظهرت في بلاد السودان والمغرب والأندلس أسواق ذات شهرة طبقت الآفاق ، قصدها تجار العالم من كل صوب ، فقد أصبحت سجلماسة مركزاً من أهم مراكز التجارة عند أطراف الصحراء ، فقصدها التجار من البصرة والكوفة وبغداد ، وكانت تجارتها تحمل إلى الشرق عن طريق موانئ المغرب ، أو تحمل عبر الطريق البري المؤدى إلى إفريقيا^(١) . كما برزت مدينة أودغشت عند الطرف الجنوبي من الصحراء كسوق تجاري عظيم نافست سجلماسة في هذا المضمار ، وحفلت بطائفة من التجار المياسير^(٢) ، وأصبحت تجارة مدينة نول لا تقل عن سجلماسة أو أودغشت ، إذ أضحت سوقاً تجارية عظيمة تمد أسواق المغرب بكثير من السلع الهامة ، فقد كانت تشتهر بصناعة درق اللط ونسيج الكتان والصوف ؛ ولعل مما يدل على أهمية هذه المدينة في ذلك العصر أنها أصبحت داراً لسك النقود بسبب وفرة التبر الذي تجلبه القوافل من بلاد السودان^(٣) .

أما في بلاد الأندلس فقد نهضت مدينة المرية لتنافس أسواق المغرب

(١) Terrasse : Hist. du Maroc, p. 203.

Idem. (٢)

Annales de L'Institut d'Etudes Orient. (Facul. des Lettres (٣)

Univers. Alger, t. II, 1936, p. 186.

في ميدان التجارة الدولية ، قصدتها مراكب التجارة من الإسكندرية والشام^(١) ، « فلم يكن بالأندلس أكثر منها مالا^(٢) » ، بل أصبحت في أيام المثلثين « مدينة الإسلام^(٣) » ، حيث ازدهرت فيها صناعات الحرير وآلات النحاس والحديد ، كما كانت فواكهها تحمل إلى بلاد إفريقية والمغرب^(٤) .

ولعل مما ساعد على ازدهار التجارة الخارجية في عهد المرابطين نمو البحرية المرابطية ، وظهورها في ميدان الصراع الدولي ، حتى أصبحت تنافس جمهوريات إيطاليا ، كما أصبحت تنافس الترمان ، واستطاع المرابطون بعد استيلائهم على موانئ شرق الأندلس وجزر ميورقة ومنورقة أن يسيطروا حمايتهم على الحوض الغربي من البحر المتوسط ، وقام أسطولهم بدور عظيم في تأمين تجارة المغرب الذاهبة إلى الأندلس ، أو إلى الأسواق العالمية الأخرى ، ذلك لأن البحرية القوية كان في مقدورها أن تعلن على القراصنة حرباً شعواء ، فكانت تؤمن الطرق البحرية وتسهر على حراستها .

وهناك عامل آخر ساعد على نمو تجارة المغرب الأقصى وازدهارها ، وهو أن بلاد إفريقية في ذلك العصر منيت بغارات عرب بني هلال ، الذين نشروا الرعب والفرع في البلاد ، وهددوا السبل ، فأصبحت القوافل لا تأمن على نفسها إذا هي سلكت السبل المؤدية إلى موانئ إفريقية ، فتركزت التجارة في بلاد المغرب الأقصى ، وأصبحت القوافل المسافرة بين السودان وبين موانئ البحر الأبيض المتوسط ، لا تكاد تسلك سبيلاً غير هذه السبل التي تحف بالبحر المحيط ، والتي تمر بديار جدالة وملتونة في طريقها إلى إقليم الريف .

(١) الحميري : الروض المطار ص ١٨٤ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

ستطاعت الدولة بعد أن نجحت في التوحيد بين أقاليم المغرب الأقصى أن تقرر الأمن والسكينة في ربوعه ، وأن تسهر على حماية الطرق ، وتأمين المسالك^(١) ، والضرب على يد العابثين بالأمن ، فأمن التجار على أنفسهم ، وأطمأنوا ، وأقبلوا بتجارتهم على أسواق البلاد في طمأنينة وثقة ، خصوصاً وأن الحكومة الجديدة التي نهضت لحماية تراث الإسلام ، وبسط سلطان الدين ، بحياء السنة القويمة ، وبسط لواء العدل والقانون على الناس على سواء قد كسبت ثقة الناس في جميع البلاد^(٢) ، وعرف ملوكها بالأمانة والاستقامة والعدل ، وإذا وثق التجار بحكومة بلد أقبلوا عليه لا يخافون ظلماً ولا يخشون عدواناً .

وهناك عامل آخر كان بعيد الأثر في تشجيع التجارة الداخلية على الخصوص ، هو أن دولة المرابطين قد ألغت المكوس^(٣) التي كانت حكومات زناتة تفرضها على المتاجر التي تسلك أقاليم المغرب الأقصى ، والتي أثقلت بها على الناس ، حتى أدى ذلك إلى كساد سوق التجارة ، وانصرافها عن بلاد مغرب الأقصى ملتزمة بموانئ أخرى ، وكانت الحال في بلاد الأندلس في عهد ملوك الطوائف لا تكاد تختلف عنها في المغرب في عهد دولة زناتة ، ذلك أن ملوك الطوائف أثقلوا على الشعب ، وفرضوا المكوس الجائرة على التجارة الداخلية جباً في المال وجباً

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس من ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق ص ٨٧ ، جذوة الاقتباس ص ٣٤٢ . السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

يقول الأديسي . « وكانت أكثر الصنع عمرا كش متقبلة عليها من لازم مثل سوق الدخان والصابون والمقازل ، وكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدرة . كما أشار البيدق (ص ٦٧) إلى أن المكوس فرضت على التاجر في عهد المرابطين فقال « فأردنا الجوا زفنعونا حتى نعطى المكس وهو المكري ، وقالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا وكذا » ونحن نعرف أن الأديسي كتب بعد سقوط دولة المرابطين ، كما أن البيدق أرخ لفترة الأولى التي أدت إلى قيام دولة الموحدين ، ومعنى هذا أن المكوس قد أعيد فرضها في أواخر عهد المرابطين ، وإلا كيف يستقيم ذلك مع ما ذكره الأمير عبد الله بن بلكين وهو « ماصر » ورفق أنواع القبالات والحراج إلا زكاة العين وصدة الماشية وعشر الزرع » .

في الترف ، وإرضاء لنزواتهم الخاصة ، وقد ألغى المرابطون هذه المكوس في المغرب والأندلس على سواء^(١) . وأصبح في مكتنة التاجر أن يحمل تجارته من إقليم إلى آخر ، لا يخشى إرهاقا ولا عسفاً ما دام يؤدي عن أرباحه ما يفرضه الدين من زكاة . فكان طبيعياً أن تؤدي هذه السياسة الحكيمة إلى التخفيف عن كاهل التجار وتشجيعهم على المغامرة والمخاطرة وارتداد الأسواق عن طيب خاطر ، كما أن شيوع الاستقرار في البلاد ، وانصراف الناس إلى المداوم والطمانينة والإنتاج قد رفع من المستوى المادي لأفراد الشعب ، وليس من شك في أن ارتفاع المستوى المادي للناس يمكنهم من أن يقبلوا على الشراء ، وإذا كثرت الإقبال على الشراء راجت التجارة فلا تتكدس في الأسواق .

ويبدو أن التجارة الدولية في عهد المرابطين بلغت شأواً عظيماً ، وازداد إقبال أوروبا على تجارة المغرب ، وليس أدل على ذلك من شيوع الثقة بالدينار المرابطي ، فطار ذكره في الآفاق : في المغرب ، والأندلس ، والشرق . وليس من شك أيضاً في أن إقبال الناس على نقد الدولة إنما يدل على حسن ثقتهم بها ، كما يدل كذلك على ارتفاع قيمة هذه العملة بسبب كثرة المعاملات والتداول ، حتى لقد قيل إن الدينار المرابطي وصل إلى القسطنطينية ، وكاد أن يصبح عملة دولية ، بل أصاب من الشهرة مثلما أصابه الفلورين عملة مدينة فلورنسا فيما بعد^(٢) .

هذا وقد تضافرت عوامل عدة على زيادة الإنتاج ومضاعفته في الميدانين الزراعي والصناعي ، ذلك لأن الدولة المرابطية حين بسطت ظلها على المغرب الأقصى جميعه قد وحدت بين منطقتي الإنتاج في البلاد ؛ وحدت بين منطقة

(١) المقري : تفج الطيب ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) Lavoix (op. cit.) p. XXX, XXXV.

والفلورين لازال عملة مولده حتى اليوم .

السهول ، وبين منطقة المراعى ، أعنى أنها نظمت العلاقات بين المستقرين أهل السهول ، وبين البدو الضاربين فى الجهات الهضبية أو شبه الصحراوية . وقد أدى وجود هذا التعاون ، وتنظيم هذه العلاقات على هذا النحو إلى شيوع الاستقرار والطمأنينة بين الناس ، والاستقرار والطمأنينة من شأنهما أن يطمئنا الناس على أن ثمرة الجهد لا تضيع عبثاً ، فيعمدون إلى التوفر على الإنتاج ، ينموه ويضاعفونه . وقد عملت الدولة جاهدة على تثبيت دعائم الاستقرار فى المغرب حينما طردت زناتة وشتت جموعها ، وأقامت القلاع والحصون فى ديار المصامدة لترقبهم حتى لا يعيثوا بالأمن والطمأنينة ، أو يغيروا على مواطن الخصب والإنتاج الوفير .

أما فى بلاد الأندلس فقد اطمأن الناس إلى أن الخطر القشتالى قد تضاءل ، وأن النصارى فى الأندلس لم يعودوا بحيث يستطيعون مواصلة سياسة العدوان القديم ، هذه السياسة التى أشاعت فى البلاد جوا من القلق والاضطراب^(١) . كما هدأت الأحوال فى بلاد الأندلس بعد أن قضى المرابطون على ملوك الطوائف وأراحوا البلاد من هذه الفتن والمنازعات ، التى كانت لا تفتأ تثور بين هذه الدويلات المتحاسدة المتباغضة ، فتجعل المجتمع الأندلس كالمحموم فى حالة فزع ورعب دائمين .

وهناك ناحية أخرى عملت على مضاعفة الإنتاج وارتفاع مستوى الرخاء فى البلاد ، ونعنى بها قلة الضرائب المفروضة^(٢) ، ذلك أن المرابطين قد اكتفوا بالزكاة ، وألغوا غيرها من المغارم التى كانت تثقل كاهل الناس فى المغرب والأندلس ، وليس من شك فى أن تخفيف عبء الضريبة على المنتج يساعد على مضاعفة الإنتاج من ناحية ، وعلى زيادة دخل الأفراد ، وبشيع بين الناس لونا من الرخاء والرفاهية .

.Dozy : Hist. de Musul. d'Espagne, vol. IV, p. 258 (١)

Idem (٢)

وقد بلغا المرابطون في الأندلس إلى تطبيق سياسة كانت ذات أثر بعيد في مضاعفة الانتاج ، وانعاش الزراعة في البلاد ، ذلك أن المنصور بن أبي عامر وخلفاؤه عمدوا إلى انتزاع الاقطاعات الزراعية ، التي كانت قد منحت للجند مقابل خدماتهم العسكرية^(١) ، « وكان هؤلاء الجند يستغلونها ويرفقون بالفلاحين يربونهم كما يربي التاجر تجارته ، فكانت الأرض عامرة والأموال وافرة والسكر والصلاح فوق ما يحتاج إليه »^(٢) ، فلما انتزع المنصور هذه الأرض من أصحابها من العسكريين فرض عليها الجباة ، وتولت النولة إدارتها والاشراف عليها ، فلم يحسن الفلاحون معاملة الناس ، بل ساموهم الخسف ، واثقلوا عليهم ، فاضعف انتاجهم ، « فتهاربوا وكفوا عن العبارة فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان وضعفت الأجناد »^(٣) وساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد ، وأمعنت في السوء في عهد ملوك الطوائف بسبب الحروب المستمرة والفتن التي لا تكاد تنقطع ، والضرائب الباهظة التي كانت تقصم ظهور الناس .

فلما آل الأمر إلى المرابطين عادوا إلى السياسة القديمة^(٤) وأقطعوا الجند أرضا يفلحونها ويستثمرونها ، ويستولون على غلتها ، « فن ظهرت مجدته وشجاعته وأعانتته أكرموا بولاية موضع ينتفع بفوائده »^(٥) ، وكانت هذه السياسة الحكيمة بعيدة الأثر في تاريخ الحياة الاقتصادية في البلاد ، فقد أقبل الفلاحون على الأرض التي كانوا قد هجروها ، وأكبوا على السكد والعمل بقلوب مطمئنة ، بعد أن شاع في البلاد الاستقرار والأمن والطمأنينة وخف عبء الضرائب . ولا ندرى أطبق المرابطون هذه السياسة في المغرب ، كما طبقوها في الأندلس أم لا ، ويخيل إلينا أنهم فعلوا بالمغرب مثل ما فعلوه بالأندلس ، واقطعوا جنود

(١) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٥) الحلل الموشية في الأخبار للرا كشية ص ٦٧ .

لمتونه بوجه خاص وجتود المثلثين بوجه عام أرضا يفلحونها وينتفعون بفلتها ،
ويعملون على مضاعفة إنتاجها ، وقد ذكرنا من قبل أن يوسف بن تاشفين أرسل
إلى المتخلفين من قومه بالصحراء يدعوهم إلى الاستقرار بالمغرب ، وكان يقطع
الوافدين منهم إقطاعات يشرفون على إدارتها ، وكان من أثر هذه السياسة
الحكيمة أن تضاعف الإنتاج الزراعي في بلاد المغرب والأندلس .

ويبدو أن الصناعة قد أصابت الازدهار والرواج بقدر ما أصابت الزراعة ،
فقد توفرت للواد الخام ، وتدفقت من أسواق الأندلس والسودان بعد رواج
التجارة وتفاق سوقها . ولا بد أن سعرها قد رخص بسبب كثرة العروض في
الأسواق ، كما أن نشاط التجارة بين موانئ المغرب والأندلس يساعد بدوره على
رواج الصناعة التي أصبح من اليسور تسويقها وتصديرها إلى أسواق الاستهلاك
في الخارج ، فاقبل الصناع على مضاعفة الإنتاج ، وظهرت في المغرب والأندلس
مراكز صناعية ذاع صيتها وارتفع نجمها ، مثل مدينة نول لمطة^(١) التي اشتهرت
بصناعة الجلد والمنسوجات ، ومدينة مراكش التي عرفت بصناعة الصابون
والمنازل^(٢) ، وفاس التي اشتهرت بصناعة الدباغة وتسليك الحديد والنحاس
وصنع الزجاج والكاغد^(٣) ، وكذلك المرية التي اشتهرت بصناعة الحرير
وآلات النحاس والحديد^(٤) ، ويبدو أن تقدم الصناعة ورواجها في أواخر عهد
المرابطين دفع الأمراء إلى التماس المال عن طريق فرض الضرائب على أهل الحرف
والصناعات « فكانت أكثر الصناعات مراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق

(١) Annales des L'institut d'Etudes Orientales (Facultés des
Lettres de L'Université d'Alger) t. II, Année 1935, p. 186

(٢) الأدرسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . ص ٧٠ .

(٣) الجزنائي : زهرة الآس ص ٧٠ .

(٤) الحميري : الروض المعمار ص ١٨٤ .

الدخان والصابون والمغازل فكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل ، كل شيء على قدره^(١) .

ومما ساعد على ارتفاع مستوى الدخل بين الأفراد أن فتح الأندلس فتح آفاقا جديدة أمام أهل المغرب ، فوجدوا فيها ميدانا يظهر فيه تفوقهم ونشاطهم كما فتح ميدان المغرب أمام المجيدين من أهل الأندلس ، ينشرون فيه علمهم وفنهم وثقافتهم ، ويعرضون على الأمراء خبرتهم ومهارتهم ، وقد تجذعت الثروات الضخمة على الخصوص في أيدي اللاتونيين خاصة والمثمنين عامة . فقد كانت يدهم أزمة الأمور جميعها ، وكانت الدولة دولتهم والحكم حكمهم . فقد روى صاحب أزهار الرياض أن أبا بكر بن باجة غنى في حضرة ابن تيفلويت أحد أمراء المثمنين ، فلما سمعه « صاح واطرباه وشق ثيابه وقول ما أحسن ما بدأت وما ختمت وحلف بالإيمان المغلظة ألا يمشی ابن باجة إلى دارة إلا على الذهب »^(٢) فكيف يستطيع مثل هذا الأمير البدوي الصحراوي أن يفعل ذلك إلا بسبب وفرة الثراء وتكديس الأموال .

وقد ظهر أثر المبادئ التي قامت عليها دولة المرابطين واضحا جليا في جانب آخر من جوانب الحياة الاقتصادية في البلاد ، ونعني به السياسة الضريبية للدولة ذلك أن المرابطين وقد التزموا أحكام السنة أحبوا أن يطبقوا أحكامها في الشؤون المالية بدقة متناهية^(٣) ، فكان معنى ذلك إلغاء ما لم يرد به نص في الكتاب أو السنة . وقد كان المجتمع المغربي أو الأندلسي يحفل بألوان متعددة من الضرائب الجائزة ، التي لا يقرها الشرع ، ولا يرضى عنها الذين ، فقد كان ملوك الطوائف بالأندلس وملوك زناته في المغرب يفرضون على الناس المعونة^(٤) ، وهي ضرائب

(١) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ص ٧٠ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩ . أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) ابن النضي : جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام مدينة قاس ص ٣٤٢ .

(٤) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

وقتية يفرضها العامل متى شاء ، وكانت المكوس تفرض على التجارة المارة من مدينة إلى مدينة ومن إقليم إلى إقليم^(١) ، وهناك ألوان شتى من المغارم يسميها عبد الله بن بلكين «مغارم الإقطاع» ، وهي الضرائب التي كان ملوك الطوائف يفرضونها على الناس ، إرضاء لنزواتهم ، وتحقيقاً لشهواتهم ، وأطباعهم . وقد كانت القبالات^(٢) شر أنواع الضرائب ، وكان المتقبل هو شرجبأة المال جميعاً يرميه ابن عبدون بكل نقيصة حين يقول « المتقبل هو شر خلق الله وهو بمنزلة الزنبر الذي خلق للضرر ولا للنفع فهو يجري ويسمى لضرر المسلمين فيجب للقاضي أن يستخافه ويحذله ما يمنع من تصرفه ولا يتركه يتحكم في أموال الناس باختياره على ما يراه أنه صواب »^(٣) .

فلما فتح المرابطون المغرب والأندلس ، ونادوا ببطلان هذه الجبايات الجائرة كان لعملهم ذاك وقع عظيم ، وصدى بعيد الأثر في الحياة ، بل كان إقدامهم على ذلك ثورة بعيدة المدى ، إذ كان معنى ذلك تحرير جمهرة الناس من هذه الأعباء المالية القاسمة ، التي كانت تقصم ظهورهم وتستذلهم وتستنزف أموالهم ، فلا تكاد تبقى في أيديهم ما يمسك الرمح ، فظهر المرابطون في كل مكان حلوا فيه بمظهر المنتقذ^(٤) ، قالتف الناس حولهم طائعين ، بل لانكون مخالين إذا قلنا إن هذه السياسة الاقتصادية الحكيمة كانت من أهم العوامل التي مهدت لهم السبيل ، وفتحت أمامهم أبواب القلاع والحصون على مصاريعها ، فقد ظهر ملوك الطوائف في نظر الناس بمظهر المتعسفين الجائرين ، فلما خلعهم المرابطون ونفوهم تنفس

(١) عبد الله بن بلكين : البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري ص ٢٤٠ .

Al-Andaluse (vol. III, Fasc. 2, Madrid-Granada * 1935, vol. VI Fasc I. 1941

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ .

(٣) ابن عبدون التجيبي : رسالة في الحسبة ص ٢٢٠ .

(٤) Menéndez Pidal : The Cid and his Spain, p. 265 (٤)

الناس الصعداء ، وباركوا مافعله المرابطون ، وكان الفقهاء أول من مهد السبيل حين أفتوا بخلعهم . لم يفرض المرابطون على الناس « إلا ما أمر الله تعالى به وأوجبه حكم الكتاب والسنة^(١) من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة ، وأخماس غنائم المشركين »^(٢) .

ولكن برغم قلة الضرائب على هذا النحو ، ورغم إلغاء هذه الألوان المتعددة من الجبايات غير المشروعة ، فإن الأموال قد تضاعفت ، وتدفقت على بيت المال وانتشر الرخاء ، وعم اليسر ، وأصبح الأمراء في الأندلس وفي المغرب يحيون حياة

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٧ .

(٢) عبد الله بن بلكين ، التبيان ص ١٢٧ . ابن أبي زرع ص ١٠٠ .

والأنواع التي تجب فيها الزكاة خمسة أشياء :

١ — زكاة النقد (الذهب والفضة) وتجب الزكاة فيها إذا بلغا النصاب فنصاب الذهب عشرون مثقالا ونصاب الفضة عشرون مثقالا .

٢ — زكاة السوائم وهي الإبل والغنم فأول نصاب الإبل خمس وفيها شاة وهكذا في كل خمس شاة فإذا بلغ خمس وعشرين ففيها بنت مخاض .

٣ — زكاة عروض التجارة وفيها ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول .

٤ — المعدن والركاز وما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس وما كان في أرض السلم ففيه الزكاة .

٥ — زكاة الزرع أو الثمار وحكم زكاتها هو أنه يجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء .

انظر : حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٧٧ — ٢٨٠ .

أحكام الجزية : فرض الشرع الجزية على كل الأشخاص الذين لو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد وذلك على النحو الآتي :

١ — أغنياء ويؤخذ منهم ٤٨ درهما .

٢ — متوسط الحال ويؤخذ منهم ٢٤ درهما .

٣ — فقراء يكسبون ويؤخذ منهم ١٢ درهما .

٤ — ولا تؤخذ جزية من مسكين يتصدق عليه ولا ممن لا قدره له على العمل ولا من الأعمى ، أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ومن المذهبتين في الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء ولا تجوز إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي .

ميسورة ، يسرفون في بذلهم ، وفي عطائهم ، فيغدقون على الفقهاء والعلماء^(١) وعلى وجوه البر ، ينشئون المساجد ، وينفقون في سبيل الله^(٢) ، وعظم ثراء يوسف ابن تاشفين وكثير ماله ، « فقد جبي من المال على وجهه مالم يجبه أحد من قبل »^(٣) ، فلما مات وجدوا في بيت ماله « ثلاثة عشر ألف ربيع من الورق ، وخمسة آلاف وأربعين ربحاً من دنانير الذهب »^(٤) ، حتى لقد قال يوسف أشباخ إن هذه الثروة الطائلة من الذهب والفضة تقوم بعده ملايين^(٥) .

وهذه في الواقع ظاهرة اقتصادية تحتاج إلى تفسير وتعليل ، وأهل أولى الأسباب التي نسوقها لتفسيرها أن قلة الضرائب مع ضمان تحصيلها خير من كثرتها مع العجز عن الوفاء بها ، إذ لا يجدي أن تفرض الدولة ضرائب جائرة تثقل بها على الناس فيتبرمون بها ، ويعجزون عن سدادها والوفاء بها ، بل الخير كل الخير في أن تفرض ضرائب في حدود طاقة الناس فلا يتبرمون بها ، إنما يدفعونها عن رضى وطيب خاطر . ويبدو أن هذه السياسة قد احتلت من تفكير المرابطين محلاً رفيعاً ، فعنوا عناية فائقة بتحصيل الزكاة والعشور ، وحرصوا على أن لا يفلت منها أحد ، ونجد لهذه الدقة أو لهذه المغالاة في ضمان تحصيل الزكاة والعشور صدى فيما كتبه ابن عبدون في رسالته عن الحسبة يندد بالوسائل التي اتخذها المرابطون في تحصيل أعشار ثمار الزيتون وغيره من المحصولات التي تتوافر في منطقة أشبيلية^(٦) .

(١) ابن الزبير : صلاة الصلوة ص ٨٢ . الديباج المذهب ص ٤٩ . أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) مفاتيح البر ص ٥٣ .

(٣) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ٨٨ .

(٤) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الأبدية ج ٢ ص ٨٩ .

(٥) يوسف أشباخ ج ١ ص ١١٩ .

(٦) E. Lévi-Provençal: Séville Musulmane du début du XII Siecle :

Le Traité d'Ibn Abdun sur la vie Urbain et les corps de métiers, p. XI.

وقد عهد المرابطون إيماناً في ضمان تحصيل هذه الضرائب إلى اليهود في بلاد الأندلس بأعمال الجباية ،^(١) كما جعلوا أعمال الجباية بالمغرب للنصارى المقيمين في البلاد^(٢) ، عمدوا إلى ذلك لأنهم يعلمون أن أمثال هؤلاء يخافون السلطان ويخشون العاقبة ويترددون طويلاً قبل أن يقدموا على التلاعب في هذه الجبايات أو يفرطوا في أداء الواجب .

وكان للمرابطون بدورهم يراقبون عمال الخراج مراقبة دقيقة ، ويشددون النكير عليهم ويحاسبونهم حساباً عسيراً ، ويماقبون المقصر عقاباً صارماً ، فكانوا يحاسبون العمال إذا اعتزلوا الخدمة ، ويعرضونهم لمصادرة الأموال والسجن^(٣) ، إذا رأوا منهم تفریطاً أو تقصيراً . وكانوا يحاسبون ورثة العامل إذا مات ، ويثقلون عليهم ويصادرون تركته للتوفى إذا لزم الأمر . ولعل هذا الخوف من هذا الحساب العسير هو الذى دفع مؤمل عامل الخراج بقرطبة حين حضرته الوفاة إلى أن يحضر ما كان عنده من مال المستخلص ، وأشهد الحاضرين على دفعة ثم أبرأ جميع عماله وكتابه ، لأنه خشى أن يصيب ورثته مكروه إذا مات دون أن يبرىء ذمته^(٤) .

كما يجب ألا ننسى أن الدعوة الدينية التى اضطلعت بها الدولة قد أشاعت في الناس روح الأمانة والنفة ، وكان الأمراء والملوك قدوة للرعية والعمال ، إذا صلحوا واتقوا الله اهتدى الناس بهديهم ، والناس على دين ملوكهم . ولعل أقدام مؤمل عامل الخراج على الأثقال على نفسه ، وهو على فراش الموت ، وحرصه على أن يبرىء ذمته قبل أن يقضى نحبه « ورغبته في ستر أهله وولده وحرصه على أن

(١) أشباح ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) الحميرى : الروض المطار ص ١٩٧ .

(٤) عبد الله بن بلكين : التبيان ص ١٢٩ . (Appendix, II)

يرسل لأمر المسلمين بالمال الذي اكتسبه في دولته»^(١) يعبر عن هذه الروح الجديدة التي فشت بين الولاة والعمال في أول العهد بالدولة .

وقد ترد زيادة الدخل إلى عوامل أخرى ، مثل قلة النفقات مثلاً ، ذلك أن الدولة لم تكن تنفق على الجيش نفقات طائلة ، إذ كان الجند يؤجرون على خدمتهم بإقطاعهم إقطاعات زراعية يستثمرونها ، ويتصرفون في غلتها^(٢) . وكان نصيب الفارس لا يزيد على خمسة دنانير في الشهر بما في ذلك نفقته وعلف فرسه^(٣) ، وكان الجند يعتمدون على نصيبهم من الغنائم اعتماداً عظيماً ، فقد كانت الحرب مستمرة الأوار ، وكان الجهاد في سبيل الله لا ينقطع ، وكانت الغنائم كثيرة ، ولا بد أن سهم الفرد منها كان كبيراً . وقد عمد المرابطون في الأندلس إلى ترك الثغور لمواجهة العدو « في حكم المسلمين الأندلسيين لكونهم أخبر بأحوالها وأدرى ببقاء العدو وشن الغارات ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم »^(٤) ، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تخفيف عبء الدفاع عن الثغور عن كاهل المرابطين .

زد على ذلك أن روحاً من التقشف والزهد قد شاعت بين الأمراء ورجال الدولة — في عهد يوسف على الأقل — وكان أمير المسلمين نفسه « زاهداً في زينة الدنيا متورعاً متقشفاً على ما فتح الله عليه »^(٥) . ذلك أن الانغماس في الترف والانكباب على الملهيات والإغراق فيها ، واصطناع مجالس اللهو والشمير والشراب والمنادمة يدعو إلى كثرة البذل والإنفاق ، واتخاذ البلاط الزاخر بالجوارى والإماء والصقالب والحجباب يكلف الدولة مبالغ طائلة .

(١) عبد الله بن بلسكين : التبيان ص ١٢٩ .

(٢) الطرطوشي : سراج الملوك ص ١٢٣ . الحلل اللوشية ص ٦٧ .

(٣) الحلل اللوشية في الأخبار المراكشية ص ٦٧ .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٥) النادلي : الأشواق ص ١٤٩ . روض القرطاس ص ٨٧ .

٦ — أثر قيام دولة المرابطين في الحياة الاجتماعية :

وقد تمخض قيام الدولة عن نتائج بعيدة الأثر في الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس ، فقد ظهرت طبقة جديدة من المثلثين ، طائفة سيدة حاكمة ذات حول وطول وسلطان ، انتشرت في مدن المغرب وأقاليمه وفي مدن الأندلس وأقاليمه ، يتولون الأعمال ، أو يزاولون التجارة أو الزراعة أو الصناعة ، وقد ظهر صدى ذلك التطور الاجتماعي الخطير في الأندلس بصورة واضحة ، فبعد أن كان البربر أقلية متغطرة لا ينظر إليها أهل البلاد نظره الرضا والارتياح ازداد عددهم وتوافدوا على بلاد الأندلس زرافات ووحدانا ، وأصبحوا أصحاب الدولة والسلطان ، وانتشرت هذه الجاليات المسلمة في المدن والقرى يستعلى أفرادها على أهل البلاد^(١) ، ويحيون حياة تسكاد أن تكون في معزل عن طبقات المجتمع الأخرى . بل إنهم كانوا يأنفون من الخضوع لأحكام القضاء مما جعل أمير المسلمين يكتب إلى أحد القضاة قائلاً « وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تقضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه »^(٢) . لذلك طالب ابن عبدون بأن يتخذ القاضي أعواناً من البربر ممن فهم كلمة مسموعة لدى هذه الجاليات المتغطرة المتعالية^(٣) . كان المثلثون يسرون في الطرقات مرتدين للثم متمنطقين بالسلاح^(٤) ، فيدخلون الرعب والفرع في قلوب السكان الأمنين ، مما جعل ابن عبدون يشترط ألا يسير مثل هؤلاء في الطرقات بسلاحهم ، مخافة أن يعتدوا على أرواح الأمنين ، لأن « البربر قوم إذا غضبوا قتلوا أو جرحوا »^(٥)

(١) التادلي : التشوف ص ١٢٣ .

(٢) الدخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ١٠٦ .

(٣) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ص ٢٠٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٨ . القرى : أزهار الرياض ج ٣ ص ٨٩ .

(٥) المرجع السابق ص ٢١٨ .

وكان أهل الأندلس في الواقع يكرهون المغاربة أشد الكره ، ويعتبرونهم دخلاء^(١) ، وينظرون إليهم نظرتهم إلى البدو الجفاة الغلاظ الذين لا عهد لهم بحضارة ولا مدنية ، كما كان أهل العدو بدورهم يكرهون أهل الأندلس^(٢) ، ويسمونهم بميسم الضعف والتخاذل والجشع . ويبدو أن طائفة الحشم والأتباع كانوا يتشبهون بالمرابطين فيتلثمون ويموهون على الشعب ، ويرتكبون الشرور والآثام ، مما أثار امتعاض الكاتب ابن عبدون فقال « يجب ألا يلثم صنهاجي أولمتوني أو لمطى فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم يلثمون على الناس ويهينونهم ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة بسبب اللثام »^(٣) .

وقد تمخض قيام الدولة أيضاً عن ظهور طبقة جديدة أصبحت ذات حول وطول ونفوذ ، ونعنى بها طبقة الفقهاء والقضاة ورجال الدين . وليس من شك في أن الفقهاء والقضاة موجودون في كل عصر ، وفي كل زمان ، ولكنهم في عهد حكومة المرابطين ظفروا بتنفيذ وسلطان لم يكن لهم من قبل . وقد رأينا كيف أحترم أمراء المسلمين القضاة والفقهاء ، وأنزلوهم من نفوسهم منزلة رفيعة أشركوهم في مجالس الشورى ، واتخذوا بعضهم وزراء ، وشاوروهم في كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد ، قربوهم وأغدقوا عليهم ، ولم يكن يوسف بن تاشفين أو ولده على مجلسان إلا والفقهاء والقضاة يحفون بهم ، ويسرون في ركابهم .

وقد سما قدر القضاة وتمتعوا بسلطان عظيم^(٤) ، حين أعطاهم يوسف بن تاشفين سلطة مطلقة ، وأصبح حكم القاضي نافذاً لا يرد^(٥) . وإذا كان ولي الأمر

E. Lévi-Provencal : Le Traité d'Ibn Abdun sur la vie Urbain (١)
et les corps de metiers, p. 183

Dozy : Abbadidarum vol. II, p. 234 (٢)

(٣) ابن عبدون : رسالة في الحسبة ٢١٨ .

(٤) مشيخة عيَّاس ورقة ٤٩ (ب) .

(٥) النخبة : (م بغداد) قسم ٢ ص ١٠٦ .

قد عامل القصاص على هذا النحو، فلامعجب إذا رأيناهم يتمتعون في الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس بمكان مرموق، قصدهم الناس، ولجأوا إليهم متقربين مستشفعين، بل قصدهم الشعراء مادحين مشيدين بفضلهم، ينتظرون رفدهم وصلاتهم، تكدست في أيديهم الأموال، وأخذوا يعيشون عيشة البذخ والترف^(١).

وقد بلغ من نفوذ القضاة أن حاول أحدهم وهو ابن حدين أن يستقل بملك قرطبة في أواخر العهد المرابطيين، كما حاول فقيه آخر أن يتسلم مقعد عبد الله ابن ياسين، وأن يكون له الإشراف الفعلي على شئون الدولة، يعمل الأمراء بإرشاده ويوحى منه^(٢). أصبح المثلثون من ناحية، والقضاة من ناحية أخرى الطبقة البارزة في المجتمع التي جمعت بين المال والسؤدد والنفوذ.

وقد سبب قيام الدولة ظهور ظاهرة اجتماعية لم تكن مألوفة في المغرب والأندلس من قبل، ونعني بها ظهور المرأة الصنهاجية في المجتمع، ومشاركتها في الحياة العامة، وتمتعها بنوع من الحرية والمساواة لم يكن مألوفاً في ذلك الوقت. وقد سبق أن بينا في الباب الأول كيف أن النظم الاجتماعية لشعب المثلثين تجعل للمرأة مكانة عالية في المجتمع، تتمتع بالمساواة التامة، وتشارك في مجالس القبيلة، تقتنى الثروات، وتطلب العلم، وتمتع في عشيرتها وقبيلتها بسلطة عظيمة^(٣).

فلما نزع المرابطون إلى المغرب والأندلس، واستقروا في المدن والقرى، وصحبوا نساءهم وأولادهم بدأت المرأة الصنهاجية تتمتع في المجتمع الجديد بمثل

(١) المراكشي : المعجب من ١١٠ . الروض المطار . ١٦٢ . أظن أيضاً مشيخة عياض ورقة ٥٠ أو ٦٧ أ . نيل الابتهاج من ١٦٢ .
(٢) السخيرة (قسم ٤ مخطوط) من ١٢٥ .
(٣) Rodd : People of the Viel, p. 168

ما كانت تتمتع به في المجتمع القديم . وقد رأينا كيف أن رينب روج أمير المسلمين يوسف كانت تتمتع بمكانة عظيمة ، وكان زوجها يشركها في مختلف شئون الدولة ويستمتع لنصحها وإرشادها .

ويبدو أن نساء الأمراء والنبلاء والقواد والعمال وغيرهم من الملتزمين كن يتمتعن بسلطة واسعة ونفوذ كبير ، فقد روى أن تيممة بنت يوسف بن تاشفين كانت تطالب العلم ، وتحفظ الشعر ، وتتخذ الموكلين والكتاب ، وتبرز إليهم في غير ما حياء أو خجل ، وتحاسنهم دون أن تجد في ذلك غرامة^(١) . ويظهر أن سفور المرأة أو بروزها لمقابلة الناس لم يكن شيئاً مألوفاً في المجتمع المغربي — على ما نعتقد — فقد روى أن الكاتب الذي لقينته ابنة أمير المسلمين قد بهت فلما نظرت إليه الأميرة ظنت أنه بهت من حسنها الفائق وجمالها ، وظنت أنه يتطلع إليها ويرغب فيها^(٢) فأنشدته .

هي الشمس مسكنها في السما فعز القواد عزاء جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزول^(٣)

وقد بلغ من نفوذ بعض الأميرات الم رابطيات أن قصدهن الشعراء يمدحون وابتقربون ، وجاءهن أصحاب الحاجات يلتمسون الشفاعات ، فقد كتب الشاعر ابن خفاجة إلى الأميرة مريم بنت إبراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبي الطاهر تميم ابن يوسف^(٤) ، ويبدو أن الحجاب الذي كان مألوفاً في أغلب البيئات الإسلامية

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٤) ديوان ابن خفاجة ص ١١٤ .

في ذلك الوقت لم يكن مألوفاً في هذه البيئة الجديدة التي سيطر عليها المرابطون ،
فقد روى المؤرخون أن أميراً من المسلمين يدعى أبا بكر بن إبراهيم دخل على
ابن عمه في خبائه ، وكانت زوجته في موضع تمشط شعرها ، فلم تنسحب من المجلس
أثر قدومه ، بل بقيت في مكانها لا تبرحه^(١) . ومن أسف أن النصوص التي
كان من الممكن أن نستعين بها في إعطاء صورة أوفر حظاً لهذه المكانة الفريدة
التي تمتعت بها المرأة الصنهاجية قليلة جداً ، لا تمسكتنا من أن نوفي هذا الموضوع
الطريف حقه من البحث والدراسة .

مهما يكن من شيء فقد نظر المعاصرون إلى هذه الظاهرة الاجتماعية نظرة
المنكر^(٢) ، واعتبرها بعض المتزمتين من أهل الأندلس والمغرب خروجاً على
التقاليد الدينية والاجتماعية ، وكانت من الأمور التي نقمها الموحدون على المرابطين ،
واستغلوا في النيل منهم والظعن فيهم وتشويه سمعتهم . فقد قيل إن ابن تومرت
المهدي لقي أخت علي بن يوسف بمدينة من مدن المغرب ، وقد خرجت إلى السوق
تمشي سافرة غير مخجبة ، فما زال بها حتى ردها على أعقابها مندداً بمسلكها^(٣) .

وهناك طبقة أخرى من طبقات المجتمع تأثرت بالأوضاع التي تمخضت
عن قيام الدولة ، ونعني بها طبقة أهل الذمة في الأندلس والمغرب ، من النصارى
المعاهدين واليهود ، ذلك أن النصارى المعاهدين كان قد ارتفع شأنهم في بلاد
الأندلس في عهد ملوك الطوائف ، ونبه تذكروهم ، وأصبحوا يتمتعون بحرية قلما
ظفر بها أجدادهم من قبل ، وذلك بسبب الضعف والتخاذل والانقسام الذي
أصاب المجتمع الأندلسي في ذلك العهد ، وما كان من ظهور قوة قشتالة وليون
في عهد القونسو السادس ، الذي عمل على النيل من المسلمين في الأندلس ،

(١) ابن الخطيب : الاطحة ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢) Dozy : Recherches, vol. I, p. 278

Idem (٣)

والتفكيك لملوك الطوائف وإذلالهم . وكان النصارى المعاهدون المنبشون في المدن والقرى في بلاد الأندلس عيون قشتالة ، يكشفون للعدو عن عورات المسلمين ، ويمدون للقوات النصرانية الزاحفة يد المساعدة . وكانت ببلاد الأندلس جاليات يهودية تخدم النصارى والمسلمين على سواء ، لا يعניה إلا الإثراء بأية وسيلة ، كانوا يشتغلون بأعمال الجباية للمسلمين أو للنصارى ، فقد خدموا بنى زيرى لملوك غرناطة ، وكان رسول القونسيو إلى المعتمد واحداً منهم . وكان اليهود قد انتشر في ربوع المغرب الأقصى منذ القدم^(١) ، وقد رأينا كيف أن دين موسى قد انتشر بين ربوع صنهاجة قبل اعتناقها للإسلام ، وبقيت جاليات يهودية كبيرة العدد ، تنزل بمدن المغرب مثل فاس وأنغمات ايلان^(٢) .

ولكن قيام دولة المرابطين وبسط لوائها على المغرب والأندلس قلب هذه الأوضاع رأساً على عقب ، فقد أوقف المرابطون قشتالة وليون عند حدهما ، ووقفوا للقوات الصليبية في البحر والبر بالمرصاد ، وخلصوا ملوك الطوائف ، وبسطوا لواءهم على ما بيد المسلمين من بلاد الأندلس ، فتغيرت أوضاع أهل الذمة تغيراً كبيراً .

ولم يكن من المعقول أن يحتفظ النصارى المعاهدون بهذه المسكنة الرفيعة التي كانوا قد وصلوا إليها . وما دامت الدولة قد رفعت لواء السنة وأعلنت كلمتها كان طبيعياً أن يلتزم المرابطون احكام السنة في معاملة النصارى واليهود على حد سواء^(٣) .

ويبدو أن حال النصارى المعاهدين في الأندلس قد ساء كثيراً في ظل الدولة الجديدة ، إذ يبدو أن المرابطين خيروهم بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية،

(١) De la Chapelle : Esquisse d'une histoire de Shara, Occid. (١)

Année 1930, t ; XI, p. 52

(٢) دائرة المعارف الاسلامية « الطبعة الانجليزية » مادة مهاكش Pierre de Chenival

(٣) ابن أبي زرع : ربوس القرطاس ص ٨٨ .

فمن دخل في الإسلام كان له ما للمسلمين وعليه وما عليهم ، ومن اختار الجزية « دفعها عن يد وهو صاغر » ، ويبدو أن كثيرين من هؤلاء المعاهدين قد ارتضوا دفع الجزية عن طيب خاطر ، هذه الجزية التي أصبحت في الواقع من أهم موارد بيت المال في ذلك العهد^(١) .

ولم يقتصر أمر النصارى على مجرد دفع الجزية ، إذ يروى أن الفقهاء أفتوا بهدم كنيسة المعاهدين بقرناطة ، فأرسل يوسف من هدمها . ويبدو أن الرابطين هدموا كنائس كثيرة كانت للمعاهدين في ديار المسلمين^(٢) ، وليس من شك في أن سيطرة فقهاء مالاك على الشئون العامة في البلاد ، وخضوع الأسراء لأمرهم وعملهم وفق مشورتهم ، قد نشر جواً من التزمت والمبالاة في معاملة أهل الكتاب ، الذين ظلوا دهرأ طويلاً أصحاب جاه ونفوذ . ومن الإسراف أن يقرط دوزي في لوم الرابطين ولوم الفقهاء على موقفهم هذا^(٣) ، فقد نسي أن روح العصر كانت روح جهاد وحرب وعداء مستمر الأوار بين الإسلام والنصرانية . أاججت الحروب الصليبية نار ذلك العداء . وكان نصارى الأندلس أنفسهم لا يكفون عن التنكيل بمن يقع في قبضتهم من المسلمين ، فقد استولى القونسو السادس ملك قشتالة على طليطالة ، وجعل مسجدها الجامع كنيسة برغم تعهده بأن لا يمس عقائد المسلمين أو يتعرض لمساجدهم . وكانت أعمال السيد القمبياطور في بلنسية شاهداً على صدق ما نقول ، فقد أحرق الفقهاء واتهمك حرمة المساجد . ولم يكن من المعقول أن يترفق الرابطون باليهود الذين شربوا من نفس السكاس التي شرب منها النصارى ، وطولبوا باعتناق الإسلام أو دفع الجزية . وقد روى دوزي أن أحد الفقهاء عثر في مخلفات ابن مسرة على حديث منسوب

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد الرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

(٢) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne, vol. IV, p. 255—266

(٣) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne vol. IV, p. 255—266

لرسول صلى الله عليه وسلم يقول بأن اليهود كانوا قد تعهدوا بأن يعتنقوا الإسلام إذا مرت خمسة قرون دون أن يظهر مسيحهم المنتظر^(١) ، فطالب الفقهاء اليهود بالوفاء بالوعد الذي وعد به أجدادهم من قبل . وينحى دوزى باللائمة على المرابطين لأنهم وقفوا من اليهود هذا الموقف^(٢) ، ولكنه يعود فيذكر أن المرابطين ارتضوا أخذ الجزية من اليهود الذين صدوا عن اعتناق الإسلام^(٣) . ولم يكن من المعقول أن يكره المرابطون اليهود على الدخول في الإسلام إكراهاً ، فيخرجوا عن تعاليم السنة القويمة والعقيدة السمحة التي تقول بأن لا إكراه في الدين . ولكن دوزى يسرف في لوم المرابطين لقبولهم الجزية ، وكأنما أراد أن يبقى المرابطون أهل الذمة على حالهم لا يطالبون بإسلام أو بجزية ، إذ يعتقد أن الملتزمين قبلوا الجزية طمعاً في المال ليس إلا^(٤) . ويبدو أن يهود المغرب الأقصى كانوا يقيمون في مدن معينة ، فلم يكن يسمح لهم بدخول مراکش إلا نهائياً ، حرم عليهم البيت فيها ، وإلا تعرضت أموالهم وأرواحهم للخطر^(٥) .

وقد أدى اتساع رقعة الدولة وبسط نفوذها على بلاد الأندلس إلى ظهور عوامل جديدة تركت في الحياة الاجتماعية في الأندلس والمغرب آثاراً واضحة ، بل لا نكون مغالين إذا قلنا إنها كادت تغيرها تغيراً تاماً ، ذلك أن الأموال بدأت تتدفق إلى بيوت المال بسبب اتساع رقعة الدولة وتنوع مواردها^(٦) ، وبدأ الأمراء ينفقون عن سعة ، وأخذ الولاة ينثرون النصارى على الناس ثراً ،

(١) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne vol. IV, p. 255 — 256

Idem (٢)

Idem (٣)

Idem (٤)

(٥) الادريسي : المغرب وأرض السودان ص ٦٩ ..

(٦) Dozy : (op. cit.) vol. IV, p. 261

« فقد روى أن عامل دكالة رغب في أن يقطع أحد الفقهاء إلى صحبته ، فلما أبى الفقيه » ضمن له أن يعطيه ألف دينار ذهب مراكبية»^(١) .

وقد صعب تكديس الأموال على هذه الصورة اندماج هؤلاء الأمراء والسادة في الحياة الاجتماعية في الأندلس ، هذه الحياة التي كانت قد بلغت شأواً عظيماً من الرقي والأبهة في أواخر أيام ملوك الطوائف ، وتآلق نجم الحضارة في الأندلس بصورة لم تكن معهودة من قبل . وقد تفوق أهل الأندلس في الأدب والفن والفلسفة وغيرها من ألوان الحياة العقلية والروحية . فلما فتحت بلاد الأندلس التفت حضارتان أو لونا من ألوان الحياة الاجتماعية : لونا أندلسي رفيع ولونا مغربي صحراوي أقل رقياً وتفوقاً . وكان منطق الأشياء يقضي بأن تتغلب الحياة الأكثر رقياً فتصرع الحياة الأكثر ضعفاً ، وهذا هو ما حدث بالضبط فقد صارت الحياة الأندلسية الرفيعة هذه الحياة الاجتماعية المغربية فتغلبت عليها وأثرت فيها .

غير أن التعاليم التي بثها الإمام عيسى بن ياسين وسار عليها خلفاؤه من الأمراء خلقت جيلاً من الولاة حديثي عهد بحياة الصحراء البسيطة الخشنة غير المتكلفة ، وحديثي عهد بحركة الزهد والتقشف التي بثها ابن ياسين وخلفاؤه من بعده^(٢) . وقد استطاع هذا الجيل الصالح أن يقاوم مؤثرات المال الوفير والحياة الأندلسية الراقية ، وظلوا في عهد يوسف بن تاشفين قدوة صالحة للأمراء المتزهدين والعزوفين عن متع الحياة ، مثل سير بن أبي بكر وأبي عبد الله ابن عائشة « الذي لم يكن من قواد يوسف مثله بأساً وجداً في نصرة الدين واستبصاراً في أداء الطاعة»^(٣) .

(١) ابن فرحون : الديباج الذهب من ٤٩ . السعادة الأبدية ج ٢ من ١٢٣ .

(٢) Dozy : (op. cit.) vol. IV, p. 261

(٣) ابن الأبار : التكملة ج ١ من ٥٥ .

ولكن هذه المؤثرات لم تستطع أن تصمد طويلا بعد وفاة يوسف ، إذ تغلبت الحياة الأندلسية بمتعتها وبهيجتها ومسررتها ، ولم يكن من الممكن أن يقاوم المرابطون هذه المتع طويلا ، فقد عاشوا في ظلها وانغمسوا في لجنها ، واضطروا أن يعيشوا كما كان الناس يعيشون في الأندلس . ظهرت هذه المؤثرات الجديدة في أوائل عهد علي بن يوسف ، فلم يكن هذا الأمير الذي ولد في محبوبحة العز والترف متقشفا كآبيه ، ولم يكن من الممكن أن يكون كذلك ، وهو الذي ولد في حجر العز والسلطان ؛ كان إذا رحل إلى الأندلس نزل بأشبيلية في عرش غاية في الحسن والجمال ، وصفه الفتح بن خاقان أبلغ وصف ، فقال « خرجت بأشبيلية مشيعا لأحد الزعماء المرابطين فلما انصرفنا مال بنا إلى معرش أمير المسلمين ، أدام الله تأييده . الذي ينزل به عند حويل أشبيلية وهو موضع مستبعد كان الحسن فيه مودع ما شئت من نهر ينساب انسياب الأرقام وروض كما وشت البروديد راقم وزهر يحسد الماء رياه ويتمنى الصبح أن يسم به بحياه »^(١) .

في هذا القصر الجميل الوارف الظل كان ينزل أمير المسلمين كلما حل بالأندلس ، فيستمتع بطايب هذه الحياة الأندلسية الرفيعة ، فلم يكن بدعا أن ينسج الأمراء والقواد على منواله ، وأن يعيشوا في مقاطعاتهم عيشة رقيقة مترفة ، فيها رخاء ، وفيها متعة ، فتأنقوا في المأكول والملبس ، واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنين والندماء ، وبدأوا يحبون حياة لا تسكاد تختلف عن الحياة التي كان ملوك الطوائف يحنونها^(٢) ، فروى المقرئ أن أبا بكر بن الروح الأشبيلي مدح الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وكان يدل عليه ويناديه بقصيدة طامها :
أنا شاعر الدنيا وأنت أميرها فمالي لا يسرى إلى سرورها^(٣)

(١) الفتح بن خاقان : ثلاثت العقبان ص ١١٩ .

(٢) Dozy : Hist. des Musul. d'Espagne, vol. IV, p. 261

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ١١٦ . المقرئ : شرح الطيب ج ٢ ص ١٠٢٧ .

وكانوا أيضا يستمعون إلى المغنين ويجالسونهم ويطربون لشعرهم وغنائهم ،
فقد جالس أبو بكر بن باجة ابن تيفلويت صاحب سرقسطة ، فالتقى على بعض
قيانة موشحة أولها :

جرر الذيل أيما جر

فطرب الممدوح لذلك وختمها بقوله :

عقد الله النصر لأمير العلاء أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت ضاح واطرباه وشق ثيابه وقال
ما أحسن ما بدأت وما ختمت^(١) . وهذه الرواية تصور لنا تصويرا صادقا لونا
من هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة التي كان يحياها الأمراء في الأندلس ، والتي
وضعت فيها المؤثرات الأندلسية أتم وضوح .

ويبدو أن الحياة الاجتماعية في المغرب قد أصابت من هذه المؤثرات الشيء
الكثير ، فقد كان الأدباء والشعراء والمغنون يعبرون البحر إلى العدو ، ويلبسون
بفاس أو تلمسان أو مراکش وغيرها ، يمدحون الأمراء ، ويجالسونهم ، ويتغنون
بمحمدهم . وليس يبعد أن أمراء المغرب كانوا يحبون مثل هذه الحياة المترفة ،
وخصوصا أن الدولة كانت تنقل أمراء الأندلس إلى المغرب ، وأمراء المغرب
إلى الأندلس ، وكان الأمير المنقول إلى المغرب يصحب بظافته ووزرائه وكتابه .
وقد اتخذ الأمراء القصور الحسان^(٢) ، وتقن فنانون الأندلس في بنائها وزخرفتها ،
وبدت مراکش في أواخر العهد المرابطيين زاخرة بهذه الحياة المترفة الرفيعة ،
وانتشرت بها قصور الأمراء والقواد وخدام الدولة^(٣) ، وكلما أمعنت الدولة في

(١) المقرئ : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٢) التادلي : التشوف ص ١٢٣ .

(٣) الادريسي : المغرب وأرض السودان والأندلس ص ٦٨ .

الترف كلما تناست رسالتها ، واطرحت المثل التي وضعها عبد الله بن ياسين ، فذكر البيدق «أن الحوانيت كانت مملوءة دفوفاً وقرقر ومزامير وعيدانا وأريية وكتارات وجميع اللهو»^(١) .

* * *

٧ — أثر قيام دولة المرابطين في حضارة المغرب والأندلس :

أما الآثار التي خلفها قيام الدولة في حضارة المغرب والأندلس فقد كانت عظيمة حقاً . إذ تركت أثارا واضحة في الحياة الثقافية في المغرب والأندلس ، وفي الفن الأندلسي المغربي ، وقبل أن نعرض لهذه النتائج ، نتلمس صدى هذه التأثيرات في الميدان الحضاري ، يجب علينا أن نعرض الاتجاهات التي خلفها قيام الدولة ، هذه الاتجاهات التي كانت بمثابة حجر الزاوية في هذا الصرح الحضاري المنيف ، الذي شيده المرابطون ، سواء في المغرب أو في الأندلس .

فقد تمخض قيام الدولة عن توحيد المغربين الأوسط والأقصى وظهورهما في عالم شمال أفريقية بمظهر القوى المتماسك ، وكان نمو قوة المرابطين وظهورهم بهذا المظهر القوى الرائع عاملاً عظيماً في وقف توسع عرب بني هلال ، والحيولة بينهم وبين التدفق إلى المغرب الأوسط ، وتهديد المغرب الأقصى . فقد عرفنا كيف استطاع عرب بني هلال أن ينالوا من دولة بني زيري ، ويهزموا صنهاجة بقيادة المعز بن باديس^(٢) ، وأن يدكوا صرح القيروان ، وأن يعيشوا في أفريقية فساداً ، يغيرون على المدن الزاهرة ، ويحملون علم الدمار والخراب في طول البلاد وعرضها^(٣) .

(١) أبو بكر الصنهاجي ، البيدق : أخبار المهدي ابن تومرت ص ٦٥ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٩ .

فلما استقر هؤلاء العرب في إفريقية يتابعون هذه السبسة الحقاء ، تفرق علماء إفريقية أيدي سبا ، وانتهت القيروان كجامعة ذات شأن في الحياة الثقافية في المغرب و لأندلس^(١) ، هذه الجامعة التي شذ إليها المغاربة والمشاركة الرحال ، ونهلوا من عسها ما طاب لهم ، وظلت تغذي الحياة الثقافية في العالم الإسلامي طيلة أربعة قرون . وقد أقفرت مدارس القيروان بعد غارات عرب بني هلال ، ونجا العلماء من مدن إفريقية بعلمهم وفهمهم ، وتركوا إفريقية نهبا للعرب يعيشون فيها كيف شاءوا^(٢) . وكان طبيعيا أن يعتصم هؤلاء العلماء ببقليم بعيد عن متناول هؤلاء العرب حيث يستطيعون أن يؤدوا رسالتهم ، ويتابعوا نشاطهم الثقافي ، فالتجأ أغلبهم إلى مدارس المغرب الأقصى ، إلى فاس وسبتة وطنجة وأغوات وتلمسان ، فكان أن نكبة القيروان ، وكارثة الحضارة في إفريقية قد عملت على تفوق مدارس المغرب الأقصى ، وبروزها في ميدان الحضارة ، وتآلق نجمها في عالم الثقافة .

وفي هذه الآونة بالذات أسدى المرابطون للحضارة يدأ طولى ؛ ومكنوا للمدارس المغرب الأقصى وعلمائها من متابعة الرسالة المقدسة بعيدين عن كل ما يهددهم أو يقطع عليهم جهودهم الموفقة ، فقد وقف المرابطون للعرب بالمرصاد ، وحموا المغرب الأوسط والأقصى من شرهم ، وحينما راح بنو حماد الدين تنكروا لتراث قبيلتهم وخانوا بني عمومهم يجمعون الأعراب ويؤلبونهم ، ويحسدونهم للإغارة على المغرب الأوسط ، وطعن المرابطين من الخلف ، وهم في معركة الجهاد ، وقف لهم يوسف بن تاشفين بالمرصاد ، وشحن المغرب الأوسط والأقصى بالمقاتلة والسلاح ، وفوت على بني حماد غرضهم^(٣) ، وحال بين الأعراب وبين العبث

(١) سوري : نهاية العرب ج ٢٢ ص ١٤٨ .

(٢) ادباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) القتيع بن خاقان : القلائد ص ١٠٦ .

بالمغرب الأقصى ، كما عبثوا بإفريقية من قبل ، وبذلك صان المرابطون تراث الحضارة ، وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء ، وأخذت مدارس المغرب الأقصى في كنفهم يزداد تفوقها ، ويتألق نجمها حتى لقد قيل إن جامعة فاس ، ورثت تقاليد القيروان ، وخلقتها في مضمار الثقافة الإسلامية .

إلى جانب ذلك كله عمل المرابطون على إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، وأوجدوا نوعاً من التعاون بين طبقات السكان ، ووجهوا المجتمع كله صوب معركة الجهاد ، فنامت الفتنة ، وشاع الأمن . والطمانينة في ربوع البلاد^(١) ، وانصرف الناس إلى الانتاج المادي ، وتقدمت الزراعة والصناعة ، وراج سوق التجارة ، وارتفع مستوى الدخل بين جمهرة أهل البلاد . وليس من شك في أن الاستقرار إذا اقترن بالرخاء كان من أهم الأسباب التي تمكن للحضارة من أن يذكو نباتها وتنضج ثمارها ، إذ ينصرف العلماء إلى أداء رسالتهم السامية في هدوء وطمانينة وأناة . نعم صان المرابطون تراث الحضارة في المغرب بسبب هذه السياسة الإصلاحية العظيمة التي وضع أساسها يوسف بن تاشفين حين أوصى ولده . « ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة^(٢) » .

أما تدفق المرابطين إلى الأندلس فقد أنقذها مما كانت تعانيه من فوضى واضطراب وعدم استقرار ، فقد كان المجتمع الأندلسي في ظل ملوك الطوائف مجتمعاً عزت فيه الطمانينة وعدم الاستقرار ، وأصبحت هذه الفتن المتتأججة التي كانت تتزايد باستمرار لا تطمئن العلماء على أنفسهم ، فتتجهن مضاجعهم ، وتؤرقهم ، وتدفعهم إلى الهجرة بأنفسهم وعليهم فراراً من هذا الاضطراب والفساد .

(١) ابن أبي زرع : روض القرطاس ص ١٠٠ .

(٢) الحلل الموضية في الأخبار المراكشية ص ٦٧ .

وهناك أمر آخر كان له شأن وأى شأن في تشجيع الحياة الثقافية والفنية في ذلك العصر ، هو أن القبائل التي أقامت الدولة لم تكن قبائل هدم إنما كانت قبائل بناء . كانوا بدوا مافي ذلك شك ، ولكنهم كانوا من ذلك الصنف من البدو الذي يغير لا ليخرب ويدمر ، ولكن ليقوم ويصلح ، وقد سبق أن أشرنا في الباب الأول إلى أن هذه القبائل كانت قبائل قبل تدفقها صوب المغرب ذات تراث حضارى قديم ، وأن البيئة هيأتها لتعاب في تاريخ الحضارة دوراً عظيماً ، وعقدنا مقارنة بين صنهاجة وبين زناتة ، أو بين صنهاجة وبين عرب بني هلال ، ولسنا في حاجة إلى أن نوضح الفرق بين عهدين متباينين : عهد سادت فيه زناته فعائت وأفسدت ونهبت ، وعهد استظل بظل صنهاجة فاستقر واطمأن وهذا تألق نجم ثقافته وفنه ، وهذا أمر بعيد الأثر في تاريخ الحضارة في ذلك العهد يجب أن لا نقلل من أثره أو نقص من شأنه ، فالفرق واضح بين البدو الذين يهدمون ويخربون وبين البدو الذين يصلحون ويبننون كالفرق بين المغول والعرب مثلاً .

وهناك عامل آخر أبرزه تدفق المرابطين صوب الأندلس ، فقد وحدوا بين العدوتين ، و بسطوا ظلهم على القطرين ، وكان هذا التوحيد ذا أثر عظيم في تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية ، إذ أن معناه اختلاط اللوثرات المغربية بالموثرات الأندلسية ، واختلاط حضارة راقية بحضارة أقل رقياً وازدهاراً^(١) ، وسوف يتمخض هذا المزج بين الحضارتين عن تألق نجم الثقافة والقتن في المغرب^(٢) .

لا نستطيع أن ننكر أن للغاربة ورد واموارد الأندلس قبل عهد المرابطين ، ولا نستطيع أن ننكر أيضاً أن اللوثرات الأندلسية تدفقت إلى المغرب في عهد سيادة الأمويين ، وبعد سقوط الخلافة ، ولكن الحقيقة التي يجب أن تظل

(١) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 251—252

Idem (٢)

مائلة في الأذهان هي أن المؤثرات الأندلسية قد انتشرت في إقليم الساحل ، هذا الإقليم الزراعي الذي انتشرت فيه المدن ذات الماضي المجيد في تاريخ الحضارة الإسلامية مثل فاس ، ولكن هذه التأثيرات ظلت في عصور الاضطراب والفن لا تكاد تتخطى هذا النطاق إلى الجنوب^(١) . فقد اشتد الصراع بين المستقرين والبدو ، وعدم التعاون بين إقليم السهول وإقليم المراعي ، وأصبح هذا التباين بين قسمي المغرب الأقصى عقبة تحول بين المؤثرات الأندلسية ، وبين أن تعم المغرب الأقصى كله ، فلما بسط المرابطون لواءهم على المغرب كله ، وأضافوا إليه الأندلس انطلقت المؤثرات الأندلسية تعم البلاد دون أن تعترضها عقبة ، أوقف في طريقها عائق ، بل استطاعت هذه المؤثرات المغربية الأندلسية أن تتخطى نطاق جبل درن في الجنوب موزغة في إقليم الصحراء . كان المرابطون إذن حلقة اتصال في تاريخ الحضارة بين عدين : عهد ملوك الطوائف ، وعهد الموحدين ، فمهدوا السبيل أمام عصر الموحدين الزاخر بعلمه وفنه وحضارته^(٢) . وأقام الموحدون صرح مدارسهم وثقافتهم على الأسس التي بنها المرابطون ، وأقادوا من العوامل التي شجعها المرابطون وشدوا أزرها .

وقد وجدت هذه المؤثرات الأندلسية الراقية من يشجعها ويشد أزرها ، فقد عمل ملوك المرابطين وأماؤهم على تشجيع هذه المؤثرات ، وشد أزرها العلماء بكل سبيل ، فقد استقدم علي بن يوسف منهم طائفة ممتازة جاءوا إلى مراکش قاستكتبهم أو استوزرهم ، ومهد لهم السبيل ليشيعوا في البلاد هذه الألوان الأندلسية في الفن والأدب^(٣) . وكان الفنانون والصناع من أهل الأندلس

(١) Terrasse : Histoire du Maroc, p. 251—252

(٢) Marçais : Manuel d'Art Musul. voi. 1, p. 300—301

(٣) ابن بشكوال : الصلة ص ١٢٥ . القرى : أزهار الريس ج ٣ ص ١٦٠ ، ابن القاضي

جذوة الاقتباس ص ١٥٩ .

يلقون من ملوك المرابطين وأمرائهم الشيء الكثير من الحماية والتشجيع والتعظيم^(١)، وكان الملوك يستقدمون أعلام الفقهاء والعلماء لتأديب بنينهم^(٢)، وحضور مجالس مشورتهم، وتعليم أهل المغرب وتأديبهم، « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمرته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس وصرف عنايته إلى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك »، كما كان المرابطون يشجعون الأطباء والفلاسفة^(٣)، وكان كل أمير أو قائد يقلد أمير المسلمين في تشجيعه للعلم والعلماء، اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا الفقهاء والعلماء والفلاسفة^(٤) واغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة، وعملوا على استقدام جلة العلماء من أهل الأندلس^(٥). وقد صور ابن خلدون ذلك كله أصدق تصوير حين قال « وأما إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الله ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلوات في بواديهم وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم، ما يدل على رسوخ إيمانهم وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكا لعزمهم ومقاما إلى سلطانهم وملسكهم^(٦) ».

وتصور كتب الطبقات هذه العلاقات التي نشأت بين الغرب والأندلس، والتي توثقت في عهد المرابطين فتتحدث في أسهاب عن أهل المغرب الذين وفدوا على الأندلس، وألوم بمدارسة، وجلسوا إلى فقهاء وعلمائه، وأدبائه وشعرائه

(١) Marçais : Manuel d'Art Musul., vol. I, p. 301

(٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤١ . جذوة الإقتباس ص ٦٩ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٥ و ج ٢ ص ٩٢٥ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) ابن بشكوال : ص ٥٤٨ ، السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٣ .

(٦) ابن خلدون ج ٦ ص ١٠٥ .

وعادوا إلى بلادهم بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس . وتتحدث كتب الطبقات أيضاً^(١) عن أعلام الفكر من أهل الأندلس ، ورحيلهم إلى المغرب ، وإلزامهم بمدنه وإحاطة الطلاب بهم يروون عنهم ، ويأخذون منهم ، ويتعلمون على أيديهم ، يمهّد لهم الأسراء السبيل ، ويحوظونهم بالرعاية والتكريم^(٢) . أنعجب بعد هذا كله إذا كانت مدارس الثقافة في المغرب والأندلس قد تألق نجمها في البلاد ، وطار ذكرها في الآفاق .

وإذا أردنا أن نعطي صورة واضحة للحياة الثقافية في عهد المرابطين فلا بد من الرجوع إلى كتب الطبقات ، فهي المراجع التي تؤرخ للنهضة الثقافية ، وتتحدث عن المدارس المنبثقة في البلاد ، وتتناول العلماء ، وترجم لهم ، وتكشف عن آثارهم العلمية وتعرف بهم ، وتفصل أمر شيوخهم ، وتعرض لمذاهبهم ، ولبن ورد مناهلهم ، وتتلذذ عليهم . ومن حسن الحظ أن أغلب هذه المراجع قد ألفت بعد سقوط دولة المرابطين^(٣) . فلم يتأثر أصحابها بما يتأثر به المعاصرون عادة من تملق القائمين بالأمر ، أو تعتمد المبالغة طمعاً في التقرب من السلطان ، أو إخفاء الحقائق خوفاً من بطش ولي الأمر ونقمته . نستطيع إذن أن نعتمد على ما كتبه المؤرخون المتأخرون لأنهم كتبوا مجردين عن الهوى ، ملتزمين بجادة الحق فهم يبينون ما للدولة وما عليها .

ومن الغريب أن ترسم كتب الطبقات لعصر المرابطين صورة زاهية وتبرزه للناس عصراً حافلاً بالحركة والحياة ، يفيض بالعلماء الثقات المتفرغين لدراسة كل

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٥٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٩٦ و ٢٥٠ و ٢٩٠ و ٢٨٣ و ٣٨٤ و ج ٢ ص ٥٣٠ . ابن بشكوال ص ٢٩٢ . المطرب لابن دحية ورقة ٣٤ (أ) . الرقبة العليا ص ١٠١ . صلة الصلة لابن الزبير ص ٥٣ .

(٢) الذخيرة (قسم ٤ مخطوط) ص ١٢٥ . التشوف ص ١١٧ . ابن الأبار ج ١

ص ٥٠ .

(٣) التكملة لابن الأبار والصلة لابن بشكوال والمراقبة العليا للتباي وغيرهم —

لون من ألوان الحياة العقلية ، وتكاد تحس من ثنايا ما يكتبون مقدار ما أسدته هذه الدولة للثقافة الإسلامية في المغرب من خدمات جليلة ، حتى بدأ علماء المغرب والأندلس ينافسون علماء المشرق في هذا المضمار ، ويتفوقون عليهم في كثير من النواحي^(١) . فقد تتلمذ المغرب على المشرق دهرا طويلا ، وظلت أمهات الكتب التي ألفها المشارقة تدرس في مدارس الأندلس والمغرب ، يفسرها الأساتذة ويرويها الطلاب ، حتى إذا تمكن المغرب من نفسه ، وزخرت مدارس بالحياة واطمأن إلى مقدرته بدأ يخرج ألوانا أندلسية مغربية تفوق ما عرف من الألوان المشرقية . بدأ التفوق في الشعروفي النثروفي الفلسفة والطب وعلوم الحديث والقرآن واضحا جلليا .

وأول ما تكشف كتب الطبقات النقاب عنه هذه المدارس الثقافية المتعددة التي انتشرت في بلاد المغرب والأندلس في عهد المرابطين ، وبعض هذه المدارس قديم النشأة ، وبعضها حديث أسس في ذلك العصر بالذات ، ولكن المؤرخين أجمعوا على أن المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت في هذا العصر تفوقا ظاهرا . ومن أهم المدارس مدرسة قاس التي بلغت في عهد المرابطين والموحدين من بعدهم « من الغبطة والرفاهية والدعة والأمن مالم تألفه مدينة من مدن المغرب »^(٢) . قصدها العلماء من الأندلس وأفريقية . ومن مدارس المغرب الأقصى أيضا مدرسة سبته^(٣) ، التي تقع على مضيق جبل طارق ، فتتلقى المؤثرات الأندلسية والمغربية على سواء ، وقد أنجبت عالما فذا من أعلام عصر المرابطين هو القاضي عياض اليعصبى ؛ وانتشرت المدارس أيضا بطنجة^(٤) ، وأغمات^(٥) ، وسجلماسة^(٦)

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) الجزنائي : زهرة الأس ص ٣٣ .

(٣) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) ابن الأبار : ج ١ ص ٣٨٣ .

(٥) ازهار الرياض : ج ٣ ص ٦١ .

(٦) ابن الأبار : ج ١ ص ٣٨٣ .

وتلمسان^(١)، ويبدو أن مدرسة براكش^(٢)، وهي حديثة النشأة قد تفوقت
تفوقاً ظاهراً، فقد كانت حاضرة الدولة، ومقر السلطان، وكعبة القصاد، وقد
إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريباً من الأمراء، فينالوا رفدهم وعطاءهم.
ويبدو أن مدارس الأندلس قد نهضت نهضة موفقة في عهد المرابطين،
بعد أن اطمأن العلماء وهدأوا، واستقرت أحوالهم. ومن أهم مدارس الأندلس
مدرسة قرطبة^(٣)، ومن أعلامها في عصر الموحدين الفيلسوف ابن رشد، كما
ازدهرت مدارس مرسية^(٤) والمرية^(٥)، ودانية^(٦)، واشبيلية^(٧)، وبلنسية^(٨)
وطرطوشة^(٩)، وغرناطة^(١٠)، وبطليوس^(١١)، وشاطبة^(١٢)، وسرقطة^(١٣)،
وشلب^(١٤).

ولم تتحدث كتب الطبقات عن المدارس فحسب، بل عرضت للعلماء من
كل فن فعددت مناقبهم، وبينت مكاتبتهم من العلم، فذكرت مشايخهم ومن
أخذ عنهم من الطلاب، وكشفت النقاب عن تفوق علم الفقه والرواية والحديث

-
- (١) ابن الأبار ج ١ ص ٣٢١ .
 - (٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٤٩ .
 - (٣) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٨٨ .
 - (٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .
 - (٥) ابن خير : الفهرسة ص ٩١ .
 - (٦) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٨٩ .
 - (٧) ابن خير : الفهرسة ص ١٢١ .
 - (٨) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٩٣ .
 - (٩) المرجع السابق والصفحة نفسها .
 - (١٠) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٩ .
 - (١١) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٢٤ .
 - (١٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٩٧ .
 - (١٣) ابن الزبير : صلة الصلة ص ٨٢ .
 - (١٤) المرجع السابق ص ٩٩ .

في ذلك العصر تفوقا عظيما ، وقد برع من العلماء في هذه الناحية علمان من أعلام مدارس الأندلس : هما أبو علي الصديقي^(١) ، وأبو علي الغساني^(٢) . كان الصديقي يروي السنن لأبي داود ، والدارقطني ، وجامع الترمذي ، وتاريخ البخاري ، ورياض المتعتمدين لأبي نعيم ، كما كان « دينا فاضلا معنيا بعلم وسماعة وكتب بخطه على وقته علما كثيرا »^(٣) . أما الغساني فقد انفرد بالإمامة بعد وفاة الصديقي « فكان آخر المسندين بقرطبة ، واضبط الناس وكثر الراحلون إليه »^(٤) . وبرز في هذا الميدان أيضا أبو العباس الخزري ، وأبو الوليد الباجي ، وأبو جعفر ابن حجر وأبو عامر بن حبيب ، وأبو عمران بن أبي تليد ، وأبو بحر الأسدي ، وأبو العباس بن ذروة^(٥) . أما القاضي عياض فقد تألق نجمه في أوائل القرن السادس الهجري ، وأصبح من أعلام مدرسة سبته وجلة فقهائها . تعلم بالأندلس وتعلم على شيوخها الثقات حتى أصبح « من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم »^(٦) . وإذا تحدثنا عن الفقه فيجب ألا يفوتنا ذكر أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد ، فقد كان فقيها عالما حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره ، وكان من أقطاب مذهب مالك بالأندلس ، وقد برع في علم الفرائض والأصول ، وألف كتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل ، واختصار للبسطة ، واختصار لمشكل الآثار للطحاوي^(٧) ، وكان محمد بن حيدره المعافري خاتمة الحفاظ بالأندلس ، وأعرفهم

(١) ابن الأبار ج ١ ص ٨٩ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٨٩ .

(٤) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٧٨ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٦٩ .

(٦) النباهي : المرقبة العياص ١٠١ .

(٧) المرجع السابق ٩٨ - ٩٩ .

بعلمه ، وأكثر المبرزين في صناعته ، ومعرفته معانيه وحفظ أسمائه^(١) ، ومن تألق
نجمه في الفقه والحديث كما تألق في الأدب والبلاغة الوزير أبو عبد الله محمد بن
مسعود بن فرج بن خلسة أبي الخصال الغافقي . فقد ألف كتاب المنهج في معارضة
المبهم ، وكتاب ظل الغمامة وطوق الإمامة في مناقب من خصه رسول الله
صلى الله عليه وسلم من صحابته بالكرامة ، وكان الناس يروون جميع كتبه
وكلامه من منشور ومنظوم وخطب^(٢) .

أما علوم العربية فقد نفقت سوقها ، وراجت بضاعتها ، وظهرت في بلاد
الأندلس في ذلك العهد طائفة من الكتاب المجيدين برعوا في الكتابة وأحاطوا
بأسرار اللغة ، فتهاوت عليهم الملوك والرؤساء ، يستخدمونهم في دواوين الإنشاء
« يجمعون إلى براعة الفقهاء براعة الشعراء النبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين
ويتكلمون بالسنة المجيدين^(٣) » . ومن أئمة هؤلاء الكتاب الأعلام والأدباء الثقات
عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد المعافري ، ومحمد بن سليمان الكلاعي
المعروف بابن القصيرة « رأس أهل البلاغة في وقته من أهل الأدب البارع
والتميز في أنواع العلم^(٤) » ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن السقاط^(٥) ، وعبد الملك
ابن أبي الخصال^(٦) ، وعبد العزيز بن سعيد بن القبطورية^(٧) ، ومحمد بن عيسى
ابن محمد اللخمي المعروف بابن اللبابة « كان من جلة الأدباء وقول الشعراء
واسع الذرع غزير الأدب قوى العارضة متصرفا في البلاغة^(٨) » ، ألف كتاباً

(١) ابن الأبار : السكلة ج ١ ص ٩٤ .

(٢) ابن خير : الفهرسة ص ٣٨٦ و ٤٥٠ .

(٣) النخبة : قسم ٤ « مخطوط » ص ١٢٥ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٥١٢ .

(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١٥٩ .

(٦) جذوة الاقتباس ص ٢٧٢ .

(٧) ابن الأبار : السكلة ج ٢ ص ٦٢٤ .

(٨) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٥ .

تناولها الناس مثل كتاب مناقب الفتنه ، وكتاب نظم السلوك في وعظ الملوك ،
وكتاب سقيط الدرر ولبقيط الزهر^(١) ، ومن هؤلاء أيضاً إبراهيم بن يحيى بن محمد
ابن ينق^(٢) ، وجعفر بن إبراهيم المعافى المعروف بالفتح ابن خاقان صاحب
كتاب قلائد العقيان^(٣) ، ويحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى بن الصيرفى
المؤرخ^(٤) .

وقد برع في علوم اللغة طائفة من الأساتذة الاعلام مثل أحمد بن عبد
الجليل بن عبد الله التدميرى^(٥) ، ومحمد بن أغلب بن أبي الدوس^(٦) ، ومحمد
ابن حسين بن محمد بن غريب الانصارى^(٧) ، وعبد المجيد بن عبدون الفهرى
اليابرى^(٨) ، أما علوم النحو فقد برع فيها محمد بن حكم بن محمد بن باقى
الجزائى^(٩) ، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خاطب بن زاهر الباجى
الأندلسى^(١٠) .

أما في ميدان الشعر فقد تحدثت كتب الطبقات عن طائفة من الشعراء
الفحول الذين تألقوا في سماء ذلك العصر ؛ مثل إبراهيم بن أبي الفتح
بن عبيد الله بن خفاجة الهوارى الشاعر^(١١) ، صاحب الديوان المعروف الذى

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٦٧ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٦٩ .

(٤) ابن الزبير : صلة الصلة ص ١٨٣ .

(٥) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٨ .

(٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٥٦ .

(٧) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ١٤٦ .

(٨) الذخيرة (م : بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٤ ، مشيخة عياض ورقة ٥٧ (أ) .

(٩) ابن دحية : المطرب ورقة ٣٤ (أ) . بنية الوعاة للسيوطى ص ٣٩ .

(١٠) السيوطى : بنية الوعاة ص ١٦١ .

(١١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٥٩ .

مجد أمراء المرابطين ومدحهم وتنفي بشائهم ونال رفدهم وعطاءهم . وقد تفوق
فن الموشحات في عصر المرابطين تفوقاً عظيماً على يد الشاعر أحمد بن عبد الله
القيسي أبي العباس الملقب بالأعشى التطليبي ، ويحيى بن بتي وأبي بكر بن الأيضي^(١) ،
كما تفوق فن الزجل على يد الزجال المعروف ابن قزمان .

وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر ، تلاقى نجم علوم الفلسفة
والطب . وكان من أئمة فلاسفة ذلك الوقت مالك بن وهيب وزير على بن يوسف
وأقرب المقربين إليه ، أخذ من كل فن بطرف وبرع في علوم اللغة ، وتفوق فيها ، وألف
كتاباً سماه قراضة الذهب في ذكر أيام العرب في الجاهلية والإسلام^(٢) ، وضم إلى
ذلك ما يتعلق به من الآداب ، فجاء الكتاب فريداً في فنه . وكما ألف ابن وهيب
في اللغة كذلك ألف في الفلسفة ، إذ درس كتاب الثمرة في الأحكام لبطليموس
وكتاب المجسطي في علم الهيئة^(٣) . أما الفيلسوف أبو بكر بن باجة فحدث عنه
ولا حرج ، فقد ذاع صيته في الأندلس وأوروبا في العصور الوسطى حيث عرفه
الناس باسم « Avonpace » ، وهو صاحب مدرسة الشك . تأثر بالفلسفة اليونانية
وأشاع هذا المذهب بين شعراء ذلك العصر الذين فشا في شعر بعضهم لون من
ألوان التحرر من قيود الدين^(٤) . وقد برع ابن باجة في الموسيقى كما برع في الفلسفة .
أما الطب فمن أعلامه أبو العلاء زهر بن عبد الملك ، « كان وزير ذلك الدهر وعظيمة
وفيلسوف ذلك العصر وحكيمة »^(٥) ، برع في الأدوية المفردة والمركبة وشاع ذكره
في الأندلس وفي غيرها من البلاد^(٦) ، وقد ألف كتاب الاقتضاء في إصلاح

(١) المقرئ : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) اعز ما يطلب ص ٧ . المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٩٢٥ .

(٣) اعز ما يطلب ص ٧ .

(٤) المقرئ : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٨ و ٢٠٩ . Marçais: Manuel D' Art.

Vol, i, p. 289

(٥) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٥ .

(٦) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٦ .

الأجساد للأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين^(١)، وقد قرب به المرابطون وأجلوه وأغدقوا عليه من النعم والأموال الشيء الكثير^(٢)، وبلغ من إهتمام المرابطين بفن ابن زهر ومؤلفاته أن علياً بن يوسف أمر بجمع مصنفاته بعد وفاته « فجمعت بمراكش وسائر بلاد العدو والأندلس ونسخت^(٣) ». نعم قرب المرابطون مالكا بن وهيب، وأبا بكر بن باجة، وأبا العلاء بن زهر، أفيقال بعد ذلك إن المرابطين حاربوا العلم، وكانوا أعداء حرية الرأي؟ وهل يعتبر عدواً لحرية الرأي من يقرب ذلك الفيلسوف المتحرر ابن باجة؟ ويكفي في إثبات تشجيع المرابطين للعلم والعلماء أن نورد ما قاله المراكشي في هذا الصدد « إنقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرة بنى العباس في صدر دولتهم واجتمع له بولايته من أعيان الكتاب وقرنان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار^(٤) ».

وقد تركت هذه الحياة العقلية الرفيعة أثراً بعيداً في شعب الملثمين فاقبلوا على الثقافة يردون مواردها وينهلون منها ما طاب لهم. وكان الملثمون على استعداد تقبل هذه الثقافة الجديدة والافادة منها، فقد كانت القبيلة ذات حضارة قديمة، أفادت في تاريخها القديم من الحضارات الوافدة على المغرب، وأصبحت عقول بنيها أكثر استعداداً لحياة علمية رفيعة لو أحسن توجيههم. وكان عبد الله بن ياسين قد فتح عقولهم للثقافة الإسلامية والتراث العربي، وترك تعاليمه في نفوسهم أبلغ الأثر، وبدأوا منذ اللحظة التي وطئت فيها أقدامهم أرض المغرب يقبلون على المدارس في شغف، لم يتخلفوا عن الركب ليتابعوا حياة الاغارة والعدوان

(١) ابن الأثير : التكملة ج ٢ ص ٦٩٦ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٦٦ .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٦٤ .

(٤) المراكشي : المعجب ص ١٠٤ .

شأنهم شأن القبائل البدوية الأخرى ، بل اتكبروا على الثقافة والعلم وأخذوا منها بنصيب موفور .

ولما فتحوا الأندلس تفتحت أمامهم آفاق جديدة في ميدان العلم ، واحتكوا بحضارة الأندلس الرفيعة وثقافتها المزدهرة ، فأفادوا منها فائدة جلي ، فأختلفوا إلى شيوخها ومحبوا علماءها ، وسمعوا من رواتها ومحدثيها ، حتى شاع العلم بين أفراد القبيلة من عامة ونبلاء ، وأقبل الجميع على التعلم بنفوس راضية وعقول واعية ، حتى إذا انقضى على تدفقهم إلى المغرب والأندلس نصف قرن بدأت نتائج الثقافة الجديدة تظهر آثارها فيهم . أخذنا نسمع بجيل من هؤلاء الملتزمين تمكنوا من العلم ، وبرعوا فيه ، واحتلوا مكان الشيوخ الملمين الذين جلسوا يحدثون الناس ويفقهونهم ، وأخذ التلاميذ يختلفون إلى مجالسهم ، ويروون عنهم .

ونحن إذ نقول ذلك لا نرسل القول إرسالا ، ولكن نعتمد على كتب الطبقات التي تكشف لنا عن هذا البعث العلمي الذي فشا في صفوف القبيلة صاحبة الدولة ، وتذكر طائفة من هؤلاء الملتزمين الذين ذاع صيتهم في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس مما يشهد بصدق ما نقول ، ويدل في وضوح وجلاء على أن هذا الشعب الملتزم لم يكن عدوا للعلم ، يقف في سبيله ، بل كان ينصرمه ويأخذ منه بنصيب ويشارك فيه ، وقد اشتهر من هؤلاء الملتزمين في ذلك الوقت زاوى بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجى المعروف بابن تقسوط ، الذى كان من أعلام مدرسة دانية وجهه شيوخها^(١) ، وأحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجى ، الذى استوطن المريّة وذاع صيته^(٢) ، وخلف بن خلف الله الصنهاجى الذى سمع بقرطبة ، وولى قضاء غرناطة^(٣) ، وموسى

(١) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٨٩ .

(٢) ابن بشكوال : الضلع ص ٨٥ . ابن الأبار ج ١ ص ١٠٩ . التشوف ص ١١٧ .

(٣) ابن القاضى : الجذوة ص ٩١٥ .

ابن حماد الصنهاجى^(١) ، بل عكف كثير منهم على الزهد والتقشف ، وعرفوا بالتقى والورع ، وذكر صاحب كتاب التشوف فى عداد الأولياء أبا عبد الملك مروان الممتونى^(٢) ، وأبا محمد عبد الجليل بن ويحلان^(٣) ، وأبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجى^(٤) .

أقبل الأمراء والنبلاء على الثقافة كما أقبل عليهما عامة الملتزمين ، وظهر فيهم فريق عرف بالتقوى والعلم الغزير ، وقد تحدث عنهم كتب الطبقات وسجلت أعمالهم فى تقدير وإكبار ، مثل عمر بن إمام بن المعز الصنهاجى أمير المرية الذى تتلمذ على الشيخ أبى على الصدفى ، وبلغ من علمه أن سمى بالفقيه القائد^(٥) ، والمنصور بن محمد بن الحاج داود بن عمر الصنهاجى الممتونى ، الذى سمع بقرطبة من أبى محمد بن عتاب وأبى بحر الأسدى ، وبمروسة من أبى على الصدفى ، ورغم أنه كان من رؤساء ملتونه وأمرائها إلا أنه برع فى معرفة الأخبار والسنن والآثار وصحب العلماء للسمع ، بل « نافس فى الدواوين والأصول العتيقة وجمع من ذلك ما لم يجمعه أحد من أهل زمانه وهو فخر صنهاجة ليس لهم مثله^(٦) » ومن هؤلاء الأمراء أيضا ميمون بن ياسين الصنهاجى الممتونى ، الذى قدم إلى المرية ورحل إلى مكة وحدث بالأندلس وسمع الناس منه بأشبيلية^(٧) ، وأبو بكر سير الصنهاجى ، الذى برع فى العلم ، وتبحر فيه ، فلما توفى كتب على شاهد قبره « هذا قبر الشيخ الفقيه الخطيب الحاج أبو بكر الصنهاجى^(٨) » .

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٥٤ .

(٢) ابن المؤقت للراكشى : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٥٠ .

(٣) التادلى : التشوف ص ١٩٨ .

(٤) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٥) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٢٦٩ .

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ١٩٣ .

(٧) المرجع السابق ج ١ ص ٣٩٦ .

(٨) Lévi — Provençal : Inscriptions Arabes d' Espagne, p 123

مقاطعة المرية رقم ١٣٧ .

وكان بعض الأمراء الذين لا تمكنهم الظروف من الالتحاق بالمدارس والاختلاف إلى العلماء يرسلون في طلب العلماء إلى قصورهم فيجلسون إليهم ، يأخذون عنهم ويتعلمون منهم . وما يروى في هذا الصدد أن علياً بن إسماعيل ابن محمد بن عبد الله ابن حرزهم جاء مرا كش فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للأخذ عنه والقراءة عليه ، فدخل أبو الحسن عليه وهو على سريره « فجلس أبو الحسن تحته فقال له هكذا تفعل مع من كنت تتعلم منه فقال نعم فقال له أبو الحسن انزل انت إلى مكاني وأكون أنا مكانك . فأجابه الأمير إلى ذلك ولازمه »^(١) . وكان إبراهيم بن يوسف بن تاشفين يرسل في طلب الفقيه الجليل الشيخ أبي علي الصديقي لسمع عليه الحديث وينتفع بعلمه وفضله^(٢) . وكان إبراهيم هذا مثال الأمير المثقف المتواضع يشجع العلماء ويأخذ بناصرتهم ، وقد بسط ظل حمايته على الفيلسوف عبد الملك بن زهر الذي ألف له كتاباً في الطب أهداه إليه اعترافاً بفضله وتخليداً لذكوره^(٣) .

وقد ضرب كثيرون من هؤلاء الأمراء المتفهمين مثلاً في التواضع والزهد ، فقد روى عن مزدلي أمير تلمسان أنه أنزل عن فرسه فبسط له غلامه برنسا قعد عليه ، فقال له الشيخ عبد الله التونسي الزاهد ، ما هذه الأخلاق يا مزدلي اين تجد غداً برنسا تقعد عليه فاستحيا من قوله وقام^(٤) . بل إن أميراً منهم قد ارتضى تواضعاً منه لله وإمعاناً في إذلال نفسه أن يذهب إلى الجبل ويحتطب ويدخل رحبة القصر ، وحزمة الحطب على ظهره^(٥) . ومالنا نذهب بعيداً وهذا ولي

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٩٤ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ص ٥٥ .

(٣) المرجع السابق ج : ج ٢ ص ٦١٦ .

(٤) التادلي : التشوف ص ١٠٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١٢٣ .

الأمر نفسه على بن يوسف أمير المسلمين بلغ من علمه وصدق روايته « أن استجاز الراوية أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني جميع روايته لعلو إسنده فأجاز له ^(١) ».

ولعل هذه الإشارة التي سقناها تؤيد صدق ما نذهب إليه من إخلاص الملتزمين للعلم والعلماء . نعم كان الأمراء يقدرون رسالتهم حق قدرها ، ويعرفون أهمهم بمسكون بزمام أمه ضربت في الثقافة العربية بسهم وافر . فحرصوا على إعداد جيل من بينهم يلم بالثقافة الجديدة ، ويرد منهلها ، فكانوا يستقدمون خيرة العلماء والفقهاء لتأديب بنهم ^(٢) . اختير أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري ليؤدب أبناء السلطان ^(٣) ، فلم يكن غريباً أن نرى جيلاً جديداً من شباب الملتزمين يعرفون العربية ويفهمون أسرارها ، ويلمّون بمكنوناتها ، ونس ما رواه صاحب الجذوة ^(٤) من أن تميم بنت يوسف كانت تفهم الشعر وتقرضه ليس مبالغاً فيه . لا ننكر أن الرعيل الأول من قادة الملتزمين وأمرائهم : بكونوا في الغالب ملهمين بالثقافة العربية إلماً دقيقاً ، وعهدهم بالحياة في الصحراء قريب ، كما أن انغماس الدولة في معركة الجهاد ، واشتغالهم بأعمال القيادة والإدارة صرفهم بعض الشيء عن التجويد والإتقان . ولكن مما لا شك فيه أن أبناء الجيل التالي كانوا يتقنون الثقافة العربية إتقاناً تاماً ، وكان أبناء هذا الجيل الذين يسمعون الشعر والغناء فيسيغونه ويفهمونه ويطربون له ، مصداق ذلك ما رواه المقرئ من أمر الفيلسوف أبي بكر بن باجة الذي لحن موشحاً غنى في حضرة لأمر ابن تيفلويت فما كاد ذلك التلحين يطرق سمح الأمير حتى صاح « وأطربء وشق ثيابه ^(٥) » .

(١) ابن الأبار : التكملة ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ج ١ ص ٤١ . ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص

٦٩ و ١٤٦ .

(٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٠٦ .

(٥) المقرئ : ازهار الرياض ج ٢ ص ٢٠٩ .

وكان الشعراء يمدحون الأمراء والقواد بقصائد من عيون الشعر، فكانوا يستجيدون ما يقولون ويصلونهم ويغدقون عليهم، فقد مدح ابن سارة الشنتريني أبا بكر بن إبراهيم اللعتوني^(١)، كما لزم ابن خفاجة الشاعر أبا اسحق ابن أمير المسلمين ومدحه في غرر قصائده^(٢)، كما مدحه الشاعر أبو بكر محمد بن الروح الشلبي في قصيدة عصماء^(٣)، بل إن يوسف بن تاشفين نفسه كان يسمع الغناء ويطرب له برغم ما يرويه دوزي من جهله بلسان العرب، فقد روى المقرئ أن يوسف أهدى المعتمد جارية حسنة الصورة جيدة الغناء سمع منها وطرِبَ لغنائها^(٤).

وكان طبعياً أن يبالغ على بن يوسف الذي نشأ كما نشأ الجيل الثاني من أبناء المرابطين من الثقافة العربية شأوا عظيماً، فقد روى أنه كان يسمع الشعر الجيد، ويطرب له، مدحه القاضي أبو الحسن بن أضحي بشعر جيد فأمر بترفيعة في المجلس^(٥)، كما مدحه الوشاح المعروف بالأعمى التطيلي^(٦)، بل كان يقبل على الغزل رغم شهرته بالتقوى والورع ويطرب له، أرسل إلى الشاعر ابن خفاجة وزيراً يقول له «إن السلطان يريد أن تقول شعراً تفتحه بالغزل»^(٧)، فكتب ابن خفاجة في هذا الفن قصيدة رفعها إليه. مهما يكن من شيء فقد كان القرن الخامس الهجري، وأوائل السادس عصر نهضة شاملة في الحياة الثقافية عمت المغرب والأندلس على سواء، فقد ظهر في ذلك العصر أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني في أفريقية وابن حديس الصقلي «وتدفقت بالبلاد بحور الأدب وطامت فيها نجوم الكتب

(١) الفتح : قلائد العقيان ص ٢٦٤ .

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢٠ .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٢٧ .

(٤) المقرئ نقل عن . Dozy : Abbadidarum, vol II, P. 234

(٥) ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٢١٠ .

(٦) الضي : بغية الملتبس ص ١٧٥ .

(٧) ديوان ابن خفاجة ص ١١٦ .

فعمت أقاليم البلاد^(١) ، وقال ابن الأبار وهو قائل صدق في دولة علي بن يوسف « نفقت العلوم والآداب وكثر النبل وخصوصا الكتب^(٢) » .

ومع هذه الصور الواضحة التي رسمناها للحياة الثقافية في المغرب والاندلس في عهد المرابطين وما سقناه من أدلة على مساهمة الدولة بنصيب وافر في حماية العلوم ، وعمل الأمراء على شد أزرا العلم والعلماء ، فإن المؤرخ دوزي يرسم للثقافة في الأندلس في عهد المرابطين ، صورة غير براقية ، ويظهر المرابطين بمظهر البدو الجفاة الغلاظ الذين أشاعوا في البلاد جواً من التعصب والرجعية حتى أقفرت سوق الأدب ، وكسدت بضاعته ، فقد تحكم الفقهاء في رقاب العباد ، وأحاطوا بأمير المسلمين ينفثون في صدره سموم الرجعية فيحاربون أهل الفكر الحر ، وينكثون بكل من يتصل بالفلسفة بسبب بعيد أو قريب ، فهذا مالك بن وهيب وزير علي بن يوسف يشتغل بالفلسفة ، فلما خشى أن يصيبه مكروه طرح الفلسفة جانباً وأكب على الفقه ، وعكف على كتب المذهب . وقد تجاوز الفقهاء — كما يروي دوزي — الحدود في تعصبهم لمذهبهم ، إذ يرون أن مذهب مالك هو المذهب الذي لا يعلى عليه ، بل تمادوا في تعصبهم فافتوا بإحراق كتب الغزالي . ويمضي دوزي في حملته على المرابطين فيقول إن إعلام الكتب الذين استخدمهم المرابطون في ديوان الإنشاء دخلوا في خدمتهم طلباً للعيش ، وانهم ما لبثوا أن اكتشفوا أنهم أصبحوا العوبة في أيدي طائفة من الفقهاء المتعصبين والقواد الجفاة الغلاظ ، فلم يخفوا تبرمهم بالدولة . أما أهل الأدب فقد عز من يشد أزركم بعد دوال ملك الرؤساء ، وراحوا ينعون انحطاط الذوق الأدبي ، ويعلنون الظروف التي

(١) التذخيرة (القسم الرابع مخطوط) ص ١٧٢ .

(٢) المضرب لأبن دحية ورقة (أ) ، الحريدة للمهاد الأصماني ج ١١ ص ٧٠ — ٧٢ .

جاءت بهذه العصابة من البربر للتحكم في رقاب أهل الأندلس . أما الشعراء فقد ساء حالهم واضطر بعضهم إلى أن يهيم على وجهه متنقلا من مدينة إلى أخرى طلبا للعيش ، واضطر بعضهم الآخر إلى مدح الفقهاء التماسا للكسب^(١) . وقد جاوزت حملة دوزي على المرابطين كل حد ، فرماهم في كتابه *Recherches* بكل نقيصة ، حتى لقد قال « كان مجيء المرابطين إلى بلاد الأندلس نذيرا بانقلاب بعيد المدى فقد دالت دولة الحضارة ، وقامت الهمجية على أنقاضها أما حسن الإدراك فقد حلت محله الخرافات ، ذهب التسامح وسيطر التعصب وأصبحت البلاد ترزح تحت نير الفقهاء والقواد ، وبدلا من أن نسمع مساجلات العلماء في دور العلم ومناقشاتهم في الفلسفة ونشيد الشعراء وغناء أهل الموسيقى ، بدأنا لا نسمع إلا أصوات الفقهاء وصليل السيوف^(٢) » .

لا ننكر أن مجيء المرابطين إلى شبه الجزيرة قد صحبه كساد في سوق الشعر إلى حد كبير ، فقد كان عهد يوسف في الأندلس عهد جهاد وكفاح وحرب ، وليس بعهد ترف ورفاهية ، وإقبال على المذات ، وانغماس في الشهوات ، صور ذلك كله صاحب الذخيرة أبلغ تصوير ، إذ قال « فلما صحت ذكر ملوك الطوائف بالأندلس طوى الشعر على عزة وبرىء من حلوه ومره إلا نفثة مصدرور والتفاته مذعور ، وهو اليوم ببلد يابرة يرتشف فضل ثماره ويأكل من بقية زاده^(٣) » . ولكن عزوف أمراء الرعيل الأول من المجاهدين المرابطين عن الانغماس في الحياة الاجتماعية في بلاد الأندلس ، واتخاذ الندماء والقيان وإحاطة أنفسهم بهالة من الشعراء ليس معناه كساد سوق الأدب ، وليس من شك في أن تشجيع الأمراء والولاة يحفز هم الشعراء ويدفعهم إلى الإجادة في القول ، ولكن من ينشد

(١) Dozy : Histoire des Musul. d' Espagne, vol. IV, p. 248 — 252

(٢) Dozy : Recherches, vol. I. p. 348

(٣) الذخيرة (م . بغداد) قسم ٢ ص ٢٦٤ ، وقسم ٣ ص ٢٠٤ .

الفن للفن والجمال للجمال ، ويتغنى بالشعر « تحبباً لا تكسباً ويعمر المجالس وفاء
لا استجداء » يجد أبواب الإنتاج مفتوحة أمامه على مصاريعها أما من
يتكسب بالشعر ويرتزق منه فقد كسدت سوقه وبارت تجارتة .

على أن هذا الكساد — إن صحت الرواية — لا يصدق إلا على عهد
يوسف بن تاشفين ، فما كاد على ابنه يتولى الأمر حتى بدت الحياة الاجتماعية في
الأندلس في صورة زاهية براقة ، وعادت مجالس الأمراء حافلة بالشعراء الذين
عادوا سيرتهم الأولى من التكسب بالشعر ، وأقبلوا على الأمراء يمدحون
ويتملقون ، ملتصقين الرغد والعطاء ، ومن الغريب أن دوزي يعترف بإقبال
المرابطين في عهد علي بن يوسف على هذه الحياة الأدبية الرفيعة ، ويعترف بأن
الأمراء عملوا على تقليد ملوك الطوائف ، وأخذوا السمار والندماء ، واستمعوا إلى
الشعر والموسيقى ، وبسطوا ظل حمايتهم على أهل الفلسفة ، ولكنه يرى أنهم لم
يعمدوا إلى ذلك إلا حباً في التقليد ليس غير ، وأنهم لم يقبلوا على ذلك بقلوب راضية
وعقول واعية ، ولم يأخذوا من الحضارة الأندلسية إلا أسوأ ما فيها ^(١) .

مهما يكن من شيء فإن أحكام دوزي لا تصدق إلا على الفترة الأولى من
حكم المرابطين ، كما لا تصدق على بلاد المغرب ، إذ أن دوزي لم يعرض لبلاد
المغرب على الإطلاق . أما قول دوزي بتحكم الماسكية في الحياة في الأندلس
فقول لا يصدق على عصر المرابطين وحدهم ، فالماسكية يتحكمون في الحياة في
الأندلس والمغرب منذ عهد بعيد ، وقد لقي الفيلسوف ابن مسرة من اضطهاد
الفقهاء الشيء الكثير ، كما حارب المالكيون في المغرب أهل الرأي محاربة
لا هوادة فيها ، ولكن هذه الحرب لم تقض على الحياة العقلية ، ولم تكبح جماح
أهل الفلسفة وأصحاب الفكر الحر .

وقد حارب المعتزلة وأهل الرأي في المشرق ، ولكنهم ظلوا يتابعون نشر آرائهم ، وينادون بتعاليمهم غير مبائنين بتعذيب أو اضطهاد ، ولم يكن ينتظر من الفقهاء وهم قوم من أهل الجادة أن يتساحروا في أمور دينهم .

أما تهمة إحراق كتاب الإحياء للغزالي ، فلا نستطيع أن نبرىء على بن يوسف منها ، فقد خضع لرأي الفقهاء ، وانساق وراءهم ، لأنهم اعتبروا الغزالي من أهل الرأي ، كما تقوموا عليه حملته على الفقهاء الذين عكفوا على الفروع دون الأصول ، فألبوا أمير المسلمين ، فأمر بإحراق هذا الكتاب^(١) برغم معارضة بعض فقهاء المالكية في المغرب^(٢) ، مع أن الغزالي كان معجباً بيوسف بن تاشفين ، وكان يريد أن يحضر إلى المغرب ، لولا أن عاجلته المنية ، فحالت بينه وبين ما يريد .

ويخيل إلينا أن إسراف دوزي في هذا الرأي يرجح إلى أنه اعتمد على طائفة من الكتاب الأندلسيين ، الذين كانوا يكرهون المغاربة أشد الكره ، وينددون بتعصبهم ، وجهلهم ، ولا يرون فيهم إلا دخلاء مفتصبين ، كما أنه اعتمد على كتاب من عصر الموحدين ؛ والموحدون كما نعلم كانوا يكرهون المرابطين كرهاً شديداً ، ويعملون على تشويه سمعتهم ، ورميهم بكل داهية ، كما لا ننسى أن دوزي كان يعطف على ملوك الطوائف أشد العطف ، ويكاد يتعصب لبني عباد ، أصحاب أشبيلية ، فمن الطبيعي أن يسخط على المرابطين ، الذين أدالوا دولة بني عباد ، ونفوههم إلى المغرب . وليس يبعد أن يكون دوزي قد اعتمد اعتماداً كبيراً على رسالة الشقندي ، وهي الرسالة التي تعصب فيها صاحبها للصقل ، وراح ينتقص من العرب ، ومن البربر على سواء ، وقد رمى الشقندي المرابطين بالجهل والتعصب^(٣) .

(١) التادلي : التشوف ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) رسالة الشقندي عن القرى : انظر ' Abbadidarum, vol. II, p, 221 .

هذه المؤثرات المختلفة التي وجهت الثقافة الإسلامية في عصر المرابطين وجهت الفن الأندلسي المغربي ، وتركت فيه آثاراً ظاهرة . ولكن قبل أن نوضح الدور الذي اضطلع به المرابطون في تاريخ الفن يجب أن نبين أنه بعد أن تم للعرب فتح المغرب والأندلس ظهرت في الحياة الفنية مدرستان مختلفتان في منهجهما ، وفي اتجاهاتهما ، وفي إنتاجهما : المدرسة الأندلسية التي أخذت توأم بين المؤثرات الفنية الوافدة من المشرق ، وبين المؤثرات المحلية القائمة مثل القوطية والمسيحية الموليسية . بدأت هذه العوامل الثلاثة تتفاعل في مدرسة الأندلس ، وبدأت تتمحور بالتدريج عن نشأة فن أندلسي إسلامي ، يبرز فيه أثر هذه الموجهات جميعها ، وكان ساعد هذا الفن الأندلسي يشتد كلما اشتد ساعد الدولة الأموية ، وخلت من متاعبها السياسية ، وركنت إلى حياة من الاستقرار تتيح لها أن ترعاه وتشد أزرها ، وتأخذ بيد رجاله . وقد بلغ إنتاج هذه المدرسة الأندلسية الأوج في عهد عبد الرحمن الناصر^(١) .

= ويأتى أما سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية أبقوت الحاجب أم بضاح
البرغواطى أم يوسف بن تاشفين الذى لولا توسط ابن عباد لشراء الأندلس في مدحه ما
أجروا له ذكرا ، ولا رفعوا الملكة قدرا وبعد ما ذكره بواسطة للعمد بن عباد فإن العمدة
قال له وقد الشدوه أعلم أمير المسلمين ما قالوه قال لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخير ، ولما
انصرف عن العمدة إلى حضرة ملكة كتب له العمدة رسالة فيها :

بتم وبنا فإ اجلت جوامعنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فقدت سودا وكانت بكم أيضا ليالينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء يطلب منا جوارى سودا ويصفا فقال له :
يا مولانا لا ما أراد إلا أن ليلى كان يقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالى السرور يمس فماد
نهاره يبعده ليلا لأن أيام الحزن ليالى سود ، فقال والله جيد أكتب له في جوابه أن دموعنا
تجرى عليه ورؤسنا توجهنا من بعده .

أما المدرسة الأخرى فقد نشأت في القيروان ، وبدأت تتلقى المؤثرات الشرقية ، وتتأثر بها إلى حد كبير . وفدت إليها أنماط الرقة وبمعداد ، وسامراء ، وجاء الفن الأغلب متأثراً بهذه الاتجاهات جميعها ، حتى لا تسكاد تميزه عن الفن الشرقي ، ولم يكن من الممكن أن ينفرد الأغلبة بطابع خاص في الفن ، وهم عمال بني العباس ، يقد إليهم الفنانون من أقطار الشرق ، من مصر ، والشام ، والعراق^(١) .

وقد بدأ المغرب الأقصى بعد أن ذاق ألوانا من الاستقرار في ظل الإدارة يتجه نحو الفن ، يأخذ منه بنصيب موفور ، ووقفت بلاد المغرب الأقصى حيرى بين مدرستين راقيتين مدرسة القيروان ، ومدرسة الأندلس ، فلم تستطع أن تخلص من آثار مدرسة القيروان ، ولا من آثار مدرسة قرطبة^(٢) . ولكن مؤثرات القيروان كانت هي الغالبة ، وكان الإدارة أنفسهم يتجهون وجهة شرقية ، يستخدمون العرب ، ويشدون أزرهم ، ويكثر من استخدام العناصر الشرقية^(٣) ، فقد كانوا برغم معيشتهم في بيئة مغربية شديدة الاحساس بأصلهم الشرقي ، يعتزون به ، ويتطلعون إلى المشرق دائماً . فلما قامت الدولة الفاطمية بافريقية وبدأت تتطلع إلى المغرب ، تنبه الأمويون إلى الخطر الداهم الذي يقيق بهم ، فأهتموا بالمغرب الأقصى ، وبدأوا يظهرون أسراء زناته ، ويمدونهم بالعون والمساعدة للوقوف في وجه صنهاجة صديقة الفاطميين ، وبدأت الصلة بين المغرب والأندلس يشتد ساعدها ويتضح أثرها ، وبدأ زعماء البربر يقدون على قرطبة ، ويعجبون بآيات الفن الأندلسي وروائعه ، فلما قامت إمارات زناته التي تدين بالولاء لبني أمية بدأت للمؤثرات الأندلسية تقد على المغرب بصورة أوضح^(٤) ،

Terrasse : L'Art Hispano-Mauresque, p. 163 (١)

Ibid, p. 205 (٢)

Ibid, p. 163 (٣)

Marçais : Manuel d' Art Musul. vol. I, p. 301 (٤)

ولو كان المجتمع المغربي في ظل زناته قد أصاب لونا من ألوان الاستقرار
لظهرت آثار هذا الاتصال الفني واضحة ! ولكن زناته كانت عدو الاستقرار ،
وظلت الخلاقات الناشئة بين بطونها تنال من استقرار البلاد وطمأنينتها ،
وتصرف الناس عن الانتاج الفني ، ولا تتيح لبدور هذا الفن الأندلسي أن
تزدھر .

ولم يبذل العامريون جهدا واضحا في بث دعائم الفن الأندلسي بالمغرب
الأقصى ، إذ كانوا يعنون بالمشاكل السياسية ، ولم يكونوا منصرفين للشئون
المغربية انصرافا تاما ، ولولا خوفهم من بنى زيرى ، واشفاقهم من أن يهدد
الزيريون بلاد الأندلس لما احتلوا المغرب ، أو ظاهروا زناته ، فقد كانت معركة
الأندلس في حاجة إلى عنايتهم ، وإذا كانت المؤثرات الأندلسية بدأت تظهر
بجلاء في المدن الساحلية مثل سبتة وطنجة ، وفي مدن إقليم الريف مثل فاس^(١) ،
فإن غالبية مدن المغرب الأقصى ظلت بعيدة عن هذه المؤثرات الراقية المزدهرة ،
حتى تدفق المرابطون إلى المغرب ، ونجحوا في إقامة دولة توحد بين العدوتين ،
فاشتد ساعد المؤثرات الأندلسية أكثر من ذي قبل ، ولم تعد قاصرة على مدن
الساحل ، وإقليم الريف ، بل لقد نفذت حتى إقليم الصحراء إلى أغيات ،
ومراكش ، وبدأ الفن المغربي الأندلسي يتألق بنجمه ، لأن هؤلاء البدو عمدوا إلى
حمايته والإفادة منه بقدر الطاقة^(٢) . فطن يوسف بن تاشفين إلى هذه الحياة
الفنية الزاهرة ، وأفاد منها ، واستقدم صناع الأندلس ، وخيرة فنانيها إلى بلاد
المغرب للإفادة من خبرتهم ومهارتهم في بناء المساجد والحصون وغيرها من
المؤسسات^(٣) . وقد اشتد ساعد هذه المؤثرات الأندلسية في عهد علي بن يوسف

(١) Marçais : Manuel d' art Musnl. Vol, I p. 307

(٢) الجزنائي : زهرة الأس ص ٣٢ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

ابن تاشفين ، فقد تلمذ على الحضارة الجديدة ، وأعجب بها ، وفهمها أصدق الفهم ، وامن في استقدام الفنانين الأندلسيين ، فانتشروا في طول البلاد وعرضها^(١) ، وبدأت مدن المغرب وأقاليمه وقراه تحفل بمؤسسات بلغت من الروعة والفخامة حداً بعيداً ، وأصبحت مؤسسات فاس ومراكش وتلمسان تكاد تضارع مؤسسات قرطبة وأشبيلية ، وكان الفن في عهد المرابطين هو فن أندلسي في أرض مغربية^(٢) .

وهناك ناحية أخرى أثرت في الفن في العهد المرابطي تأثيراً كبيراً هي هذا الاستقرار الذي أشاعه المرابطون في البلاد ، وهذا الأمن وهذه الطمأنينة التي أظلت البلاد في عهدهم ؛ لأن الفوضى والاضطراب من أعدى أعداء الفن ، لا تستطيع النهضة الفنية أن تثمر وتؤتي أكلها في بيئة مضطربة غير مستقرة ، وما يقال من أن تاريخ الفن مرتبط بالتاريخ السياسي يصدق في المغرب الأقصى أكثر من صدقة في أية بيئة أخرى ، لأن الدولة إذا بسطت رواقها وأفلحت في قهر أعدائها ، استقرت الأحوال ، وانصرف الناس إلى الإنتاج ، أما إذا انطلقت القبائل من عقابها تدمر وتخرّب وتشيع الفتنة لم يستطع الفن أن يقف على قدميه^(٣) .

وقد شهدت بلاد المغرب في عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد علي أمينا وطمأنينة واستقراراً ربما لم تشهده في أي عصر سابق . وانتشرت الآثار الفنية في مدن المغرب الأقصى . ولكن الحضارة كانت أشد تألقاً في سماء الفن بسبب بلاط السلطان ، وأبهته وفخامته ، وبسبب تنافس الأمراء والقواد والعمال ورجال الدولة^(٤) ، فخلقت بالعمائر المدنية والدينية ، كما أصبحت مدينة فاس من أهم مراكز الفن في المغرب في عهد المرابطين .

(١) الادريسي : المغرب وأرض السودان ص ٦٩ .

(٢) Terrasse : L' Art Hispano-Mauresque, p. 243

(٣) Terrasse et Hainaut : Les Arts Decoratifs au Maroc, p. 45

Idem (٤)

مؤتمة ناحية أخرى لا تقل عن الاستقرار أثراً ، ونعني بها الرخاء ذلك أن الاستقرار يؤدي إلى زيادة الإنتاج ، وإلى رواج التجارة والصناعة فتتوفر المادة الخام ، ويستطيع الفن أن يجد حاجته منها في يسر وسهولة ، كما يؤدي الرخاء إلى زيادة دخل الدولة ، وبقدرة ثراء الملوك والولاة تعظم آثارهم ، وقد ازداد ثراء المرابطين ، وعظم جاههم بعد أن جمعوا بين أموال الأندلس والمغرب ، وأصبح من الميسور أن ينفقوا أموالاً ضخمة في إقامة الأسوار والقلاع والحصون والقصور والمساجد الجامعة . روى أن علياً بن يوسف أنفق في بناء مرا كش ٧٠ ألف دينار^(١) ، كما أنفق في إصلاح جامع القرويين بفاس ما يقرب من ثمانين ألف دينار^(٢) ، كما كان يصل أهل الفن والصناعة بصلات سخية تدفعهم إلى الإتقان والتجويد ، لذلك تجلت في مبانيهم ضخامة الثروة وروعة الفن .

وهناك ناحية أخرى كانت لها نتائج بعيدة المدى في تاريخ الفن في العهد المرابطي تتمثل فيما قامت به الدولة من أحياء تقاليد الإسلام ، ورفع لواء السنة ، واتسام الأمراء والولاة بالتقوى والصلاح ، والإقبال على العبادة والانقطاع لذكر الله ، فقلت العمارات المدنية في عهدهم قلة أثارت دهشة مؤرخي الفن^(٣) ، إذ لم يسكنوا من القصور المنيفة ، إنما أقبلوا على المساجد يعمرونها ويسكنون منها ، فقد أمر يوسف بن تاشفين ببناء المساجد في مدينة فاس ، وكان يلوم أهلها على تقصيرهم في هذا الشأن^(٤) ، كما بنى مسجداً جامعاً في إمراكش^(٥) . ويخيل إلينا أن التقاليد التي وضعها عبد الله بن ياسين من معاقبة تارك الصلاة كانت لا تزال سارية في عهد يوسف على الأقل ، وإذا كانت الدولة تعاقب على ترك الصلاة

(١) ابن المؤقت المراكشي : السعادة الابدية ج ١ ص ١٤ .

(٢) الجزنائي : زهرة الآس ص ٥٧ .

(٣) Marçais : Manuel de L'Art Musul. vol. I, p. 307 .

(٤) الجزنائي : زهرة الآس ص ٣٢ .

(٥) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ٧١ .

فلا بد أن الناس قد أقبلوا على المساجد إقبالا منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الإكثار منها . نعم أقبل ملوك الطوائف على بناء القصور وتأنقوا في زخرفتها وبنائها بينما وجه المرابطون عنايتهم إلى المساجد يتأنقون في بنائها ويعلمون من صرحها . .

وقد تجلت روائع الفن المغربي الأندلسي في جامع القرويين بفاس الذي تم إصلاحه في عهد علي بن يوسف ، وأنفق في ذلك نحواً من ثمانين ألف دينار^(١) واستجلب خيرة الصناع المهرة المهندسين حتى جاء آية في روعة الفن وبهرائه ، يتضح ذلك من قول صاحب كتاب زهرة الآس « أخذ في عمل الطبقة التي بأعلى الحراب وما يحاذيها من وسط البلاطين المتصل بهما فعلى ذلك بالجلس المقربس الصنعة والنقش على الحراب ودوائر القبلة التي عليه ورقش ذلك كله بورق الذهب واللازورد وأضاف الاصبغة ، وركب في الشماسات التي بجوانب القبة أشكالاً متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ، ثم أخذ في نقشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن^(٢) » . ويتجلى ذلك الفن أيضاً في جامع تلمسان الذي بنى سنة ٥٢٠ هجرية في عهد علي بن يوسف ، وظهرت فيه آثار الفن الأندلسي واضحة حتى لقد شبه بجامع قرطبة في الروعة والأبهة^(٣) . ومن الآثار المنسوبة للمرابطين أيضاً جامع الجزائر وهو يشبه جامع تلمسان في روعة الفن وأبهة البناء^(٤) ، ولو كان في مقدور الموحدين أن يهدموا هذه الآثار ل فعلوا ، لأنهم هدموا قصور المرابطين في المغرب ومحو آثارهم ، فلم يجد العلماء من الآثار المنسوبة إليهم ما يتفق وروعة فنهم وضخامة ملكهم وعظم ثرائهم .

(١) الجزناتى زهرة الآس ص ٣٢ و ٤٢ . جذوة الاقتباس ص ٤١ .

(٢) الجزناتى : زهرة الآس ص ٥٧ . ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٤٢ .

(٣) Marçais : Manuel de l' Art Musul. vol 1, p. 305

(٤) Terrasse : L'Art Hispano - Mauresque p. 227

وقد حرص المرابطون على تثبيت سيادتهم في المغرب الأقصى وإخضاع القبائل المغلوبة على أمرها حتى تستكين لحكمهم ، فلا تحذتهم أنفسهم بالخروج عن الطاعة ، وقد نجحوا في هذه السياسة نجاحا بعيد المدى ، فأكثروا من القلاع وأقاموا صفا من الحصون حول جبال أطلس لإخضاع المصامدة والسيطرة عليهم . وكانت هذه القلاع تتألف من جدران مميكة غليظة تنهض سامقة في الجو تتخللها أبراج على هيئة نصف دائرة وتحيط بها الخنادق الواسعة ^(١) ، وقد تأثر المرابطون بالفن الأندلسي في بنائها كما تأثروا بالفن الإفريقي . وقد حصن المرابطون للندن كما حصنها أهل الأندلس ، واضطر على بن يوسف إلى أن يقيم سورا حول مراکش استخدم في بنائه صناعا من أهل الأندلس ^(٢) . ولم يهمل المرابطون القناطر والجسور ، وقد أقاموا بجزا كش قنطرة على نهر تانسيفت ، وجلبوا المياه من جبال أطلس ^(٣) .

(١) Terrasse : L'Art-Hispano — Mauresque p: 225

(٢) مفاخر البربر ص ٥٣ . السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .

(٣) الادريسي : المغرب جوارض السودان ص ٦٩ .

Marçais : Manuel d'Art Musul, I, p. 359

الملاحق

- ١ — ملوك المرابطين ..
- ٢ — عمال المرابطين بالأندلس ..
- ٣ — عمال المرابطين بمغورقة ..
- ٤ — عمال المرابطين بالمغرب ..
- ٥ — الكتاب والوزراء ..
- ٦ — قواذ الجيش ..
- ٧ — أمراء البحر ..
- ٨ — مواضع القلاع والحصون ..
- ٩ — القضاء ..
- أ — قضاء الأندلس ..
- ب — قضاء المغرب ..

١ — ملوك المرابطين

يحيى بن إبراهيم الجدالى
يحيى بن عمر اللتوني
قبل سنة ٤٤٧ = ١٠٥٥

١ — أبو بكر بن عمر اللتوني (توفى سنة ٤٨٠) ... ٤٤٨ = ١٠٥٦

٢ — يوسف بن تاشفين ... ٤٨٠ = ١٠٧٨

٣ — علي بن يوسف ... ٥٠٠ = ١١٠٦

٤ — تاشفين بن علي (توفى سنة ٥٤٠) ... ٥٣٧ = ١١٤٢

٥ — إبراهيم بن تاشفين بن علي ... ٥٤٠ = ١١٤٥

٦ — إسحق بن علي بن يوسف (توفى سنة ٥٤١) ... ٥٤٠ = ١١٤٥

يحيى بن غانية (آخر ولاية المرابطين بالأندلس توفى سنة ٥٤٣) .

٢ — عمال المراتبين بالاندلس

قرطبة	أصبيلية	غرناطة
أبو محمد تاشفين بن سليمان الزبير بن عمر اللثم أبو محمد عبد الله بن جنون أبو عبد الله المعروف بأبن عواد أبو محمد عبد الله بن مزدلي أبو عبد الله بن نوتان أبو عبد الله محمد بن أبي زرق أبو عبد الله محمد بن الحاج داود أبو محمد مزدلي بن سلسكان المنصور بن محمد بن الحاج أبو زكريا يحيى بن تاشفين	أبراهيم بن يوسف بن تاشفين أبو بكر بن علي بن يوسف أبو بكر بن مزدلي الأمير باسنجور تميم بن يوسف بن تاشفين أبو جعفر عمر سير بن أبي بكر طلحة بن العنبر عبد الله بن أبي بكر بن جنونه أبو محمد عبد الله بن فاطمة عثمان بن عمر المنصور بن محمد بن الحاج أبو زكريا يحيى بن علي بن عجون أبو زكريا يحيى بن اسحق انجبار يحيى بن سير أبو يعقوب بن علي	أبو بكر بن إبراهيم أبو بكر بن أبي محمد أبو بكر بن علي بن يوسف تاشفين بن علي تميم بن يوسف بن تاشفين الزبير بن عمر سير بن الحاج أبو محمد عبد العزيز بن سليمان عبد بن مزدلي عثمان بن بدر الامتوني علي بن الحاج بن عيون علي بن يوسف بن تاشفين موسى بن الحاج مزدلي بن سلسكان يحيى بن واسينو

تابع عمال المرابطين بالأندلس

مرسية	بلنسية	سرقسطة
إبراهيم بن تاعياشت	إبراهيم بن تاعياشت	أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت
أبو بكر بن تيفلويت	أبو بكر بن إبراهيم بن تيفلويت	أبو عبد الله محمد بن الحاج
أبو عبد الله محمد بن تاشفين	أبو الطاهر تميم بن يوسف	
أبو زكريا يحيى بن غانية	عبد الله بن قاطمة	
أبو عبد الله بدر بن ورقاء	علي بن عيون	
أبو عبد الله يينتان بن علي	أبو عبد الله محمد بن الحاج	
	مزدلي بن سلسكان	
	أبو زكريا يحيى بن تاسورة	
	أبو زكريا يحيى بن علي	
	بدر بن ورقاء	
	أبو يعقوب بن يينتان بن علي	

٣ — عمال المرابطين بمورقة

١ — محمد بن علي بن اسحق بن غانية

٢ — وانود بن أبي بكر اللمتوني

٣ — يحيى بن علي بن اسحق بن غانية

٤ — عمال المرابطين بالمغرب

فاس وسببة	تلمسان	بلاد السويس
أبو بكر بن ابراهيم أبو عبد الله محمد ابن الحاج	تاشفين بن تينامر مزدلي بن سلسكان	أبو بكر بن محمد اللمتوني

إقليم الصحراء	سجلماسة	
أبو بكر بن ابراهيم	ابراهيم بن أبي بكر بن عمر أبو عبد الله بن أبي زرق	

٥ - الكتاب الوزراء

- ١ - أبو بكر بن الصائغ .
- ٢ - أبو بكر محمد بن محمد للعروف بابن القبطرنة .
- ٣ - أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاء .
- ٤ - أبو جعفر أحمد بن عطية القضاء .
- ٥ - ابن باجة (أبو بكر) .
- ٦ - جعفر بن إبراهيم بن أحمد للمافري .
- ٧ - أبو جعفر بن البني .
- ٨ - أبو الحسن غلام البكري .
- ٩ - طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوس .
- ١٠ - عبد الرحمن بن أحمد بن إبراهيم .
- ١١ - عبد الرحمن بن أسبط .
- ١٢ - عبد الرحمن بن جعفر بن إبراهيم بن أحمد للمافري .
- ١٣ - أبو عبد الله بن أبي الخصال .
- ١٤ - أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري اليابري .
- ١٥ - عبد الملك بن أبي الخصال مسعود بن فرح بن خاصة النافقي .
- ١٦ - أنو القاسم بن الجدة المعروف بالأحذب .
- ١٧ - مالك بن وهيب .
- ١٨ - محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن السقاط .
- ١٩ - ومحمد بن سليمان الكلاعي المعروف بابن القصيرة .
- ٢٠ - محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز .
- ٢١ - يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري ، أبو بكر ابن الصيرفي .
- ٢٢ - يحيى بن همام السرقسطي .

٦ — قواد الجيش

- ١ — ابن تافلويت
 - ٢ — أبو الطاهر تميم بن يوسف
 - ٣ — جرور الحشمي
 - ٤ — داود بن غائشة
 - ٥ — أبو سليمان بن تارشنا
 - ٦ — سير بن أبي بكر
 - ٧ — سير بن واربيل
 - ٨ — أبو عبد الله بن الحجاج
 - ٩ — عبد الله بن فاطمة
 - ١٠ — عثمان بن يحيى بن إبراهيم
 - ١١ — علي بن الحاج
 - ١٢ — أبو عمران بن تارشنا
 - ١٣ — أبو محمد مزدلي
 - ١٤ — مسعود بن ورنيف
 - ١٥ — أبو يحيى بن إبراهيم
 - ١٦ — يحيى بن سير
 - ١٧ — يحيى بن كانبان
 - ١٨ — أبو زكريا يحيى بن واسينوا
- ٧ — أمراء البحر
- ١ — علي بن عمر ، الموسوم برقم الأوز
 - ٢ — علي بن عيسى بن ميمون
 - ٣ — عيسى بن ميمون اللمتوني

٦ — مواضع القلاع والحصون

- ١ — تاسعيموت .
- ٢ — آنسا .
- ٣ — نافر ككوت .
- ٤ — آسكابو .
- ٥ — تارودانت .
- ٦ — آيكيليز .
- ٧ — تاسنولت .
- ٨ — اصمكا آن كات .
- ٩ — تارولولت أن يكدميون .
- ١٠ — لجاغة .
- ١١ — نفيس .
- ١٢ — هيلانة .
- ١٣ — هسكورة .
- ١٤ — تادلا .
- ١٥ — تا كزرورت .
- ١٦ — داي .
- ١٧ — تا كرات .
- ١٨ — آجرو .
- ٢٠ — تاسفمارت .
- ٢١ — تونكطيان .
- ٢٢ — الولجة .
- ٢٣ — تازغدرا .

٩ - القضاء

(١) قضاة الاندلس

غرناطة	قرطبة	اشبيلية
أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر أحمد بن محمد بن عمر التميمي خلوف بن خلف أبو سعيد عبد العظيم بن زيد بن يحيى أبو عبد الله بن حسن الكلابي عبد الله بن علي بن عبد الملك ابن سمجون اللواتي عبد المنعم بن مروان بن عبد الملك علي بن عبد الرحمن بن سيداية علي بن محمد بن عذرة بن هاني عباس اليعصى عيسى أبو الاصمغ بن سهل أبو بكر محمد بن أحمد الفليحي محمد بن عبد الله بن حسن بن حسنونة محمد بن علي الأزدي محمد بن هشام بن أحمد بن موسى بن محمد هشام بن أحمد بن هشام اللال	أبو بكر بن منظور عبد الملك بن مسرة بن خلف عيسى أبو الاصمغ بن سهل عيسى بن الملاجوم أبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن خلف التجيبي أبو الوليد محمد بن رشد محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم ابن الوزان	أبو بكر بن العربي أحمد بن محمد بن عمر التميمي ابن شيرين شريح بن محمد بن شريح عبد الله بن خليفة أبو عبد الله محمد محمد بن داود ابن عطيه أبو القاسم بن داود أبو القاسم بن منظور محمد بن اسماعيل بن عبد الملك محمد بن داود بن عطيه بن سعيد

تابع : قضاء الأندلس

شرف الأندلس	الجزيرة الخضراء	بلنسية
محمد بن لبرهم بن أحمد بن أسود الفسائي	أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد الماعري عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الكتاني عبد الله بن علي بن عبد الملك ابن سمجون	اسماعيل بن مهمل
مرسية	إشتيرية الشرا	مالقة
أبو الحسين بن محمد بن سكره عاشر بن محمد بن عاصر أبو علي الصدق	ابن عبد الجبار بن عبد الرحمن	الحسين بن عبيد الله بن حسين الكتاني
جيان	الرية	البونف
عبد العظيم بن يزيد الحولاني	أبو الحسن بن أخشي عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن عبد النعم بن مروان بن عبد الملك	محمد بن عبد العزيز بن سعيد ابن عقال
حصن مرجيق	لاردة	استجة
ابن شبرين	أحمد بن هذيل الانصاري	أحمد بن محمد بن هذيل الانصاري
مالقة	شلب	شاطبة
عبد الرحمن بن قاسم الشعبي	ابن شبرين	عاشر بن محمد بن عاشر أبو بكر محمد بن خلف

ب — قضاة المغرب

فاس	مراكش	سبتة
<p>خلف بن خلف الله الصنهاجي عبدالحق بن معيشة الغرناطي عبد الله بن أحمد بن وشون عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي عبد الملك بن بيضاء القيبي عيسى بن الملجوم محمد بن حكم السرقسطي محمد بن داود بن عطية الجزولي محمد بن عبد الرحمن الكتامي محمد بن عيسى بن حسين التميمي محمد بن عيسى أبو عبد الله</p>	<p>خلف بن خلف الله الصنهاجي عبد الرحمن بن محمد الكتامي عبد الله بن إسماعيل الإشبيلي أبو عبد الله بن حسنون عبد الله بن محمد بن اللخمي موسى بن حماد الصنهاجي عبد الملك المصمودي يوسف بن عيسى بن الملجوم</p>	<p>إبراهيم بن أحمد البصري عبد الله بن حو عبد الله بن محمد بن إبراهيم رياض اليحصبي محمد بن داود بن عطية محمد بن عيسى بن حسين التميمي مروان عبد الملك اللواتي محمد بن محمد الأموي مروان بن عبد الملك اللواتي</p>

طنجة	اغمت	تلمسان
<p>مروان بن عبد الملك بن سمجون عيسى بن سهل الأسدي</p>	<p>خلف بن عمر بن خلف التيجي عبد الله بن إسماعيل الإشبيلي عبد الله بن علي بن أحمد اللخمي</p>	<p>علي بن عبد الرحمن بن سمجون محمد بن داود بن عطية</p>

مكناسة	سلا	وجدة
<p>عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي ، أبو موسى بن الملجوم</p>	<p>عبد الرحمن بن محمد الكتامي</p>	<p>عبد الله بن سعيد الوجدي</p>

أركي	دكالة	سجلماسة
<p>محمد بن الحسن الحضري</p>	<p>عبد العظيم بن يزيد بن هشام</p>	<p>عبد العظيم بن يزيد ابن هشام</p>

المراجع

أولا: المراجع العربية

المراجع العربية . —

- ١ — ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القاضي (ت ٨٦٥٩ هـ) .
• كتاب التكملة لكتاب الصلاة ، جزءان ، (مطبوع ١٨٨٦ م) .
- ٢ — • • • • • الحلة السراء .
- ٣ — • • • • • المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصديقي ، (مطبوع ١٨٨٥ هـ) .
- ٤ — أبو بكر الصنهاجي البيهقي .
• كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، (باريس ١٩٢٨)
- ٥ — ابن الأثير — أبو الحسن علي بن أبي الكرم (٨٣٦٠ هـ) .
• الكامل في التاريخ — عشرة أجزاء — (بولاق) .
- ٦ — أحمد بابا التيمكتي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عمر (من علماء أول القرن الحادي عشر)
• نيل الابتهاج بطريق الديباج (القاهرة ١٢٣٩ هـ)
- ٧ — الأدرسي — محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي (٦٤٩ هـ) .
• الغرب وأرض السودان ومصر والاندلس (لندن ١٨٩٤) .
- ٨ — اسماعيل رافت .
• التبيان في تخطيط البلدان — جزء واحد ، (القاهرة ١٩١٥) .
- ٩ — أشباح — يوسف .
• تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين — جزءان — (القاهرة ١٩٤٠) .
- ١٠ — الأصبهاني — أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٥٩٧ هـ) .
• خريدة القصر وجريدة العصر — الجزء الحادي عشر — مخطوط بمكتبة الجامعة
- ١١ — ابن أبي سيعة — موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٧٧ هـ) .
• عيون الأنباء في طبقات الأطباء — جزءان — نسخة مولر (القاهرة ١٨٨٢) .
- ١٢ — الأعمى التطيلي .
• الديوان — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ١٣ — اعز ما يطلب مشتمل على جميع تعاليق الإمام محمد بن تومرت بما أملاه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي — نسخة ليس بها ما يدل على سنة الطبع أو مكانها .
- ١٤ — أماري .
• مكتبة صقلية العربية — جزءان — (ليون سنة ١٨٨٧) .
- ١٥ — ابن بشار — أبو الحسن علي الششتري (ت ٥٤٢ هـ) .
• (م . ٣٠ — قيام دولة المرابطين)

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . —
 القسم الأول المجلد الأول والثاني — القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٢ .
 القسم الثاني والثالث — مخطوط بغداد — مكتبة الجامعة .
 القسم الرابع المجلد الأول — القاهرة ١٩٤٥ .
 القسم الرابع المجلد الثاني — مخطوط بقلم مغربي — مكتبة الجامعة .
- ١٦ — ابن بشكوال — أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٨٧ هـ)
 كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وعديثهم وفقهائهم وأدبائهم (مديد ١٨٨٢ م) .
- ١٧ — ابن بطوطة — أبو عبد الله محمد بن عبد الله محمد بن إبراهيم الأتاني (٧٧٩ هـ)
 تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
- ١٨ — البغدادي — أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد (٤٢٩ هـ) .
 الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم (القاهرة ١٩١٠ م) .
- ١٩ — البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز — (٤٨٧ هـ) .
 المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب — دي سلان — (الجزائر ١٨٥٧) .
- ٢٠ — التادلي — أبو يعقوب بن يوسف بن يحيى بن عيسى (حول ٩١٧ هـ) .
 التشوف إلى رجال التصوف — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٢١ — التيجاني — من أعيان القرن الثامن الهجري .
 الرحلة التيجانية — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٢٢ — جامع تواريخ فاس — طبع بمدينة تلمسان سنة ١٨٧٨ .
- ٢٣ — ابن جبير — أبو الحسين محمد بن أحمد (٦٢٤ هـ) .
 الرحلة — (لندن سنة ١٩٠٧) .
- ٢٤ — الجزنائي — أبو الحسن علي .
 زهرة الآس في بناء مدينة فاس — (تلمسان ١٩٢٢) .
- ٢٥ — جلد تسيهر . —
 العقيدة والشرعية — (القاهرة) .
- ٢٦ — حسن إبراهيم — الدكتور .
 النظم الإسلامية — (القاهرة ١٩٣٩) .
- ٢٧ — ابن حزم — أبو محمد علي بن أحمد — (٤٥٦ هـ) .
 كتاب الفضل في الملل والأهواء والنحل — ٤ أجزاء — (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
- ٢٨ — الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . لمؤلف مجهول الاسم — نشره
 أحمد علوش رباط ١٩٣٦ .
- ٢٩ — ابن حمديس — عبد الجبار أبي بكر محمد السرقوسي (٥٢٧ هـ) .
 الديوان — (روما ١٨٩٧) .
- ٣٠ — الحميدي — أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (٤٨٨ هـ) .
 جنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب
 وذوى النباهة والشعر — (القاهرة ١٩٥٢) .
- ٣١ — الحميري — أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (٨٦٦ هـ) .

- صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المطار — (القاهرة ١٩٣٧) .
- ٣٢ — ابن حوقل — أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي (أواخر القرن الرابع) .
المسالك والممالك — (ليدن ١٨٧٣) .
- ٣٣ — ابن خاقان — أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي (٥٣٥ هـ) .
قلائد العقيان — (القاهرة ١٢٧٣) .
- ٣٤ — : مطمح الأتقى ، القاهرة ١٣٢٥
- ٣٥ — الحشنى — محمد بن الحارث بن أسد
كتاب طبقات علماء إفريقية — (الجزائر ١٩١٤) .
- ٣٦ — ابن الخطيب — الوزير محمد لسان الدين (٧٧٦ هـ)
: الإحاطة في أخبار غرناطة — جزآن — (القاهرة — ١٣١٩ هـ) .
- ٣٧ — : أعمال الاعلام فيمن يبيع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام —
(رباط الفتح — ١٩٣٤) .
- ٣٨ — : رقم الحلل في نظم الدول — (تونس ١٣١٦ هـ) .
- ٣٩ — ابن خفاجة — أبو اسحق ابراهيم بن أبي الفتح الاندلسي (٥٣٨ هـ) .
الديوان — القاهرة (١٢٨٦ هـ) .
- ٤٠ — ابن خلدون — عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر — الجزء السادس — (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
- ٤١ — ابن خلكان — شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم (٦٨١ هـ) .
وفيات الأعيان وأنباء الزمان .
- ٤٢ — ابن خير — أبو بكر محمد بن عمر .
فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم —
(سرقطة ١٨٨٤) .
- ٤٣ — الدباغ — عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى (٦٩٦ هـ) .
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان — ٤ اجزاء — (تونس ١٣٢٠) .
- ٤٤ — ابن دحية — أبو الخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبي علي (٦٢٣ هـ) .
: كتاب التبراس في تاريخ خلفاء بني العباس — بغداد ١٩٤٦ .
- ٤٥ — : المطرب من أشعار أهل المغرب — مخطوط يدار السكتب (طبع الآن) .
- ٤٦ — دمشقى — شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب (٥٢٧ هـ) .
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر — (طربورغ ١٨٢٠) .
- ٤٧ — رينو — بول .
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ترجمه
وعلى عليه شكيب أرسلان — (القاهرة ١٣٥٢) .
- ٤٨ — ابن الزبير — أبو جعفر أحمد (٧٠٨ هـ) .
كتاب صلة الصلة — (الرباط ١٩٣٧) .
- ٤٩ — ابن أبي زرع — أبو الحسن علي بن عبد الله (٧٢٦ هـ) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس —

- (أوسالة ١٨٤٣) .
- ٥٠ — الزركشى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأؤلى .
تاريخ الدولتين الوحيدة والحفصية — (تونس ١٢٨٩هـ) .
- ٥١ — ابن زيدان — عبد الرحمن .
إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار جاضرة مكناش — ٥ أجزاء (الرباط ١٩٢٩) .
- ٥٢ — السقطى — أبو عبد الله محمد بن أبي محمد الماتى الأندلس .
آداب الحسبة .
- ٥٣ — السيوطى — أبو بكر بن محمد المغربي .
كتاب فى نسب بعض الصغابة والأشراف الإدريسيين وغيرهم من ملوك لتونة والموحدين
مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٥٤ — السيوطى — جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر الشافعى (٩١١هـ) .
بقية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة — (القاهرة ١٣٢٦) .
- ٥٥ — الشريف العلمى — أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب .
الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب — طابوع بالحجر بقلم مغربى .
- ٥٦ — الشهرستانى — أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (٥٤٨هـ) .
كتاب الملل والنحل — (ليزج ١٩٢٣) .
- ٥٧ — الضى — أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (٥٩٩هـ) .
بقية للتمس فى تاريخ رجال الأندلس — (مدرية ١٨٨٤) .
- ٥٨ — الطرطوشى — أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى (٥٢٠هـ) .
سراج الملوك — (القاهرة ١٢٨٩هـ) .
- ٥٩ — عبد الله بن بلكين (كان حيا فى القرن الخامس الهجرى) .
البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة نشره بروفنسال . انظر
Revue al — Andalus, 1935, 1941
- ٦٠ — ابن عبادون — محمد بن أحمد التجيبى (من رجال القرن الخامس) .
رسالة فى الحسبة — نشرها بروفنسال وعلق عليها .
- ٦١ — ابن عذارى المراكشى .
البيان المغرب — الجزء الأول والثانى والثالث ، ليدن (١٤٨ — ٢٨٥٠) وباريس
(١٩٣٠) .
- ٦٢ — أبو العرب — محمد بن أحمد بن تميم التميمى .
طبقات علماء تونس — (الجزائر ١٩١٤) .
- ٦٣ — ابن العماد الحنبلى — أبو الفلاح عبد الحمى بن العماد (١٠٨٩هـ) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — الجزء الثالث — (القاهرة ١٣٥٠هـ) .
- ٦٤ — عياض اليحصى (٥٤٤هـ) .
ترتيب المدارك وتقريب المسالك . مخطوط بدار الكتب فى أربعة أجزاء .
- ٦٥ — مشيخة القاضى عياض — مخطوط بقلم مغربى بدار الكتب المصرية .
- ٦٦ — الفرناطى — محمد بن عبد الرزيم المعروف بأبى حامد الأندلسى (٥٦٠هـ) .
تحفة الألباب ونخبة الأعجاب .

- ٦٧ — الغزالي — محمد بن محمد بن أحمد (٥٠٥هـ) .
أحياء علوم الدين .
- ٦٨ — أبو الفدا — الملك المؤيد إسماعيل صاحب حاة (٥٧٣١هـ) .
المختصر في أخبار البشر — ٤ أجزاء — (القسطنطينية ١٢٨٦هـ) .
- ٦٩ — ابن فرحون — برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد البصري (٥٧٩٩هـ) .
الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب .
- ٧٠ — ابن القاضي — أحمد بن محمد بن أبي العافية .
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، بقلم مغربي طبع الحجر .
- ٧١ — ابن القلاني — أبو علي حمزة (٥٥٥٥هـ) .
ذيل تاريخ دمشق — (بيروت ١٩٠٨) .
- ٧٢ — القلقشندي — الشيخ أبو العباس أحمد (٨٢١هـ) .
صبح الأعشى — الجزء الخامس — (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧) .
- ٧٣ — السكتاني — أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الحسني .
الأزهار العاطرة الأتقاس — بقلم مغربي طبع الحجر .
- ٧٤ — المالكي — أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله .
رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية وزهادهم وعبادهم ونسأكم وسير
من أخبارهم .
نشره وعلق عليه وقدم له الدكتور حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥١ .
- ٧٥ — مالك بن أنس .
الموطأ (دلى ١٣٠٢هـ) .
- ٧٦ — أبو المحاسن — جمال الدين يوسف تغرى بردى (٨٧٤هـ) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٣٢٤هـ) .
- ٧٧ — المراكشي — محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التيجي (٥٦٦٩هـ) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، (القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٤٢) .
- ٧٨ — ابن مريم — أبو عبد الله محمد ابن محمد المديوني .
البستان في ذكر الأولياء والعلماء بلسان ، (الجزائر ١٩٠٨) .
- ٧٩ — نبذ تاريخية جامعة في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع
المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤرخ مجهول الاسم ، ألفه سنة ٧١٢هـ . نشرها
بروفنسال ، (رباط ١٩٣٤) .
- ٨٠ — المقرئ — شهاب الدين محمد بن التلمساني (١٠٤) .
• • • أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض — ٣ أجزاء — (القاهرة ١٩٤٠) .
- ٨١ — • • • : فتح الطيب من غصن الاندلس الرطب — (القاهرة) .
- ٨٢ — المقرئ — تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ) .
• • • جنى الأزهار من الروض المعطار — مخطوط بدار الكتب المصرية .
- ٨٣ — • • • : شذرات العقود في ذكر النقود .
- ٨٤ — ابن المؤقت — محمد بن محمد بن عبد الله اللراكشي .

- السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية — مجلدان قلم مغربي طبع الحجر
٨٥ — مؤنس — حسين الدكتور .
» » الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين — مجلة كلية الآداب م ١١٠ — ج ٢ —
١٩٤٩ .
٨٦ — » » السيد القيوطي وعلاقاته بالمسلمين — مجلة كلية الآداب — العدد الأول
المجلد الثالث ١٩٥٠ .
٨٧ — النباهي — أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي (٧٢٦ هـ) .
الرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا — (القاهرة ١٩٤٨) .
٨٨ — نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى — نشرها بروفسال — باريس ١٩٤٨
٨٩ — النويري — شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم .
نهاية الأرب — الجزء ٢٢ — (غرناطة ١٩١٩) .
-

ثانياً - المراجع الأوروبية

- 1 - Altamera :
 - " " Spain (1031-1248)
 - " " Cambridge Medieval History, vol. VI Chapter XII.
- 2 - Annales de L'Institut d'Etudes Orientales (Faculté des Lettres de L'Université d'Alger) Tome I, Année 1934-1935, Tome II.
- 3 - Bassset(R.) :
 - " " Melanges Africains et Orientaux, Paris, 1915.
- 4 - " " Mission au Senegal 1, Paris 1918.
- 5 - Barth (H.) :
 - Travels and discoveries in North and Central Africa in the years 1809-1855, London 1858, 5 vols.
- 6 - Bel (A.) :
 - Almoravide : Encycl. of Islam.
- 7 - " " Ali Ben Yousof : Encycl. of Islam.
- 8 - " " Les Benou Ohanya, Paris 1903.
- 9 - " " La Religion musulmane en Berbérie, établissement et développement de l'Islam en Berbérie du VII au XX Siecle, Tome I, Paris 1938.
- 10 - Ben Cheneb (M.) :
 - Etude sur les Personnages mentionnés dans l'Ildjaza du Cheikh Abd El Qadir El Fasy, Paris 1907.
- 11 - Bjorkmann (W.) :
 - Litham : Encycl. of Islam.
- 12 - De Cenival (P.) :
 - Marrakoch : Encycl. of Islam.
- 13 - Cedera (F.) y Zaidin :
 - Tratado de Numismatica Arabigo-Espanola, Madrid, 1879.
- 14 - Colin (G. S.) :
 - " " Lamta : Encycl. of Islam.
 - " " Lamtouna : Encycl. of Islam.

- 16 — Cooley (W D) :
The Negroland of the Arabs, London 1841.
- 17 — Delafosse (M.) :
“ “ Chroniques du Fouta Sènegalais, Revue du Monde Musul-
man ‘ Tome 25, 1913.
- 18 — “ “ Senegal : Encycl. of Islam.
- 19 — Demombynes (G.) :
Masalik El Absar Fi Mamalik el Amsar, L'Afrique moins
l'Egypte, traduit et annoté avec une introduction et Cartes,
Paris 1927.
- 20 — Doutté (E.) :
“ “ Notes sur l'Islam Maghribin “Les Marabouts”, Paris 1901.
- 21 — “ “ Abdallah Ibn Yassin : Encycl. of Islam.
- 22 — “ “ Encycl. of Islam.
- 23 — Dozy (R.) :
“ “ Histoire des Musulmans d'Espagne, Leyde 1861.
- 24 — “ “ Historia Abbadidarum, 2 vols, Leyde 1846.
- 25 — “ “ Recherches sur l'Histoire et la Littérature de l'Espagne
pendant le moyen age, Leyde 1881, 2, vols.
- 26 — Duruy (V.) :
Histoire du Moyen age depuis la chute de l'empire d'Occident
jusqu'au milieu du XV Siècle, Paris 1884.
- 27 — Duveyrier (H.) :
Exploration du Sahara : Les Touareg du Nord, Paris 1864.
- 28 — Fournel (H.) :
Les Berbères, Tome I, Paris, 1875.
- 29 — Gautier (E. F) :
“ “ La conquête du Sahara, Paris 1915.
- 30 — “ “ Les Siècles Obscurs du Maghreb, Paris 1927.
- 31 — Gayangos (P.) :
The History of the Mohammedan dynasties in Spain, extracted
from the Nafhu-t-tib, 2 vols, London MDCCCXL.
- 32 — Goldziher (I) :
Mohammed Ibn Toumart et la theologie de l'Islam dans le
Nord de l'Afrique au XI Siècle, Alger 1903.

- 33 — Hamet (I.) :**
La civilisation Arabes en Afrique Centrale, Revue du Monde Musul. Avril, 1911, Tome XIV.
- 34 — Hoogoliet (M.) m :**
Specimen e litteris orientalibus diversorum scriptorum locos de regia Aphtasidarum familia de Ibn Abdune poeta (ex. MSS. codicibus) bibliotheca Leidensis.
- 35 — Juan de dios de la Radá :**
Catalogo de Monedas Arabigos-Espanolas que se conservan en el museo arqueologica National, Madrid 1892.
- 36 — Julién (A.) :**
Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1931.
- 37 —** Katalog der Orientalischen Münzen (Konigliche Museum zu Berlin) 2 vols., Berlin 1898.
- 38 — De la Chapelle (F.) :**
“ “ Esquisse d'une histoire de Sahara Occidental, Hespéris, année 1930, Tome XI.
- 39 — “ “** Note présenté au congrés par le Colonel Asensie au nom de la delegation du gouvernement Espanol, Hespéris, Année 1930 t. XI.
- 40 — Lane-Poole (S.) :**
Catalogue of the collection of Arabic coins in the Khedivial Library at Cairo, London 1897.
- 41 — Lavoix (H.) :**
Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationales de Paris DCCCXCI.
- 42 — Lavust (E.) :**
L'Habitation chez les transhumants du Maroc Centrale, Hespéris, Tome XVIII, 1934.
- 43 — Lemann (A.) :**
L'Origine de l'Idée de la Croisade, Hespéris, 1937, T. XXIV.
- 44 — Lévi-Provençal :**
“ “ Un manuel Hispanique de Hisba sur la surveillance des corporation et la repression des fraudes en Espagne, Musulmane, Paris DCCCXXXI.
- 45 — “ “** Inscriptions Arabes d'Espagne, Leyde, 1931.

- 46 — Lévi-Provençal
" " Séville Musulmane au début du XI^e Siècle: Le Traité d'Ibo Abdun, Paris 1947.
- 47 — " " La Mora Zaida, femme d'Alphonse VI, Hesperis, 1934, t. XVII.
- 48 — " " Le Cid : Encycl. of Islam.
- 49 — " " Sous : Encycl. of Islam
- 50 — Marçais (G.) :
Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e Siècle, Paris 1913.
- 51 — " " Manuel d'Art Musulmane: L'Architecture, Tome I, Paris 1926.
- 52 — " " Sanhaja : Encycl. of Islam.
- 53 — " " Ribat : Encycl. of Islam.
- 54 — Macdonald (D. B.) :
Djihad : Encycl. of Islam.
- 55 — Du Mas Latrie (M. L.) :
Traités des paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Sep. Paris, 1866.
- 56 — Muller (M. J.) :
Geschichte der westlichen Araber herausgegeben, Muchen, 1866.
- 57 — Perés (H.) :
La poésie a Fés sous les Almoravides et les Almohades, Hesperis 1934, Tome XVIII.
- 58 — Pidal (M.) :
The Cid and his Spain, London, 1934.
- 59 — Pirenne (H.) :
Mahomet et Charlemagne, Paris 1937.
- 60 — Prieto y Vives (A.) :
Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.
- 61 — Rodd (F. R.) :
People of the Viel, London 1926.
- 62 — De la Roncière :
La découverte de L'Afrique au moyen age.

- 63 — Scott (S. P.) :
History of the Moorish Empire in Europe, vol. II, London,
1904.
- 64 — De Slane (M.) :
Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de
l'Afrique Septentrionale : Introduction, Alger 1852.
- 65 — Stevenson (W. B.) :
The First Crusade : Cambridge Medieval History, vol, V, .
Chapter VII.
- 66 — Strothmann (R.) :
Tachbih : Encycl. of Islam.
- 67 — Terrasse (H.) :
“ “ L'Art Hispano - Mauresque des origines au XII Siecle, .
Paris MCXXXII.
- 68 — “ “ Les Arts decoratifs au Maroc, Paris 1924.
- 69 — “ “ Histoire du Maroc, des origines a L'etablissement du
Protectorat Français, Casablanca, 1946.
- 70 — Van Berchem (M.) :
Titres Califien d'Occident. J.A.S., X serie, Tome IX, 1907.
- 71 — Vives (A.) :
Monedas de las dinastias arabigo-Espanola, Madrid 1893.
- 72 — Yver (G.) :
Adrar : Encycl. of Islam.
-

کشاف

(١)

- إبراهيم بن أبي بكر بن عمر : ٢٨٨ ، ٢٣٦ ، ٢٨٨ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ .
 إبراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهواري : ٤٣٥ .
 إبراهيم بن اللتوني : ٣٠٦ .
 إبراهيم بن تاشفين بن يوسف : ٣٤٧ .
 إبراهيم بن تاعياشت : ٣٥٠ ، ٣٤٩ .
 إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عصام بن أمية : ٣٦٧ .
 إبراهيم بن يحيى بن محمد بن ينيق : ٤٣٥ .
 إبراهيم بن يوسف بن تاشفين : ٣٤٩ ، ٤٢٢ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ .
 أبو بكر بن إبراهيم اللتوني : ٣١٥ .
 أبو بكر بن الأبيض : ٤٣٦ .
 أبو بكر بن باجة : ٤٠٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٣٧ .
 أبو بكر بن تيفلويت : ٣٤٩ .
 أبو بكر بن الروح الإشبيلي : ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
 أبو بكر بن سير الصنهاجي : ٤٣٩ .
 أبو بكر بن الصائغ : ٣٥٣ .
 أبو بكر الطرطوشي ، الفقيه : ٣٢٣ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ .
 أبو بكر بن الضيب : ١١٠ .
 أبو بكر بن علي بن يوسف : ٣٤٩ .
 أبو بكر بن عمر ، أمير المرابطين : ١٢٧ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢٦٤ ، ٢٢٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٣٥٤ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ .
 أبو بكر بن القصيرة : ٢٧٣ .
 أبو بكر بن محمد اللتوني : ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
 أبو بكر بن مزدلي : ٣٤٩ .
 أبو بكر بن يوسف بن تاشفين : ٢٨٦ .

- أحمد بن حنبل ، الإمام : ٩٥ ، ١٨٢ .
 أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري : ٤٤١ ، ٤٣٥ .
 أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الخزرجي : ٣٧٠ .
 أحمد بن عبد الرحمن الهواري ، أبو : العباس : ١٠٦ .
 أحمد بن عبد الله القيسي ، الأعمى التطيلي : ٤٣٦ .
 أحمد بن عمر ، القائد المعروف برقم الأوزة : ٣٩٣ .
 أحمد بن محمد اخولاني ، أبو عبد الله : ٤٤٠ .
 أحمد بن محمد ، أبو جعفر ، المعروف بابن البقي : ٣٧٢ .
 أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خابط الباجي : ٤٣٥ .
 أحمد بن محمد بن الصلت القرشي ، أبو الحسن : ١١٠ .
 أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي : ٤٣٨ .
 أحمد المحتظرون بالله ، أبو العباس ، الخليفة العباسي : ٣٣٣ .
 أحمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي : ١٠٦ .
 أخيل بن إدريس الرندي : ٣٧٠ .
 إدريس بن عبد الله الحسني : ١٥ ، ٣٢ ، ٧١ ، ٦٩ .
 أدولف الثالث : ٣٤٧ .
 أربونة ، مدينة : ٢٤٣ .
 أرغونة : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ .
 أركي ، مدينة بالمغرب الأقصى : ٤٥ ، ٧٣ .
 أزقي ، مدينة بصحراء المغرب : ٦٢ .
 الأزهر بن عبد الله : ١٣٩ .

أزواد ، صحراء تيسر : ٢ ، ٤٦ .

أسند بن القزات : ٩١ .

أسكندر الثاني ، البابا : ٢٤٩ ، ٢٩٠ .

الاسكندرية : ٣٢٣ ، ٤٠١ .

إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر :

٦٥ ، ٩٠ .

بلاد أشتوريشن : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

أشيلية : ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ،

٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ،

٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،

٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،

٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ،

٤١٠ ، ٤١٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤٦ ،

٤٥٠ ، ٤٥١ .

أشير ، مدينة بالمغرب الأوسط : ٧٩ .

أصيل ، من مدن المغرب : ١٠٥ .

أغصان : ١٩ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٩٠ ، ١٠٦ ،

١٠٩ ، ١٧٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،

٢٠١ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٣٥٢ ،

٣٥٥ ، ٣٩٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ،

٤٤٩ .

المغربية : ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ،

٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٧ ،

٤٧ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

٦٣ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٥ ،

٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ،

١٤٦ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٨٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٣٦ ،

٤٤٨ ، ٤٤٩ .

أفكان ، مدينة بالمغرب : ٣٩ .

أقر سيف : ٢٠٦ .

إقريطش ، أو كريت : ٢٣٨ .

أقليشن ، من مدن أسبانيا : ٢٨٩ ، ٣٢١ .

البرسين ، من مدن أسبانيا : ٣١٠ .

ألبوت : ٣١٠ .

ألقونسو السادس : ٢٥٢ — ٢٥٥ ، ٢٦٥ ،

٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،

٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ،

٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،

٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،

٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،

٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،

٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،

٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ،

٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ،

٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ،

٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ،

٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،

٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٢ ،

٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،

٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧ ،

٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،

٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،

٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،

٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ،

٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ،

البحر الأبيض المتوسط : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤

٢٥ ، ٢٩ ، ٥٧ ، ١٣٧ ، ١٨٧ ، ٢١٦

٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢١٨ ، ٢٣٨

٢٤٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٨

٢٣٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٤٠٠ ، ٢٤٩

بدر بن ورقاء ، أبو عبد الله : ٢٤٩

٢٥٠

البرانس ، من شعوب المغرب : ٢٨ ، ٢٩

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٦

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥

٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١

٨٣ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٥

٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٤٣

٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

بريشتر : ٢٤٤ ، ٢٤٩

برجندية : ٢٢٦

برجونية : ٢٥٣

برشلونة : ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣٠٩ ، ٣٩٤

برغش : ٣٠٩

برغواطة ، قبيلة : ٣٤ ، ٦٨ ، ١٦٨

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١١

٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

٢٢٣ ، ٢٩٢

برقة : ١٣ ، ٥٩ ، ١٢٩ ، ٧٣٦

البرهانس : ٢٧٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٨

٣٢١

بسطة : ٢٩٣

سكرة : ٨

شكفس ، شعب : ٢٤٩

شير اللستيري : ٩٢٣

بطليوس : ٢٥١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٤ ، ٣٧٥

٢٧٦ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ ، ٤٢٢

بمداد : ١٧٦ ، ٩٨٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

بقية بن الوليد : ١٢١

أودغشت : ٤٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٥

٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١١٤

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢

٢٠٨ ، ٣٩٧ ، ٤٠٠

أوراس ، جبال : ٣٢ ، ٣٥ ، ٥٩ ، ٧٦

أورية ، قبيلة : ٣٦

أوروبا : ٨٩ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ، ٢٢٨

٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٧٢

٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٢٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٣

٤٣٦

أوريشه ، قبيلة : ٣٦

أوليل ، مدينة بالمغرب الأقصى : ٤٦ ، ٥٧

٨٨ ، ١٢٥

الإيرو ، نهر : ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٩٠

٣٠٦ ، ٣١٩

أيتواري ، قبيلة : ٤٠

أيدة ، من مدن الأندلس : ٣٠٩

إيطاليا : ١٢٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤

٢٤٩ ، ٣٢٩ ، ٣٩٥ ، ٤٠١

أيوب بن سعيد المشاجي ، أبو شعيب :

٤٣٩

(ب)

باجة ، إمارة مشهاجة : ٦٨

باديس بن النصور : ٨٢

باري ، مدينة : ٢٤٨

باريس : ٥٠

البت ، من شعوب المغرب : ٢٧ ، ٢٨

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥٩

٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣

١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٣

٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧

بجاجة : ١٠٩ ، ١٧٩

تقري : ٣٦ .
 ترغوة ، قبيلة : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٨ ،
 ٥٤ ، ٦١ ، ٧١ .
 تسول : ٢٠٤ .
 التكرور : ٤٥ ، ٦١ ، ١٥٠ .
 تلمسان : ٤٢ ، ٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٦ ،
 ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠٦ ، ٢٠٦ ، ٢٢٨ ،
 ٢٦٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،
 ٢٩٦ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٠ .
 تمارون : ٢٤٩ .
 تميم بن معنصر بن المعز بن زيري : ٧٤ ،
 ٢٠٤ .
 تميم بن يوسف بن تاشفين ، أبو الطاهر :
 ٢٢٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،
 ٤١٦ .
 تميمه بنت يوسف بن تاشفين : ٤١٦ ،
 ٤٤١ .
 تنس : ٢٠٦ .
 تهودة : ٦٢ .
 ثوات : ٥٧ ، ٣١١ .
 تور : ٢٤٣ .
 تونس : ٣٣ ، ٧٦ .
 تيجنساس : ٧١ .
 تيطنططر ، رباط : ١٣٦ .
 ابن تيفلويت : ٤٠٧ ، ٤١١ ،
 ثيا ماناوت ، قرية : ١١٤ .
 التبير ، نهر : ٢٢٨ .
 تيولوتان بن تيكلان : ٧٢ ، ٧٤ .
 تيهرت : ٧٧ ، ٧٩ .

(ج)

جبال أطلس : ٢١٦ ، ٣٩٧ ، ٤٥٣ .
 جبل طارق : ١٩ ، ٢٦٥ ، ٤٣١ .
 جبلة بن حمود بن عبد الرحمن بن مسلمة ،
 أبو يوسف : ١٣٣ .

بلكين بن زيري بن مناد : ٣٢ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢١٢ .
 بلنسية : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ،
 ٢٩٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
 ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ،
 ٤١٩ ، ٤٣٢ .
 البليار ، جزر : ٣٢٩ ، ٣٩٤ .
 بنبلونة : ٢٤٣ ، ٢٤٧ .
 البندقية : ٢٤٠ .
 البهلول بن راشد : ٩١ .
 بورجرج : ٣٤ .
 بونة : ٢٤١ .
 بياضة : ٣٠٥ .
 بديار : ٣٠٩ .
 بيت المقدس : ٣١١ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ .
 بيزين : ٣١٧ .
 بيزة : ٢٤٠ ، ٣٠٦ .

(ت)

تاجة ، نهر : ٢٨٩ ، ٢٧٤ ، ٢٥٢ .
 تاجدة : ٧٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٢٩ .
 تادمكة : ٤٤ ، ٤٦ .
 تادر ودانت : ٦١ ، ١٢٤ ، ٢١٠ ، ٢١٢ .
 تازكاغت : ٤٠ .
 تازة ، أو تازا : ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ١٢٤ ،
 ١٣٦ .
 تاشفين بن علي : ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٨٠ .
 تاشفين بن يوسف : ٣٤٧ .
 تافلات : ٥٧ ، ١٩٣ ، ٢٩١ .
 تافكرات : ٣٦٦ .
 تاسنا : ٧٠ ، ٢٢٩ .
 تانسيفت ، نهر : ٤٥٣ .
 تابللا : ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٨ .

الحكم المستنصر : ٨١ .
ابن حمديس الصقلي : ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٤٤٢ .
ابن حمدين ، بو عبد الله : ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ .
حنظلة بن صفوان : ٦٧ .

(خ)

خالد بن حامد القهمي : ٦٧ .
خالد بن حميد الزناني : ٩٠ .
بنو خزرون : ٧٦ ، ٨١ .
ابن خفاجة : ٣٠٨ ، ٣٤١ ، ٤٤٢ .
خلف بن خلف الله المصنجاجي : ٤٣٨ .

(د)

دار الحجر : ٣٢٨ .
دانية : ٢٨٩ .
داود الأصفهاني : ١٨٢ .
أبي سليمان داود بن عائشة : ٢٢٨ ، ٢٢٨ .
٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
جبال درن : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٤٣ .
٤٤ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ .
١١٤ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٥٤ .
١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٦ .
دماشيا : ٢٣٨ .
دوكالة : ٤٠ ، ١٠٥ ، ٣٤٨ .
دويرة : ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(ر)

الراشد بن المتمدن بن عباد : ٢٦٥ .
رامون برنيجار . السكوات : ٣١٠ .
ابن رشيق : ٣٩٤ ، ٢٩٥ .
الرقعة : ٤٤٨ .
الرملة : ٢٤٨ ، ٢٥١ .
رندة : ٣٠٥ .
روجر : ٣٣٠ ، ٣٩٤ .

جدالة ، قبيلة : ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٣ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٥ ،
١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢١ ، ٤٠١ .

جندوبة : ١٩٦ .

جروور الحشمي ، القائد : ٣٧٨ .

بلاد الجريد : ٣٣ .

الجزائر : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٢٠٦ .

جزولة ، قبيلة : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦١ ،
١٠٤ ، ١١٤ ، ١٥٢ ، ١٩٦ .

الجزيرة الخضراء : ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،
٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠ .

جزيرة شقر : ٣١٨ .

جزيرة طريف : ٣٠٢ .

أبو جعفر بن النبي : ٣٥٣ .

جعفر بن حجاج ، القاضي : ٨٠ ، ٣١٠ ،
٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ .

أبو جعفر بن حجر : ٤٣٣ .

جعفر بن شرف ، أبو الفضل : ٣١٨ .

جعفر بن علي الأندلسي : ٨٠ .

جليقية : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

جنوة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ .

جيان : ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٢٠ .

(ح)

حبيب بن أبي عبيدة : ٦٧ .

الحجاز : ١١٠ .

حسان بن النعمان : ٦٣ ، ٩٠ .

أبو الحسن بن أخشى : ٤٤٣ .

أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : ١٤٢ .

الحسن بن كنون الأدرسي : ٨١ .

أبو الحسن اللواتي : ١٣١ .

الحصري القيرواني : ٢٤١ .

ابن حفصون : ٧٨ .

سبعة : ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٠٥ ،
١١٥ ، ٢٦٩ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٦٧ ، ٢٠٢ ،
٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨ ،
٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٢٥ ، ٤٣١ .

سجاسة : ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٨ ،
٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
٨٨ ، ٨٩ ، ١٠٦ ، ١٢٠ ، ١٥٢ ،
١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ،
٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ،
٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٩٧ ، ٤٣١ .

سحنون بن سعيد : ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ،
١٢٩ .

سدراته ، قبيلة : ٢٠٢ .

سرة : ٣٩ .

سردانية : ٦٩ ، ١٣٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
٢٤١ ، ٢٢٩ .

سرقسطة : ١٠٩ ، ٢٤١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٩ ،
٢٢٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢ .

سرقوسة : ٢٢٧ .

سعيد بن اسحق الفقيه : ١٣١ .

أبو سعيد بن اسحق السكلي : ١٢٣ .

أبو سعيد بن محمد اخداد : ٩٥ .

سلا : ٧٦ ، ١٣٦ ، ٢١٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،
٢٧٢ .

سلمية : ٢٨٤ .

سليمان بن هود : ٢١٣ .

سمطة : ٤٠ .

السنغال : ١٩ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ٢٥ ،
٦١ ، ٦٢ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٢٥ ،
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٤٠ ،
١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ،
١٦٨ ، ١٨٦ ، ٢٣٤ ، ٢٨٠ ، ٢٢٥ ،
٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ .

رودس : ٢٣٥ .

روما : ٢٣٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

(ز)

الزاب : ٢٦٩ .

زاوي بن مناد بن عطية : ١٠٦ ، ٤٣٨ .

الزبير بن عمر اللعنوني : ٢٥٢ ، ٢٤٩ .

زغاوة ، قبيلة : ٤٠ .

الزلاقة : ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ،

٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ،

٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥ ،

٣٧٨ ، ٣٩٠ .

زفانة ، قبيلة : ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ،

٣٤ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٦ ،

٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،

١٠١ ، ١١٤ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٨٩ ،

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ،

٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٧ ، ٢٧٧ ، ٢٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ،

٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

زهير بن قيس البلوي : ٦٣ ، ١٢٩ .

زواغة ، قبيلة : ٢٣ ، ٢٠٢ .

زواوة ، قبيلة : ٢٣ .

زويلة : ٢٤١ .

زينب ، زوج يوسف بن تاشفين : ٥٢ ،

٤١٦ .

زيري بن عطية : ٨٢ .

زيري بن مناد الصنهاجي : ٧٩ .

(س)

ابن سارة الشتريني : ٤٤٢ .

سالم بن راشد : ٢٣٩ .

سامراء : ٤٤٨ .

شتمرية الشرق : ٣٠٥ .

(ص)

صالح بن طريف : ٦٨ .

صديقة ، قبيلة : ٣٣ ، ٢٠٢ .

صقلية : ٦٩ ، ١٠٩ ، ١٢٨ ، ١٤٦ ، ٢٢٧ .

٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٨٠ .

٣٩٥ ، ٣٩٤ .

صفافه ، قبيلة : ٤٦ .

صنهاجة ، قبيلة : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٤ ،

٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ،

٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ،

٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٥٣ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،

١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،

٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،

٢٣٢ ، ٣٤٢ ، ٣٤٨ ، ٣٥٨ ، ٣٧٨ ،

٣٧٩ ، ٣٩٩ ، ٤١٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ،

٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٨ .

صيفرو ، قلعة بالغرب : ٢٠٢ .

(ط)

طارق بن زياد : ١٤ .

طارقات : ٢٣٨ .

طينة : ٨٠ .

طرابلس : ١٣ ، ٢٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٨ ،

٧٧ .

طرطوشة : ٢٣٩ ، ٣١٠ ، ٣١٣ ، ٤٣٢ .

الطرطوشي ، أنصر أبا بكر .

طرقونة : ٢٣٩ .

طلحة بن العنبر : ٣٤٩ .

طليطلة : ٢٥١ ، ٤٢٥ ، ٦٦ ، ٧٤٢ ،

٢٧٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ،

٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٤١٩ .

سنلوكة ، ٣٦٢ .

السبلة : ٣٠٥ ، ٣١٩ .

السودان الغربي : ١٨ ، ١٩ ، ٢٩ ، ٤٣ ،

٤٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٢ ،

٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٣ ،

١١٥ ، ١٢٧ ، ١٥٣ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ،

٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ،

٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،

٤٠٦ .

بلاد السوس : ٢٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١١١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ،

٢٢٩ ، ٢٩٧ .

سوسة : ١٣٨ .

سيد بن أبي بكر الامتوني : ٢٢٣ ، ٢٢٩ ،

٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٨٥ ،

٣٩١ ، ٤٢١ .

سيد بن أبي بكر بن محمد عبد المجيد ابن

مهدون : ٣٥٣ .

سيد بن يوسف : ٢٤٧ .

(ش)

شارل مارتل : ٢٤٦ .

شاطبة : ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ ، ٤٣٢ .

بلاد الشام : ٥٩ ، ٧٠ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

٢٣٥ ، ٣٦٦ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٤٨ .

شانت ياقب : ٢٤٨ .

شاهجة بن غرسية ، الكبير : ٢٤٥ ،

٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ .

ابن شبرين القاضي : ٣٥٢ .

شرلمان : ٢٤٠ ، ٢٤٧ .

شقشاوة ، من مدن المغرب الأقصى : ١٩٦ .

شقوره : ٢٩٣ ، ٣٠٥ .

شلب : ٣٠٥ ، ٤٣٢ .

شنترين : ٣٠٥ ، ٣٩١ .

أبو عمران بن أبي تليد : ٤٣٣ .
أبو عمران القاسي : ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ .
عمرو بن عبد الله : ١٤ .
عياض اليحصي : ١ ، ٤٣١ ، ٤٣٣ .
عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي :
٣٧٠ .
عيسى بن ميمون : ١٩٣ .

(غ)

غاليسيا : ٢٥٢ .
قانة : ٤٥ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٧٥ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١١٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ :
غدامس : ٣٣ ، ٤٤ .
ابن الفرديس : ١٠٦ .
غرناطة : ٣٥٥ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،
٣٧٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٣٠٠ ،
٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣ ، ٤٢٨ .
الغزالي : ١٧٤ ، ١٨٥ ، ٣٠٢ ، ٣٢٣ ،
٤٤٣ ، ٤٤٦ .
عمارة ، قبيلة : ٣٤ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٧ ،
٣٩٨ .

(ف)

فازاز : ١٩٩ ، ٢٢٩ .
فاس : ١٩ ، ٣٠ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٧٨ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،
١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٧ ،
٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٤٠٦ ،
٤١٨ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ،
٤٣١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ .

العراق : ١١٠ ، ٣٦٦ ، ٤٤٨ .
بنو عزون : ٢٧٠ .
عقبة بن نافع القهري : ١٤ ، ٥٦ ، ٥٩ ،
٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧١ ، ١٢٩ ،
١٩٣ .
أبو العلاء زهر بن عبد الملك : ٤٣٦ ،
٤٣٧ .
ابن علقمة : ٣٠٨ .
علي بن أبي طالب : ٩٥ .
علي بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله ابن
حرزم : ٤٤٠ .
أبو الحسن علي بن الحاج : ٣٤٩ .
علي بن زياد التونسي : ٩١ .
علي بن عبد العزيز الأنصاري : ٣٥٣ .
علي بن عبد الله البجلي : ٢١١ .
علي بن عيسى بن ميمون : ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
علي بن القاسم : ٩١ .
علي بن مجنون ، الأمير : ٣٥٠ .
علي بن ميمون : ٣٩٣ .
علي بن يوسف بن تاشفين : ١٧٩ ، ١٨٠ ،
٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ،
٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ،
٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٢٢ ،
٤٢٨ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ،
٤٥٢ ، ٤٥٣ .

أبو علي الفسائي : ٤٣٣ .
أبو علي الصدوق : ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ .
عمر بن أدريس : ٧١ .
عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجي : ٣٥٠ ،
٤٣٩ .
عمر بن سليمان السوقي : ٢٢٣ ، ٢٢٩ .
عمر بن عبد العزيز : ٦٥ .
عمر بن عبد الله المرادي : ٦٦ .

فردنانس الأول : ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،
٣٠٩ ، ٣٢٢ .
قرسا : ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٩٠ ،
٣١٩ ، ٣٢٥ .
فروخ بن سمعون : ١٣٤ .
فزان : ٤٧ ، ٨٧ .
فلورنسا : ٤٠٣ .

(ق)

قابس : ٦٨ .
القادر بن ذى النون : ٣٠٧ ، ٣١٠ ،
٣١٤ .
القادسية : ٢٨٤ .
قادش : ٣٩٣ .
القاسم بن ابى العافية : ١٣٦ .
القاسم المكناسى : ٢٠٢ .
القائم بن عبيد الله : ٧٨ .
القائم بن القادر ، أبو جعفر عبد الله :
٣٣٥ .

قبرص : ٢٣٥ .

قرسقة : ٢٣٧ .

قرطاجنة : ٥٩ ، ٢٣٩ .

قرطبة : ٧٩ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ٢٥٥ ،
٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٣ ، ٤١١ ،
٤١٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٨ ،
٤٥٢ ، ٤٥٠ .

قرونة : ٣٠٥ .

أبو قرعة القرني : ٩١ .

قريش : ٣٢٢ .

القسطاطينة : ٢٣٥ ، ٤٠٣ .

قشالة : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ ،

٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،

٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
قطا لونية : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ،
قلمرية : ٢٤٨ ، ٢٥١ .
القمبياطور : ٢٨٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ،
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،
٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٩٣ ، ٤١٩ .
قونية : ١٣٤ .

قورية : ٢٧٤ ، ٢٧٦ .

قوصرة : ٢٢٨ .

قوكة : ٢٨٩ ، ٣٥٢ .

القيروان : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٥٨ ،
٥٩ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٠ ، ٩١ ،
٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠٣ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٦ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٧٣ ، ٢٢٥ ، ٢٩٧ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
٤٤٨ ، ٤٢٦ .

(ك)

آل كايبة : ٢٥٣ .

كاكدم ، قبيبة : ٤٠ .

الكاسم : ٨٧ .

كتامة ، قبيلة : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٧٧ ،
٣٢٥ .

كسيلا بن لزم الأوربي : ١٤ ، ٥٦ ، ٤٩ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

كثوم بن عياض اليحصي : ٦٧ .

كوكو : ٤٦ .

كونستانس : ٢٥٣ .

(ل)

لاردة : ٢٨٩ ، ٣١٠ .

لانجدوك : ٢٩٠ .

لقوط بن يوسف بن علي الغراوى : ١٩٧ .

لابة : ٢٠٢ .

لتاد بن نصير اللتوني : ١٥٨ .

لتونة ، قبيلة : ٣٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٥ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ٢٠٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٧٨ ،

٢٨٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ،

٣٤٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥ ، ٣٥٨ ، ٣٤٨ ،

٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ،

٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٣٧ .

لطة ، قبيلة : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ ،

٨٨ ، ١٥٢ .

لوانة قبيلة : ٣٣ ، ١٩٩ .

لورقة : ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،

٢٩٩ .

ليون : ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٣١٩ ،

٣٢٩ ، ٤١٧ ، ٤١٨ .

ليبطة ، حصن : ٢٥٥ .

(م)

مادغيس ، جد البقر : ٣١ .

مازيغ بن كنعان : ٣١ .

ماسة : ٦١ ، ٧٠ ، ١٩٦ .

مالقة : ٢٣٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٥٢ .

مالك بن أنس : ٣٩ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٠ ،

١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،

١٣٥ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ،

١٨٥ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٤١٩ ، ٤٣٣ ،

٤٤٣ .

مالك بن وهيب : ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ .

الأمون بن العتمد : ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٣٦ .

المتوكل بن الأفطس : ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ،

٣٠٤ ، ٣٠٥ .

مجاهد العاصري : ٢٢٧ ، ٢٤١ .

محمد بن ابراهيم بن أحمد بن أسود الصاني :

٣٦٧ .

محمد بن أحمد بن ابراهيم بن السقاط : ٤٣٤ .

محمد بن أحمد بن خلف ، ابن الحاج : ٣٦٨ .

محمد بن أغلب بن أبي الدوس : ٤٣٥ .

محمد بن تاشفين ، أبو عبد الله : ٣٤٩ .

محمد بن تميم الحدلي . ٢٢٣ .

محمد بن تومرت المصمودي : ١٩ ، ١٧٦ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

١٨٤ ، ١٨٥ .

محمد بن الحاج ، أبو عبد الله : ٣٠٥ ، ٣١٨ ،

٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥ .

محمد بن حسين بن محمد بن غريب الأنصاري :

٤٣٥ .

محمد بن حكيم بن محمد ، ابن باقى الحزامي :

٤٣٥ .

أبو محمد بن حكيم : ١٣١ .

محمد بن حيدر النعافري : ٤٣٣ .

محمد بن خزر الزناني : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ،

محمد بن سحنون : ١٤٦ .

محمد بن سليمان الكلاعي : ٤٣٤ .

أبو بكر محمد بن سوار الأشبوتي : ٣٣٩ .

أبو عبد الله محمد بن عائشة : ٣٥١ .

محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز . ٣٥٣ .

أبو محمد بن عتاب : ٤٣٩ .

محمد المتعبد ، أبو عبد الله : ١٣٣ ، ١٣٤ .

محمد بن مزدلي : ٣١٨ .

محمد بن مسعود التميمي ، أبو بكر : ١٣١ .

مخلد بن كيداد ، أبو يزيد : ٧٩ ، ٩٧ .

مدرك التلكاتي : ٢٢٣ .

مديونة ، قبيلة : ٣٣ ، ٢٠٢ .

المرابطون : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٢ ،

٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

مزدل بن سلسكان ، القائد : ٣٢٨ ، ٣٤٨ .

٣٤٩ ، ٣٥٥ ، ٣٨٥ ، ٤٤٠ .

الستين بن هود : ٣٠٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٩ .

ابن مسرة : ٤٤٤ ، ٤٤٩ .

مسعود بن وانودين بن خزرون الفراوي .
١٩٤ ، ١٩٣ .

مسوفة ، قبيلة : ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٦ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ٣١٥ .

المسيلة : ٣٦ ، ٨٠ .

مسينا : ٢٣٩ .

مصر : ١٣ ، ٥٩ ، ١١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ .

٢٣٦ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ .

مصدق : — الضامنة : ٢٩ ، ٢٧ ، ٢٤٤ .

٦٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

١٨٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٨ .

٢١٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٨١ .

٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤٠٤ .

٤٥٣ .

مطرفة ، قبيلة : ٣٣ .

مطاطة ، قبيلة : ٣٣ .

معاوية بن حديج الكندي : ٢٣٦ .

المعصم بن صامح : ٥١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ .

٢٣٦ ، ٢٣٩ .

العمد بن عباد : ٢١٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ .

٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٦٧ .

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ .

٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

المعز بن باديس الصنهاجي : ٩٧ ، ١٠٩ .

٤٢٤ .

المعز بن زيري بن عطية الفراوي : ٨٣ .

المعز بن سقوت : ٢١٨ .

٥١ — ٥٣ ، ٥٩ ، ٩٩ ، ١١٦ .

١٢٨ ، ١٣٣ — ١٤١ ، ١٣٥ ، ٢٣٤ .

٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

٢٦٤ — ٢٦٩ ، ٣٠٨ — ٣٠٣ ، ٣١١ .

٣٢٠ ، ٣٢٤ — ٣٢٧ ، ٣٤١ .

٣٤٤ ، ٣٤٧ — ٣٥٤ ، ٣٥٧ .

٣٥٦ ، ٣٦١ — ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ .

٣٧٤ — ٣٧٧ ، ٣٧٩ — ٤٠١ .

٤٠٥ — ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥ — ٤١٧ .

٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ — ٤٢٢ .

٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٢ — ٤٤٥ ، ٤٤٧ .

٤٤٩ — ٤٥٣ .

مراكش : ١٩ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٥٧ ، ١٧٩ .

١٨٠ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٥ .

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٦٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٨ .

٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ .

٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧ .

٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٣ .

مريبطار : ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ .

مرسيليا : ٢٣٩ .

مرسية : ٢٥٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ .

٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ .

٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٤٢٢ .

مروان بن عبد الملك بن ابراهيم بن سحنون

الاولا : ٣٦٧ .

مروان بن عبد الملك بن كيون : ١٠٦ .

مروان بن محمد ، الخليفة : ٢١٢ .

مريم بنت ابراهيم : ٤١٦ .

المرية : ١٠٦ ، ١٠٩ ، ٢٠٢ ، ٢٣٩ ، ٢٥٥ .

٢٧٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ ، ٣١٧ .

٣٥٠ ، ٣٥٣ ، ٣٩٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ .

٤٢٢ ، ٤٢٨ .

مزاته ، قبيلة : ٣٣ .

٦٨ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ،
١٩٦ — ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٢٠ ،
٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٩ ،
٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ —
٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،
٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ،
٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٢٧ ،
٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ .

ملوك الطوائف : ١١٦ ، ٢٤٠ ، ٢٦٤ ،
٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ،
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،
٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ،
٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ،
٣٢٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ،
٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ،
٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٤ ،
٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ،
٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ .

مناد بن منقوش : ٧٩ .

المنارة : ٣١٠ ، ٣١٩ .

المنذر بن هود : ٣١٠ .

المستير : ١٣٤ .

المنصور بن أبي عامر : ٣٤ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٤ ، ٢١٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ،
٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ، ٢٢٠ ،
٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٥٥ .

المنكب : ٣٠٤ .

منورقة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٣٠ ، ٤٠١ .

مهدي بن يوسف اخزانائي : ٣٠٤ .

المهديسة : ١٧٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٩٤ ،
٢٩٥ .

مفراوة ، قبيلة : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٧٧ .

بلاد المغرب : ١٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٩ ،

٤٢ — ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٧ —

٦٨ ، ٧٠ — ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٤ —

٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٢ —

١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٢٨ —

١٣٠ ، ١٣٢ — ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ،

١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ،

١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ، ١٨٧ — ٢٢٠ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ — ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ،

٢٤٠ — ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٧ ،

٢٤٩ — ٢٥٠ ، ٢٥٧ — ٢٥٨ ، ٢٨٣ ،

٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٧ ،

٣٠٨ ، ٣٢١ — ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ،

٣٤٣ — ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،

٣٥٥ ، ٣٥٨ — ٣٦١ ، ٣٦٣ ،

٣٦٥ — ٣٦٦ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

٣٧٣ ، ٣٧٥ — ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ —

٣٨٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ —

٤٠٩ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ —

٤٢٠ ، ٤٢٣ — ٤٣١ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،

٤٤٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ — ٤٥٣ .

مضيلة ، قبيلة : ٣٣ .

المندي بأمر الله ، الخليفة : ٣٢٣ .

مكناس : ٧٠ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،
٢٢٩ .

مكة : ١١٠ ، ٤٣٩ .

المتمون : ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٩ ، ٤١ ،

٤٤ ، ٤٦ — ٤٩ ، ٥٧ — ٥٩ ،

٦٣ ، ٦٥ — ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ،

٥٧ — ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧١ — ٧٤ ،

٧٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٦١ — ٦٦ ، ٦٦ .

هرغة . قبيلة : ١٣٦ ، ١٧٦ .
 هزميره . قبيلة : ١٩٨ .
 هسكوره . قبيلة : ٣٦ ، ٤٠ .
 هشام للؤيد . الخليفة : ٨٢ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ ، ٣٦٦ .
 بنو هلال : ١٨ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٥٨ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٦٦ ، ٢٨٨ ، ٣٢٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٤٠١ ، ٤٢٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ .
 هواره : ٦٧ .
 الهند : ٢٧٦ .

(و)

وادي تنسيفت : ١٩٦ .
 وادي درعة : ٥٥ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢٢٩ .
 وادي ماسة : ١٣٦ .
 وادي ملوية : ٢٠٥ ، ٢١٨ .
 وادي نول : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٢١١ .
 بنو واسول : ٦٨ .
 واشان : ٤٠ .
 واصل بن عبد الله المخمي . أبو السري .
 ١٣٤ .
 واضح الفتى : ٢١٢ .
 وأنور بن أبي بكر : ٣٩٤ .
 وجاج بن زللو اللمضي : ١٠١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٣٦ ، ١٥٦ ، ١٦١ .
 وجدة : ٢٠٥ .
 بنو ورنطقي : ٤٠ ، ٢٤٣ .
 ورفجومه ، قبيلة : ٩١ .
 وريكة : ١٩٨ .
 وشقة : ١٠٩ .
 ومطاط : ٢٠٥ .
 أبو الوليد الباجي : ٢٦٦ ، ٤٣٣ .
 أبو الوليد ابن رشد : ٣٦٨ .

الموحدون : ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٩٩ ، ١١٦ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ .
 موسى بن أبي المافية : ٧٨ ، ٧٩ ، ٢٠٤ .
 موسى بن الحاج : ٣٤٩ .
 موسى بن حماد الصنهاجي : ٤٣٩ .
 مزيب بن نصير : ١٤ ، ٢٠ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ١٩٣ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٤١٨ .
 ميسرة المطفري : ١٤ ، ٦٧ ، ٩١ .
 ميسور الفتى : ٧٨ .
 ميعة : ٣٦ .
 ميمون بن ياسين الصنهاجي اللتوتى : ١٠٦ ، ١٥٨ ، ٤٣٩ .
 ميورقة : ٣١٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٠ ، ٣٩٤ ، ٤٠١ .

(ن)

نبرة : ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٣١٩ .
 النرمان : ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣٢٩ ، ٤٠١ .
 نغدة . قبيلة : ٣٣ .
 نفوسة ، قبيلة : ٣٣ .
 نفيس : ٧ ، ٦٠ ، ١٣٦ ، ١٩٦ .
 نول لمطة : ٦١ ، ٨٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ .
 النيجر نهر : ١٠ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١٤١ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ٣٤٤ ، ٣٣١ .

(هـ)

هارون الرشيد : ٩٤ .
 أبو هارون أهواري : ٧٧ .

وهران : ٢٠٦ . ٣٩٢ .

(ى)

ياجرة : ٣٠٥ .

يحيى بن ابراهيم الجدالى : ١٠٤ ، ١٠٥ .

١٠٧ . ١٠٩ . ١١٣ . ١١٥ . ١١٨ .

١٢٢ . ١٢٣ . ١٢٤ . ١٢٧ . ١٤٥ .

١٤٧ . ١٤٨ . ١٥١ . ١٥٣ .

يحيى بن أبى بكر بن ابراهيم : ٣٤٩ . ٣٥٧ .

يحيى بن اسحق : ٣٤٩ .

يحيى بن بلى : ٤٣٦ .

يحيى بن تاسورة . أبو زكريا القائد : ٣٥٠ .

يحيى بن سير بن أبى بكر : ٣٤٩ .

يحيى بن على بن منصور : ٣٤٩ . ٣٥٠ .

يحيى بن عمر اللتوتى : ١٢٧ . ١٤٠ . ١٤٨ .

١٥٠ . ١٦٤ . ١٦٨ . ٢٢٦ . ٢٣٥ .

٣٤٢ . ٣٤٣ .

يحيى بن عاتية ، أبو زكريا : ٣٤٩ .

يحيى بن محمد بن يوسف ، الأنصارى : ابن

الصيرفى : ٤٣٥ .

اليرموك : ٢٨٤ .

أبو يعقوب بن يمينان بن على : ٣٤٩ . ٣٥٠ .

بنويفرن . ٧٦ . ٧٩ . ١٩٩ . ٢٠٤ . ٢٢١ .

يوسف بن تاشفين : ٢٠ . ٤٠ . ٤٢ . ٥٣ .

٥٩ . ١٨٥ . ٢١٩ . ٢٢٠ . ٢٢١ —

٢٣٢ . ٢٤٢ . ٢٦٣ — ٢٧٩ . ٢٨١ —

٢٩٢ . ٢٩٤ — ٢٩٩ . ٣٠٠ — ٣١٢ .

٣١٤ . ٣١٥ . ٣١٨ — ٣٢٤ . ٣٢٨ .

٣٣٣ — ٣٣٥ . ٣٣٧ — ٣٤٦ . ٣٤٨ .

٣٤٩ . ٣٥١ — ٣٥٧ . ٣٦١ . ٣٦٤ .

٣٦٦ . ٣٧٣ . ٣٧٦ . ٣٧٧ . ٣٧٩ .

٣٨٠ . ٣٨٢ — ٣٩٠ . ٣٩٣ . ٣٩٦ .

٣٩٨ . ٤٠٦ . ٤١٠ . ٤١٤ . ٤٢١ .

٤٢٤ . ٤٢٥ . ٤٢٦ . ٤٤٢ . ٤٤٥ . ٤٤٦ .

٤٤٩ — ٤٥١ .

يوسف بن مسرور العابد ، أبو الفضل :

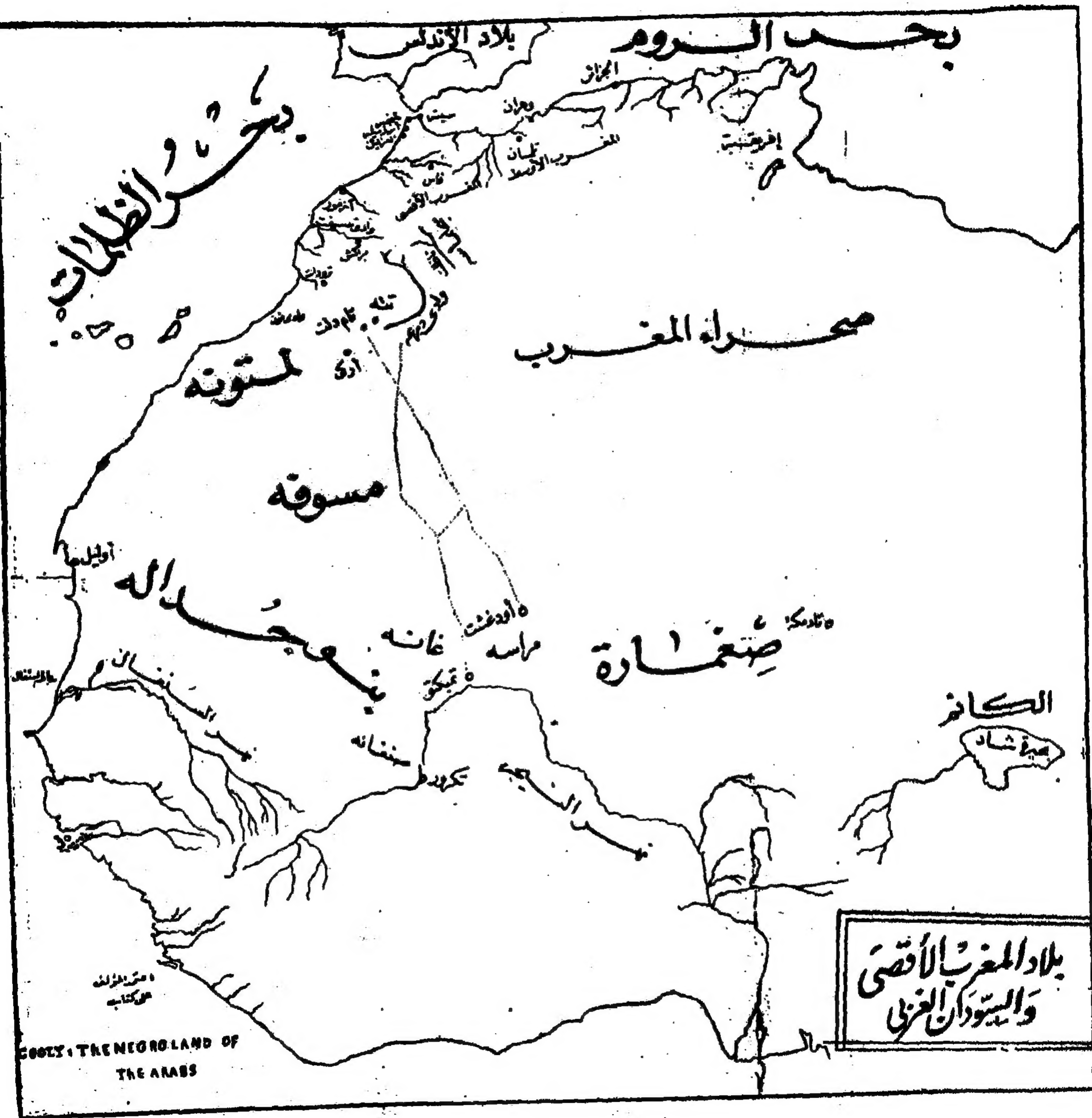
١٣١ .

يوسف بن موسى السكلى : ١٠٦ .

يوسف بن نصر ، أبو الفضل : ١٣١ .

١٣٣ .

يمينان بن على ، أبو عبد الله : ٣٤٩ .



COAST, THE NEGRO LAND OF THE ARABS

تطلب جميع منشوراتنا من
مؤسسة

دار الكتاب الحديث

للطبع والنشر والتوزيع
الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضي
ت : ٤٢٦٧٦٥ ص ٠ ب ٢٢٧٥٤